سلسلة الرسائل الجامعية

(٤)



إعجاز القرآن الكريم

بين الإمام السيوطي والعلماء

دراسة نقدية ومقارنة

محمد بن حسن بن عقيل موسى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

دار الأندلس الخضراء

حي السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة: ٢١٥٤١ - هاتف/فاكس: ٦٨٢٥٢٠٩
المملكة العربية السعودية

أصل هذا الكتاب رسالة علمية بعنوان «معترك الأقران في إعجاز القرآن للإمام السيوطي دراسة نقدية ومقارنة» تقدَّم بها المصنف إلى جامعة أم القرى، لنيل درجة «الدكتوراه» من قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة المحروسة.

وقد نوقشت الرسالة بتاريخ ٣٠/ ١/ ١٤١٧هـ وحازت على درجة ممتاز مع التوصية بالطبع وتبادل الرسالة بين الجامعات، نفع الله بها.

وقد كانت اللجنة المناقشة مؤلفة من:

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور: عبد الستار فتح الله سعيد مشرفاً.

وسعادة الأستاذ الدكتور: عبد الحي حسين الفرماوي مناقشاً خارجياً.

وسعادة الأستاذ الدكتور: عويد بن عياد المطرفي مناقشاً داخلياً.

المقـــدِّمَة

الحمد لله الذي هدانا للإيمـان ، ومـنّ علينـا بديـن الإسـلام ، وجعـل كتابنـا أحسن الكتـب المنزَلـة، كمـا جعـل رسـولنا أعظـم الرسـل المرسـلة ، وأيـده بمعجـزة القرآن ، الباقيةِ على مر الزمان ، لأنهـا تخـاطب الإنسـان في كـل مكـان ، وتحـاور العقـول والقلـوب في كـل آن ، وتتجلـى للأسمـاع والأبصـار علـى تعـاقب الليـالي والأيام .

أحمده سبحانه أبلغ الحمد وأزكاه ، وأشملَـه وأنمـاه ، وأصلـي وأسـلم علـى المبعوث رحمـة للعـالمين ، والمُهـدى دليـلاً للحـائرين ، سـيدنا محمـدٍ خيرِ ولـد آدم أجمعين ، صلاة وسلاما كاملين تامين عطرين يليقـان بسـيد المرسـلين ، وعلـى آلـه الأطهار ، وصحبـه الأبرار ، ومن تبعهم من الأخيار ماتعاقب الليل والنهار .

وبعـد :

فإن كتاب اللـه نور وضياء ، وهدى وشفـاء ، فتح اللـه - تعالى - به أعينـاً عمياً ، وآذاناً صمـاً ، وقلوبـاً غلفـاً ، وهـدى بـه مـن الضلالـة ، وبصّـر بـه مـن الجهالة ، جعله إماماً للمتقـين ، وحجـة علـى الكـافرين والضـالين ، مـن تمسـك بأحكامه فله الحسنى وزيادة ، ومن جعـله وراء ظهره فقـد خسـر الريـادة ، وفقـد السعـادة ، فلينتظر عـاقبة أمره ، وليحذر من غضب اللـه ومكره .

ولما كان القرآن كـذلك فقـد اعتنى به الصحـابة والسلـف ، وتناقلـه النـاس خلفـاً عن سلـــف ، همـة أحدهـم حفـظ حروفه وإقامـة حدوده ، وتفهـم معـانيـه ومعرفــة مراميـه ، وأقبل عليه العـلماء والدارسون ، فاستنبـطوا منـه شتى العلـوم والفنون ، وعظّمه العـابدون الزاهدون فأحيوا به ليلهم والناس نائمون ، وشغلهم بالنهـار والخلـق عنـه غافلـون ، وعلـم قـدرَه المجاهـدون فانطلقـوا بـه يغـــزون

ويفتحون ، كي يعرف الناسُ منه مايعرفه المسلمون ، ويزولَ عنهم الظلم الذي أرهقهم به الظالمون ، والغشاوةُ التي نسجها على أبصارهم الجاهلون .

ولما نظر الله إلى قلوب السلف فوجدها متعلقة بالقرآن ، مملوءةً بالإيمان مكن لهم في الأرض وهزم أعداءهم ، وأورثهم الكافرين : أرضَهم وديارَهم وأموالَهم ، فخضعت لهم الدنيا وانقادت ، وسلمت لهم مقاليدها بأمر ربها فرحاً وازدانت ، فصارت مبادىء القرآن هي السائدةَ في العالمين ، واستُبدل حكم الله - تعالى - بحكم الشياطين ، وسعد المسلمون والناس بذلك أزمانا متطاولة ، ثم وسوس لهم الشيطان فتركوا حكم القرآن ، فمضت فيهم سنة الله التي لاتتبدل ، وصار يتحكم فيهم الأقل الأرذل ، وكان الذي خاف الصالحون أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وإنه لارجعة إلى العز والتمكين إلا بتحكيم هذا الكتاب المبين ، ونبذِ قوانين الكفرة والجاهلين ، عسى الله أن يضيء بنا مرة أخرى العالمين ، ويمكنَ لنا في الأرض ويجعلَنا أئمة ويجعلنا الوارثين ، إنه سبحانه أعظم مأمول وأكرم مسؤول .

وإذا كان القرآنُ العظيم في المحل الأقدس ، والمكانِ الأرفع الأطهر عندنا - معشر المسلمين - لِما وقر في قلوبنا من أنه كلام رب العالمين ؛ فإن الكافرين والمعاندين قد لايتبينون له هذه المنزلة ، جحداً منهم أن يكون كلامَ الله - تعالى - وتنزيلَه الأخير ، السالمُ من التحريف والتغيير ؛ لذا فقد جعل الله - تبارك وتعالى - في القرآن دليلاً على صحته ، وبرهاناً على عظمته ، وذلك بما أودعه ، تعالى ، فيه من صنوف الإعجاز الدالّ على أنه من عنده - سبحانه وتعالى - وأنه لا يُسامى ولا يجارى .

ومع أن الناس في العصور السالفة كانوا أحسن إسلاماً وأعمقَ إيماناً منا - في الجملة - فقد حرص العلماء على بيان الإعجاز القرآني لهم ، وأن هذا

الكتابَ تنزيل من الله العزيز الحكيم ، حتى تمتلىء قلوبهم يقيناً بهذا الكتاب العظيم فيُهدوه إلى العالمين .

ولما كان هذا العصرُ عصرَ إيمان مطلق بالمحسوس ، وإعراضٍ - عند كثير من الناس - عن الغيب ورسالاتِ الرسل كان من الواجب على المسلمين إبرازُ عظمة الإسلام ، وأنه الدين الذي ارتضاه الخالق - سبحانه - لعباده ، وإظهارُ عظمة كتابهم ومافيه من صنوف الإعجاز المبرهن على أنه من عند عليم خبير ، سبحانه وتعالى ، فإذا ظهر للناس أن القرآن معجز وأنه من عند الله قامت عليهم الحجة ، وظهرت لهم المَحَجّة ، فدخل السعداء منهم في دين الله أفواجاً ، واطمأنت نفوسهم لهذا الدين ، ومن هنا تظهر أهمية البحوث الموضوعة لإظهار الإعجاز وبيانِ تفرد هذا الكتاب بالحفظ الإلهي .

وأدلف من هنا إلى بيان **أهمية هذا الموضوع** :

معرفة الإعجاز القرآني ، وإدراك عظمة الكلام الرباني من أهم المعارف وأشرفها ، ومن أجلّ العلوم وأعظمها ، فمن نظر في إعجاز هذا الكتابِ المبين وتضلع من معانيه ظهر له قدرُه ، ووضحت عنده أهميتُه وفضله ، وقديما قيل : شرف العلم يتعلق بشرف المعلوم ، والمعلوم هنا هو كتاب الله - تعالى - وكلامه ، ووحيه وبيانه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي لم يسمع بمثله بشر ، ولايصل إلى عظمة تشريعه مذهب أو قانون .

فإظهار الإعجاز في هذا الكتاب العظيم وبيان العظمة في مبانيه ومعانيه من الأمور الواجبات والمهام المطلوبات في كل زمان ، و في هذا الزمان خاصة ؛ لأمور منها :

أولاً : تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين بهذا الدين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم بهذا الكتاب المبين ، فيحملوه للناس شِرعةً ومنهاجاً ، ودعوةً وبياناً ، فلا تستطيع مناهج الضلال المزخرفة أن تفتنهم عن هذا الحقِ الذي يعلمون جلاله وعظمته ، ولعل هذا هو مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[1] .

فليس كإيضاح الإعجاز للناس مثيلٌ في زيادة يقينهم بالله – تعالى – وبأن هذا الكتابَ لابد أن يكون من عنده ، سبحانه وتعالى ؛ وأشهد أني قد عرفتُ من هذا الكتاب العظيم – في نفسي – بعد دراستي لبعض جوانب إعجازه مثلَ هذا الأثرِ الجليل ، وفهمت لماذا اقشعرت لسماع آياته جلودُ الصحابة ثم لانت ، وبكوا عند سماعه وفاضت عبراتهم وسالت ، وتيقنت قلوبهم من صدقه وعظمته ، فبذلوا من أجله النفس والنفيس ، رضي الله عنهم أجمعين.

فنحن – اليوم – في حاجة إلى إظهار هذا الإعجازِ للمسلمين وبيانِه ، حتى يخضعوا لأحكامه ، وينافحوا عن حدوده ، ويرغبوا فيه كما رغب أسلافهم .

ثانياً : إظهار إعجاز القرآن وبيانُ أنه قطعاً كلام الله – تعالى – سببٌ عظيم من أسباب هداية الكافرين وجذبهم لهذا الدين ، والأمثلة على هذا – في عالمنا اليوم – كثيرة ؛ خاصة في مجالات الإعجاز العلميّ و التشريعيّ[2] .

ثالثاً : إظهار الإعجاز القرآني في جوانبه المختلفة – خاصة الإعجاز العلمي والتشريعيّ والبيانيّ – هدايةٌ وتبصرة لهذا الخَلْف من أبناء جلدتنا المنكود ،

١- سورة التوبة : آية ١٢٤ .

٢- انظر – مثلاً – كتاب ((المعجزة القرآنية : الإعجاز العلمي والغيبيّ)) : للدكتور محمد حسن هيتو : ١٤٥-٢١٩ ، وانظر – أيضاً – ((دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)) لموريس بوكاي .

الذين كانوا ضحية الفكر الوافد الكافر فردوا ماجاء به القرآن من شرائعَ وحدود ، تحت دعاوى زائفةٍ لاحصر لها ، فإذا ظهرت لهم أنوار الحق ، وأدركوا الفرق بينه وبين ظلمات قوانين الغرب والشرق ، رجعوا إلى كتاب الله – تعالى – مذعنين راغبين مصدقين .

هذه بعض جوانب أهمية إظهار إعجاز القرآن الكريم في هذا الزمان .

وقد يقول قائل :
ما أهمية تناول الإعجاز البياني للقرآن الكريم ، ودراسة كتب الأقدمين فيه والحال إن غالب الناس اليوم لايتذوقون اللغة العربية الفصحى ولا يفهمون مراميها وأسرارها ؟

والجواب من ثلاثة جوانب :
أما الجانب الأول فهو أن هذا الموضوع ذو طبيعة تخصصية وعلمية منهجية ، فهو يهم الباحثين بالدرجة الأولى ؛ إذ هم الحريصون على جمع شتات ومتفرقات الموضوع المطروق في أزمنته المختلفة .

وأما الجانب الثاني من الجواب فصحيحٌ أن الناس في زماننا قد ضعفت عندهم ملكة تذوق الفصحى ضعفاً عظيماً ، وأصبحوا لايفهمون أسرارَ بلاغتها ، ولا يدركون جوانب جمالها – إلا القلة القليلة – لكن إذا عرف أبناء العصر أن أسلافهم ، مالكي أَزِمَّة البلاغة والفصاحة ، قد عجزوا أمام هذا القرآن العظيم ولم يستطيعوا معارضته ، وأدرك أهل زماننا العجز التام الذي كان مستولياً على الأوائل حيال ما جاءهم به النبيُّ – صلى الله عليه وسلم – إذا أدركوا ذلك وعرفوه سلّموا بما سلّم به أسلافهم ، وكانوا لِما عجز عنه أوائلهم أعجز ، ولِما ضعفوا عنه أضعف ، فيعظم يقينهم بهذا الكلام الإلهي المجيد فتصفو نفوسهم من الشبهات ، وترقّ أفئدتهم ويعظم إيمانهم وتصديقهم .

ولا ريب أن إظهار الإعجاز التشريعي والعلمي مما يناسب أهلَ زماننا ، وهم أحوج إليهما من غيرهما ، ولكن مقصودي تعريفهم بما عجز عنه أسلافهم وأنهم هم أعجز إزاءه وأضعف ، فيظهر للناس أن هذا الكتاب العظيم معجز في كل عصر وليس في الزمان الماضي فقط .

الجانب الثالث : قد بقيت في الأمة بقية تمسكت بلغتها ، واطّلعت على أسرار بلاغتها ، وعلمت فضلها وأهميتها ، يسرها الاطّلاع على مثل هذه المباحث اللغوية البيانية ، ويُثلجُ صدرَها كلُّ بحث يكشف عن عظمة القرآن وسمو إعجازه ، وهؤلاء ينقلون إلى الناس ما استشعروه من جلال البيان القرآني ، تأليفا وحديثاً ، ومحاضرة وتدريساً ، فيشيع في الناس علمهم ، وينتفعون بآثارهم ، كما رأينا من بعض الدعاة المعاصرين الآن .

هذا وهناك جوانب أخرى في بيان أهمية تناول هذا الموضوع ستأتي في الفقرة التالية : **سبب اختيار الموضوع :**

كان لاختياري هذا الموضوعَ سببان :
أولهما متعلق بي ، والآخر متعلق بالموضوع وبالكتاب الذي أدرسه :

أما الأول : فقد منّ الله - تبارك وتعالى - عليّ بحفظ القرآن ، ودراسة قراءاته العشر ، ومنّ عليّ - سبحانه - بأن يسر لي الالتحاق بقسم الكتاب والسنة في الدراسات العليا لأنهل من معين القرآن العظيم ، ولما كانت رسالتي في (الماجستير) متعلقة بالقرآن العظيم وقراءاته - أحببت أن تكون رسالتي في (الدكتوراه) متصلة بالقرآن الكريم أيضاً ، لأزداد معرفة به وفهما له ، ورجاء أن أفوز بالخيرية التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :
((خيركم من تعلم القرآن و علّمه))[1] .

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده إلى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه : ٢٣٦/٦ .

أما السبب الآخر : فهو متعلق بالموضوع وبالكتاب ، فلأهمية الموضوع – كما بينت سابقاً – ولأهمية الكتاب اخترت هذا البحث ، وتكمن أهمية الكتاب في الآتي :

أولاً : لم يُدْرس هذا الكتاب : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) دراسة علمية تبين منهج الإمام السيوطيّ في طَرْق موضوع الإعجاز ؛ إذ اشتهرت عند أهل العلم مناهج المتقدمين ممن ألف في الإعجاز كالباقِلاّني والرُّماني والجُرْجاني ، وغيرهم ، رحمهم الله تعالى ، لكن لم يتضح – عند الكثيرين – منهجُ المتأخرين في تأليفهم في الإعجاز ، فأردت توضيح ذلك حتى تظهر جهود المتأخرين في دراسة إعجاز كتاب الله تبارك وتعالى .

ثانياً : كتاب ((معترك الأقران)) كتابٌ جامع مبسوط ، أحاط فيه الإمام السيوطيّ – تقريباً – بما وصل إليه علم المسلمين في إعجاز القرآن حتى زمانه ، فصار من المهم دراسة مثل هذا الكتاب الحاوي لمناهج كثير من المتقدمين والمتأخرين .

ثالثاً : الكتاب مملوء بالأحاديث والآثار مما يعطيه أهمية خاصة بين كتب الإعجاز ويثري مباحثه .

رابعاً : دلّل السيوطيّ – رحمه الله تعالى – على إعجاز القرآن بأمور لم تطرق من قبل إلا قليلا ، أو طرقت بإيجاز واقتضاب فتوسع فيها وأبرزها جلية واضحة .

خامساً : أتى السيوطيّ – رحمه الله تعالى – بعدة وجوه للإعجاز اختَلف في عدّها معجزاً عددٌ من العلماء ، وأتى بوجوه ليست من الإعجاز قطعاً ، فلما صنع

ذلك صار من المهم أن تُدرس تلك الأوجه كلها ، ويظهر تعلقها بالإعجاز القرآنـي من عدمه .

لهـذه الأسبابِ مجتمعـةً اخـترت هـذا الموضـوعَ وهـذا الكتـاب للبحـث والدراسة ، راجيا اللـهَ أن أنال به الثوابَ والجزاء الحسـن في الدنيـا والآخـرة بفضلـه ومنّه .

وقد جعلت عنوان بحثي هذا هو :



بين الإمام السيوطي والعلماء

خطة البحث وعملي فيه

وقد قسمت البحث فيه إلى : **مقدمة وأربعة أبواب وخاتمة :**

أما **المقدمة** فتحوي :

١. أهمية الموضوع .

٢. سبب اختياره .

٣. خطة البحث .

٤. عملي في هذا البحث .

و أما **الأبواب** فقد قسمتها إلى فصول تتفرع منها مباحث ومطالب ، وذلك على النحو الآتي :

الباب الأول :

الإعجاز القرآني

وأوجه دراسته عند العلماء قبل الإمام السيوطيّ .

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإعجاز القرآنيّ مفهوماً وتاريخاً

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : معنى مصطلح الإعجاز القرآنيّ .

المبحث الثاني : نشأة علم الإعجاز وتدوينه وجهود العلماء في دراسته .

المبحث الثالث : القول بـ (الصَرْفة) والرد عليه .

الفصل الثاني : طرائق التدوين في الإعجاز القرآني

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التدوين المبثوث في الكتب :

أ. كتب التفسير .

ب. كتب علوم القرآن .

ج. كتب العقائد .

ـ. كتب السيرة الشريفة .

المبحث الثاني : التدوين في الكتب المستقلة بالإعجاز .

أ. ((النكت في إعجاز القرآن)) للشيخ أبي الحسن الرمانيّ .

ب. ((إعجاز القرآن)) للقاضي الباقِلاَني .

ج. ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) لفخر الدين الرازي .

د. ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) للسيد يحيى بن حمزة العلوي .

الباب الثاني :

الإمام السيوطيّ ودراسة كتابه

((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإمام السيوطي : حياته وآثاره

وفيه تمهيد و مباحث :

المبحث الأول : مولده ، واسمه وكنيته ولقبه .

المبحث الثاني : نشأته وطلبه العلم ، ومشايخه وتلاميذه .

المبحث الثالث : آثاره العلمية في الإعجاز .

المبحث الرابع : منزلته العلمية ، وأقوال العلماء فيه ، وتحقيق ذلك .

المبحث الخامس : اعتزاله الفتيا والتدريس ، ووفاته .

الفصل الثاني : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))
ونسبته ، ونسخه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : معنى العنوان وما أثير حوله .

المبحث الثاني : تحقيق نسبة الكتاب إلى الإمام السيوطي .

المبحث الثالث : مخطوطات الكتاب ومطبوعته ، والجهود التي بذلت لخدمته .

الفصل الثالث : محتويات الكتاب ومنزلته العلمية .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : مضمون الكتاب وأبحاثه .

المبحث الثاني : منزلة الكتاب العلمية ، وأثره .

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : منزلة الكتاب العلمية .

المطلب الثاني : أثر الكتاب .

الباب الثالث

منهج المؤلف في كتابه

(دراسة تفصيلية)

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وجوه الإعجاز التي ذكرها : عرض ومناقشة .

الفصل الثاني : منهجه في عرض وجوه الإعجاز .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : منهجه في تصنيف المادة العلمية وتقسيمها .

المبحث الثاني : منهجه في استعمال المصادر والمراجع ، والاستفادة من أقوال العلماء .

المبحث الثالث : منهجه الاستدلاليّ .

المبحث الرابع : منهجه اللغويّ .

المبحث الخامس : منهجه في تأصيل القضايا الشرعية .

وفيه مطالب :

المطلب الأول : منهجه في العقيدة .

المطلب الثاني : منهجه في التفسير .

المطلب الثالث : منهجه في القراءات .

المطلب الرابع : منهجه في بيان الوقف والابتداء .

المطلـب الخـامـس : منهجه الفقهيّ .

المطلب السـادس : منهجه في أصول الفقه .

المبحث السـادس : منهجه في ذكر القصص والمواعظ والرقائق .

المبحث السـابع : منهجه في ذكر القضايا العلمية المادية .

الفصل الثالث : دراسة أهم القضايا العلمية في ((معترك الأقران)) .

القضية الأولى : قضية الرسم العثماني ، وماجاء عنها في كتاب ((المعترك)) .

القضية الثانية : قضية الفاصلة القرآنية .

القضية الثالثة : قضية الذبيح ، أإسماعيل هو أم إسحاق .

الباب الرابع

المقارنة بين كتاب السيوطيّ وكتب غيره

وفيه فصلان :

الفصل الأول : المقارنة بين كتابه وكتب المؤلفين السابقين عليه .

وفيه مباحث :

المبحث الأول : المقارنة من حيث المنهج في التأليف .

المبحث الثاني : المقارنة من حيث وجوه الإعجاز وحِكَمه .

المبحث الثالث : المقارنة من حيث الاستدلال .

المبحث الرابع : المقارنة من حيث المصادر والمراجع .

الفصل الثاني : المقارنة بين كتابه وكتب المؤلفين بعده .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : المؤلفات التي سارت على نمط الكتب السابقة .

المبحث الثاني : المؤلفات التي جاءت بأمور جديدة تناسب العصر .

الخاتمة :

وتحوي خلاصة البحث ، والنتائج التي توصلت إليها ، وبعض المقترحات .

الفهارس :

وقد ختمت الرسالة - بفضل الله تعالى - بجملة من الفهارس الكاشفة مع بيان طريقة ترتيب كل فهرس منها ، وهذه الفهارس هي :

١. فهرس الآيات الكريمة .
٢. فهرس القراءات الشاذة .
٣. فهرس الأحاديث الشريفة .
٤. فهرس الآثار .
٥. فهرس وجوه الإعجاز .
٦. فهرس المصطلحات الأصولية .
٧. فهرس المصطلحات العلمية .
٨. فهرس المصطلحات البلاغية .

٩. فهرس الشواهد الشعرية .

١٠. فهرس القبائل .

١١. فهرس الطوائف والأمم .

١٢. فهرس الفرق والجماعات .

١٣. فهرس الأماكن والبلدان .

١٤. فهرس الأعلام .

١٥. فهرس مصادر ومراجع الإمام السيوطي .

١٦. فهرس مصادر ومراجع البحث .

١٧. فهرس الموضوعات .

عملي في هذا البحث

قد كان عملي في هذا البحث - بفضل الله تعالى - على حسَب الخطة الموضوعة لدراسة كتاب الإمام السيوطيّ : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) دراسةً نقدية شاملة لاستخراج منهجه ومقارنته بأهم مناهج السابقين واللاحقين ، مراعياً الآتي :

١. تحدثت عن الإمام السيوطيّ بإيجاز لكثرة ما كتب فيه ، وتوسعت فيما يتعلق بموضوعي فقط .

٢. وثقت النصوص المنقولة من كتاب ((معترك الأقران)) أو غيره من كتب السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في هذا البحث وبينت مواضعها ، وكذلك وثّقت جميع النصوص المنقولة من أي كتاب قديم أو حديث على قدر الوسع والطاقة .

٣. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها مع ترقيمها ، والتقيد بالرسم العثمانيّ .

٤. خرجت الأحاديث والآثار التي يرد ذكرها في الرسالة وحكمت عليها .

٥. ضبطت الأماكن والأعلام ومايحتاج إلى ضبط من الكلمات .

٦. ضبطت وشرحت الكلمات المبهمة والمشكلة ، وشرحت المصطلحات التي قد تصعب على القارىء .

٧. ترجمت الأعلام الواردة في الرسالة ، ومنهجي فيها هو الآتي :

أ. الترجمة لكل الأعلام عدا المشهورة منها كالخلفاء الراشدين ومن يماثلهم شهرةً ، وربما اكتفيت في بعض التراجم بذكر الاسم كاملاً ومكان وتاريخ الوفاة .

ب. الأعلام التي لم تبلغ المرتبة المذكورة آنفاً في شهرتها فإني أترجم لكل منها بحسَب الحاجة طولاً وقِصَرا.

ج. الترجمة ستكون في أول موضع يرد ذكر العلم فيه في صلب الرسالة ، ثم إني أترك الإشارة إلى أنه قد سبقت ترجمته محيلاً القارىءَ إلى الفهرس .

٨. زودت الرسالة بجملة من الفهارس الوافية المتعددة – كما جاء في الخطة – التي تخدم البحث وتقربه إلى القراء .

هذا وقد واجهت بعض الصعوبات في البحث تتمثل في الآتي :

أ – لم تكن هناك دراسة لمنهج المتأخرين عامة في الإعجاز ، والسيوطي خاصة ، فكان ابتداء مثل هذه الدراسة فيه بعض الصعوبة .

ب – كِبر حجم الرسالة واحتواؤها على علوم متنوعة كان الإعجاز واحداً منها ، كما سيأتي بيانه في صلب الرسالة .

جـ – ضمّ كتاب ((معترك الأقران)) مباحث متنوعة كثيرة في علمي البلاغة وأصول الفقه ، فكان لزاماً عليّ أن أبذل جهداً في دراسة هذين العلمين – خاصة علمَ البلاغة – وذلك لاستيعاب وفهم المباحث المتعلقة بهما الواردة في الكتاب .

د – في الكتاب عدةُ مسائل تحتاج إلى تحقيق وبيان ، وفيه بعض الشبهات المرسلة بغير تفنيد ، وقد تطلب بيان كلٍّ ذلك جهدا كبيراً ، أسأل الله – تعالى – أن يثيب كاتبه وقارئه عليه خير الثواب .

وهناك بعض المصاعب المتعلقة ببعض المباحث الجزئية في الرسالة سيُعرف كيفيةُ تناولها أثناء قراءة البحث .

هذا ولا يسعني إلا شكرُ الله – تعالى – المنعم المتفضل ، ثم شكر المشرف الكريم الأستاذ الدكتور عبدالستار سعيد الذي بذل لي من جهده ووقته ما أرجو أن يكون في صحيفة أعماله يوم يلقى الله – تبارك وتعالى – ولقد نفعني الله بعلمه وخلقه ، ورأيت من صبره وتحمله ، وعلمت من عزمه وفضله ما أسأل الله – تبارك وتعالى – أن يسلكه بذلك كله في سلك العلماء العاملين .

وأشكر كذلك الأستاذين الكريمين الدكتورين المناقشيْن الفاضلين الذين تكبدا مشاقَّ قراءة الرسالة لإرشادي لما حصل فيها من خطأ أوتقصير ، جعل الله ذلك في موازين أعمالهما ، وأجزل لهما الأجر ، وأعظم لهما المثوبة ، آمين .

وأشكر الجامعة العريقة - جامعة أم القرى - على ماتبذله من جهد لخدمة كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، مما يجعلها في مصاف الجامعات الإسلامية الرائدة .

وأشكر - كذلك - قسم الكتاب والسنة على كريم عنايته بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى متابعته طلاَبه بالعناية والإرشاد .

وهذا وقد بذلت غاية جهدي في هذه الرسالة ، فما فيها من خير وصواب فهو من الله تعالى ، ومافيها من خطأ أوتقصير فهو مني ومن الشيطان ، وأستغفر الله منه ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

هذا والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

البَابُ الأَوَّل

الإعجاز القرآني وأوجه دراسته عند العلماء قبل الإمام السيوطيّ

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإعجاز القرآني مفهوماً وتاريخاً .

الفصل الثاني : طرائق التدوين في الإعجاز القرآني .

الفصل الأول : الإعجاز القرآني مفهوما وتاريخاً .

المبحث الأول : معنى مصطلح الإعجاز القرآنيّ

الكلام على التعريف سيكون منصبًّا على الإعجاز والمعجزة وتحقيقِ معناهما لغةً واصطلاحاً ؛ وذلك لأن الموضوع في الإعجاز ، وتحقيقُ معناه ومعنى المعجزة من صلب الموضوع ، وأيضاً قد اختلفت أنظار العلماء في تحديد تعريف جامع مانع للإعجاز والمعجزة اختلافاً بيناً ، فكان من المهم التوسع في الكلام عليهما .

أما الكلام على القرآن العظيم ، وذِكر تعريفه ، وكلامِ العلماء فيه فسيكون موجزاً ؛ لوضوحه وشهرته .

وسأتكلم - إن شاء الله تعالى - على الإعجاز في اللغة والاصطلاح ، ثم أُردفه ببيان المعجزة وتفصيل الكلام على حَدّها ، وبعد ذلك أوجز الكلام على تعريف القرآن الكريم ، ثم أذكر معنى مصطلح (الإعجاز القرآني) .

الإعجاز في اللغة :

جاء في ((معجم مقاييس اللغة)) :

((العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف[1] ، والآخر على مؤخّر الشيء .

فالأول : عَجَز عن الشيء يَعْجِز عجزاً فهو عاجز أي ضعيف ... ويقولون : أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه))[2] .

١- وهو المراد هنا ، أما الأصل الآخر فقد يستعمل أحياناً ، كما سيأتي في السطور القادمة .

٢- ((معجم مقاييس اللغة)) : ع ج ز .

فالإعجاز – على هذا – هو الفَوْت والسبق[1] بالنظر إلى حال المُعْجِز ، وهو الضعف بالنظر إلى حال العاجز .

وقد يُجمع بين أصلَيْ معنى الإعجاز فيقال :

((العجز أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عَجُز الأمر أي مؤَخّرِه ... وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء ، وهو ضد القدرة ، قال :

﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾[2] .

وأعجزتُ فلاناً وعَجَّزته وعاجزته : جعلته عاجزاً ، قال :

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ﴾[3] ، ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[4] ، ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾[5]))[6] .

وقال صاحب ((تاج العروس)) :

((أعجزه : صيّره عاجزاً ، أي عن إدراكه واللحوق به))[7] .

والتعجيز : النسبة إلى العَجْز[8] .

فمعاني العجز في اللغة تدور على الضعف والانقطاع وعدمِ القدرة على تحصيل الشيء .

١- ((لسان العرب)) : ع ج ز .

٢- سورة المائدة : آية ٣١ .

٣- سورة التوبة : آية ٢ .

٤- سورة العنكبوت : آية ٢٢ .

٥- سورة سبأ : آية ٥ .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب الأصبهانيّ : ع ج ز .

وسيأتي – إن شاء الله تعالى – تفصيل استعمال تصاريف فعل (عجز) في كتاب الله – تعالى – وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي بعض الآثار ، انظر ص ٤٣ ومابعدها .

٧- ((تاج العروس)) : ع ج ز .

٨- ((لسان العرب)) : ع ج ز .

((**والإعجاز :** إفعالٌ من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبير))[1] .

المعنى الاصطلاحيّ للإعجاز :

((والإعجاز في الكلام هو أن يؤدى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق))[2] ، فيعجز عن الإتيان بمثله كلُّ من يحاوله ، فيصير هذا الكلامُ معجزاً للناس كلهم .

فهذا الذي سُقته هو معنى الإعجاز مطلقاً سواء الإعجاز الوارد بتصاريفه اللغوية في كلام الله تعالى أو الإعجاز الوارد في كلام البشر ، أما معنى الإعجاز القرآني خاصة فسيأتي قريباً ، إن شاء الله تعالى[3] .

والمناسب الآن إيرادُ معنى المعجزة في اللغة والاصطلاح لقوة تعلقها بموضوع البحث ، وسوف أتناول تعريفها بشيء من التفصيل لاختلاف أنظار العلماء في تحديدها ، وضبط شروطها .

١- ((بصائر ذوي التمييز)) : ٦٥/١ .

٢- ((التعريفات)) : ٤٧ .

٣- انظر ص ٥٣ .

المعجزة في اللغة :

المعجزة : اسم فاعل من الإعجاز ، وهي للأنبياء خاصة[1] ، والهاء فيها للمبالغة ، والجمع معجزات[2] .

((واعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها))[3] .

المعجزة في الاصطلاح :

أما المعنى الاصطلاحي للفظ المعجزة ففيه تفصيل ومناقشة قد تطول لكثرة كلام العلماء عليه واختلافهم فيه ، ولكني سآتي بالتعريف الذي ارتضاه الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – ثم آتي بما تدعو إليه الحاجة من كلام العلماء عليه وضبطهم له .

وإنما صنعت هذا لشهرة التعريف الذي ارتضاه الإمام السيوطيّ ، ولأن هذا البحثَ إنما وضع لدراسة منهج السيوطيّ في الإعجاز ، فكان الإتيان بالتعريف الذي ارتضاه – وإن كان من كتاب له آخر – أولى من غيره .

هذا وإن التعريف الذي ارتضاه جامع مانع – في تقديري – برغم الاعتراضات التي تُورد عليه والتي لاتؤثر في كونه جامعاً مانعاً كما سيأتي ، إن شاء الله تعالى .

١- كما استقر عليه الاصطلاح في القرون المتأخرة ، وسيأتي تفصيل الكلام على هذا ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٤٠ وما بعدها .

٢- ((تاج العروس)) ع ج ز .

٣- ((الشفا)) للقاضي عياض : ١/ ٣٤٩ .

وقد حَدّ الإمام السيوطىّ المعجزة بأنها :

((أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة))[1] .

وقد جرى على هذا التعريف كثير من العلماء[2] .

فأركان التعريف إذاً ثلاثة :

١- خَرْق العادة .

٢- التحدي .

٣- السلامة من المعارضة .

أما الركن الأول – وهو خرق العادة – فالكلام عليه من جوانب :

أحدها : معنى خرق العادة ، فالعادة هي ما اعتاده الناس وأَلِفوه ، وخرْقها معناه نقض هذه العادة ، ومجيء الأمر بخلاف ما اعتاده الناس فيها .

ثانيها : المعجزة إحدى الخوارق الستة :

وباقي الخوارق :

الإرهاص[3] : وهو ما يأتي من الدلائل قبل ظهور النبي .

والكرامة : وهي للأولياء .

١- ((الإتقان)) : ٢/١١٦ ، وسيأتي شرح المراد بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى .

٢- نسبه الشيخ عبد الوهاب الشعرانيّ إلى جمهور الأصوليين ، انظر ((اليواقيت والجواهر)) : ١٥٧ .

واعتمده كذلك الشيخ إبراهيم البَيْجُوري في حاشيته : ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) : ٩١ .

وارتضاه الشيخ القسطلاني في ((المواهب اللدنية)) : ٢/ ٤٩٥ ، وارتضاه غيرهم .

٣- مشتق من رِهْص الجدار وهو أساسه .

والإرهاص : الإثبات . ((لسان العرب)) : (ر هـ ص) ، فكأن الخوارق التي تظهر قبل بعثة النبي مؤسسة وداعمة لنبوته .

والمعونـــة : وهي لتخليص العوام من الشدائد .

والاستدراج : للفاجر ، ويكون على طبق دعواه كما يحصل للدجال[1] .

والإهانـــة : للفاجر أيضاً ، ولكنها على خلاف دعواه[2] .

أما السحر والشعوذة : فالصحيح أن هذا ليس خارقاً لأنه يُعتاد إذا عُرفت أسبابه وطرقه[3] .

وقد تُخلط المعجزة والكرامة فإن ((السلف - كأحمد[4] وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا[5] معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات إذا لم يكن في اللفظ ما يقتضي اختصاصَ الأنبياء بذلك ، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه[6]))[7] .

ولكن الذي استقر عليه الاصطلاح هو أن المعجزة للأنبياء والكرامةَ للأولياء :
قال شيخ الإسلام ابن تيميّة[8] رحمه الله تعالى :

١- أي في ادعائه الألوهية ، وتسخير الله - تعالى - بعضَ مخلوقاته له استدراجاً ، والعياذ بالله .

٢- كما حصل لمسيلِمة لما تفل في بئر فذهب ماؤها ، انظر ((البداية والنهاية)) : ٣٢٧/٤ ، فقد ورد فيها جملة مما جرى له من الإهانة .

٣- انظر ((حجة الله على العالمين)) : ١٢ - ١٣ .
وسيأتي في الصفحة القادمة - إن شاء الله تعالى - بيانُ أنه ليس السحر والشعوذة من الخوارق .

٤- هو إمام أهل السنة والجماعة : أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني . ولد سنة ١٦٤ ، وتوفي سنة ٢٤١ ، ودفن ببغداد . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧٧/١١ - ٣٥٨ .

٥- أي المعجزة و الكرامة .

٦- أي اختصاصه بالأنبياء .

٧- ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) : ٤١٩/٥ .
وانظر الفرق بين المعجزة و الكرامة بالتفصيل في ((اليواقيت و الجواهر)) : ١٦١ .

٨- هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، أحد أئمة المسلمين المجتهدين . توفى سنة ٧٢٨ بدمشق مسجوناً .
انظر ((الدرر الكامنة)) : ١٥٤/١ - ١٧٠ .

((وإن كان اسم المعجزة يعم كلَّ خارق للعادة في اللغة وعرف المتقدمين ، كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ، ويسمونها (الآيات) ، لكنْ كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي ، وجماعهما الأمر الخارق للعادة))[1] .

الجانب الثالث من الكلام على (خرق العادة) هو :

مدى انضباط هذا الوصف على معجزات الأنبياء ؛ بمعنى : هل يكفي أن يقال إن المعجزة هي (أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ...) أم لابد من تقييد الخارق بقولنا مثلاً : أمر خارق للعادة يظهر على يد نبي ، مقرون بالتحدي ... ؟

يرى شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - وجوب ضبط الوصف وتقييده بجريان الخارق على يد نبيٍّ لأن ((الكهانة والسحر هو معتاد للسحرة والكُهّان وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم[2] ، كما أن مايعرفه أهل الطب والنجوم

١- ((مجموع الفتاوي)) : ١١/٣١١ - ٣١٢ .

٢- هناك فروق بين المعجزة وبين عمل السحرة تتلخص في أن المعجزة تبقى هي أو أثرها بعد النبي زماناً ، والسحر سريع الزوال ، والمعجزة يظهرها الله على رؤوس الأشهاد وعظماء البلاد ، والسحر إنما يروج أمره على الصغار وضعفاء العقول وجهلة الناس .

أما الفرق بين المعجزة والكهانة فهو أن المعجزة فعل خارق للعادة يقوم مقام تصديق الله - تعالى - النبيَّ بالقول ، أما الكهانة فهي كلمات تجري على لسان الكاهن ربما توافق وربما تخالف ، وهناك فرق أيضاً في أن النبي لايكون إلا كامل الخَلق أما الكاهن فيكون مختلَّ العقل ناقص الخلق ، مزوراً - غالباً - وأيضاً فإن الكاهن إذا ادعى النبوة بكهانته ربما قابله بدعواها كاهن آخر فلا يوجد فرق بينهما ، أما النبي إذا تحدى بمعجزة وقابله مدع كاذب فإنه لايجوز أن يظهر على يده معجزة مثل معجزة الصادق فالله لايصدق الكاذب .

((اليواقيت والجواهر)) : ١٦١ - ١٦٢ بتصرف .

وقد بين أحد الباحثين - وهو الدكتور مصطفى مسلم - أن ((السحر والأعمال الدقيقة التي يمارسها بعض أهل الرياضات البدنية أو الروحية لا يدخل تحت اسم الخارق لأن لكل من تلك الأمور أساليبَ ووسائل يمكن لأي إنسان أن يتعلمها ويتقنها ويمارسها ، فإذا اتبع الأسباب والأساليب المودية إلى نتائجها أمكن بواسطة الجهد الشخصي والمران والممارسة أن يتوصل إلى تلك النتائج ، أما الأمور الخارقة فلا تدخل تحت طاقة البشر ، وليست لها أسباب تودي إليها)) : ((مباحث في إعجاز القرآن)) : ١٥٠ ، وانظر ((حجة الله على العالمين)) : ١٣ .

والفقـه والنحـو هو معتاد لنظرائهم وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم))[١] .

وقال – أيضاً – رحمه اللـه :

((ليس مجرد كونه خارقاً للعادة كافياً لوجهين :

أحدهما : أن كون الشيء معتاداً وغيرَ معتـاد أمـر نسبيٌّ إضافـيٌّ ، ليـس بوصـف مضبوط تتميز به الآية[٢] ، بل يعتاد هؤلاء ما لم يعتد هؤلاء ...

الثـــاني : أن مجـرد ذلـك مشـترك بـين الأنبيـاء وغـيرهـم ، وإذا خُـصّ ذلـك بعـدم المعارضة فقد يأتي الرجل بمالايقدر الحاضرون على معارضته ويكـون معتـاداً لغـيرهم كالكهانة والسحر ، وقد يأتي بما لايمكن معارضته وليس بآية لشيء لكونه لم يختصّ بالأنبياء ، وقد يقال في طب أبقراط[٣] ونحوِ سيبويه[٤] أنه لانظير لـه ... وإذا خـص اللـه طبيباً أونحويًّا أو فقيهاً بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوتـه وإن كان خارقاً للعادة))[٥] .

ثم إن من اعتراضات شيخ الإسلام ، رحمه اللـه تعالى ، على هـذا الوصـف – أي خرقِ العادة– أنّه ((وصفٌ لم يَصِفْه القرآن والحديث ، ولا السلف))[٦] .

١– ((النبوات)) : ١٩ – ٢٠ .

٢– أي آية النبي وعلامة صدقه ، وهي المعجزة في الاصطلاح الحادث .

٣– هو بُقْراط – ويقـال أبقراط – بن أبراقليس ، من كبـار أطبـاء اليونـان ، وتوفي سنـة ٤٣٦ قبل الميـلاد . لـه كتب عـديدة في الـطب . مـات ولـه خمس وتسـعون سنـة عاش منهـا صبيـاً ومتعلمـاً ١٦ سنـة وعالمـاً ٦٩ سنة . انظر ((نزهة الأرواح وروضة الأفراح)) : ١٩٦ – ٢٠٢ ، و ((الفهرست)) : ٥٧٥ ، ٥٧٧ .

٤– إمام النحو ، حجة العرب ، أبو بشـر عمرو بن عثمـان بن قَنبَر ، الفـارسيّ ثـم البصريّ . طلـب الفقـه والحـديث مدة ، ثم أقبل على العربية فبرع وساد أهل العصر . كان فيه مع فَرْط ذكائه حُبْسةٌ في عبارته وانطلاق في قلمـه . وسمي (سيبويه) – وهي كلمة فارسية – لأن وجنتيـه كانتا كالتفاحتين . عـاش اثنتين وثلاثين سنـة وقيـل أربعين ، ومات سنـة ثمانين ومائـة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٨ / ٣٥١ – ٣٥٢ .

٥– ((النبوات)) : ٢٣ .

٦– المصدر السابق : ١٩ .

وليس الاعتراض لكونه وصفاً حادثاً ؛ إذ جُلّ أوصاف العلوم حادثة ، لكن الاعتراض لعدم انضباط الحادث ، كما انضبط وصف الآية ونحوها .

وقد جعل ابن تيميّة - رحمه الله - التمسكَ بهذا الوصف سببَ ضلال المعتزلة[١] في هذا الباب إذ ((ظنوا أن مجرد كون الفعل خارقاً للعادة هو الآية على صدق الرسول فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي ، والتزموا - طرداً لهذا - إنكار أن يكون للسحر تأثيرٌ خارج عن العادة[٢] مثل أن يموت ويمرض[٣] بلا مباشرة شيء ، وأنكروا الكِهانة ، وأن تكون الجن تخبر ببعض الغيبيّات ، وأنكروا كرامات الأولياء))[٤] .

ثم يصل شيخ الإسلام إلى الوصف الذي يرتضيه في (خارق العادة) فيقول :

((فالذين سموا هذه الآيات خوارق للعادات وعجائبَ ومعجزاتٍ إذا جعلوا ذلك شرطاً فيها وصفة لازمة لها بحيث لاتكون الآيات إلا كذلك فهذا صحيح ... وأمّا إذا جعلوا ذلك **حدّاً لها وضابطاً** فلا بد أن يقيدوا كلامهم مثل أن يقولوا : خوارق للعادات التي تختص الأنبياء[٥] ، أو يقولوا : خوارق عادات الناس كلهم غير الأنبياء ، فإن آياتِهم لابد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم وكلَّ طائفة من الطوائف))[٦]، وهذه الأمم المذكورة يدخل فيها طوائف الجن[٧] .

١- المعتزلة فرقة من فرق الضلال نشأت في أواخر القرن الأول ، ولهم أصول في الاعتقاد يقولون بها منها خلق العباد لأفعالهم ، ومنها نفي رؤية الله في الآخرة ، ومنها نفي الصفات ويسمون ذلك توحيداً ، ومنها ثبوت المنزلة بين المنزلتين لمرتكب الكبيرة وغير ذلك ، انظر في تفصيل أقوالهم : ((لوامع الأنوار البهية)) : ٧٦/١ ومابعدها .

٢- أي خارق للعادة .

٣- أي المسحور..

٤- ((النبوات)) : ١٥٠ .

٥- أي خوارق جارية على يد الأنبياء .

٦- ((النبوات)) : ٣٢٠ .

٧-المصدر السابق : ٣٢٧ .

وخلاصة اعتراض شيخ الإسلام على إطلاق خرق العادة على الآية والمعجزة أنه يجب تقييدها إذا أُطلقت بأنها خرق العادات على يد الأنبياء ، وبأن خرق العادة شرطٌ في كل معجزة ولايصلح أن يكون حَدّاً لها .

ولكني أرى والله أعلم - رداً على الاعتراض الأول - أنه لا منافاة بين ما أراده شيخ الإسلام من تقييد ، وبين ما أطلقه مَن حَدّ المعجزة بأنها (أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة) ، وذلك لأن السائل عن حد معجزة النبي يقال له مثلاً :
معجزة النبي هي أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم من المعارضة .

وإنما وضع العلماء ذلك التعريفَ لبيان معجزات الأنبياء لا خوارق غيرهم ؛ فذِكر النبي في حد المعجزة لابد منه حقيقة أو حكماً ، والله أعلم .

أما اعتراضه الآخر على مَن حد المعجزة بأنها خرق عادة فقط فإني لم أجد مَن حَدّ المعجزة بأنها خرق عادة فقط إلا مانسبه شيخ الإسلام إلى المعتزلة[1] ، لكن غالب مَن حَدّ المعجزة أضاف إلى خرق العادة كونَها مقرونةً بالتحدي سالمة من المعارضة وتكون على يد نبي أو رسول ، وبهذا يندفع الاعتراض على ركن خَرق العادة مِن حد المعجزة المذكور في هذا البحث ، والله أعلم .

الركن الثاني من أركان تعريف المعجزة : التحدي :

أي أن يتحدى الرسول الناسَ أن يأتوا بمثل ما أتى به من آيات .
وفي هذا القيدِ كلامٌ طويل ألخصه فيما يأتي :

١- المصدر السابق : ٢٨٢ .

أولاً : اشتراط التحدي ليس عليه دليل .[1]

ثانياً : أكثر معجزات رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كانت بلا تحد ، بل لعله – صلى الله عليه وسلم – لم يتحدّ بغير القرآن ، إذ لم ينقل عنه أنه تحدى بغيره[2] .

ثالثاً : قد سمى الله طلبَ الكفار من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معجزةً تدل على صدقه آيةً[3] ولم يشترط – سبحانه – تحدياً ، فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[5] .[6]

رابعاً : مما يلزم القائلين بشرط التحدي ((أنّ ما كان يظهر على يد النبي – صلى الله عليه وسلم – في كل وقت من الأوقات ليست دليلاً على نبوته ؛ لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به وتحدى الناس بالإتيان بمثله ، بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصة[7] ، ولانقل التحدي عن غيره من الأنبياء مثل موسى والمسيح وصالح ، ولكن السحرة لما عارضوا موسى أبطل معارضتهم))[8] .

١- ((المواهب اللدنية)) : ٢/٤٩٧ .

٢- ((النبوات)) : ١٧٨ ، و ((المواهب اللدنية)) : ٢/٤٩٨ .

٣- أي سمّاها الله تعالى آية .

٤- سورة الإسراء : آية ٥٩ .

٥- سورة الأنعام : آية ١٠٩ .

٦- ((المواهب اللدنية)) : ٢/٤٩٨ .

٧- وذلك لأن الله تحداهم بالقرآن في قوله تعالى : ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ البقرة : ٢٣ ، وفيما سبق نزولها من آيات التحدي ، ويقرر شيخ الإسلام أن القرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه ، ولم يتحدّهم به ابتداءً ، انظر ((النبوات)) : ٢٩٣ .

٨- ((النبوات)) : ١٧٧ – ١٧٨ .

هذه خلاصة الأقوال في رد اشتراط التحدي في المعجزة .

لكن قد بين علماء آخرون أن المراد من التحدي أمر آخر غير المتبادر إلى الذهن وهو طلب المعارضة ، فقد قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني[1] ، رحمه الله تعالى :

((المراد بالتحدي هو الدعوى للرسالة[2] ، وفيما قلنا تنبيه على أنه ليس الشرط الاقتران بالتحدي بمعنى طلب الإتيان بالمثل الذي هو المعنى الحقيقي للتحدي وإنما المراد أنه يكفي دعواه الرسالةَ ، فكل من قيل له : إن كنت رسولاً فأتنا بمعجزة فأظهرِ الله – تعالى – على يديه معجزاً كان ذلك دليلاً على صدقه نازلاً بمنزلة التصريح بالتحدي))[3] .

وكذلك بيّن الشيخ إبراهيم البيجوريّ[4] – رحمه الله تعالى – أن التحدي هو مجرد دعوى الرسالة أو النبوة [5] .

ويقارب هذا ما قاله إمام الحرمين[6] رحمه الله تعالى :

١- هو الشيخ عبد الوهاب بن أحمد الشعراويّ والشعراني الشافعيّ ، محدث ، فقيه ، أصولي . من كبار متصوفة عصره . من كلامه : دوروا مع الشرع حيث دار لامع الكشف فإنه قد يخطىء . توفى سنة ٩٧٣ في القاهرة بعد أن عُمِّر . انظر ((شذرات الذهب)) : ٨/ ٣٧٢ – ٣٧٤ .

٢- ذكر ذلك ابن تيمية لكنه – فيما يبدو من سياق الكلام – لم يرتضه ، انظر ((الجواب الصحيح)) : ٤٢٣/٥ .

٣- ((اليواقيت والجواهر)) : ١٥٧ .

٤- هو الشيخ إبراهيم بن محمد البيجوريّ . ولد سنة ١١٩٨ بـ (بيجور) قريةٍ من قرى مصر . نشأ في حجر والده وقرأ عليه القرآن ، ثم قدم إلى الأزهر لأجل تحصيل العلوم سنة ١٢١٢ ، واشتغل واجتهد حتى صار عمدة في العلوم . وله تآليف عديدةَ . تولى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٦٣ . توفي في القاهرة سنة ١٢٧٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((حلية البشر)) : ١/٧-١١ .

٥- ((تحفة المريد)) : ٩١ .

٦- هو الشيخ الإمام أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد الله بن يوسف الجُوينيّ ثم النيسابوريّ ضياء الدين الشافعيّ ، صاحب التصانيف . ولد سنة ٤١٩ . تفقه وشاع ذكره ، ودرس بالمدرسة النظاميّة بنيسابور . وتفقه به أئمة . رجح آخر عمره مذهب السلف في الصفات وأقره . توفي سنة ٤٧٨ بنيسابور . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨/ ٤٦٨ – ٤٧٧ .

((ثم يكفي في التحدي أن يقول : آية صدقي أن يحي الله هذا الميتَ ، وليس من شرط المتحدي أن يقول : هذه آيتي ولا يأتي أحد بمثلها ، فإن الغرض من التحدي ربط الدعوى بالمعجزة وذلك يحصل دون أن يقول : ولا يأتي أحد بمثلها))[1] .

وقوله ((ثم يكفي في التحدي أن يقول : آية صدقي أن يحيي الله هذا الميت)) لايشترط فيه قوله بلسان المقال بل يكفي لسان الحال ؛ إذ أن معظم معجزات الأنبياء لم ينقل عنهم أنهم صرحوا فيها بمثل هذا ، والذي انقدح في أذهان مشاهديها هو أن ذلك آيةٌ على صدق الأنبياء والرسل .

ويمكن تقسيم مايظهر على يد أي نبي من الخوارق المعجزة إلى نوعين :

الأول : مايراد به إثبات الرسالة ، وشرطه التحدي الصريح أو على الوجه الذي ذكرته ، أو التصريحُ بأن هذا الخارقَ المعجز هو دليل الرسالة ؛ كالقرآن العظيم وبعض معجزات الأنبياء للأول ، وهو التحدي ، والثاني كقول نبي الله صالح - عليه الصلاة والسلام :
﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[2] .

النوع الآخر : أن يظهر الخارق على يديه بلا اقتران بدعوى الرسالة ، وهذا لايشترط فيه التحدي ، بل قد لايعلمه الكفار أصلاً فيقع بين المؤمنين فقط كنبع الماء من بين أصابع النبي - صلى الله عليه وسلم - الشريفة ، وغيره .

ويندفع بهذا التقسيمِ الاعتراضُ على اشتراط التحدي في المعجزة ، أما التوجيه السابق للتحدي فإنه على اعتبار أن كل ماجاء به الأنبياء متحدىً به ، والله أعلم .

١- ((الإرشاد)) : ٢٦٥ .

٢- سورة الأعراف : آية ٧٣ .

وبهذا يستقيم – إن شاء الله – قيد التحدي في المعجزة ولا ينخرم باعتراض مَن ذكرتهم ، والله أعلم .

الركن الثالث من أركان تعريف المعجزة : عدم المعارضة :

هي ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة[1] . أو الايظهر بين المرسل إليهم ذلك الخارقُ[2] المعجز على يد غير نبيّ .

ولشيخ الإسلام ابن تيميّة رأيٌ في مسألة المعارضة هذه إذ يصفها بعدم الانضباط ؛ وذلك لأن السحرة والكهان أتوْا بأمور لم تعارَض[3] .

((والعَنْسيّ[4] ومُسَيْلمة[5] لم يعارَضا في مكانهم ووقت إغوائهم[6] ، وإن قال[7] : لايعارَض ألبتة فمن أين يُعلم هذا العدم ؟))[8] .

ولكن ظهر لي – والله أعلم – أنه ليس هناك تناقضٌ بين ما قرره الجمهور وهو اشتراط عدم المعارضة في المعجزة وبين كلام شيخ الإسلام ؛ وذلك لأنه يقرر

١- ((حجة الله على العالمين)) : ١١ .

٢- ((اليواقيت و الجواهر)) : ١٥٧ .

٣- انظر في الفرق بين المعجزة وعمل السحرة والكهان صفحة ٣١ .

٤- عَبْهلة بن كعب بن غوث ، ظهرت دعوته في اليمن سنةَ عشر من الهجرة آخرَ حياة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتنبأ ، وجرت له معارك صفا له بعدها اليمن بتمامه ، وارتد خلق من أهل اليمن ، ثم قتل بعد أربعة أشهر من خروجه تقريباً وذلك في ربيع الأول سنة ١١ هـ .

انظر ((البداية والنهاية)) : ٦ / ٣٠٧ – ٣١١ ، ٣٤٠ .

٥- مسيلِمة بن حبيب اليماميّ ، وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه بني حنيفة ، ثم تنبّأ وكان له شأن في أيام الردة حتى قتله المسلمون بعد حروب عظيمة . وكان يدعي أنه يُوحى إليه ، وما أتى به كلام في غاية السخف . انظر ((البداية والنهاية)) : ٦/٣٢٣ – ٣٢٧ ، ٣٤١ – ٣٤٢ .

٦- كذا في الأصل ، والصحيح : في مكانهما ووقت إغوائهما .

٧- أي المشترط للمعارضة .

٨- ((النبوات)) : ٢٨٣ .

أن عـدم المعارضـة مـن جملـة صفـات المعجـزة لا أن هـذا وحـده كـاف فيهـا[1] ، وهـذا ما يقـرره الجمهور أيضـاً .

وبهذا يظهر أنه لاخـلاف حقيقيّ في اشتراط عـدم المعارضـة للمعجـز ، واللـه أعلم .

ومما سبق كله يظهر أن تعريف المعجزة الذي ساقه السيوطيّ جامع مانع ، إن شاء اللـه تعالى .

شروط المعجزة :

قد اعتبر كثير من المحققين عدة شروط في المعجزة ، منها :

١- أن تكون خارقةً للعادة .

٢- أن تكون على يد الجـائي بـالنبوة أو الرسـالة ، فخـرج بذلـك الكرامـة والمعونـة والاستدراج والإهانة[2] .

٣- أن تكون مقرونة بدعوى النبوة أو الرسالة حقيقة أو حكماً بـأن تـأخرت بزمـن يسير ، وخرج بذلك الإرهاص ؛ وهو ماكان قبل الرسالة والنبوة تأسيساً لها .

٤- موافقتها للدعوى ، وخرج بذلـك كمـا إذا قـال : آيـة صدقـي انفـلاق البحـر فانفلق الجبل .

٥- ألا تكون مكذبة لمدعيها كما إذا قال : آية صدقي نطقُ هذا الجمـاد فنطـق بأنـه مفتر كذاب .

١- أي على سبيل الحدّ والتعريف ، وانظر المصدر السابق .

٢- سبق بيان ضوابط هذه المصطلحات الأربعة ، انظر ص ٢٩ ، ٣٠ .

٦- عدم المعارضة .

٧- ألاّ تكون زمن نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها[1] .

إطلاق المعجزة على آيات الأنبياء :

كان السلف من صحابة وتابعين ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة يسمون ما جاءت به الأنبياء دلالةً على صدقهم : آياتٍ وبراهين ودلائل ، وذلك اقتفاء لطريقة القرآن في تسميتها كذلك ، ثم نشأ مصطلح المعجزة وفشا استعماله بين الناس[2] .

فهل هذا المصطلح : (المعجزة) كاف للدلالة على آيات الأنبياء ؟

يرى عدد من الأئمة أنه غير كاف والأولى استعمال المصطلحات القرآنية كالآية والبرهان[3] ، وذلك للأسباب التالية :

أولاً : لأن الله – تعالى – سمّاها كذلك فلمَ نتجاوز التسمية الإلهية لها وهي خير وبركة ؟

ثانياً : الآية والبرهان وما يماثلهما من التسمية القرآنية مطابق لمسماه مطّرد لا ينتقض[4] ، والآية مستلزمة لصدق النبي فلا يُتصور أن توجد مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله[5] بخلاف مدعي المعجزة كذباً فإن ما يأتي به شاهد على كذبه .

١- ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) : ٩١ بتصرف .

٢- سيأتي في المبحث القادم – إن شاء الله تعالى – بيان ذلك بالتفصيل ، انظر ص ٦٩ وما بعدها .

٣- سيأتي – إن شاء الله تعالى – بيان الألفاظ القرآنية الدالّة على معنى الإعجاز بالتفصيل ، انظر ص ٤٧ .

٤- ((النبوات)) : ٢٨٩ .

٥- المصدر السابق : ٢٨٧ .

ثالثاً : ((المعجزة لاتستلزم ثبوت النبوة إلا بشرط ،أما الآيات فهي شهادة بالنبوة وتصديق للمخبر ، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها ، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى إليه كما أوحى إلى غيره من الأنبياء ، وتستلزم أيضاً صدق الإخبار بأنه نبيّ ، فهو إذاقال : إني نبي ، كان صادقاً ، وكذلك كل من أخبر بنبوته فإنه يكون صادقاً))[1] .

((ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آياتٍ وبراهين ، فإن ذلك اسم يدل على مقصودها ، ويختص بها لايقع على غيرها لم يسمها معجزة ولا خرق عادة وإن كان ذلك من بعض صفاتها ، فهي لاتكون آية وبرهاناً حتى تكون قد خرقت العادة وعَجَزَ الناسُ عن الإتيان بمثلها ، لكن هذا بعض صفاتها وشرط فيها ، وهو من لوازمها ، لكن شرط الشيء ولازمه قد يكون أعمَّ منه ، وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة وخرق العادة هو الحدّ المطابق لها طرداً وعكساً))[2] .

رابعاً : المعجزة قد تطلق على غير آيات الأنبياء :

كان كثير من أهل الكلام لايسمي الخارق معجزةً إلا ماكان للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فقط ، ومن أثبت للأولياء خوارق عادات - وهم الجمهور - سماها كرامات ، والسلف كانوا يسمون ما وقع للأنبياء وما وقع للأولياء من خوارق معجزةً كالإمام أحمد وغيره ، بخلاف ما كان آية وبرهاناً على نبوة النبي فإن هذا يجب اختصاصه به[3] .

١- ((النبوات)) : ٢٩٩ .

٢- المصدر السابق : ٣١٠ - ٣١١ .

وقد سبق الكلام على رأي شيخ الإسلام في كون المعجزة خرقاً للعادة والاكتفاء في حدها بذلك ، انظر ص ٢٩ وما بعدها .

٣- شرح الزرقاني على المواهب : ٥/٨١ ، وكأن القسطلاني نقله عن ((الجواب الصحيح)) : ٥/٤١٩ لشدة تقارب ألفاظ الكتابين ، والله أعلم .

وقد حاول بعض المتكلمين - فيما نقله عنهم الفاسي[1] في شرح ((الدلائل)) - أن يوفقوا بين مصطلحي الآية والمعجزة في تعريف ما جاءت به الرسل من خوارق فقالوا :

((إن ما يظهر على يديه[2] من ذلك مما لا يُتحدى به يسمى آية فقط ودليلاً ، لكن مجموع الآيات في حق الأنبياء معجزة لانضمامه للمعجزة وكثرته))[3] .

لكن الله - تعالى - سمى كل ذلك آيات فبطل ما حاولوه من توفيق ، والله أعلم .

١- هو الشيخ محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي الفهري ، أبو عيسى . مؤرخ محدّث . ولد بفاس سنة ١٠٣٣ . كان لا يأكل إلا من عمل يده بالنسخ ، و لا ينسخ لمن في ماله شبهة . له عدة مصنفات . توفى بفاس سنة ١١٠٩ . انظر ((الأعلام)) : ١١٢/٧ - ١١٣ .

والشرح المذكور هو ((مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات)) ، وهو مطبوع كما في ((الأعلام)) : ١١٣/٧ .

٢- أي الرسول .

٣- ((حجة الله على العالمين)) : ١٢ .

ورود ألفاظ الإعجاز والمعجزة وتصاريفهما في كتاب اللـه تعالى ، وفي الأحاديث والآثار :

أما مصطلحا : (الإعجاز) و (المعجزة) فلم يأتيا بلفظهما هذا في كتاب اللـه – تعالى – ولا في أحاديث سيد المرسلين – صلى اللـه عليه وسلم – بهذا المعنى لهذا القصد ، وإنما وردا لمعانٍ أخرَ قريبةٍ من المعنى المقصود في هذا البحث .

فمما جاء في كتاب اللـه – تعالى – من تصاريف لمادة (ع ج ز)[١] :

١. ﴿عَجَزْتُ﴾ من قوله تعالى :

﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾[٢] ومعنى ﴿أَعَجَزْتُ﴾ – هنا – : أضعُف إدراكي وعقلي ، وجهلتُ ، وهو استفهام إنكاري[٣] .

٢. ﴿نُعْجِزَ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[٤]

ومعنى ﴿نُعْجِزَ﴾ – هنا – نفوت ونغلب ، أي ((نعلم أن قدرة اللـه حاكمة علينا ، وأنا لانعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا))[٥] .

٣. ﴿يُعجِزُ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾[٦] ، وهو مضارع أَعْجَزَ .

١– انظر تفصيل ذلك في ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) : ع ج ز .

٢– سورة المائدة : آية ٣١ .

٣– انظر ((البحر المحيط)) : ٤٦٦/٣ .

٤– سورة الجن : آية ١٢ .

٥– ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢٦٩/٨ . وانظر ((روح المعاني)) ١١٠/١٠ .

٦– سورة فاطر : آية ٤٤ .

٤. ﴿يُعۡجِزُونَ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾[١] والمعنى – هنا وفيما قبله – مأخوذ من أعجز : أي غلب وفات ، أي لايفوت اللهَ شيءٌ ولا يغلبه شيءٌ ، سبحانه وتعالى[٢] .

٥. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾[٣]

ومعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ – هنا – ((ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا لأنهم حسبوا ألا بعثَ ولا نشور فيكون ثوابٌ وعقاب))[٤] .

٦. ﴿مُعۡجِزٖ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٥] ، ومعجز اسم فاعل من أعجز .

٧. ﴿مُعۡجِزِينَ﴾ من قوله تعالى :

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[٦] .

ومعناه – هنا ((فائتين : أعجزني الشيء فاتني ، أي لايفوتنا عما أردنا بكم))[٧] .

أما استعمال فعل (عجز) وتصاريفه في الأحاديث والآثار فكثير ، وأكتفي بطائفة منها :

١- سورة الأنفال : آية ٥٩ .

٢- ((البحر المحيط)) : ٥١٠/٤ .

٣- سورة الحج : آية ٥١ .

٤- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : ٣٣٤ ، وهناك أقوال في معنى ﴿ مُعَٰجِزِينَ ﴾انظرها في ((تاج العروس)) : ع ج ز .

٥- سورة الأحقاف : آية ٣٢ .

٦- سورة الأنعام :آية ١٣٤ .

٧- ((البحر المحيط)) : ٢٢٦/٤ .

١. (عَجَز) ، قال صلى الله عليه وسلم :

((التمسوها[1] في العشر الأواخر ، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يُغلبن على السبع البواقي[2])) .

ومعنى (عَجَز) – هنا – تأخر عن تحريها والتماسها ، إذ أن من معاني العجز التأخر عن الشيء[3] .

ويمكن أن يرادف العجز هنا الضعف ، وهو ضد القدرة ، فيكون اجتماعهما في الحديث من باب التفنن والتنوع في الألفاظ ، وذلك لأني لم أجد – بعد البحث – من ذكر بأن (أو) هنا للشك من الرواة ، والله أعلم .

٢. (عَجْز) ، من قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – :

((كل شيء بقَدَر حتى العَجْز و الكَيْس))[4] .

و العجز – هنا – معناه الضعف والانقطاع وعدم القدرة على التصرف في الأمور النازلة[5] .

٣. (عَجَّز) ، من قول عمر – رضي الله عنه :

((أرأيت أنه لو رعى الجَدْبَةَ وترك الخَصْبَةَ أكنت مُعَجِّزَه ؟ قال : نعم))[6]

١- أي اطلبوا ليلة القدر .

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصيام : باب فضل ليلة القدر ، والحث على طلبها ، وبيان محلها ، وأرجى أوقات طلبها : ٨/٢٤٠ .

٣- انظر ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ع ج ز) ، و ((تاج العروس)) : ع ج ز .

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب القدر : باب : كل شيء بقدر : ١٦/٢٠٤ .

وقال الإمام النوويّ ، رحمه الله تعالى :

((والكَيْس ضد العجز ، وهو النشاط و الحَذْق بالأمور ، ومعناه أن العاجز قد قُدر عجزه ، والكَيِّس قد قُدر كَيْسُه)) : ((شرح صحيح مسلم)) : ١٦/٢٠٥ .

٥- أخذت هذا المعنى من سياق الحديث ، ومن شرح النووي له الوارد في الهامش السابق .

٦- أخرجه الإمام مسلم في كتاب السلام : باب الطاعون والطِيَرة و الكِهانة ونحوها : ١٥/٢١١ .

وهذا مثل ضربه عمر لأبي عبيدة – رضي الله عنهما – حين عاب على عمرَ قراره بعدم دخول الجيش إلى الشام ، وكان على مقربة منها ، حين بلغه أن بها الطاعون ، وانظر القصة والمثل في شرح صحيح مسلم : ١٤/٢٠٨-٢١١.

و (مُعجِّز) اسم فاعل من (عَجَّز) ومعناها - هنا - ناسبه إلى العجز والقصور ، والعجز المقصود هنا نقيض الحزم[1] .

٤. (أعجز) ومنه : ((فطلبوها فأعجزتهم))[2]

أي لم يقدروا عليها ، وأعجزه الشيء فاته وسبقه ، وأعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه.

هذه بعض الألفاظ الواردة في الكتاب والأحاديث والآثار لمادة (ع ج ز) ، وظهر بهذا أن كلمتي : (الإعجاز) و (المعجزة) لم تستعملا للدلالة على إعجاز كتاب الله - تعالى - في العصور الأولى ، وإنما استعمل فعل (ع ج ز) وتصاريفه لدلالة قريبة من موضوع البحث .

١- انظر ((تاج العروس)) : ع ج ز . وشرح صحيح مسلم للإمام النوويّ : ٢١١/١٥ .

٢- أخرجه الإمام مسلم في كتاب النذر : ١٠١/١١ .

وللحديث قصة في المرأة المسلمة التي أسرها المشركون ففرت منهم على العضباء - ناقةِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم - وانظر قصتها في شرح الإمام النووي صحيحَ مسلم : ١١/ ٩٩ - ١٠١ .

ألفاظ دالة على معنى الإعجاز والمعجزة في كتاب الله تعالى :

كان الصدر الأول من السلف يستخدمون الألفاظ القرآنية الدالةَ على معنى الإعجاز والمعجزة ، وقد جاءت هذه الألفاظ في كتاب الله - تبارك وتعالى - متنوعةً في أسمائها قريبةً في معانيها الدالة على معنى الإعجاز والمعجزة ؛ وهذه الألفاظ هي :

آية ، وسلطان ، وبرهان ، وبصيرة ، وبينة .

وهي كلها دالة على معنى (المعجزة) ، وإن كانت تفضلها كما بينت قبل هذا [١] .

وسأبين هنا معنى كل لفظ بإيجاز :

١- أما (الآية) فهي في اللغة : العلامة[٢] .

ومعناها في الاصطلاح : العلامة الدالة على عظيم قدرة الله تعالى وصدقِ المرسَل فيما ادعاه[٣] .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[٤] .

أي معجزة أو علامة على قدرة الله[٥] .

وقال تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴾[٦] أي : معجزة[٧] .

١- انظر ص ٤٠ وما بعدها .

٢- ((معجم مقاييس اللغة)) : أ يَ يَ .

٣- انظر في معناها ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٣ .

٤- سورة المؤمنون : آية ٥٠ .

٥- ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٤ .

٦- سورة طه : آية ٢٢ .

٧- ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٧٤ .

٢- (والسلطان) : الحجة[١] .

قال - تعالى - قاصّاً كلام الكافرين :

﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾[٢] :

((أيْ خارقٍ نقترحه عليكم))[٣] ، والخارق هو الخارق للعادة ، فالسلطان هنا قريب من معنى المعجزة .

ثم قال تعالى قاصاً كلامَ الرسل :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤] .

ففي الآية الأولى طالب الكفار رسلهم بسلطان - أي بحجة وآية تدل على صدقهم - فلم ينف الرسل أنهم مرسلون لكنهم بينوا أن السلطان إنما يأتي به الله ، تعالى ، إن شاء بإذنه ، وليس لهم يدٌ في هذا .

٣- (البرهان) :

وهو بمعنى (السلطان) وهو الحجة والبينة[٥] ، وقيل هو ((بيان للحجة ... فالبرهان أوكد الأدلة ، وهو الذي يقتضي الصدق أبداً لامحالة))[٦] .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[٧] .

والبرهان هنا : ((الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبهة))[٨] .

١- ((معجم مقاييس اللغة)) : سلط .

٢- سورة إبراهيم : آية ١٠ .

٣- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٤/٤٠٢ .

٤- سورة إبراهيم : آية ١١ .

٥- المصدر السابق : ٢٢٢/١ ، وانظر ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : ١ / ٩٦ .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ب ر هـ) .

٧- سورة النساء : آية ١٧٤ .

٨- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢ / ٤٣٤ .

و ((الجمهور على أن البرهان هو محمد - صلى الله عليه وسلم - وسماه برهاناً لأن منه البرهانَ وهو المعجزة))[1] .

٤- (البصيرة) :

ومعناها قريب من (البرهان) وأصله وضوح الشيء ، ويقال : بَصُرت بالشـيء إذا صرتُ به بصيراً عالماً[2] .

قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ﴾[3] :

أي ((دالةً على وحدانية مَن خَلَقَها وصدقِ الرسول الذي أجيب دعاؤه فيها))[4] .

وقال تعالى :

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ :

والبصائر : الحجج البينات الظاهرات[5] .

٥- (البينة) :

وهي ((الدلالة الواضحة عقليةً كانت أو محسوسة))[6] .

قال تعالى قاصّاً خبرَ رسوله صالحٍ - عليه الصلاة والسلام -:

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾[7] :

أي ((جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به))[8] .

١- ((البحر المحيط)) : ٣ / ٤٠٥ .

٢- ((معجم مقاييس اللغة)) : (ب ص ر) بتصرف .

٣- سورة الإسراء : آية ٥٩ .

٤- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٥ / ٨٩ .

٥- ((البحر المحيط)) : ٤ / ١٩٦ . والآية من سورة الأنعام : ١٠٤ .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : (ب ي ن) .

٧- سورة الأعراف : آية ٧٣ .

٨- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٣ / ٤٣٦ .

هذه هي الألفاظ القرآنية التي أوردتها مقاربةً لمصطلح (المعجزة) من حيث المعنى والقصد ، وهي التي درج السلف على استعمالها قبل ظهور مصطلح (المعجزة) .

ظهور مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة)

لما لم يأت في مصادر الحديث والسيرة لفظُ (الإعجاز) و (المعجزة) – فيما بحثت فيه ووقفت عليه – فإنه يصلح أن يوصف حال الكافرين إزاء القرآن العظيم بـ (الانقطاع) وهو الذي عُبّر عنه بعد ذلك بـ (العجز) وعُبر عن مسببه بـ (المعجزة) .

فإذا كان الأمر كذلك فمتى ظهر مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) ؟

ظهر مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) في القرن الثالث الهجري ، على ما علمتُه ، وشاع استعمال هذين المصطلحين بعد ذلك ليؤديا معنى الكلمات القرآنية – التي بينتها سابقاً [1] – مع أنها أدق وأبلغ .

وسيأتي – إن شاء الله تعالى – بالتفصيل وقت بدء استعمال هذين المصطلحين وشيوعهما عند العلماء بعد الصدر الأول ، وذلك في الصفحات القادمة .

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز وعلى المعجزة وشروطها وتسميتها ، وقد أطنبت في الكلام عليهما لأهمية مباحثهما ولعظيم تعلقهما بالإعجاز القرآنيّ موضوعِ البحث ، ولئن طال هذا المبحث قليلاً فقد حوى كثيراً مما تفرق في بطون الكتب مما رأيت أهمية جمعه وإثباته هاهنا ، والله الموفق .

١- انظر ص ٤٧ وما بعدها .

تعريف القرآن الكريم :

أما القرآن ، فيقال : (قرآن) ، و (قُرَان) بغير همز من باب التخفيف[1] ، وهو ((اسم غير مشتق من شيء بل هو اسم خاص بكلام الله ، وقيل مشتق من القَرْي وهو الجمع ، ومنه : قَرَيْتُ الماء في الحوض أي جمعته))[2] .

((والقرآن في الأصل مصدر[3] نحو كُفران ورجحان ... وقد خُصّ بالكتاب المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - فصار له كالعَلَم ... وقال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله لكونه جامعاً[4] لثمرة كتبه[5] بل لجمعه ثمرةَ جميع العلوم))[6] .

وقال صاحب ((المناهل)) :

((هو في اللغة مصدر مرادف للقراءة ... ثم نُقل من هذا المعنى المصدري وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، ذلك ما نختاره استناداً إلى موارد اللغة وقوانين الاشتقاق))[7] .

ثم ضعّف سائر ما قيل فيه من أقوال بقوله :

١- ((البرهان في علوم القرآن)) : ١/٢٧٩ .

٢- المصدر السابق : ١/٢٧٨ .

٣- أي مرادف للقراءة .

٤- كأنه لحظ المعنى اللغوي .

٥- أي كتب الله تعالى .

٦- ((مفردات ألفاظ القرآن)) : ٤١٤ .

٧- ((مناهل العرفان)) : ١ / ٧ .

((أما القول بأنه وصفٌ من القَرء بمعنى الجمع ، أو أنه مشتق من القرائن ، أو أنه مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، أو أنه مرتجل موضوع من أول الأمر علَماً على الكلام المعجز المنزل غيرُ مهموز ولا مجردٌ من (أل) ، فكل أولئك لايظهر له وجه وجيه ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلفة ، ولا من بُعد عن قواعد الاشتقاق وموارد اللغة .

وعلى الرأي المختار فلفظ قرآن مهموز ، وإذا حذف همزه فإنما ذلك للتخفيف ، وإذا دخلته (أل) بعد التسمية فإنما هي للمح الأصل لا للتعريف))[1] .

ورأيه قريب مما ذهب إليه الراغب والزركشيّ رحمهم الله تعالى .

والمعنى الاصطلاحيّ للقرآن هو :

((الكلام المعجز ، المنزل على النبي – صلى الله عليه وسلم – المكتوب في المصاحف ، المنقول بالتواتر ، المتعبد بتلاوته)) .

وقال صاحب المناهل معلقاً على هذا التعريف :

((ولايخفى عليك أن هذا التعريف كان يكفي فيه ذكرُ بعض تلك الأوصاف ويكون جامعاً مانعاً ، غير أن مقام التعريف مقام إيضاح وبيان فيناسبه الإطناب))[2] .

١- المصدر السابق ، والأصل المقصود – هنا – هو المصدر ، كما بين الزرقاني في تعريفه للقرآن ، و ((العلم المنقول مما يقبل ((أل)) قد يلاحظ أصله فتدخل عليه ((أل)) ، وأكثر وقوع ذلك في المنقول عن صفة كـ ((حارث ، وقاسم)) ... وقد تقع في المنقول عن مصدر كـ ((فضل)) ...)) : ((معجم النحو)) : ٥٠ .

٢- ((مناهل العرفان)) : ١/١٢ .

معنى إعجاز القرآن

((إعجازالقرآن مركب إضافي ، معناه بحسَب أصل اللغة : إثبات القرآن عجزَ الخلق عن الإتيان بما تحداهم به ، فهو من إضافة المصدر لفاعله ، والمفعولُ وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به ، والتقدير : إعجاز القرآن خلقَ الله عن الإتيان بما تحداهم به)) [1] .

فهذا تعريف عامّ لإعجاز القرآن لايتعلق بإثبات وجه من وجوه الإعجاز ولانفيه .

وهناك بعض التعاريف التي قَصَرت الإعجاز على وجه أو أكثر من وجوهه فمنها :
((إعجاز القرآن : ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته على ماهو الرأي الصحيح لا الإخبار عن المغيَّبات ، ولاعدم التناقض والاختلاف ، ولا الأسلوب الخاصّ ، ولا صرف العقول عن المعارضة ...))[2] .

والتعريف الأول أولى لخلوه مما يمكن ردُّه أو التطويلُ بمناقشته .

ومن المناسب - هنا - إيرادُ الآيات الكريمة التي تحدت الكافرين أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم أو بمثل شيء منه :

١- ((مناهل العرفان)) : ٢/٢٢٧ .

٢- ((الكليات)) : ١٤٩ .

الآيات الكريمة التي تحدت الكافرين وأعجزتهم أن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل شيء منه

لما كان القرآن العظيم من التأثير والوضوح في الذروة السامقة والمكان الأرفع ، ولما كانت آياته العظام لايشبهها شيءٌ من كلام البشر ولا يدانيها شيء ، لما كان شأن القرآن كذلك كان من المسلمات البدهيات أن يتأثر الناس به وينقادوا لأحكامه طائعين ، ولكن فئة الكافرين أبت إلا أن تصم آذانها عن سماع الحق ، وتغضّ أبصارها عن رؤية أثره في المؤمنين الصادقين فأعلنت كفرها ، وادعت أن هذا الحقّ المبين هومن نسج النبي - صلى الله عليه وسلم - وما هو إلا أساطير الأولين ، وهو سحر ، إلى آخر مارموا به هذا الكتاب العظيم ، وأبوا أن يذعنوا أنه من عند الله .

ولما اتهمت قريش رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - باختراع هذا الكتاب ونفت نسبته الإلهية صار من لازم هذا أنه جهد بشريّ يستطاع أن يُؤتى بمثله ، فليس بمعجز لمن رام معارضته .

ولما كان هذا شأنُ الجاحدين النورَ المبين أنزل الله - تبارك وتعالى - آياتٍ كريمات تطلب من الكافرين - على وجه التحدي - أن يأتوا بمثل هذا القرآن العظيم أو ببعضه ، وقد نزلت هذه الآيات - مكيُّها ومدنيها - على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في أزمنة متباعدة زيادةً في تحدي الكافرين ، وإمهالاً لهم وتبكيتاً فعجزوا عن المعارضة عجزاً تاماً ، لكنهم عاندوا عناداًسُجل عليهم بمداد الخزي والعار في سجلات التاريخ وصحائفه .

وقد تدرجت هذه الآيات الكريمة بالكافرين ، فطالبتهم بالإتيان بمثل القرآن العظيم ، ثم طولبوا بعشر سور مثله ، ثم طولبوا بسورة مثله ، ثم طولبوا بسورة

من مثله[1] ، فتنزل الطلب الإلهي من الأكثر إلى الأقل ، مبالغةً في الإعذار ، وإمعاناً في الإعجاز ، ((ونظير هذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه فيقول : ائتني بمثله ، ائتني بنصفه ، ائتني بربعه ، ائتني بمسألة منه ، فإن هذا هو النهاية في التحدي))[2] .

وهذه الآيات هي ، حسب ترتيب نزولها[3] :

١- قوله تعالى :
﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[4] .

ومثلها قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾[5] .

١- الفرق بين ﴿سُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ و ﴿سُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ أن المثلية تعني تمام المطابقة ، أمّا ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ فتعني مطابقة جزئية في أحد وجوه تفوق سور القرآن فصاحة وبلاغة و إيجازاً ونظماً إلى آخر وجوه الحسن في سوره ، فتحداهم القرآن في آية البقرة – وهي آيـة التحدي الأخيرة – أن يأتوا بمثلية ناقصة في مطابقتها ، ولا شيء دون هذا في التحدي .

وفي كتب التفسير كلام طويل في ﴿مِن﴾ من قوله تعالى ﴿مِن مِّثْلِهِ﴾ هل هي تبعيضية أو بيانية أو ابتدائية ، وفيها كلام في مرجع الضمير من قوله تعالى ﴿مِّثْلِهِ﴾ أعلى ﴿عَبْدِنَا﴾ أم على (ما) من قوله تعالى ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ ، وما اخترته من عَود الضمير على القرآن هو المناسب للسياق ، وعليه أكثر المفسرين .

وانظر في ذلك كله ((روح المعاني)) : ١٩٢/١ – ١٩٥ ، و ((البحر المحيط)) : ١٠٤/١ – ١٠٥ .

٢- ((مفاتيح الغيب)) : ٢/ ١٢٨ .

٣- هذا الترتيب هو الترتيب المناسب للتحدي وهو الذي أميل إليه وإن لم يكن عليه دليل نقلي ، كما أن باقي الأقوال في الترتيب ليس عليها دليل أيضاً ، وفي المسألة خلاف ، لكن تعقيب الله – تعالى – آية البقرة بقوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ هذا التعقيب مشعر أن هذه الآيـةَ هي الآيـة الأخيرة في التحـدي ، حيث لم تُعقّب باقي آيـات التحـدي بمثل هذا التعقيب القاطـع لآمال من يريد المعارضة ؛ حيث إنه ليس وراء طلب المثلية الناقصة في سورة واحدة شيءٌ ، والله أعلم .

وانظر ((الطراز)) : ٣٦٩/٣ – ٣٧٠ ، و ((الإتقان)) : ١١٧/٢ ، و ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٢٠ – ٢٣ ، و ((البيان في إعجاز القرآن)) : ٦٧–٧٠ ، و ((الإعجاز القرآني : وجوهه وأسراره)) : ٨–١١ .

٤- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٥- سورة الطور : آية ٣٤ .

٢- ثم قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[١] .

٣- ثم قال جل شأنه :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢] .

٤- ثم قال عز وجل :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٣] .

فالآيات الكريمات السابقات نصت على تحدي الكافرين ، والمعروف أنهم لم يستطيعوا - هم وأعوانهم من الشياطين - الإتيانَ بمثل شيء من القرآن ، ودليل ذلك النصُّ القرآني الذي تلا التحدي الأخير :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾[٤] .

فإن هذا نفيٌ عامٌّ ، وقد تحقق كل ذلك ، فلم يستطيع أحد الإتيان بمثله ، ولن يستطيعه أحد في المستقبل بحول الله وقوته .

ولبعض المعاصرين[٥] - حفظه الله تعالى - كلام جيد تحت عنوان :

((من إيحاءات آيات التحدي)) قال فيه :

١- سورة هود : آية ١٣ .

٢- سورة يونس : آية ٣٨ .

٣- سورة البقرة : آية ٢٣ .

٤- سورة البقرة : ٢٤ .

٥- هو الدكتور صلاح الخالدي .

١- ((توزعت هذه الآياتُ في القرآن المكي والمدنيّ ، وفي ذلك استمرارٌ للتحدي ، فحيثما وُجد كافر يطعن في مصدر القرآن فيوجه له التحدي لمعارضته)) .

٢- ((كان يسبق آيةَ التحدي إشارةٌ إلى شك الكافرين في القرآن)) .

٣- ((كان يتبع آيةَ التحدي إشارةٌ إلى مصدر القرآن)) .

٤- ((جَزْم القرآن بعجزهم عند دعوتهم للمعارضة : ﴿ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ ... وتحقق هذا الجزمِ فعلاً بعد ذلك دليلٌ على مصدر القرآن فلو كان من كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما جزم هذا الجزمَ)) .

٥- ((كلمة ﴿مِثْلِهِ﴾ وردت في كل آيات التحدي فليس المطلوب الإتيانَ بنفس القرآن ، لأنه كلام الله ، ولكنّ المطلوب الإتيان بمثله ، والمثلية ليست المثليةَ في معانيه وأخباره وعلومه وأحكامه[1] ولكنها المثلية في جمله ومفرداته وكلماته ، المثلية في أسلوبه وفصاحته وبلاغته))[2] .

تلك كانت نبذةٌ يسيرة في الكلام على آيات التحدي في كتاب الله ، تبارك وتعالى ، ختمت بها الحديث على هذا المبحث مبحثِ الإعجاز مفهوماً وتاريخاً .

١- هذا بناء على رأيه بأن الإعجاز في القرآن إنما هو الإعجاز البياني فقط ، وقد بث رأيه هذا في صفحات من كتابه ، انظر الصفحات : ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ١٣٩ وغيرها .

٢- قد أتى الدكتور باثني عشر إيحاءً اخترت منها ما أثبته هاهنا ، وانظر ((البيان في إعجاز القرآن)) : ٦٥ - ٦٧ .

المبحث الثاني

نشأة علم الإعجاز وتدوينه ، وجهود العلماء في دراسته .

نشأة علم الإعجاز وسببه :

إن الإعجاز القرآني قد نشأ منذ نزول الكتاب الشريف على قلب الرسول العظيم محمدٍ – صلى الله عليه وسلم – فقد ظهر عجز العرب الخُلّص عن الإتيان بمثله أو مايقاربه ، مع معاينتهم عظيمَ تأثيره فيهم ، وهدايتَه عظماءهم وضعافهم ، ومع ماقرع أسماعهم من تحدي الله – سبحانه وتعالى – لهم أن يأتوا بمثل هذا الكتابِ أو بعشر سور منه أو بسورة واحدة مثله[1] ، ولكن أنّى للمخلوق العاجز الضعيف أن يأتي بمثل كلام الله الخالقِ العظيم ؟

لكنّ هذا الشعورَ بالعجز عن مضاهاة كلام الله – تبارك وتعالى – ظلّ مستولياً على القلوب والأذهان بدون ترجمته إلى دراسات فاحصة تقرره وتقعّده ، شأنه شأن سائر العلوم الإسلامية في الصدر الأول .

ويقرر بعض المعاصرين أنه : ((قد مضى عصر النبوة وعصرُ الخلفاء الراشدين ودولة بني أمية وشطرٌ كبير من دولة العباسيين دون أن يحاول أحد التعرضَ لقضية الإعجاز ودلائله ، ولم يكن ذلك عن تقصير في حق القرآن ... إنما كان إعظاماً لأمر القرآن ، وتهيباً لمقامه ، وصوناً لذاته أن يكون غرضاً للآراء والأهواء ، ومجالاً للجدل والخلاف))[2] .

لكن اتساع رقعة الإسلام ودخول كثير من غير العرب في هذا الدين جعل من الضروريّ ابتداءَ مثل هذه الدراسة وأن يصبح : ((النظر في القرآن نظراً متعمقاً

١- سَبَق تفصيل ذكر هذه الآيات ، انظر ص ٥٤ ومابعدها .

٢- ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) للدكتور عبد الفتاح لاشين : ٤٢٥ .

وأضيف إلى ذلك أيضاً أن القوم كانوا – لشدة نقاء فطرهم ، وقوة سليقتهم ، و بلاغتهم و فصاحتهم – في غنى عن التكلف لإثبات أمر الإعجاز في القرآن فهم يشعرون به ، بل هو مسيطر على أفئدتهم وجوارحهم .

فاحصاً دارساً ، مقلباً وجوهَ الرأي ، أمراً لامناص منه للعلماء وأصحاب الرأي ، بين مختلف المذاهب والطوائف))[1] .

وكان ((إعجاز القرآن مسألة من تلك المسائل التي ثار حولها النقاش والجدل بين العلماء))[2] .

وهذا كلام جيد أضيف إليه أن هناك سبباً مهماً حدا بالعلماء أن يفتحوا باب الكلام عن إعجاز القرآن على مِصراعيه ، وهو ما أحدثته ضلالات بعض المعتزلة من فهم خاطىء لإعجاز القرآن الكريم[3] ، والله أعلم .

ويرى باحث آخر أن :
((العرب الذين عاشوا لايخالطون غيرهم إلى آخر عهد الأمويين[4] بدأوا يخرجون عن عزلتهم ، وأخذت تغزوهم ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام فبدأوا يتصلون فكرياً واجتماعياً بغيرهم ، وكان ذلك نتيجةً حتمية أملاها عليهم التوسعُ في الفتوحات ، ودخول غير العرب فيما دخل فيه العرب أنفسهم ، مع ماهذه الشعوب الجديدة على فكر الإسلام والمسلمين مِن ثقافات قديمة))[5] .

ثم ذكر أن الإسلام أخذ يتعرض لحركات طعن وتشكيكٍ من أصحاب هذه الديانات القديمة وجهوا فيها همهم إلى كتاب المسلمين المقدس[6] .

١- ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) : ٤٢٦ .

٢- المصدر السابق : ٤٢٧ .

٣- وذلك نحو كلام النظّام وغيره في الإعجاز بـ (الصَّرفة) كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في المبحث القادم .

٤- قد اختلط المسلمون بغيرهم من الأعاجم كالفرس والروم ابتداءً من عهد الفتوح الأولى لبلاد الفرس والشام ومصر و غيرها من البلاد التي كانت بأيدي الروم ، ولكن إذا قيل إن الترجمة لعلوم الأوائل واختلاط الثقافات بين الشعوب هو الذي أراده الباحث ، إذا قيل هذا فهو أقرب ، والله أعلم .

٥- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) للدكتور عبد الرؤوف مخلوف : ٢٨ .

٦- المصدر السابق : ٣٠ .

ثمّ نقل كلاماً جامعاً لابن قُتَيْبَة[1] - رحمه الله تعالى - يبين فيه سبب تأليف كتابه الجليل : ((تأويل مشكل القرآن)) قال فيه :

((فقد اعترض بالطعن ملحدون ، ولَغَوْا فيه وهجروا[2] ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاءَ تأويله بأفهام كليلة ، وأبصار عليلة ، ونظرٍ مدخول[3] ، فحرفوا الكلم عن مواضعه ، وعَدَلوه عن سبله ، ثم قَضَوْا[4] عليه بالتناقض والاستحالة واللحنِ وفساد النظم والاختلاف ، وأدلَوْا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغَمْرْ[5] والحدث الغِرّ[6] ، وعرضت[7] بالشبه في القلوب وقدحت بالشكوك في الصدور))[8] .

ثم قال الباحث نفسه :

((وكان لابد لهذه الحركةِ الزائفة التي ظهرت على أيدي الملحدة من حركة معارضة يقوم بها رجال من المسلمين ، تتصدّي لتيار الزَّيغ ، وتناوئ أفكار الزائغين ، وتقيم للدين صرحاً من الفكر يُبعد كل زيف))[9] .

١- هو العلامة الكبير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبة الدِينَوَريّ الكاتب . نزل بغداد ، وصنف وجمع ، وبَعُد صيته وكان ثقة ديناً فاضلاً . وكان رأساً في علم اللسان العربيّ والأخبار وأيام الناس . مات ببغداد فجأة سنة ٢٧٦ رحمه الله . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٢٩٦ - ٣٠٢ ، و ((الأعلام)) : ٤ / ١٣٧ .

٢- أي قالوا هُجْراً ، والهُجْر هو القبيح من الكلام . ((لسان العرب)) : (هـ ج ر) .

٣- الدّخَل : العيب والفساد . المصدر السابق : (دخل) .

٤- أي حكموا .

٥- الغَمْر والغُمْر هو الذي لم يجرب الأمور ، وهو الجاهل : ((لسان العرب)) : (غ م ر) .

٦- الغِرّ : الشاب الذي لا تجربة له . المصدر السابق : (غ ر ر) .

٧- في ((تأويل مشكل القرآن)) المطبوع : واعترضت ، انظر ص ٢٢ .

٨- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٣٠ - ٣١ نقلاً عن ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة : ص ٢٢ ، باختلاف يسير عما في المطبوع .

٩- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ص ٣١ .

والباحث قد ذكر في كتابه أن المتكلمين الذين تكلموا في (الصرفة) و (الإعجاز النظميّ) قد أخذوا ذلك من آراء الفرس والهنود في بعض كتبهم التي يدعون قداستها ، ولم يذكر الباحث دليلاً ملموساً على هذا . انظر كتابه : ٢٨ - ٣٥ ، وكذلك صنع أبو زهرة - رحمه الله تعالى - في كتابه ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٦ .

وكانت هذه الحركةُ المعارضة هي ابتـداءَ التصنيـف في علـوم القـرآن الكريـم عامة ، وعلم إعجاز القرآن العظيم خاصة .

ومن القواعد المقررة أن كل علم ابتُدئ بالتصنيف فيـه والبحـث فـإن مسـائله تكون متناثرة مبثوثة في كتب شتى ، ثم يتعاقب على هذا العلمِ علماءُ أفذاذ ينقحون مسـائله ، ويحـررون مباحثـه ، ويجمعـون متفرقاتِـه في قواعـدَ منضبطـةٍ تجمـع تلـك المسائل والمباحث في مصنَّف مستقل .

هذه هي القاعدة في العلوم جميعها إلا ماشذ وانفـرد - وهـو القليـل النـادر - فبدأ قوياً فتيّاً منذ نشأته ، وذلك كعلم العَرُوض[1] .

وعلم إعجاز القرآن قد مرّ بالأطوار الـتي مـرت بهـا العلـوم ، وسـلك دربهـا وحذا حذوها ؛ إذ كان الكلام فيه مفرقاً في كتب متنوعة مثل كتب السيرة - وكان الحديث فيها عن انقطـاع الكـافرين أمـام القـرآن الكريـم - وبعـض كتـب التفسـير بالمأثور[2] التي ورد فيها شيءٌ قريب مما ورد في السيرة ، ثم إنه نشأت بعض الأقوال في الإعجاز خاصة من قِبَل متكلمة المعتزلة ، كما سيأتي بالتفصيل قريباً إن شاء اللـه تعالى .[3]

ثم إن تلك الأقوال قد ردّها علماء وقبِلها آخرون ، وانتشر الكلام فيها .

١- العَروض هو ((علم يُبحث فيه عن أحـوال الأوزان المعتبرة ، وميزانٍ الشعرِ يُعرف بـه مكسـوره من موزونـه ، كما أن النحو معيار الكلام ؛ به يُعرف مُعربه من ملحونـه ... ويُعزى اختراعه إلى الخليل بن أحمد الفراهيديّ بعـد أن استعرض مارُوي من الشعر ... واختلفوا في سبب تسميته بعلم العَروض فمن قائل لأن الشعر يُعرض عليـه ، أو لأن العَروض بمعنى الناحية ؛ والعَروض ناحية من نواحي العلم والشعر ...)) :

((المعجم المفصل في الأدب)) : د . محمد التونجي : ٦٢٢/٢ - ٦٢٣ .

٢- مثل تفسير ابن جرير الطبريّ كما سيأتي قريباً - إن شاء اللـه تعالى - انظر ص ٦٧ ، ٦٨ .

٣- وأعني القول بـ (الصَّرفة) : انظر ص ٩٢ وما بعدها .

ثم استقل بهذه المسألة - مسألة إعجاز القرآن - عددٌ من التصانيف في أواخر القرن الثالث - فيما وصلنا وتناهى إلينا علمه - حتى هذا القرن .

وكان الكلام على الإعجاز في القرون الثلاثة الأولى يغلب عليه استعمال المصطلحات القرآنية ، كالآية والبرهان ، على العكس من حال القرون التالية فقد غلب عليها استعمال مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) .

وسوف أورد - إن شاء الله تعالى - ما وجدته من الكلام على المعاني القريبة من مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) في القرون الثلاثة الأولى[1] ، ثم أحاول أن أثبت من تكلم في (الإعجاز) و (المعجزة) بهذين اللفظين في القرن الثالث[2] .

وسوف أثبت ، بإذن الله تعالى ، ما وصلنا من أسماء مصنفاتٍ في الإعجاز - المطبوعِ منها والمخطوط والمفقود - على قدر الوسع والطاقة منذ نهاية القرن الثالث حتى آخر القرن الثالث عشر الهجري وذلك في آخر المبحث ، والله الموفق[3] .

١- وإنما لم أفعل ذلك في القرون التي بعد القرن الثالث لشيوع الكلام على الإعجاز ، واستعمالِ مصطلح (معجزة) و (إعجاز) فيها .

٢- انظر الهامش السابق .

٣- انظر ص ٧٩ ومابعدها .

الكلام على الإعجاز في القرنين الأول والثاني

لم يرد مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) إلا في القرن الثالث الهجري - فيما وصل إلينا من كلام الأئمة - لكن معنى (الإعجاز) و (المعجزة) كان معروفاً منذ أيامِ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم .

فالكفار عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن العظيم أو بمثل بعضه ، وانقطعوا بعد أن تحداهم الله زماناً طويلاً فلم يصنعوا شيئاً ، ثم إن الكافرين كانوا يتحيرون حال سماع القرآن العظيم ويعجزون عن وصفه ، ويقرون - بلسان الحال أو المقال - أنه لا مثيل له ولا يستطاع ، وهذا كله عين العجز .

فهذا الوليد بن المغيرة[1] يسمع القرآن يُتلى فيقول فيه قولته المشهورة المنبئة عن عجز القوم حياله :

((والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة وإن عليه لطلاوة[2] ، وإنه لمثمر أعلاه[3] ،

١- الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، أبو عبد شمس . مات كافراً بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو ابن خمس وتسعين سنة ودفن بالحَجون . ((الكامل في التاريخ)) : ٢ / ٤٨ .

٢- الطَّلاوة والطُّلاوة : الحسن والبهجة والقبول والرونق : ((لسان العرب)) : طلى .

٣- الكلام مستعار من حال النخلة ؛ إذ أعلاها مثمر وله حلاوة ، وأسفلها ثابت راسخ - أو كثير الماء على حسب روايتي : (مُغْدِق) و (عَذْق) - وفي قوله (لمثمر أعلاه) إشارة إلى غزارة نفعه ، وزيادة رَفعه بكريم فوائده وعميم عوائده . انظر ((شرح الشفا)) للقاري : ١ / ٥٥١ ، و ((الروض الأنف)) : ٢ / ٢١ .

مُغْدِق[1] أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلا ، وإنه ليحطم ما تحته))[2] .

فلو أنصف القوم أنفسَهم لأسلموا ولكنها الغشاوةُ التي على أبصارهم والختم الذي على قلوبهم .

ومما يدل - أيضاً - على أثر إعجاز القرآن في نفوس المشركين أن أباجهل[3] والملأ من قريش قالوا :

((لقد انتشر علينا أمر محمد فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر فكلّمه ثم أتانا ببيان من أمره ، فقال عتبة[4] : لقد سمعت بقول السحرة والكِهانة والشعر ، وعلمت من ذلك علماً ، وما يخفى عليّ إن كان ذلك ، فأتاه فلما أتاه قال له عتبة :

١- الغَدَق : المطر الكثير العام ، والماء الكثير ، وأغدق المطر يُغدق إغداقاً فهو مُغْدق ((لسان العرب)) : غَدَق .
وقال القاري : ((اسم فاعل من الغَدَق - بفتحتين - وهو كثرة الماء ؛ تلويحاً بغزارة معانيه في قوالب مبانيه)) : ((شرح الشفا)) : ١ / ٥٥١ .
ورواية ابن إسحاق أفصح من رواية ابن هشام : ((لمغْدِق)) ؛ لأن الكلام مستعار من حال النخلة إذ أعلاها مثمر وله حلاوة وأسفلها ثابت راسخ : انظر ((الروض الأنف)) : ٢ / ٢١ .

٢- الحديث ثابت صحيح ، وقد أخرجه البيهقي في ((دلائل النبوة)) : ١٩٨/٢ وبوب للحديث وأمثاله بقوله : باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لايشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان . وذكر أن له أربع روايات أخرى ، وأن ذلك ((يؤكد بعضه بعضاً)) .
وقد أخرجه الحاكم أيضاً في ((المستدرك)) وقال : ((هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاريّ ولم يخرجاه)) ، ووافقه الإمام الذهبيّ . انظر ((المستدرك)) : ٢/٥٥٠-٥٥١ .

٣- عمرو بن هشام بن المغيرة المخزوميّ . عدو الله ورسوله . قتل يوم بدر كافراً في السنة الثانية من الهجرة . ((التبيين في أنساب القرشيين)) : ٣١٦ .

٤- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، من سادات قريش وأشرافها وذوي أحكامها ، وكان أمية بن أبي الصلت يتوهم أنه يكون نبيَّ هذه الأمة . قتل يوم بدر كافراً في السنة الثانية من الهجرة . المصدر السابق : ١٨٦ .

يا محمد أنت خير أم هاشم[1] ؟ أنت خير أم عبد المطلب[2] ؟ أنت خير أم عبد الله[3] ؟ فلم يجبه .

قال : فيم تشتم آلهتنا وتضلل آباءنا ؟ فإن كنت إنما بك الرئاسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا مابقيت ، وإن كان بك الباءة[4] زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت ، وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغني بها أنت وعَقِبك من بعدك ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ساكت لا يتكلم ، فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فقرأ حتى بلغ ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[5] فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه ...))[6] .

١- واسمه عمرو ، وهاشم لقب له لهَشْمه الثريدَ لقومه . وكان من سادة قريش . المصدر السابق : ٣٦ ، ١٤٩ .

٢- واسمه شيبة لشيبة - ظاهرة في ذؤابته - وإنما قيل له عبد المطلب لأن أباه هاشماً حمله إلى مكة - في قصة جرت لشيبة - وقد غيرته الشمس فقال أهل مكة : هذا عبد المطلب . كان من سادة قريش . توفي ولرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثمان سنين . المصدر السابق : ٣٧ .

٣- هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفي شاباً وآمنة حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم . المصدر السابق : ٣٨ ، ٧٧-٧٨ .

٤- الباءة : النكاح ، وسمي كذلك لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يستمكن من أهله كما يتبوأ من داره . ((لسان العرب)) : ب و أ .

٥- سورة فصلت : ١ - ١٣ .

٦- أخرج الرواية البيهقي في ((دلائل النبوة)) باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله - تعالى - من الإعجاز وأنه لايشبه شيئاً من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان : ٢ / ٢٠٢ - ٢٠٤ .
وأخرجها عبد بن حميد في مسنده عن ابن أبي شيبة ، وهي مقاربة لرواية البيهقي غير أن فيها : ((... فقالوا : ماوراءك ؟ فقال : ماتركت شيئاً أرى أن تكلمونه (كذا في المطبوع من منتخب مسند عبد بن حميد) إلا قد كلمته. قالوا : فهل أجابك ؟ قال : نعم ، قال : لا والذي نصبها بَنِيَّةً (أي الكعبة) ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه قال ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ قالوا : ويلك ، يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة)) :
((المنتخب من مسند عبد بن حميد)) : ٣٣٧ - ٣٣٨ .
وقوله : ((مافهمت شيئاً)) أي أنه سمع كلاماً لا عهد له به لا أنه لم يفهم مفرداته .
وقال محققا الكتاب : ((إسناده ضعيف لضعف الأجلح)) ، انظر ص ٣٣٧ .

وفي رواية أخرى ((... فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد فيها ، ثم قال : سمعت يا أبا الوليد؟ قال : سمعت ، قال : فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قطُّ ، والله ماهو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة . يا معشر قريش : أطيعوني واجعلوها بي ، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأٌ ، فإن تصبه العرب فقد كُفِيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعدَ الناس به ، قالوا : سحرك - والله - يا أبا الوليد بلسانه ، فقال : هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم ...))[1] .

= والأجلح هو ابن عبد الله ، قال الحافظ:

((صدوق ، شيعيّ ، من السابعة . مات سنة ٤٥ . بخ ٤)) : ((التقريب)) : ٩٦ .

وهو من رجال البخاريّ - رحمهم الله تعالى - كما ذكر الحافظ ابن حجر في ((التقريب)) : ٩٦ ، فقول المحققيْنِ : إسناده ضعيف لضعف الأجلح لاوجه له ، والله أعلم ، فإسناد هذه الرواية حسن .

وأما ابن أبي شيبة - الذي روى عنه عبد بن حميد - فقد روى الحديثَ بسنده عن علي بن مُسْهِر عن الأجلح عن الذّيّال بن حَرْملة عن جابر رضي الله عنه .

علي بن مسهر : ثقة كما في ((التقريب)) : ٤٠٥ .

والذّيّال بن حرَمْلة : وثقه ابن حبان ، انظر ((تعجيل المنفعة)) : ١٢٢ ، و ((المصنف)) : ٧ / ٣٣٠ - ٣٣١ .

١- هذه الرواية أخرجها البيهقي أيضاً كسابقتها في ((دلائل النبوة)) في الباب نفسه : باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله - تعالى - من الإعجاز ... ٢/ ٢٠٥ - ٢٠٦ .

وهي رواية مرسلة إذ قال فيها محمد بن كعب : حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة ..... و محمد بن كعب هو القُرَظيّ ، وهو أحد التابعين الفضلاء الثقات ، انظر ((التقريب)) : ٥٠٤ ومرسل التابعي من أقسام الضعيف إلا بشروط اشترطها بعض الأئمة لاتنطبق على هذا المرسل ، لكن هذه الرواية عُضدت بالرواية السابقة .

كانت تلك الروايات عن حال مشركي قريش إزاء القرآن العظيم جزءاً من روايات كثيرة أوردها كتاب السيرة في كتبهم ، وهي توضح مدى تأثير القرآن عليهم وإعجازه لهم وعجزهم عنه .

((وإنه واضح من سياق الأخبار المتواترة أن عجزهم اقترن بثلاثة أمور :

أولها : إعجابهم بعلوّه عن أن يصل إليه أحد من البشر ...

ثانيها : أنهم كانوا مع شركهم ... ينجذبون إليه ويريدون أن يسمعوه استطابة لما فيه من لفظ ذي نغم يجذب وعبارات مشرقة ونظم منفرد ...

ثالثها : أن أشدهم عناداً كان أقربهم إيماناً إذا قرأ القرآن صغى قلبه إلى الإيمان ... وقرأه عمر بن الخطاب فانخلع قلبه من الشرك وطغيانه إلى الإيمان))[١] .

أما كلام أهل القرن الأول والثاني في الإعجاز القرآني فقد ورد شذراتٍ متفرقة في كتب التفسير عند الكلام على بعض آيات التحدي في كتاب الله تعالى ، فقد قال قتادة[٢] – رحمه الله تعالى – في قوله تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾[٣] ، فقال :

((لاتقدرون على ذلك ولا تطيقونه))[٤] .

١- ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٣ - ٧٤ .

٢- هو الشيخ قَتادة بن دِعامة بن قتادة ، أبو الخطاب السَّدُوسيّ ، البصري الضرير الأكمه [وهو من وُلد أعمى] ، حافظ عصره ، قدوة المفسرين والمحدثين ، ولد سنة ٦٠ . وكان من أوعية العلم ، وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع ، لأنه مدلس معروف بذلك ، وكان يُرمى بالقدر ، ومع هذا ما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه . توفي سنة ثماني عشرة ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥/٢٦٩-٢٨٣ .

٣- سورة البقرة : آية ٢٤ .

٤- والأثر أخرجه ابن جرير – رحمه الله تعالى – في ((جامع البيان)) : ١/٣٧٩ ، قال :

((حدثنا بشر بن معاذ ، قال : حدثنا يزيد عن سعيد ، عن قتادة))

وبشر بن معاذ هو العَقَديّ : صدوق كما في ((التقريب)) : ١٢٤ ، وقال الشيخ أحمد شاكر : ثقة معروف ، كما في تعليقه على ((جامع البيان)) : ١/٢٩٧ .

وقال ابن جُرَيج[1] - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2] فقال :

((يقول : لو برزت الجنّ وأعانهم الإنس فتظاهروا لم يأتوا بمثل هذا القرآن))[3] .

تلك كانت بعض معاني الإعجاز في القرآن العظيم في القرنين - الأول والثاني ، ولم تكن بالقوم - أهلِ القرون الأولى - حاجةٌ للإفاضة في الحديث على إعجاز القرآن وكونهِ آيةً وبرهاناً وذلك لوضوح هذا المعنى في عقولهم وقلوبهم ، ولندرة من يماري فيه ويثير الشبهات حوله .

= ويزيد هو ابن زُرَيع : ثقة ثبت ، كما في ((التقريب)) : ٦٠١ .

وسعيد هو ابن أبي عَرُوبة : ثقة حافظ كما في ((التقريب)) : ٢٣٩ .

فالأثر إسناده إلى قتادة صحيح ، والله أعلم .

١- الشيخ الإمام العلامة الحافظ شيخ الحرم أبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، القرشيّ الأموي المكيّ ، مولى أمية بن خالد . أول من دون العلم بمكة . وهو ثقة حافظ صاحب عبادة وتهجد . عاش سبعين سنة وتوفي سنة خمسين ومائة . وسنه ومولده ووفاته هو والإمام أبو حنيفة واحد .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٦/٣٢٥-٣٣٦ .

٢- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٣- ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) : ١٥/١٥٩ طبعة البابي الحلبي .

وأما رجال إسناد هذا الأثر فقد قال ابن جرير :

حدثنا القاسم قال : ثنا الحسين ، ثني الحجاج ، عن ابن جُرَيج .

القاسم = القاسم بن الحسن ، وقال الأستاذ أحمد شاكر رحمه الله : ((أما القاسم بن الحسن شيخ الطبري فلم أجد له ترجمة)) ، وذكر أن هذا الإسناد : القاسم عن الحسين يدور عند الطبري كثيراً في التفسير والتاريخ . انظر ((تفسير الطبري)) : ٧/٥٠٧ .

الحسين = الحسين بن داود و يلقب بـ (سُنيد) ، قال الحافظ : ((ضُعف مع إمامته ومعرفته ... مات سنة ست وعشرين)) أي ومائتين ، انظر ((التقريب)) : ٢٥٧ .

الحجاج = الحجاج بن محمد المِصِّيصي ، أبو محمد ، ثقة ثبت ، اختلط قبل موته لما قدم بغداد سنة ست ومائتين ، روى عنه الجماعة . انظر ((التقريب)) : ١٥٣ .

ابن جُرَيج= عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيج : ثقة فاضل ، كان يدلس ويرسل . روى عنه الجماعة . ((التقريب)) : ٣٦٣ . وإسناد هذا الأثر ضعيف لجهالة شيخ الطبريّ ، والله أعلم .

قد كان الحديث عن الإعجاز إذاً في القرنين الأول والثاني تأريخاً محضاً لموقف كفار العرب من القرآن وإعجازه ، أو تفسيراً لآيات الإعجاز في كتاب الله تبارك وتعالى .

وقد كانت الألفاظ القرآنية - كالآية والحجة - هي المستعملة في ذلك العهد ، للدلالة على ماسمي بعد ذلك (الإعجاز) و (المعجزة) .

الكلام على الإعجاز في القرن الثالث الهجري[1]

بدأ استعمال مصطلحي (الإعجاز) و (المعجزة) من القرن الثالث الهجريّ ، ولكنه لا يُعلم - على وجه القطع أو التخمين - من الذي بدأ استعماله ، ومتى ؟

لكن بالرغم من ظهور مصطلحي (الإعجاز) و (المعجزة) فقد استمر استعمال الألفاظ القرآنية فاشياً بين العلماء وذلك نحو (الآية) و (البرهان) و (الحجة) إلخ ...

ولذلك فإني سأورد جميع من تكلم في الإعجاز في هذا القرن[2] - مستغرقاً من تناهى إلى علمي منهم - سواء أأوردوا كلمة (معجزة) و (إعجاز) أم لم يوردوهما ، وسوف أبين - إن شاء الله - مَن الذي جاء بمصطلح (الإعجاز) أو (المعجزة) منهم ، على الوجه التالي :

١- قد اعتمدت في تأريخ كلام المصنفين في الإعجاز على سني وفاتهم ؛ إذ هي ضابط محدد ، بخلاف سنة التأليف ، أو وقت الكلام على الإعجاز ؛ إذ غالب ذلك مظنون أو مجهول .

٢- سأرتب أسماءهم على حسب وفياتهم ، أو طبقاتهم إن لم تعلم سنة الوفاة ، فإن لم يُعلم هذا ولا ذاك فإني أورد الأسماء في المكان الذي يغلب على ظني أنه الأليق به ، والله أعلم .

١- إبراهيم النظّام[١]

وهو ممن صرح بلفظ (المعجزة) و (العجز) ، فقد قال :

إن ((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم))[٢] .

وقال أيضاً :

((إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي - عليه السلام - ولا دلالةً على صدقه في دعواه النبوة ...))[٣] .

٢- عيسى المزدار[٤]

١- أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظّام البصري المعتزلي المتكلم . تكلم في القدر ، وانفرد بمسائل مخزية ، وله كتب كثيرة . كفره جماعة . مات سنة بضع و عشرين و مائتين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠/٥٤١ .

هذا و لم يبين الإمام الذهبي من كفره . وقال صاحب ((الفَرق بين الفِرق)) : ١١٤ إن ((أكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام)) و أخذ في ذكر من كفره كالجُبّائيّ و أبي الهذيل .

و لم أجد في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) إلا ثناءً بالغاً عليه وعلى ذكائه مع أن الكتاب مجموع من أقوال ثلاثةٍ من أئمة الاعتزال ، انظر ((طبقات المعتزلة)) : ٧٠-٧١ ، ٢٦٤ - ٢٦٥ .

بل إن شيخ المعتزلة البغداديين أبا الحسين الخياط قد دافع عن النظام و أنكر مانسب إليه من القول بالصرفة لكنه لم يأت بدليل يويد ماذهب إليه من نفي هذا القول عن النظّام ، انظر ((الانتصار)) : ٢٨-٢٩ .

٢- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

٣- ((الفَرق بين الفِرق)) : ١٢٨ ، وسيأتي الرد على مذهبه (الصرفة) مفصلاً في المبحث القادم - إن شاء الله تعالى - انظر ص ٩٢ ومابعدها .

٤- أبو موسى ، عيسى بن صُبيح المزدار البصري ، من كبار المعتزلة أصحاب التصانيف الغزيرة . تزهد وتعبد وتفرد بمسائل ممقوتة . مات سنة ست وعشرين ومائتين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠/٥٤٨ ، وكتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٤ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ .

وقد ضُبط لقبه - كما جاء في ((السير)) - (المردار) ، بإهمال الراءين ، و (المرداز) بإعجام الراء الثانية على قول آخر ، ولكن المعتمد هو (المزدار) بإعجام الراء الأولى وإهمال الثانية ، وذلك لأن محقق ((طبقات المعتزلة)) ذكر أن كاتب نسخة ((شرح عيون المسائل)) للحاكم الجُشَمي (لوحة : ٥٨) - وهي جزء من كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) ، إذ هو في الحقيقة ثلاث كتب مجموعة في كتاب - قد ضبط لقبه بالزاي فوضع فوقها نقطة ، وفوق الراء (أي الثانية) علامة إهمال . انظر ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٧٧ .

=

لم يصرح بلفظ (المعجزة) وإنما قال :

((إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحةً ونظماً وبلاغة))[1] .

فالقرآن إذاً – في اعتقاده – غير معجز في ألفاظه و بلاغته .

٣– هشام الفُوَطي[2] :

٤– عباد بن سليمان[3] :

وإنما كان المحكي عنهما من الأقوال في الإعجاز إشارةٌ أشار إليها الشيخ أبو الحسن الأشعري[4] – رحمه الله تعالى – حيث قال :

((والمعتزلة على نقيض قوله هذا[5] إلا هشاماً الفُوَطيّ وعباد بن سليمان ، أما سائرهم فهم على أن تأليف القرآن ونظمه معجز ، محالٌ وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه عَلَم لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم)) .[6]

= وقد تحرف لقبه إلى ((مِدرار)) في ((لسان الميزان)) : ٤/٤٦٠ . وقد ضُبط اسم أبيه في ((السير)) و((لسان الميزان)) بفتح الصاد ، بينما جاء الاسم مصغراً : (صُبيح) في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٧٧ . أما ضبط الميم من (المزدار) فلم أجده .

١– ((الملل و النحل)) : ١/ ٦٩ .

٢– هشام بن عمرو الفُوَطيّ المعتزليّ الكوفيّ مولى بني شيبان ، صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال ، وله أقوال مستشنعة ، وقد جعله صاحب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) من الطبقة السادسة منهم :
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠/٥٤٧ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧١ ، ٢٧١ .
والواو من لقبه (الفُوَطي) محركة في ((السير)) و ((طبقات المعتزلة)) . وقد زعم ابن النديم أن الواو واجبة التسكين في العربية ، ولم يأت بسبب هذا الوجوب ، انظر ((الفهرست)) : ٣٥٥ .

٣– أبو سهل عباد بن سليمان البصري المعتزلي ، من أصحاب هشام الفُوَطيّ ، وقد خالف عباد المعتزلة في أشياء اخترعها لنفسه . وكان حاذقا في علم الكلام وله مصنفات. انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠/٥٥١ – ٥٥٢ .

٤– هو الشيخ الإمام العلامة ، إمام المتكلمين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعريّ اليمانيّ البصري ولد سنة ٢٦٠ ، وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم ، ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه بعد أن كان من المقدَّمين فيه . له تصانيف حسنة تقضي له بسعة العلم . مات ببغداد سنة ٣٢٤ :
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٥/٨٥ – ٩٠ .

٥– أي قول النظّام بالصَّرفة .

٦– ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

ويفهم من كلام الإمام الأشعريّ أن هشاماً وعباداً يقولان بـ (الصّرفة) وأن القرآن غير معجز في ذاته ، بل نص على أنهما قالا ذلك الإمام الباقلاني[1] .

٥- الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى :

قد ذكر الإمام أحمد لفظ (المعجزة) كما بين شيخ الإسلام ابن تيميّة - رحمه الله تعالى - بقوله :

((والسلف - كأحمدَ وغيره - كانوا يسمون هذا وهذا[2] معجزاً ، ويقولون لخوارق الأولياء إنها معجزات ...))[3] .

وقال ابن تيميّة أيضاً في مكان آخر :

((وإن كان اسم المعجزة يعم كلَّ خارق للعادة في اللغة ، وفي عرف المتقدمين كأحمدَ بنِ حنبل وغيره...))[4] .

وكلام شيخ الإسلام هذا يفهم منه شيوع استعمال (المعجزة) عند السلف زمان الإمام أحمد - في القرن الثالث - لكني لم أجد إلا ما أوردته هاهنا ، والله أعلم .

٦- علي بن رَبَن الطبريّ[5] ، رحمه الله تعالى :

مؤلف كتاب ((الدين والدولة)) ، ولم يصرح فيه بلفظ (المعجزة) و (الإعجاز)[6] وإنما ذكر فيه لفظ آيات ، وبراهين ، ودلائل .

١- ((إعجاز القرآن)) : ٦٥ .

٢- أي المعجزات والكرامات ، كما هو مفهوم من سياق النص قبله .

٣- ((الجواب الصحيح)) : ٤١٩/٥ .

٤- ((مجموع الفتاوي)) : ٣١١/١١ - ٣١٢ .

٥- كان من كتاب مدينة مرو ، وله همة رفيعة ، وعلم بالإنجيل والطب ، ثم أسلم على يد المعتصم فقربه وظهر فضلُه ، وأدخله المتوكل في جملة ندمائه ، وكان بموضع من الأدب ، ولد في حدود سنة ١٩٢ ، وتوفي بعد سنة ٢٤٠ بقليل كما ذكرت ذلك محققة كتاب ((الفهرست)) :
انظر ((الفهرست)) : ٥٩٠ ، و ((تاريخ حكماء الإسلام)) : ٢٢ - ٢٣ .

٦- قد تصرف الأستاذ نعيم الحمصي في حكاية كلام علي الطبريّ في سبب تحوله من النصرانية إلى الإسلام فغيرّ كلمة آيات إلى معجزات ، ولم يذكر ذلك الطبري في كتابه ، و قد تصفحت الكتاب كله فلم أجد أن الطبريّ =

والكتاب مصنف - في معظمه - لإثبات نبوة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، من التوراة والإنجيل ، وذكرِ المعجزات التي كانت تظهر على يديه - صلى الله عليه وسلم - وليس فيه ما يخص هذا المبحثَ إلا الباب السادس وهو ((في أمية النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن الكتاب الذي أنزله الله عليه وأنطقه به آية للنبوة)) ، وذكر في هذا البابِ مباحث منها مبحث تحدي القرآن الكافرين بأن يأتوا بمثله فما استطاعوا[1] .

٧- الجاحظ[2] ، رحمه الله تعالى :

الجاحظ ممن صرّح بلفظ (الإعجاز) و (المعجزة) في أكثر من مكان في كتبه ، والجاحظ علم من أعلام الأدب العربيّ ، وسِمةٌ بارزة من سماته ، كتب في جوانبَ متعددةٍ اجتماعية ، وتربوية ، وعلمية ، وكانت له مشاركة في الكتابة في إعجاز القرآن وبلاغته ونظمه الفريد ، على الرغم من منحاه الاعتزاليّ الواضح في قوله بخلق القرآن[3] .

هذا وقد وصلت إلينا رسالة له في باب إعجاز القرآن وهي رسالة ((حجج النبوّة)) ، وهي رسالة جيدة إلا أنها غير كاملة ؛ إذ فيها بتر واضح في آخرها[4] .

= استعمل كلمة (إعجاز) و (معجزة) و إنما ذكر لفظ (آية) ونحوها ، انظر ((الدين والدولة)) : ٥٠ - ٥١ ، وانظر ((فكرة إعجاز القرآن)) للأستاذ الحمصي صفحة ٥٧ ، وعندما قرأت مقدمة الأستاذ الحمصي لكتابه مرة أخرى وجدته يذكر أن علي بن رَبَّن الطبريّ لم يذكر في كتابه كلمة (معجزة) ، انظر ص ٧ من المقدمة ، ولا أدري أنسي الأستاذ عندما عرض كلام الطبري في ثنايا الكتاب أم أنه تصرف في كلام الطبري معتمداً أنه بين في مقدمة كتابه أن الطبري لم يورد كلمة معجزة ، والله أعلم .

١- انظر ((الدين و الدولة)) : ٥٠ - ٥٦ .

٢- هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصريّ المعتزليّ ، العلامة المتبحر ذو الفنون ، صاحب التصانيف . كان ماجناً ، قليل الدين ، له نوادر ، وهو من بحور العلم . توفى سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن عُمِّر طويلاً . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١١/٥٢٦ - ٥٣٠ .

٣- انظر ((مجموع رسائل الجاحظ)) للأستاذ عبد السلام هارون : ٣ / ٢٨٣ .

٤- المصدر السابق : ٣ / ٢٢٣ .

وهي من الرسائل التي أوقفنا عليها الشيخ عبيد الله بـن حسـان[1] فيمـا اختـاره مـن رسائل الجاحظ .

وللجاحظ كتاب آخر في نظم القرآن العظيم لكنه فُقد من كتبه فلـم يصلنـا ، وقد أخبر الجاحظ عنه بقوله :

((كتبت لك كتابـاً أجهـدت فيـه نفسـي ، وبلغـتُ منـه أقصـى مـا يمكـن لمثلـي في الاحتجـاج للقـرآن ، والـرد علـى كـل طعّـان فلـم أدع فيـه مسـألة لرافضـــيّ[2] ولا لحــديثيّ[3] ، ولا لحَشْويّ[4] ، ولا لكـافـر مبـاد ، ولا منـافـق مقمـــوع ، ولا لأصحـاب النـظّــام ، ولمن نَجَم[5] بعد النظّام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالـة ، فلمـا ظــننت أنـي قـد بلغـت أقصـى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك أتاني كتابك تذكر أنك لم تـردِ الاحتجـاج لنظـم القرآن ، وإنما أردت ...))[6] .

١- لم يعثر له الأستاذ عبد السلام هارون على ترجمة لكنه رجح أن يكون عاش في القرن الرابع أو الخامس ، انظر المصدر السابق : ١٣/٣ .

٢- فرقة من الشيعة رفضت زيد بن علي بن الحسين لما أبى أن يتبرأ من أبي بكر و عمر رضي الله عنهما ، فسُمّوا رافضة وانقسموا إلى ثلاثة أقسام . انظر ذلك في ((لوامع الأنوار البهية)) : ٨٥/١ .

٣- أي منسوب إلى الحديث فهو من أهل الحديث ، وكان بينهم وبين المعتزلة نُفرة وخصام .

٤- ((كل طائفة قالت قولاً تخالف به الجمهور و العامة يُنسب إلى قول الحَشْويّة ، أي الذين هم حَشْوٌ في الناس ليسـوا من المتأهلين عندهـم ، فالمعتزلـة تسمي من أثبت القـدر حَشْويـاً ، والجهميـة يسمون مثبتة الصفـات حَشْوية ...)) : ((مجموع الفتاوي)) : ١٧٦/١٢ .

((والذي يعيب بعض أهل الحديث وأهل الجماعة بحَشْو القول إنما يعيبهم بقلة المعرفة أو بقلة الفهم ...)) : أي في ظنه الفاسد ، انظر ((مجموع الفتاوي)) : ٢٣/٤ .

((وأول من ابتدع الذم بها المعتزلة)) : ((مجموع الفتاوي)) : ١٤٦/٤ .

((والمعتزلة ينفون العلو والصفات ويسمون من أثبت ذلك مجسماً حَشْوياً)) :

((درء تعارض العقل والنقل)) : ٧ / ٤٣٢ .

((والحشْو من الكلام : الفضل الذي لايُعتمد عليه ، وكذلك هو من الناس ، وحُشوة الناس : رُذلتهم)) :

((لسان العرب)) : حشا .

٥- ظَهَرَ ، انظر ((لسان العرب)) : ن ج م .

٦- مقدمة رسالة ((خَلْق القرآن)) للجاحظ ، وهي رسالة نصر فيها مذهبه البدعي الاعتزاليّ بالقول بخلق القرآن . وهي ضمن ((مجموع رسائل الجاحظ)) : ٢٨٣/٣ - ٣٠٠ .

ولم يعجب ذلك الكتابُ الباقِلّانيَّ[1] حتى أنه قال فيه :

((وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عمّا يلتبس في أكثر هذا المعنى))[2] .

أما كتاب ((حجج النبوّة)) :

فقدصدّره الجاحظ بمقدمة طويلة بيّن فيها مراده من كتابه ، وهو جمع حجج الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي المعجزات التي جرت على يديه ، صلى الله عليه وسلم ، في مكان واحد حتى تكون أدعى للحفظ والتفهّم ، وأهدى لمن عَمِي عن الطريق القويم[3] ، ثم ذكر - بعد تشعب كثير واستطراد[4] - كيفية مجيء أخبار معجزات رسولنا ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنها قد خرجت مخرج التواتر ، وأنها قد نُقلت لنا النقلَ الذي لا يخالجه شك ولا يخالطه ريب .

ثم دلف من ذلك إلى ذكر بعض الدلائل على نبوته - صلى الله عليه وسلم -[5] وانتهى إلى معجزة النبي ، صلى الله عليه وسلم ، العظمى ، وهي القرآن ، فبيّن أن العرب كانوا أفصح الناس على هذه البسيطة وأملكَهم لناصية البيان ولكنهم - مع هذا - لم يستطيعوا أن يعارضوا شيئاً من كلام الله تبارك وتعالى مع أنه تحداهم ودعاهم إلى هذا مُدداً متطاولة ، فكان مما قاله :

١- هو الشيخ الإمام العلامة أوحد المتكلمين القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد البصري ثم البغدادي ، ابن الباقِلاّنيّ ، صاحب التصانيف . كان يضرب المثل بفهمه وذكائه. وكان ثقة إماماً بارعاً . غالب قواعده على السنة . صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة والخوارج والجهمية والكرّامية ، وانتصر لطريقة الأشعريّ . مات سنة ثلاث وأربع مائة ، وكانت جنازته مشهودة. انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/١٩٠-١٩٣ .

٢- ((إعجاز القرآن)) للباقلاني : ٦ .

٣- ((مجموع الرسائل)) : ٣/٢٣٤-٢٣٦ .

٤- المصدر السابق : ٣/٢٣٦-٢٦٦ .

٥- المصدر السابق : ٣/٢٦٦ .

إن ((التقريع لهم بالعجز كان فاشياً ، وأن عجزهم كان ظاهراً ، ولو لم يكن النبيّ – صلى الله عليه وسلم – تحداهم بالنظر والتأليف ، ولم يكن أيضاً أزاح علتهم حتى قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[1] وعارضوني بالكذب[2] ، لقد كان في تفصيله له وتركيبه ، وتقديمه له واحتجاجه ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مساويه .

ولو لم يكن تحدّاهم من كل ماقلنا ، وقرّعهم بالعجز عمّا وصفنا ... لكان ذلك سبباً موجباً لمعارضته ومغالبته وطلب تكذيبه ، إذ كان كلامهم هو سيدَ عملهم والمئونةُ فيه أخفُّ عليهم ، وقد بذلوا النفوس والأموال .

وكيف ضاع منهم[3] وسقط على جماعتهم نيفاً وعشرين سنة ، مع كثرة عددهم وشدة عقولهم ، واجتماع كلمتهم ، وهذا أمر جليل الرأي ظاهر التدبير))[4] .

ثم ذكر في آخر رسالته فصلاً ((في ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها))[5] ذكر فيه :

أن كل نبيّ جاء قومه بآية معجزة من جنس ماكانوا بارعين فيه بل هم أقدر الناس عليه ، كمعجزة موسى – عليه الصلاة والسلام – وكالذي جاء به عيسى – عليه الصلاة والسلام – من إحياء الموتى وإبراء الأكمه[6] ، وأن الأمر كان

١- سورة هود : آية ١٣ .

٢- أي ولو لم يقل لهم عارضوني ولو بالكذب .

٣- أي كيف فاتتهم المعارضة .

٤- المصدر السابق : ٣/٢٧٦-٢٧٧ .

٥- المصدر السابق : ٣/٢٧٧ .

٦- هو الذي يولد أعمى ، انظر ((لسان العرب)) : ك م هـ . وانظر في مناسبة معجزات الأنبياء لعلوم أهل عصرهم ((أعلام النبوة)) : ٧٦-٧٧. هذا وقد كان بنو إسرائيل قد أغرقوا في الماديات فجاءهم عيسى – عليه الصلاة والسلام – بمعجزات تلفتهم إلى الجانب الروحي الإيمانيّ ، وتهذب عظيم اتجاههم إلى المادية .

كذلك ((دهرَ محمد - صلى الله عليه وسلم - كان أغلبُ الأمور عليهم ، وأحسنها عندهم ، وأجلها في صدورهم حسنَ البيان ونظمَ ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به ، فحين استحكمت لفهمهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثرت شعراؤهم ، وفاق الناسَ خطباؤهم بعثه الله - عزّ وجل - فتحداهم بما كانوا لايشكون أنهم يقدرون على أكثر منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم ، وينتقصهم على نَقْصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبيّن لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط[1] مع سائر ما جاء به من الآيات ومن ضروب البرهانات))[2] .

والجاحظ - بهذه الرسالة ، التي وصلنا جزء منها - هو أول باحث في الإعجاز ، على ما علمناه ، وجعله موضوعاً خاصاً للنظر والدرس ، أما الذين جاؤوا قبل الجاحظ فلم يكن البحث في الإعجاز عندهم قائماً على هذا الوجه[3] ، إنما كان نتفاً متفرقة ، أو آراء ينقصها التمحيص والتدقيق .

((وهناك دراسات اتجهت اتجاهاًمباشراً للبحث عن وجوه الإعجاز ودلائله في القرآن ، فلم يكن من همها شيء إلا أن تكشف النقاب عن هذا السر المحجب ... فقد كان الجاحظ - فيما نرى - أول من نظر هذه النظرةَ في كتاب الله وحاول أن يجعلها موضوعاً من موضوعات رسائله))[4] .

١- وذلك لقوة إعجاز هذا الكتاب العظيم ، ولاستمرار قيام معجزته وعدم اندثارها حتى تقوم الساعة .

٢- ((مجموع الرسائل)) : ٣/٢٧٩-٢٨٠ .

٣- انظر ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : ١٥٣ .

٤- المصدر السابق : ١٤٨ .

٨- ابن الراوندي[١] :

قد ذُكر عن هذا الرجل كلام كثير في معارضة القرآن والطعن فيه - والعياذ بالله تعالى - وأنه ألف كتاباً سماه ((الدامغ)) وكتاب ((الزمرّدة)) وكتاب ((الفريد)) طعن فيها على نظم القرآن وإعجازه .

واجتمع هو وأبو علي الجبائي[٢] ، فقال ابن الراونديّ :
يا أبا عليّ : أما تسمع مني معارضتي للقرآن ونقضي له ؟ فقال له أبو علي : أنا عارف بمجاري علومك وعلومِ أهل دهرك ، ولكن أُحاكمك إلى نفسك ، فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلازماً ونظماً كنظمه وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لاوالله ، قال : قد كفيتني ، فانصرف حيث شئت[٣] .

ولولا أني ألزمت نفسي بذكر كل من تكلم في الإعجاز في القرن الثالث لما سقت أخبار هذا المعارض الهالك الذي أراد نقض الإعجاز وإبطالَه ، قبحه الله .

هذا ما وجدته وأثبتّه في الكلام على الإعجاز في القرن الثالث ، ويتبين منه أن مصطلح (الإعجاز) و (المعجزة) أخذ في الانتشار واستعمله العلماء باتساع في ذلك القرن وما بعده .

١- أحمد بن يحي بن إسحاق ، من أهل مَرْو الرُّوْذ . سكن بغداد ، وكان من متكلمي المعتزلة ، ثم فارقهم وصار ملحداً زنديقاً . ويقال إن أباه كان يهودياً فأسلم . عاش أكثر من ثمانين سنة وهلك سنة ٢٩٨ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٨/٢٣٢-٢٣٨ .

٢- محمد بن عبد الوهّاب البصريّ ، شيخ المعتزلة و صاحب التصانيف . كان - على بدعته - متوسعاً في العلوم ، سيال الذهن. له كتاب ((النقض على ابن الراونديّ)) . عاش ثمانياً وستين سنة ، وتوفي سنة ٣٠٣ ، رحمه الله . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤/١٨٣-١٨٤ .

٣- ((الوافي بالوفيات)) : ٨/٢٣٨ ، وانظر أخباره مفصلة في ((الوافي بالوفيات)) : ٨ / ٢٣٢ - ٢٣٨ .

ذكر المصنفات في الإعجاز منذ القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر :

بعد ذكري لمن تكلم على الإعجاز في القرون الثلاثة الأولى ، كان من المناسب الإحاطةُ بالمصنفات في الإعجاز التي صُنفت ابتداءً من القرن الثالث ، إذ لا يُعرف تصنيفٌ في الإعجاز قبل ذلك القرن ، لذلك فإني سأورد كلَّ ما تناهى إلى علمي من مصنفات الأئمة المستقلة بالإعجاز من القرن الثالث ، حتى القرن الرابع عشر الهجريّ المبارك[1] ، سواء ما طبع منها ، أو ما كان مخطوطاً ، أو يغلب على الظن فقده ، وسوف أشير - على حسب الوسع والطاقة - إلى كل ذلك .

هذا وإني سأورد كلَّ ما أقدّر - من موضوعه أوعنوانه - أن له تعلقاً بالإعجاز . وسوف أرتب المصنفات في القرن الواحد حسب الترتيب الزمني لوفاة مصنفيها ، فإن لم أتمكن من معرفة تواريخ وفاتهم فإني أجتهد في ترتيبها حسَب السياق التي وردت تلك المصنفات فيه ، والله الموفق :

المصنفات في الإعجاز في القرن الثالث[2]

١- ((حجج النبوة)) للجاحظ ، رحمه الله تعالى ، وهي رسالة في معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - ومنها معجزة القرآن وإنما أتيت بها - هنا - وهي لم

١- سأتخير من كتب القرن الرابع عشر بعضَها ، انظر ص : ٨٩ ، ٩٠ .

٢- استفدت من عدة كتب في حصر كتب الإعجاز وهي ((الفهرست)) لابن النديم ، و ((كشف الظنون)) لحاجي خليفة ، و ((فكرة إعجاز القرآن)) لنعيم الحمصي ، و ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) لعلي إسحاق شواخ ، وغيرها .

تستقل بالإعجاز القرآنيّ لأن مافيها من معجزات النبي - صلى اللـه عليه وسلم - هو كالممهد لذكر الإعجاز القرآنيّ[١] .

٢- ((نظم القرآن)) للجاحظ وهو كتاب مفقود[٢] .

المصنفات في الإعجاز في القرن الرابع

١- ((إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)) لمحمد بن زيد الواسطيّ[٣] ، رحمه اللـه تعالى.
وهو كتاب مفقود[٤] .

٢- ((نظم القرآن)) لأبي بكر السِّجِسْتانيّ[٥] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مفقود - فيما علمت - واللـه أعلم .

١- قد سبق الكلام عليها ، انظر ص ٧٣ ، ٧٥ .

٢- أشار إليه في مقدمة كتابه ((خلق القرآن)) و قد سبق الكلام عليه ، انظر ص ٧٤ .

٣- أبو عبد اللـه محمد بن زيد الواسطيّ المعتزليّ . من كبار المتكلمين في بغداد . أخذ عن الجُبّائيّ المعتزليّ ، و إليه كان ينتمي . كان كثير الأصحاب و مسموع الكلمة . توفي سنة ٣٠٦ . انظر ((الفهرست)) : ٣٦٧ .

٤- سيأتي ذكر أن الجُرجاني شرح هذا الكتاب شرحين ، انظر ص ٨٤ .

٥- أبو بكر عبداللـه بن سليمان بن الأشعث ، الإمام العلاّمة الحافظ ، شيخ بغداد ، صاحب التصانيف .كان من بحور العلم بحيث إن بعضهم فضله على أبيه الإمام أبي داود صاحب السنن . ولد بسِجِسْتان سنة ثلاثين ومائتين. وطلب الحديث حتى صار حافظاً بارعاً .كان قد اتهم بمالاحجة فيه بيّنة ، وهو حجة فيما ينقله من الأحاديث . مات سنة ٣١٦ ، وعاش سبعاً وثمانين سنة .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣/٢٢١- ٢٣٧ .

٣- ((نظم القرآن)) لأبي زيد البلخيّ[1] ، رحمه اللـه تعالى .

وقد ذكره أبو حيان[2] التوحيديّ بقوله :

((أما أنا فلم أر في القرآن كتاباً أبعد مرمىً ، ولا أشرف معـانيَ مـن كتـاب لأبـي زيد البلخيّ ، وكان فاضلاً يذهب رأي الفلاسفة ، ولكنه تكلم في القرآن بكـلام دقيق لطيف ، وأخرج سرائر ودقائقَ ، وسماه ((نظم القـرآن)) ، ولم يـأت علـى جميع المعاني المطلوبة منه))[3] .

وهذا الكتاب مفقود أيضاً ، واللـه أعلم .

٤- ((نظم القرآن)) لابن الإخشيد[4] ، رحمه اللـه تعالى .

وكتابه لا أدري عنه شيئاً ، وأرجح أنه مفقود ، واللـه أعلم .

١- أحمد بن سهل البلخيّ ، صاحب التصانيف . كان فاضلاً في علوم كثيرة ، وكان يسـلك طريـق الفلاسفـة ، وكان يُتّهم في دينـه . سلك طريق الإماميـة ثم عدل عنـه وصار في سلك المعتزلـة وهـو داهيـة ، واسـع الكلام في رسائلـه . مات سنـة ٣٢٢ عـن بضـع وثمانين سنـة . انظـر ((لسـان الميـزان)) : ١/١٩٥ - ١٩٦ . وقـد ذكـر أبو حيان أنـه مات في سنيّ نيف وثلاثين وثلاثمائة . انظر ((البصائر والذخائر)) : ٨/٦٦ .
وقـد أفـادني معرفـة الكتابين السابقـين لأبي بكر السجستـانيّ و أبي زيـد البلخيّ كتـاب ((مباحث في إعجـاز القرآن)) : ٤١ وهـو للدكتور مصطفى مسلـم . والكتابـــان مذكـوران في ترجمـــة كل منهمـا ، انظر ((لسان الميزان)) : ١ /١٩٥ و ((الفهرست)) : ٢٦٦، ٤٨٩ .

٢- علي بن محمد بن العباس ، أبو حيان التوحيديّ . شيرازيّ ، وقيل نيسابوريّ . اختلف الناس فيـه اختلافـاً بينـاً فمن قائل إنه زنديق ومن موثق . طلبـه الوزير المهلبيّ ليقتله فهرب منـه ومات في الاستتـار . كـان متأدبـاً ، متصوفاً ، متفنناً في علوم كثيرة ، واسع الدراية والرواية . توفي في حدود الثمانين والثلاث مائـة .
انظـر ((الوافي بالوفيات)) : ٢٢/٣٩-٤١ ، و ((سيـر أعـلام النبـلاء)) : ١٧/١١٩-١٢٣ ، وقـد نبـزه الذهبي بقوله : الضال الملحد .

٣- ((البصائر والذخائر)) : ٨/٦٦ .

٤- أبو بكر أحمد بن علي . من زهاد المعتزلة و فضلائهم . منزله في سـوق العطـش [وسـوق العطـش ببغداد ، كما جاء في ((معجم البلدان)) : ٣/٣٨٤] ، له معرفة بالعربية والفقه وله فيه عـدة كتب . كانت لـه ضيعـة يصرف أكثر مايُحمل إليه منها على العلم وأهلـه . توفي سنـة ٣٢٦ . انظر ((الفهـرست)) : ٣٦٨ .
وقـد ذكر ابن النديم كتابـه هذا في ((الفهرست)) : ٨٢ .

وهناك كتابان لم يُذكر تاريخُ وفاة مصنِفَيْهما ، وأرجح بقرائن ورود الأسماء في ((الفهرست)) أنهما ممن أدرك أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، وهذان الكتابان هما :

٥- ((إعجاز القرآن)) للباهلي[١] ، رحمه الله تعالى .

٦- ((نظم القرآن)) لأبي علي الحسن بن علي بن نصر[٢] ، رحمه الله تعالى .
والكتابان لاأعرف عنهما شيئاً ، وأرجح أنهما مفقودان ، والله أعلم .

٧- ((النكت في إعجاز القرآن)) للرماني[٣] ، رحمه الله تعالى .
وكتابه مطبوع متداول سيأتي الحديث عنه بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى[٤] .

٨- ((بيان إعجاز القرآن)) للخطّابي[٥] ، رحمه الله تعالى .
والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام على جوانبَ فيه ، إن شاء الله تعالى[٦] .

١- أبو عمر محمد بن عمر بن سعيد الباهليّ البصري ، من باهلة . مولده بالبصرة ومنشؤه بها ، كان متكلماً على مذهب البصريين ، وكان قاضياً يحضر مجلسه المتكلمون . وكان حسن القَصِّ يُبكي الناسَ لحسن قصصه ورقة عبارته . انظر ((الفهرست)) : ٣٦٥ . و قد ذكر ابن النديم كتابه هذا في ترجمته نفسها .

٢- لم أعثر له على ترجمة ، وقد ذكر كتابه ابن النديم في ((الفهرست)) : ٨٢ .

٣- هو الشيخ أبو الحسن علي بن عيسى الرمانيّ . علامة من أوعية العلم – على بدعته – صنف في التفسير ، واللغة والنحو ، والكلام والاعتزال ، وله نحو من مائة مصنف . وكان يتشيّع .
مات ببغداد سنة ٣٨٤ عن ٨٨ سنة ، رحمه الله تعالى ، انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٦/ ٥٣٣-٥٣٤ .

٤- انظر ص ١٧٦ ومابعدها .

٥- هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ اللغويّ أبو سليمان حَمْدُ بن محمد بن إبراهيم البُسْتيّ الخطابيّ ، صاحب التصانيف . ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة . رحل في الحديث و قراءة العلوم ، وفي شيوخه كثرة . توفي ببُست سنة ٣٨٨ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/ ٢٣-٢٨ .

٦- انظر ص ٦٢٤ ، ٦٣٧ .

٩- ((إعجاز القرآن)) لابن أبي زيد النفزاويّ القيروانيّ[١] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مفقود ، فيما علمت ، واللـه أعلم .

المصنفات في الإعجاز في القرن الخامس الهجريّ

١- ((إعجاز القرآن)) للباقِلاّنيّ ، رحمه اللـه تعالى .
والكتاب مشهور مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء اللـه تعالى[٢] .

٢- ((الكلام في وجوه إعجاز القرآن)) للشيخ المفيد[٣] .
والكتاب مفقود ، فيما أرى ، واللـه أعلم .

٣- ((إعجاز القرآن)) للقاضي عبد الجبار[٤] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء اللـه تعالى [٥] .

١- هو الإمام العلامة القدوة الفقيه ، عالم أهل المغرب ، أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي ، ويقال له : مالك الصغير . كان أحد من برّز في العلم والعمل ، وحاز رئاسة الدين والدنيا ، ورُحل إليه من الأقطار ، وكثُر الآخذون عنه ، وصنف تصانيف . وكان ذا بر وإحسـان وإيثـار وإنفـاق على الطلبة. توفي سنة ٣٨٩ رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/ ١٠-١٣ . وقد ذكر الذهبي - رحمه اللـه تعالى - كتابه ((إعجاز القرآن)) في ترجمته .

وقد استفدت معرفة هذا الكتاب من ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٤٦/١ .

٢- انظر ص ١٨٥ ومابعدها .

٣- محمد بن محمد بن النعمان البغدادي ، عالم الرافضة ، صاحب التصانيف ، ويعرف بـ (ابن المعلّم) . كان صاحب فنون و بحوث وكلام ، واعتزال. متزهد ، متعبد. له أكثر من مائتي مصنف . عاش ستا وسبعين سنة ومات سنة ثلاث عشرة وأربع مائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٣٤٤/١٧-٣٤٥ .

وقد ذُكر كتابه هذا في ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٦٣/١ .

٤- هـو الشيخ العلامـة المتكلم أبو الحسـن عبد الجبـار بن أحمـد بن عبد الجبّـار الأسـد آباذيّ المعتزليّ ، صاحب التصانيف . كان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع والمعتزلة في الأصول ، وله في ذلك مصنفات . ولي قضاء القضاة بالريّ ومات بها سنة ٤١٥ من أبناء التسعين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٤٤/١٧-٢٤٥ .

٥- انظر ص ٦٠٩ وما بعدها .

٤- كتاب في الإعجاز لايعرف عنوانه ، للشريف المرتضى[١] .
وهو كتاب مفقود[٢] .

٥- ((بيان إعجاز القرآن)) : لمكي القيسي[٣] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مفقود[٤] .

٦- ((دلائل الإعجاز)) للجُرْجانيّ[٥] ، رحمه اللـه تعالى .
وهو كتاب مطبوع مشهور متداول .[٦]

٧- ((الرسالة الشافية في الإعجاز)) للجُرجـاني أيضـاً ، وهـي مطبوعـة مشـهورة متداولة[٧] .
وقد شرح الجُرجانيّ كتاب الواسطيّ[٨] في شرحين : كبير وصغير ، واسم الكبير : ((المعتضد)) ، وكلاهما مفقود[٩] .

١- هو علي بن الحسين بن موسى العلوي الحسينيّ المتكلم الرافضيّ المعتزليّ ، صاحب التصانيف . له مشاركة قوية في العلوم ، وهو المتهم بوضع كتاب ((نهج البلاغة)) . مات سنة ٤٣٦ عن ٨١ سنة .
انظر ((ميزان الاعتدال)) : ٣/١٢٤ .

٢- ذكر له هذا الكتابَ الأستاذ نعيم الحمصيّ نقلاً عن عبد العليم الهنديّ ، وذكر أنه مفقود .
انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٦٩ .

٣- أبو محمد مكي بن أبي طالب بن محمد القيسيّ القيروانيّ القرطبيّ ، المقرئ ، اللغويّ ، الفقيه ، الأديب ، المفسر ، صاحب التصانيف ، إمام القرآن في وقته . ولد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بالقيروان ، وارتحل إلى مصر والحجاز والأندلس ، التي استقر فيها خطيباً في جامع قرطبة حتى وفاته سنة سبع وثلاثين وأربعمائة ، كان خيِّراً ، متديناً ، مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة ، وله ثمانون تصنيفاً . انظر ((غاية النهاية)) : ٢ / ٣٠٩ - ٣١٠ .

٤- ذكر ذلك الأستاذ أحمد حسن فرحات في كتابه : ((مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن)) : ١٣٣ ، وقد دُللت على هذا الكتاب : ((بيان إعجاز القرآن)) من كتاب الأستاذ أحمد حسن فرحات .

٥- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد ، أبو بكر الجُرجانيّ ، شيخ العربية . كان شافعياً ، أشعرياًّ ، عالماً ، ذا نسك ودين . وكان آية في النحو . توفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ، رحمه اللـه تعالى .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٤٣٢ - ٤٣٣ .

٦- حققه الشيخ محمود شاكر - حفظه اللـه تعالى - تحقيقاً ممتازاً ، ونشرته مكتبة الخانجي بالقاهرة .

٧- وهي مطبوعة بتحقيق الأستاذ محمود شاكر أيضاً .

٨- انظر ص : ٨٠ .

٩- انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٦١ ، و ((كشف الظنون)) : ١/١٢٠ .

المصنفات في الإعجاز في القرن السادس الهجريّ

لم يصل إلينا شيءٌ من مصنفات القرن السادس ، و لم يشتهر من كتب الإعجاز كتابٌ معروف ، ومن مفقود كتب ذلك القرن :

١ - ((التنبيه على إعجاز القرآن)) للخوارزمي الحنفيّ[١] ، رحمه الله تعالى .

٢ - وهناك مصنف مفقود في إعجاز القرآن - لأيُعرف عنوانه - وهو للشيخ عبد الواحد الرُّوْيانيّ[٢] ، رحمه الله تعالى .

١- محمد بن أبي القاسم بن بايجوك ، الأستاذ أبو الفضل الخوارزميّ النحوي ، صاحب التصانيف .
تتلمذ للزمخشري وجلس بعده في حلقته ، وشهر اسمه وبعد صيته . توفي سنة إحدى وستين وخمسمائة .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٣٤٠/٤ ، وفيه ذكر كتابه باسم ((إعجاز القرآن)) .
وقد استفدت معرفة كتابه هذا من ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٥٥/١ .

٢- القاضي العلامة فخر الإسلام شيخ الشافعية ، أبوالمحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد الرُّوْيانيّ ، الطبريّ ، الشافعيّ . من أهل رُوْيان من نواحي طبرستان . ولد سنة خمس عشرة وأربعمائة ، وارتحل في طلب الحديث والفقه وبرع فيه ومهر ، وناظر وصنف التصانيف الباهرة . وكان ذاجاه عريض ، وحِشْمة وافرة ، وقَبول تام .
قتلته الإسماعلية في جامع آمل بعد فراغه من الإملاء سنة إحدى عشرة وخمسمائة .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٩ /٢٦٠ - ٢٦٢ .
وقد ذكر حاجي خليفة أن له مصنفاً في إعجاز القرآن ، انظر ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .
وقد دُللت على مصنَفه هذا من كتاب الأستاذ نعيم الحمصي : ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٤٥٩ .

المصنفات في الإعجاز في القرن السابع

١- ((نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز)) لفخر الدين الرازي[1] ، رحمه الله تعالى .

وسيأتي الكلام على كتابه هذا[2] - إن شاء الله تعالى - والكتاب مطبوع متداول .

٢- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) لكمال الدين الزَّمْلَكانيّ[3] ، رحمه الله تعالى .

والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام على جوانب من الكتاب ، إن شاء الله تعالى[4] .

٣- ((التبيان في علم البيان المُطلع على إعجاز القرآن)) للزَمْلَكانيّ أيضاً .
والكتاب مطبوع[5] .

١- محمد بن عمر بن الحسن التيميّ البكريّ ، الإمام فخر الدين الرازي ، ابن خطيب الريّ ، إمام المتكلمين . ولد سنة ٥٤٣ ، واشتغل على والده وغيره ، وانتشر اسمه وبعد صيته ، وقصد من الأرض لطلب العلم . وكانت له يد طُولى في الوعظ باللسان العربيّ والفارسيّ . اشتهرت مصنفاته في الآفاق توفي بهَراة سنة ٦٠٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٨١/٨ -٩٦ .

٢- انظر ص ١٩٣ ومابعدها .

٣- هو الشيخ عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف ، كمال الدين ، أبو المكارم ابن خطيب زَمْلَكا . كان عالماً متميزاً في علوم عدة ، ولي القضاء ودرس . وكانت له معرفة تامة بالمعاني والبيان ، وله شعر حسن . توفي بدمشق سنة ٦٥١ . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٣١٦/٨ .

٤- انظر ص ٦٣٠ ، ٦٤٦ .

٥- قد حققه الدكتور أحمد مطلوب وطبع في بغداد سنة ١٣٨٣ . وقد خلط الأستاذ الحمصي بين المصنف وبين حفيده فجعل هذا الكتاب من تصنيف الحفيد : محمد بن علي بن عبدالواحد المتوفى سنة ٧٢٧ ، انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) :١١٢ ، وهذا خطأ ، انظر لتصحيحه مقدمة د . أحمد مطلوب لكتاب ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ١٨-٢٤ .

٤- ((البرهان في إعجاز القرآن)) لابن أبي الإصبع [1] ، رحمه الله تعالى .
والكتاب مخطوط[2] .

٥- ((الإعجاز)) لابن سراقة[3] ، رحمه الله تعالى .
والكتاب مفقود فيما علمت ، والله أعلم .
وسيأتي الكلام على بعض الجوانب من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .[4]

١- عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العَدْواني البغدادي ثم المصريّ ، الشاعر المشهور ، الإمام في الأدب . شعره رائق . عاش نيفاً وستين سنة ، وتوفي بمصر سنة ٦٥٤ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١٩ / ٧ - ١٣ .
٢- للكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة ((تشستر بتي)) في المملكة المتحدة برقم ٤٢٥٥، كما في ((الأعلام)) : ٤/٣٠.
٣- هناك اثنان من العلماء كل منهما يلقب بـ (ابن سُراقة) :
أحدهما :
محمد بن يحي بن سُراقة العامريّ ، وقد توفي سنة ٤١٠ ، كما في ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٤/٢١١ .
الآخـر :
محمد بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الشاطبيّ ، وقد توفي سنة ٦٦٢ ، كما في ((حسن المحاضرة)) للسيوطي : ١ /٣٨١ .
وقد نسب الكتابَ لابن سُراقة - محمد بن محمد - حاجي خليفة ولم يذكر عنوان الكتاب و إنما قال في معرض ذكره لمن صنف في الإعجاز :
((وابن سراقة من حيث الأعداد ذكر فيه من واحد إلى ألوف)) : انظر ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .
وقد ذكره باسمه الصريح : محمد بن محمد بن إبراهيم في الجزء الثاني : ١٣٩٤ ، و نسب إليه الكتاب وسمّاه : كتاب الأعداد . وتابعه على ذلك صاحب كتاب ((هدية العارفين)) : ٢/١٢٧-١٢٨ ، أما الأستاذ الحمصي فقد ذكر أن محمد بن يحي - المتوفّى سنة ٤١٠ - هو الذي صنف الكتاب و لا أدري مستنده في هذا ، انظر ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٨٠ .
أما محمد بن محمد بن إبراهيم فهو شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة . ولد سنة ٥٩٢ ، وكان أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم ، وله مصنفات . توفي سنة ٦٦٢ . انظر ((شذرات الذهب)) : ٥/٣١٠-٣١١ .
٤- انظر ص ٣٣٨ .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن الثامن

لم يصل إلينا من أسماء الكتب المؤلفة في الإعجاز سوى كتاب :

((الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) للإمام يحيى بن حمزة العلويّ[1] .

والكتاب مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[2] .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن التاسع[3]

((كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي ﴾[4] في إعجاز القرآن)) لشمس الدين ابن الجزريّ[5] .

١- هو الشيخ الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي العلويّ ، من أولاد علي بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهما . ولد بصنعاء سنة ٦٦٩ ، واشتغل بالمعارف وهو صبيّ فأخذ في جميع أنواعها على أكابر علماء الديار اليمنية . فاق أقرانه ، و صنف التصانيف الحافلة في جميع الفنون حتى قيل إنها بلغت مائة مجلد . و هو من أكابرأئمة الزيدية بالديار اليمنية . و قد تولى إمامة بلاد اليمن وكان من الأئمة العادلين . مات سنة ٧٤٥ في ذِمَار . وقد جعل الشوكانيّ وفاته سنة ٧٠٥ ، والصحيح ماذكره صاحب ((الأعلام)) أنه توفي سنة ٧٤٥ ؛ لأنه دعا إلى نفسه عقب وفاة المهديّ محمد بن مطهر سنة ٧٢٩ . انظر ((البدر الطالع)) : ٢/٣٣١-٣٣٣ ، و ((الأعلام)) : ١٤٣/٨ .

٢- انظر ص ٢٠٢ ومابعدها ، وصفحة ٦٤٩ ، ٦٥٥ .

٣- أورد صاحب ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ١٥٣/١ كتاباً على أنه من كتب الإعجاز ، واسمه ((تبصير الرحمن و تيسير المنان ببعض مايشير إلى إعجاز القرآن)) من مؤلفات المخدوم المهائمي و أشار إلى أنه مطبوع . وبالرجوع إلى ترجمته في ((نزهة الخواطر)) : ٨٠/٣-٨١ ، ذكر أن له ((مصنفاتٍ كثيرة منها ((تبصير الرحمن وتيسير المنان في تفسير القرآن)) ومن خصائصه أنه تصدى فيه لربط الآيات بعضها ببعض وقد أجاد في ذلك)) فظهر أنه ليس مستقلاً بالإعجاز ، والله أعلم .

٤- سورة هود : آية ٤٤ .

٥- الإمام العلامة محمد بن محمد بن محمد ، شمس الدين أبو الخير الدمشقي ثم الشيرازي الشافعي المقرئ ، ويعرف بـ (ابن الجزريّ) نسبة لجزيرة ابن عمر قرب الموصل . ولد سنة ٧٥١ بدمشق ، واشتد اعتناؤه بالقراءات . دخل القاهرة وجرت له فيها حوادث سافر على أثرها إلى بلاد الروم (الدولة العثمانية) ثم إلى شيراز حيث توفي بها سنة ٨٣٣ . انظر ((الضوء اللامع)) : ٩ / ٢٥٥ - ٢٦٠ .

والكتاب مطبوع ، تكلم فيه مصنفه عن الأوجه البلاغية الإعجازية في الآية المذكورة ، ثم أفرد فصلاً خاصاً لمباحث الإعجاز ختم به الكتاب .

المصنفات في إعجاز القرآن في القرن العاشر

((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للإمام السيوطي ، وهو موضوع الرسالة .

ثم إني لا أعرف كتابا ثانياً في الإعجاز في ذلك القرن ، والله أعلم .

توقف التصنيف المستقل بالإعجاز قرابة أربعة قرون :

ثم إنه بعد القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر لم يصنف كتاب مستقل بإعجاز القرآن الكريم – فيما علمته ، والله أعلم – إنما جاءت آراء العلماء في الإعجاز مبثوثة في كتب التفسير على الأغلب .

المصنفات في إعجاز القرآن الكريم في القرن الرابع عشر

كثرت المصنفات في الإعجاز القرآني في القرن الرابع عشر ، ولا عجب في هذا؛ إذِ القرن الفائت قرن النهضة والصحوة لافي التصنيف فقط بل في كل مناحي الحياة العلمية والفكرية والثقافية ، ولعل السبب في هذا – بعد فضل الله تبارك وتعالى – هو أن الكفار لما استوطنوا بلادنا ، وطعنوا في ديننا وقرآننا هبّ علماء المسلمين يدفعون هذه المطاعن ويردون عليها ، فنشطت حركة التصنيف في شتى

الجوانب ، وقد حاز التصنيف في إعجاز القرآن على جانب كبير من تلك الجهود المباركة .

ولكثرة الكتب المصنفة في الإعجاز ولسهولة معرفتها والاطلاع عليها فإني أتخير منها بعضها مما علمت أنه قوي في مادته ، جيد في عرضها وتقديمها ، فمن تلك الكتب :

١- ((إعجاز القرآن)) للرافعي[١] :

وهو كتاب مشهور مطبوع متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[٢] .

٢- ((النبأ العظيم)) للدكتور محمدعبد الله دراز[٣] :

الكتاب مطبوع مشهور متداول ، وسيأتي الكلام عليه ، إن شاء الله تعالى[٤] .

٣- ((فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق)) للأستاذ نعيم الحمصي[٥] :

وهو كتاب جيد ، تكلم فيه مصنفه عن كثير من كتب الإعجاز ، وقد استفدت منه في مواضعَ بينتها ، وسأتكلم عليه بإيجاز في آخر الباب الرابع[٦] .

١- مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي . عالم بالأدب ، من كبار الكتاب ، و شاعر . أصله من طرابلس الشام ، و مولده في (بَهْتِيم) بمصر سنة ١٢٩٨ . أصيب بصمم ، وشعره فيه جفاف ، ونثره من الطراز الأول . توفي في (طنطا) سنة ١٣٥٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الأعلام)) : ٢٣٥/٧ .

٢- انظر ص ٦٧٢ وما بعدها .

٣- محمد بن عبد الله دِرَاز . عالم ، محقق ، مصري ، أزهري . كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر. له عدة كتب ، توفي – رحمه الله تعالى – سنة ١٣٧٧ . انظر ((الأعلام)) : ٢٤٦/٦ .

٤- انظر ص ٦٩٠ وما بعدها .

٥- هو من المعاصرين من أهل الشام .

٦- انظر ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

٤- ((الإعجاز في دراسات السابقين)) لعبد الكريم الخطيب[١] :

وهو كتاب جيد في بابه يشبه كتاب ((فكرة إعجاز القرآن)) في بحثه في عدد من كتب إعجاز القرآن المبثوثة في القرون الماضية ، وقد استفدت منه في مواضعَ بينتها ، وسأتكلم عليه - إن شاء الله تعالى - بإيجاز في آخر الباب الرابع[٢] .

٥- ((المعجزة الخالدة)) للدكتور حسن ضياء الدين عِتْر[٣] .

٦- ((البيان في إعجاز القرآن)) للدكتور صلاح الخالدي[٤] .

هذه بعضٌ من كتب الإعجاز في القرن الرابع عشر ، ولا يعني هذا أنه ليس هناك كتب جيدة في الإعجاز غيرها ولكن هذا مارأيت أنه الأجود والأحسن ، والله أعلم .

١- هو من المعاصرين من أهل مصر ، توفي بالقاهرة منذ سنوات قليلة ، وقد ألف عدة كتب جيدة ، رحمه الله تعالى .

٢- انظر ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

٣- هو من المعاصرين من أهل الشام ، وهو الآن أستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٤- هو من المعاصرين من أهل الأردن .

المبحث الثالث

القول بـ (الصّرفة) والرد عليه

تقاربت أقوال أئمة أهل السنة في الإعجاز فجاءت أقوالهم متسقة يكمل بعضها بعضاً ، فلم يشذّ أحد منها - إلا القليل - عن أن وجه الإعجاز الصحيح في كتاب الله - تبارك وتعالى - يدور حول الإعجاز بنظمه ، وفصاحة ألفاظه ، وبلاغة معانيه .

هذا هو الإطار العام للإعجاز الذي اتفق عليه أئمة أهل السنة[١] ، فلم ينكره أحد منهم - فيما علمته - إلا القلة القليلة - التي يوهم كلامها القول بـ (الصَّرْفة) ، وسأبين ذلك قريباً ، إن شاء الله تعالى .

هذا وقد أضاف بعض الأئمة عدداً من وجوه الإعجاز اختلفت فيها الأنظار - كما سيأتي إن شاء الله تعالى[٢] - لكن تلك الأوجه كانت تقريراً لمفهوم الإعجاز المتفق عليه ، أو أنها مفاهيم أخرى للإعجاز تزيد من تعميقه في القلوب والأذهان ، مثل الإعجاز بأخبار الغيب ، والإعجاز بالتشريع ونحو ذلك .

المخالفون لأهل السنة :

أما من خالف فجاء في إعجاز القرآن بقول شاذ فهم فرقٌ من غير أهل السنة مثل : بعض المعتزلة ، وبعض الشيعة الإمامية ، وبعض الفلاسفة ، وعدد قليل من علماء أهل السنة ، يُوهم كلامهم ذلك . وكان الذي شذ فيه هؤلاء هو قولهم بـ (الصَّرْفة) .

١- ذكر القاضي عياض - رحمه الله تعالى - أن هذا المفهوم للإعجاز هو الذي عليه الجمهور و الحذاق ، وهو الصحيح في نفسه ، انظر ((المحرر الوجيز)) : ٣٨/١ .

٢- انظر ذلك في الفصل القادم : طرائق التدوين في الإعجاز القرآنيّ : ص ١٢٠ ومابعدها .

وسأذكر – إن شاء الله تعالى – معنى (الصَّرفة) في اللغة والاصطلاح ، ومن تناهى إلى علمي ممن قال بهذا القولِ من المعتزلة ، والإمامية ، ومن وافقهم من أهل السنة ممن يُوهم كلامه القولَ بـ (الصَّرْفة) ، ثم أورد الردود التي رُدّ بها على هذا المذهب الفاسد : (الصَّرْفة) .

(الصَّرْفة) في اللغة والاصطلاح

معاني (الصَّرْفة) في اللغة تدور على صَرْف الشيء عن وجهه إلى جهة أُخرى ، فتصريف الرياح : جعلها جنوباً وشمالاً ، والصيرفيّ : المحتال المتقلب في أموره ، والصَّرْف : التقلب والحيلة ، ومعناه – أيضاً – أن تصرف إنساناً عن وجه يريده إلى مَصْرِفٍ غير ذلك[1] .

و(الصَّرْفة) في الاصطلاح هي :

((صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير مُعَجَّزَةٍ عنها إلا أن العائق[2] من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات))[3] .

فكأن القوم الذين تحداهم الله – تعالى – بالقرآن تحولت هممهم ، وصُرفت عن معارضته بغير إرادتهم ، بل رغماً عنهم ، مع قدرتهم الذاتية على ذلك ، أو أنهم سُلبوا العلوم التي يعرفونها من أنفسهم ، على تفصيل سيأتي قريباً ، إن شاء الله تعالى .

فمعنى (الصَّرفة) – على هذا – أن الله ، تعالى ، لم يمكن الناسَ من إنشاء مثل هذا القرآنِ ، وأن نظم القرآن غير معجز في ذاته ، وإنما عجز القوم عن تأليف

١– لسان العرب : (ص ر ف) .

٢– أي الصارف .

٣– ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٢ .

مثله لأن اللـه ، تعالى ، صرف قُدَرهم وأفكارهم عن هذا ، فالإعجـاز إذاً – عنـد القائلين بــ (الصَّرْفة) – تأثير خارجيّ لا يرجع إلى ذات اللفظ القرآنيّ .

وقـد قـرر الإمام يـحيى بن حمـزة العلوي هذا المعنى وذكـر تفــسيراتٍ ثــلاثةً لـ (الصَّرفة) لاتخرج عنها ، ولحُسْنها وقوتها فإني أوردها لما فيهامن تكملـة مهمـة لمعنى (الصّرفة) ، فقد قال رحمه اللـه تعالى :

((واعلم أن قول أهل (الصَّرْفة) يمكن أن يكــون لـه تفسـيراتٌ ثلاثـة لمـا فيـه مـن الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه :

التفسـير الأول : أن يريـدوا بــ (الصَّرفـة) أن اللــه تعــالى ســلب دواعيَهـــم إلى المعارضـة مـع أن أسـباب توفـر الدواعـي في حقهـم حاصلـة مـن التقريـع بـــالعجز ، والاسـتنزالِ عـن المراتـب العاليـة[1] ، والتكليـف بالانقيــاد والخضــوع ، ومخالفــة الأهواء .

التفسير الثاني : أن يريدوا بــ (الصَّرْفة) أن اللـه تعالى سلبهم العلوم التي لابد منها في الإتيـان بما يـشاكل القـرآن ويقاربـه ، ثـم إن سَلْب العــلوم يمكـن تنزيلـه علـى وجهين :

أحدهما أن يقال : إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار لكن اللـــه – تعالى – أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم .

وثانيهما أن يقال : إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خلا أن اللــه تعـالى صـرف دواعيَهم عن تجديدها[2] مخافة أن تحصل المعارضة .

١– أي لو دخل الكافرون المتحدَّوْن في الإسلام .

٢– أي استئنافها و ابتدائها في عقولهم ، وعبر بالتجديد فكأن القوم أدخلوا جديداً على علومهم السابقة .

التفسير الثالث : أن يراد بـ (الصَّرْفة) أن اللـه – تعالى – منعهم بالإلجاء على جهـة القَسْر عن المعارضة مع كونهم قـادرين وسـلب قواهـم عـن ذلـك ، فلأجـل هـذا لم تحصل المعارضة[1] .

وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجـاد المعارضـة للقـرآن إلا أن اللـه – تعالى – منعهم بما ذكرناه))[2] ، وهذا قد سبقت الإشارة إلى عدم صحته .

ذكر من قال بـ (الصَّرفة)

أولاً : القائلون بـ (الصَّرفة) من المعتزلة[3] :

كان عدد من أئمة الاعتزال قد تكلموا في إعجاز القرآن ونسبوا عجز العـرب عن معارضته البيانية إلى (الصَّرفة) التي صُرفوا بها .

ومن أبرز من تكلم في (الصَّرفة) منهم :

١- النظّام ، حيث قال :

((الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظـم فقـد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن اللـه منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم))[4] .

وقال أيضاً :

((إن نظم القرآن وحسنَ تأليف كلماته ليس بمعجـزة للنبي – عليـه السـلام – ولا دلالةً على صدقه في دعواه النبوة ، وإنما وجـه الدلالـة منه على صدقـه مـا فيـه مـن

١- الفرق بين التفسير الثالث و الأول أن القوم – في التفسير الأول – كانوا قد سُلبوا الداعيَ إلى المعارضة مع توفره في حقهم للتحـدي الحاصـل لهم ، أما في التفسير الثالث فإن القـوم يملكـون دواعي المعارضـة ولكـن اللـه منعهم وسلب قواهم عن ذلك . أما التفسير الثاني فإنه يذكر العلوم اللازمة للمعارضة سواء توفرت الدواعي عليها أم لا.

٢- ((الطراز)) : ٣/٣٩١-٣٩٢ .

٣- وإنما بدأت بهم وثنيت بأهل السنة لأن المعتزلة هم أول من أسس هذا القول ونصره .

٤- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ ، و((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٠ .

الإخبار عن الغيوب ، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته فإن العباد قادرون على مثله وعلى ما هو أحسن منه في النظم والتأليف[1] ، وفي هذا عناد منه لقول الله تعالى :
﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[2]))[3] .

والملحوظ – هنا – أن النظّام لم ينف إعجاز القرآن الكريم في ذاته ، وإنما حصره في الإخبار بالغيوب التي لايُستطاع الإتيان بمثلها ، أما النظم والأسلوب فكان الإعجاز فيهما – عنده – بـ (الصّرفة) ، وقد داخله الخطأ من تقرير قدرة العباد على معارضة النظم والأسلوب ، وهو في هذا مكابر ، متحدٍّ لما ذكره الله تعالى من استحالة الإتيان بمثله .

٢– وقد جاء معاصره عيسى بن صُبَيح المزدار بأقبح من هذا حين قال :
((إن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظماً وبلاغة))[4] .

أي بدون تقييد ذلك بـ (الصَّرْفة) كما فعل النظام ، و لم يُعرف عنه القول بـ (الصَّرْفة) صراحةً ، وإنما أتيت به لاحتمال كلامه لهذا المذهب ، والله أعلم .

١– أي لولا أن الله صرفهم عن هذا – في اعتقاده –كما هو مفهوم من النص السابق من ((مقالات الإسلاميين)) .

٢– سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٣– ((الفرق بين الفرق)) : ١٢٨ .

٤– ((الملل و النحل)) : ٦٩/١ .

٣،٤- هشام الفُوَطي وعبّاد بن سليمان :

وقد وافق النظّامَ والمزدارَ على إنكار إعجاز القرآن بنظمه وأنّ العباد قادرون على مثله وافقهما هشامٌ الفُوَطيّ وعبّاد بن سليمان ، قال الأشعريّ :

((قالت المعتزلة إلا النظّام وهشاماً الفُوَطيّ وعبّاد بن سليمان : تأليف القرآن ونظُمه معجز محال وقوعُه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه عَلَمٌ لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم))[1] .

فهشام وعبّاد لايريانِ أن القرآن معجز بنظمه ، ولازم هذا أنهما يقولان بـ (الصَّرفة) ، بل نص على قولهما ذلك الباقلاني[2] .

٥- الجاحظ :

أُثر عنه القول بـ (الصَّرفة) حيث قال :

((ومثل ذلك[3] ما رَفع من أوهام العرب ، وصَرَف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنظمه ، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه ، ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شبهة[4] لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب ، والنساءِ وأشباه النساء ، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ، ولكثر القيل والقال .

١- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ .

٢- ((إعجاز القرآن)) : ٦٥ .

٣- كان الجاحظ يتكلم قبل هذا على أن الله ينسي بعض خلقه أشياء كثيرة حكمةً منه ، ورحمةً لهم أو نقمة . انظر ((الحيوان)) : ٨٦/٤-٨٨ .

٤- أي بأدنى شبهة على أنه صالح لمعارضة القرآن لكونه مثلَه أو قريباً منه في فصاحته وبلاغته .

فقد رأيتَ أصحاب مسيلِمة ... إنما تعلقوا بما أُلّف لهم مسيلِمة من ذلك الكلامِ الذي يعلم كلٌّ من سمعه أنه إنما عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضَه وتعاطى أن يُقارنه ، فكان لله ذلك التدبيرُ[1] الذي لا يبلغه العبادُ ولو اجتمعوا له))[2] .

ولكن قد أُثِر عن الجاحظ كلام كثير يفيد عجز العرب عن معارضته لقوة نظمه وبلاغته وليس لـ (الصَّرفة) ، ومن أبرز ما قاله في هذا هو ما جاء في آخر رسالته : ((حججِ النبوة)) :

((فصل في ذكر امتناعهم عن معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها)) ذكر فيه بوضوح أن عجز العرب عن معارضة القرآن ثابت ، ((و لم يزل الله - تعالى - يقرعهم بعجزهم وينتقصهم على نقصهم حتى تبينِ ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم ، وكان ذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قطُّ مع سائر ماجاء به من الآيات وضروب البرهانات))[3] .

وقال أيضاً : ((وفي كتابنا المنزل الذي يدلنا على أنه صِدقٌ نَظْمُه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد))[4] .

وقد قال الخياط المعتزلي[5] :

١- أي في عدم المعارضة بشيء مثل القرآن أو قريب منه ، إنما عورض بمثل كلام مسيلِمة المسروقِ أسلوبُه من الأسلوب القرآنيّ .

٢- ((الحيوان)) : ٨٩/٤ .

٣- ((مجموع الرسائل)) : ٢٧٩/٣-٢٨٠ .

٤- ((الحيوان)) : ٩٠/٤ .

٥- هو أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان شيخ المعتزلة البغداديين ، له الذكاء المفرط والتصانيف المهذبة ، وكان قد طلب الحديث . له جلالة عجيبة عند المعتزلة وقد صنف عدة كتب . لا يعرف له تاريخ وفاة ، وقد صُنف في الطبقة الثامنة من المعتزلة وهي في حدود أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٢٠/١٤ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٢٩٦-٢٩٧ .

((لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك مابلغه الجاحظ ، ولا يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه وأنه حجة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى نبوته غير كتاب الجاحظ))[1] .

فإذا عُلم هذا كله فإنه لا يبعد - عندي - أن الجاحظ كان يرى الإعجاز بالنظم والتأليف وبـ (الصَّرْفة) أيضاً ، جمعاً بين كلامه - وذلك كما صنع الرمانيّ بعده[2] - وإن كنت أرى أن هذا الجمعَ جمعٌ بين متناقضَيْن ؛ إذ كيف يُجمع بين القول بـ (الصَّرفة) التي من لوازم القول بها أن القرآن يمكن معارضته ، كيف يمكن الجمع بينها وبين القول بإعجاز القرآن الذاتي وذلك في نظمه وبلاغته مما لايمكن معه المعارضة ، هذا لايستقيم في تقديري ، والله أعلم .

وقد حاول جمعٌ من الباحثين التوفيق بين قول الجاحظ بالإعجاز في النظم والبلاغة وبين قوله بالإعجاز بـ (الصَّرْفة) ، ولعلهم أخذوا ذلك من قول الجاحظ آنفاً :

((وصرف نفوسهم عن المعارضة **بعد** أن تحداهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنظمه))

فكان مما قالوه في ذلك :

((فالقرآن معجز عند الجاحظ لنظمه ثم لأن العرب حاولوا معارضته فعجزوا مع أن الكلام سيد عملهم .

وأما عن (الصَّرفة) فهي وجه من وجوه إعجاز القرآن ولكن تأتي مرتبتها بعدمرتبة التحدي والتجربة والفشل ثم الاعتراف بالعجز ، وهنا يأتي لطف الله بالناس من أن يطمع في القرآن طامعٌ ويتكلفه ويَشْغب بما سُمح له فيتعلق به البسطاء

١- ((الانتصار)) : ١١١ .

٢- هذا الجمع بين الإعجاز بالنظم والصَّرفة استفدته من كتاب ((المعجزة الخالدة)) : ١٧٨ ، وانظر رأي الرماني في ص ١٧٧ من هذه الرسالة .

وتكثر المحاكمة وتنتشر البلبلة بين الناس ... فالعدل الإلهيّ الذي منح حرية الإرادة للإنسان وإمكانَ القدرة ثم هيأ للعقل أن يفكر ويجرب معارضة القرآن حتى إذا فشل اعترف بالعجز ، قد صرف أوهام من يريدون أن يتكلفوه حتى لايتعلق الناس بذُبالات المُمَخْرِقين[1] ويختلط الأمر))[2] .

فخلاصة كلامه الذي فهمه من كلام الجاحظ أن القرآن معجز بنظمه حتى إذا تأكد الناس من هذا صرف الله قُدَرَهم عن المعارضة حسماً للقيل والقال .

((وهذا شيء بعيد تماماً عن (الصَّرفة) التي كان يقول بها أستاذه النظّام والتي لم يرضها الجاحظ بل بذل جهده في الدفاع عن النظم القرآنيّ وبيان أنه معجز ، وفي هذا هدم لآراء النظّام))[3] .

وهذا جُهدٌ مشكور في توجيه كلام الجاحظ والجمع بين قوله بـ (الصَّرفة) وقوله بإعجاز القرآن في نظمه وبلاغته ، ولكنّ صورة التناقض بين القولين لم تغادر كلام الجاحظ بعد ؛ إذِ الجمع بين (الصَّرفة) والقول بإعجاز الذاتي على النحو المذكور آنفاً لايساعده واقع تاريخيّ ، فنقرُّ لهم بما حاولوه من الجمع ؛ إذ من قال بأن العرب قد صُرفوا عن المعارضة بعد أن يئسوا منها – وذلك حسب التوجيه السابق – ومتى صُرفوا عنها ؟ أَقَبْل وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أم بعدها ، فإن كان ذلك في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – بطل التحدي بالمعارضة و لم يقل بهذا أحدٌ ، وإن كان بعد وفاته – صلى الله عليه وسلم – لِمَ يُحرم من جاء بعدُ من المعارضة لعجز من كان قبله عنها ؟ هذا والحال أن الخطاب القرآنيّ الذي

١- مَخْرق : أظهر الخَرَق – الحُمق – توصُّلا إلى حيلة : مَوّه ، فهو مُمَخْرِق ، وقال الجوهري : مولّدة : ((معجم متن اللغة)) : مخرق . أما الذبالة فهي الفتيلة وانظر ((معجم متن اللغة)) : ذبل .

٢- ((إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة)) : ٢٠٢ ، ويقاربه ماجاء في ((الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره)) : ٦٢ .

٣- ((الإعجاز القرآنيّ وجوهه وأسراره)) : ٦٢ .

يتحدى الناس أن يأتوا بمثل هذا الكلام العظيم باق في الناس إلى يوم القيامة ، محكمٌ لم ينسخه شيء .

الحاصل أن كلام الجاحظ فيه بعض تناقض لايرفعه من حاول توجيهه ، ولا عجب إذاً أن تساءل أحد الباحثين متعجباً من اجتماع النقيضين : (الصَّرفةِ) والإعجاز بالنظم والبلاغة :

((هل قال بالأول حين كان لايزال متأثراً بآراء أستاذه النظَّامِ ، وبالثاني حين استقلّ بنفسه ، أو إنه جمع الرأيين معاً ؟ لاندري ... وأنا أستبعد أن يكون الجاحظ قد قال بالرأيين معاً في وقت واحد لما نعرفه عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة ، فإن الرأيين متناقضان))[1] .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن القولين الآنفين للجاحظ :
((ولا شك أن هذه من إحدى مغالطات الجاحظ وخِلابته[2] ، بما أوتي من قوة الحجة وسطوة البيان))[3] .

وقال الرافعيّ ، رحمه الله تعالى :
((أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يُعهد مثلها ، وله في ذلك أقوال نشير إلى بعضها في موضعه ، غير أن الرجل كثير الاضطراب ... ولذلك لم يسلم هو أيضاً من القول بـ (الصَّرفة) وإن كان قد أخفاها وأومأ إليها...))[4] .

١- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ٥٦ - ٥٧ .

٢- الخِلابة : الخداع . ((لسان العرب)) : خ ل ب .

٣- ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : ٣٦٩ .

٤- ((إعجاز القرآن)) للرافعي : ١٤٧ .

ورأي الرافعي هذا هو الذي أميل إليه وأنصره ، وهو أن الجاحظ قال بالقولين معاً ، كما صنع الرمانيّ من بعده ، حيث جعل (الصَّرفة) وجهاً من سبعة أوجه للإعجاز[1] .

أما لماذا صنع الجاحظ ذلك ؟ أإيماءً لمذهبه ومغالطةً منه كما ذكر الأستاذ الخطيب ، أم لشيء آخر ارتآه ؟ فالله أعلم .

٦- الرُّمّانيّ :

وذلك في كتابه ((النكت في إعجاز القرآن)) حيث ذكر سبعة أوجه للإعجاز منها (الصَّرفة)[2] ، وسيأتي الكلام على أوجه الإعجاز عنده ، إن شاء الله تعالى[3] .

٧- أبو إسحاق النصيبيّ[4] :

و لم أر من نسب إليه القول بـ (الصَّرفة) سوى الإمام يحيى بن حمزة العلوي[5] .

١- انظر ص ١٧٧ من هذه الرسالة .

٢- انظر صفحة ١١٠ من ذلك الكتاب المذكور .

٣- انظر ص ١٧٧ ومابعدها .

٤- جاءت ترجمته في كتاب ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) شذراتٍ متفرقةً حيث ذُكر أنه ((يرجع إلى فضل غزير ، قرأ على الشيخ أبي عبد الله)) ، وذُكر أيضا أن الشريف المرتضى قرأ عليه .
انظر ((فضل الاعتزال)) : ٣٧٨ ، ٣٨٣ على التوالي . و لم أستطع معرفة اسمه أو تاريخ وفاته .

٥- ((الطراز)) : ٣٩١/٣ .

ثانياً : أقوال تُوهم القول بـ (الصَّرفة) منسوبة إلى بعض أهل السنة :

لابد أن يُعلم ابتداءً أنه لم يشتهر عن أكثرهم هذا القول ، ولكني وجدته في كتبهم أو في كتب أهل العلم الذين نقلوا عنهم هذه الأقوال فصار لزاماً علي ذكرُهم ثم توجيه أقوالهم إن وجدت إلى ذلك سبيلاً صحيحاً :

١- الشيخ أبو الحسن الأشعري :

نسبه إلى القول بـ (الصَّرفة) القاضي عياض[1] - رحمهما الله تعالى - حيث قال :

((وقد اختلف أئمة أهل السنة في وجه عجزهم عنه ، فأكثرهم يقول إنه ما[2] جَمع في قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظه ... لا يصح أن يكون في مقدور البشر ... وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ، ويقدرهم الله عليه ، ولكن لم يكن هذا ولا يكون ، فمنعهم الله هذا ، وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابه))[3] .

وقال الخفاجيّ [4] ، رحمه الله تعالى :

١- هو الشيخ الإمام القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليَحْصُبي الأندلسيّ ثم السبتيّ المالكيّ . ولد سنة ٤٧٦ ، واستبحر من العلوم ، وجمع وألّف ، و اشتهر اسمه في الآفاق ، و له شعر حسن . و هو إمام الحديث في وقته ، وأعرف الناس بعلومه ، وبالنحو واللغة ، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم . توفي شهيداً مقتولاً بمرّاكُش سنة ٥٤٤ ؛ وذلك لإنكاره عصمةَ ابن تُومرت أمير الموحدين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢١٢/٢٠-٢١٨ .

٢- في ((الشفا)) المطبوع في ((المكتبة السلفية)) بشرح الخفاجي : ((مما)) ، وهو أقرب إلى المعنى المراد ، وقد قدّر الخفاجيّ الكلام بالآتي : ((أي لايمكنهم القدرة على مثله لِما جمعه مما لاتطيقه قدرتهم)) : انظر ((نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض)) : ٢ / ٥٠٣ .

٣- ((الشفا)) : ٣٧٣/١ .

٤- هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الخفاجيّ المصري الحنفيّ ، صاحب التصانيف السائرة ، وأحد أفراد الدنيا . أخذ عن عدد من مشايخ عصره ، وأخذ الطب عن داود الأنطاكيّ ، وقد ارتحل إلى القسطنطينية وأخذ عن فضلائها ومشايخها . توفي بمصر سنة ١٠٦٩ وقد أناف على التسعين .
انظر ((خلاصة الأثر)) : ١ / ٣٣١-٣٤٣ .

((نُقل[1] عن الأشعريّ إلا أنه لم يشتهر عنه))[2] .

ثم ذكر أن من الناس من قال إنه يحتمل أن يكون رجلاً آخر غيرَ أبي الحسن ، وقيل إن كلام القاضي قد دخله وهم ما ، وقيل غير ذلك[3] .

وأنا أميل إلى أنه قد يكون قال ذلك عندما كان معتزلياً - حيث إنه قضى معظم عمره في الاعتزال - ثم رجع عن ذلك مع جملة مارجع عنه من آراء المعتزلة ومعتقداتهم ، وإذا ثبت ذلك القول عنه بعد رجوعه إلى السنة فإن الشيخ أبا الحسن أجلُّ من أن يقول بـ (الصَّرْفة) على وجهها المعروف ، لكنه من منهجي ذكرُ جميع من نُسب إليه القول بـ (الصَّرفة) على وجه الاستقصاء ، ولهذا ذكرته هاهنا .

ومن نسب إليه القول بـ (الصّرفة) من أهل السنة :

٢- الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايينيّ[4] رحمه الله تعالى :

جاء في ((شرح المواقف)) ما يأتي :

((و قيل : إعجازه بـ (الصَّرفة) ، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته ، واختلف في كيفية الصّرف فقال الأستاذ أبو إسحاق - منا[5] - والنظّام ، من المعتزلة : صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها ؛ وذلك بأن صرف دواعيَهم إليها مع كونهم مجبولين عليها

١- أي القول بالصَّرفة .

٢- ((نسيم الرياض)) : ٥٠٤/٢ .

٣- انظر هذه الأقوال في المصدر السابق .

٤- الإمام العلامة الأوحد ، الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفرايينيّ الأصولي الشافعيّ ، أحد مجتهدي عصره وصاحب المصنفات الباهرة . ارتحل في الحديث و سمع من مشايخ ، و أملى مجالس في الحديث . كان من المجتهدين في العبادة ، المبالغين في الورع . بُني له بنيسابور مدرسة عظيمة ودرّس فيها . توفي سنة ٤١٨ بنيسابور . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٣٥٣/١٧-٣٥٦ .

٥- أي من أهل السنة .

خصوصاً ، عند توافر الأسباب الداعية في حقهم كالتقريع بالعجز ، والاستنزال عن الرياسات ، والتكليف بالانقياد ...))[1] .

٣- وممن قد يفهم من كلامه القولُ بـ (الصَّرفة) الإمام الماورديّ [2] :

قد فصّل في كتابه : ((أعلام النبوة)) أوجه الإعجاز في كتاب الله - تبارك وتعالى - فذكر عشرين وجهاً كان آخرها القول بـ (الصَّرْفة) حيث قال :

((الوجه العشرون من إعجازه : (الصَّرفة) عن معارضته ، واختَلف من قال بها: هل صُرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم ؟ على قولين :

أحدهما : أنهم صُرفوا عن القدرة ، ولو قدروا لعارضوا .

والقول الثاني : أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم ، و (الصَّرفة) إعجاز على القولين معاً في قول من نفاها وأثبتها))[3] [4] .

ومن الممكن أن يقال - هنا - إن الإمام الماورديّ إنما حكى ذينك القولين عن غيره ، ولم يُرِد بحكايته لهما إثبات (الصرفة) ، لكنه لـمّا سكت عن تقرير المذهب الحق وردِّ المذهب الباطل فقد أوردته هاهنا التزاماً مني بذكر من قال كلاماً يُوهم (الصرفة) ، والله أعلم .

١- ((شرح المواقف)) مع حاشيته للسيالكوتي وحسن حلبي : ٢ / ٤٢١ .

٢- هو الشيخ الإمام علي بن محمد بن حبيب الماورديّ الشافعيّ ، أقضى القضاة ، صاحب التصانيف . ولي القضاء ببلدان شتىّ ، ثم سكن بغداد . تبحّر في مذهب الشافعي . توفي سنة ٤٥٠ وقد بلغ ستا وثمانين سنة. انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٦٤ - ٦٨ .

٣- (الصَّرفة) معجزة في قول من نفاها لأن ذلك النفيَ ينتج عنه أن القرآن معجز في ذاته ، ومن أثبت (الصَّرفة) فإن صَرْف الله العربَ عن معارضة القرآن دالٌّ على النبوة وأن القرآن من عند الله .

٤- ((أعلام النبوة)) : ٩٥ .

ومن قد يُفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) :

٤- الإمام ابن حَزْم الظاهريّ[١] :

لم يُشتهر عنه القول بـ (الصَّرفة) ولكني وجدت من كلامه في الإعجاز أنه يقول :

((لم يقل أحد من أهل الإسلام إن كلام غير الله - تعالى - معجز ، لكن لما قاله الله[٢] - تعالى - وجعله كلاماً له أصاره معجزاً ومنع من مماثلته ، وهذا برهان كافٍ لا يُحتاج إلى غيره ، والحمد لله))[٣] .

فجملة : ((أصاره معجزاً ومنع من مماثلته)) قد يفهم منها أنه يقول بـ (الصَّرْفة) .

ويمكن أن يوجه قول ابن حزم : ((أصاره معجزاً)) بأن الكلماتِ القرآنيةَ هي نفسها الكلمات التي يتداولها العرب تقريباً ، لكن لما تكلم الله - تعالى - بها أصارها معجزة في أسلوب نظمها وبلاغتها ، وعلى هذا - أيضاً - يتنزل قول ابن حزم : ((ومنع من مماثلته)) أي منع الله - تعالى - أن يماثل كلام أحد القرآن ؛ لكنّ هذا المنع لم يكن بسبب (الصَّرفة) وإنما كان لبلوغ هذا الكلام

١- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسيّ الأصل ثم الأندلسيّ القرطبيّ . ولد سنة ٣٨٤ بقرطبة ، وسمع فيها وغيرها ، وحدث عن طائفة كبيرة ، ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيّالاً ، وكتباً نفيسة كثيرة . وكان ينهض بعلوم جمّة ، ويجيد النقل ويحسن النظم و النثر ، و كان حافظاً للحديث وفقهه . توفي سنة ٤٥٦ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ١٨٤ - ٢١٢ .

٢- أي القرآن .

٣- ((الفِصَل في الملل و الأهواء و النحل)) : ٣ / ٢٩ .

المنزلـةَ التي ليس بعدها منزلة ، واللـه أعلم[1] .

وممن قد يُفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) أيضاً :

٥- الحافظ البيهقي[2] ، رحمه اللـه تعالى ؛ إذ ذكر في كتابه ((الاعتقاد)) أوجهاً خمسة من وجوه الإعجاز في القرآن قال بها أهل العلم ممن سبقه ، وذكر (الصَّرفة) وجهاً خامساً فقال :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن اللـه أعجـز النـاس عـن الإتيـان بمثلـه ، وصـرف الهمم عن معارضته مـع وقـوع التحـدي وتوفـر الدواعـي إليـه ، لتكـون آيـة للنبـوة وعلامة لصدقه في دعواه))[3] .

ثم إنه نصر هذا الرأي وقوّاه وذهب إليه بقوله :

((وأمّا (الصَّرْفة) والتعجيز مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله فإنما يُعلم ذلـك بعدم المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة إليه ، وذلك مالا يجـوز أن يشـك فيـه عاقل من أنهم لوكانوا قادرين عليـه لبـادروا إليـه مـع حرصهـم علـى إبطـال دعوتـه ونقض كلمته ...

١- قال الأستاذ أبوزهرة رحمه اللـه تعالى مفسراً قولَ ابن حزم بـ (الصَّرْفة) :

((وإن ذلك الكلام يبدو بادىء الرأي غريباً من ابن حزم ، ولكن المتأمل فيه يجده سائراً على مذهبـه في نفي الرأي ، والحكمِ بظاهر القول من غير تعليل ، فالاتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته التي عَلَت عن طاقة العرب والتي جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه من غير مراء ولا جدال يُعد تعليلاً ، وهو من باب الرأي الذي ينفيه والتعليل الذي يجافيه)) . انظر ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٧٩ .

وهذا التوجيه يبدو مقبولاً إلا أني أرى أنه لا يمكن لمن كان في مكانة ابن حزم إنكارُ الإعجـاز البياني ، إنما قُصـارى أمـره أنـه يـرى الإعجـاز بـ (الصرفة) وجهـاً من الوجـوه المعتـبرة ، كما رأى ذلك الجاحـظ والرماني من قبل ، هذا إن لم يتوجّه ما ذكرته من التعليل في الصفحة السابقة،واللـه أعلم .

٢- هو الشيخ الإمام العلامة أبوبكر أحمد بن الحسين بن عليّ الخراسانيّ البيهقي . ولد سنة ٣٨٤ ، و سمع من طائفة كثيرة ، وبورك في علمه وتصانيفه ، وله عدد من المصنفات النافعة . كان ورعاً ، زاهداً ، قانعاً . وكان أهلاً للاجتهاد . توفي سنة ٤٥٨ ، ودفن بـ (بَيْهق) من أعمال نيسابور .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ١٦٣ - ١٧٠ .

٣- ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء فجعل يتلـوى مـن شدة الظمأ ولا يشرب الماء ، فلا يشك شاكٌّ أنه عاجز عن شربه ، أو ممنـوع لسـبب يعـوق عنـه ، وأنـه لم يتركـه اختيـاراً مـع توفـر الدواعـي لـه ، وشـدة الحاجـة منـه إليه))[1] .

وكلامه من قوله : ((وسبيل هـذا ...)) إلى آخـر مـا قالـه قـد يوهـم إرادتـه (الصَّرفة) ، ولكن قد ظهر لي أنـه حكـى القولـين جميعاً ولم يخـرج بشـيء فصـل فيهما ، فلا يُعلم - على التحقيق - مذهبُه في هذه المسألة ، فيُحمل أمره فيهـا علـى قول سائر أئمة أهل السنة في هذه المسألة ، وهو أن الإعجاز بـ (الصَّرفة) بـاطلٌ ، واللـه أعلم .

وارتضاؤه القولَ بإعجاز القرآن من جهة نظمه وبلاغته والقولَ بالصَّرفة - إن ثبت ذلك - هو مذهب الجاحظ والرُّمّاني من قبله ، وهو الذي رأيت أن فيه تناقضـاً واضحاً بينته في موضعه[2] ، واللـه أعلم .

وممن قد يفهم من كلامه القول بـ (الصَّرفة) :

٦ - الراغب الأصبهاني[3] ، حيث قال :

((إن الإعجاز في القرآن على وجهين :

١- ((الاعتقاد)) : ٢٦٦ .

٢- انظر ص ٩٩-١٠٢ .

٣- العلامة الماهر ، المحقق الباهر ، أبوالقاسم الحسين بن محمد بن المفضّل الأصبهاني ، الملقب بـ (الراغب) ، صاحب التصانيف . كان من أذكياء المتكلمين . سكن بغداد واشتهر . توفي سنة ٥٠٢ . انظر ((سير أعـلام النبلاء)) : ١٨ / ١٢٠ - ١٢١ ، و ((الأعلام)) : ٢ / ٢٥٥ .

والشيعة يعتقدون أنـه منهم ، ويُنسب أيضاً إلى الاعتزال لكن الأصح - إن شاء اللـه تعالى - أنه من أهل السنة ، انظر كلام د . أحـمد حسن فرحات على هذه المسألة في مقدمة تحقيقه لرسالة ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) : ١٣-١٦.

أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني بصرف الناس عن معارضته))[١].

ثم قال بعد كلامٍ عن الإعجاز البياني :

((وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهرٌ أيضاً **إذا اعتُبر**[٢] ، وذلك أنه مامن صناعة ولافِعلة من الأفعال محمودةً كانت أو مذمومة إلا بينها وبين قوم مناسبات خفية ، واتفاقات إلهية ، بدلالة أن الواحد يُؤْثر حرفة من الحرف فينشرح صدره بملابستها ، وتطيعه قواه في مزاولتها فيقبلها باتساع قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر ... فلما رُئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن ، وعجّزهم عن الإتيان بمثله ، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته لم يَخْفَ[٣] على ذي لُبٍّ أن صارفاً إلهياً يصرفهم عن ذلك .

وأي إعجاز أعظم من أن تكون طاقة البلغاء مخيّرةً في الظاهر أن يعارضوه ، ومجبرةً في الباطن عن ذلك[٤] ...))[٥] .

٦ – وممن يُنسب إليه القول بـ (الصّرفة) من أهل السنة :

٧ – ابن كمال باشا[٦] :

١- ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) : ١٠٤ .

٢- كلامه هذا يدل على أنه لاينتحل (الصَّرفة) مذهباً إنما يقول بها على سبيل التنزل ، وسيأتي شرح هذا التنزل في الصفحة القادمة .

٣- ((لم يخف)) وما بعدها جواب ((فلمّا رُئي)) .

٤- أي مصروفة .

٥- ((مقدمة جامع التفاسير)) : ١٠٨ - ١٠٩ .

٦- أحمد بن سليمان بن كمال باشا ، العلامة ، أحد علماء الدولة العثمانية .
اشتغل بالعلم وهو شاب ، ثم تنقل في الوظائف كالتدريس وقضاء العسكر . وكان من العلماء الذين صرفوا جميع أوقاتهم إلى العلم يشتغل به ليلاً و نهاراً ، وصنف رسائل كثيرة قرابة المائة ، وله عدة كتب .
توفي سنة ٩٤٠ . انظر ((الكواكب السائرة)) : ٢ / ١٠٧ - ١٠٨ .

قد نسب إليه هذا القولَ الأستاذُ نعيم الحمصيّ[1]، ونقل كلامه ملخّصاً وبالمعنى فلم يتضح لي رأي ابن كمال باشا في هذه المسألة حيث إن الكلام الذي ساقه الأستاذ نعيم عنه لايكفي للحكم عليه بأنه يقول بـ (الصرفة) .

إنصاف وتعليل :

لعل من نُسب إليه القول بـ (الصَّرفة) من أهل السنة – ممن لم يتضح مرادهم منها كالأشعريّ والإسفراييني – ارتضوها وجهاً من وجوه الإعجاز على سبيل التنزّل مع الخصم[2] ، ومن باب الاحتمالات العقلية لا على سبيل الوقوع ، فقد : ((قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في (الصَّرفة) فقال :

إن كان القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا هي في قواهم معارضته فقد حصل المدَّعى ، وهو المطلوب .

وإن كان في إمكانهم معارضتُه بمثله و لم يفعلوا مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة – وإن لم تكن مرضيّةً ، لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا – إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلةِ والمنافحةِ عن الحق ، وبهذه الطريقةِ أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر ، و ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾))[3] .

١- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٦٤ – ١٦٦ .

وقد نقل المصنف كلام ابن كمال باشا من رسائله : ج ١ / ٣١ ، و لم أقف إلا على جزء من رسائله ليس فيه رسالة عن القرآن .

٢- ونحو هذا ماصنعه الراغب الأصفهاني مما نقلته عنه آنفا .

٣- ((الإعجاز القرآني : وجوهه و أسراره)) : ٥٥ ، نقلاً عن ابن كثير رحمه الله تعالى ، و لم أعثر على نص ابن كثير ، و لم يبين صاحبُ الكتاب المصدر الذي استقى منه ذلك النص .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية كلاماً يقارب كلام الإمام ابن كثير ، انظر ((الجواب الصحيح)) : ٥ / ٤٢٩ – ٤٣٢ .

وإنما قلت ذلك لأني لم أقف على كلام الأشعري والإسفراييني وابن كمال باشا لأعلم كيف انتحلوا (الصَّرفة) وقالوا بها ، إن ثبت عنهم ذلك ، والله أعلم .

ثالثاً : القائلون بـ (الصَّرفة) من الإمامية والرافضة :

١- الشريف المرتضى[١] :

قد نُقل عنه أنه يقول بـ (الصَّرفة) ، لكني لم أجد نص كلامه[٢] .

٢- ابن سنان الخفاجي[٣] :

قد صرح ابن سنان بالقول بـ (الصَّرفة) حيث قال :

((متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه ... وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سُلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة))[٤] .

قاتله الله ما أجهله بقدر هذا الكلام العظيم ، وما أجرأه عليه .

١- يلاحظ أن الإمامية يشتركون مع المعتزلة في عدد من أصول عقائدهم ، فالشريف المرتضى - مثلاً - إمامي معتزليّ . انظر ترجمته ص ٨٣ .

٢- ممن ذكر هذا القول عنه ، يحيى بن حمزة العلويّ في كتابه ((الطراز)) : ٣ / ٣٩١ ، والآلوسيّ في ((روح المعاني)) : ١ / ٢٨ .

٣- أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ ، الشاعر الأديب . كان يرى رأي الشيعة الإمامية . قتل مسموماً سنة ٤٦٦ بقلعة عَزاز من أعمال حلب . انظر ((فوات الوفيات)) : ٢ / ٢٢٠ - ٢٢٤ .

٤- ((سر الفصاحة)) : ٩٩ - ١٠٠ .

رابعاً : وممن قال بـ (الصّرفة) من الفلاسفة : نصير الدين الطوسي[1] حيث قال :

((إعجاز القرآن على قول قدماء المتكلمين وبعض المُحْدَثين : في فصاحته ، وعلى قول بعض المتأخرين : في صرف عقول الفصحاء القادرين على المعارضة عن إيراد المعارضة .

قالوا[2] : كل أهل صناعة اختلفوا في تجويد تلك الصناعة فلا محالة يكون فيهم واحد لا يبلغ غيره شأوه ، وعجز الباقون عن معارضته ، ولا يكون ذلك معجزاً له لأن ذلك لا يكون خرقاً للعادة ، لكن صرف عقول أقرانه القادرين على معارضته يكون خرقاً فذلك هو المعجز))[3] .

ونَقْله لرأي القائلين بـ (الصرفة) من غير تفنيد دالٌّ على أنه قابلٌ بها غير معارض لها ، والله أعلم .

١- محمد بن محمد بن الحسن ، نصير الدين أبو عبدالله الطوسيّ الفيلسوف ، صاحب علوم متنوعة . ولد سنة ٥٩٧ بطوس . كان رأساً في علم الأوائل ، وكان ذا حُرمة وافرة عند هولاكو فابتنى بمدينة مراغة مكتبة عظيمة وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى احتمع فيها زيادة عن أربع مائة ألف مجلد . وكان سمحاً حليماً ، حسن العشرة غزير الفضائل ، داهية . له تصانيف كثيرة في أنواع من العلوم وله شعر بالعربية والفارسية . توفي ببغداد سنة ٦٧٢ . انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١ / ١٧٩ - ١٨٣ .

٢- أي المتأخرون القائلون بـ (الصَّرفة) .

٣- نقلت هذا النص من كتاب ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٠٩ الذي نقله مصنفه من كتاب ((تلخيص المحصّل)) للطوسيّ: ١٥١ الذي لخص به ((محصل أفكار المتقدمين)) للفخر الرازي ، وانظر ((فوات الوفيات)) : ١/ ١٨١ .

الرد على القائلين بـ (الصَّرْفة)

قد اشتغل العلماء منذ ظهور هذا المذهب بالرد عليه في مصنفاتهم – في الإعجاز وغيرها من العلوم كالعقائد – مع ضعف حجة القائلين بـ (الصَّرْفة) .

وما صنع العلماء المحققون هذه الردود إلا لأنهم أرادوا دفع فتنة القول المزخرف بالباطل الذي سرى وذاع ، وتعلقت به قلوب وعقول ، فكان لابد من الرد وتفنيد هذا القول .

والرد على (الصَّرْفة) والقائلين بها يتلخص في الآتي :

أولاً : القرآن لفظاً ومعنى هو دليل الإعجاز والتحدي ، فالقول بـ (الصَّرفة) يعني أنه ليس في القرآن ذاته فضيلةٌ في التفوق والامتياز ، وهذا باطل بنصوص القرآن التي تحدت العرب أن يأتوا بمثله ، ثم بإجماع الأمة على أن الإعجاز ذاتي في القرآن غير منفك عنه :

قال الإمام القرطبيّ[1] رحمه الله تعالى :
((إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز[2] ، فلو قلنا إن المنع و (الصَّرْفة) هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع،

١- هو الشيخ الإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاريّ الخزرجيّ القرطبيّ . إمام متفنن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطّلاعه ووفور فضله . توفي سنة إحدى و سبعين و ستمائة في صعيد مصر .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٢ / ١٢٢ – ١٢٣.

٢- يعني القرطبي بالإعجاز هنا ما كان شائعاً بين السلف من ألفاظ قرآنية دالة على الإعجاز مثل الآية و الحجة و البرهان إلخ ...

وإذا كان كذلك عُلم أن نفس القرآن هو المعجز؛ لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة ؛ إذ لم يوجد كلام قطُّ على هذا الوجه ، فلمّا لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم دل على أن المنع و (الصَّرْفة) لم يكن معجزاً))[1] .

٢- ((لو كانت المعارضة ممكنة - و إنما منع منها (الصَّرفة) - لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع هو المعجز ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه))[2] .

وهذا يخالف ما ثبت أنه كان للقرآن تأثير عظيم على سامعيه مسلمين وكفاراً ، وأن النبي محمداً - صلى الله عليه وسلم - جاءهم بما لاقِبَل لهم به أبداً ، وأنهم قد أذعنوا لهذه الحقيقة ، على أنهم عربٌ خُلَّص ملكوا ناصية البيان ، وتصرفوا في الكلام كيف شاءوا ، وقد ثبت في التاريخ عجزهم عن معارضة القرآن وأنهم لاقبل لهم به .

ومن الأمثلة التاريخية على هذا ما جاء في حديث أبي ذر[3] - رضي الله عنه - الطويل مِن وصفٍ للقرآن :
((... فقال أُنيس[4] : إن لي حاجةً بمكة فاكفني ، فانطلق أُنيس حتى أتى مكة ، فراث عليَّ[5] ثم جاء ، فقلت : ما صنعت ، قال : لقيت رجلاً بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون :

١- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١ / ٧٥ .

٢- ((إعجاز القرآن)) للباقِلاّنيّ : ٣٠ .

٣- هو جندب بن جنادة بن سَكَن - على المشهور من اسمه - ، رضي الله عنه ، من المقربين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناقبه كثيرة . توفي بالرَّبَذَة - موضع خارج المدينة - سنة اثنتين و ثلاثين و قيل إحدى وثلاثين رضي الله عنه . انظر ((الإصابة)) ٤ /٦٣ - ٦٥ .

٤- أُنيس بن جنادة ، أخو أبي ذر ، رضي الله عنهما ، أسلم هو وأمه بعد أن دعاهما أبو ذر للإسلام . المصدر السابق : ٨٨/١ .

٥- أي أبطأ ، انظر صحيح مسلم بشرح النووي : ١٦ / ٢٨ .

شاعر ، كاهن ، ساحر - وكان أُنيس أحد الشعراء - قال أُنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء[1] الشعر فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون ...))[2] .

وهذه شهادة من رجل كافر لم يكن قد أسلم بعدُ ، وهي غاية في الدلالة على تميز القرآن الذاتي عن كلام العرب .

ومن الأمثلة على أثر القرآن في النفوس ، وأنه أثر ذاتي لا مدخل لـ (الصَّرْفة) فيه ، ماذكره ابن عبّاس رضي الله عنهما ((أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنما رَقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : ياعم ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً . قال : لم ؟ قال ليعطوكه فإنك أتيت محمداً لتَعَرَّض[3] لما قِبَله ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له قال : وماذا أقول ؟ فو الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برَجَزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن . والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوةً ، وإن عليه لطَلاوةً ، وإنه لمثمر أعلاه ، مُغْدِق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعلا ، وإنه ليَحْطِم ما تحته[4] .
قال : لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحرٌ يُؤثر ، يَأثِره[5] عن غيره ، فنزلت :
﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا .... ﴾[6] .

١- أي طرقه و أنواعه ، المصدر السابق .

٢- أخرجه مسلم في صحيحه من كتاب فضائل الصحابة : فضل أبي ذر رضي الله عنه : ٢٨/١٦ .

٣- أصلها (لتتعرّض) وحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

٤- قد شرحت هذا الحديث و خرجته بالتفصيل ، وهو صحيح ، انظر ص ٦٣ ، ٦٤ .

٥- أثر الحديث يأ ثُر ه و يأثِره : ذكره عن غيره : ((لسان العرب)) : (أثر) .
وقال ابن كثير ، رحمه الله تعالى :
((أي هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قَبْله ويحكيه عنهم)) : ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢٩٢/٨ .

٦- سورة المدثر : آية ١١ - ٣٠ .

والمثال الثالث على أثر القرآن العظيم في قلوب وعقول سامعيه أن جُبَير بن مُطْعِم[1] - رضي الله عنه - جاء إلى المدينة وهو كافر ليسعى في فكاك بعض الأسرى ، فقال :

((سمعت النبيّ - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بالطور ، وذلك أوّلَ ما وقر[2] الإيمان في قلبي))[3] .

وفي رواية قال :

((سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾[4] كاد قلبي أن يطير))[5] .

وكل هذه الروايات وغيرها تثبت أنه ليس الإعجاز بـ (الصَّرْفة) إنما هو بتأثير القرآن نفسِه على القلوب والعقول ، وإدراك السامعين أنهم لا يستطيعون معارضته .

٣ - يلزم من قولهم بـ (الصَّرْفة) أن ((يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان ، وفي جودة النظم وشرف اللفظ ، وأن يكونوا قد نُقِصوا في قرائحهم وأذهانهم ، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون ، وأن تكون أشعارهم التي قالوها ، والخطب التي قاموا بها ، وكل كلام اختلفوا فيه من بعد أن أوحي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وتُحدوا إلى معارضة القرآن قاصرةً عمّا سُمِع

١- هو جُبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي النوفليّ . كان من أكابر قريش و علماء النسب . أسلم بين الحديبية والفتح ، ومات في خلافة معاوية سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين ، رضي الله عنه . انظر ((الإصابة)) : ٢٢٧/١ .

٢- أي سكن وثبت : ((لسان العرب)) : و ق ر .

٣- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي : باب شهود الملائكة بدراً : ١١٠/٥ .

٤- سورة الطور : الآيات : ٣٥ - ٣٧ .

٥- أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير : تفسير سورة الطور : ١٧٥/٦ .

منهم من قبل ذلك القصور الشديد ، وأن يكون قد ضاق عليهم في الجملة مجال قد كان يتسع لهم ...))[1] .

ولما لم يكن الأمرُ كما وُصف ، وكان القوم الذين بُعث فيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يزالوا في الذِّروة من الفصاحة والبيان دلَّ ذلك على فساد ما ادُّعي من حدوث (الصَّرفة) فيهم ، ونقصانِ قُدَرهم ، ونزول مراتبهم في الفصاحة والبيان بعد بعثة عظيم الشان ، صلى الله عليه وسلم .

٤ – ((و مما يلزمهم[2] – على أصل المقالة – أنه كان ينبغي إن كانت العرب مُنعت منزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها أن يعرفوا ذلك من أنفسهم ... ولو عرفوه لكان يكون قد جاء منهم ذكر ذلك ، ولكانوا قد قالوا للنبيّ ، صلى الله عليه وسلم : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه ...))[3] .

فلمّا لم يُرْوَ ذلك ، و لم يُنقل أنهم تحدثوا في مجالسهم بهذا – مع أن الدواعي على نقله متوافرة – دلّ على فساد ما ادعاه القائل بـ (الصَّرْفة) .

٥ – لو كان الله – تعالى – أنساهم الكلام البليغ الذي يمكن أن يعارضوا به القرآن فلم يعودوا ذاكرين له بعد نزول القرآن ، لو أن الله أنساهم هذا في مدّة يسيرة لدلّ ((على نقصان عقلهم ، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدّة عمره فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئاً من تلك اللغة لكان ذلك دليلاً على فساد عقله و تغيّره ، والمعلوم من حال العرب أن عقولهم مازالت بعد التحدي

١– ((الرسالة الشافية)) : ١٤٦ .

٢– أي القائلين بـ (الصَّرْفة) .

٣– المصدر السابق : ١٤٨ .

بالقرآن ، وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل[1] ، فبطل ماعوّل عليه أهل الصَّرفة))[2] .

٦ - سلبُ قُدرِ العرب على المعارضة ((يجريهم مُجرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوةً وظهوراً على المعارضة ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[3]))[4] .

٧ - قد حصلت فعلاً محاولات للمعارضة كما صنع مُسَيلِمة وغيره ، فهذا يرد على من يقول بـ (الصَّرْفة) وأن العرب لم يستطيعوا المعارضة[5] .

تلك كانت بعضَ الردود على مذهب (الصَّرْفة) والقائلين به .

على أن (الصَّرْفة) لم تكن شراً محضاً على المسلمين فإنه ((مهما يكن من بطلان هذه الفكرة فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن ، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المبين ، المنزل من عند الحكيم قرآناً عربياً ، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير ... وإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن ومحاولة لبيان إعجازه ، وإن أول ما كتب في إعجاز

١- بل كانوا أشدّ من سابقهم وأحدَّ ؛ نظراً للعداوة الطارئة عليهم والتحدي المستمر لهم ، ولذلك قال الله - تعالى - فيهم بعد نزول القرآن الكريم :

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ سورة الزخرف : آية ٥٨ .

وقال جل وعز :

﴿ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ سورة الأحزاب : آية ١٩ .

٢- ((الطراز)) : ٣/٣٩٤ - ٣٩٥ .

٣- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٤- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ٥٤ .

٥- ((المعجزة الخالدة)) : ١٧٠ - ١٧١ .

القرآن من ناحية البيان كان في الوقت الذي جاء فيه القـول بـ (الصَّرْفـة) بـين نفـي وإثبات ...))[٦] .

بهذا تنتهي مباحث هذا الفصل الذي أعدّه مقدمة لاغنى عنهـا لفهـم المبـاحث الآتية في الفصول القادمة ، إن شاء اللـه تعالى .

٦- ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : ٨٢ .

الفصل الثاني :

طرائق التدوين في الإعجاز القرآني

المبحث الأول : التدوين المبثوث في الكتب

تمهيـــد

حرص العلماء على تناول موضوع الإعجاز ، وذهب كلٌّ منهم مذهباً في تقريره والكلامِ عليه يوافق منحاه وتخصصه العلميّ .

فالمفسرون – مثلاً – طرقوا الإعجاز في مكانين من كتبهم :

الأول : في مقدمات الكتب الممهداتِ للتفسير ، وكثيرٌ من المفسرين صنعوا هذا[1] .

الآخر : عند تفسير الآيات الواردة في هذا الشأن ، وذلك كقوله تعالى :
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] .

أما كتب علوم القرآن فقد كثر في أغلبها الحديثُ عن إعجاز القرآن العظيم ، وتعريفهِ ، وبيانِ وجه المعجز منه وغير ذلك مما جاء فيها من مباحث هذا النوع ، مع مافيها من الحديث عن الأنواع الأخرى من علوم القرآن .

وأما كتب العقائد فقد كان مصنفوها على ثلاثة أقسام :

١- وذلك كصنيع الإمام الطبري في مقدمة تفسيره : ((جامع البيان)) ١ / ٨ – ١٢ ، وكصنيع الإمامين ابن عطية والقرطبي ، رحمهما الله تعالى ، وسيأتي الكلام على تفسير ابن عطية بالتفصيل ، أما القرطبي فقد أورد مقدمة طويلة في بداية كتابه ضمنها مباحث كثيرة منها مبحث الإعجاز في القرآن ، انظر ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١ / ٦٩ – ٧٨ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٣ .

وإنما بدأت بها وهي آخر آية نزلت في تحدي الكافرين بإعجاز القرآن لأنها الأُولى ذكراً في المصحف الشريف ، وغالب المفسرين يتكلمون على الإعجاز عند تفسيرها .

الأول : مصنفون لايزيدون في تصنيفهم عن ذكر الآيات والأحاديث والآثار في أبواب العقائد ، وقد يورد بعضهم بعض كلامِ سلف الأمة وأئمتها ، وإن تكلموا في كتاب الله – تعالى – فإنما يكون الكلام في الرد على من قال بخلق القرآن[1] من المعتزلة وغيرهم ، وهؤلاء المصنفون على هذه الطريقة لم يتطرقوا في كتبهم هذه إلى الإعجاز ، لأنه لم يكن هذا المبحثُ متداولاً شهيراً في زمانهم .

ومن المصنفات على هذه الطريقة كتاب ((السنة)) للخلال[2] ، وكتاب ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم)) لأبي القاسم اللالْكائي[3] ، وغيرهما من الكتب .

أما القسم الثاني فهم الذين شحنوا مصنفاتِهم بالرد على المعتزلة وغيرِها من الفرق الضالة ، لكنّ تلك الردودَ كانت بالأسلوب الكلاميّ نفسِه الذي استعمله وبرع فيه المعتزلةُ خصوصاً ، فكان من البدهيِّ أن تكون مثل هذه المصنفاتِ الرادّة على هذه الفرقةِ مشحونةً بالكلام على القرآن العظيم من حيث كونه غيرَ مخلوق ، ومن حيث إعجازه ، وغير ذلك من المباحث المتعلقة بالقرآن العظيم .

١- هذه قضية فلسفية تسربت إلى المسلمين من آثار الفلسفات الأجنبية ، وكانت الجهمية ومن بعدهم المعتزلة هم الذين قالوا بها ورفعوا لواءها وفرضوها على الناس بقوة السلطان ، فتصدى لهم الإمام أحمد وأئمة أفذاذ آخرون نصر الله – تعالى – بهم الدين ، ثم انقشعت هذه الفتنة في عهدالخليفة المتوكل . انظر في قضية خلق القرآن : ((لوامع الأنوار البهية)) : ١ /١٦١وما بعدها ، وانظر قصة الفتنة بالقول بخلق القرآن ((سير أعلام النبلاء)) : ١١ / ٢٣٢ وما بعدها .

٢- الإمام العلامة ، الحافظ الفقيه ، شيخ الحنابلة وعالمهم ، أبوبكر أحمد بن محمد بن هارون البغداديّ الخلاّل . ولد سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وأخذ الفقه عن خلق كثير من أصحاب الإمام أحمد ، ورحل كثيراً ، وكتب عن الكبار والصغار ، وصنف عدة كتب ، وكان له الفضل في تدوين علم الإمام أحمد . توفي سنة ٣١١ عن سبع وسبعين سنة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٢٩٧ - ٢٩٨ .
وكتاب الخلال هذا مطبوع .

٣- الإمام الحافظ المفتي ، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور ، الطبري الرازي ، الشافعي اللالْكائيّ ، مفيدُ بغداد في وقته . له مصنفات قليلة ، وكان صاحب فهم وحفظ . توفي بـ (الدِّيْنَوَر) سنة ٤١٨ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٤١٩ - ٤٢٠ ، وكتابه هذا مطبوع متداول .

ومن المصنفات على هذه الطريقة كتابُ ((الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهلُ به)) للإمام أبي بكر الباقلانيّ ، رحمه الله تعالى ، وكتاب ((أصول الدين)) لعبد القاهر البغدادي[1] .

ولئن اختلفت الأنظار في تقويم ماصنعه هؤلاء الأئمةُ الرادون على الفرق الضالة من حيث استعمالهم لعلم الكلام ، وتوسعُهم وتوغلهم فيه ، وعدمُ نهجهم سبيلَ السلف في الاكتفاء بإيراد الأدلة القرآنيةِ والأحاديث والآثار في معرض ردهم على الضالين ، أقول : لئن اختلفت الأنظار في تقويم صنيعهم هذا فإن ما يعنينا في هذا البحثِ هو تقويم ماذكره هؤلاء الأئمةُ في مصنفاتهم عن الإعجاز ، وبيانُ جهدهم الذي بذلوه في هذا الباب .

ومن الأئمة مَن جمع بين الطريقتين فأورد في كتابه عدداً وافراً من الأحاديث والآثار مازجاً إياها بالكلام على المباحث العقدية بالأسلوب الكلاميّ غير الغالي .

ومن هؤلاء الإمام ابن خزيمة[2] - رحمه الله تعالى - في كتابه : ((التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل))،والإمام البيهقيّ - رحمه الله تعالى - في كتابه ((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد)) ، وغيرهما .

١- العلامة البارع ، المتفنن الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، أبومنصور ، نزيل خرسان . صاحب تصانيف بديعة ، وأحد أعلام الشافعية . كان يُدرس في سبعة عشر فناً ، ويُضرب به المثل . توفي بـ ((إسفرايين)) سنة ٤٢٩ بعد أن شاخ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٥٧٢ - ٥٧٣ .

وكتابه هذا مطبوع .

٢- الحافظ الحجة الفقيه ، شيخ الإسلام ، إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خُزيمة ، أبوبكر السُّلمي النيسابوري الشافعي ، صاحب التصانيف . ولد سنة ٢٢٣ ، وعُني في حداثته بالحديث والفقه حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والإتقان توفي سنة ٣١١ ، وعاش تسعاً وثمانين سنة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٣٦٥ - ٣٨٢ .

وكتاب ابن خزيمة هذا مطبوع متداول .

وقد تناول عدد من المصنفين في السيرة الشريفة المطهرة مبحث الإعجاز في مصنفاتهم ، وذلك من باب إثبات نبوة النبيّ الأعظم - صلى الله عليه وسلم - أو من باب ذكر المعجزات التي ظهرت على يديه الشريفتين ، صلى الله عليه وسلم .

فإذا عُلم هذا فإني سأختار - بحول الله وقوته - كتاباً في كل علم من العلوم المذكورة وهي :

التفسير ، وعلوم القرآن ، والعقيدة ، والسيرة الشريفة .

وأتحدث عن جوانب الإعجاز التي ذكرها المصنف في كتابه الذي اخترته مبيناً محاسنَها ، ناقداً ما يحتاج النقد منها .

وسأراعي ، إن شاء الله تعالى ، في اختياري هذه الكتبَ - هنا وفي كل فصول الرسالة - أن تكون جامعة ، عميقةَ البحث بحيث تمثل غالب الكتب الأخرى المشهورة التي تحدثت عن الإعجاز في كتاب الله - سبحانه وتعالى - .

وسوف أتوسع في ذكر بعض أوجه الإعجاز التي أتى بها الأئمة في كتبهم المختارة ، وأناقش ما إذا كانت من الإعجاز أَوْ لا ، لسببين :

١ - أن هذه الأوجهَ تذكر لأول مرة في هذه الرسالة فكان من المناسب التوسعُ في بيانها .

٢ - إذا قُوّمت هذه الأوجه تقويماً دقيقاً فستكون أساساً لإحالة جميع أوجه إعجاز القرآن المماثلة لها والمذكورة في هذه الرسالة إليها .

ثم إني إذا ذكرت الوجه وناقشته أول وروده في الرسالة فإني لاأناقشه مرة أخرى عند وروده في مكان آخر ، وإنما أكتفي بالإشارة إليه بإيجاز مع الإحالة على مناقشة الموضع الأول ، إلا إذا كان في إعادة المناقشة أو الإضافة إلى ما جاء في أول موضع فائدةٌ معتبرة .

الكتب المختارة من كل علم

والكتب المختارة هي :

١ - ((**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**)) للإمام عبد الحقّ بن عطية الأندلسيّ ، رحمه الله تعالى[١] .

٢ - ((**البرهان في علوم القرآن**)) للإمام بدر الدين الزركشيّ[٢] ، رحمه الله تعالى .

٣ - ((**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد**)) للإمام البيهقيّ ، رحمه الله تعالى .

٤ - ((**الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم**)) للقاضي عياض ، رحمه الله تعالى .

وأتحدث - إن شاء الله تعالى - عن كل منها بالترتيب :

١- الإمام العلامة ، شيخ المفسرين ، عبدالحق بن غالب بن عطية الغرناطيّ . كان إماماً في الفقه والتفسير والعربية ، ذكياً فطناً ، من أوعية العلم ، ولد سنة ثمانين وأربعمائة ، وتوفي في ((لُورْقة)) - من الأندلس - سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥٨٧/١٩-٥٨٨ .

٢- هو الشيخ محمد بن بهادُر بن عبد الله التركيّ الأصل ، المصريّ ، بدر الدين الزركشيّ . ولد سنة ٧٤٥ ، وعُني بالاشتغال من صغره فحفظ كتباً . أخذ عنه عدة مشايخ ، وكان منقطعاً لايتردد إلى أحد .

توفي بالقاهرة سنة ٧٩٤ . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤ / ١٧ - ١٨ .

أولا : التفسير

((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز))

للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

هذا الكتاب مهم من حيث إنه كتاب لمصنف أندلسيّ ، يمثل مدرسة تراثية عظيمة ، تكمل ما كان في المشرق من جهود علمية وثقافية ضخمة في ذلك العصر .

وهومن جانب آخر قد عرض للإعجاز القرآني بطريقة مناسبة ليس فيها تطويل ممل ولا قِصَر مخل .

وقد تحدث الإمام ابن عطية عن الإعجاز في موضعين من كتابه :

أولا : في المقدمة : التي حوت علوماً من القرآن منها إعجازُه .

والموضع الآخر : في سياق آيات التحدي للكافرين بأن يأتوا بمثل هذا الكتابِ العظيم .

أمّا المقدمة فقد أورد فيها ثلاثة أوجه للإعجاز ، ارتضى منها واحداً ورد الوجهين الباقيين[1] ، وهذه الأوجه الثلاثة هي :

(١) - ((التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لا يُطاق، وفيه وقع عجزها))[2] .

١- انظر ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ - ٤٠ .

٢- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

(٢) - ((التحدي وقع بما في كتاب الله - تعالى - من الأنباء الصادقة والغيوب المسرودة)) .

(٣) - ((التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه[١] ، وتوالي فصاحة ألفاظه))[٢] .

وقد ارتضى الوجه الأخير ورجّحه ، وذكر أنه هو ((الذي عليه الجمهور والحذاق ، وهو الصحيح في نفسه))[٣] .

ودلل على صحة هذا الوجه بأن ((الله - تعالى - قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحاط بالكلام كلّه علماً ، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تَلِيَ الأُولى ، وتُبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره ، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورةً أن بشراً لم يكن قطُّ محيطاً))[٤] .

والحق أن هذا الوجه الذي ارتضاه هو الوجه الذي أطبق عليه سائر من تكلم في

١- أي ببلاغته ؛ إذ هي العلم المتعلق بالمعاني .

٢- المصدر السابق .

٣- المصدر السابق ، وقد نصر الإمام ابن عطية هذا القولَ أيضاً في ثنايا كتابه ، انظر : ١ / ١٤٤ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٨ - ٣٩ .

وقد ذكر كلاماً حول هذا في كتابه ((المحرر الوجيز)) نفسه : ٩ / ٤٥ - ٤٦ عند تفسير قوله تعالى في سورة يونس ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ... ﴾ الآية : ٣٨ .

الإعجاز القرآني ، لم يشذّ عنه إلا من لاوزن لرأيه – علمياً – ولا قيمة كالنظّام وأمثاله ، كما بينت ذلك في موضع سابق[1] .

وقد أشار ابن عطية – رحمه الله تعالى – إلى البلاغة بقوله : ((وصحة معانيه)) ، فاجتمعت بذلك أوجه الإعجاز التي أطبق عليها أكثر من تكلم في الإعجاز وهي :

جودة النظم ، والطبقة العليا من البلاغة ، والفصاحة .

أما الوجهان اللذان ردّهما وهما :

وقوع التحدي بالكلام القديم ، والتحدي بالغيوب ، فإنه لم يبين الوجه الأول ، و لم يتوسع في الرد عليه .

وأما الوجه الآخر فقد توسع في الرد عليه في ثنايا كتابه .

واكتفى بالرد عليهما في المقدمة بقوله :

((وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما[2] من تقررت الشريعة ونبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – في نفسه ، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدّى فيما يَين له بينه وبين نفسه عجزه عنه))[3] .

ولعل عدم توسعه في الرد إنما كان اعتماداً منه على سلوك سبيل الإيجاز في كل ماأورده من أبحاث في مقدمته ، ومنها مبحث الإعجاز .

١- انظر ص ٩٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- ((فيهما)) – هنا – بمعنى (عنهما) ، أو لعل اللفظة قد حرفت .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

وهذا الوجه هو الذي أخبر عنه بقوله :

((التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك مالايطاق وفيه وقع عجزها)) .

ولأن الشيخ - رحمه الله - قد أوجز القول فيه إيجازاً ، فإني أوضحه وأذكر الرد عليه فيما يلي :

إن مقتضى عبارات السلف في كلام الله - تعالى - أنه صفة ذات وصفة فعل معاً ، فالله متكلم بما شاء متى شاء سبحانه ، وكلامه قائم بنفسه ، سبحانه وتعالى[1] ، أما من خالف في هذا فانقسم إلى أقسام منها مايتعلق بكلام الإمام ابن عطية - هنا - وهو بيانٌ لمذهب قوم قالوا إن كلام الله تعالى صفة ذات فقط ، فالقرآن - عندهم - كلام الله تعالى ، لكنه معنىً قديمٌ قائم بذاته سبحانه فقط ، والله - تعالى - يخلق في العبد إدراكاً يدرك به ذلك الكلامَ القديم الذي تكلم الله به في الأزل ، والقرآن الذي بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله - تعالى - القديم القائم بذاته لا كلامُ الله نفسه ، لأن الله - عندهم - لايتكلم بحرف وصوت[2] ، وإنما كان الذي دعاهم إلى هذا القول هو تنزيه الله عن أن يكون متكلماً بعد أن لم يكن كذلك .

ومذهب السلف أن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا أن كلام الله تعالى - من حيث هو - حادثٌ[3] .

١- انظر في هذا ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ١٣٢ - ١٣٣ .

٢- انظر ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ١٢٠ ، ٢٤٣ .

٣- المصدر السابق : ١٢ / ١٧٣ .

((والصواب الذي عليه سلف الأمة ... هو أن القرآن جميعَه كلام الله : حروفَه ومعانيَه ، ليس شيءٌ من ذلك كلاماً لغيره ، ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى[1] ولا لمجرد الحرف بل لمجموعهما))[2] .

وتوضيح الوجه الذي أورده الإمام ابن عطية - رحمه الله تعالى - هو : أنه لما كان القرآن كلامَ الله - تعالى - لكنه معنى قائم بذات الباري - سبحانه - معبر عنه بالعبارات والألفاظ ، لما كان كذلك فيستحيل إذاً معرفةُ ما قام بذاته سبحانه ، ولما كان مُتحدىً به أيضاً فإن المخاطبين كُلفوا مالايطيقون من التحدي ، إذ لاقبل لهم بمعرفة الكلام المتحدّى به حقيقةً ، فصار بذلك معجزاً لهم .

فإذا عُلم ما قدمته أولاً من أن سبيل السلف يخالف هذا الذي قرروه من أن كلام الله - القرآنَ - معنى قائمٌ في ذاته عُبر عنه بألفاظ ، إذا علم هذا بطل الاستدلال بذلك الوجه الذي أورده الإمام ابن عطية على الإعجاز .

وقول ابن عطية رحمه الله تعالى عن هذا الوجه أنه يرى العجز فيه ((من قد تقررت الشريعة ونبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - في نفسه ، وأما من هو في ظلمة كفره فإنما يُتحدى فيما يَبين له بينه وبين نفسه عجزهُ عنه))[3] قوله هذا فيه ملاحظتان :

الأولى : أنه يرى هذا المذهب ويعتقده ، وقد ذكرت أن مذهب السلف خلافه .

١- أي كما هو قول القائلين بأنه معنى قائم بنفس الله فقط وليس صفة فعل .

٢- ((مجموع الفتاوى)) : ١٢ / ٢٤٤ .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ .

الأخرى : أن هذا الرد – الذي رد به الإمام ابن عطية ذلك الوجهَ المذكورَ – صالحٌ ؛ وذلك لأنّ هذه المعانيَ المذكورة من الإعجاز دقيقة لا يقتنع بها إلا من كان مؤمناً عالماً بها ، وذلك كله تنزلاً معه فيما ذهب إليه في ذلك الوجه ، وإلا فإني قد ذكرت أن مذهب السلف خلافه ، والله أعلم .

بيان الوجه الآخر :

أما الوجه الآخر ، وهو الإعجاز بأخبار الغيب ، فإنه رده بجوابين :

جواب في المقدمة ، وقد ذكرته قبلُ عند تقرير رد الوجه الأول : وهو أنه لايرى العجز في هذا إلا من تقررت الشريعة ونبوةُ محمد – صلى الله عليه وسلم – في نفسه .

وجواب آخر في ثنايا الكتاب .

أما الجواب الأول : فلا أتفق معه فيما ذهب إليه ؛ إذ أن أخبار الغيب في القرآن يتبين لكل مسلم عجزُه عن أن يأتي بمثلها ، فلا أدري وجهاً لكلامه هذا ، والله أعلم .

أما الجواب الآخر :

فقد ذكره في ثنايا الكتاب ، إذ جاء به في أثناء تفسيره قوله تعالى :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] :

فقال رحمه الله تعالى :

١- سورة البقرة : آية ٢٣ .

((واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله ﴿ مِّثْلِهِۦ ﴾ ، فقال جمهور العلماء : هو عائد على القرآن[1] ، ثم اختلفوا ، فقال الأكثر : من مثل نظمه ورصفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها ، ولا يعجزهم إلا التأليف[2] الذي خُصّ به القرآن ، وبه وقع الإعجاز على قول حذّاق أهل النظر .

وقال بعضهم : مِن مثله في غيوبه وصدقه وقِدَمه ، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقِدم ، والأول أبين))[3] .

وقال عند قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4] :

((والتحدى في هذه الآيةِ وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن : إحداهما : النظم والرصف والإيجاز والجزالة ... والأخرى : المعاني من الغيب لما مضى ولما يُستقبل . وحين تحداهم بعشر مفتريات إنما تحداهم بالنظم وحده .[5]

قال القاضي أبو محمد[6] :

هكذا قول جماعة من المتكلمين ، وفيه - عندي - نظر ، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم : ﴿ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ؟ وما وقع التحدي في الآيتين بهذه

١- والقول الآخر هو عَوْده على النبي - صلى الله عليه وسلم - وانظر في هذا : ((البحر المحيط)) : ١ / ١٠٤ - ١٠٥ ، و((روح المعاني)) : ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .

٢- أي النظم .

٣- ((المحرر الوجيز)) : ١ / ١٤٣ - ١٤٤ .

٤- سورة يونس : آية ٣٨ .

٥- لأنه تحداهم في قوله ﴿ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ بأن يأتوا بمثلها في النظم والرصف والجزالة لاالأخبار الصادقة لأن قوله : ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ يعني هاتوا مثلها ولو كان مافيها كذباً لكنها تشابهها في الجزالة والنظم .

٦- أي ابن عطية نفسه رحمه الله .

وآية العشر السور إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق ، وما أُلزموا قطُّ إتياناً بغيب ، لأن التحدي بالإعلام بالغيوب[1] كقوله :

﴿ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾[2] ... ونحو ذلك من غيوب القرآن فبيّن أن البشر مقصر عن ذلك))[3] .

وعلى هذا فإن الإعجاز عند ابن عطية إنما هو بالنظم والرَّصْف والجزالة والفصاحة ، أما أخبار الغيب فإنه لايرى الإعجاز بها .

ويبدو لي – مما نقلته عن ابن عطية آنفاً – أن الإمام لم يردَّ أخبار الغيب على أنها وجهٌ من أوجه الإعجاز إلا إذا ادُّعي انفرادها بالدلالة على الإعجاز ، أما إذا عُدّت وجهاً من أوجه الإعجاز مع البلاغة والنظم فإني لا أحد من كلامه رداً لها ولا قبولاً .

ولا أعلم أحداً ممن تكلم في الإعجاز ارتضى أخبار الغيب في القرآن على أنها وجهُ الإعجاز الوحيد إلا ما جرى من النظّام حيث قال :

((الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار بالغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثه فيهم))[4] .

١- قوله : ((بالإعلام بالغيوب)) خبر أن .

٢- سورة الروم : آية ٣ .

٣- المصدر السابق : ٩ / ٤٤ -٤٦ .

٤- ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٢٥ ، و ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : ٧٠ .

تفصيل القول في الإعجاز بأخبار الغيوب :

أخبار الغيب في القرآن الكريم تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١- الغيب الماضي ، وهو قصُّ أخبار المتقدمين على الوجه الذي لايكاد يعرفه أحد وإن عرفه فليس كتفصيل القرآنِ الكلامَ عليه ، قال تعالى بعد تفصيل قصة نوح عليه الصلاة والسلام :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[١] .

٢- الغيب المستقبل ، وهو منقسم إلى قسمين :

أ - غيب قريب موعود بتحققه وقد تحقق ، كغلبة الروم الفرسَ ، وفتحِ المسلمين مكةَ ، والإخبارِ بموت أبي لهب[٢] كافراً .

ب - وغيب بعيد لم يتحقق بعد ، وذلك نحو بعض أشراط الساعة كالدابة ، والدخان ، والكوارث الكونية يوم القيامة .

٣ - والغيب الحاضر كالحديث عن الأشياء التي غُيّبت عن أبصارنا كالدار الآخرة وما فيها من جنة ونار وملائكة إلخ ...

أو الإخبارِ عن ضمائر الناس كاليهود حيث أخبر القرآن عنهم أنهم لايتمنون الموت : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ ، ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا ﴾[٣] .

١- سورة هود : آية ٤٩ .

٢- هو عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم . عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . توفي بعد بدر بليال بقرحة قاتلة كالطاعون ، وكان قد اغتمّ لما أصاب قومه . انظر ((التبيين في أنساب القرشيين)) : ٧٦ ، و ((سيرة ابن هشام)) : ١ / ٦٤٦ - ٦٤٧ .

٣- سورة البقرة : آية ٩٥ ، وسورة الجمعة : آية ٧ .

وقد أورد عدد من الأئمة أخبار الغيب في القرآن وجهاً أو وجوهاً من أوجه الإعجاز[1] ، ورد ذلك آخرون[2] .

وقد كنت أميل إلى عدم قبول أخبار الغيب في القرآن علىأنها من أوجه الإعجاز وإنما هي دلائل على صدق هذا الكتاب العظيم ، وأنه من عند الله تعالى - قطعاً - وقد جنحتُ إلى هذا الرأي لأسباب هي :

١- ليست كلُّ آيات القرآن العظيم تحوي أخبارَ الغيب ، وقد أعجز الله الخلقَ بالقرآن كله قليلِه وكثيره[3] .

٢ - كثير ممن سمع بأخبار الغيب المستقبلة مات قبل أن تقع هذه الأخبارُ وتتحقق ، وأعني بتلك الأخبارِ أخبارَ الغيب القريب الذي تحقق زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخبارَ الغيب المستقبل البعيد التي لم تتحقق حتى الآن ، فكيف يقع الإعجاز بالتحدي بشيء لم يتأكد وقوعه ، ولم يره المعاند الجاحد بعد ، فينقطعَ دونه ويعجزَ ، وإنما يقع التحدي بأمر يقع أمام أنظار الجاحدين ويُلقى على أسماعهم ، لاعلى أمر موعود بتحققه ؟ لم يروه ولن يدركه كثير منهم فيعرفوا صدقه من كذبه .

١- كالحافظ البيهقي في ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ ، والقاضي عياض في ((الشفا)) : ١ / ٣٧٥ ، والإمام الباقلاني في كتابه ((إعجاز القرآن)) : ٣٥ ، وآخرين .

وإنما قلت (وجوهاً) باعتبار ماينقسم إليه الإعجاز بالأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة كما سبق تفصيله .

٢- وممن رده الإمام ابن عطية في ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ ، ١٤٣ - ١٤٤ ، والإمام الزركشيّ في ((البرهان)) : ٢ / ٩٥ - ٩٦ ، والإمام يحيى بن حمزة العلوي في ((الطراز)) : ٣ / ٣٩٨ ، وآخرون .

ولعل معظم الذين ردوه إنما صنعوا ذلك حين القول بتفرده وجهاً للإعجاز ، أما حين اشتراكه مع غيره فإن مقتضى كلامهم قبوله ، وانظر الصفحات : ١٣١ - ١٣٣ ، ١٤٠ - ١٤١ ، ٢٠٥ .

٣- انظر ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ٩٦ .

٣ - لم يصلنا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - تحداهم بأن يأتوا بمثل أخبار الغيب في القرآن ، ولا أعجزهم بها .

لتلك الأسبابِ مجتمعةً لم أكن أعتقد أن أخبار الغيب في القرآن العظيم تعد من أوجه إعجازه .

لكني رأيت كلاماً مفيداً للإمام الخطّابي يجمع بين الرأيين (المثبت والنافي) حيث قال :

((وزعمت طائفة أن إعجازه إنما هو فيما يتضمنه من الإخبار عن الكوائن في مستقبل الزمان ... ولا يُشك في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزةً بنفسها))[١] .

وقد ذكر الإمام الزركشي - رحمه الله تعالى - كلاماً مشابهاً ، حيث قال عن الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة :

((ورُد هذا القول بأنه يستلزم أن الآياتِ التي لاخبر فيها بذلك لا إعجاز فيها وهو باطل ، فقد جعل الله كل سورة معجزةً بنفسها))[٢] .

ثم قال عن الإعجاز بقصص الغيب المتقدمة ، وهو الشاهد هنا :

((وهو مردود بما سبق[٣] ، نعم هذا والذي قبله من أنواع الإعجاز إلا أنه منحصر فيه))[٤] .

١- ((بيان إعجاز القرآن)) : ضمن ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ٢٣ - ٢٤ .

٢- ((البرهان)) : ٩٦/٢ .

٣- أي مردود بما رُدت به دعوى الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة .

٤- المصدر السابق .

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيما سواها من آيات تخلو من أخبار الغيب ؛ إذ الإعجاز فيها متحقق بشيء آخر .

إذاً الإعجاز بأخبار الغيب إعجاز جزئي لا كليّ ؛ إذ ليس واقعاً في كل آية في كتاب الله - تعالى - وقد تخلو بعض السور القصار منه ، فصار الإعجاز خاصاً بالآيات التي وردت فيها أخبار الغيب فقط ، والآيات التي تخلو من أخبار الغيب فإن وجه الإعجاز فيها قائم من جهة البلاغة والفصاحة والنظم .

أما الإجابة على ما أوردته من أسباب آنفاً لعدم اعتدادي - **أولاً** - بأخبار الغيب المستقبلة وجهاً من أوجه الإعجاز فقد أجبت على **الأول** منها بأن الإعجاز فيها ليس إعجازاً كلياً وإنما ينحصر في آيات الغيوب فقط .

وأما الثاني وهو عدم إدراك كثير من المعاندين الجاحدين تحققَ أخبار الغيب ، وموتهم قبل وقوعه ، فالإجابة عليه تكون بأن الإعجاز قائم بأخبار الغيب الماضية والحاضرة ، وهذا كاف للتصديق بالمستقبلة منها والإيمان بأنها معجزة ، وينضم إلى ذلك أنواع الإعجاز المتفق عليها في القرآن كالإعجاز بنظم القرآن وفصاحة ألفاظه وجزالة معانيه ، وينضم إلى ذلك أيضاً مارآه الجاحدون المنكرون من معجزات حسية كثيرة جرت على يديه الشريفتين - صلى الله عليه وسلم - فمن لم يُسلّم بذلك كله فإنه لن يسلم بإعجاز الأخبار الغيبية المستقبلة حتى لو أدركها ورآها ، فأخبار الغيب المستقبلة معجزة بدليل خارجي لاذاتي ، والله أعلم .

وأمّا الثالث - وهو أنه لم يصلنا أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تحداهم بهذه الأخبار الغيبية - فيمكن ردُّه بأن الله - تعالى قال :

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾[1] .

فالمثلية المطلوبة كما أنها تقتضي المشابهة لنظمه وأسلوبه فهي تقتضي المشابهة لغيوبه أيضاً ، فأخبار الغيب إذاً متحدىً بها ، وهي معجزة .

وبهذا التفصيل لأخبار الغيب ينتهي الكلام على أوجه الإعجاز عند الإمام ابن عطية الذي ارتضى منها الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم كما مرّ .

١- سورة الطور : آية ٣٤ .

ثانياً : علوم القرآن

((البرهان في علوم القرآن))

للإمام بدر الدين الزركشيّ ، رحمه الله تعالى

كتاب ((البرهان)) للإمام الزركشيّ كتاب جليل القدر ، حيث إنّه مؤلّف واسع ، متنوع المباحث في علوم القرآن ، فلم يؤلف قبله مثلُه – فيما نعلم – ضمنه المصنف أنواعاً كثيرة من علوم القرآن بضبط وتحرير وتحقيق ، ذكر منها ((معرفة إعجازه)) وهو النوع الثامن والثلاثون من الأنواع التي ذكرها في كتابه[1] .

وقد جاءت مباحث الإعجاز عند الزركشيّ – رحمه الله – حافلةً بالفصول والمسائل ، متنوعةً في طَرْقها هذا الموضوعَ المهم ؛ فقد ابتدأ بمقدمة ذكر فيها أهمية معرفة علم الإعجاز القرآنيّ ، وبعضَ من صنف فيه من الأئمة ، ثم ذكر آيات التحدي في كتاب الله – تبارك وتعالى – وناقش بعض كلام الأئمة فيها .

ثم ذكر وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وهي :

١ – ((إحداها : وهو قول النظّام :

إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمرٌ خارجيّ فصار كسائر المعجزات ، وهو قول فاسد ...))[2] ثم شرع في رده[3] .

١- ((البرهان)) : ٢ / ٩٠ – ١٢٤ .

٢- ((البرهان)) : ٢ / ٩٣ – ٩٤ .

٣- سبق بيان عُوار مذهب من قال بـ (الصَّرفة) ، انظر ص ١١٣ .

٢ - ((وجه الإعجاز راجع إلى التـأليف الخـاصّ بـه لامطلـق التـأليف ، وهـو بـأن اعتدلت مفرادته تركيباً وزِنةً ، وعلت مركباته معنىً))[١] .

وهذا راجع إلى الإعجاز النظميّ والبلاغـيّ ، وقولـه : ((لامطلـق التـأليف)) أي مجرد صف الحروف لتكون كلمات فإن هذا يحسنه كل متكلم عاقل .

٣ - ((مافيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة)) .

وقد ردّ هذا الوجه بقوله :

((ورُدّ هذا القول بأنه يستلزم أن الآيات التي لاخبر فيها بذلك لاإعجاز فيها ، وهـو باطل ، فقد جعل اللـه كل سورة معجزة بنفسها))[٢] .

وقد بينت - في موضع سابق - أن الإعجاز هنا إعجاز جزئيّ لاكلي ، بمعنـى أنه موجود في كثير من الآيات لا كلها[٣] .

٤ - ((ما تضمـنّ مـن إخبـاره عـن قصـص الأولـين وسـائر المتقدمـين حكايةَ مـن شاهدها وحضرها))[٤] .

وقد علق على هذا بقوله :

((وهو مردود بما سبق [٥] ، نعم هذا والذي قبله مـن أنـواع الإعجـاز إلا أنـه غـير منحصر فيه)) .

أي أن الإعجاز ثابت فقط في الآيات المخبرة عن الغيوب لا فيمـا سـواها مـن آيات ، كما سبق بيانه[٦] .

١- المصدر السابق : ٢ / ٩٥ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ٩٥ - ٩٦ .

٣- انظر ص ١٣٤ ومابعدها .

٤- ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ٩٦ .

٥- أي بما رُدّ به الوجه السابق .

٦- انظر ص ١٣٤وما بعدها .

٥ - ((إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل كقوله : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[١] ... وكإخباره عن اليهود أنهم لايتمنون الموت أبداً))[٢] .

ثم انه لم يتكلم على هذا الوجه قَبولاً أو ردّاً ، وهذا الوجه حُكمه حكم الوجهين السابقين عليه ، والله أعلم ، باعتباره إخباراً عن الغيب الحاضر وقت النزول فتجتمع بهذه الوجوهِ الثلاثة الأزمنةُ الثلاثة ، وقد أحسن من جعلها جميعاً وجهاً واحداً وهو الإخبار بالغيب مطلقاً سواء كان الغيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل .

٦- ((السادس ، وصححه ابن عطية وقال :

إنه الذي عليه الجمهور والحُذاق ، وهو الصحيح في نفسه ، أن التحدي إنما وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ...))[٣] .

وهذا الوجه لامِرية في إعجازه ، وهو شامل للوجه الثاني المذكور سابقاً .

٧- ((وجه الإعجاز الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب))[٤] .

وقد ذكر أنه قريب من الوجه السابق ، وهو كما قال ، رحمه الله تعالى ، إلا أن الوجه السابق أعم منه حيث أشار فيه إلى الإعجاز النظميّ .

١- سورة آل عمران : آية ١٢٢ .

٢- ((البرهان)) : ٢ / ٩٦ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٩٧ - ٩٨ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ٩٨ .

وفي هـذا الوجـه زيـادة احتيـاط باشـتراطه - نصاً - السـلامة مـن العيـوب ، بخلاف السابق فإنه يتضمن ذلك فقط .

٨- ((مافيه من النظم والتأليف والترصيف ، وأنــه خـارج عـن جميـع وجـوه النظـم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم ...))[١] .

و لم يتعقب الزركشيُّ - رحمه اللـه - هذا القولَ الذي نسـبه لبعـض الأئمـة ، والحق أن هذا القول لايخرج عن الوجهين الثاني والسادس ؛ إذ الوجه الثـاني يشـمل الإعجاز النظميّ ، والوجه السادس ذكر فيه الإعجاز بالنظم أيضاً .

٩ - ((أنه شيء لا يمكن التعبير عنه)) .

ونقـل الأقـوال الـتي تذهـب إلى أن ((الإعجـاز يُـدرك ولا يمكـن وصفـه)) ، وأنـه ((ليس في طاقة البشر الإحاطةُ بأغراض اللـه في كلامه وأسراره في كتابه))[٢] .

وهذا الوجه ليس وجهاً مسـتقلاً مـن وجـوه الإعجـاز ، وذلـك لأن الإعجـاز دليل الرسالة ، ولا يمكن أن ينبني الدليل على مطلـق الإدراك مـن غـير تحديـد لشـيء معين يُعرف به وجهُ الإعجاز ، ولكن يمكن أن يكون ما ذكره أثراً من آثار الإعجـاز أو لازماً من لوازمه ؛ وذلك كالروعة والدهشة الحاصلةِ لسامعه الفاهم لمعانيه .

١٠ - ((إن الإعجاز فيه من حيث استمرّت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائهـا في جميعه استمراراً لاتوجد له فترة[٣] ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومَن تكلم بلغتهم لا تستمرّ الفصاحة والبلاغة في جميـع أنحائهـا في العـالي منـه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرِض الفَتَـرات[٤] الإنسانية فتقطع طيب الكـلام ورونقـه

١- ((البرهان)) : ٢ / ٩٨ - ١٠٠ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ١٠٠ .

٤،٣- الفترةُ:الانقطاع والضعف ، انظر ((لسان العرب)) : ف ت ر ..

فلا تستمر لذلك الفصاحة في جميعه ...))[1] .

وقد نسَب هذا القول لحازم[2] في ((منهاج البلغاء))[3] .

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس المذكور آنفاً وهو أن الإعجاز وقع ((بنظمه ، وصحة معانيه **وتوالي فصاحة ألفاظه**))[4] لكن هذا الوجه وقع فيه تفصيل ما أوجز ذكره في الوجه السادس .

وقد ذكر الزركشيّ نفسه – رحمه الله تعالى – أن هذا القولَ قريب مما ذكره ابن عطية ، الذي هو صاحب القول السادس المذكور آنفاً .

١١ – ((القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضمناً أصحَّ المعاني من توحيد الله وتنزيهه في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ... وأمر بمعروف ونهي عن المنكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجرٍ عن مساويها ...))[5] .

وقد نسب هذا الوجه للخطّابي[6] في تقرير طويل لايسعني الإتيان به لطوله ، وذاك هو خلاصته .

١- ((البرهان)) : ٢ / ١٠١ .

٢- أبو الحسن حازم بن محمد القُرطاجَنّي . ولد سنة ٦٠٨ ، نحويّ ، ناظم ، ناثر ، وله عدة تصانيف . ارتحل من الأندلس واستقر في بلاد المغرب ، وتوفي في سنة ٦٨٤ بتونس . انظر ((نفح الطيب)) : ٣ / ٣٤٠ – ٣٤٥ .

٣- هذا النص الذي نقله الزركشيّ لحازم هو من القسم الأول المفقود لكتاب ((منهاج البلغاء)) لحازم ، انظر ((منهاج البلغاء)) : ٣٨٩– ٣٩٠ مع صفحة ٩٣ – ٩٥ من الكتاب نفسه .

٤- ((البرهان)) : ٩٧/٢ .

٥- المصدر السابق : ١٠٣/٢ .

٦- كلام الخطّابيّ هذا هو في كتابه : ((بيان إعجاز القرآن)) ضمن ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) ص : ٢٧ .

وهذا الوجه لا أرى فرقاً كبيراً بينه وبين الوجه السادس الذي قرّر فيه أن الإعجاز إنما ((وقع بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه))[1] ، فالكلام في الوجهين : السادس والحادي عشر متشابه إلا أن الوجه الحادي عشر وقع فيه تفصيل وإيضاح لما أُوجز ذكرُه في الوجه السادس .

١٢ - ((وهو قول أهل التحقيق : أن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال ، لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع كلَّه[2] فلا معنى لنسبته[3] إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم يسبق))[4] .

ولا أدري كيف يستقيم هذا القول وفي الأوجه المذكورة آنفاً القولُ بـ (الصَّرفة) ، وفيها ماردّه الشيخ نفسه مثل الوجهين الثالث والرابع ، إلا إذا قصد الشيخ ((بجميع ماسبق من الأقوال)) الأقوالَ المقبولة فقط ، وهذا وجه صحيحٌ إذاً ، يجمع الأقوال المتفرقة ، ويقوي معنى الإعجاز لاجتماع المعاني فيه ، والله أعلم .

ثم إن الشيخ الزركشيّ - رحمه الله تعالى - عاد إلى ذكر خمسة أوجه عدّها من الإعجاز ، وهي :

١٣- ((الروعة التي له في قلوب السامعين وأسماعِهم))[5] .

١- ((البرهان)) : ٢ / ٩٧ .

٢- أي هذا الوجه جمع جميع الأوجه السابقة .

٣- أي الإعجاز .

٤- ((البرهان)) : ٢ / ١٠٦ .

٥- المصدر السابق : ٢ / ١٠٦ .

وهذا الوجه أثر من آثار الإعجاز، وليس هو إعجازاً ، كالناظر لشيء متقن الصَّنعة فإنه يُعجب به ويدهش من جماله وإتقانه ، فليس هذا الإعجاب والدهشة هو ذاتَ الإتقان فيه وإنما هو أثر من آثار الإتقان ، والإتقان هو ما فيه من إحكام الصَّنعة ودقتها ، وليراجع الكلام على الوجه التاسع .

١٤ - ((أنه لم يزل غضاً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين))[١] .

وهذا الوجه - عندي - كسابقه أيضاً ؛ إذ لم يكن القرآن كذلك إلا لأنه معجز في نظمه ، فصيح في ألفاظه ، جَزلٌ في معانيه ، وما يلحق السامعين لهذا الكلام العظيم إنما هو أثر لذلك النظم العالي والبلاغة المتناهية في الحسن ، والله أعلم .

١٥ - ((ومنها ماينتشر فيه عند تلاوته من إنزال الله إيّاه في صورة كلام هو مخاطبةٌ من الله لرسوله تارةً ومخاطبة أخرى لخلقه ، لافي صورة كلام يستمليه مِن نفسه مَن قد قذف في قلبه وأوحى إليه ما شاء أن يلقيه إلى عباده على لسانه ، فهو يأتي بالمعاني التي أُلهمها بألفاظه التي يكسوها إياه ، كما يشاهد من الكتب المتقدمة))[٢] .

كلام الزركشيّ هنا يلفّه الغموض لكثرة إتيانه بالضمائر التي يصعب معرفة مرجعها ، ولكني فهمت من كلامه أنه يريد أن يفرّق بين القرآن العظيم وبين غيره من الكتب المتقدمة بأن القرآن كلام الله لفظاً ومعنى بينما سائر الكتب السماوية ليست كذلك بل المعنى من الله واللفظ من الموحَى إليه ، ولكن يُعكّر على مذهبه هذا بأنه - إذا قصد هذا المعنى - لم يورد دليلاً على قوله هذا خاصة أن الله ،

١- المصدر السابق : ٢ / ١٠٧ .

٢- المصدر السابق .

تعالى ، آتى نبيه موسى - عليه الصلاة والسلام - التوراةَ في ألواح قال عنها سبحانه

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾[1] .

فكلام الله إذاً كُتب في ألواح فهو لفظاً ومعنى من الله تعالى .

ولعله يقصد تراجم هذه الكتب التي قرأها باللغة العربية ؛ فإن ألفاظها - أحياناً - تكون ركيكة يبدو عليها أنها من أساليب البشر ، والمعنى الأول أقرب إلى لفظه المذكور ، والله أعلم .

وعلى كل حال فهذا الوجه ليس من الإعجاز - بهذا المعنى الذي فهمتُه - بل هو خصوصية خَصّ الله ، تعالى ، بها هذا الكتاب العظيم ، إن ثبت أنه منفرد بأنه لفظاً ومعنى من الله ، والله أعلم .

١٦ - ((ومنها جمعه بين صفتي الجزالةِ والعذوبة ، وهما كالمتضادين لايجتمعان - غالباً - في كلام البشر ؛ لأن الجزالة من الألفاظ التي لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة ... وذلك من أعظم وجوه البلاغة والإعجاز))[2] .

وهذا الوجه داخل في الوجه السادس ولكنه أدخلُ منه في تفصيل بعض نواحي البلاغة والفصاحة في القرآن العظيم ، والله أعلم .

١٧ - ((ومنها جعلُه آخرَ الكتب ، غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد يحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه ، كما قال تعالى :

١- سورة الأعراف : آية ١٤٥ .

٢- المصدر السابق .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾)) [١] .

وهذا ليس إلا خصوصيةٌ خُصّ بها هذا الكتابُ العظيم ، وليس هو من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

ثم إن الزركشي – رحمه الله تعالى – عقد مباحث متنوعة في الإعجاز فمنها : بيان قدر المعجز من القرآن [٢] .

ومنها : بيان ترتيب نزول آيات التحدي [٣] .

ومنها : أن التحدي وقع للإنس دون الجن [٤] .

ومنها : أن الإعجاز القرآني معلوم ضرورةً [٥] .

ومنها : الحكمة في تنزيه النبي – صلى الله عليه وسلم ـ عن الشعر [٦] .

ومنها : تنزيه الله القرآنَ عن أن يكون شعراً [٧] .

ولم يذكر الزركشيّ – رحمه الله تعالى – الصلةَ بين المبحثين الأخيرين وبين الإعجاز ، وبينهما نوع تعلّق ، إذِ الشعر أروع وأجمل كلام العرب ، ومع ذلك جاء القرآن الكريم على لون جديد من الكلام يفوق الشعر والنثر جميعا ، وهذا هو معنى الإعجاز .

ومنها قوله :

((مما يبعث على معرفة الإعجاز اختلافاتُ المقامات وذكرٌ في كل موضع مايلائمه ، ووضع الألفاظ في كل موضعٍ مايليق به ، وإن كانت مترادفة ، حتى لو أُبدل واحدٌ

١- ((البرهان)) : ٢ / ١٠٧ ، والآية من سورة النمل : ٧٦ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ١٠٨ - ١٠٩ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ١١٠ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ١١١ .

٥- المصدر السابق : ٢ / ١١١ - ١١٢ .

٦- المصدر السابق : ٢ / ١١٢ - ١١٣ ، والمعنى : تنزيه النبي – صلى الله عليه وسلم – عن إنشاء الشعر .

٧- المصدر السابق : ٢ / ١١٣ - ١١٧ .

منها بالآخر ذهبت تلك الطّلاوة[1] ، وفاتت تلك الحلاوة ، فمن ذلك أن لفظ ﴿ ٱلْأَرْض ﴾ لم ترد في التنزيل إلاّ مفردةً ، ولما أُريد الإتيانُ بها مجموعةً قال : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[2] تفادياً مِن جمعها ...))[3] .

ومن المباحث في الإعجاز ما ذكره من : اشتمال القرآن على أعلى أنواع الإعجاز ، حيث ذكر أن في القرآن من الألفاظ ماهو فصيح ، وفيه ماهو أفصح[4] ، وكلاهما يبلغ الغاية العليا في بابه .

وبهذا ختم الزركشيّ مباحث الإعجاز ، وهي مباحث جليلة القدر ، كأن الزركشيّ ، رحمه الله تعالى ، انفرد بإيرادها من بين كتب علوم القرآن – فيما أعلم – والله أعلم .

وهو قد أورد سبعة عشر وجهاً للإعجاز تتلخص في الآتي :

١ – الإعجاز بـ (الصَّرفة) ، وقد ردّه .

٢ – الإعجاز النظمي والبلاغيّ .

٣ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٤ – أمرٌ لايستطاع التعبير عنه .

٥ – الإعجاز بجميع ما سبق .

٦ – الروعة والتأثير في القلوب .

١– الطّلاوة والطُّلاوة : الحسن والبهجة والقَبول والرونق : ((لسان العرب)) : (ط ل ى) .

٢– سورة الطلاق : آية ١٢ .

٣– ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ١١٨ – ١٢٠ .

٤– المصدر السابق : ٢ / ١٢١ – ١٢٤ .

ونلحظ في هذه الأوجه أنه ليس فيها شيء جديد لم يقل به إمام متقدم ، وإنما كلها مستفادة عن غيره ممن سبقه ، لكنه فصّل في بعضها ، وساق معها مباحث متنوعة عن الإعجاز .

ثالثـا : العقيـدة

((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث))

للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ رحمه اللـه تعالى[1]

أورد الحافظ البيهقيُّ – رحمـه اللـه تعـالى – في كتابه هـذا عـدداً كبـيراً مـن المباحث العقديّة ، وساق فيها جملة وافرة من الأحـاديث والآثـار عـن النبي – صلـى اللـه عليه وسلم – والصحابة ، رضي اللـه عنهم ، والتابعين الكرام .

ومن تلك المباحث المتعددةِ مبحثُ ((القـول في إثبـات نبـوة محمـد المصطفـى صلى اللـه عليه وسلم))[2]، فذكر فيه دلائل نبوته صلى اللـه عليه وسلم وما أجرى اللـه على يديه من المعجزات الواضحات المفحِمـات ، ومـن تلـك الدلائـل ((فيمـا جاء به من عند اللـه – سبحانه – من القرآن العظيم أنه تحـدى الخلـق بمـا في القـرآن من الإعجاز ، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة مثله فنَكلوا[3] عنه وعجزوا عـن الإتيان بشيء منه))[4] .

وقد ذكر الحافظ في مبحث الإعجاز جملةً من الوجـوه الـتي كـان بهـا القـرآن معجزاً – وذلك على ما تناهى إلى علمه مـن كـلام أهـل العلـم قبلـه في الإعجـاز – فذكر أن منها :

١ – الإعجازَ من جهة البلاغة وحسن اللفظ دون النظم .

١- مر ذكر الفقرة (أولاً) ص : ١٢٦ و (ثانياً) ص : ١٣٩ .

٢- ((الاعتقاد)) : ٢٥٥ – ٣٠٦ .

٣- نَكَل : نَكَص وتراجع : (لسان العرب)) : ن ك ل .

٤- ((الاعتقاد)) : ٢٥٨ – ٢٥٩ .

٢ – الإعجاز في النظم دون اللفظ[١] .

٣ – الإعجاز بالإخبار عن الحوادث والإنذار عن الكوائن في مستقبل الزمان .

٤ – الإعجاز بـ (الصَّرفة) ، ونص كلامه فيها :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، وصَرَف الهمم عن معارضته ، مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آيةً للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه)) .

٥ – الإعجاز بجميع ما تقدم[٢] .

هذا وإنه لم ينسب قولاً من تلك الأقوال الخمسة المتقدمة لأحد ، و لم يَعْزُها لمصدر إنما أرسلها إرسالاً .

ثمّ إنه لم يرتضِ الوجه الأولَ الذي يفصل بين الألفاظ وبين النظم الذي ينظمها في سلك فريد ، فقال :

((لا معنى لقول مَن زعم أن الإعجاز في لفظه ؛ لأن الألفاظ مستعملة في كلام العرب ومتداولةٌ في خطابها ؛ لأن[٣] البلاغة ليست في أعيان الأسماء ومفردِ الألفاظ وحَسْبُ دون أن تكون هذه الأوضاع معتبرة بمحالها ومواضعها المصرَّفةِ إليها والمستعملة فيها[٤]))[٥] .

١– حكى الحافظ البيهقي – رحمه الله تعالى – كلام أهل العلم في الإعجاز ولذلك جاء بالقولين الأولَين مفصولين وحقهما أن يجمع بينهما ؛ لشدة تلازمهما .

٢– ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

٣– كذا في المطبوع ، والوجه : (ولأنّ) بزيادة الواو .

٤– أي أن النظم الذي تُنْظَمُه هذه الألفاظ وطريقة إيرادها في جمل متناسقة معجزٌ أيضاً .

٥– المصدر السابق .

ثم مثل لذلك بكلام الإمام الخطابي قائلاً :

((قال الشيخ أبو سليمان[1] - رحمه الله :

وبيان ذلك أن العرب قد تعرف لفظ ((الصَّدْعْ))[2] في لغتها وتتكلم به في خطابها ثم إنك لا تجده مستعملاً لهم في مثل قوله : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3] ...))[4] .

- **أمّا الوجه الثاني** وهو الإعجاز بالنظم دون اللفظ فقد نصره قائلاً :

((وأما إعجازه من جهة النظم فالمعجز منه نظم جنس الكلام الذي باين به القرآنُ سائرَ أصناف الكلام التي تكلمت بها العرب))[5] .

ثم إنه أطنب في هذا ، ولكنه لم يبين كيف يكون الإعجاز في النظم فقط دون اللفظ على ما ذكره في هذا الوجه ، إلا أن يكون من البدهيّ عنده أن الألفاظ المجردة عن النظم هي من جنس الألفاظ الواقعةِ في كلام العرب إنما المدار على طريقة اختيارها ونظمها وسبكها ، فلعلّ هذا هو الذي جعله يترك الحديث عن اللفظ والعلاقة بينه وبين النظم ، والله أعلم .

ثم انه في هذا الوجه ساق الفرق بين الفواصل في الآيات الكريمة وبين

١- هو الخطّابي كما ورد في مواضعَ من كتاب البيهقي بقوله : أبو سليمان الخطابيّ .

٢- الصَّدْع هو الشَّق في الشيء الصلب كالزجاجة ونحوها ، وقوله تعالى ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي شُقّ جماعاتهم بالتوحيد ، أو معناه اجهر بما تؤمر : مِن صَدَع بالأمر إذا جاهر به ، وقيل معناه : افصل بالأمر ، وهو مستعار من صَدْع الأجسام وقيل غير ذلك ، انظر تفصيل هذا في ((تاج العروس)) : صدع .

٣- سورة الحجر : آية ٩٤ .

٤- ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ .

٥- المصدر السابق .

السَّجْع[1] ، ونفى أن يكون في القرآن العظيم سَجْعٌ .

والحق – في تقديري ، والله أعلم – أن السجع موجود في القرآن الكريم لكنه سجع غير متكلف ، سلس ، جميلٌ وقوعُه على السمع ، ولوقوعه في القرآن ضوابط ، وقد بين كلّ ذلك ابن سنان الخفاجيّ بقوله :

((بعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج[2] في الكلام ، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً ، وحجةُ من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتَعمُّل واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام ، وأزال ماءه ، وحجة من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يُحسّنها ، ويُظهر آثار الصنعة فيها ، ولولا ذلك لم يرد في كتاب الله تعالى ، وكلامِ النبي – صلى الله عليه وسلم – والفصيحِ من كلام العرب ... والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه ...

وأما الفواصل التي في القرآن فإنهم سَمَّوْها فواصل و لم يسموها أسجاعاً وفرّقوا فقالوا : إن السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحمل المعنى عليه ، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها ، وقال علي بن عيسى الرمانيّ :

إن الفواصل بلاغة والسجع عيب ، وعلل ذلك بما ذكرناه من أن السجع تتبعه المعاني ، والفواصل تتبع المعاني ، وهذا غير صحيح ، والذي يجب أن يحرر في ذلك أن يُقال : إن الأسجاع حروف متماثلة في مقاطع الفصول ...

١- السجع هو ((تواطؤ الفاصلتين ، أي توافقهما من النثر على حرف واحد ، وهو معنى قول صاحب ((المفتاح)) : هو في النثر كالقافية في الشعر)) وله أنواع وأقسام ، انظر في ذلك كله ((شرح التلخيص)) : ٦٧٨ وما بعدها .

٢- ((الازدواج هو : تجانس اللفظين المجاورين ، نحو :من جَدَّ وَجَدَ ، ومن لَجَّ وَلَجَ)) : ((جواهر البلاغة)) : ٤٠٤ .

والفواصل على ضربين : ضرب يكون سجعاً ، وهو ما تماثلت حروفه في المقاطع ، وضرب لايكون سجعاً ، وهو ما تقاربت حروفه في المقاطع ، ولم تتماثل ، ولا يخلو كل واحد من هذين القسمين - أعني المتماثل والمتقارب - من أن يكون يأتي طوعاً سهلاً وتابعاً للمعاني ، وبالضد من ذلك ، حتى يكون متكلفاً يتبعه المعنى ، فإن كان من القسم الأول فهو المحمود الدالُّ على الفصاحة وحسن البيان ، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض .

فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ماهو من القسم المحمود لعلوّه في الفصاحة ، وقد وردت فواصله متماثلةً ومتقاربة ...

فأمّا قول الرمانيّ إن السجع عيب ، والفواصل بلاغة على الإطلاق فغلط ... وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كل ما في القرآن فواصلَ ، ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً ، رغبةٌ في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام ، والمرويِ عن الكهنة وغيرهم ، وهذا غرض في التسمية قريب ، فأمّا الحقيقة فما ذكرناه))[1] .

أما الوجه الثالث - وهو الإخبار عن الكوائن المستقبلة - فقد ارتضاه وساق له من الشواهد الشيءَ الكثير ، ساقها كلها بأسانيدَ منه إلى منتهاها كما هي طريقته في جلّ ما أورده في كتابه .

١- ((سر الفصاحة)) : ١٧١ - ١٧٤ بتصرف .

هذا وقد سقت بعض كلام ابن سنان على طوله لأهمية هذا الموضوع ، واختلاف العلماء فيه ، وقد أورد السيوطيّ رحمه الله تعالى في ((المعترك)) الكلام على السّجْع في القرآن لكنه لم يخرج بشيء فصْل فيه وإنما اكتفى بإيراد القولين بدون ترجيح ، انظر((معترك الأقران)) : ١ / ٣١ - ٣٢ .

وقد بينت رأيي في الإعجاز بأخبار الغيب سابقاً ، وذكرت أنه إعجاز جزئي لا كليّ بمعنى أنه ليس منتشراً في كل آيات القرآن[1] .

– **أما الوجه الرابع** – وهو الإعجاز بـ (الصَّرفة) – فقد سقت كلامه نصاً خوفاً من اللبس ، أو أن أتهم بأني أُقوّل الرجل ما لم يقله ، وذلك لأنه كان واضحاً بأنه يقول بـ (الصَّرفة)[2] وزاد ذلك توضيحاً بقوله شارحاً المراد منها :

((وأما الصرفة والتعجيز – مع توهم القدرة منهم على الإتيان بمثله – فإنما يُعلم ذلك بعدم المعارضة مع توفّر الدواعي وشدّة الحاجة إليه ، وذلك ما لا يجوز أن يشك فيه عاقل من أنهم لو كانوا قادرين عليه لبادروا إليه مع حرصهم على إبطال دعوته ونقض كلمته ...

وسبيل هذا سبيل رجل عاقل اشتد به العطش وبحضرته ماء ، فجعل يتلوّى من شدة الظمأ ولا يشرب الماء ، فلا يشك شاكٌّ أنه عاجز عن شربه ، أو ممنوع لسبب يعوقه عنه وأنه لم يتركه اختياراً مع توفر الدواعي له ، وشدّة الحاجة منه إليه))[3] .

وكلامه من قوله : ((وسبيل هذا ...)) إلى آخر ما أورده واضح في إرادته الصَّرفةَ ، إلا أن يقال إنه ذكر القولين معاً : الإعجاز البلاغي والإعجاز

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢- وذلك حين قال في الوجه الرابع الذي سُقتهُ آنفا :

((ومنهم من قال : إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله ، وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آيةً للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه)) : ((الاعتقاد)) : ٢٥٩ . ثم انه لم يردّ هذا الكلامَ بل صدقه كما في النقل عنه في متن هذه الصفحة .

٣- ((الاعتقاد)) : ٢٦٦ .

بـ (الصَّرفة) ثم لم يرجح أحدهما ، وقد فصّلت في ذكر مذهب الإمام البيهقـيّ في هذه المسألة في موضع سابق [1] والله أعلم .

و (الصَّرفة) مذهب باطل توسعت في رده قبل هذا[2] .

– **أما الوجه الخامس وهو أنه قد وقع الإعجاز** بالأوجه الأربعة السابقة كلها فسبيل الرد عليه هو مانوقش به كل وجه من الأوجه الأربعة السابقة ؛ إذِ الوجه الأول لم يرتضه هو نفسه ، والوجه الثاني لم أرتضِهِ على إطلاقه – كما بينت ذلك[3] – والوجه الثالث مقبول بشرط اعتباره جزئياً كما بينت سابقاً[4] ، والوجه الرابع – وهو (الصَّرفة) – مردود .

هذا ما تيسر من الكلام على كتاب ((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد)) وبيان ما فيه من مباحث الإعجاز .

١- انظر ص ١٠٧ - ١٠٨ من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ١١٣ وما بعدها .

٣- انظر ص ١٤٩ .

٤- انظر ص ١٥١ .

رابعاً : السيرة الشريفة

((الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى اللـه عليه وسلم))

للقاضي عياض ، رحمه اللـه تعالى

هذا الكتاب جليل ، عظيم القدر ، متنوع المباحث ، قسمه مصنفه إلى أربعة أقسام ، في كل قسم منها أبواب وفصول .

وقد جعل القسم الأول لبيان تعظيم اللـه - تعالى - لقدر هذا النبيِ العظيم ، صلى اللـه عليه وسلم .

وبيّن في القسم الثاني ما يجب علينا من حقوق تجاهه ، صلى اللـه عليه وسلم .

أما القسم الثالث فكان لما يستحيل في حقه - صلى اللـه عليه وسلم - وما يجوز عليه شرعاً ، وما يمتنع ويصحّ من الأمور البشرية أن يضاف إليه .

وختم ببيان حكم من سبه أو تنقصه ، صلى اللـه عليه وسلم[1] .

وقد أورد مباحث الإعجاز والمعجزات التي جرت على يديه الشريفتين - صلى اللـه عليه وسلم - في القسم الأول المذكور آنفاً في الباب الرابع منه ، وهو :

١- انظر ((الشفا)) : ١ / ٨ - ١٢ ، فقد لخص القاضي فيها ذكر تلك الأبواب .

((فيما أظهره الله – تعالى – على يديه من المعجزات ، وشرفه به من الخصائص والكرامات[1]))[2] .

وقد أورد في هذا الباب الشريف تسعةً وعشرين فصلاً صدرها بالحديث عن تأثيره – صلى الله عليه وسلم _ فيمن خالطه وعرفه ، أو رآه بداهةً .

ثم شرع في ذكر مباحث الإعجاز المتنوعة،وبدأ الحديث عن المعجزات بالمعجزة العظمى : القرآنِ الكريم ؛ فخصه بفصل وافٍ شافٍ[3] ذكر فيه أربعة عشر وجهاً من أوجه الإعجاز ارتضى منها أربعاً ، وبين أن الباقي بعضه ملحق ببعض أوجه الإعجاز ، وبعضه لايعد من الإعجاز .

أما الأوجه التي ارتضاها فهي :

الوجه الأول :

((حسن تأليفه ، والتئامُ كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغتُه الخارقةُ عادةَ العرب))[4] .

وقد جاء بأدلّة وآثارٍ كثيرة تدل على تأثر العرب بما سمعوه من القرآن العظيم ، وعجزِهم عن الإتيان بمثله بعد التحدي والتقريع .

١- يريد بالكرامات ما أكرمه الله تعالى به من المعاني الدالة على نبوته ، وليس المراد المصطلحُ الخاص بخوارق العادات التي يكرم الله بها الأولياء .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٤١ – ٥٣٣ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ – ٣٩٦ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ – ٣٦٩ .

وهذا الوجه متفق عليه عند كل من كتب في الإعجاز وقرّره إلا عند قلة قليلة ممن شذ كالنظّام وأمثاله .

الوجه الثاني :

((صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها))[1] .

ثم إنه نعى على من جعل الإعجاز بالبلاغة والأسلوب وجهاً واحداً من وجوه الإعجاز جامعاً بين الاثنين ، وإنما يَذهب هو إلى أن ((الإعجاز بكل واحد من النوعين : الإيجاز والبلاغة بذاتها ، أو الأسلوب الغريب بذاته ، كل واحد منهما نوع إعجاز على التحقيق ... وذهب بعض المحققين المقتدى بهم إلى أن الإعجاز في مجموع البلاغة والأسلوب ، وأتى على ذلك بقول تمجُّه[2] الأسماع ، وتنفر منه القلوب ، والصحيح ما قدمناه ... ومن تفنن في علوم البلاغة ... لم يخفَ عليه ما قلناه))[3] .

والقاضي عياضٌ مصيبٌ فيما فعله من فصل البلاغة عن الأسلوب ؛ إذِ البلاغة مختصة بالمعاني بينما الأسلوب خاص بالألفاظ والتراكيب ؛ إذِ الأسلوب هو : ((الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[4] .

١- المصدر السابق : ١/ ٣٦٩ - ٣٧٤ .

٢- جاء في ((لسان العرب)) : (م ج ج) : ((مجّ الشراب والشيءَ من فيه يَمُجُّه مجّاً ، ومجّ به : رماه ... ومجّ بريقه يَمُجُّه إذا لفظه)) .

٣- ((الشفا)) : ١/ ٣٧٥ - ٣٧٩ .

٤- ((مناهل العرفان)) ٢ /١٩٩ .

وأسلوب القرآن الكريم هو ((طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[1] .

والقرآن ذو أسلوب متفرد متفنن في إيراد المعاني[2] فلذلك فإن هناك نوعَ تلازم بين الأسلوب والبلاغة ولكنهما شيئان منفصلان .

والأسلوب - بهذا التعريف - هو نوع من الإعجاز منفصل عن الإعجاز البلاغيّ .

الوجه الثالث :

((ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات ، وما لم يكن ولم يقع فوُجد كما ورد ، وعلى الوجه الذي أخبر به))[3] .

قد ذكرت رأيي الذي أرتضيه في هذا الباب - باب الإعجاز بأخبار الغيب - في مكان غير هذا وخلاصته أنه إعجاز جزئي وليس كلياً ، فليُنظر ، والله أعلم[4] .

١- المصدر السابق .

٢- مثل الخبر والإنشاء ، والتأكيد ، والاستدلال ، وضرب المثل ، إلخ ...

وانظر مبحث أسلوب القرآن الكريم في ((مناهل العرفان)) : ٢ / ١٩٨ - ٢٢٦ ، ففيه تفصيل واسع في أساليب القرآن .

٣-((الشفا)) : ١ /٣٧٥ - ٣٧٩ .

٤- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

الوجه الرابع :

((ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ؛ والأمم البائدة والشرائع الداثرة[1] مما كان لايعلم منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ[2] من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي - صلى الله عليه وسلم - على وجهه ، ويأتي به على نصه))[3] .

وحكم هذا الوجه حكم سابقه .

تلك كانت أوجهاً أربعة ارتضاها ووصفها بقوله :

((هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بينة لا نزاع فيها))[4] .

ثم إنه أورد وجوهاً في إعجاز القرآن وصفها بأنها بينة[5]، وبأن هذه الوجوه كلها - عدا الأربعة الأولى التي ارتضاها - ووجوهاً أُخَر أضرب عن ذكرها ((أكثرها داخل في باب بلاغته ، فلا يجب أن يُعَد فناً منفرداً في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ، وكذلك كثير مما قدمنا ذكره عنهم[6] يُعدّ في خواصه وفضائله ، لاإعجازه .

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذكرنا فليعتمد عليها ، وما بعدها من خواص القرآن وعجائبه التي لاتنقضي))[7] .

١-القديمة الدارسة ، انظر ((لسان العرب)) : د ث ر .

٢-الفَرْد ، ((لسان العرب)) : ف ذ ذ .

٣- ((الشفا)) : ١ / ٣٧٩ - ٣٨٢ .

٤- المصدر السابق : ١/ ٣٨٢ .

٥- المصدر السابق .

٦- سأذكر هذه الأوجه كلها إن شاء الله ، والضمير في (عنهم) يعود على المتكلمين على وجوه الإعجاز .

٧- المصدر السابق : ١ / ٣٩٦ .

وقد أتي القاضي عياضٌ – رحمه الله تعالى – بعشرة أوجه مما قيل إنه من أوجه الإعجاز عدا الأربعة الأولى ، وهذه الأوجه العشرة هي :

١ – التحدي الواقع للكافرين في قضايا خاصة ((وإعلامهم أنهم لايفعلونها فما فعلوا ولا قدروا على ذلك ، كقوله لليهود :

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ...﴾[١].

قال أبو إسحاق الزجّاج[٢] :

في هذه الآيةِ أعظمُ حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة لأنه قال :

﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ﴾ وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً ، فلم يتمنّه واحد منهم))[٣] .

وهذا الوجه داخل في الإعجاز بأخبار الغيب المستقبلة التي سبق الحديث عنها[٤] .

٢ – ((الروعة التي تلحق قلوبَ سامعيه وأسماعَهم عند سماعه ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته ...))[٥] .

وقد ذكر فيه أخبار من تأثر بالقرآن ممن ظلّ على كفره أو أذعن فأسلم .

١- سورة البقرة : الآيتان : ٩٤ ، ٩٥ .

٢- هو الشيخ الإمام ، نحويّ زمانه ، أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن السَّريّ الزجاج البغداديّ ، مصنف كتاب معاني القرآن ، وله تآليف جمة ، لِزم المُبرِّد فكان يعطيه من عمل الزُّجاج كل يوم درهماً فنصحه وعلّمه . توفي سنة ٣١١ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٣٦٠ .

٣- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٢ – ٣٨٤ . و قد تصرف القاضي قليلاً في كلام الزجاج – رحمهما الله تعالى – وانظر نصّ كلامه في ((معاني القرآن و إعرابه)) : ١ / ١٧٦ – ١٧٧ .

٤- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٥- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٤ – ٣٨٨ .

وهذا الوجه هو أثر الإعجاز نفسه كما سبق بيان ذلك[1] .

٣ - تكفلُ الله بحفظه إلى آخر الزمان[2] .

وهو - كما قال- بيانٌ بكفالة الله بحفظه حيث لم يَكِل ذلك إلى البشر كما حدث في الكتب السابقة التي حُرفت ، وليس من وجوه الإعجاز ، إذ لم يَصِلنا أنه تُحدي أحدٌ أو أُعجز بالطلب منه أن يغير شيئاً من هذا الكتاب العزيز ، والله أعلم ، إنما غاية مايقال في هذا الوجهِ هو أن هذا التكفلَ بالحفظ خصوصية خص الله - تعالى - بها هذا الكتابَ المبارك .

٤ - ((قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ...))[3] .

ويمكن - عندي - أن يكون هذا الوجهُ أثراً من آثار الوجه الثاني : ((الروعة التي تلحق قلوب سامعيه ...)) حيث إن تلك الروعة والهيبة تحمل القارىء على ترداد مايقرؤه فليس هو الإعجازَ إذاً ، والله أعلم .

٥ - ((جمعه لعلوم ومعارفَ لم تُعهد العرب عامّة ولا محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل نبوته خاصة بمعرفتها ولا القيام بها ، ولا يحيط بها أحد من الأمم ...))[4] .

١- انظر ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٢- ((الشفا)) : ١ / ٣٨٨ - ٣٨٩ .

٣- المصدر السابق : ٣٨٩/١ - ٣٩٠ .

٤- المصدر السابق : ١/ ٣٩٠ .

وهذه العلوم والفنون التي تحدث عنها القاضي - رحمه الله تعالى - تُعرف اليوم بـ ((الإعجاز العلميّ)) في القرآن العظيم .

وهذا الإعجاز حكمه حكم الإعجاز بأخبار الغيب الذي سبق الحديث عنه[1] فهو إعجاز جزئيّ موجود في كثير من الآيات ولكنه ليس في كلها ، وبهذا الاعتبار يمكن عدُّه من وجوه الإعجاز .

٦ - ((جمعه فيه بين الدليل ومدلوله ؛ وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته ، وأثناءَ هذه البلاغة أمرُه ونهيه ، ووعده ووعيده فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد وسورة منفردة))[2] .

ومعنى هذا أن القرآن منفرد عن باقي الكلام ؛ لأن سائر الكلام يُساق معه عدد من الأدلة النقلية أو العقلية أو كليهما معاً لإقناع السامع بمراد المتكلم وصحة كلامه ، بينما كان كلام الله معجزاً لأن الكلماتِ نفسَها تحوي أدلةَ صدقها بما فيها من بلاغة وإيجاز ومعان عالية تقتضي كلها كمال الإعجاز الذي هو أعظم الأدلة على أن هذا كلامُ الرحمن سبحانه .

ولأمثّل على هذا فإني أذكر أن موسى - عليه الصلاة والسلام - جاء قومه بالتوراة ، وجاء بالدليل على صحتها وهو العصا وغيرها من الآيات البينات ؛ أي أن التوراة - فقط - لم تكن كافية للتدليل على صحة رسالة موسى فجيء معها بما يعضدها ويدل على صحتها ، أما القرآن فقد جمع الله له بين كونه حجةً بينة واضحة على صحته وبين كونه كتاباً هادياً للبشر ومرشداً لهم .

وهذا الوجه - وهو الجمع بين الدليل والمدلول عليه ، أو الحجة والمحتجِّ له - هو وجه متفرد بالإعجاز على هذا الاعتبار ، بل هو من أعظم وجوه الإعجاز .

١- انظر ص ١٣٤ ومابعدها من هذه الرسالة .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ .

وهذا الرأي في إعجاز القرآن إنما هو للإمام الخطابي ، انظر ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٨ .

والفارق بينه وبين الوجه الأول – وهو ((حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب)) – الفارق بينهما أن الوجه الأول يرسخ في الأذهان كون القرآن معجزاً في نفسه ، أي يتضمن الدليل والحجةَ على صحته ، بينما هذا الوجه الأخير يبين أن القرآن يتضمن الهداية والإرشاد أيضاً ، فليس هو كتاباً معجزاً في ألفاظه وبلاغته فقط بل في معانيه وهدايته أيضاً ، وهذا هو مراد القاضي بـ (المدلول) ، وذلك في قوله ((جمعه فيه بين الدليل ومدلوله ... وأثناءَ هذه البلاغةِ أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ...)) .

٧ – ((ومنها أنْ جعله في حَيّز المنظوم الذي لم يُعهْد ، و لم يكن في حَيّز المنثور ؛ لأن المنظوم أسهل على النفوس وأوعى للقلوب وأَسْمحُ في الآذان ، وأحلى على الأفهام ، فالناس إليه أميل ، والأهواءُ إليه أسرع))[١] .

وهذا الوجه المذكور فيه تنبيهان :

الأول : أن هذا الوجه داخل في الوجه الثاني الذي ارتضاه القاضي عياض – رحمه الله تعالى – وهو ((صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه ...))[٢] لكنّ هذا الوجه فيه تفصيل وتعليل لذا أتى به منفرداً ، وحقه الاندراج في الوجه الثاني .

التنبيه الآخَر :

أن القاضي عياضاً – رحمه الله تعالى – جعل القرآن في حَيّز المنظوم ونفى أن يكون من المنثور ، وليس هناك دليل على هذا ؛ بل جاء كتاب الله – تبارك

١– المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ .

٢– المصدر السابق : ١ / ٣٩٤ – ٣٩٥ .

وتعالى – بأسلوب خارج عن أن يكون نظماً خالصاً أو نثراً خالصاً بل هو قسم ثالث قائم بنفسه ، متفرد برأسه ، فلا يصحّ – في تقديري – وصفه بأنه منظوم ، ولو قُيد ذلك النظمُ بأنه نظم لم تعهده العرب ؛ وذلك لافتقار هذا الكلام إلى الدليل ، والله تعالى أعلم .

((قال الجاحظ : سمّى الله كتابه اسماً مخالفاً لما سمّى العرب كتابهم على الجُمَل والتفصيل ، سمّى جملته قرآناً كما سمّوْا ديواناً ، وبعضَه سورةً كقصيدة ، وبعضَها آية كالبيت ، وآخرَها فاصلةً كقافية))[1] .

وقد وجّه الشيخ الخفاجيُّ – رحمه الله تعالى – كلام القاضي عياضٍ توجيهاً حسناً مستفيداً من قول القاضي ((المنظوم الذي لم يُعهد)) ، فقال :

((المنظوم الذي لم يُعهد)) : أي المؤلَّفُ الواقع على طريقة لا تشابه شيئاً من كلامهم المنظومِ لا شعراً ولا خطبة ولا رسالة مع كونه واضحَ الدلالة بلسانهم ، وهذا إنما يعرفه من له معرفة بكلام العرب نظمِه ونثره وسجعه ...)) .

ثم قال موجهاً كلامَ القاضي : ((ولم يكن في حَيّز المنثور)) :

((أي لم يُشْبه أقسام منثورهم من السجع الملتزَم فيه حروفٌ كحروف رَوي الشعر[2] ، ولا خطابةٍ ، لمقاطع فصول الخطب ومواضع استراحاتها ، لا لاشتماله على الفواصل كما تُوُهّم)) .

١- ((الإتقان)): ١ / ٥٠ .

٢- الرويّ : حرف القافية ، وهو الذي تُبنى عليه القصيدة ، فيقال قصيدة ميمية وسينية مثلاً ، وكل حروف العربية تصلح أن تكون رَوِيًّا إلا الألف والياء والواو الزوائد في أواخر الكلم في بعض الأحوال ، وانظر تفصيل هذا في ((لسان العرب)) : (روي) .

ثم قال موجهاً كلام القاضي : ((لأن المنظوم أسهل على النفوس)) :

((أي الكلام المتنسقَ نظمُه وتأليفه على نهج واحد والمفضَّل عليه المنثورُ[1] بالمعنى السابق))[2] .

٨ - ((ومنها تيسيره - تعالى - حفظَه لمتعلميه ، وتقريبُه على متحفظيه ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾[3] ، وسائر الأمم لا يحفظ كتبَها الواحدُ منهم ، فكيف الجمّاءُ[4] على مرور السنين عليهم ، والقرآن ميسر حفظُه للغلمان في أقرب مدة))[5] .

وهذا الحفظ خصوصية خُصَّ بها هذا الكتاب العظيم ، كاختصاصه بعدم التغيير والتحريف ، فليس هو من الإعجاز ، والله أعلم .

٩ - ((ومنها مشاكلة بعض أجزائه بعضاً وحسن ائتلاف أنواعها والتئام أقسامها ... وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي ... ووعد ووعيد ... وترغيب وترهيب ... دون خلل يتخلل فصوله ، والكلام الفصيح إذا اعْتوَره[6] مثلُ هذا ضعفت قوته ، ولانت جزالته ، وقَلّ رونقه))[7] .

١- كذا في المطبوع ، والسياق يقتضي (على المنثور) ، والله أعلم .

٢- ((نسيم الرياض)) ٢ / ٥٤٠ .

٣- سورة القمر : آية ١٧.

٤- هو يريد العدد الكثير الجمّ ولكني لم أجد في ((لسان العرب)) إلا: الجَمّاء : هي الشاة التي لا قرن لها ، والجَمَّاء موضع بالمدينة ، أما بمعنى الكثير فهو الجَمُّ ، والجَمَمُ ، والجِمام ، والجُمُوم ولعل الجمّاء مؤنث الجمّ ، والله أعلم .

٥- ((الشفا)) : ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

٦- اعتَوَرْت الشيء : تداولتُه ، انظر ((لسان العرب)) : ع و ر .
والمقصود - هنا - أصابه وجرى عليه .

٧- ((الشفا)) : ١ / ٣٩٥ .

وهذا الوجه داخل في الوجه الأول الذي ارتضاه القاضي عياض - رحمه الله تعال - بقوله فيه :

((حسن تأليفه والتئام كَلِمه))[1] .

وبقوله فيه أيضاً :

((ثم هو[2] في سرد القصص الطوال ، وأخبارِ القرون السوالف - التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ، ويذهب ماء البيان - آيةٌ لمتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض ، والتئام سرده ، وتناصف وجوهه[3]))[4] .

فذاك الكلام الوارد في الوجه الأول يكاد يتطابق مع هذا الكلام المسرود في هذا الوجه ، والله أعلم .

١٠ - ((ومنه الجملة الكثيرة[5] التي انطوت على الكلمات القليلة))[6] .

وهذا الوجه أيضاً قد ذكره في الوجه الأول - الذي ارتضاه - عند كلامه على الآيات القرآنية من حيث ((إيجاز ألفاظها ، وكثرة معانيها ، وديباجة عبارتها ، وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها ، وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرة ، وفصولا جمّة ، وعلوماً زواخر ، مُلِئت الدواوينُ من بعض ما استُفيد منها ، وكثُرت المقالات في المستنبطات عنها)) [7] .

١- المصدر السابق : ١ / ٣٥٨ .

٢- أي القرآن .

٣- عرف المحقق ذلك بقوله : ((تناصف : تفاعل ، من النصَفة والإنصاف ، يقال : أعضاؤه متناصفة حسناً : أي لاينقص حسن بعضها عن بعض)) ، انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٦٨ ، هامش (١٢) .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٦٨ .

٥- أي الكثيرة المعاني ؛ كما بين المحقق ، انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٩٦ ، هامش (٣) .

٦-((الشفا)) : ٣٩٦/١ .

٧- المصدر السابق : ١/ ٣٦٨ .

فالذي أراه أن هذا الوجه الأخير لا ينفصل أو يختلف عن كلام القاضي الـذي أورده في الوجه الأول الذي ارتضاه من أوجه الإعجاز ، واللـه أعلم .

ثم ختم القاضي عياض - رحمه اللـه تعالى - الحديث عن الإعجاز بقوله :

((وهذا كله ، وكثيرٌ مما ذكرنا أنه في إعجـاز القـرآن ، إلى وجـوه كثـيرة ذكرهـا الأئمة لم نذكرها ؛ إذ أكثرهـا في بـاب بلاغتـه ، فـلا يجـب أن يُعـدّ فنـاً منفـرداً في إعجازه إلا في باب تفصيل فنون البلاغة ، وكذلك كثير مما قدمنـا عنهـم يُعـدّ[١] في خواصه وفضائله لا إعجازه .

وحقيقة الإعجاز الوجوه الأربعة التي ذَكَرْنا[٢] ، فليُعتمد عليها ، وما بعدهـا[٣] من خواص القرآن وعجائبه التي لا تنقضي))[٤] .

وخلاصة ما أورده من أوجه الإعجاز الأربعة عشر هي :

١ - الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم .

٢ - الإعجاز بالأسلوب .

٣ - الإعجاز بأخبار الغيب .

٤ - الروعة والتأثير .

٥ - الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٦ - جَمْع القرآن بين الدليل والمدلول .

١- هذه الكلمة خبر لقوله في أول كلامه : ((وهذا كله)) .

٢- سبق تبيان هذه الوجوه الأربعة وما أراه فيها ، انظر ص ١٥٨ وما بعدها .

٣- أي الأوجه العشرة التي بعد الأربعة التي ارتضاها .

٤- ((الشفا)) : ١ / ٣٩٦

وقولـه إن الأوجـه العشـرة كلهـا من خواص القرآن وعجائبـه لا من إعـجازه ليس على إطـلاقه فقد بينـت أن أكثرها مقبـول بمفـرده أو أنـه يدخـل في الوجهين الأوّلين من الأوجـه التي ارتضـاها القاضي ، رحمه اللـه تعالى ، واللـه أعلم .

وإن كان لي مأخذ عِلميّ على مـاأورده القـاضي - رحمـه اللـه تعـالى - مـن مباحث الإعجاز فهو أنه ذكر (الصَّرفة) على أنها مذهبٌ لبعض أهـل السـنَّة ثـم لم يفنّد هذا الرأي ولم يبيّن عُواره[1] حيث قال :

((وقـد اختلف أئمة أهل السنّة في وجه عجـزهم عنه ، فـأكثرهـم يـقـول إنه ما[2] جُمع في قوة جزالته ، ونصاعة ألفاظـه ، وحسـن نظمـه وإيجـازه ، وبديـع تأليفه وأسلوبه لا يصح أن يكون في مقدور البشر ، وأنه من بـاب الخـوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى ، وقلب العصا ، وتسبيح الحصى .

وذهب الشيخ أبو الحسـن[3] إلى أنـه ممـا يمكـن أن يدخـل مثلـه تحـت مقـدور البشر ، و يُقْدرهم اللـه عليه ، ولكنه لم يكـن هـذا ولا يكـون ، فمنعهـم اللـه هـذا وعجّزهم عنه ، وقال به جماعة من أصحابـه ، وعلـى الطريقـين فعجـز العـرب عنـه ثابت))[4] .

ومقصوده بالرأي الذي ذهب إليه الشيخ أبو الحسن الأشعري وبعض أصحابـه من أهل السنة هو (الصَّرفة) ، كما بينت ذلك بالتفصيل فيما سبق[5] .

وقد ذكر القاضي - رحمه اللـه تعالى - في موضع قبل هذا (الصَّرفـةَ) حيـث قال :

١- سبق الكلام على مذهب القائلين بالصرفة ، انظر ص ١١٣ ومابعدها .

٢- في ((الشفا)) المطبوع في ((المكتبة السلفية)) بشرح الخفاجي : ((مما)) ، وهو أقرب إلى المعنى المراد ، وقد قـدّر الخفاجيّ الكلام بالآتي : ((أي لايمكنهم القـدرة على مثلـه لِمـا جمعـه مما لاتطيقـه قدرتهم)) : انظر ((نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض)) : ٥٠٣/٢ .

٣- يقصد أبا الحسن الأشعريّ ، وقد سبقت ترجمته .

٤- ((الشفا)) : ١ / ٣٧٣ .

٥- انظر ص ١٠٣ وما بعدها .

((اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها ، وهي على ضربين :

ضربٌ هو من نوع قدرة البشر فعجزوا عنه ، فتعجيزهم عنه فِعْلٌ لله دَلَّ على صدق نبيه كصرفهم عن تمني الموت ، وتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن على رأي بعضهم[1] ونحوه .

وضربٌ هو خارج عن قدرتهم فلم يقدروا على الإتيان بمثله كإحياء الموتى ...))[2] .

وكلام القاضي - رحمه الله تعالى - يُفهم منه تجويز مذهب القائلين بـ (الصَّرفة) وإن كان يميل إلى المذهب الآخر كما يظهر من قوله :

((على رأي بعضهم)) ، ((وقد اختلف أئمة أهل السنة فأكثرهم يقول ... وذهب الشيخ أبو الحسن إلى ...)) .

وقد قال القاضي عَقِب ذكره لمذهب الفريقين :

((وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت))[3] ، والله أعلم .

أما نسبته القولَ بـ (الصَّرفة) للشيخ أبي الحسن الأشعريّ فإني لم أجد أحداً نسبها إليه في كتب العقائد أو غيرها من المراجع المشهورة .

١- وهي (الصَّرفة) كما لا يخفى .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٤٩ - ٣٥٠ .

٣- سبق شرح هذا الكلام ، وأنه يُشبه التنزّل ، انظر ص ١١٠ وما بعدها .

وقد قال الخفاجي :

((نُقل عن الأشعري إلاأنه لم يشتهر عنه))[1] .

ثم ذكر أن من الناس من قال إنه يحتمل أن يكون رجلاً آخر غيرَ أبي الحسن ، وقيل في توجيه نسبة هذا الرأي إلى أبي الحسن الأشعريّ غيرُ هذا[2] .

وبهذا يتم الكلام على الكتب المختارة – في العلوم الأربعة : التفسير ، وعلوم القرآن ، والعقيدة ، والسيرة – التي تحدثت عن الإعجاز ضمناً فكان جزءاً من مباحثها الكثيرة .

ولما كان الكلام على الإعجاز فيها ليس مستقلاً فإن طَرْقه كان على عجالة وفي إيجاز قد لا يُتمكن معه من معرفة الجوانب التفصيلية في الإعجاز والوجهِ المرضيّ منها ، ولكن يُطلب هذا من الكتب المستقلة بالإعجاز ، وهذا هو موضوع المبحث التالي ، إن شاء الله تعالى .

ويمكن اختصار أوجه الإعجاز التي جاءت في تلك الكتب المختارة في الآتي :

١ – البلاغة والفصاحة والنظم .

٢ – الروعة والتأثير في القلوب .

٣ – أمرٌ لايستطاع التعبير عنه .

٤ – أخبار الغيب .

٥ – الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٦ – جَمْع القرآن بين الدليل والمدلول .

٧ – التحدي وقع بالكلام القديم وفيه وقع الإعجاز .

٨ – (الصَّرفة) .

٩ – الإعجاز بأوجه مجتمعة منها المقبول والغير المقبول كـ (الصَّرفة) .

١– انظر ((نسيم الرياض)) ٢ / ٥٠٤ .

٢– المصدر السابق ، وانظر ص ١٠٣ وما بعدها من هذه الرسالة فقد سبق الكلام على هذه القضية .

المبحث الثاني :

التدوين في الكتب المستقلة بالإعجاز

تمهيـــد

الكتب التي صُنِّفت في بيان إعجاز القرآن العظيم واستقلت بهذا الموضوع هي كتب متفاوتة في أهميتها وكيفية تناولها للإعجاز ؛ إذ أن بعضها جاء بجديد محـدّد في هذا الموضوع ، وكثير منها كانت مباحثه تكـراراً لما سبق ذكـره في كتـب أخـرى متقدمة فلم يأت بجديد .

وقد سبق أن أوردت جميع الكتب التي تناهى إلى علمي أنها صُنفت في إعجاز القرآن العظيم مستقلة به[1] ، وقد بينت أن أول كتاب وصل إلينا وفيه بيان لجوانبَ من إعجاز القرآن هو ((حجج النبوة)) للجاحظ – رحمه الله تعالى – وقد ذكرت أنه مبتور غير كامل[2] .

ثم أخذَت كتب الإعجاز القرآني تتوالى وتنتشر بعد انتهاء القرن الثالث الهجـريّ إلى قرننا هذا .

وسوف أتكلم في هذا المبحثِ – إن شاء الله تعالى – على أربعـة كتـب مـن القرون : الرابع والخامس والسابع والثامن على التوالي .

١- انظر ص ٧٩ وما بعدها .

٢- انظر ص ٧٣ .

وإنما لم آت بتصنيف في القرن السادس لأنه لم يصلنا من مؤلفات ذلك القرن شيءٌ .

أما القرن التاسع فلم يصلنا منه إلا مصنفُ ابن الجزريّ[١] ، وهو مختصر ، مخصص - في معظمه - لبحث البلاغة في آية واحدة فقط ، مع بعض مباحث في الإعجاز ختم بها ابن الجزريّ كتابه ، فلما كان الكتاب كذلك فإني لم أختره .

وأما القرن العاشر فلا أعرف أنه وصلنا من مصنفاته كتابٌ غير كتاب الإمام السيوطي ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) موضوعِ الرسالة .

وأما القرون من الحادي عشر إلى الثالث عشر فلم يصلنا أنه صُنف فيها كتاب مستقل بالإعجاز[٢] ، والله أعلم .

أما القرن الرابع عشر فسيأتي الحديث عن أبرز المصنفات في الإعجاز فيه في الباب الرابع ، إن شاء الله تعالى[٣] .

وقد اخترت أربعة كتب استقلت بالكلام على الإعجاز ، وكان سبب اختياري لها دون غيرها أني اعتقد أن كلاً منها قد أتى بجديد متميز عن غيره ، ماعدا كتاب ((نهاية الإيجاز)) للرازي ؛ و إنما اخترته لأنه أفضل ما وصل إلينا من مصنفات ذلك القرن[٤] .

أما الكتب المختارة فهي :

١ - ((النكت في إعجاز القرآن)) للشيخ الرمانيّ (ت ٣٨٤) رحمه الله تعالى .

١- وهو كتاب ((كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي ﴾ في إعجاز القرآن)) .

٢- انظر ص ٨٩ .

٣- انظر ص ٦٦٧ وما بعدها .

٤- انظر ص ٨٦ ، ٨٧ .

٢ - ((إعجاز القرآن)) للإمام الباقِلانيّ (ت ٤٠٣) رحمه اللـه تعالى .

٣ - ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) لفخـر الديـن الـرازي (ت ٦٠٦) رحمـه اللـه تعالى .

٤ - ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجـاز)) للسـيد يحيـى بـن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥) رحمه اللـه تعالى .

وسوف أتكلم عليها - على الترتيب السابق - كلاماً موجزاً يتبين بـه الملامـح العامّة للكتاب ، ذاكراً وجوهَ الإعجاز التي ارتضاها مصنفو تلك الكتب ، نـاقداً مـا يحتاج إلى النقد منها ، إن شاء اللـه تعالى .

١ - ((النكت في إعجاز القرآن))[1]

للشيخ أبي الحسن علي بن عيسى الرمانيّ المعتزليّ (ت ٣٨٤)

المؤلّف رسالة موجزة[2] في الإعجاز ، هي أولى المصنفات التي وصلتنا كاملة في هذا الباب ، وهي ((أول دراسة فنية ذات وحدة متماسكة فتحت الباب بعد ذلك لدراسات أوسعَ وأشمل وأعمق))[3].

وقد استفاد من مباحث هذه الرسالة عددٌمن المصنفين بعد الرمانيّ كالباقِلاّنيّ الذي نقل قسماً كبيراً منها في كتابه : ((إعجاز القرآن))[4] .

وقد قسم المصنّف رسالته هذه إلى مقدمة وأحدَ عشر باباً :

أما المقدمة فقد اختصرها غاية الاختصار وسرد فيها سبعة أوجه للإعجاز منها البلاغة التي خصها بعشرة أبواب من الرسالة ، وطَرَق أوجه الإعجاز الستة الباقية طرقاً خفيفاً في الباب الحادي عشر .

وكان للمباحث البلاغية في رسالته ((أكبر الأثر في تاريخ البحوث البلاغية على مرّ الأزمان ، كما كانت مصدراً يستقي منه كل العلماء الذين أتوا بعده ، وعُنُوا بالبلاغية العربية عامّة وبلاغات القرآن خاصة))[5] .

١- الكتاب مطبوع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن هي ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطابيّ، و ((الرسالة الشافية)) للإمام الجُرجانيّ ، بالإضافة إلى كتاب ((النكت)) الذي يحتل الصفحات : ٧٥ - ١١٣ من المجموع .

٢- كان السبب في وَجازتها أن سائلاً مجهولاً طلب منه ذكر أوجه الإعجاز دون تطويل بذكر الأدلة فاستجاب له ، انظر ((النكت)) : ٧٥ .

٣- ((بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ)) : ١١٢ .

٤- انظر ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ١٦٤ - ١٦٦ .

٥- ((المباحث البلاغية)) : ١١٣ - ١١٤ .

وجوه الإعجاز عند الشيخ الرمّانيّ :

ذكر الرمانيّ في رسالته الموجزة سبعة أوجه للإعجاز ، هي :

١ - ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدّة الحاجة[١] .

٢ - التحدي للكافّة[٢] .

٣ - الصَّرفة[٣] .

٤ - البلاغة[٤] .

٥ - الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة[٥] .

٦ - نقض العادة[٦] .

٧ - قياسه بكل معجزة[٧] .

أمّا الوجه الأول - وهو ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة - فالمقصود منه عجز العرب عن المعارضة[٨]، ولا يصح - في تقديري - أن يُجعل العجز عن المعارضة وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ لِما فيه من الدَّوْر[٩] ؛ ولأن العجز دليل الإعجاز ، وليس هو الإعجاز .

١- ص ١٠٩ .

٢- ص ١١٠ .

٣- ص ١١٠ .

٤- ص ٧٥ - ١٠٩ .

٥- ص ١١٠ - ١١١ .

٦- ص ١١١ .

٧- ص ١١١ - ١١٣ .

٨- وإنما قلت ذلك لئلا يتداخل هذا الوجه مع الوجه الثالث وهو (الصَّرفة) .

٩- الدَّوْر هو ((توقف الشيء على مايتوقف عليه ... كما يتوقف (أ) على (ب) ، و (ب) على (ج) ، و (ج) على (أ))) : ((التعريفات)) : ١٤٠ .

والوجه الثاني - وهو التحدي للكافّة - ليس وجهاً من أوجه الإعجاز بقدر ماهو داعية إلى الإعجاز ؛ إذ أنّه - أي التحدي - هو السبيل الذي أغرى الله به البشر كافّة لأن يعارضوا القرآن فانقطعوا و لم يستطيعوا .

الوجه الثالث :

(الصَّرفة) ، وقد سبق بيانها ، وردها وإبطالُها[1] .

الوجه الرابع :

البلاغة ، فقد قسمها إلى عشرة أقسام هي :

١ - الإيجاز[2] .

٢ - التشبيه[3] .

٣ - الاستعارة[4] .

٤ - التلاؤم ، ويعني بها عدم تنافر الحروف[5] .

١- انظر ص ١١٣ وما بعدها .

٢- ((الإيجاز هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقلَّ منها ، وافيةٍ بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح ، كقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ : [سورة الأعراف : آية ١٩٩] ، فهذه الآية القصيرة جمعت مكارم الأخلاق بأسرها)) وللإيجاز أقسام ، وانظر في ذلك: ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٢ وما بعدها ، وانظر ((النكت)) : ٧٦ - ٨٠ .

وإنما عدلت عن تعريفات المصنف إلى تعريفات المتأخرين لأنها أقعد وأدلّ على المراد ، وأما إتياني بالتعاريف من كتاب ((جواهر البلاغة)) دون ((المفتاح)) وشروحه لأن مافي ((الجواهر)) أوضح مما في غيره وأسهل تناولاً .

٣- التشبيه هو ((عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قُصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم)) : ((جواهر البلاغة)) : ٢٤٧ . وانظر ((النكت)) : ٨٠ - ٨٥ .

٤- الاستعارة هي ((استعمال اللفظ في غير ماوضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصليّ ، والاستعارة ليست إلاتشبيهاً مختصراً ولكنها أبلغ منه ، كقولك رأيت أسداً في المدرسة ، فأصل هذه الاستعارة : رأيت رجلاً شجاعاً كالأسد في المدرسة فحذفت المشبّه وحذفت الأداة وحذفت وجه التشبيه وألحقته بقرينة المدرسة لتدل على أنك تريد بالأسد شجاعاً)) : ((جواهر البلاغة)) : ٣٠٣ - ٣٠٤ . وانظر ((النكت)) : ٨٥ - ٩٤ .

٥- التلاؤم = عدم تنافر الحروف . والتنافر وصف في الكلمة يوجب ثقلها على السمع وصعوبة أدائها باللسان بسبب كون حروف الكلمة متقاربة المخارج)) وينقسم إلى قسمين ، وانظر كل ذلك في ((جواهر البلاغة)) : ٨ ؛ وانظر ((النكت)) : ٩٤ - ٩٧ .

٥ - الفواصل[١] .

٦ - التجانس ، و يعني بها المشاكلة[٢] والازدواج[٣] .

٧ - التصريف :

ويعني به تصريف المعنى في المعاني المختلفة كتصريف الملك في معاني الصفات فصُرف في معنى مالك ، وملك ، وذي الملكوت ، والمليك ، وفي معنى التمليك ... ، وضرب مثلا على هذا قصة موسى - عليه الصلاة والسلام - حيث ذكرت في عدة سور لوجوه من الحكمة : منها التصرف في البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة ، ومنها تمكين العبرة والموعظة ، ...[٤]

٨ - التضمين :

((وتضمين الكلام هو حصول معنى فيه من غير ذكر له[٥] باسم أو صفة ... وكلُّ آية فلم تخل من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ، فمن ذلك

١- الفاصلة ((كلمةُ آخر الآية)) : ((البرهان)) : ١ / ٥٣ . ((وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر - جَلَّ كتاب الله عز وجل - واحدتها فاصلة)) : ((لسان العرب)) : (ف ص ل) .
وانظر ((النكت)) : ٩٧ - ٩٩ .

٢-المشاكلة هي أن يذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ... نحو قوله تعالى : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي أهملهم ، ذكر الإهمال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته)) : ((جواهر البلاغة)) : ٣٧٥ . و قال ابن كثير : ((أي عاملهم معاملة مَن نسيهم)) : ((تفسير القرآن العظيم)) : ٤ / ١١٣ .

٣- والازدواج هو ((تجانس اللفظين المجاورين نحو : من جدّ وجد)) : ((جواهر البلاغة)) : ٤٠٤ .
ومثل له الرمانيّ بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ سورة التوبة آية : ١٢٧ ، وانظر مقصود الرمانيّ من هذا القسم في ((النكت)) : ٩٩ _ ١٠٠ .

٤- انظر ((النكت)) : ١٠١ - ١٠٢ .

٥- أي من غير ذكر لذلك المعنى المضمّن ، وسيوضح كلامه بمثال .

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به ، والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين ، وشعار للمسلمين ...))[1] .

٩ – المبالغة[2] .

١٠ – البيان :

ويعني به علم البيان المعروف الذي هو ((أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض ، في وضوح الدلالة العقلية على نفس ذلك المعنى)) ، وله أقسام معروفة[3] .

لكن الكلام على البيان في كتابه جاء على هيئة مباحث أولية ، وأمثلة لم تكتمل أقسامها بعدُ[4]، وذلك لتقدم زمان الرماني ، وعدمِ اكتمال تقاسيم ذلك العلم .

هذا وقد جاءت مباحثه البلاغية في هذه الرسالة قويةً ، وفي بعضها جدّةٌ وابتكار ، ولكنّ التقسيم الذي استقرّ بعد ذلك لعلم البلاغة[5] لم يكن واضحاً في رسالته ؛ حيث إنه قد حصر البلاغة في الوجوه العشرة التي ذكرها و لم يزد عليها ، إما لأنّه لم يطلع على ما سواها ، أوأنه ذكر مايرى أنه الأهمّ ، والله أعلم [6] .

الوجه الخامس : الإخبار عن الغيوب :

١- المصدر السابق : ١٠٢ – ١٠٤ ، وهو غير التضمين المشهور في علم البلاغة ، وهو أن يضمن الشاعر كلامه شيئاً من مشهور شعر الغير ، وانظر ((جواهر البلاغة)) : ٤١٦ .

٢- ((هي أن يدعي المتكلم لوصفٍ بلوغَه في الشدة أو الضعف حدّاً مستبعداً أو مستحيلاً)) ولها أنواع ، وانظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٨٠ .

٣- انظر ((جواهر البلاغة)) : ٢٤٤ وما بعدها من أبحاث التشبيه ، والمجاز ، والكناية .

٤- ((النكت)) : ١٠٦ – ١٠٩ .

٥- وهي البيان والمعاني والبديع .

٦- انظر – في هذا الموضوع بالتفصيل – كتاب الدكتور محمد محمد أبو موسى :((الإعجاز البلاغيّ)) : ٨٥ – ١٥٣ ، وكتاب الدكتور أحمد العمريّ : ((المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني)) : ١١٥ – ١٤٩ . وانظر فصل ((تعليقات من جاءوا بعد الرمانيّ على آرائه البلاغية واقتباسهم من تلك الآراء)) في كتاب ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ص ١٦٤ وما بعدها .

وقد سبق أن ذكرت أن الإعجاز فيها إعجاز جزئيّ لا كليّ ، بمعنى أنه ليس في كل آيات القرآن العظيم [١] .

الوجه السادس : نقض العادة :

ويعني الرمانيّ به أن القرآن قد أتى نظمه على طريقة مفردة خارجةٍ عن العادة، لها منزلة في الحسن تفوق كل منزلة [٢] .

وهذا الوجه هو ما يعرف بـ (الإعجاز النظمي) ، وقد أفرده الشيخ عن أوجه البلاغة التي تكلم عليها في كتابه ، وعادة المتكلمين في بلاغة القرآن بعده - كالباقلانيّ [٣] - أن يجعلوا هذا الوجهَ مع البلاغة فيصير وجهاً واحداً ، ولكن إفراده - كما صنع الرمانيُّ - أمرٌ حسن لايعاب عليه بل هو يبرز هذا الوجهَ ويظهره ، وهذا عينُ صنيع عبد القاهر الجرجانيّ في كتاب ((دلائل الإعجاز)) ؛ إذ تفنن في الكلام على نظم القرآن وقعّد له قواعد .

الوجه السابع : قياسه بكل معجزة ، ويوضح مراده بقوله :

((وأما قياسه بكل معجزة فإنه يظهر إعجازه من هذه الجهة ؛ إذ كان سبيل فلق البحر و قلبِ العصا حيّةً وما جرى هذا المَجرى في ذلك سبيلاً واحداً في الإعجاز ، إذا[٤] خرج عن العادة وقعد الخلق فيه عن المعارضة))[٥] .

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- ((النكت في إعجاز القرآن)) : ١١٠ .

٣- انظر ((إعجاز القرآن)) : ص ٣٥ وما بعدها .

٤- لعلها (إذ) فالمعنى يستقيم بها نوع استقامة .

٥- ((النكت في إعجاز القرآن)) : ١١١ .

وقد فُسِّر كلامه هذا بأنه ((مادام الناس قد عجزوا عن أن يأتوا بما أتى موسى من قلب العصا حيّةً وفلقِ البحر فإنهم قد عجزوا أيضاً عن أن يأتوا بمثل هـذا القـرآنِ الذي أنزل على محمد – صلى اللـه عليه وسلم – بعد أن تُحُدوا إليه ، فكان السـبيل واحداً بالنسبة لما جاء به موسى وما جاء به محمد وهو العجز ؛ لأن كليهما قد أتـى بما هو خارج عن العادة))[1] .

وهذا الوجه – على هـذا التفسـير – ليس وجهـاً مسـتقلاً بالإعجـاز بـل هـو المعجزة ذاتها التي يبحث لها عن وجه إعجازها ، فكلامه منصبٌّ على قياس المعجـزة القرآنية بكل معجزة سابقة في أن القرآن نقض عـادة البشـر وعجـزوا عـن معارضتـه فهو المعجزة ذاتها ، فلا يصح أن يكون وجهاً من وجوه الإعجاز، واللـه أعلم .

تلك كانت أوجهَ الإعجاز الـتي أتـى بهـا في رسـالته ، و يمكـن اختصارهـا في ثلاثة أوجه قيل بأنها من أوجه الإعجاز أما عداها فلا ، وهذه الأوجه هي :

١ – الإعجاز البلاغي والنظميّ .

٢ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٣ – الإعجاز بـ (الصَّرفة) .

و يلاحظ على رسالته ما يلي :

١ – كان طَرْقه لأوجه الإعجاز طرقاً خفيفاً عـدا الوجـه البلاغـيّ ، ممـا يـدل علـى تبحره في جانب البلاغة واهتمامِه بها ، وكأن هذا الوجه هو أُسُّ الإعجــاز القرآنـي عنده .

١– ((تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية)) : ٢٧١ – ٢٧٢ .
وانظر كذلك ((الإعجاز البلاغي)) : ٨٦ .

٢ - أسلوبه في هذه الرسالة - على وجازتها - يجمع بين السلاسة والقوة ، وعبارته متينة سليمة ممتعة ، وقد فصّل عدد من النقاد رسالته تفصيلاً دللوا فيه على مافي أسلوبه من جمال ، ومافي معانيه من جِدّة وابتكار[١] .

٣ - جرى في تقسيمه رسالتَه على طريقة القدماء ؛ إذ لم يقدم بمقدمة تظهر معها أهمية الموضوع ، ولم يذكر من طَرَقه قبله ، كما أن الرسالة قد خُتمت بدون تصريح أو تلويح بالخاتمة[٢] ، فإما أن يكون الكلام قد انتهى ولم يُختم بما يدل على ذلك - كما هي طريقة بعض المصنفين القدامى الذين يتركون ختم الكتاب للطلاب الرواةِ عنهم .

أو أن هذه الرسالة كانت ضمن مجموع له فشرع في نهايتها برسالة أخرى فلم يرَ ضرورةً لذكر خاتمةٍ لرسالته هذه .

أو أن الرسالة فيها بعض النقص كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين لها[٣] ، وإن لم يشتهر هذا النقص بين الباحثين .

٤ - لم يَرِد في رسالته أيُّ حديث أو أثرٍ يدعم به ما ذكره من مباحثَ ، والمصنف جرى على طريقة المعتزلة الذين يقلُّ عندهم الاهتمامُ بالأحاديث والآثار ، ولعل لوجازة الرسالة مدخلاً في هذا ، والله أعلم .

٥ - كانت رسالته موجزةً تحتاج في كثير من جوانبها إلى زيادة بسط وشرح حتى فيما أطنب فيه منها وهو الإعجاز البلاغيّ .

١- انظر - مثلاً - ((الإعجاز القرآنيّ : وجوهه وأسراره)) : ٧٩ - ٩٩ .

٢- فيما عدا ماذكر في هامش ص ١١٣ وهو - فيما يظهر - من صنع بعض تلاميذه ، والله أعلم .

٣- هو الدكتور محمد أبو موسى في كتابه ((الإعجاز البلاغي)) : ٨٥ ، حيث يدلل على نقص في الرسالة واضطراب وتصحيف ، ولكنه لم يذكر أن آخرها مبتور ، ولعله كذلك ، والله أعلم .

ولما كانت رسالته من أوائل الرسائل في الإعجاز كان من شـأنها الإيجـاز ؛ إذِ العلوم والفنون تنشأ مجملةً أو قليلةَ المباحث ، ثـم تنمـو علـى يـد العلمـاء اللاحقـين ويعظم شأنها .

هذا ما تيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الرمانيّ .

٢ - ((إعجاز القرآن))

للقاضي الباقِلانيّ (ت ٤٠٣) رحمه الله تعالى .

هـذا الكتـاب عظيـم الخطـر ، شـريف المبـاحث ، سـلس العبــارة ، متــين الأسلوب ، قويّ الحجة ، كيف لا ومصنفه معروف بقوة الحجة والذكاء ونصاعة البيان .

وهو أول كتاب - جامع في بابه[١] - يصنفه إمامٌ مـن أئمـة أهـل السـنة فيمـا أعلم[٢] ، والله أعلم .

والمصنّف ((أثر جليل يدل على حِذْق المتكلمين للبيان فضلاً عن حِذقهم لعلم الكلام ...))[٣] .

و ((لعلّ أكبر جهد قام به مؤلّف لبيان إعجاز القرآن هـو جهـد البـاقِلاَنيّ في كتابه ((إعجاز القرآن))[٤] .

والكتاب ذو فصول كثيرة ، بدأه المصنف - رحمه الله تعالى - ببيان شـرف هذا الكتابِ العظيم ، وبيانِ أن نبـوة محمـد - صلـى اللـه عليـه وسـلم -معجزتهـا القرآن ، وأهميةِ الكشف عن وجوه إعجازه[٥] .

١- بلغ حجم الكتاب قرابة خمسمائة صفحة .

٢- و ذلك لصغر حجم رسالة الإمام الخطّابيّ - رحمه الله تعالى - ولقلة مباحثها .

٣- ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٥٣٢ .

٤- المصدر السابق : ٥٣٠ .

٥- انظر ص ٨ .

ثم ذكر أن القرآن معجز للجن و الإنس معاً[1] .

ثم ذكر القول بـ (الصَّرفة) ورد عليه رداً مجملاً[2] .

ثم ذكر وجوه الإعجاز في كتاب الله تعالى - على مايراه ويقدره - ذكراً مجملاً ، ثم كرّ عليها بالتفصيل بعد ذلك[3] .

ثم ذكر فصولاً متنوعة تتعلق بإعجاز الكتاب العظيم ، مثل قدر المعجز من القرآن ، وهل يُعلم الإعجازُ بالضرورة ، إلى غير ذلك من مباحثَ كثيرة[4] .

وجوه إعجاز القرآن العظيم عند الباقِلاَنيّ :

ذكر الإمام الباقِلاني في كتابه ثلاثة وجوه للإعجاز[5] ، وبيّن أن ذلك هو المعتمد عند أصحابه وغيرهم ، وهذه الوجوه هي :

١ - الإخبار عن الغيوب .

٢ - معرفة كتب المتقدمين ، وأقاصيصهم ، وأنبائهم وسِيَرهم .

٣ - أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجزُ الخلق عنه .

١- انظر ص ١٨ ، ٣٨ وما بعدها .

٢- انظر ص ٢٩ وما بعدها .

٣- انظر ص ٣٣ وما بعدها .

٤- انظر ص ٢٨٦ وما بعدها .

٥- انظر ((إعجاز القرآن)) : ٣٣ وما بعدها .

وقد أجمل ذكر الوجهين الأوَّلَيْن ، وأورد بعض الأدلة التي تؤيد ماذهب إليه فيهما .

ثم إنه فصّل الوجه الثالث في عشرة أوجه هي :

١ - مخالفة نظم القرآن لجميع كلام العرب ؛ فليس هو شعراً ولانثراً مسجوعاً أو غير مسجوع[١] .

٢ - كثرة آيات القرآن وطولها مع التناسب في البلاغة والحِكَم الكثيرة ، أمّا كلام البشر فإن المعدود منه بليغاً إنما هو كلمات معدودة وألفاظ قليلة[٢] .

٣- عدم التفاوت في النظم ، والمنزلةُ العليا في التأليف والرصف مع اختلاف الأغراض التي يتناولها القرآن ، بينما يختلف كلام البشر اختلافاً بيّناً بحسَب الغرض المتناوَل وسبكِ الكلام من شعر أو نثر[٣] .

٤ - نظم القرآن يجمع بين الوجوه الكثيرة فيجعل المختلف كالمؤتلف ، والمتباينَ كالمتناسب ، بينما يتفاوت كلام الفصحاء تفاوتاً بيناً في ضم وجمع الكلام المتنافر[٤] .

٥ - نظم القرآن فاق في بلاغته كلام الجن كما فاق كلام الإنس[٥] .

١- ((إعجاز القرآن)) : ٣٥.

٢- المصدر السابق : ٣٦ .

٣- المصدر السابق : ٣٦ - ٣٨ .

٤- المصدر السابق : ٣٨ .

٥- المصدر السابق : ٣٨ - ٤١ .

٦ - القرآن يشبه كلام العرب في الشكل ، ويخالفه في المضمون إلى الحد المعجز ، قال الباقِلاّني :

((الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارةِ والتصريح ... ونحو ذلك من الوجوه التي توجد في كلامهم موجودةٌ في القرآن ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتادِ بينهم في الفصاحة والإبداع والبلاغة))[١] .

٧ - إحكام الألفاظ وقوة المعاني ، وسريان ذلك حتى في المواضع العقدية والتشريعية ، قال الباقِلاّني :

((المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات في أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة وموافقة بعضها بعضاً في اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ويمتنع ...))[٢] .

٨ - كلمات القرآن دُرر كلها ، ليس فيها كلمة نافرة ، قال الباقِلاّنيّ :

((الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته بأن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام ... فتتشوّق إليها النفوس ... كالدرة التي تُرى في سلك من خرز ... وأنت ترى الكلمة من القرآن يُتمثّل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غُرّة جميعه ، وواسطة عِقده ...)) [٣] .

٩ - حروف كلمات القرآن هي عين حروف كلام العرب لكن النظم معجز ، قال الباقِلاّنيّ :

١- ((إعجاز القرآن)) : ٤٢ .

٢- المصدر السابق .

٣- المصدر السابق : ٤٢ - ٤٤ .

((الحروف التي بُني عليها كلام العرب تسعةٌ وعشرون حرفاً ... وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم ... أربعةَ عشرَ حرفاً ... ليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التي ينظمون بها كلامهم ...))[1] .

ثم تكلم على هذه الأحرف وبعض صفاتها ليخلص إلى أن الذي نظم هذه الأحرف هذا النظمَ المعجز على صفاتها التي هي عليها في كتاب الله - تبارك وتعالى - لا يجوز أن يكون غير الله ، تعالى [2] .

١٠ - الكلام القرآني ((خارج عن الوحشيّ المستكرَه ، والغريب المستنكَر ، ومن الصَّنعة المتكلفة)) .

وهو مع قربه إلى الأفهام ((ممتنع المطلب ، عسيرُ المتناوَل)) [3] ، غيرُ مقدور عليه بوجه من الوجوه[4] .

والناظر في هذه التقسيمات العشرة للوجه الثالث للإعجاز يلحظ أن بعضها متداخل في البعض الآخر ومندرج فيه ؛ وذلك في التقسيم الثاني والثالث والرابع ، ويلحظ - أيضاً - أن واحداً منها متعلق بوجه ما بالإعجاز لكنه ليس هو الإعجاز ، وذلك هو الوجه الخامس .

مناقشة الأوجه التي أوردها الإمام الباقِلانيّ :

١- يشير الباقلاني إلى قضية حروف أوائل السور مثل ﴿ ألم ﴾ ؛ حيث إن بعض العلماء ذكر أنّ القرآن مؤلف من مثل هذه الأحرف التي يتداولونها في كلامهم لكنهم عاجزون عن مثله .

٢- المصدر السابق : ٤٤ - ٤٦ .

٣- أي عسير المتناوَل على من يروم معارضته ، لاعلى من يطلب هدايته .

٤- ((إعجاز القرآن)) : ٤٦ .

أما الوجه الأول وهو الإعجاز بأخبار الغيب فقد فصلت الكلام عليه في مكان غير هذا ، وخلاصته أن الإعجاز – هنا – جزئي في الآيات الواردة بالغيوب فقط وليس كلياً [١] .

وأما الوجه الثاني وهو معرفة كتب المتقدمين وأقاصيصهم وسيرهم ، فهو مندرج في الوجه السابق ، وقد تكلمت عليه سابقاً كذلك ، وبينت أنه من قسم الإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذ سير المتقدمين وأقاصيصهم مما غُيب عن العرب بل عن أكثر البشر [٢] .

ولعل عدّ الباقلانيّ له وجهاً مستقلاّ إنما كان باعتبار أن الوجه الأول عنده هو الإعجاز بأخبار الغيب المستقبل فقط ، كما تدل على ذلك الآيات التي ساقها الإمام الباقلانيّ في بيان ذلك الوجه[٣] .

وهذا الوجه الثاني قد قصر الإعجاز فيه على الإخبار بالغيب الماضي فقط .

والوجهان يرجعان إلى وجه واحد وهو الإعجاز بأخبار الغيب مطلقاً .

وأما الوجه الثالث ، وهو أن هذا الكتاب الكريمَ بديع النظم ، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه ، فإن هذا الوجه قد أجمع عليه من تكلم في الإعجاز من الأولين والآخرين إلا من شذّ كالنَّظَّام وأمثاله .

أما تفصيل ما ذكره من معانٍ عشرةٍ لما ذهب إليه في هذا الوجه فقد ناقش كثير من علماء البلاغة ونقد النصوص الباقلانيّ فيما ذهب إليه في هذا الوجه من مذاهب ، وما أتى به من آراء جديدة ، وأفكار مؤسسة على قواعدَ قويمةٍ ، وليس من طريقتي أن أذكر ذلك كلّه لما فيه من خروج على موضوع البحث ، ولكني أذكر ماانُقد فيه مجملاً لما فيه من الاستفادة وتحقيق المطلوب :

١،٢ – انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٣– انظر ((إعجاز القرآن)) :٤٨ – ٤٩ .

أوّلاً : أُخذ على الباقِلاّني أنه بالغ في تسفيه شعر العرب مبالغة عظيمة[1] ، ففي سبيل أن يبيّن للناس عظمة نظم القرآن وبلاغته حاول أن يهدم أجمل ما عند العرب من شعر ، وهو أمر قد تكلف في إثباته بما لا وجه له ولا مدخل في قضية الإعجاز ، بل إن عكْس ذلك - في تقديري - هو الصحيح ؛ أي أنه لو أبرز ما في قصائد العرب من جمال و بلاغة ثم أثبت بعد ذلك عجز العرب عن أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ لكان أليقَ وأعظمَ دلالة على سموّ هذا الكتاب العظيم .

وربما حمله على ذلك ما ذكره من أنّ بعض الجهّال ((جعل يَعْدِله[2] ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يُفضله عليه))[3] .

ولا شك أن ما وقع من خلل فيما ذكره من القصائد إنما هو خلل بشريّ لا تنتفي منه قصيدة ولا يخلو منه كلام بشر ، ولا يستقيم للباقلاني ، في تقديري ، ماصنعه من موازنة أجود شعر العرب - في ظنه - بما في القرآن من بلاغة وسموّ، وذلك لاتفاق العقلاء وأهلِ الرأي أنه لا سبيل إلى بلوغ شعر واحد من الشعراء مبلغ القرآن أو قريباً منه حتى يوازَن بينه وبين الشعر .

١- انظر ((إعجاز القرآن)) للباقِلانيّ : ١٥٨ - ١٨٣ ، و انظر - كذلك في الرد على منهب الباقلانيّ هذا - مقدمة الأستاذ أحمد صقر لكتاب الباقلاني ، و ((المباحث البلاغية)) : ٢١٦ ، و ((الإعجاز البلاغي)) : ٢٨٤ - ٣٥٤ ، و ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٣٧٣ - ٤٢٨ وهو أجود الكتب نقداً لمنهب الباقلانيّ - فيما رأيت من الكتب - لولا أنه شانه بذكر أن القضايا الأخلاقية لاشأن لها بجودة الشعر وأن الدين بمعزل عن الشعر . انظر : ٣٩٤ - ٤٠١ .

٢- أي القرآن .

٣- ((إعجاز القرآن)) : ٥ .

وللأستاذ محمود شاكر كلام دقيق في هذا الباب يتلخص أن الباقِلَّاني عندما نقد الشعر الجاهلي ممثلاً في معلقة امرئ القيس[1] قد افتتح باباً لنقد الشعر الجاهلي برمّته نقداً تجاوز حدوده إلى التشكيك بصدق وروده تاريخياً وإلى أنه مختلق مهلهل[2] .

ثانيــاً : أُخذ على الباقلانيّ أن كتابه فيه حشو كثير وتطويل ، وفيه استكثار من الأمثلة والشواهد ، وقد ردّ بعض النقاد هذا الاعتراضَ وبينوا وجهة الباقِلَّاني فيما ذهب إليه[3] .

وقد أخذ بعض النقّاد على الباقلاني مآخذ في نواحٍ متخصصة يكفي الإحالة عليها إذ لا مجال لذكرها في هذا المبحث المختصر[4] .

هذا ماتيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب الإمام الباقِلَّانيّ.

١- هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكنديّ . أشهر شعراء العرب ، يماني الأصل وولد بنجد أو باليمن . اشتهر بلقبه واختلف في اسمه على أقوال . كان أبوه ملكاً فقتله بنو أسد فجدّ حتى أخذ بثأره ، ثم جرت له حوادث حتى مات بأنقرة سنة ٨٠ قبل الهجرة تقريباً . ويعرف بـ (الملك الضِلّيل) لاضطراب أمره طول حياته .
انظر ((الأعلام)) : ٢ / ١١ - ١٢ .

٢- انظر بحثه الطويل في مقدمته لكتاب الأستاذ مالك بن نبي : ((الظاهرة القرآنية)) : ٣٢ - ٥٠ .

٣- انظر ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : ٥٢٨ - ٥٢٩ .

٤- المرجع السابق : ١٨٩ - ٢٠٨ .

٣ – ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز))[١]

للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦) رحمه الله تعالى

هذا كتاب متوسط الحجم ، ألّفه الشيخ – رحمه الله تعالى – اختصاراً وتهذيباً وجمعاً لكتابي الجُرجاني – رحمه الله تعالى – : ((دلائل البلاغة)) و ((أسرار الإعجاز)) ؛ لأن الشيخ الجرجاني فيما يصفه الرازي – قد : ((أهمل رعاية ترتيب الفصول والأبواب ، وأطنب في الكلام كلَّ الإطناب))[٢] هذا بعد أن أقرّ الإمام الرازي للشيخ الجرجاني بالفضل والسبق والأستاذيّة .

وقد أحسن الرازي – رحمه الله تعالى – تقسيم كتابه ، ووفى بما أراده من تهذيب كتابي الجرجاني – رحمه الله تعالى – أحسن الوفاء ؛ فقد رتب كتابه هذا على مقدمة وجملتين وخاتمة :

أما المقدمة فتحوي فصلين في إعجاز القرآن رجّح فيها أن إعجازه إنما كان بسبب فصاحته ، وأثنى على علم الفصاحة وشرفِه .

ثم أورد في الجملة الأولى ((مفردات الكلام))[٣]، ورتبها على مقدمة وقسمين ، وكل منها تحوي أبواباً وفصولاً متعددة[٤] .

١- بلغ حجم الكتاب قرابة ثلاثمائة صفحة .

٢- ((نهاية الإيجاز)) : ٥١ ، و لعلّ صنيع الإمام عبد القاهر في إهماله الفصول والأبواب يعود إلى أنه كان مؤسساً ومفصلاً لنظريته في الإعجاز بالنظم فلم يراع التقسيم إلى أبواب وفصول حيث إن كلامه جاء متصلاً في الرسالة مسهَباً .

٣- يعني بها حكم الألفاظ المنفردة عن الجمل في فصاحتها ودلالتها على المعنى .

٤- انظر ((نهاية الإيجاز)): ص ٦٠ وما بعدها .

ثم أورد في الجملة الأخرى ((النظم)) – وهي متممة للجملة الأولى : ((مفردات الكلام)) – وقسمها كذلك إلى أبواب وفصول متعددة[1] .

ثم ختم الكتاب بخاتمة تشمل أربعة فصول هي :

وجه الإعجاز في سورة الكوثر ، الحكمة من إنزال المتشابهات ، والجواب عن بعض شبهات الملحدين واستغرق ذلك الفصلين الثالث والرابع[2] .

وجوه الإعجاز التي ذكرها الإمام الرازي

ذكر الإمام الرازي في كتابه خمسة أوجه للإعجاز ، ردّ الأربعة الأولى منها وقَبِل خامسها ، وهذه الأوجه على ترتيب الرد والقبول هي :

١ – (الصَّرفة)[3] .

٢ – الأسلوب[4] .

٣ – خلوّه من الاختلاف والتناقض[5] .

٤ – أخبار الغيب[6] .

٥ – الفصاحة[7] .

١- انظر ((نهاية الإيجاز)) : ص ١٩٢ ومابعدها .

٢- المصدر السابق : ص ٢٦٩ ومابعدها .

٣- المصدر السابق : ٥٥ – ٥٦ .

٤- المصدر السابق : ٥٦ – ٥٧ .

٥- المصدر السابق : ٥٧ .

٦- المصدر السابق .

٧- المصدر السابق : ٥٨ .

أما (الصَّرفة) فقد ردّها بثلاثة ردود لا تخرج عما ذكرته من الردود عليها[1] .

وأما الأسلوب فقد ذكر ((أن من الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل))[2] ثم أبطله وجهاً للإعجاز من خمسة أوجه فقال :

١ - ((لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً))[3] .

والشيخ الإمام نقل الكلام من الإعجاز الذاتي في الأسلوب القرآني إلى ابتداء الأسلوب ، و لم يقل أحد بذلك ، فيبقى الأسلوب معجزاً ، وقضية الابتداء غير واردة ، فالكلام هنا على إعجاز الأسلوب ذاته لاعلى ابتدائه .

٢ - ((إن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله)) .

وهذا الذي ردّه الإمام الرازي هو عين الإعجاز المراد ؛ إذ أن العرب لم يأتوا بأسلوب كأسلوب القرآن وأعياهم هذا وأعجزهم .

بل إن هذا القولَ مدخلٌ مهم للقائلين بـ (الصَّرفة) ، ومستندٌ لهم في إثباتهم صرفَ الله - تبارك وتعالى - الناسَ عن الإتيان بمثل كلامه ؛ حيث إن أسلوب هذا الكلام في متناول الناس - كما ذكر الرازي - و لم يأتوا بمثله .

١- انظر ص ١١٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- قد سبق الحديث عن الأسلوب ، انظر ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

٣- أي كما أن المبتدئ لأسلوب الشعر لم يكن قد أتى بأمر إعجازيّ صح أن يقال الشيء نفسه عن أسلوب القرآن .

وأقول : على التسليم بما فرضه الإمام الرازي من استطاعة الناس معارضةَ أي أسلوب فإن هذا في كلام البشر ممكن ، لكن في كلام الله – عز وجلّ – لم يستطع أحد بعد التحدي المستمر أن يأتي بشيء مثله ، فكان في هذا العجزِ سرُّ الإعجاز .

٣ – ((يلزم أن الذي تعاطاه مسيلِمةُ من الحماقة ... في أعلى مراتب الفصاحة))
ويُسلّم هذا إن قيل إن الإعجاز هو الابتداء بأسلوب جديد ولو كان في مثل حماقة أسلوب مسيلِمةَ .

٤ – ((لما فاضلنا بين قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [1] وبين قولهم : ((القتل أنفى للقتل)) لم تكن المفاضلة بسبب الوزن ، والإعجاز إنما يتعلق بما به ظهرت الفضيلة)) .

ولم أتبين مقصوده من كلامه هذا ، وهو كسابقه كلام يتعلق بشيء مفترض غير موجود في الدعوى .

٥ – ((إن وصف بعضِ العرب القرآنَ بأن له لحلاوةً وإن عليه لطَلاوةً[2] لايليق بالأسلوب)) .

ولا أدري لِم قال هذا مع أن الأسلوب هو من أعظم ما يأسر السامع ؛ كما يتبدّى من شعر الحماسة والفخر عند العرب ونحوِهما .

١– سورة البقرة : آية ١٧٩ .

٢– الرونق والبهجة والحُسن ، ((لسان العرب)) : طَلَى ، وقد سبق بياني لهذا الأثر وتخريجي له ، انظر ص ٦٣ ، ٦٤ .

من الردود التي ذكرها الشيخ في نقض الإعجاز بالأسلوب يتضح الآتي :

أولاً : إن الأسلوب قد سبق لي ذكر تعريفه بأنه ((الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كتابه واختيار كلماته)) و ((أسلوب القرآن هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه))[1] .

فإما أن الأسلوب عند الإمام الرازي له تعريف آخر لم أهتدِ له بسبب أنه لم يبينه ، أو أنه يريد ما نقلته من تعريف الأسلوب ، وأنا أستبعد الآخَرَ لأنه يتنافى مع أكثر ما أورده من ردود على الإعجاز بالأسلوب .

ثانياً : إن الإمام اختصر في بعض الردود إلى درجة أنه انبهم عليّ الأمر ؛ فلم أتبين الوجهَ الذي ردّ به ، وكان ذلك في الردين الرابع والخامس .

أما ردُّه الوجهَ الثالث وهو : خلوّه من الاختلاف والتناقض فقد علله بقوله :

((وهو أيضاً باطل ؛ لأن التحدي كما وقع بالقرآن كله فقد وقع بالسورة ، وقد يوجد في خطبهم ما مقداره مقدار سورة الكوثر ولا يكون فيه اختلاف وتناقض))[2].

وهذا الرد فيه الآتي :

١ - ليست سور القرآن المختلفة كالخطب ذات الأغراض المختلفة ؛ فسور القرآن وحدة واحدة متصلة في عدم الاختلاف والتناقض بينها ، وليست كحال الخطب التي لا تقاس كل واحدة منها إلى الأخرى ولاتُقرن بها فيحكمَ عليها حكمَ المجموع .

١- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ١٩٩ .

٢- ((نهاية الإيجاز)) : ٥٧ .

فسورة الكوثر – مثلاً – قد خلت من التناقض لافي ذاتها فقط ولكن في ذاتها وفي علاقتها بالسور الأخرى ، فأخبار الغيب فيها – مثلاً – لم تتناقض أو تختلف مع مئات من آيات الغيب في القرآن .

٢ – القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة ، وكان بهذا الإتقان العظيم ، وعدم الاختلاف والتناقض بين سوره ، أفيوجد ما يقارب هذا من كلام العرب فيتكلم أحدهم عشرين سنة أو أقل أو أكثر ومن ثم يُحكم على كلامه – بعد جمعه – بأنه خال من التناقض ؟

أما حكم هذا الوجه فالذي أراه أنه خصوصية خَصّ الله بها هذا الكتابَ العظيم وشرفه على سائر الكلام ، وفيه وجهُ إعجاز باعتبار مجموع سور القرآن الكريم لا على انفرادها ؛ إذ أن القرآن تنزل في أزمنة طويلة ، وقد تشعّب ما تناوله ، مع كِبر حجمه ، كل هذا مع عدم التناقض والاختلاف ، فهذا إعجاز بلا شك .

وأما الوجه الرابع – وهو أخبار الغيب – فقد رده بأن ((التحدي قد وقع بكل سورة ، والإخبار عن الغيوب لم يوجد في كل سورة))[١] .

وقد توسعت في الكلام على هذا الوجه في موضع سابق ، وذكرت أن الإعجاز بأخبار الغيب في بعض سور القرآن هو إعجاز جزئي وليس كلياً[٢] .

١– المصدر السابق .

٢– انظر ص ١٣٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

ثم إنه اختار الفصاحة وجهاً للإعجاز ، وأخذ في إثبات ما ذهب إليه فاستغرق ذلك باقي الكتاب وهو القسم الأعظم منه[1] .

والمتأمل لما أراده الإمام من إطلاقه الفصاحة يعلم أنه إنما أراد بها الفصاحة والبلاغة والنظم ، وليس الفصاحةَ بالمعنى الاصطلاحي التي تتعلق بجمال الألفاظ وسلاستها فحسْبُ ، كيف لا والكتاب إنما هو اختصار لكتابي الجرجاني المؤصّلِ لنظرية النظم ، والمخصص لها جلَّ مباحث كتابيه .

وبهذا يُعلم خطأ من نقد الإمام الرازي فيما ذهب إليه من وجه الإعجاز بالفصاحة بأنه ((لا يصح أن يكون وجه إعجاز القرآن في الفصاحة وحدها بل في الفصاحة و المعنى معاً ...))[2] .

منهج المصنف في كتابه

و يلحظ على منهج المصنف في كتابه هذا مايلي :

أولاً :

قد قسم المصنف كتابه هذا تقسيماً حسناً ؛ فإنه قد ابتدأه ببداية واضحة ، وختمه كذلك بخاتمة واضحة ، وقد ذكر فيه سبب التصنيف ، كما أسلفت ، ومهّد لكتابه بذكر مقدمة عن الإعجاز وأوجهه والوجه المختار عنده ، ثم شرع في التصنيف مراعياً حسنَ التقسيم والتبويب .

١- من صفحة ٥٨ - ٢٦٧ .

٢- وهذا النقد هو من محقق الكتاب الدكتور أحمد السقّا ، انظر ص ٥٨ .

ثانيـاً :

أوجز المصنف بيان أوجه الإعجاز إيجازاً فاته معه أن يذكر كل وجوه الإعجاز التي ذكرها العلماء قبله أو أن يتوسع في ذكر الأوجه التي أوردها ، وفاته بهذا الإيجاز - أيضاً - أن ينقض ما لم يرتضه وجهاً للإعجاز نقضاً مسهباً واضحاً ، ولعلّ ذلك بسبب أن حديثه عن الإعجاز جاء من زيادته على كتابي عبد القاهر فلم يُفِضْ فيه ، والله أعلم .

ثالثـاً :

جعل المصنف الحديث عن الإعجاز مدخلاً للحديث عن الفصاحة والبلاغة والنظم ، ولو عكس القضية لكان أولى - في تقديري - أو لو أنه ربط مباحث الكتاب بوجه الإعجاز الذي اختاره ربطاً يجعل تلك المباحث دالّةً على الإعجاز القرآني موصلة له ، وليس كما صنع من الحديث عن الإعجاز بكلمات معدودة ثم الاستغراق في ذكر الفصاحة والبلاغة والنظم ، ولعلّ التزامه بما جاء في كتابي الجرجاني أدّى إلى صنيعه هذا ، والله أعلم .

رابعاً :

بسبب منهج الرازي - وهو الجمع بين كتابي الجرجاني ملخصيْن مرتبيْنِ - فقد خرج كتابه متوسط الحجم سلس العبارة ، وساعده حسن التقسيم مع الاختصار والتهذيب على تجاوز ما في كتابي عبد القاهر من طول مع بعض تشويش بسبب استطراد المباحث وطول الفقرات ، مع ما كان عليه الشيخ الجرجاني من طول نفَس في ضرب الأمثلة وتبيانها .

والحق أن كتاب عبد القاهر : ((دلائل الإعجاز)) ما كان ليُفهم حق الفهم لولا أن الله قيض الشيخ محمود شاكر ليحققه تحقيقاً رائعاً تمثل - في بعض جوانبه -

في تقسيم الفِقَر وتوضيحها ، ووضع عناوين مناسبة تساعد على الاسترسال في القراءة دون صعوبة كبيرة وباستيعاب أكثر .

هذا ماتيسر من الكلام على كتاب ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) للإمام الرازي .

٤ – كتاب : ((الطّراز[١] المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) .

للسيّد يحيى بن حمزة العلويّ (ت ٧٤٥) رحمه الله تعالى .

هذا الكتاب ضخم كبير[٢] ، حشد فيه مصنفه علوم البلاغة و الفصاحة ، وطوّل الكلام عليهما إلى الغاية بحيث استغرق ذلك جُلّ أجزاء الكتاب الثلاثة ، ثم أتى في نهاية الجزء الثالث على مبحث إعجاز القرآن موجِزاً الكلامَ عليه إيجازاً لا يخلّ بالمقصود .

وكأن الشيخ – رحمه الله تعالى – أتى بعلوم البلاغة والفصاحة مُطنِباً فيها غاية الإطناب ، من أجل أن يمهد الحديث عن الإعجاز ، فإذا ذكر مذهب القائلين بأن إعجاز القرآن في فصاحته كان قد تكلم على الفصاحة بما لا يحتمل الإعادة والتبيان ، وكذا في ذكره لمذهب القائلين بأن الإعجاز في بلاغته إلخ ...[٣] .

وقد أورد الشيخ – رحمه الله – في كتابه عشرةً من أوجه الإعجاز ، هي :

١ – (الصَّرفة)[٤] .

٢ – الأسلوب[٥] .

٣ – خلوه عن المناقضة[٦] .

١- الطِّراز هو ماينسج من الثياب للسلطان ، وهو الجيد من كل شيء ، انظر ((لسان العرب)) : طِ ر ز .

٢- طبع الكتاب في ثلاثة أجزاء كبيرة فيها قرابة ألف وثلاثمائة صفحة تقريباً .

٣- انظر ((الطّراز)) : ١ / ٧ ، ٣/ ٣٦٦ – ٣٦٧ .

٤- ((الطـرّاز)) : ٣ / ٣٩١ – ٣٩٥ .

٥- المصدر السابق : ٣ / ٣٩٥ – ٣٩٧ .

٦- المصدر السابق : ٣ / ٣٩٧ – ٣٩٨ .

٤ – اشتماله على الأخبار الغيبية[١] .

٥ – الفصاحة[٢] .

٦ – اشتماله على الحقائق ، وتضمنه للأسرار والدقائق[٣] .

٧ – البلاغة[٤] .

٨ – النظم[٥] .

٩ – مجموع الأوجه الثمانية السابقة[٦] .

١٠ – تضمنه المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سوره ، وفي مبادئ الآيات وفواصلها[٧] .

ولْيُعلمْ أن الشيخ – رحمه الله تعالى – إنما أورد تلك الأوجهَ العشرةَ للإعجاز على أن كلاً منها هو الوجه المعجز فقط دون ضمائم أخرى ، وعلى هذا فإنه قد قبل من تلك الأوجهِ عاشرَها فارتضاه وردّ الباقيَ كلَّه[٨] .

وهأنذا أورد تلك الأوجه مبيناً ماأراه في كلامه عليها من نقص أو خلل ، ثم أبين الوجهَ الذي اختاره للإعجاز ، فإنه أورد تلك الأوجه العشرة حكايةً عن غيره ممن اختارها وذهب إليها :

١- المصدر السابق : ٣ / ٣٩٨ .

٢- المصدر السابق : ٣ / ٣٩٨ – ٣٩٩ .

٣- المصدر السابق : ٣ / ٤٠٠ – ٤٠١ .

٤- المصدر السابق : ٣ / ٤٠١ – ٤٠٢ .

٥- المصدر السابق : ٣ / ٤٠٢ – ٤٠٣ .

٦- المصدر السابق : ٣ / ٤٠٣ .

٧- المصدر السابق : ٣ / ٤٠٣ – ٤٠٤ .

٨- لم ينص الشيخ على هذا وإنما فهمته من إشارات كلامه .

الوجه الأول : (الصَّرفة) :

قد ردّها كثير من المصنفين قبله ولكن الشيخ - رحمه الله تعالى - أتى بمذاهبها على وجه الاستقصاء ، وكرّ عليها بإيجاز وسلاسة[1] [2] .

ثانياً : الأسلوب :

أي أن أسلوب القرآن[3] مخالف لأساليب كلام العرب كله ، ولما كان كذلك صار هو الوجهَ في إعجازه.

ولما حكى الشيخ هذا المذهبَ في الإعجاز أبطله باعتبار أنه وجه الإعجاز المتفرد لا على أنه معجز بالإضافة إلى أوجه الإعجاز الأخرى ، ولذلك صح له إبطالُه لهذا الوجه .

ثالثاً : خلوّه عن المناقضة :

والمعنى المراد ظاهر ، وقد رده الشيخ بأمور ثلاثة :

١ - قد يكون في الرسائل والخطب والشعر ما هو خال عن المناقضة أيضاً وهو بقدر سورة من القرآن فيكون إذاً معجزاً ، وهذا باطل .

وقد يستقيم هذا الرد للشيخ لو كانت سورة الكوثر - مثلاً - وحدة منفصلة علاقتها بالقرآن كعلاقة قصيدة مع قصائدَ أخرى ، ولكن القرآن وحدة واحدة ، وقد فصلت الكلام على هذا في موضع سابق[4] .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٣٩١ - ٣٩٥ .

٢- قد سبق بيان بعض ماذهب إليه الشيخ فيها ، انظر ص ٩٤ ، ٩٥ .

٣- سبق الكلام على أسلوب القرآن ، انظر ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

٤- انظر ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

٢ – تعجب العرب كان من فصاحته وبلاغته لامن خلوه من المناقضة .

وأقول : لو كان فيه تناقضٌ لما تعجب العرب من بلاغته ، والله أعلم .

٣ – السلامة من المناقضة ليست من خوارق العادات ، ومن حق المعجز أن يكون خارقاً للعادة .

وأقول إن سلامته من المناقضة مع طوله ، وتشعب مايطرقه ، وطولِ زمان نزوله لهو خارق للعادة .

رابعاً : اشتماله على الأمور الغيبية :

وقد رده الشيخ بأمرين :

١ – التحدي واقع بجميع القرآن ، ومعلومٌ أن الحكم والآداب والأمثال ليس فيها غيب ، فيلزم ألا تكون تلك الآيات معجزة ، وهذا محال .

٢ – لو كان التحدي بأخبار الغيب لقالت العرب : إنا متمكنون من معارضة القرآن ولكنه اشتمل على مالا يمكننا معرفتُه من الأمور الغيبية ، فلما لم يقولوا ذلك دلّ على بطلان هذه المقالة .

ومن المعلوم أن الشيخ إنما أبطل هذا الوجهَ لأن قائله انفرد به وجهاً للإعجاز ، ولذلك ذكر الشيخ أن آيات الحكم والأمثال عندما تخلو من الغيب فإنها لا تكون معجزة حيث لا وجه آخر للإعجاز عند المنفرد بأخبار الغيب مذهباً في الإعجاز .

خامساً : الفصاحة :

بمعنى خلو ألفاظه من التعقيد ، وقد أبطل الشيخ هذا الوجهَ بسبب أن الذاهب إليه إنما اختاره وجهاً للإعجاز متفرداً ، و لم يضم معه غيره ، لذلك رَد عليه بأن أكثر كلام الناس خال من التعقيد في نثرهم وشعرهم وخطبهم فيلزم على هذا كونها معجزة ، و لم يقل بهذا أحد .

سادساً : اشتماله على الحقائق وتضمنه للأسرار والدقائق :

وهو يشبه ما يسمى اليوم بـ (الإعجاز العلميّ) و (الإعجاز التشريعيّ) .

و قد رده الشيخ بأمرين :

١ - هذه خَصْلة مشتركة بين القرآن وكثير من كتب علوم الإسلام فإنه لازالت هذه الكُتب يُجتنى منها الفوائد وفيها أسرار ودقائق .

٢ - كثير من الحقائق لا يستقل العقل بإدراكها فهي من الأمور الغيبية ، وقد سبق له إبطال الإعجاز بأخبار الغيب .

وأنا أوافقه على إبطال هذا الوجهِ لو كان القائل به لا يَعُدُّ غيره معجزاً ، أما إن عدّه معجزاً مع غيره مثل الفصاحة والبلاغة والنظم لكان يصح أن يكون هذا الوجه من الإعجاز الجزئي الذي هو في كثير من آيات القرآن الكريم ، وليس في كلها ، ويكون حاله كحال الإعجاز بأخبار الغيب التي سبق لي الكلام عليها[1] .

١- انظر ص ١٣٤ و ما بعدها من هذه الرسالة ، وانظر - أيضاً - ص ١٦٣ - ١٦٤ .

أما الشيء الذي لا أوافقه عليه أبداً هو أنه جعل القرآن مشتركاً مع غيره من الكتب الإسلامية في ورود الحقائق والأسرار والدقائق ، فكم بين الثرى والثُريّا ، والشيخ قد أُتي – في تقديري – من جهة أنه قاس كلام القرآن في الحقائق والأسرار والدقائق على كلام البشر ، ولو قال بأصل الاشتراك لكان له بعضُ وجهٍ في هذا أما أن يقول بالاشتراك المطلق فهذا مما لايسلّم له أبداً .

وكذلك يمكن أن يقال – قياساً على كلام الشيخ – إن بلاغة القرآن غير معجزة – أيضاً – ؛ لأن للعرب خطباً وأشعاراً بليغة كما أن القرآن بليغ ، نعم هي بليغة كما أن القرآن بليغ ولكن شتان بين طبقة البلاغة في الجانبين ، وإنما كان اشتراكهما من جهة أصل البلاغة وليس في استوائها فيهما .

وكذلك يمكن ردّ ما ذهب إليه الشيخ بأنه قد يشترك مع القرآن نصٌّ أو كتاب ببيان بعض الحقائق والدقائق ولكن هذا الاشتراك لايعدو أن يكون كاشتراك البشر في صفة العلم مع الباري ، سبحانه وتعالى ، فكما أنه لا مقارنة بين العِلمين مطلقاً فكذلك لا مقارنة بين ما جاء به القرآن من الدقائق والحقائق على وجه يقينيّ قطعي معجز ، وما فُتح به على بعض البشر من بعض الحقائق ، والله أعلم .

سابعاً : البلاغة :

وقد فصَّل في هذا الوجه قائلاً :

((إن أرادوا بما ذكروه أنه صار فصيحاً بالإضافة إلى ألفاظه ، وبليغاً بالإضافة إلى معانيه ، ومختصاً بالنظم الباهر فهذا جيد لا غبار عليه ... وإن أرادوا أنه بليغ بالإضافة إلى معانيه دون ألفاظه فهو خطأ))[1] .

وما قاله لا مزيد عليه ، والله أعلم .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠١ – ٤٠٢ .

ثامناً : النظم :

وقد فصل في هذا الوجه كسابقه حيث قال :

((إن عنيتم به أن نظمه هو المعجز من غير أن يكون بليغاً في معانيه ولا فصيحاً في ألفاظه فهو خطأ ، فإن الإعجاز شامل له بالإضافة إلى كلا الأمرين جميعاً ، وإن عنيتم أنه مختص بالبلاغة والفصاحة خلا أن اختصاصه بالنظم أعجبُ وأدخلُ فلهذا كان الوجهَ في إعجازه فهذا خطأ ... وأيضاً فإنا نقول :

هل يكون النظم وجهاً في الإعجاز مع ضم البلاغة والفصاحة إليه أو يكون وجهاً من دونهما ، فإن قالوا بالأول فهو جيد ولكن لِم قصروه على النظم وحده و لم يضموهما إليه ؟[1] .

وإن قالوا : إنه يكون منفرداً بالإعجاز من دونهما فهذا خطأ أيضاً ؛ فإن نظم القرآن لو انفرد عن بلاغته وفصاحته لم يكن معجزاً بحال))[2] .

وكلامه جيد لا مزيد عليه .

تاسعاً : وجه إعجازه إنما هو مجموع ما سبق من الأوجه :

وقد رُد هذا الوجه بأن الأوجه السابقة فيها (الصَّرفة) ، والإعجاز بأخبار الغيب ، وغيرهما مما ردّه الشيخ و لم يقبله .

عاشراً : ما تضمنه من المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم في كل سورة ، وفي مبادي الآيات وفواصِلها .

وقد ارتضى هذا الوجهَ وقبله .

١- أي لِم قالوا بالإعجاز بالنظم فقط ولَم يقولوا : وجه الإعجاز بالنظم والبلاغة والفصاحة .

٢- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠٢ - ٤٠٣ .

وهذا الوجه داخل في وجوه الإعجاز ، لكن ليس هو المتفردَ بالإعجاز كما ذهب إليه الشيخ ، خاصة أن هذا الكلام ينطبق على السورة الكاملة ذات الفاتحة والخاتمة والمقاصد التي بينهما ، وهذا لاينطبق على إعجاز القرآن المطلق الذي يتقرر بجملة من الآيات ولو في وسط سورة ما ، أو في فاتحتها و لم تنزل بعد خاتمتها،مثل سورة الأعراف وهى من السبع الطوال فلو نظرنا فيها إلى قصة آدم وحدها لكانت كافية في تقرير الإعجاز والتحدي لكنها لاتكون مثالاً موافقاً لِما ذكره الشيخ .

وجه الإعجاز المختار

اختار السيد يحيى بن حمزة العلويّ وجهاً يضم البلاغة والفصاحة وحسن النظم وبيّنه بقوله :

((والذي نختاره من ذلك ما عول عليه الجهابذةُ من أهل هذه الصناعة ... فإنهم عولوا في ذلك على خواصّ ثلاثة هي الوجه في الإعجاز :

الخاصة الأولى : الفصاحة في ألفاظه على معنى أنها بريئة عن التعقيد والثّقل ، خفيفة على الألسنة ...

الخاصة الثانية : البلاغة في المعاني ...

الخاصة الثالثة : جودة النظم وحسن السياق ...))[1] .

١- ((الطراز)) : ٣ / ٤٠٤ - ٤٠٥ .

إذاً قد اختار وجهاً للإعجاز مجموعاً من ثلاثة أوجه من الأوجه العشرة التي ساقها ، وهذا الوجه الذي اختاره قد أطبق عليه أهل العلم إلا من شذّ كالنظّام وأمثالِه .

ثم إن الشيخ ختم الكتاب برد شبهات ومطاعن وجهت إلى القرآن ، لا علاقة لها بمباحث الإعجاز[1] .

هذا ماتيسر من الكلام على الإعجاز في كتاب ((الطّراز)) ، والله أعلم .

١- انظر : ٣ / ٤٢٠ وما بعدها .

خلاصة هذا المبحث :

قد نظرت في أهم الكتب التي تحدثت عن الإعجاز - في تقديري - وكان بعضها رائداً ككتابي الرمانيّ والإمام الباقِلانيّ ، وهذه الكتب قد أتت على أغلب أوجه الإعجاز المعروفة ، ويمكن سرد ماجاءت به من أوجه على النحو الآتي :

١- الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنّظم[١] .

٢- الإعجاز بأخبار الغيب[٢] .

٣- الإعجاز بالأسلوب[٣] .

٤- اشتماله على الحقائق والأسرار والدقائق[٤] .

٥- خلوه من الاختلاف والتناقض[٥] .

٦ - (الصَّرْفة) .

٧ - الإعجاز بمجموع أوجه منها (الصَّرفة)[٦] .

فإذا قورنت هذه الأوجه بما جاء من أوجه في المبحث الأول - وهو الكلام على الإعجاز المبثوث في الكتب - يمكن إضافة مالم يُذكر هنا ، أوذُكر بعضه ، لتتبين جميع أوجه الإعجاز التي ذُكرت في هذا البابِ على وجه الاختصار ، فبالإضافة إلى الأوجه السبعة الماضية يُضاف :

١، ٢ - وهذا الوجه مما اتفقت الكتب الأربعة على إيراده .

٣- اختُصّ بالذكر في كتابي ((نهاية الإيجاز)) : ٥٦ - ٥٧ و ((الطِّراز)) ٣/٣٩٥ - ٣٩٧ ، وعُرِّج عليه في الكتب الباقية دون جَعْله وجهاً مستقلاً .

٤- وهذا قد اختُصّ بالذكر في كتاب ((الطراز)) : ٣/ ٤٠٠ - ٤٠١ .

٥- اختصُ بالذكر في كتاب ((نهاية الإيجاز)) : ٥٧ ، و ((الطراز)) : ٣/٣٩٧ - ٣٩٨ .

٦- كما جاء في ((الطراز)) : ٣/ ٤٠٣ .

٨ – التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك ما لايطاق ، وفيه وقع الإعجاز[١] .

٩ – أمرٌ لايستطاع التعبيرُ عنه[٢] .

١٠ – الإعجاز بالعلوم والمعارف[٣] .

ولعل هذا الوجهَ شبيه بالوجه الرابع لكنه أعم منه .

١١– الجَمْع في القرآن بين الدليل والمدلول[٤].

فهذه وجوه إحدى عشرة وردت في هذا الباب قيل بأنها من أوجه الإعجاز ، وهذا عدا الأوجه التي ليس لها مدخل في الإعجاز ، والأوجهِ التي تدخل ضمن هذه الأوجهِ المذكورة ، كما بُين كل ذلك في مكانه .

وبهذا ينتهي الحديث عن الإعجاز المبثوث في الكتب المختارة[٥] ، وعن الكتب المختارة التي استقلت بالإعجاز ، حتى إذا ما جاء وقت الكلام على أوجه الإعجاز التي جاء بها الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في الباب الثالث ، إن شاء الله تعالى ، سهلت المقارنة بينها وبين ما ساقه الأئمة من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

١– انظر ص ١٢٩ ومابعدها .

٢– انظر ص ١٤٢ .

٣– انظر ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

٤– انظر ص ١٦٤ .

٥– لقد عدتُ – بفضل الله – إلى أكثر الكتب التي بين أيدينا الموضوعة في الإعجاز أو الدارسة لمذاهب العلماء فيه ، فلم أجد – فيما وقعت عليه منها – أن أحداً خرج عن هذه الأوجه المذكورة فأتى بشيءٍ يستحق أن يُدرج مع هذه الأوجه الإحدى عشرة ، وهذا كله إلى عصر الإمام السيوطي ، أما بعده فهناك الجديد كما سيأتي في الباب الرابع إن شاء الله تعالى ، وإذا يسر الله تعالى فسأجمع في الفهرس جميع أوجه الإعجاز الأصيلة – أي التي لاتندرج تحت غيرها – والتي ذكرها الأئمة والعلماء والمشايخ في كتبهم قديماً وحديثاً ، والله الموفق .

البَابُ الثّاني

الإمام السيوطيّ ودراسة كتابه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الإمام السيوطيّ : حياته وآثاره .

الفصل الثاني : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))
ونسبته ونسخه .

الفصل الثالث : محتويات الكتاب ومنزلته العلمية

الفصل الأول : الإمام السيوطيّ : حياته وآثاره :

وفيه مباحث :

تمهيـــــد

عصر الإمام السيوطيّ

عاش الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في مصرَ التي كانت عاصمةً لسلطنة المماليك ، الذين بسطوا نفوذهم كذلك على الشام والحجاز ، وكانت الدولة آنذاك للمماليك الجراكسة ، الذين كانوا يعرفون بالمماليك البُرْجية[1] .

وقد كان عصر السيوطيّ يغلب عليه الاستقرار والهدوء ، إلا ما تخلله من اضطرابات متفرقة في الجانبين السياسيّ والاقتصادي ، ويمكن إجمال حالة العصر الذي عاشه السيوطي في الآتي :

أولاً : الجانب السياسيّ :

كان في مصر خلفاء عباسيّون تولوا مقاليد الخلافة بعد دخول التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦ ، ولكن لم يكن لهؤلاء الخلفاء سلطة فعلية ؛ إذ كان الأمر بيد سلاطين المماليك[2] .

وقد تولى الحكمَ في حياة الإمام السيوطي ثلاثة عشر سلطاناً مملوكياً[3]،

١- هم طائفة من المماليك الذين كانوا يجلبون من بلاد الكُرْج [جورجيا الآن] وعنى السلطان المنصور قلاوون بالإكثار منهم وتربيتهم في أبراج القلعة ، فعُرفوا مِن ثَمّ بـ (البُرجية) ، وازداد نفوذهم بعد ذلك لتصبح لهم الدولة في مصر بعد انتهاء عهد المماليك البحرية وتولي السلطان برقوق الذي كان من المماليك البُرجية ، وكان ذلك سنة ٧٨٤ ، وانتهت دولتهم سنة ٩٢٢هـ بدخول السلطان سليم العثماني إلى مصر .

انظر ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : د . سعيد عاشور ص ٢٤٣ - ٢٤٧ .

٢- ((حسن المحاضرة)) : ٢ / ٥٢ وما بعدها ، وانظر ٢ / ٩٥ وما بعدها .

٣- انظر ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ .

كان السلطان الأشرف قايتباي[1] أطولَهم عهدا واستقراراً إذ حكم قرابة تسع وعشرين سنة ، منذ سنة ثنتين وسبعين وثمانمائة إلى سنة إحدى وتسعمائة ، وكانت سنوات الاستقرار تلك من أحسن السنوات التي عاشها الإمام السيوطيّ ؛ إذ كان عمره عند تولي الأشرف ثلاثاً وعشرين سنة ، وعمره عند وفاة الأشرف ثنتين وخمسين سنة تقريباً ، وهذه السنون هي من أفضل سنوات العمر عند معظم الناس ، وكذلك كانت عند الإمام السيوطي الذي صنف عدداً كبيراً من كتبه في تلك المدة[2] .

ثانياً : الجانب الاجتماعيّ والاقتصادي :

كان المجتمع أيام المماليك مقسماً إلى طبقات أعلاها طبقة السلاطين والأمراء ، وأدناها طبقة الفلاحين ، وبينهما طبقات مثل طبقة العلماء وطبقة التجار[3] .

وكان لتلك الطبقات عاداتُها الاجتماعية في التزاور ، والتنزه ، والتردد على الأسواق والحمامات ، وكان للناس عموماً احتفالاتٌ بالأعياد ، ووقتِ تولية السلاطين والخلفاء[4] .

ولقد ازدهرت الزراعة والصناعة في عهد المماليك ، وكانت الدولة تعيش في رخاء إلا ما يكدر صفوَها من حين لآخر من نقص مياه النيل ،

١- الملك الأشرف الجركسيّ ، الحادي والأربعون من ملوك الترك والسادس عشرمن ملوك الجراكسة . ولد سنة ست وعشرين وثمانمائة ، ثم اتصل بالملك الظاهر جُقمق فأعتقه ، ولم يزل يترقى حتى بويع بالسلطنة سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وسار السيرة الحميدة ، وأنشأ المشاعر العظيمة في الحرمين وغيرها ، وكان صاحب تعبد وتهجد وأوراد وأذكار وبكاء من خشية الله . توفي سنة إحدى وتسعمائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((شذرات الذهب)) : ٧ / ٦ - ٩ .

٢- انظر ((حسن المحاضرة)) : ٣٣٩/١ ومابعدها ؛ فقد ذكر فيه معظم مصنفاته ، و ((حسن المحاضرة)) إنما فرغ السيوطيّ من تصنيفه في آخر مدة الأشرف ، وذكر فيه وفاته سنة ٩٠١ ، وذكر تولي ولد الأشرف السلطنة ولم يذكر السلطان بعده ، ولم يتول ولده أكثر من ستة أشهر : انظر ((حسن المحاضرة)) : ١٢٢/٢ ، و ((شذرات الذهب)) : ٩/٨ .

٣- ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٨٨ .

٤- المصدر السابق : ٢٨٨ - ٢٨٩ .

وحدوثٍ بعض المجاعات التي كانت قليلة في عهد الإمام السيوطيّ ، ولقد تأثرت التجارة كثيراً باكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح في نهاية القرن التاسع الهجري ، مما أوجد للأوربيين طريقاً إلى جنوب شرق آسيا حيث كسروا احتكار المماليك لتجارة التوابل والبخور ، فأضروهم اقتصادياً ضرراً شديداً ، انعكس على حياة الناس ومعاشهم . [١]

ثالثاً : الجانب العلمي :

قد ازدهر العلم ازدهاراً كبيراً في دولة المماليك خاصة في القرن التاسع ، وكان لذلك أسباب منها :

١ - تفرد القاهرة - وهي عاصمتهم - بمركز علمي رائد بين العواصم الإسلامية مما جعلها محطّ العلماء والفضلاء[٢] .

٢ - حرص عدد كبير من سلاطين المماليك على إنشاء المدارس والمساجد التي كانت بمثابة معاهدَ علمية[٣] .

٣ - كان كثير من السلاطين والخلفاء والأمراء يعقدون مجالس علمية في قصورهم ، ويتنافسون في اقتناء الكتب وتخصيص دور كبيرة لها ، حتى أن عدداً كبيراً من مخطوطات الكتب التي بأيدينا اليوم يعود زمن تصنيفها أو نَسْخها إلى عصر المماليك[٤] .

١- المصدر السابق : ٢٨٧ .

٢- ((حسن المحاضرة)) : ٢/ ٩٤ .

٣- ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٩٨ ، و ((حسن المحاضرة)) : ٢ / ٢٥٥ .

٤- ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : ٢٩٣ .

٤ – بروز عدد من العلماء الكبار الذين ألفوا مؤلفات كبيرة في شتى نواحي العلوم والفنون[1] .

تلك كانت نبذة يسيرة عن عصر الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – وأدلف منها إلى بيان حياة الإمام السيوطي الشخصية ، والعلمية ، وبيان آثاره التي تصور كثيراً من حالة عصره .

حياة الإمام السيوطي :

الإمام السيوطيُّ ممن رزقه الله – تعالى – شهرةً ذائعة في حياته وبعد مماته لكثرة مصنفاته في فنون العلم المختلفة ، ولابتكاره في جوانبَ عديدةٍ منها ، ولجمعه ما تفرق وفقد مِن كتبِ كثيرٍ ممن سبقه ، ولذلك كله كتب عنه العلماء قديماً وحديثاً ، ودُرست حياته ومصنفاته في شتى الجامعات من زوايا متعددة تعددَ مواضيع مصنفاته ، فمن كتب في التفسير فإنه لايستغني عن كتب السيوطيّ المهمة في التفسير مثل ((الدر المنثور)) و ((طبقات المفسرين)) ، ومن كتب في علوم القرآن فـ ((الإتقان)) عمدتُه ، ومن تحدث عن الحديث وعلومه فالجامع – صغيرُه وكبيره – بُغيتُه ، و ((تدريب الراوي)) عُدّته ، ومن أراد الأدب فعليه بالمقامات الكثيرة التي أنشأها ، وهكذا ...

وكل من يحقق شيئاً من كتبه ، أو يؤلف في موضوع علميّ دارساً بعضَ كنوز آثاره فإنه يكتب عنه ترجمة ضافية ، والأمثلة أكثر من أن تُذكر .

ولذلك فإني سأختصر – ماوسعني الاختصار – في الكتابة عن حياة الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – محاولاً التركيزَ على جوانبَ مهمةٍ من حياته أعتقد أن لذكرها فائدةً ، وسأتوسع في الكلام على كتابه ((معترك الأقران)) – إن شاء الله تعالى – وذلك لأنه لم يُدرس دراسة وافية من قبل ، والله الموفق .

١– من العلماء الكبار في القرن التاسع الحافظ العراقي (ت ٨٠٦) ، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) ، والإمام البُلقينيّ (ت ٨٦٨) ، والحافظ السخاويّ (ت ٩٠٢) وغيرهم كثير .

المبحث الأول : مولده واسمه وكنيته ولقبه .

مولـده : ولد مستهلَّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة[1] بالقاهرة[2] ، وقد قيل إنه ولد بين الكتب ؛ إذ أن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض فولدته وهي بين الكتب فصار يلقب بـ (ابن الكتب)[3] .

اسمـه : عبد الرحمن بن الكمال[4] أبي بكر بنِ محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمانَ بنِ ناظر الدين محمدِ بن سيف الدين خضرِ بن نجم الدين أبي الصلاح أيوبَ بنِ ناصر الدين محمدِ بن الشيخ همامِ الدين[5] .

كنيته : أبو الفضل[6] .

لقبـه : جلال الدين الخُضَيريّ الأسيوطيّ[7] .

أما السيوطيّ فنسبة إلى (أسيوط) وهي مدينة كبيرة معروفة بصعيد مصر .

١- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٢- ((التحدث بنعمة الله)) : ١٦ .

٣- ذكر ذلك عبدالقادر العيدروسيُّ في ((النور السافر)) : ٥٤ .
ولم يذكر ذلك السيوطيّ ، فيما علمت ، ومن عادته ذكرُ دِقائق حياته المهمة ولم يشتهر هذا القول ، فالله أعلم بصحته .

٤- جرت عادة المصنفين المتأخرين أن يقتصروا على الجزء الأول من الألقاب المضافة إلى (الدين) فيقولون (الكمال) مثلاً ويريدون : كمال الدين ، و (الصلاح) ويريدون (صلاح الدين) وهكذا ...
وممن صنع هذا بكثرة الإمام السخاوي في ((الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)) ، ويمكن الجمع بين الحذف وذكر الجزئين كما فعل السيوطيّ – رحمه الله – في ذكره لنسبه هاهنا .

٥- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٦- قد لقبه شيخه عز الدين الكنانيّ الحنبليّ بهذا اللقب كما في ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥١ .

٧- قال السيوطيّ في ضبط هذه اللفظة : الأسيوطيّ : ((فيها خمسة أوجه : ضم الهمزة وكسرها ، وإسقاطها وتثليث السين)) : ((لب اللباب)) : ١ / ٦١ .

وأما الخُضَيريّ فإن السيوطيّ قال عنها :

((لا أعلم ما تكون إليه هذه النسبة إلا (الخُضَيريّة)[1] مَحَلَّة ببغداد ، وقد حدثني من أثق به أنه سمع والدي - رحمه الله تعالى - يذكر أن جدَّه الأعلى كان أعجمياً أو من الشرق ؛ فالظاهر أن النسبة إلى المَحَلَّة المذكورة))[2] .

وقد جاء عن السيوطيّ ما يُفهم منه أنه ربّما يكون من سلالة البيت النبويّ الشريف ؛ إذ قال :

((ووالدي من خير العرب لأنه من سلالة الصحابة ، **وربما قيل أكثرُ من ذلك** ، والصمت عنه أقرب إلى الإصابة))[3] .

لكن هذه النسبة لم تشتهر عنه .

١- ذكر السيوطيّ أن ((الخُضَيريّ - مصغراً - إلى الخُضَيريّة مَحَلَّةٍ ببغداد)) : ((لب اللباب)) : ١/ ٢٩٠ .

٢- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

٣- ((طَرْز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة)) المطبوع ضمن كتاب ((شرح مقامات جلال الدين السيوطيّ)) : ٢ / ٧٣٧ .

وقد علّق مصنف كتاب ((مكتبة الجلال السيوطي)) ص ١٢ على ذلك قائلاً :

((وعساه أن يكون بحث في نسبه فحقق ما خالف الروايةَ عن أبيه في كونه ينحدر من أصل عجميّ)) .

قلت : لاتعارضَ في هذا ، إذ لا يمتنع أن يكون العجميُّ من أصل عربيّ سكن أجداده في بلاد العجم فاستعجموا ، وفي عصرنا كثير من العجم ذوي الأصول العربية ، والله أعلم .

المبحث الثاني : نشأته وطلبه للعلم ، ومشايخه ، وتلاميذه .

نشـأتــــه : وجّههُ أبوه لطلب العلم منذ نشأته ، فنبغ وحفظ القرآن قبل أن يتمّ ثمـاني سـنوات ، وحفـظ عـدة متـون في فنـون متنوعـة مثـل : ألفيـة ابـن مــالك ، و ((المنهاج)) في الفقه[1] ، وارتحل طلبـاً للعلـم إلى بـلاد الشـام والحجـاز واليمـن والهند والمغرب ، وأفتى وعمره اثنتان وعشرون سنة ، وأملى الحديث وعمره ثلاث وعشرون سنة[2] .

مشايخــــه : أكثر السيوطيّ رحمه اللـه تعالى من القراءة على المشـايخ ؛ إذ بلغـت عدتهم قرابة مائتي شيخ وشيخة[3] ، وها أنذا أذكر أشـهر مشـايخه مكتفيـاً بـالبعض عن الكل :

١ – الشيخ تقي الدين أحمد بن محمد بن محمـد الشُّـمَنّيّ ، ولـد بالإسـكندرية سـنة إحدى وثمانمائة ، ثم قدم القاهرة وقرأ على مشايخها في أصول الدين والعربيّة والمنطق والحساب والطب والهندسة والحديث ، واشتهر وتصدى لتعليم الناس .

وكان علامة سُنّياً متين الديانة ، زاهداً عفيفاً متواضعاً ، وكان جلُّ الفضلاء من أهل المذاهب من تلامذته . توفي بالقاهرة سنة ٨٧٢ ، رحمه اللـه تعالى[4] .

١- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٦ .

و ((المنهاج)) كتاب في الفقه الشافعيّ ، من تصنيف الإمام النووي ، رحمه اللـه تعالى .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٣٦ – ٣٣٩ .

٣- انظر ((المنجم في المعجم)) فقـد سرد فيـه السيوطي أسمـاء شيوخـه فبلغـوا ١٩٥ شيخـاً وشيخـة ، وقد ذكـر الشيخ الشعرانيّ أن عـدد شيوخ السيوطيّ بلـغ ستمائـة شيخ وهـو رقـم كبير لم يذكـره – فيمـا علمـت – غير الشعرانيّ ، وانظر ((الطبقات الصغرى)) : ١٩ . ولعـل الشعـراني يعني كـل مـن استفـاد منـه السيوطي شيئـاً ولو يسيراً ، وهذا هو مابينه السيوطي بقوله :

((وأجاز لي خلق من الديار المصرية ، والحجاز ، وحلب ، وقد جمعت معجماً كبيراً في أسماء من سمعت عليه ، أو أجازني ، أو أنشدني شعراً فبلغوا نحو ستمائة نفس)) : ((التحدث بنعمة اللـه)) : ٤٣ .

٤- ((الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)) : ٢ / ١٧٤ – ١٧٨ .

٢ - الشيخ الإمام علم الدين صالحُ بنُ عمرَ بن رسلان البُلقينيّ الشافعيّ . ولد بالقاهرة سنة ٧٩١ ونشأ بها فحفظ القرآن وعدداً من المتون الشرعيّة .

كان متقللاً من الدنيا ، غايةً في الذكاء وسرعة الحفظ ، وله مشايخ عدّة . أخذ عن الفضلاء من كل ناحية ، وله بعض المصنفات . توفي بالقاهرة سنة ٨٦٨ هـ ، رحمه الله تعالى[1] .

٣ - الشيخ الإمام محي الدين محمد بن سليمان بن سعيد الرّومي الحنفي الكافِيَجي[2] :

ولد ببلاد صاروخان من ديار الدولة العثمانية قبل سنة ٧٩٠ هـ . قدم الشام ، وأدّى الحج ، ثم قدم القاهرة بُعيد سنة ٨٣٠ ، كان متقللاً من الدنيا جداً ، وأقبل عليه الفقهاء وتصدّى للتدريس والإفتاء والتأليف وزادت تصانيفه على المائة ، ولم يزل على جلالته حتى وافته المنية بالقاهرة سنة ٨٧٩ هـ ، رحمه الله[3] .

وكثيراً مايثني السيوطيّ على شيخه هذا ويعدّه أستاذ الوجود ، وأستاذ الأستاذين[4] .

٤ - الشيخ يحي بن محمد الآقصرائيّ - نسبة إلى (آقصرا) إحدى مدن الروم[5] - القاهريّ الحنفيّ .

١- ((المصدر السابق)) : ٣ / ٣١٢ - ٣١٤ .

٢- هذا اللقب نسبة لكافية ابن الحاجب لكثرة تدريسه لها ، انظر ((الضوء اللامع)) : ٧ / ٢٦٠ .

وقد ذكر السخاويّ رحمه الله تعالى - أنه ((نُسب إليها بزيادة جيم ، كما هي عادة الترك في النَّسب)) .

٣- ((المصدر السابق)) : ٧ / ٢٥٩ - ٢٦١ .

٤- انظر ((المنجم في المعجم)) : ١٨٣ ، و ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٨ ، و ((التحدث بنعمة الله)) : ٢٤٣ .

٥- أي الدولة العثمانية ، وقد ذكر الزركليّ - رحمه الله - أن اسم المدينة (آق سَراي) و النسبة إليها (آقسرائيّ) ، انظر ((الأعلام)) : ٨ / ١٦٨ .

ولـد بالقـاهرة سـنة ٧٩٧ ونشـأ بهـا ، وحفـظ القـرآن وعـدداً مــن المتــون الشرعية ، وتتلمذ على عدد من مشايخ عصره ، وشمّر واجتهد حتى فـاق في فنـون العلوم ، وتصدى للتدريس ، فاستفادت الطلبة منه . وكان حسنَ الخلق كثير التعبد والذكر . توفي بالقاهرة سنة ٨٨٠ ، رحمه اللـه[١] .

تلامذته :

تتلمذ على السيوطي كثيرون برع منهم أئمة لهم شأن ، منهم :

١ - الشيخ زين الدين عمر بن أحمد بن عليّ الشمّاع الحلبيّ الشـافعيّ ، ولـد سـنة ٨٨٠ هـ ، وجدّ واجتهد واستكثر من المشايخ حتى زادت شـيوخه علـى مـائتين .

كان إماماً عالماً ، أمّاراً بالمعروف نهّاءً عن المنكر ، لم يتولّ شيئاً من المناصب بل قنع بربح كان يأتيه من المضاربة بالمال ، وله مؤلفات كثـيرة . تـوفي بحلـب سـنة ٩٣٦ ، رحمه اللـه[٢] .

٢ - الشيخ الإمام محمد بن علـي الـداوديّ المـالكيّ ، كـان إمامـاً علامـة حافظـاً ، شيخَ الحديث في عصره ، وضع لشيخه السيوطيّ ترجمة حافلـة في مجلّـد ضخـم[٣] ، وله مؤلفات عِدّة ، أشهرها ((طبقات المفسرين)) .

توفي بالقاهرة سنة ٩٤٥ هـ ، رحمه اللـه[٤] .

١- ((الضوء اللامع)) : ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤٣ .

ومـن مشـايخـه أيضـاً : شـرف الديـن يحيى بن محمد المنـاويّ ، وجـلال الديـن محمد بن أحمد المَحَلّيّ ،وعز الدين أحـمد بن إبراهيـم الكنانيّ وغيرهـم ، انظر ((الكواكب السـائرة)) : ١ / ٢٢٦ - ٢٢٨ ، و ((المنجم في المعجم)) بتمامه .

٢- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٢١٨ .

٣- لم أعثر على هذه الترجمة .

٤- ((شذرات الذّهب)) : ٨ / ٢٦٤ .

٣ – الشيخ الإمام محمد بن يوسف الشاميّ الصالحيّ ثم المصريّ . كان عالماً صالحاً ، كثير الصيام والقيام ، متعففاً عن أموال الولاة والسلاطين ، حسنَ السيرة والخلق ، ألّف عدداً من الكتب منها سيرة جامعة مشهورة للرسول ، صلى الله عليه وسلم[1] ، توفي سنة ٩٤٢ هـ ، رحمه الله تعالى[2] .

١- وهي مطبوعة متداولة باسم : ((سُبل الهدى والرشاد في هَدي خير العباد ، صلى الله عليه وسلم)) .

٢- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٢٥٠ - ٢٥١ .

للسيوطيّ - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة اختُلف في عددها ؛ فقد قال قوم إنها خمسمائة[1] ، وأوصلها بعضهم إلى أكثرَ من هذا[2] أو أقلّ .

وهناك دراسة وافية عن مصنفاته في كتاب ((مكتبة الجلال السيوطي)) ، فقد ذكر صاحب هذه الدراسة أن الذي انتهى إليه في إحصائها ((بعد الفحص المستقصي والتفتيش المستتبع كان ٧٢٥ مؤلّفاً سِوى المكرور والمنحول ، أخرجت المطابع منها ٢٠٤ - حسبما وقفت عليه - وما تزال المكتبات العامّة والخاصّة تختزن منها قرابة المائتين ، فأمّا الباقي فهو مفقود أو في حكم المفقود))[3] .

ودراسته هذه دراسة علمية وافية ذكر فيها أسماء تلك الكتب جميعاً وبيّن المطبوع منها والمخطوط ، وسكت عما يظنه مفقوداً .

وذكر أن مؤلفاتِه تنقسم إلى مؤلفات جامعة ضخمة ، ومؤلفاتٍ ذات حجم متوسّط ، ومؤلفاتٍ وجيزةٍ مختصرة ، بل إن بعض مؤلفاته في ورقة وفي ورقتين[4] .

وهناك عمل علميّ آخر بذل فيه مؤلّفاه الجهد ، وذكرا فيه أن مصنفات السيوطي بلغت ٩٨١ مصنفاً ، وقاما بذكرها مع ذكر أماكن وجود مالم يُفقد

١- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٣ ، و ((الكواكب السائرة)) : ١ /٢٢٨ .

٢- كابن إياس الحنفيّ الذي ذكر أنها بلغت قرابة ستمائة مصنف ، انظر ((بدائع الزهور)) : ٤ / ٨٣ .

٣- ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٣٨ .

٤- المصدر السابق : ٣٩ ، و انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٨ ، و ((النور السافر)) : ٥٦ .

منها ، وبيانِ المطبوع من كل ذلك[1].

ولا يتعارض هذا العدد ولا الذي قبله مع ماعدّه الداوديُّ – رحمه اللـــه تعـالى – من مصنفات شيخه إذ أنه استقصى ((مؤلفاته الحافلة الكثيرة ، الجامعة النافعـة ، المتقنة المحررة ، الـمعتمدة المعتبرة فنافت عِدّتها على خمســمائة مصنّـف ، وشـهرتها تُغني عن ذكرها))[2] .

وإنما قلت لايتعارض هذا مع عدّ من بلغ بمصنفات السيوطي قرابـةَ ألـفٍ ، أي ضعف العدد تقريباً ، للأسباب الآتية :

١ – لعل من عدّها ألفاً أضاف كتباً لم يرتضها السيوطيّ ورجع عنهـا كمـا ذكـر في ((حسن المحاضرة))[3] .

والتلميذ أعرف بكتب شيخه من غيره .

٢ – في الكتب التي ذُكرت للسيوطيّ كتبٌ لم تصح نسبتها إليه[4] .

٣ – بعض كتب السيوطي سميت بأكثر من اسم[5] .

١- اسم الكتاب((دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها)) للأستاذين محمد الشيبانيّ وأحمد الخازندار .

٢- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٢ – ٥٣ نقلاً عن ترجمة الداوديّ لشيخه السيوطي التي أشرتُ آنفاً إلى أني لم أعثر عليها .

٣- ١ / ٣٣٨ .

٤- نحو كتاب ((أنيس الجليس)) و ((الإيضـاح في أسـرار النكـاح)) ، و ((الكنز المدفـون والفلك المشحـون)) ، وانظـر (دليـل مخطوطـات السيوطيّ)) : ٢٦٢ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥ على التوالي ، وانظـر فهـرس الكتب المنحولـة في كتاب ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٤١٣ .

٥- نحو كتاب ((قطـف الأزهـار في كشـف الأسـرار)) إذ هـو الكتـاب المسمى أيضـاً بـ ((أسـرار التنزيـل)) كما في ((دليل مخطوطات السيوطي)) : ٣٠ ، ونحو كتـاب ((تناسق الدرر في تناسـب الآيـات والسـور)) إذ هـو الكتـاب المسمى ((أسرار ترتيب القرآن)) كما في مقدمة ((تناسق الدرر)) المطبوع .

٤ – بعض كتب السيوطيّ مجاميعُ تحوي رسائل عدة[١] فلعلّ الداوديّ عدّ المجموعَ كتاباً واحداً وعدّه غيره باعتبار رسائله الكثيرة التي يحويها .

أسباب كثرة مصنفات السيوطيّ :

لكثرة مصنفات السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أسباب أوجزها فيما يلي[٢] :

١ – توفيق الله – تعالى – له ، وتوجيهه ، وعنايته به سبحانه .

٢ – اكتمال العلوم في عصره ونضجها :

إذ أن عصره يعدّ الغاية فيما وصلت إليه علوم المسلمين في فروعٍ متنوعة ، ثم أخذت تلك المعارف بالاضمحلال والتدهور فيما بعد القرن العاشر .

فلاكتمال العلوم ونضجها توفرت مادة قوية غزيرة يتخير منها المصنف كما يشاء ، ومصنفات السيوطيّ مليئة بالنقول الكثيرة عمن سبقه ، في فروع متنوعة من العلوم ، حتى أنه اتُّهم أنه ناقل محضٌ ، وجامعٌ لما تفرق في كتب الأولين وحَسْبُ[٣] ، وهي تهمة باطلة ؛ إذ للسيوطي شخصية علمية مستقلة تتضح في الكثير من مصنفاته .

٣ – طبيعة التصنيف في عصره :

إذ أن التصنيف في عصر السيوطيّ وما قبله كالقرن الثامن طبع بطابَع الجمع والاختصار للمصنفات السابقة مع الإضافة إليها أو شرحها ، وما كان كذلك فإن

١- نحو ((الحاوي للفتاوي)) ، إذ يبلغ مايحويه من رسائل ثمانياً وسبعين رسالة .

٢- استفدت في الفقرات من الثانية إلى الخامسة من كتاب ((السيوطيّ وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ١٣٥ – ١٣٦ .

٣- انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٦ ، ٦٨ .

التصنيف فيه يتسع ويكثر لغزارة المادة المتاحة وسهولة إعادة تصنيفها .

٤ - جمع السيوطي للرواية والدراية :

فهم السيوطيّ القوي للعلوم الشرعية واللغوية وغيرها وهضمه لها - وهذه هي الدراية - مع سعة روايته للحديث والآثار هذان الأمران أتاحا له حيازة علم غزير مكنه من التصنيف في شتى فروع العلوم والفنون .

٥ - همته وصبره :

عكف السيوطيّ على مصنفاته بهمة وصبر وجَلَد قلّ مثيله كل ذلك مكنه من الإكثار من التصنيف ؛ خاصة حين اعتزل الفُتيا والتدريس منذ سن الأربعين[١] فمكث قرابة ثلاث وعشرين سنة يصنف ويحرر مصنفاته حتى بلغ عددها مالا يُتصور أن يكون لغيره في عصره أو بعده إلى يومنا هذا ، فتوفر له في اعتزاله التفرغ الذي ينشده كل طالب علم .

٦ - ذكاؤه واتقاد ذهنه :

وهذا واضح من آثاره لايحتاج إلى إقامة برهان عليه .

٧ - الحالة العلمية والثقافية :

مما ساعد السيوطيَّ على غزارة التصنيف كونه في بيئة علمية ثقافية لا مثيل لها في عصره ؛ إذِ القاهرة في ذلك الزمان مثابة العلماء في كل العلوم والمعارف ، وفيها من المكتبات الكبيرة والمدارس والكتب الكثيرة ما ليس متوفراً في أي مدينة إسلامية في ذلك الزمان[٢] ، ولما كانت بيئته الثقافية والعلمية كذلك حُقّ له أن يستفيد منها الفائدة القصوى في التصنيف .

١- سيأتي - إن شاء الله تعالى - تفصيلُ ذلك ، انظر ص ٢٦٣ ومابعدها .

٢- انظر التمهيد لهذا الباب ص ٢١٧ .

٨ - الاستقرار والأمن والرخاء في مجتمعه :

إذ كانت دولة المماليك في عصره في قوة وسلطان مبسوط على مصر والشام والحجاز وغيرها ، والمجتمع يرفل في أمان ورخاء واستقرار لا بأس به ، وكل هذه عناصر لاغنى للعالم عنها إن أراد الانصراف إلى علمه والتصنيف فيه[١] .

٩ - التنافس بينه وبين أقرانه :

وهذا عامل مهم دعاه لأن يكثر من التصنيف ؛ فهو قد اتخذ التصنيفَ - مراراً - وسيلةً للرد على منافسيه وأقرانه ، وفي الوقت نفسه أدت تلك المنافسة إلى ارتفاع اسمه وشهرة حاله بين الناس فأقبلوا على مصنفاته .

١٠ - الإعداد المبكر :

قد حفظ الإمام السيوطيّ القرآن في سن مبكرة ، وحفظ عدداً من المتون وبرع في العلوم بحيث إنه أفتى ودرّس في سن مبكرة ، كما بينت سابقاً[٢] ، وهذا الأمر أدى إلى أن يصنف في سن مبكرة أيضاً[٣] مما ساعده على الإكثار من التصنيف .

١١ - كفايته المالية :

حيث كانت مناصبه التي سأذكرها قريباً [٤] - إن شاء الله تعالى - تدر عليه دخلاً كافياً لمتطلبات حياته ، فلم ينقل عنه أنه احتاج يوماً أو استجدى أحداً ، وهذا عامل مهم جداً في استقرار العالم وحضور ذهنه .

١- انظر التمهيد لهذا الباب ص ٢١٥ ، ومابعدها .

٢- انظر ص ٢٢١ .

٣- ذكر السيوطي أن أول كتاب صنفه وهو في سن السابعة عشرة : انظر ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٧ .

٤- انظر ص ٢٦٣ ومابعدها .

لكل هذه الأسباب مجتمعةً استطاع السيوطي - رحمه الله تعالى - أن يصنف هذا العددَ الكبير من المصنفات ، تُوّج ذلك كله بأن الله - تعالى - رزقها القَبول فسارت في البلاد مسير الشمس ، وتهافت الناس عليها ، وأصبحت عمدة كثير من العلماء والمحققين .

مصنفات السيوطيّ في الإعجاز

قد أوردت نبذة عن مصنفات السيوطيّ ، أما تآليفه في الإعجاز القرآني خاصة فتنقسم إلى قسمين :

القسم الأول :

الكتب المستقلة المفردة في الكلام على الإعجاز القرآنيّ ، ولا أعلم أن له – في هذا القسم – غيرَ كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) موضوعِ الدراسة .

القسم الآخر :

المباحث المبثوثة في كتبه التي تكلم فيها عن الإعجاز القرآنيّ مثل ((الإتقان)) و ((الخصائص النبوية الكبرى)) .

وسأتحدث هنا عن كل كتاب تضمن مباحث عن إعجاز القرآن على الترتيب الهجائيّ لأسماء الكتب مقارناً بين ماورد فيها وما جاء في ((معترك الأقران)) من الحديث عن الإعجاز :

أولا : ((الإتقان في علوم القرآن)) :

هذا الكتاب هو أجلُّ مصنف في علوم القرآن في تقديري ؛ لكبر حجمه وغزارة مباحثه وجودتها ، وقد تحدث فيه السيوطيّ عن الإعجاز باعتبارين :

الأول : إفراده نوعاً من أنواع علوم القرآن للحديث عن الإعجاز وهو النوع الرابع والستون[1] .

الآخر : باعتبار ما عدّه في ((معترك الأقران)) من وجوه الإعجاز ، وذلك نحو الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه ، والعام والخاص ، والتشبيه والاستعارة ، والكناية والتعريض[2] إلى آخر ماعدّه في ((معترك الأقران)) من وجوه الإعجاز مما سأناقشه فيه في مكان آخر ، إن شاء الله تعالى [3] .

فبهذا الاعتبارِ فإن ((الإتقان)) يكاد يكون بكامله حديثاً عن الإعجاز ، ولفهم هذه القضية فإني عقدت مقارنةً مفصلة بين ما جاء في ((معترك الأقران)) من أوجه الإعجاز وما جاء في ((الإتقان)) من أنواع علوم القرآن فوجدت - بالاستقراء والفحص - أن السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، قد أورد غالب أوجه الإعجاز التي في كتابه ((معترك الأقران)) من كتابه ((الإتقان))[4] ؛ فقد أورد في ((معترك الأقران)) خمسةً وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز وكل هذه الأوجه قد جاءت في كتابه ((الإتقان)) عدا الوجهين : الثاني والعشرين وهو : ((تيسيره -

١- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١١٦ - ١٢٥ .

٢- قد أرجأت تعريف بعض المصطلحات الواردة في هذا الموضوع ومابعده إلى الباب الثالث عند الكلام على وجوه الإعجاز التي أتى بها الإمام السيوطي ؛ إذ تعريفها هناك أنسب ، وسأعقد - إن شاء الله تعالى - فهرساً خاصاً بالمصطلحات البلاغية آخر الكتاب ليسهل الرجوع إليها .

٣- انظر ص ٣٣٧ و ما بعدها من هذه الرسالة .

٤- وإنما لم أقل بعكس هذا - أي استفادته في ((الإتقان)) من ((المعترك)) - لأني أظن أن ((المعترك)) مصنف على مرحلتين ، وقد فرغ منه بعد ((الإتقان)) ، وانظر ص ٢٧٢ من هذا البحث وما بعدها .

تعالى – حفظَه وتقريبه)) والوجه الخامس والثلاثـين وهـو ((ألفاظـه المشـتركة)) ، وهذا الوجه الأخير قد وردت نِتَفٌ منه في ((الإتقان)) لكنه توسع فيـه في ((معـترك الأقران)) توسعاً كبيراً استغرق ثلثي الكتاب تقريباً ، وهـذا الوجـه هـو المبحـث الجديد نسبياً ، كما سأبين ذلك بعدُ – إن شاء اللـه تعالى – أثناء دراسة كتاب ((معترك الأقران)) الذي هو موضوع الرسالة .

المقارنة بين الكتابين :

إذا قورنت بعض أوجه الإعجاز المذكورة في ((المعترك)) بما في ((الإتقان)) يتضح أن الإمام السيوطيّ يسلك في نقله عن ((الإتقان)) عدة مسالك ، هي :

أولاً : النقل المجرد :

حيث ينقل السيوطيّ المبحث بكامله من ((الإتقـان)) إلى ((المعـترك)) دون أن يتصرف فيه ، وذلك في الوجوه التالية :

١ – الوجه الثاني عشر من وجـوه الإعجـاز في ((المعـترك)) وهـو : إفـادة حصـره واختصاصه[١] .

٢ – والوجه الرابع عشر ، وهو : عموم بعض آياته وخصوص بعضها[٢] .

٣ – والوجه السادس عشر ، وهو : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه[٣] .

٤ – والوجه الرابع والعشرون ، وهو : تشبيهه واستعاراته[٤] .

٥ – والوجه الخامس والعشرون ، وهو : وقوع الكناية والتعريض[٥] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ١٨١ – ١٩٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٩ – ٥٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٦ – ١٨ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٤ – ٢٢٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣١ – ٣٢ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ – ٢٨٦ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٢ – ٤٧ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ – ٢٩٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٤٧ – ٤٩ .

٦ - والوجه السادس والعشرون ، وهو : إيجازه في آية وإطنابه في أخرى[١] .

٧ - والوجه الحادي والثلاثون ، وهو : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة[٢] .

٨ - والوجه الثالث والثلاثون ، وهو : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها[٣] .

ثانياً : النقل مع التصرف اليسير :

قد ينقل السيوطيّ - رحمه الله تعالى - المبحث كاملا من ((الإتقان)) لكنه يتصرف فيه تصرفاً يسيراً في أول المبحث أو أثنائه ، وذلك نحو :

١- الوجه الأول من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران)) وهو ((العلوم المستنبطة منه))[٤] ، فقد أتى السيوطي - رحمه الله تعالى - بهذا المبحث في ((الإتقان)) في النوع الخامس والستين بعنوان : ((في العلوم المستنبطة من القرآن)) .

وقد تصرف في النقل من ((الإتقان)) على النحو الآتي :

١- أضاف كلماتٍ يسيرةً في أول البحث المنقول من ((الإتقان)) فقال :

((كيف لا وقد احتوى على علوم ومعارفَ لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحدٌ في كلمات قليلة وأحرف معدودة))[٥].

ثم استمر الكلام نقلا حرفياً لا يختلف إلا في آية كاملة هنا وناقصة هناك ، أو في تحريف في ((الإتقان)) مستدركٍ في ((المعترك)) - وهو في كلمة واحدة فقط - أو في تقديم كلمة وتأخير أخرى .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ - ٣٧٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٥٣ - ٧٥ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ - ٤٧١ ، و ((الإتقان)) : ٢/ ١٣١ - ١٣٣ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ - ٥١١ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٤٥ - ١٥١ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/١٤-٢٧ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٢٥-١٣١ .

٥- ((المعترك)) : ١ / ١٤ .

٢ - ثم إن السيوطي - رحمه الله تعالى - في نهاية هذا النوعِ المنقول من ((الإتقان)) نقل أربعة أقوال لأربعة من الأئمة أثبت أطولها في ((المعترك)) وحذف الباقي منها[١] .

كان ذلك مثالاً على تصرفه اليسير في نقله من ((الإتقان)) إلى ((المعترك)) ويقاس عليه باقي المواضع ، وهي :

١ - الوجه الثاني ، وهو : حسن تأليفه والتئام كَلِمه[٢] .

٢ - والوجه الرابع ، وهو : مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض[٣] .

٣ - والوجه السابع ، وهو : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات[٤] .

٤ - والوجه الخامس عشر ، وهو : ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة[٥] .

٥ - الوجه السابع والعشرون ، وهو : وقوع البدائع البليغة فيه[٦] .

٦ - والوجه الثامن والعشرون ، وهو : احتواؤه على الخبر والإنشاء[٧] .

٧ - والوجه التاسع والعشرون ، وهو : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتوكيدها[٨] .

٨ - والوجه الثلاثون ، وهو : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة[٩] .

١- انظر ((المعترك)) : ١ / ٢٤ - ٢٥ ، و قارنه بما في ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٩ أول الصفحة - السطر الرابع - حيث قال : وقال ابن جرير ، ثم : وقال علي بن عيسى - السطر السادس - ثم قال : شيذلة - السطر العاشر - ثم عاد في منتصف صفحة ١٣٠ للنقل إلى ((المعترك)) إلى آخر النوع .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢٧-٥٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١١٨-١١٩ ، ٩٦-١٠٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٥٤-٧٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٠٨-١١٤ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٩٤-١٠٨ ، و ((الإتقان)) : ٢٧-٣١ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢١٧-٢٢٤ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٨-٢٠ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٣٧٣-٤٢٠ ، و ((الإتقان)) : ٢/٨٣-٩٦ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٢٠-٤٤٩ ، و ((الإتقان)) : ٢/٧٥-٨٣ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٤٩-٤٥٥ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٣٣-١٣٥ .

٩- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٥٦-٤٦٣ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٣٥-١٣٧ .

٩ - والوجه الثاني والثلاثون ، وهو : ما فيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف[١] .

ثالثاً : النقل مع التصرف الكثير :

قد يورد السيوطيّ المبحث من ((الإتقان)) لكنه يتصرف فيه بتقديم بعض فصوله وتأخيرِ بعضها ، وقد يزيد بعض العبارات في ((المعترك)) فتبلغ صفحة أو أكثر ، وقد يبسط المبحث في ((الإتقان)) ، لكن تبقى عبارات ((المعترك)) منقولة بنصها تقريباً من ((الإتقان)) ، إذا استثنيت الزيادة الواردة في ((المعترك)) ، وذلك نحو :

١ - الوجه الخامس من وجوه الإعجاز في ((المعترك)) ، وهو :

((افتتاح السور وخواتيمها))[٢]

فقد نقله من ((الإتقان)) حيث جاء فيه هذا المبحثُ مفرقاً على نوعين : ((النوع الستون : في فواتح السور)) ، و ((النوع الحادي والستون : في خواتم السور)) ، ثم قدّم في المباحث المنقولة وأخر فيها وزاد بعض العبارات في ((المعترك)) ليستقيم المنقول ، وتفصيل ذلك على الوجه الآتي :

أولاً : بدأ هذا الوجه في ((المعترك)) بقوله :

((وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين ، وهو أن يتأنقّ في أول الكلام ...)) ، ثم أخذ في الكلام على هذا الوجه في نحو صفحة متفقاً مع ما في ((الإتقان))[٣] مع تصرف يسير في العبارات ، ثم افترق مافي ((المعترك)) عما في ((الإتقان)) حيث

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٧٢-٤٨٣ ، و ((الإتقان)) : ٢/١٦٠-١٦٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٤ - ٨٥ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ - ١٠٨ .

٣- ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٦ منتصفَ الصفحة تقريباً .

نقل من ((الإتقان)) النوع الحادي والستين وهو ((خواتم السور)) مع زيادة عليها في ((المعترك))[1] .

ثانيــاً : عاد بعد ذلك إلى النقل مـن النـوع الستين مـن ((الإتقـان)) حيـث نقـل حديثاً من ((شعب الإيمان)) للبيهقيّ - رحمه اللـه تعالى[2] - واستمر هذا النقل إلى آخر النوع الستين .

ثالثــاً : أخذ بعد ذلك في الكلام على ((فواتح السور)) فنقل مافي النوع الســتين مـن بدايتـه إلى أن أتـى علـى بيتـين مــن الشـعر[3] ، ثـم أضـاف - علـى مـافي ((الإتقان)) - قرابة صفحتين خاتماً بها الكـلامَ علـى هـذا الوجـه الـذي عـدّه مـن الإعجاز في ((المعترك)) .

وهكذا فإن الإمام السيوطيّ - رحمه اللـه تعالى - قدّم وأخر في بعض مباحث ((الإتقان)) جامعـاً بـين نوعـين مـن أنـواع علـوم القـرآن ، وأضـاف إليهـا إضافـة متوسطة بين الطول والقِصَر ، وأودع كل ذلك في ((المعــترك)) وجهـاً مـن أوجـه الإعجاز .

والأمثلة الباقية على هذا الصنيع المذكور هي :

١ - الوجه السادس وهو : مشتبهات آياته[4] .

١- وهذه الزيادة هي في : ١ / ٧٧ تحت عنوان المحقق : ختم القرآن بالمعوذتين .

٢- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٦ (ثلث الصفحة الأخير) - ١٠٧ ، و ((المعترك)) : ١ / ٧٨ - ٧٩ .

٣- انظر ((المعترك)) : ١ / ٧٩ : تحت عنوان المحقق : (في فواتح السور) - ٨٢ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ - ١٠٦ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ - ٩٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٠٥ - ١٠٨ .

٢ – والوجه الثامن ، وهو : وقوع ناسخه ومنسوخه[١] .

٣ – والوجه العاشر ، وهو : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[٢] .

٤ – والوجه الحادي عشر ، وهو : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع[٣] .

٥ – والوجه الثالث عشر ، وهو : احتواؤه على جميع لغة العرب[٤] .

٦ – والوجه السابع عشر ، وهو : وجوه مخاطباته[٥] .

٧ – والوجه الثالث والعشرون ، وهو : وقوع الحقائق والمجاز فيه[٦] .

رابعاً : النقل مع البسط النسبيّ :

قد يجيء الوجه من وجوه الإعجاز مختصراً في ((الإتقان)) فيورده السيوطيّ في ((المعترك)) مبسوطاً بالنسبة إلى ما في ((الإتقان)) نحو **الوجه الثامن عشر وهو : ((ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات))**[٧] حيث جاء الكلام على المُغيّبات في ((الإتقان)) ضمن النوع الرابع والستين وهو ((في إعجاز القرآن)) حيث قال ناقلاً عن غيره :

((وقال قوم : وجه إعجازه ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة و لم يكن ذلك من شأن العرب ...)) في أربعة أسطر .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ – ١٣٦ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٢٠ – ٢٧ .
٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦١ – ١٧٠ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٧٥ – ٨٢ .
٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٧١ – ١٨٠ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣ – ١٦ .
٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ – ٢٠٧ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٣٣ – ١٣٧ .
٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٩ – ٢٣٩ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣٢ – ٣٥ .
٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٢٦٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٣٦ – ٤٢ .
٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٠ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١١٨ .

لكن الكلام على المُغيّبات في ((المعترك)) جاء وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهو ((ما انطوى عليه من الإخبار بالمُغيَّبات)) ، حيث مثل لبعض أخبار الغيب الواردة في القرآن فكانت كما أخبر الله تعالى ، وذلك كالغيب الحاضر أو المستقبل .

وهذا الوجه الذي عدّه السيوطيّ من الإعجاز هو مختصر في ((المعترك)) لكنه مبسوط إذا قُورن بما في ((الإتقان)) .

وأوجه الإعجاز في ((المعترك)) المنقولة من ((الإتقان)) على هذا النحو هي :

١ - الوجه الثاني من وجوه الإعجاز في ((المعترك)) وهو : ((كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان))[١] .

٢ - والوجه التاسع عشر ، وهو : ((إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة))[٢] .

٣ - والوجه العشرون ، وهو : ((روعته وهيبته))[٣] .

٤ - والوجه الحادي والعشرون ، وهو : ((أن سامعه لا يمجه وقارئه لا يمله))[٤] .

خامساً : النقل مع الاختصار :

قد يجيء الوجه من وجوه الإعجاز مطوّلاً في ((الإتقان)) فيورده السيوطيّ في ((المعترك)) مختصراً ملخصاً ، وقد يزيد عليه ألفاظاً ؛ وذلك نحو :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ - ٢٤٢ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٢ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ - ٢٤٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢١ ، ١٢٣ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٢٣ .

١ - **الوجه التاسع ، وهو : انقسامه إلى محكم ومتشابه**[١] ، حيث اختصر ما في ((الإتقان)) على النحو الآتي :

أولاً : اختصر الكلام على تعريف المحكم والمتشابه ، وكلام الأئمة في أنواعه[٢] .

ثانياً : اختصر الكلام على قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[٣]

حيث قال :

((وقد أكثر [بعض][٤] الناس في جواب هذه الآية حتى أنهاه إلى عشرين ، حذفناها للإطالة))[٥] .

وقد حكى بعض هذه الأقوال في ((الإتقان))[٦] .

ثالثاً : اختصر الكلام على الحروف المقطعة أوائل السور بينما توسع في الكلام عليها في ((الإتقان))[٧] .

ومثال هذا الصنيع أيضاً - وهو النقل مع الاختصار - كلامه على الوجه الرابع والثلاثين من الأوجه التي عدَّها معجزةً في ((المعترك)) و هو : ((احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب)) الذي لخصه من ((الإتقان))[٨] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٦١ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٢-١٣ .

٢- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ٢ - ٦ ، و ((المعترك)) : ١ / ١٣٦ - ١٤٦ مع ملاحظة أن في ((المعترك)) صفحاتٍ مدرجة خارجة عن موضوع المحكم والمتشابه وهي الصفحات من بعد ص ١٣٨ إلى صفحة ١٤٣ .

٣- سورة طه : آية ٥ .

٤- زيادةٌ متعينة ليستقيم المعنى .

٥- ((المعترك)) : ١ / ١٤٨ .

٦- ((الإتقان)) : ٢ / ٦ - ٧ .

٧- انظر ((المعترك)) : ١ / ١٥٥ - ١٥٨ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ٨ - ١٢ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ - ٥١٤ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٧ - ١٤٥ .

وبهذا ينتهي الكلام على الأوجه الأربعة والثلاثين التي في ((المعترك)) وهي منقولة من الإتقان – على ما بينته من أوجه النقل – عدا الوجه الثاني والعشرين كما بينت سابقاً[١] .

أما الوجه الخامس والثلاثون من أوجه الإعجاز في ((معترك الأقران)) – أكبر الأوجه في الكتاب – فهو لم يأت بتمامه في ((الإتقان)) ولكن ورد فيه بعض النصوص التي نقلها إلى ((المعترك)) ، وطريقة النقل كالتالي :

أولاً : نصوص نقلها حرفيّاً ، منها :

أ – في فصل الهمزة من الوجه الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز في ((المعترك)) نقل أسماء الأنبياء من ((الإتقان)) نقلاً حرفياً[٢] .

ب – نقل أسماء القرآن تحت قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [٣] في ((المعترك)) من ((الإتقان)) نصاً[٤] .

ج – وأورد آخر الكتاب فصلاً كاملاً كبيراً من ((الإتقان)) نقله بنصه وهو ((قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها))[٥] .

ثانياً : نصوصٌ تصرف في نقلها :

أورد السيوطيّ في ((المعترك)) نقولاً من ((الإتقان)) في هذا الوجه – الوجهِ الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز – أوردها بتصرف يسير وزيادات يسيرة ، فمنها :

ما جاء تحت قوله تعالى ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ فقد أورد فصل (نزول القرآن) من

١- انظر ص ٢٣٢ – ٢٣٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٩ – ٥٢٣ ، و ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٧ – ١٤٠ .

٣- سورة يوسف : آية ١١١ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٩٤ – ٣٠٣ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٥٠ – ٥٢ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ٣/ ٥٧٤ – ٦٢٢ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٨٦ – ٢٠٠ .

((الإتقان))[1] .

ثالثاً : نصوص اختصرها :

وقد يأتي مافي ((الإتقان)) مطوَّلاً فيختصره في ((المعترك)) ، فمن ذلك :

(أ) تحت قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ لخص آداب قراءة القرآن من ((الإتقان))[2] .

(ب) تحت قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ لخص ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة[3] .

(ج) تحت قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ لخص أسماء السور مع زيادة يسيرة[4] .

هذا عدا أَخْذِه مما جاء في ثنايا ((الإتقان)) - مما لايندرج تحت طرق النقل المذكورة آنفاً - ففرّقه في ((معترك الأقران)) في الوجه الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز .

وهذا الوجه هو أعظم أوجه الكتاب وأكبرها على الإطلاق وسيأتي وصفه - إن شاء الله تعالى - عند دراسة الكتاب[5] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٠٢ - ٢١٨ ، و((الإتقان)) : ١ / ٣٩ - ٤٥ ، والآية من سورة الدخان : ٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٢٣ - ١٣١ ، و ((الإتقان)) : ١ / ١٠٤ - ١١١ ، والآية من سورة المزمل : ٤ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٤٣ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٣٤ - ٣٥ ، والآية من سورة التحريم : ٤ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٣٦ - ٢٤٦ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٥٢ - ٥٤ ، والآية من سورة الحجر : ٨٧ .

٥- انظر ص ٣٩٨ ومابعدها من هذه الرسالة .

والوجه الذي لم يأت في ((الإتقان)) هو الوجه الثاني والعشرون وهو ((تيسيره - تعالى - حفظه وتقريبه)) ، وهو وجه قصير لا يتعدّى صفحتين من المطبوع[١] .

وهناك **ملاحظتان** أُخريان في نقل الإمام السيوطيّ من ((الإتقان)) ، وهما :

أولاً : قد أفرد السيوطيّ في ((الإتقان)) مبحثاً خاصاً في إعجاز القرآن - كما ذكرت سابقاً[٢] - وهو النوع الرابع والستون[٣] ، ذكر فيه من ألف في الإعجاز ، ثمّ عرف الإعجاز تعريفاً موجزاً ، ثمّ أورد أوجه الإعجاز عند الأئمة الذين سبقوه دون أن يرجح واحداً من تلك الأقوال ، ثم أورد تنبيهاتٍ متفرقةً ذكر فيها قدر المعجز من القرآن ، وتفاوتَ القرآن في الفصاحة ، والحكمةَ في تنزيه القرآن عن الشعر ، إلى غير ذلك من التنبيهات والمباحثِ .

والعجب أن الإمام لم يورد هذا النوعَ من علوم القرآن - وهو النوع الرابع والستون - لم يورده في ((معترك الأقران)) إلا على وجه الإشارة والإيجاز مع أنه عظيم التعلقِ بموضوع الكتاب ، خاصة أنه قد أورد في ((المعترك)) أنواعاً كثيرة لا تعلّقَ لها بموضوع الكتاب أصلاً كما سأبين ، إن شاء الله تعالى ، بالتفصيل عند دراستي للكتاب موضوعِ البحث[٤] .

الملاحظة الأخرى :

قد أورد السيوطيُّ رحمه الله تعالى - في ((الإتقان)) نوعاً من أنواع علوم القرآن ، وهو النوع الخامس والسبعون : ((في خواصّ القرآن))[٥] كان حرياً أن يورده في

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦ .

٢- انظر ص ٢٣٢ .

٣- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١١٦ - ١٢٥ .

٤- انظر ص ٣٣٩-٣٤٠ من هذه الرسالة .

٥- انظر ((الإتقان)) : ٢ / ١٦٣ - ١٦٦ .

((معترك الأقران)) لما له من عظيم التعلق بموضوع الإعجاز لأنه ذكر فيه خاصية آيات القرآن في شفاء الأمراض وقضاء الديون وإذهاب الهم والحزن إلخ ...

وكل ذلك له تعلق بإعجاز القرآن وهو من البراهين الدالّة على صحته .

وأقول : كان حرياً به أن يورد هذا النوع في ((المعترك)) لأنه أورد فيه أوجهاً لا تعلق لها بموضوع الإعجاز ، وهذا النوع المتروك ألصقُ بالإعجاز من غيره ، والله أعلم .

وبعد المقارنة بين ما جاء ((المعترك)) بما جاء في ((الإتقان)) من مباحث يتبين جلياً أمران :

الأول منهما : أن الباحث لا يستطيع الحكم الشافي على مذهب السيوطيّ في الإعجاز إلا بضميمة ((المعترك)) مع ((الإتقان)) بحيث يتكاملان وتظهر من ذلك النظرة الكلية للسيوطيّ - رحمه الله تعالى - في إعجاز القرآن العظيم .

الآخر : أن مادة كتاب ((معترك الأقران)) مستقاة - في أكثرها - من كتاب ((الإتقان)) .

قد أطنبت في المقارنة بين ((الإتقان)) و ((المعترك)) لأن ذلك مطلوب في هذا المبحث ، ولأن هذا الإطناب مفيد في بعض المباحث القادمة كمبحث تحقيق عنوان الكتاب[1] .

١- انظر ص ٢٧٠ ومابعدها .

ثانياً : كتاب ((أسرار ترتيب القرآن)) أو ((تناسق الدرر في تناسب السور))[1] :

قد ذكر السيوطيّ في ((معترك الأقران)) في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز – وهو : ((مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض)) – ذكر أنه قد أفرد فيه تأليفاً باسم ((تناسق الدرر في تناسب السور))[2] لخصه من تأليف له آخر يسمّى ((أسرار التنزيل))[3] .

وقد جاء كتاب ((تناسق الدرر)) متوسطاً بين الإيجاز والإطناب ، وأورد فيه السيوطيّ المناسبات بين السور على ترتيبها في المصحف .

وإنما سُقت هذا الكتاب في مصنفات السيوطيّ في الإعجاز لأن السيوطيّ نفسَه – رحمه الله تعالى – اعتمد المناسبة بين السور وجهاً من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران)) ، وسيأتي ذكر ذلك ومناقشته في الباب الثالث[4] ، إن شاء الله تعالى .

١- سمى السيوطيُّ – رحمه الله تعالى – كتابه بهذين الاسمين – كما جاء في مقدمة الكتاب ، وقد طُبع الكتاب مرتين بكلا الاسمين و المحقق واحد ؟ !! والعجيب أن ((تناسق الدرر)) قد طبع في دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٦ لأول مرة ، بينما طبع الكتاب نفسه باسم أسرار ترتيب القرآن سنة ١٣٩٨ للمرة الثانية في دار الاعتصام بالقاهرة ، ومقدمة المحقق متشابهة في كلا الطبعتين بل في طبعة دار الكتب العلمية صفحات منقولة من مقدمة طبعة الاعتصام ، والعجيب أنه في مقدمة طبعة دار الكتب العلمية ذكر المحقق الكتاب باسم ((تناسق الدرر)) حتى إذا جاءت صفحة ٥١ وهي بداية الكتاب المحقق كُتب فيها عنوان الكتاب : ((أسرار ترتيب القرآن)) ؟ ! ! فلا أدري من هو وراء هذا التلاعب ؟ !

٢- انظر ((المعترك)) : ١ / ٥٥ .

٣- وهذا الكتاب له اسم آخر وهو : ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) ، وقد طُبع هذا الكتاب في قطر ، انظر فهرس المصادر والمراجع .

٤- انظر ص ٣٥٢ ومابعدها .

ثالثاً : كتاب ((الإكليل في استنباط التنزيل))[1] :

هذا كتاب جمع فيه الإمام السيوطيّ استنباطاتِ الأئمة للمعاني الكثيرة من آيات القرآن الكريم ، وجمع فيه - أيضاً - استنباطاتِه واستخراجاتِه لهٰذه المعاني ، وهو ليس كتاباً في الإعجاز ولكنّ السيوطيّ ذكر في مقدمة الكتاب اشتمال القرآن الكريم على العلوم الدينيّة والأخرويّة ، وهو عند السيوطيّ نوعٌ من أنواع الإعجاز ، حيث إن مقدمة كتاب ((الإكليل)) تكاد تكون هي بنصها الوجهَ الأول من وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران))[2] .

وسوف أناقش - إن شاء الله تعالى - كونَ ذلك من الإعجاز أم لا في الفصل الأول من الباب الثالث [3] .

١- الكتاب مطبوع متداول بتحقيق الأستاذ سيف الدين الكاتب ، طبع دار الكتب العلميّة ، وهو الآن يحقق في رسالة ((دكتوراه)) للشيخ عامر العرابيّ في جامعة أم القرى .

٢- انظر ((الإكليل)) : ١١ - ٢٣ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ - ٢٧ .

٣- انظر ص ٣٤٥ ومابعدها من هذه الرسالة .

رابعاً : ((التحبير في علم التفسير)) :

هذا كتاب متوسّط الحجم – في علوم القرآن – ألّفه السيوطيّ قبل أن يؤلف كتابه ((الإتقان))[1] ثم توسع في ((الإتقان)) توسعاً عظيماً فكان كتاب ((التحبير)) كالأصل لكتاب ((الإتقان)) .

وقد سرد في ((التحبير)) أنواعاً من علوم القرآن أوردها في ((معترك الأقران)) أوجهاً من وجوه الإعجاز – ولهذا ذكرت هذا المؤلَّفَ – ((التحبيرَ)) – ضمن مؤلّفات السيوطيّ في الإعجاز وإلا فالحقُّ أن كثيراً مما أورده في ((المعترك)) لايعد من الإعجاز – كما سأبين ذلك إن شاء الله حال دراستي للكتاب[2] – وهاهي الأنواع التي ذكرها في ((التحبير)) مختصرةً وقد وردت في ((معترك الأقران)) أوجهاً من وجوه الإعجاز مفصّلةً مطوّلةً :

١ – النوع الأربعون : المُعرَّب[3] .

٢ – النوع الحادي والأربعون : المجاز[4] .

٣ ، ٤ – النوع الرابع والأربعون والخامس والأربعون : المحكم والمتشابه[5] .

٥– النوع السادس والأربعون : المشكل[6]

٦ ، ٧ – النوع السابع والأربعون والثامن والأربعون : المجمل والمبيّن[7] .

٨ – النوع التاسع والأربعون : الاستعارة[8] .

٩ – النوع الخمسون : التشبيه[9] .

١- انظر مقدمة محقق كتاب ((التحبير)) : ١٢ – ١٣ ، ومقدمة ((الإتقان)) : ١ / ٤ – ٥ فقد سرد فيها أنواع علوم القرآن التي أوردها في ((التحبير)) وذكر سنة تأليف كتاب التحبير وهي سنة ٨٧٢ .

٢- انظر ص ٣٣٩ – ٣٤٠ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ – ٢٠٦ ، و ((التحبير)) : ٢٠٠ – ٢٠٢ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٢٦٨ ، و ((التحبير)) : ٢٠٣ – ٢١٣ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ – ١٦١ ، و ((التحبير)) : ٢١٨ – ٢٢٠ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٤ – ١٠٨ ، و ((التحبير)) : ٢٢١ – ٢٢٣ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢١٧ – ٢٢٤ ، و ((التحبير)) : ٢٢٤ – ٢٢٥ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ – ٢٨٦ ، و ((التحبير)) : ٢٢٦ – ٢٢٩ .

٩- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢٦٩–٢٨٦ ، و ((التحبير)) : ٢٣٠ – ٢٣١ .

١٠ ، ١١ – النوع الحادي والخمسون والثاني والخمسون : الكناية والتعريض[١] .

١٢ – النوع الثالث والخمسون : العام الباقي على عمومه[٢] .

١٣ – النوع الرابع والخمسون والخامس والخمسون : المخصوص والذي أريد به الخصوص[٣] .

١٥ ، ١٦ – النوع السادس والخمسون والسابع والخمسون : ماخصّ فيه الكتاب السُّنّةَ وما خصت فيه السنة الكتاب[٤] .

١٧ – النوع الثامن والخمسون : المؤوّل[٥] .

١٨ – النوع التاسع والخمسون : المفهوم[٦] .

١٩ ، ٢٠ – النوع الثاني والستون والثالث والستّون : الناسخ والمنسوخ[٧] .

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ – النوع السادس والستون والسابع والستون والثامن والستون : الإيجاز والإطناب والمساواة[٨] .

٢٤ – النوع التاسع والستون : الأشباه[٩] .

٢٥ – النوع الثاني والسبعون : القَصْر[١٠] .

٢٦ – النوع الثالث والسبعون : الاحتباك[١١] .

٢٧ – النوع الرابع والسبعون : القول بالموجب[١٢] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ – ٢٩٣ ، و ((التحبير)) : ٢٣٢ – ٢٣٤ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٣٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٢٠٧-٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٣٦ – ٢٣٩ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ – ٢١٧ ، و ((التحبير)) : ٢٤٠ – ٢٤٢ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٥٣ – ٢٥٤ ، و ((التحبير)) : ٢٤٣ – ٢٤٤ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٤ – ٢٢٨ ، و ((التحبير)) : ٢٤٥ – ٢٤٨ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ – ١٣٦ ، و ((التحبير)) : ٢٥١ – ٢٦٠ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ – ٣٧٣ ، و ((التحبير)) : ٢٦٤ – ٢٧٠ .

٩- أي الآيات المتشابهة ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ – ٩٤ ، و ((التحبير)) : ٢٧١ – ٢٧٣ .

١٠- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ – ١٩٤ ، ٣٠٤ ، و ((التحبير)) : ٢٧٨ – ٢٨١ .

١١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٢٣ ، وقد حُذِف أول هذا النوع بالخلط الطباعيّ الذي حصل في الصفحات وسأشير إلى ذلك في الدراسة إن شاء الله ، وانظر ((التحبير)) : ٢٨٢ – ٢٨٤ .

١٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦١ – ٤٦٢ ، و ((التحبير)) : ٢٨٥ – ٢٨٦ .

٢٨ - النوع الخامس والسبعون : المطابقة[١] .

٢٩ - النوع السادس والسبعون : المناسبة[٢] .

٣٠ - النوع السابع والسبعون : المجانسة[٣] .

٣١ ،٣٢ - النوع الثامن والسبعون والتاسع والسبعون : التورية والاستخدام[٤] .

٣٣ - النوع الثمانون : اللفّ والنشر[٥] .

٣٤ - النوع الحادي والثمانون : الالتفات[٦] .

٣٥ - النوع الثاني والثمانون : الفواصل والغايات[٧] .

٣٦ - النوع السادس والثمانون : مفردات القرآن[٨] .

٣٧ - النوع السابع والثمانون : الأمثال[٩] .

٣٨، ٣٩ - النوع الثامن والثمانون والتاسع والثمانون : آداب القارئ والمقرئ[١٠] .

٤٠ - النوع الخامس والتسعون : تسمية السور[١١] .

٤١ - النوع السابع والتسعون : الأسماء[١٢] .

٤٢ ، ٤٣ - النوع الثامن والتسعون والتاسع والتسعون : الكنى والألقاب[١٣] .

٤٤ - النوع المائة : المبهمات[١٤] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤١٤ - ٤١٥ ، و ((التحبير)) : ٢٨٧ - ٢٨٨ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤١١ - ٤١٢ ، و ((التحبير)) : ٢٨٩ - ٢٩١ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٩٩ - ٤٠٢ ، و ((التحبير)) : ٢٩٢ - ٢٩٥ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ٣٧٤ - ٣٧٧ ، و ((التحبير)) : ٢٩٦ - ٢٩٧ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٠٨ - ٤١٠ ، و ((التحبير)) : ٢٩٨ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٧ - ٣٨٥ ، و ((التحبير)) : ٢٩٩ - ٣٠٢ .

٧- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩ - ٤٨ ، و ((التحبير)) : ٣٠٣ - ٣٠٤ .

٨- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٢ - ٤٨٣ ، و ((التحبير)) : ٣١٠ - ٣١٣ .

٩- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ - ٤٧١ ، و ((التحبير)) : ٣١٤ - ٣١٦ .

١٠- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٢٣ - ١٣١ ، و ((التحبير)) : ٣١٧ - ٣٢٢ .

١١- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٣٦ - ٢٤٦ ، و ((التحبير)) : ٣٦٨ - ٣٧٠ .

١٢، ١٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ - ٥١٤ ، وانظر ((التحبير)) ٣٧٨ - ٣٩٠ .

١٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٤٨٤/١ - ٥١١ ، و ((التحبير)) : ٣٩١ - ٤٣٦ .

خامساً : كتاب ((الخصائص الكبرى)) أو ((كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب)) صلى الله عليه وسلم :

قد أورد السيوطيّ بعض مباحث الإعجاز في كتابه هذا في ثلاثة مواضع :

الموضع الأوّل : باب إعجاز القرآن ، واعتراف مشركي قريش بإعجازه ، وأنّه لايشبه شيئاً من كلام البشر ، ومن أسلم لذلك .

أورد السيوطيّ في هذا البابِ بعضَ الآثار التي ذكرت اتّهام مشركي قريش الرسولَ العظيم – صلى الله عليه وسلم – بالسحر ، وأورد أيضاً بعض الآثار التي تبين عجزهم وانقطاعهم حال سماعهم القرآنَ .

ثمّ أورد فصلاً في إثبات الإعجاز للقرآن ، ذكر فيه عدداً من وجوه الإعجاز : قد ذكرها في ((المعترك)) ، وهي :

١ – ((حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ، ووجوه إعجازه ، وبلاغته الخارقة عادةَ العربِ الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن))[1] .

٢ – ((ومنها صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها))[2] .

٣ – ((ومنها ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ومالم يكن فوجد كما ورد))[3] .

---

١ ، ٢ – انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٨٩ ، ((ومعترك الأقران)) : ١ / ٢٧ – ٥٤ .

٣– انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٠ .

٤ - ((ومنها ما أنبأ به من أخبار القرون الماضية والشرائع السالفة))[١] .

٥ - ومنها ماتضمنه مِن الإخبار عن الضمائر كقوله تعالى :
﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾[٢] [٣] .

٦ - ((ومنها آيٌ وردتْ بتعجيز قوم في قضايا وإعلامِهم أنهم لايفعلونها ، فما فعلوا ولا قدروا : كقوله في اليهود ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[٤] [٥] .

٧ - ((ومنها ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة))[٦] .

٨ - ((ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبةُ التي تعتريهم عند سماع تلاوته))[٧] .

٩ - ((ومنها أن قارئه لا يملُّه ، وسامعه لايمجه))[٨] .

١٠ - ((ومنها كونه آية باقية لا يُعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه))[٩] .

١- انظر ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ ، و ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

٢- سورة آل عمران : آية ١٢٢ .

٣- ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ .

٤- سورة البقرة : آية ٩٥ .

٥- ((الخصائص)) : ١ / ٢٩٠ .

٦- المصدر السابق .

٧- المصدر السابق ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ - ٢٤٤ .

٨- المصدر السابق : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .
والمجّ معناه اللفظ والترك ، انظر ((لسان العرب)) : مجج .

٩- ((الخصائص)) : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

١١ - ((ومنها جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد في كلمات قليلة وأحرف معدودة))[١] .

١٢ - ((ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادين لايجتمعان في كلام البشر غالباً))[٢] .

١٣ - ((ومنها جعلُه آخرَ الكتب غنياً عن غيره ، وجعلُ غيرِه من الكتب المتقدمة قد تحتاج إلى بيان يُرجع فيه إليه ، كما قال تعالى :
﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٣] [٤] .

وهذه الأوجه - كما أشرت في الهامش - مذكورٌ أكثرها بتوسع في كتاب ((معترك الأقران)) .

وقد نقل السيوطيّ - رحمه الله تعالى - الأوجه الأربعة الأولى ، والوجه السادس والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر ، نقل تلك الأوجه بالنص تقريباً من ((شفاء)) القاضي عياض[٥] ، وقد أشار لذلك إشارة مبهمة[٦] .

وأورد الوجه الخامس والثاني عشر والثالث عشر من ((برهان)) الزركشيّ ، نقلاً بالنص مع عدم الإشارة لنقله منه[٧] .

١- المصدر السابق : ١ / ٢٩١ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ - ٢٤ .
٢- ((الخصائص)) : ١ / ٢٩١ .
٣- سورة النمل : آية ٧٦ .
٤- ((الخصائص)) : ١/٢٩١ .
٥- انظر بالترتيب : ((الشفا)) : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ .
٦- انظر ((الخصائص الكبرى)) : ١ / ٢٩١ .
٧- انظر ((البرهان)) بالترتيب : ٢ / ٩٦ ، ١٠٧ .

ثم إن السيوطيَّ - رحمه الله تعالى - فصّل ، في كتاب ((الخصائص)) ، في وجوه إعجاز القرآن بعملية حسابية فبلغت تلك الوجوهُ عشراتٍ من الألوف ، وبيان ذلك أنه قال :

((قال القاضي عياض : إذا عرفت ماذُكر من وجوه إعجاز القرآن عرفتَ أنه لايُحصى عددُ معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر ؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - قد تحدى بسورة منه فعجزوا عنها ، قال أهل العلم : وأقصر السور ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ، فكل آية أو آيات منه بعددها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسها معجزات على ماسبق .

قلت : وإذا عددت كلمات سورة الكوثر وجدتها بضعَ عشرة كلمة ، وقد عد قوم كلمات القرآن سبعاً وسبعين ألف كلمة وتسعمائة وأربعاً وثلاثين ، فالقدر المعجز منه يكون في العدد نحو سبعة آلاف تقريباً[1] تضرب في ثمانية أوجه : الأولان والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر[2] تبلغ ستاً وخمسين ألف معجزة ، ثم ينضم إلى ذلك في بعضه من الوجه الثالث والرابع والخامس والسادس جملة وافرة فتصل معجزات القرآن بذلك إلى ستين ألف معجزة أو أكثر))[3] .

الموضع الثاني[4] :

((باب اختصاصه - صلىّ الله عليه وسلم - بأن كتابه معجز ومحفوظ من التبديل والتحريف على مرّ الدهور ، وجامع لكل شيء ، ومستغنٍ عن غيره ، ومشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب وزيادة ، وميسر للحفظ ، ونزل

١- وذلك بقسمة عدد كلمات القرآن على عدد كلمات سورة الكوثر .

٢- وهي بعضٌ من الأوجه التي أوردها في كتابه ((الخصائص الكبرى)) وذكرتها آنفاً .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ١ / ٢٩٢ .

ولايخفى مافي ذلك من التكلف الذي ينزه عنه إعجاز القرآن ، والله أعلم .

٤- أي من المواضع التي ذكر فيها إعجاز القرآن في كتابه ((الخصائص الكبرى)) .

منجماً[1] ، ونـزل على سبعة أحرف ، ومن سبعة أبواب[2] ، وبكل لغة))[3] .

ثم أتى بطائفة من الآيات والأحاديث والآثار التي تدل على عنوان الباب .

الموضع الثالث :

باب : ((واختصّ بأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة ، وهي القرآن ، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها ، وبأنه أكثر الأنبياء معجزاتٍ ...))[4] .

هذا ماوجدته من الكلام على الإعجاز في كتاب ((الخصائص)) ، والله أعلم .

١- أي مفرقاً ، انظر ((لسان العرب)) : ن ج م .

٢- يشير إلى الحديث : ((نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف : زاجراً ، وآمراً ، وحلالاً ، وحراماً ، ومحكماً ، ومتشابهاً ، وأمثالاً ...)) .

والحديث أخرجه الحاكم وغيره عن ابن مسعود - رضي الله عنه - وقال الحاكم : صحيح الإسناد ووافقه الذهبي ، انظر ((المستدرك)) : ١ / ٧٣٩ .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ٣ / ١٢٧ - ١٣١ .

٤- المصدر السابق : ٣ / ١٣١ .

سادساً : كتاب ((قطف الأزهار في كشف الأسرار))[1] .

هذا كتاب صنّفه الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - لتوضيح أسرار المناسبات بين الآيات بعضها ببعض ، وأسرار المناسبات بين السور أيضاً .

وقد ذكر أن كتابه حوى جميع الأوجه التي قيلت في الإعجاز القرآنيّ ، فقال في ((معترك الأقران)) :
((الوجه الرابع : مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقةَ المعاني ، منتظمة المباني .

وقد ألف علماؤنا في أسرارها تواليف كثيرة ... **وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل** كافل بذلك ، جامع لمناسبات السور والآيات مع ماتضمنه مرتباً من جميع وجوه الإعجاز ، وأساليب البلاغة ، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته : ((تناسق الدرر في تناسب السور))[2]

لكني تصفحت هذا الكتاب - ((قطف الأزهار)) - فلم أجد فيه كلاماً عن وجوه الإعجاز ، إنما قال الإمام السيوطي في مقدمة الكتاب :
((وهذا كتاب ... أذكر فيه جميع ماوصل إلى علمي من كلام العلماء في النظم القرآنيّ : من أسرار التقديم والتأخير ، والتأكيد والحذف ... والنكت البيانية ... وسر ما اختلفت فيه الآيات المتشابهة من تقديم أو تأخير ، أو زيادة أو نقص أو

١- قد سماه بهذا الاسم في ((الإتقان)) : ٢/١١٥ لكن في ((معترك الأقران)) : ١/٥٥ لم يسمه وإنما ذكر موضوعه فقط ، وانظر نص كلامه عنه في متن هذه الصفحة .
واشتهر هذا الكتاب باسم ((أسرار التنزيل)) ، انظر ((دليل مخطوطات السيوطي)) : ٣٠ ، وانظر ((مكتبة الجلال السيوطي)) : ٢٧٦ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١/٥٤-٥٥ .

إبدال كلمة بأخرى ... وأنبه على القرآت المختلفة ... وأبين مناسبة ترتيب السور ، والخفيِّ من مناسبات الآيات إلى غير ذلك من النكت والأسرار))[1] .

هذا و لم أجد في الكتاب كلاماً على أوجه الإعجاز ، والكتاب لم يتمه مصنفه إنما وصل فيه إلى أثناء سورة التوبة فقط[2] ، فلعله أراد الكلام على وجوه الإعجاز في مظانها من سورة يونس وهود والإسراء .

١- ((قطف الأزهار)) : ١/٩٥-٩٨ .

٢- انظر مقدمة تحقيق ((قطف الأزهار)) : ١/٨٥ .

سابعـا : كتاب ((مُفحِمات الأقران في مبهمات القرآن)) :

قـد ذكـر السيـوطي ، رحمـه اللـه تعالى ، في ((معترك الأقران)) في الوجـه الثالث والثلاثين من وجوه إعجازه - وهـو : ورود آيـات مبهمـة يحار العقل فيها - ذكر أن لـه تأليفـاً لطيفـاً في هذا الموضوع[1] ، وتأليفه الـذي أشـار إليـه هـو كتـاب ((مُفحِمـات الأقـران)) أورد فيـه جميـع مبهمـات الأشخـاص والأماكـن والأزمنـة والحيوانات إلخ ... مرتبة على سور القرآن الكريم .

والسيـوطيّ - رحمــه اللـه تعــالى - قـد لخــص الكــلام على المبـهمـات فـي ((المعترك)) مـن كتابـه ((مُفْحِمـات الأقــران في مبهمـات القـرآن)) عـلى النحـو التالي :

أولاً : نـقـل أسـبـاب الإبهــام إلـى ((المعترك)) نقــلاً حرفيــاً مـن ((مفحمــات الأقران))[2] .

ثانياً : أورد في ((المعترك)) بحثاً موضوعه : هل يُبحث عن المبهـم أم لا ؟ أورده بالنص من ((مفحمات الأقران))[3] .

ثالثاً : ثم إنه ذكــر بعــض ما أُبهـم فـي القـرآن ملخصاً مـن كتــاب ((مفحمات الأقران))[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ - ٤٨٥ ، و ((مفحمات الأقران)) : ٩ - ١٠ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٥ - ٤٨٦ ، و ((مفحمات الأقران)) : ٨ (الفقرة الثالثة) - ٩ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٦ - ٥١٠ ، و ((مفحمات الأقران)) : ١٠ - ١٢٣ .

وأنا لاأوافقه على ماصنعه من إيراد المبهمات وجهاً من أوجه الإعجاز ، كما سأبين ذلك في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى[1] .

هذا ماوجدته من آثار السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في إعجاز القرآن العظيم مبثوثاً في كتبه ، وكثير منها لايعد من الإعجاز ، كما أسلفت ، والله أعلم .

١- انظر ص ٣٩٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

المبحث الرابع : منزلته العلمية ، وأقوال العلماء فيه ، وتحقيق ذلك :

الإمام السيوطيّ إمام كبير من أئمة العلم - رحمه الله تعالى - ويكفي أنه صنّف في علوم شتى مبسوطاتٍ وكتباً استفاد منها العلماء قديماً وحديثاً غاية الاستفادة ، ويكفي - أيضاً - أن كثيراً منها هو من الأصول التي تقوم عليها الدراسات العليا في فروع متنوعة من العلوم الشرعية والعربية ، نحو ((الإتقان في علوم القرآن)) و ((الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور)) ، و ((تدريب الراوي شرح تقريب النواويّ)) في علوم الحديث ، و ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) إلخ ...

وهذه الكتب - ومثيلاتها من كتبه - مطبوعة متداولة مشهورة .

وقد حفظ الله سبحانه وتعالى بكتبه كثيراً من العلم ؛ فكم من كتاب قد فقد أو هو في حكم المفقود الآن قد ضمّنه السيوطيّ أحدَ كتبه الكثيرة .

وقد كان لتأخر زمن السيوطيِّ - رحمه الله تعالى - أثرٌ مهم في جمعه وتمحيصه لأقوال أئمة العلمِ واعتنائه بها ، وهي مِيزةٌ ظاهرةٌ في جميع كتب السيوطيِّ المتداولة تقريباً ، وإذا عُدّ السيوطيّ آخر الأئمة الحفاظ الكبار - وهذا هو الصحيح[1] - فإننا ندرك بهذا أهمية كتبه ورجاحتها في ميزان النقد العلميِّ .

ويبقى الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - بعد هذا كلِّه بشراً يصيب ويخطئ كما يصيب البشر ويخطئون ، وهو بهذا لم يخرج عن سَنن العلماء ، ولم يَحِد عن نهج الفضلاء الكبراء ، ولَعَمْر الحقِّ إنه لأحد فحول العلماء

---

١ - لأن من جاء بعده - ومن أبرزهم شيخ الإسلام المعمَّر زكريّا الأنصاري (ت ٩٢٦) - لم يبلغوا ، والله أعلم ، مبلغَه في العلم ، ولاأحاطوا به حِياطةَ السيوطي رحمهم الله تعالى .

المتأخرين ، وأين مثله اليوم في اتساع دائرته في العلم وإحاطته بجملة وافرة من علوم الشرع وعلوم عصره الأخرى ؟ رحمه الله تعالى ورضي عنه .

وقد امتدحه كثير من العلماء والفضلاء وأثنوا عليه وأقروا له بالعلم والإمامة[1] .

لكنّ العالم لايسلم من النقد خاصة من أقرانه ((فإنّ السخاويّ[2] في ((الضوء اللامع))[3] - وهو من أقرانه - ترجمه ترجمة مُظلمة غالبها ثَلْبٌ فظيع ، وسبٌّ شنيع ، وانتقاصٌ وغَمْطٌ لمناقبه تصريحاً وتلويحاً))[4] .

((وهو غير مقبول عليه لما عرفت من قول أئمة الجرح والتعديل بعدم قبول الأقران[5] في بعضهم بعضاً مع ظهور أدنى منافسة ، فكيف بمثل المنافسة بين هذين الرجلين))[6] .

١- مثل تلميذه الشيخ محمد بن علي الداوديّ ، وعبد الوهّاب الشعراني في ((الطبقات الصغرى)) ، والشيخ محيي الدين العيدروسيّ في ((النور السافر)) ، وابن العماد الحنبليّ في ((شذرات الذهب)) ، ونجم الدين الغزيّ في ((الكواكب السائرة)) ، وغيرهم كثير قديماً وحديثاً .

٢- هو الشيخ الإمام العلامة الرُّحَلة الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاويّ القاهريّ الشافعيّ . ولد سنة ٨٣١ . حفظ القرآن وهو صغير ، وحفظ عدة متون ، وعرضها على مشايخ عصره ، وبلغ من أخذ عنه أكثر من ٤٠٠ شيخ ، واختصّ بشيخ الإسلام ابن حجر وكان يحبه ويُثني عليه . وله مصنفات كثيرة . توفي سنة ٩٠٢ بالمدينة الشريفة بعد مجاورة فيها زمناً .
انظر ((النور السافر)) : ١٦ - ٢١ .

٣- انظر أقوال الإمام السخاوي في الإمام السيوطي في ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٥ - ٧٠ ، وانظر تفنيد الشوكانيّ بعضَ أقوال الإمام السخاويّ في ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٢ - ٣٣٤ .

٤- ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٢٩ .

٥- كذا في المطبوع ، ويتوجه بإضافة (قول) أو نحوه .

٦- ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٣ .
وممن تنقّص السيوطيّ أيضاً من علماء عصره : ابن الكَرَكيّ ، والجوْجريّ ، وأبو النجا بن خلف وغيرهم ، انظر ((الضوء اللامع)) : ٤/٦٩ - ٧٠ .

وقد أدت دعوى السيوطيِّ الاجتهادَ - بالإضافة إلى بعض أشياء أخرى ذكرها السخاويّ[1] - إلى تحامل بعض العلماء عليه وتنقيصِه حقَّه[2] ، وقد ناقشهم السيوطيّ في مواضعَ عديدةٍ من كتبه[3] ، وخصّ للرد عليهم كتابه : ((الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرضٌ))[4].

والتحقيق أن السيوطيَّ - رحمه الله تعالى - خليقٌ بالاجتهاد الذي ادّعاه[5] ، ومن يجتهد إذا لم يجتهد مثل السيوطيّ ؟ لكن الرجل قويُّ الحجة ، سليط اللسان قد نال من خصومه في مواضعَ كثيرة[6] كما نالوا منه ، ولو لاينهم لكان علمُه وقدره موضعَ إجماع من علماء عصره .

كما أن السيوطيّ - والحقُّ يقال - أوسعُ دائرة في العلم من كل من عاصره ، وأكثر تصنيفاً ، وأقوى إدلاءً بحجته ، كما تشهد بذلك آثاره .

وقد كان السخاويّ - رحمه الله تعالى - إماماً عالماً بل يكاد يجاري السيوطيَّ في كثير من فروع العلم والمعرفة ، وإن كان السيوطي - في تقديري - أعلى درجة منه في العلم وأوسعَ معرفة ماعدا علم الحديث فإن السخاويّ قد تفرد

١- تُنظر في ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٥ - ٧٠ .

٢- انظر ((البدر الطالع)) : ١ / ٣٣٤ .

٣- انظر ((مسالك الحنفا)) ضمن ((الحاوي للفتاوى)) : ٤٣٨ - ٤٣٩ ، و ((المقامة اللؤلؤية)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٩٩٦ وما بعدها ، و ((طَرْز العمامة)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٦١٦ وما بعدها .

٤- الكتاب مطبوع متداول .

٥- التزم السيوطي - في اجتهاده - ألا يخرج عن أصول الإمام الشافعيّ - رحمه الله تعالى - فهو ليس اجتهاداً مستقلا ، انظر ((الرد على من أخلد إلى الأرض)) : ١١٦ .

٦- انظر ((الاستنصار بالواحد القهار)) و ((الدوران الفَلَكيّ على ابن الكَرَكيّ)) و ((الفارق بين المصنف والسارق)) و ((الكاوي في تاريخ السخاوي)) ، وغيرها من الردود على علماء عصره في كتاب ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢٢٥ ، ٣٧٠ ، ٨١٨ ، ٩٣٣ على التوالي .

بمعرفة عدد من أنواعه على وجه الكمال خاصّةً علل الحديث ، كما تفرد السيوطيّ بحفظ المتن[1] .

ولعل ذلك مرده أن السيوطيَّ عاش بعد السخاويّ قرابة عشر سنوات ، ولأن السيوطيَّ اعتزل الناس في وقت مبكر وتفرغ للعلم ، كما سيأتي في المبحث القادم ، إن شاء الله تعالى .

وعلى كل حال فإن ماجرى بين الإمام السيوطيّ والإمامِ السخاويِّ وغيرِه إنما مردّه إلى المعاصرة والمنافسة بين الأقران ، وهو مما لاينبغي أن يكون لكن هذه محنة تجري بين الأقران منذ زمن السلف إلى يومنا هذا ؛ وإن ظهرت حادة قاسية بين الإمام السيوطيِّ ومعاصريه .

وقد عادت هذه المنافسةُ على العلم بخير عميم ؛ إذ حرر كلُّ إمام من المتنافسين المتعاصرين كثيراً من مسائله ، وأُلّفت مؤلفات وردود ، وقام كلٌّ منهم بالبحث والتنقير في بطون الكتب والدفاتر ، وانتصر كل فريق لرأيه بالأدلة ، فعاد كل ذلك على الحركة العلمية في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر بخير كبير ، ورُبّ ضارة نافعةٌ .

---

١ - انظر ((النور السافر)) : ١٩ - ٢١ ، ٥٧ ، و ((دليل مخطوطات السيوطيّ)) : ٢١ - ٢٢ .

المبحث الخامس : اعتزاله الفُتيا والتدريسَ ، ووفاته :

كانت حياة الحافظ السيوطي - رحمه الله تعالى - حافلةً بطلب العلم والشَّغَف به ، والتصنيف فيه ، وقد خالط الناس تعلماً وتعليماً وإفتاءً ، وتولى مناصبَ علميةً متوسطة الأهمية ، وهي :

١ - تدريس الحديث بالمدرسة الشيخونية[١] .

وقد قرّره في هذه الوظيفةِ شيخه محمد بن سليمان الكافِيَجي[٢] .

٢ - تولى مشيخة الخانْقاه البيبرسية[٣] .

---

١ - انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ٦٧ .

و (الشيخونية) مدرسة في القاهرة : نسبة إلى الأمير سيف الدين شيخو الناصري ، أحد أمراء المماليك في مصر ، تنقل في الوظائف حتى صار زمام الدولة بيده فساسها أحسن سياسة بسكون وعدم شر فعظم شأنه ، ثم جرت له أمور حُبس من أجلها وامتحن ، ثم أفرج عنه وعادت إليه مكانته وعظمته ، ثم ضرب بالسيف غِيلةً وتأثر من جراحه فمات سنة ٧٥٨ ، رحمه الله تعالى .

انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ .

أما المدرسة المنسوبة إليه فهي ضمن الخانْقاه الذي بناه في القاهرة سنة ٧٥٦ .

والخانْقاه ((كلمة فارسية ، وتعني محلاًّ للتعبد والتزهد والبعد عن الناس ، وبمعنى بيت أيضاً ، دخلت هذه الكلمة العربيةَ منذ انتشر التصوف فهي كالدير في النصرانية)) : ((معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي)): ٦٦.

وقد ذكر المقريزي أن الخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سني الهجرة ، وهي تنطق بالقاف والكاف ، انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٤١٤ .

وهذه الخانْقاه بنيت على مساحة كبيرة وبها حمامان وعدة حوانيت ((يعلوها بيوت لسكنى العامة ، ورتّب بها دروساً عدة منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة ... ودرساً للحديث النبوي ، ودرساً لإقراء القرآن بالروايات السبعة [كذا] وجعل لكل درس مدرساً وعنده جماعة من الطلبة ، وشرط عليهم حضور الدرس وحضور وظيفة التصوف ... ووقف عليها الأوقاف الجليلة فعظم قدرها ... وتخرج بها كثير من أهل العلم ...))

انظر ((المواعظ والاعتبار)) : ٢ / ٤٢١ .

٢ - ((التحدث بنعمة الله)) : ٢٤٤ .

٣- نسبة إلى بانيها الملك المظفر ركن الدين بِيْبَرْس بن عبد الله الجاشنكير المنصوريّ ، السلطان المملوكيّ . أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه . وتنقل في الخِدَم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية ، ثم تولى السلطنة بالديار المصرية سنة ٧٠٨ . وكان مَلِكاً ثابتاً ، كثير السكون والوقار ، جميل الصفات يرجع إلى خير ودين ومعروف . قتل في فتنة سنة ٧٠٩ ، رحمه الله تعالى .

٣ – مشيخة التصوف بتربة برقوق[1] .

٤ – قاضي القضاة في مماليك الإسلام كلها :

وهي وظيفة لم يهنأ بها الإمام السيوطيّ رحمه الله تعالى ، حيث عيّنه ((الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز[2] بوظيفة لم يُسمع بها قطُّ ، وهو أنه جعله على سائر القضاة قاضياً كبيراً يولي منهم من شاء ويعزل من شاء مطلقاً في سائر ممالك الإسلام ، وهذه الوظيفة لم يَلِها[3] قطُّ سوى

= انظر ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٤٦٧ – ٤٧٣ .

وهذه الخانقاه هي ((أجلُّ خانقاه بالقاهرة بنياناً ... بناها الملك المظفّر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوريّ قبل أن يلي السلطنة وهو أمير ، فبدأ في بنائها سنة ٧٠٦ وبنى بجانبها رباطاً كبيراً ... ولما شرع في بنائها رفق بالناس ولاطفهم ، ولم يَعْسِف فيها أحداً في بنائها ، ولا أكره صانعاً ، ولاغصب من آلاتها شيئاً ... ولما كملت في سنة ٧٠٩ قرر بالخانقاه ٤٠٠ صوفيّ وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت ، وجعل بها مطبخاً ... ووقف عليها عدة ضياع ...)) ثم جرى عليها حوادث كثيرة بعد مقتل بانيها ، وانظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٤١٦ – ٤١٧ .

١– هو برقوق بن آنص ، سلطان المماليك بمصر . أُخذ من بلاد الجركس وبيع ببلاد القَرْم ، وجُلب إلى القاهرة فاشتراه الأمير يَلْبُغا الخاصكيّ وأعتقه ، وتنقلت به الأحوال والوظائف حتى تسلطن سنة ٧٨٤ ، وجرت له حوادث في سلطنته ولكنه ثبت سلطاناً حتى توفي سنة ٨٠١ وقام من بعده ابنه ، انظر ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) : ٢ / ٢٤١ .

وقال ابن تَغري بَرْدي : ((هو أعظم ملوك الجراكسة بلا مدافعة بل المتعصب يقول : إنه هو أعظم ملوك الترك قاطبة)) : ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٣٤٢ .

وكأن تربة برقوق هذه هي مدرسته التي أنشأها سنة ٧٨٨ ، وأمر ((بأن تنقل رِمم أولاده ووالده آنص من موضع دفنهم إلى الفسقية بها ... ونزل الملك الظاهر برقوق من القلعة بأمرائه وعسكره إلى المدرسة المذكورة ، وحضرت القضاة والأعيان ، ثم مُدت الحلاوات والفواكه ... ثم خلع على العلامة علاء الدين السيراميّ وجعله شيخ الصوفية بها ومدرسَ السادة الحنفية ...)) ((المنهل الصافي)) : ٣ / ٢٨٨ – ٢٨٩ .

فقوله : ((جعله شيخ الصوفية بها)) يدل على أن لهذه المدرسةِ مشيخةَ تصوف وهي التي تولاها السيوطيّ بعد ذلك ، وسميت ((تربةَ برقوق)) لأن بها قبرَ والده وأولاده ، ولعل برقوقاً نفسه دُفن فيها كما هي العادة .

٢– هو الخليفة عبد العزيز بن يعقوب بن محمد ، المتوكل على الله . من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر . كان محمود المناقب كفؤاً للخلافة ، وافر العقل ، سديد الرأي ، له اشتغال بالعلم ، متواضع ، كثير العشرة للناس . توفي سنة ثلاث وتسعمائة . انظر ((الأعلام)) : ٤ / ٢٩ .

٣– في الأصل : يليها وهو خطأ .

القاضي تاج الدين ابن بنت الأعزّ[1] في دولة بني أيوب ، فلما بلغ القضاة ذلك شقّ عليهم ، واستخفّوا عقل الخليفة على ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود السلطان حَلٌّ ولاربط ولا ولاية ولاعزل ، ولكن الخليفة استخفّ بالسلطان لكونه حديثَ السن ... فلما قامت الدائرة ... على الخليفة رجع عن ذلك وقال : إيش كنت أنا ؟ ! الشيخ جلال الدين هو الذي حسّن لي ذلك وقال : هذه كانت وظيفة قديمة وكانت الخلفاء يولونها لمن يختارونه من العلماء ، ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك . وبَعَث أَخَذ العهد الذي كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطيّ ، وكادت أن تكون فتنةٌ كبيرة بسبب ذلك ، ووقع أمور يطول شرحها حتى سكن الحال بعد مدة))[2] .

اعتزال السيوطي الناس :

قد ابتدأ السيوطيّ الإفتاء وعمره اثنتان وعشرون سنة ، وإملاءَ الحديث وعمره ثلاث وعشرون سنة[3] ، وظلّ كذلك مفتياً ومدرِّساً أمداً من الزمان حتى بدا له أن ينقطع عن الطلبة والمستفتين ، وألّف مقامة في هذا سماها :

((المقامة اللولؤية)) ، أو ((التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس))
فكان مما قاله فيها :

١ - عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلاميّ ، قاضي القضاة ، تاج الدين ، أبومحمد ابن بنت الأعزّ . ولد سنة أربع عشرة وستمائة ، وتوفي سنة خمس وستين وستمائة . كان إماماً فاضلاً متبحراً ، ولي المناصب الجليلة في الديار المصرية كنظر الدواوين والوزارة والقضاء ، ودرّس ، وتقدم في الدولة ، وكانت له الحرمة الوافرة عند الظاهر بيبرس . كان ذا ذهن ثاقب وجِدّ وسَعْد وعزم مع النزاهة المفرطة والصلابة في الدين ، والتثبت في الأحكام : ((الوافي بالوفيات)) : ١٩ / ٣٠٠ - ٣٠٢ . وكان هذا القاضي آخر القضاة على هذه الشاكلة من التفرد في القضاء ؛ إذ صار القضاء في آخر عهده ومِن بعده منقسماً إلى أربعة أقسام بحسَب المذاهب الأربعة ، وقد جرى هذا بسبب حادثة وقعت ، انظر ((الوافي)) : ١٩/ ٣٠١ .

٢ - ((بدائع الزهور في وقائع الدهور)) : ٣ / ٣٣٩ .

٣- ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٨ .

((أليس هذا زمانَ الصبر ، الصابر فيه كقابض على الجمر ، رأينا فيه ما أنذر به الرسول ، وصحت به الأحاديث والنقول ، لكل سَئُول ، من آيات وعلامات ، ماكانت تقع فيما مضى مناماتٍ ... ومامن آية منها إلا وقد أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه ، ويجلسَ في بيته ، ويسكتَ ويدعَ العوام ، من ذلك : الشُحُّ المطاع ، ودنيا مُؤثَرة ... قَلّ الائتلاف ، وكُذّب الصادق ، وصُدق الكاذب ... وتكلم الرجلُ التافه في أمر العامة ... ووَلِيَ الدينَ غيرُ أهله ... هذه إمارات وردت في أحاديثَ صحاح ، وآياتٌ جاءت بها سنن أضوأُ من فَلَق الصباح ، وأرشدنا نبينا الهادي ، صلى الله عليه وسلم ماراح رائحٌ وغدا غادي ، إلى أنا إذا رأينا ذلك قد وقع ... فلنجلس في البيوت ولنلزم السكوت ... وكم من عالم قبلي قد قبل هذه الوصيةَ إذ رأى ماليس له به قِبَل ، وترك الإقراء والإفتاءَ وأقبل على خاصة نفسه والعملِ ، وقد اقتديت بهم ، ونعم القدوة ... طالما قطعت نهاري في التدريس والإفتاء ، واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتا فوقتا ، ولم أسلم على ذلك ممن يُوليني أذى ومقتا ، ويرميني كذبا وبُهتا))[1] .

ثم ذكر بعد ذلك أنواع الطلبة الذين درسوا عليه وأحوالهم معه ، وبيّن كثرة فتاويه وشيوعها في أنحاء الأرض[2] .

ثم أطال في ذكر أحوال طلبة العلم في عصره وتعالم كثير منهم[3] .

ثم قال :

((فلما رأيت نظام العِلم قد فسد ، وسوق الفضل قد كسد ، ووقع التساوي ، وياليته بل التقديم للهرّ على الأسد ... رأيت أن أدعَ العامة وأمرَها ... فتركت

---

١ - ((المقامة اللؤلؤية)) ضمن ((شرح مقامات السيوطيّ)) : ٢ / ٩٩٦ - ١٠٠١ .

٢ - المصدر السابق : ١٠٠١ - ١٠٠٦ .

٣ - المصدر السابق : ١٠٠٦ - ١٠٣٢ .

التدريس والإفادة ، والإبداءَ والإعادة ، ولم أُبلغ أحداً رام مني شيئاً من ذلك مراده))[1] .

وقال أيضاً معتذراً عن الإفتاء :

((وإن كانت واقعةُ حُكْم أو عمل وأُجيبَ فيها بالخطأ والخَطَل، فإثم تخلفي عن الجواب ، وتركي لإبانة الصواب ، على من فتح هذا الباب))[2] .

وقد كان انقطاعه عن الإفتاء والتدريس وعمره أربعون سنة ، أي حين بلغ أشدَّه ، وكان في أعظم سنوات العمر التي يكون الفكر فيها قد اكتمل ، والذهن قد اشتد توقده .

ولعل اعتزاله الفتيا والتدريس قد عاد بفائدة عليه من جهة التأليف والتحرير ، حيث مكث زماناً طويلاً عاكفاً على التصنيف ومخاطبة الناس بالكتب والرسائل حتى صار أكثر علماء الإسلام المتأخرين جمعاً وتصنيفاً.

لكن اعتزاله الفتيا والتدريس لايعني انجماعه عن الناس وعدمَ الخلطة بهم إذ ظلّ شيخاً للمدرسة ((البِيبَرْسيّة)) حتى أواخر حياته إذ صُرف عنها في رجب سنة ٩٠٦[3] .

١- المصدر السابق : ١٠٣٢ - ١٠٣٤ .

٢- المصدر السابق : ١٠٣٨ .

٣- ((بدائع الزهور)) : ٣ / ٣٨٨ .

وفاته

توفي الإمـام السيوطيُّ – رحمـه اللـه تعالى – بعد عمـر حافـل بالعطـاء العلميّ الغزير – بالقاهرة سَحَرَ ليلة الجمعـة تاسـع عشـر جمـادى الأولى سـنة إحـدى عشـرة وتسعِ مائة عن إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً[1] .

وطويت بذلك صفحة حياة عالم من أعظم علماء عصره إن لم يكن من أعظم علماء الإسلام المتأخرين ، رحمه اللـه تعالى وغفرله[2] .

١- ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٥٥ .

٢- انظر ترجمة الإمام السيوطيّ إضافة لما تقدم – في :

((آداب اللغـة)) : ٣ / ٢٢٨ ، و((خزائن الكتـب)) : ٣٧ ، و ((معجم المطبوعـات)) : ١٠٧٣ ، و ((الخزانة التيمورية)) : ٣ / ١٥١ ، و ((مخطوطات الظاهرية)) : ٣٥٥ ، وغير ذلك مما أورده صاحب ((الأعلام)) : ٣ / ٣٠٢ .

الفصل الثاني

((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ونسبته ونُسَخه

المبحث الأول

معنى العنوان ومأثير حوله

لابد قبل الحديث عن معنى العنوان من تحرير عنوان الكتاب ، إذِ اختُلف فيه بعض الاختلاف ، فالمتفق عليه أن للإمام السيوطيّ مؤلفاً بعنوان ((معترك الأقران)) ، ولكنّ معظم المصادر التي ذكرت الكتاب ذكرت عنوانه هكذا : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))[1] .

والسيوطيّ نفسه قد سمّاه في بعض كتبه التسميةَ نفسها[2] ، ولكنه ذكر في ((معترك الأقران)) مايرجح أن العنوان : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ، فقد قال :

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتابِ المسمّى : ((إعجاز القرآن ومعترك الأقران))[3] ، وهذا نصٌّ قريب من اسم الكتاب لكنه معكوس .

ويذكر محقق الكتاب الأستاذُ البجاويُّ أن العنوان على كلتا المخطوطتين : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))[4] .

وذكر أيضاً أن اسم الكتاب جاء كذلك في بعض الكتب التي ترجمت للسيوطي لكنه لم يصرح باسمها[5] .

١- انظر ((مفتاح السعادة)) : ٣٧٧/٢ ، و ((كشف الظنون)) : ١٧٣١/٢ ، و ((هدية العارفين)) : ٥٤٣/١ . و ((**المشترك** هو ((اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة)) وفي جواز وقوعه خلاف ، وانظر كل ذلك في ((المُزْهِر)) : ٣٦٩/١ ومابعدها .

٢- انظر ((الإتقان)) : ١٤١/١ ، و((حسن المحاضرة)) : ٣٤٠/١ ، و ((التحدث بنعمة الله)) : ١١١ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٥١٥/١ - ٥١٦ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ف ، حيث قال المحقق :

((لقد اعتمدنا الاسم الأول : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) لوروده في المخطوطتين من غير اختلاف أو زيادة أو نقص)) .

٥- المصدر السابق .

فعلى هذا إما أن يكون الكتاب له اسمان شُهر بهما وعرف فلا ترجيحَ لعنوان كتاب على آخر ، وإما أن يكون له اسم محدد هو الأولى بـه والأقرب لموضوعه .

أما من قال إن عنوان الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) فقد استند إلى وروده هكذا في بعض كتب السيوطيّ ومَن ترجم له ، كما ذكرت ذلك آنفاً .

ولكني أميل إلى أن عنوان الكتاب هو : ((معترك الأقران في إعجازالقرآن)) وذلك للأسباب التالية :

أولاً : هذا العنوان ألصق بموضوعات الكتاب من العنوان الآخر : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وكلما كان العنوان موافقاً لمضمون الكتاب كان ذلك أولى وأحسن ، أما ((مشترك القرآن)) وهو العنوان الآخَر فهو لايدل على محتوى الكتاب ؛ إذ جاء بحث ((مشترك القرآن)) وجهاً من الأوجه الخمسة والثلاثين الواردة في ((المعترك))[1] وإن كان أطولَها .

ويمكن أن يتمسك من يختار العنوان : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) بأن بحث مشترك القرآن قد احتل ثلثي الكتاب تقريباً ، فالسيوطيّ قد أطلق على الكتاب اسمَ أكبر وأعظم مباحثه ، لكن باقي الأسباب المرجحةِ للعنوان المختار والجمعَ بين العنوانين الذي سأذكره - إن شاء الله تعالى - ينفي هذا الاستنتاج .

ثانياً : قد نصّ السيوطيّ - تقريباً[2] - على اسم كتابه في ((المعترك)) حيث قال :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٥١٤ إلى آخر الكتاب .

٢- إنما قلت تقريباً لأن الإمام السيوطيّ قلب عنوان كتابه عندما سمّاه ، كما مرّ قريباً .

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتابِ المسمى إعجازَ القرآن ومعتركَ الأقران))[1] ، ونصٌّ المصنف في كتابه على عنوانه لايُعدل عنه إلى شيء آخر .

ثالثاً : ورود العنوان في المخطوطتين : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))[2] قرينةٌ قوية على أنه العنوان الصحيحُ خاصّة مع نصّ السيوطيّ عليه كما في السبب السالف .

لكن هناك مخطوطة ثالثة للكتاب لم يذكرها الأستاذ البجاويّ سيأتي - إن شاء الله تعالى - ذكرها[3] ، وعنوان الكتاب فيها : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) .

الجمع بين العنوانين

إذاً كيف يُجمع بين ورود العنوان : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) في بعض كتب السيوطيّ ، وورده : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) في الكتاب نفسه نصاً من السيوطي[4] .

أنا أرجح ترجيحاً قوياً - والعلم عند الله تعالى - أن السيوطيّ ألّف الكتابَ أولاً في مشترك القرآن ، ثم أضاف إليه مباحث سابقةً من ((الإتقان)) وغيره - على مابينته قبل ذلك[5] - فسمّاه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) وترجيحي هذا قائم على الآتي :

١- ((معترك الأقران)) : ١/٥١٥ - ٥١٦ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١/ ف .

٣- انظر ص ٢٧٦ .

٤- لكنه جاء معكوساً : ((إعجاز القرآن ومعترك الأقران)) كما مرّ قريباً .

٥- انظر ص ٢٣٢ .

أولاً : ذكر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في كتابه ((التحدث بنعمة الله)) ، ذكر أسماء مصنفاته وقسمها إلى سبعة أقسام ، ثم بيّن أن ((القسم الثالث : هو ماتمّ من الكتب المعتبرة **الصغيرة الحجم** ، التي هي من كراسين إلى عشرة ، وذلك سبعون مؤلفاً)) ثم ذكر منها : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))[1] .

بل ذكر الإمام السيوطي في كتاب آخر أن ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) يقع في كراسة واحدة فقال متحدثاً عن بعض مصنفاته :

((... ثم أفردت كراسة فيما وقع من الألفاظ المعرّبة ، تتبعت فيها واستوعبت ، **ثم كراسة سميتها ((معترك الأقران في مشترك القرآن))** فائقة في معناها))[2] .

والمعلوم أن السيوطي لايريد بهذا الكتابِ الذي ذكره : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) الكتابَ الذي بين أيدينا : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ إذ هو ضخم ، أكبر بكثير مما ذَكر مِن أن حجمه بين كراسة أو كراستين ؛ فلا بد إذاً أنه يريد كتاباً آخر بعنوان ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) صغير الحجم ليس بين أيدينا اليوم ، ولانعرف عنه شيئاً ، أما ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) فلم يذكره في مصنفاته ، فيترجح – عندي – بهذا أنه قد صنفه فيما بعد ضامًّا إليه هذا الكتاب الذي ذكره في مشترك القرآن ، والله أعلم .

ثانياً : ذِكرُ السيوطيِّ رحمه الله تعالى – كتابَ ((المعترك)) في ((الإتقان)) ، وذِكرُ كتابِ ((الإتقان)) في ((المعترك)) :

أما ذكر ((المعترك)) في ((الإتقان)) فقد قال :

((فالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ كلفظ (الأُمــّة) ، وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن))...))[3] وأما ذكره لـ ((الإتقان)) في ((المعترك)) فقد قال :

١- ((التحدث بنعمة الله)) : ١٠٥ ، ١١١ .

٢- ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) : ١ / ٩٥ .

٣- ((الإتقان)) : ١ / ١٤١ .

((وقد طولنا الكلام هنا فلنرجع إلى المقصود ؛ لأن هذا الكتاب لايسع ذلك ، وقد أودعنا أكثره في كتابنا : ((الإتقان في علوم القرآن))[1] .

وفي النقلين السابقين ملاحظتان :

أ – لايتأتّى أن يصنّف المصنف كتابين من كتبه ويذكر في كلٍّ منهما اسم الآخر إلا أن يكون أحدهما مصنفاً على مرحلتين أو أكثر ، ولمـّا لم يُعرف ذلك عن ((الإتقان)) فيترجح أن يكون ((معترك الأقران)) قد صُنف على مرحلتين أو أكثر .

ب – قوله في الإتقان ((وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) قوله هذا يدل على أن كتاب ((المعترك)) قد أُلّف في الأصل لغرض حصر وبيان المشترك اللفظيّ في القرآن فقط ولا شيء غير ذلك كما يدل عليه قوله : ((أفردت في هذا الفن كتاباً)) .

ثالثاً : طريقة ورود اسم الكتاب في ((المعترك)) تشير إلى إمكان أنه مصنف على مرحلتين ، حيث قال السيوطيّ :

((فاشدد بكلتا يديك على هذا الكتاب المسمىّ إعجازَ القرآن ومعتركَ الأقران)) ، فكأن كتابه المعروف هو : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، ثم أضاف إليه وجوهاً من الإعجاز القرآني فأشار إلى ذلك بقوله ((المسمى إعجاز القرآن ومعترك الأقران)) فأصبح الكتاب مجموعاً من وجوه الإعجاز ومشترك القرآن ليكون : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) كما هو عنوانه في المخطوطتين ، ويصبحَ المشترك وجهاً من وجوه الإعجاز في الكتاب .

وهذا استنتاج محضٌ لادليل عليه ، وإنما هي إشارة ، والله أعلم .

---

١ – ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣١ .

رابعاً : طريقة إتيانه بالوجه الخامس والثلاثين - المشترك - تدل على أنه كان في الأصل كتاباً منفصلاً حيث قال في مقدمة هذا الوجه :

((وأنا أرغب ممن وقع بيده **هذا الكتاب** أن يدعو للساعي له فيه ، لأنه يجد فيه مالايجد في كثير من المطوَّلين الصعاب ، وكيف لايذكره عند ربه[1] وقد استخرجته له منهم سهلَ المرام فخف عليه حملُه وثمنه ، وقربت عليه الفهم باختصار الكلام ، وايْمُ الله لو أراد الاستغناء به عن النظر في غيره لكفاه ، **مع أني زدت مع اللفظ المشترك** تفسير مفردات لابدّ له منها ...))[2] .

وقوله : ((هذا الكتاب)) مع ما بعده هو في سياق الحديث عن المشترك .

ثم قال :

((وقد أفردها[3] بالتصنيف خلائق ...

وأنفعها هذا الكتابُ البديع المثال ، المنيع المقال))[4] .

ثم قال :

((اللهم إنك تعلم أنه ليس لي من ينقذني ... في ذلك الموقف العظيم غيرُ الاشتغال بخدمة كتابك واستخراج زُبَده ودرره ... **وخصوصاً هذا الكتاب** ...))[5] .

فكأن كلامه هو على كتاب مستقل عما قبله ، وهذا الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) .

---

١ - أي يذكر مؤلفه بالدعاء له .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

وقوله : ((زدت مع اللفظ المشترك تفسير مفردات ...)) يفسر سبب زيادة حجم فصل المشترك من كتاب ((معترك الأقران)) ؛ لأن الإمام السيوطيّ سبق أن وصف الكتاب أنه يقع في كراسة واحدة فقط أو كراستين على الأكثر ، بينما جاء في ((معترك الأقران)) كبير الحجم .

٣- أي معاني الحروف كما في السياق السابق .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٧ .

٥- المصدر السابق : ١ / ٥١٨ .

خامساً : إن هذا القولَ – وهو أن الكتاب مصنّف على مرحلتين أو أكثر – هو التفسير الوحيد الذي استطعته لمسألة ورود عنوان الكتاب مختلفاً في كتب السيوطيّ نفسها ، ولمسألةِ ذكر اسم كتابه ((المعترك)) في ((الإتقان)) ، وذكرِ ((الإتقان)) في ((المعترك)) ، والله أعلم .

وقد حام حولَ هذا المعنى أحدُ الباحثين – وهو الأستاذ محمد الراضي – حيث سرد الكتبَ المصنفةَ في علم (الوجوه والنظائر) فقال :
((وكتاب جلال الدين عبد الرحمن السيوطيّ (ت ٩١١) ذكره السيوطيُّ في ((الإتقان)) وقال :
وقد أفردت في هذا الفنِّ كتاباً سميته : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ووصل إلينا الكثيرُ منه في كتاب السيوطي : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))))[١] .
فكأن الأستاذ يعتقد أن كتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) جزء من كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ وذلك لأن كلامه يُفهم منه هذا ، وإن لم يذكر دليلاً على ماذهب إليه .

أما الذي لم أتحققْه من كلامه فهو قوله : ((وصل إلينا الكثير منه)) ، أفيزعم الأستاذ أنه قد فُقد شيء من كتاب : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وعلامَ بنى زعمه هذا ؟

شبهة في موضوع اسم الكتاب وتفنيدها

ذكر الأستاذ محمد بن يعقوب تركستاني[٢] أن هناك مخطوطة للكتاب بالمغرب الأقصى محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ٤٢٣١ ، وهي باسم :

---

١ – مقدمة تحقيق كتاب ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)) للإمام ابن الجوزي ، ص : ٥٥ – ٥٦ .

٢ – قد ألّف رسالة بعنوان ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) وتقدم بها لنيل رسالة (الماجستير) من جامعة الملك عبدالعزيز – شطر مكة ، سنة ١٣٩٧ .

((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وقد جاء هذا في سياق ذكره لورود الكتاب بهذا العنوان المذكور في عدد من كتب السيوطي ، وفي ((كشف الظنون)) و ((هدية العارفين)) كما بينت سابقاً[1] .

ثم بعد فراغه من ذكر هذه المخطوطة قال :

((فأصبح من المقطوع به أن اسم الكتاب هو ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، وكان حقيقاً بالأستاذ علي محمد البجاويّ حين تصدى لتحقيق الكتاب أن يترك اسمه على أصله صيانة لحرمته فلا يغيره إلى ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) لمجرد أنه وجده مسمى بهذا الاسم في المخطوطتين الوحيدتين اللتين اعتمد عليهما في نشر الكتاب))[2] .

وفي هذا الكلام ملحظان :

الأول :

إن الكلام الذي جاء به الباحث وظن أنه دليل على أن اسم الكتاب هو : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) هذا الكلام لايُعد دليلاً على ماذهب إليه فضلاً عن أن يكون أمراً قاطعاً حسَب تعبيره .

الآخر :

قد نسب الباحث إلى الأستاذ علي البجاوي مالايليق حيث ادّعى دعوى مجردة عن الدليل بأن الأستاذ البجاويّ قد تعمد تغيير اسم الكتاب ، والأستاذ البجاويّ لم يصنع هذا وحاشاه ، فقد قال :

((سُمّي هذا الكتابُ في المخطوطتين : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، وكذلك ورد اسمه في بعض الكتب التي ترجمت للسيوطيّ .

وقد جاء في صفحة ١٧٠ من المخطوطة الثانية : إعجاز القرآن ومعترك الأقران[3] .

١- انظر ص ٢٧٠ .

٢- ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٣- في المطبوع : (القرآن) والصحيح ، الأقران ، وهذا النص قد ذكرت – سابقاً – أنه موجود في الجزء =

أما في ((الإتقان)) فقد أشار إلى هذا الكتاب وسماه ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) .

وقد اعتمدنا الاسم الأول لوروده في المخطوطتين من غير اختلاف أو زيادة أو نقص))[1] .
وهذا الكلام للأستاذ البجاويّ يُتبين منه أمران هما :

١ – لم يتعمد الأستاذ البجاوي تغيير العنوان فهو قد ذكر العنوانين واعتمد أحدهما لسبب ارتآه ، وصنيعه هذا هو صنيع الباحث المعتمد على الأصول العلمية للتحقيق .

٢ – لم يطلع الأستاذ البجاويّ – فيما يظهر من كلامه – على المخطوطة الثالثة التي اطّلع عليها الأستاذ التركستانيّ ، فكيف يلام على مالم يطّلع عليه .

هذا ردٌّ على الأستاذ الباحث الذي جاء بما لايقوم في وجه ماذكرته آنفاً من ترجيح عنوان الكتاب ليكون ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ؛ إذ غاية ماجاء به هو اطّلاعه على المخطوطة الثالثة السابقة الذكر ، ولم يقرأ الكتاب قراءة فاحصة ويدرسْه دراسة ناقدة ليخرج برأي راجح في هذا الباب .

ثم مايدريه لعل العنوان في المخطوطة التي اطلع عليها هو من صنيع أحد التلاميذ أو النساخ ، أو يكون تصرفاً من غيرهما ؟ ! !
ولما سبق أن ذكرته يكون العنوان الذي اخترته واستقرّ عليه البحث هو :

((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

الأول صفحة : ٥١٥ – ٥١٦ .

١- ((معترك الأقرن)) : ١ / ف .

تحرير معنى العنوان

العنوان مكون من جزأين :

الأول : معترك الأقران . **والآخر** : إعجاز القرآن .

ومعنى الجزء الثاني قد بينته قبل هذا[1] .

وأما معنى ((معترك الأقران)) :

فالمعترك مأخوذ من (عَرَك) ، وقد جاء في ((لسان العرب)) : مادة عرك :

((المعترك : موضع الحرب)) .

وجاء فيه في مادة (ق ر ن) :

((القَرْن : مثلك في السن ، تقول : هو على قَرْني أي على سني ...

وهو قَرْنه في السنّ - بالفتح - وهو قِرنه ، بالكسر ، إذا كان مثله في الشجاعة والشدة ... ويجمع على أَقْران)) .

فكأن المعنى أن هذا الكتاب هو موضع تبادل الأفكار وتلاحم العقول والأنظار بين العلماء في وجوه إعجاز القرآن .

والملاحظ أن هذا الكتاب لم تَدُر فيه أيُّ معاركَ فكريةٍ بين السيوطيّ وعلماء عصره ، أو بين العلماء السابقين عليه كما يوحي بذلك عنوان الكتاب ، إنما أكثر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من نقل آراء العلماء وعلق على مايحتاج إلى التعليق بهدوء وروية وحسن مناقشة للآراء المعروضة . وكأنه لما أكثر من نقل آراء العلماء المختلفة وأقوالهم جعل ذلك بمثابة معركة فكرية بين تلك الآراءِ والأقوال ، والله - تعالى - أعلم .

١ - انظر ص ٢٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

المبحث الثاني

تحقيق نسبة الكتاب إلى الإمام السيوطيّ

من المقطوع به أن مؤلف الكتاب هوالإمام السيوطيّ ، فقد ذكر هو نفسُه كتابَه هذا في مؤلفات عدة ، وذكر عددٌ ممن ترجم له كتابَه هذا في ترجمته ، كما بينت ذلك سابقاً[١] .

بقي أن يُعرف : هل الكتاب الذي بين أيدينا هو نفسه كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) الذي صنفه السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ؟

لاريب أن الكتاب الموجود بأيدينا هو ((معترك الأقران)) وذلك للأسباب الآتية :

١ - جاء ذكر عدد من كتب السيوطيّ في ثنايا كتابه ، مثل ((تناسق الدرر في تناسب السور))[٢] و ((أسرار التنزيل))[٣] وكتابه في مبهمات القرآن[٤] ، وكتاب ((لباب النقول في أسباب النزول))[٥] إلخ ... وكل هذه الكتب قد صرّح السيوطيّ بنسبتها إليه ، فورودها في الكتاب دال على أن هذا الكتاب هو نفسه ((معترك الأقران)) الذي صنفه السيوطيّ ، والله أعلم .

---

١ - انظر ص ٢٧٠ من هذا البحث .

٣ - انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ .

٤ - المصدر السابق .

٥ - المصدر السابق : ١ / ٤٨٤ .

٦ - المصدر السابق : ٣ / ٢٨٣ .

٢ - بالمقارنة بين نصوص كثيرة من ((المعترك)) ونصوص بعض كتب السيوطي الأخرى التي نقل منها إلى ((المعترك)) أو نقل من ((المعترك)) إليها ظهر التطابق بينها أو التقارب إلى حد كبير ، وقد بينت ذلك سابقاً [1].

٣ - أسلوب السيوطيّ ظاهر في الكتاب ، فحشْد الأدلة والأقوال الكثيرة ، ومناقشتها ، والترجيح بينها هو الأسلوب الذي جرى عليه السيوطيّ في كثير من كتبه .

٤ - والكتاب المطبوع قد حقق ونشر منذ سنة ١٣٩٢ هـ أي ما يقارب ثلاثاً وعشرين سنة ، وتداولته أيدي العلماء والمحققين وطلبة العلم ، ولم يطعن أحدٌ - فيما أعلم - في نسبة هذا الكتاب إلى السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، وهذا قرينة واضحة على صحة النسبة ، وصحة محتويات الكتاب وأنه هو نفسه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ، والحمد لله .

---

١ - انظر الصفحات ٢٣٢ - ٢٤٩ من هذا البحث .

المبحث الثالث :

مخطوطات الكتاب ومطبوعته ، والجهود التي بذلت لخدمته

للكتاب ثلاث مخطوطات ، فيما أعلم :

إحداها : صورت عن الأصل المحفوظ بخزانة الشيخ أحمد الصديق المغربي[١] ، وهي محفوظة في دار الكتب المصرية برقم ٢٠٣٤٧ – تفسير .

الثانية : مخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية – أيضاً – برقم ٤٧٦ – تفسير[٢] .

الثالثة : مخطوطة محفوظة في الخزانة الملكية بالرباط برقم ٤٢٣١ وباسم : ((معترك الأقران في مشترك الأقران)) كما ذكرت سابقاً[٣] .

وقد حقق الكتابَ الأستاذ علي البجاويّ معتمداً على المخطوطتين الأُوليين .

وقد حققه – أيضاً – الأستاذ أحمد شمس الدين معتمداً على أولى المخطوطتين المذكورتين اللتين اعتمد عليهما الأستاذ البجاويّ .

أما تحقيق الأستاذ علي البجاوي فهو تحقيق جيد ، استوفى عدداً من شروط التحقيق العلمي ؛ فقد قارن بين المخطوطتين وأثبت الفروق في الهامش ، وترجم لكثير من الأعلام ، وعزا بعض النصوص إلى مصادرها ، ووضع فهرسة جيدة لمواضيع الكتاب .

إلاّ أن هذا العملَ – كغيره من أعمال البشر – قد خالطه بعض النقص ، نحو :

١- لم أجد له ترجمة .

٢- وصف المخطوطتين محقق الكتاب الأستاذ علي البجاويّ ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ف – ص ، ولم يذكر اسم ناسخ المخطوطة الأخرى .

٣- انظر ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

١ – **السقط** ، وهو في مواضعَ متعددةٍ من الكتاب[1] ، وإنما عرفتُ هـذا بالمقارنـة بما في ((الإتقان)) ، أو من السياق .

٢ – خَلْطٌ في بعض الصفحـات ، وقـد أدى ذلـك إلى سـقوط بعـض الصفحـات أيضاً[2] .

٣ – بعض التحريف والتصحيف[3] ، ولعل ذلك من الناسخ .

٤ – **الخطأ في بعض الآيات**[4] .

٥ – **عدم تحقيق وتخريج غالب الأحاديث والآثار .**

٦ – **لم يصنع فهرساً للأعلام ، ولا للأدلة والأحاديث والآثار.**

على أن عمله هذا يستحق الشكر منا ، والجزاءَ من الله تعالى ، إن شاء اللـه ؛ إذ أخرج هذا الكتابَ الضخم إلى النور حتى يستفيد منه طلبة العلم ويتداولوه .

أمّا عمل الأستاذ أحمد شمس الدين فهو قد خرّج الآيات فقط ، ولم يعمل أي عمل آخر من تعليق على المتن أو ترجمة لعَلَم أو تعريف بكتـاب علـى نحـو ماتقتضيـه أساليب التحقيق الحديثة . وقد اعتمد في تحقيقه للكتاب على نسـخة وحيـدة كـانت إحدى المخطوطتين اللتين اعتمدهما البجاويّ في تحقيقه .

---

١ – انظر – مثالاً – : من المطبوعة بتحقيق الأستاذ البجاويّ : ١ / ١٣٠ – ١٤٣ ، ٣ / ٢٨١ (آخر الصفحة) .

٢ – انظر – مثالاً – : ١ / ٣٢١ – ٣٢٣ ، ٣٢٧ – ٣٣١ ، ٣ / ٤٦٨ – ٤٧٤ .

٣ – انظر – مثالاً – : ٢ / ١٢٦ ، ١٣٩ ، ٢٨٣ ، ٦١٩ ، ٦٣٥ .

٤ – انظر – مثالاً – : ٢ / ٤٣٩ ، ٤٧٢ .

وقد تكرر في تحقيق الأستاذ أحمد شمس الدين كثيرٌ مما وقع في تحقيق الأستاذ البجاويّ من سقط وتحريف وتصحيف مما يدلّ على أن الأستاذ شمس الدين إمّا أن يكون قد حقق الكتاب معتمداً على تحقيق الأستاذ البجاويّ ، أو أن نسخة الشيخ أحمد بن المستغانمي قد ورد فيها السقطُ والتحريف والتصحيف نفسه الذي وقع في كلا التحقيقين ، حيث إني لم أطّلع على أيٍّ من مخطوطتي الكتاب ، والله أعلم[1] .

وفي الجملة فتحقيق الأستاذ البجاويّ أجود بكثير من تحقيق الأستاذ أحمد شمس الدين ، بل ليس بينهما أفعل تفضيل ، وقد اعتمدت في دراستي للكتاب وإحالاتي عليه على الطبعة المحققة بقلم الأستاذ البجاويّ ، مع مراجعاتي لبعض الكتب التي نقل منها السيوطيّ[2] رحمه الله تعالى .

١- قد نشر تحقيقَ الأستاذ البجاويّ دارُ الفكر العربي في ثلاثة مجلدات ، ونشر تحقيقَ الأستاذ شمس الدين دار الكتب العلمية في ثلاثة مجلدات كذلك إلا أنها أصغر حجماً من طبعة دار الفكر .

٢- قد اطلعت بعد كتابة هذا على ماجاء في (ملحق التراث) : العدد العشرين : السنة الثامنة عشرة ، الملحق بجريدة المدينة العدد : ١١٤٤٨ بتاريخ ٢٧ / ٢ / ١٤١٥ هـ ؛ حيث أكد الأستاذ غازي العَمْري في مقال له بالملحق المذكور أن هذا الكتاب – طبعة دار الكتب العلمية – مسروق من طبعة دار الفكر العربي ، وأن الاسم : أحمد شمس الدين مزيّف غير حقيقيّ ، على الأرجح عنده ، وأن دار الكتب العلمية التي نشرت الكتاب قد تصرّفت في تحقيق الأستاذ البجاويّ فأسقطت عملا كثيراً من أعمال التحقيق وقدمت وأخرت فيه فدفعت الكتاب إلى المطابع مشوهاً مبتوراً ، هذا خلاصة رأي الأستاذ ؛ إلاّ أنه لم يقدم دليلاً ملموساً على ماقاله ، بمعنى أنه لم يذكر أنه قارن بين الطبعتين ، ولم يذكر أرقام الصفحات التي تدعم ماذهب إليه من رأي .

والحقيقة أن أمر الطبعة الأخرى عجيب ؛ فقد استدرك ناشروها بعض الأخطاء ومواضع السقط التي وقعت في تحقيق الأستاذ البجاويّ ، وفي الوقت نفسِه قد كرروا كثيراً من السقط ومواضع التحريف مما يقوي الظن بأنهم أخذوا جهد الأستاذ البجاويّ كلّه ، أو القسمَ الأكبر منه .

أما مواضع السقط التي استُدركت في طبعة دار الكتب العلمية فمنها :

١- ما جاء في أول صفحة ٤٢٢ من الجزء الأول من تحقيق الأستاذ البجاوي فقد حصل سقط لم يتكرر في طبعة الدار العلمية : ١ / ٣٢٠ .

٢- ومنها ماجاء في الصفحة : ١٠٨ من الجزءالثالث من تحقيق الأستاذ البجاويّ في السطر السابع من فوق ، فقد حصل سقط لم يتكرر في طبعة الدار العلمية : ٣ / ٨٦ .

وقد تفادت دار الكتب العلمية كثيراً من مواضع الاضطراب والخلط الطباعيّ في الصفحات التي وقَعَت في طبعة دار الفكر العربيّ ، أما باقي مواضع السقط والتحريف والتصحيف – التي ذكرت بعضاً منها في صفحة ٢٨٣ من هذا البحث – فتكاد تتفق تماماً في الطبعتين مما يرجح عندي أن ناشري دار الكتب العلمية قد استفادوا من طبعة دار الفكر العربيّ في ضبط النص ، وعملوا بعض التحسينات في بعض المواضع التي اختلت فيها طبعة دار الفكر من خلط وسقط واضطراب ، والله أعلم بالصواب .

الفصل الثالث

محتويات الكتاب ومنزلته العلمية

المبحث الأوّل : مضمون الكتاب وأبحاثه

كتاب ((معترك الأقران)) ضخم كبير قد بلغ ألفي صفحة تقريباً في ثلاثة أجزاء مطبوعة ، ويحوي علوماً متعددة أهمها علوم القرآن ومباحث الإعجاز ، وفيه مباحث كثيرة في فنون متنوعة من فقه وعقيدة وتفسير وأصول إلخ ...

وقد قدّم السيوطيّ لكتابه بمقدمة بيّن فيها أن المعجزة العظمى لرسولنا – صلى الله عليه وسلم – هي القرآن ، وأنه قد تحدى به العرب فعجزوا و لم يستطيعوا الإتيان بمثله ولا بمايقاربه في الفصاحة والبلاغة ، ثم ذكر بعض من صنف في وجوه إعجاز القرآن ، ثمّ ناقش بعض المباحث المتعلقة بإعجاز القرآن نحو : إعجاز نظمه ، وطريق معرفة إعجاز القرآن ، واختلاف القرآن عن الشعر ، وهل باقي الكتب السماوية معجز ؟ إلى آخر ماذكره في مقدمته[1] .

ثم بعد فراغه من المقدمة ذكر خمسةً وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز ، وهي الآتي :

أولاً : العلوم المستنبطة منه .

ثانياً : كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان .

ثالثاً : حسن تأليفه والتئام كَلِمه .

رابعاً : مناسبة آيه وسوره وارتباط بعضها ببعض .

خامساً : افتتاح السور وخواتيمها .

سادساً : مشتبهات آياته .

سابعاً : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات .

ثامناً : وقوع ناسخه ومنسوخه .

تاسعاً : انقسامه إلى محكم ومتشابه .

عاشراً : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها .

١- انظر : ١/ ١ – ١١ .

الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع .

الثاني عشر : إفادة حصره واختصاصه .

الثالث عشر : احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم .

الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها .

الخامس عشر : ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة .

السادس عشر : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه .

السابع عشر : وجوه مخاطباته .

الثامن عشر : ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيبات .

التاسع عشر : إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة .

العشرون : روعته وهيبته .

الحادي والعشرون : سامعه لايَمَجُّه[1] ، وقارئه لايملّه .

الثاني والعشرون : تيسيره – تعالى – حفظَه ، وتقريبه على متحفظيه .

الثالث والعشرون : وقوع الحقائق والمجاز فيه .

الرابع والعشرون : تشبيهه واستعاراته .

الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض .

السادس والعشرون : إعجازه في آية وإطنابه في أخرى .

السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه .

الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء .

التاسع والعشرون : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها .

الثلاثون : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة .

الحادي والثلاثون : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة .

الثاني والثلاثون : مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف .

الثالث والثلاثون : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها .

---

١ – جاء في ((لسان العرب)) : (م ج ج) : ((مَجَّ الشراب والشيء من فيه يَمُجُّه مجّاً ، ومجّ به : رماه ... ومَجّ بريقه يَمُجُّه إذا لفظه)) .

الرابع والثلاثون : احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب وأسماء القبائل والبلاد والجبال والكواكب .

الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة[1] .

ثم ختم الكتاب بأبحاث مهمّة منها :

١- أقوال كلية محتوية على ألفاظ قرآنية[2] .

٢- قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها[3] .

٣- أحاديث نبوية مجردة من الأسانيد تفسِّر آيات قرآنية[4] .

وهذا الوصف المذكور إنما هو لفصول الكتاب ومباحثه الأساسية ، أما مكونات هذه الفصول والمباحث فتنقسم إلى قسمين رئيسين :

القسم الأول : كلام للعلماء نقله السيوطيّ - رحمه الله تعالى - إما نصاً أو بعد تصرف ، على سبيل الاستشهاد أو الاستدلال أو الرد أو غير ذلك .

القسم الآخر : كلام من إنشائه مبتكر أو منقول من كتبه الأخرى .

أما القسم الأول فسيأتي بيان مفصّل له في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى [5] .

وأما القسم الآخر فقد سبق بيانه بالتفصيل[6] .

١- ذكر الإمام السيوطي هذه الأوجه متتابعة في كتابه ، وسيأتي تحديد صفحاتها والكلام عليها بالتفصيل في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٣٣٧ ومابعدها .

٢- وذلك نحو ماعزاه لابن فارس من قوله : ((كل مافي القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلاّ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف : ٥٥] فمعناه أغضبونا ، وكل مافيه من ذكر البروج فهي الكواكب إلاّ :﴿ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] فهي القصور الطوال الحصينة ....)) : انظر ((معترك الأقران)) : ٣/٥٦٢ - ٥٧٤ .

٣- وذلك نحو قاعدة في الضمائر ، وقاعدة في التذكير والتأنيث ، وقاعدة في التعريف والتنكير ، وقاعدة في الإفراد والجمع ... انظر : ٣ / ٥٧٤ - ٦٢٢ .

٤- انظر : ٣ / ٦٢٢ - ٦٤٦ .

٥- انظر صفحة ٤٦٠ وما بعدها .

٥- انظر الصفحات : ٢٣١ - ٢٤٦ ، ٢٥٧ .

وقد مزج كلامه بكثير من الأدلة والآثار ، والقصص والمواعظ [1] .

وقد أوجزت في وصف محتويات الكتاب اعتماداً على أن رسالتي كلها هي إجمال أو تفصيل لهذا المحتوى ، وإنما ورد في هذا المبحث وصف عام إجمالي لِما فُصِّل في الكتاب .

١- سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى في الباب القادم ، انظر ص ٤٦٥ وما بعدها ، وصفحة ٥٢٣ وما بعدها .

المبحث الثاني :
منزلة الكتاب العلمية وأثره .

المطلب الأول : منزلة الكتاب العلمية :

تقاس منزلة أيّ كتاب بما جاء فيه من مباحثَ جديدةٍ ، أو أفكارٍ مركّزة مرتبة ، أو حسنِ عرض لمادّة مشوَّشة إلى غير ذلك من وجوه تقويم منزلة الكتاب العلمية ، وكذلك للسلبيات أثرها في الحكم على منزلة الكتاب وجودته .

وكتاب الإمام السيوطيّ كتاب ضخم حافل مليء بالمعلومات والآراء ، ويمكن إجمال مافيه من ميزات علمية بما يأتي :

ميزات الكتاب

أولاً : غزارة المادة العلمية في الكتاب :

إذ هو مليء بآراء العلماء وأفكارهم واستنتاجهم مع حسن عرض وترتيب .

ثانياً : الموازنة بين الأقوال ونقدها وتمحيصها :

وهو معلمٌ بارز من معالم الكتاب ؛ فالسيوطي لايكاد يترك قولاً يورده إلا وينقده ويبين مافيه من حسن وقوة أو يذكر مافيه من خطأ أو نقص[1] ، وكل ذلك بهدوء وحسن أدب .

ثالثاً : الإكثار من إيراد الأمثلة والشواهد بما يوضح المعنى ويبينه أحسن تبيين .

---

١ - انظر - مثالاً - الصفحات : ١ / ٣٧٨ ، ٤٨٦ ، ٥٤٤ ، ٥٥٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦٣١ .

رابعاً : الإكثار من إيراد الأدلة التي تساند ماذهب إليه هو أو غيره ، ويكاد الكتاب يكون كتاب أحاديث وآثار من كثرة مافيه منها[1] .

خامساً : التجديد في عرض الإعجاز :

دلّل السيوطيّ على إعجاز القرآن بأمور لم تطرق من قبل[2] ، أو أنها طرقت لكن بإيجاز واقتضاب فتوسع فيها وأبرزها جليّةً واضحة[3] ، أو كانت موزعةً مفرقة في كتب شتى فجمعها[4] ... إلخ

سادساً : كثرة المصادر والمراجع :

قد استعان السيوطي في تأليفه كتابَه بمصادرَ ومراجعَ كثيرةٍ كثرةً ظاهرة ملحوظة ، وقد أحسن التعامل معها فتارة ينقل منها من غير تصرف ، وتارة يتصرف فيها بالتلخيص أو بالزيادة ، أو أنه ينقل بالمعنى نقلاً مناسباً لما يريد إيراده .

سابعاً : التنوع في إيراد المادة العلمية :

فالكتاب متخصص في إعجاز القرآن ولكن المصنف يأتي فيه بمباحثَ فقهيةٍ وحديثية وعقدية ولغويّة وأصولية تغني الكتاب وتنفي عنه الجمود ، وفي الوقت نفسه هي ليست استطراداً بل لها اتصال بموضوع الكتاب في الغالب .

ثامناً : حسن عرض مادة الكتاب :

ممّا يزيد الكتابَ قوّةً في منهجه العلميّ أن السيوطيّ أكثر من إيراد الأسئلة لما يراه قد ينبهم على القارئ أو يفوته ، وهذه طريقة علمية جيدة ترسخ العلم في ذهن الطالب وتقوم مقام مناظرة الأقران ونقاشهم .

---

١ - سيأتي في الباب الثالث الحديث مفصلاً على الآيات والأحاديث التي أوردها السيوطي في كتابه ، انظر ص ٤٦٥ وما بعدها .

٢ - وذلك كغالب الأوجه التي أتى بها في كتابه ، وسوف يناقشه الباحث في وجه إعجازها في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى .

٣ - وذلك كالوجه الأول من وجوه الإعجاز التي ذكرها وهو : العلوم المستنبطة منه ، انظر : ١ / ١٤ - ٢٧ .

٤ - وذلك نحو الوجوه البلاغية التي أوردها وفي الوجه الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين . انظر : ١ / ٢٤٦ - ٤٤٨ .

تاسعاً : عدم الجمود والتعصب :

للسيوطي شخصيته العلمية البارزة ، وآراؤه التي يدافع عنها ويتخيرها تخيراً ويحسن عرضها ، فهو يورد آراء العلماء وينقد مايحتاج إلى نقد منها غالباً ، ويُبرز ماذهب إليه واضحاً مدعماً بالأدلة العقلية والنقلية ، لايجمد على قول ولايتعصب له ، ومن الأمثلة الواضحة على استقلال شخصيته العلمية وعدم جموده وتعصبه مايأتي:

١ - فسّر قوله تعالى ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾[1] فقال :

((خطابٌ للملكين:السائق والشهيد . وقيل إنه خطاب للواحد على أن يكون بالنون المؤكدة الخفيفة[2] ، ثم أبدل منها ألفاً على أن يكون معناه : أَلْقِ أَلْقِ ؛ فثنىّ مبالغة وتأكيداً ، وعلى أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم :

خليليّ وصاحبيَّ ، وهذا كله تكلف بعيد)) [3] .

٢ - وعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [4] قال :

﴿أَثْقَالَهَا﴾ جمع ثِقْل ، وإذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثِقْل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها .

وقيل : هي الكنوز ، وهذا ضعيف ؛ لأن إخراجها للكنوز وقت الدجّال . والمراد إخراج الموتى الذين في جوفها عند النفخة الثانية في الصور))[5] .

عاشراً : ذكر القصص والمواعظ :

ليّن السيوطيّ جفافَ بعض جوانب كتابه بذكر بعض المواعظ والرقائق والقصص والسلوكيات والإيمانيات مما جعل كتابه مشوّقاً إلى القارئ .

---

١ - سورة ق : آية ٢٤ .

٢ - أي أَلْقِيَنْ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤٤ .

٤- سورة الزلزلة : آية ٢ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥٢ ، وانظر للمزيد من الأمثلة : ١ / ٣٨٧ عند قوله : والأولى أن يقال ، وانظر - أيضاً - ١ / ٥٨٣ عند قوله : وقول بعضهم ... تعسف ، وانظر - أيضاً - ١ / ٦٣١ .

وهذا أمر تختلف فيه أنظار محققي عصرنا ؛ إذ يميل كثير منهم إلى أن إيراد مثلِ هذا يُقلل من قوة الكتاب العلمية ويضعف مباحثه ، ويذهب آخرون إلى أنه أمر مفيد مهم تلين به المادّة العلميّة وتُشوّق إلى القارئ ، ولعلّ الرأي الآخر هو الراجح ؛ إذ هذه هي طريقة الكتاب والسنة وتآليف كثير من علمائنا ومشايخنا ، وهذا كله بشرط ألاّ تُخرِج القَصصُ والمواعظ والرقائق وغيرها الكتابَ المؤلّف عن موضوعه الأساسيّ بالإكثار منها وحشرها حشراً في ثناياه .

هذا عرضٌ لمزايا الكتاب على وجه متوسط بين الإطالة والاختصار[1] .

سلبيات الكتاب

أما السَّلبيات التي قد تؤثر في درجة الكتاب فهي الآتي[2] :

١ – خَلْط بعض وجوه إعجاز القرآن بغيرها :

فقد ذَكر الإمام السيوطيّ بعضَ أنواع من علوم القرآن وعدَّها وجوهاً من وجوه الإعجاز ، وكذلك صنع بمباحثَ أصوليّةٍ ولغويّة حيث عدّها من وجوه الإعجاز وهي ليست كذلك ، وقد ذكر رحمه الله تعالى أنه ((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطّلاع على بعض معانيه فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك))[3] .

هذا وقد كان يلزمه – في تقديري – إن أراد إيرادها ألايكثرَ منها ، كما صنع ، وألا يعدها وجوهاً للإعجاز ، وأن يبين ماهو معجز من غيره ، إلا إن ظنّ أن وضوح عدم كونها من الإعجاز مُغْنٍ عن ذكره وتعيينه ، والله أعلم .

---

١ – سيأتي – إن شاء الله تعالى – تفصيل واسع مع ذكر الأمثلة لغالب هذه الميزات التي ذكرتها آنفاً ، وذلك في الباب القادم ، وهو مخصص لعرض ومناقشة منهجه في الوجوه التي ساقها في إعجاز القرآن .

٢ – هذه السلبيات هي المتكررة في ثنايا الكتاب ، وهناك سلبيات ومؤاخذات تختص بفصل أو مبحث سأبحثها في مكانها ، إن شاء الله تعالى .

٣ – ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

وسأبين - إن شاء اللـه تعالى - في الباب القادم بالتفصيل أوجه الإعجـاز مـن غيرها في الوجوه الخمسة والثلاثين التي أوردها في كتابه[1] .

٢ - عدم عزو كثير من الأقوال التي أوردها في كتابه :

قد أورد الإمام السيوطي مئـاتٍ مـن أقـوال الأئمـة ، عـزا بعضهـا و لم يَعْزُ كثيراً منها إلى مصادرها ، وهـذا يسبب إرباكاً للقـارئ ، فهو عندما يذكـر أقـوالاً لابن الجوزيّ[2] - مثلاً - ثم لايذكر مصدرهـا فـإن القـارئ سيصعب عليـه تحديـد ذلك المصدرِ بسبب كثرة كتب هذا الإمامِ .

نعم قد ينقل السيوطيّ قولاً عن أحد العلماء المقلين في التصنيـف أو عـن أحـد العلماء الذين يسهل معرفة مظـانّ كلامهـم فيعـرف القـارئ مِـن اسـم العَلَـم والمـادةِ المنقولة الكتابَ المنقول منه[3] .

وأيضاً قد ذكر السيوطيّ عشراتٍ بل مئات من الأقوال وأهمل قائليها فاكتفى بقوله: قال بعضهم ، أو : قيل ، أو : قال بعض المتأخرين ، أو : قال غيره إلخ ...

وهذا يحرم القارئَ من معرفة قائل ذلك ، ويصعب عليه جداً البحـث عنـه في مظانّه ، وقد يُضعف ذلـك الثقـة ببعـض ماينقلـه السـيوطيّ - رحمـه اللـه تعـالى - لإمكانية ورود السهوِ والغلط البشريّ عليـه ، وعـدمِ القـدرة - في الغـالب - علـى التأكد من صحة تلك الأقوال المرسلة ودقتها ، واللـه أعلم .

---

١ - انظر لتفصيل هذا البابَ الثالث القادم ، ص ٣٣٧ وما بعدها .

٢- هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسر أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ابن الجوزيّ . ينتهي نسبه إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي اللـه عنه . ولد سنة تسع أو عشر وخمسمـائة ببغـداد ، وسمـع من مـشايخ كثيرين ، وكان رأساً في التذكير بلا مدافعة . وصنف مصنفات كثيرة ، في بعضها أوهام وأخطاء بسبب عدم التحرير والمراجعة ، وله حِكم كثيرة وأقوال شهيرة . توفي سنة ٥٩٧ ببغداد . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢١ / ٣٦٥ - ٣٨٤ .

٣ - وذلك كنقل السيوطي عن الزركشي في ((المعترك)) مراراً ، والمعروف أن ذلك من كتابه ((البرهان في علوم القرآن)) .

٣ -كثرة النقل من كتبه الأخرى :

فقد صنّف جُلَّ مادةِ كتابِه من كتب له أخرى نقلها بالنص أو بالمعنى ، وقد يضيف عليها أو يختصرها قبل إثباتها في ((المعترك)) كما بينته قبلُ بالتفصيل[١] ، وهذا النقل الطويل مأخذٌ على المصنَّف إن أكثر منه المصنِّف - وهو ماصنعه الإمام السيوطيّ - لأن ذلك الصنيعَ يصعب معه الحكم على المصنِّف أو كتابه حكماً علمياً يظهر معه مزايا الكتاب وما جاء به من جديد في الأفكار أو الاستنباطات ؛ إذِ الكتاب - على الحقيقة - مؤلَّف ، في أكثره ، من كتب له أخرى ، ومافيه من جديد إنما مردّه إلى حسن التبويب والتصنيف والجِدّة في عرض بعض وجوه الإعجاز ، كما سأبين ذلك في الفصل القادم بالتفصيل ، إن شاء الله تعالى[٢] ، ومابينته في ذكر مزايا الكتاب يوضح مافي الكتاب من جِدّة وجهد ، أيضاً[٣] .

ولا يقال إن هذه - أي السلبيةَ المذكورة - تخالف ماجاء قبلُ من ذكر مزايا الكتاب وإيجابياته ؛ إذ كان الكلام هنالك على ميزة المادة المقروءة التي يطالعها القارئ ، ومافيها من جهد وجِدّة في الجمع والتقسيم ، والكلام هنا منصبٌّ على طريقة تأليف المادة نفسِها وجمعها من كتب أخرى ، فلا منافاةَ بينهما .

ولايُنسى أيضاً أن جُلَّ المادة المنقولة إنما هي من كتب السيوطيّ نفسِه وهو جهده وعلمه ، ولكني أقصد أن الكتاب لما فيه من كثرة النقول وطولها لم يتميز تميزاً واضحاً بحيث يستطيع الباحث الحكمَ عليه بمعزل عن غيره من كتب السيوطيّ ، والله أعلم .

---

١ - انظر الصفحات : ٢٣١ - ٢٤٦ ، ٢٥٧ من هذا البحث .

٢ - انظر الصفحة ٤١٤ وما بعدها ، وصفحة ٤٢٠ وما بعدها .

٣ - انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

٤ – النقل من الكتب دون الإشارة لذلك :

قد تكرر كثيراً في كتاب السيوطيّ نقله من كتب المصنفين ثم لايشير إلى هذا النقل ولايبينه ، فيبدو ذلك النصّ المنقول كأنه كلامه .

ومن الأمثلة على هذا :

١ – قوله في مبحث تنزلات القرآن :

((اتفق أهل السنة والجماعة على أن كلام الله – تعالى – منزل ، واختلفوا في معنى الإنزال ، فمنهم من قال : إظهارُ القراءة ، ومنهم من قال ...))[١] .

وبالرجوع إلى ((الإتقان)) : ١ / ٤٣ يتبين أن السيوطي ينقل ذلك من تفسير الأصبهاني[٢] .

٢ – في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز التي ساقها ذكر أنه هو ((حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادةَ العرب الذين هم فرسان الكلام ، وأرباب هذا الشان ، فجاء نطقه العجيب ، وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه ، ووقفت عليه مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولابعده نظير له))[٣] .

وهذا النصُّ هو ، تقريباً ، الوجهان الأول والثاني – مِن أوجه الإعجاز – اللذان ساقهما القاضي عياض ، رحمه الله تعالى ، ولم يُشِر السيوطي إلى ذلك[٤] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢١٠ .

٢- قد بينت في فهرس مصادر ومراجع السيوطي أن الأصبهاني هذا هو الراغب كما جزم بذلك أحد الباحثين ، انظر ص .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

٤- انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ .

٣ – في الوجه التاسع عشر من وجوه الإعجاز التي ساقها ذكر أنه هو ((إخباره بأحوال القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الداثرة ، مما كان لايعلم منه القصةَ الواحدة إلا الفذُّ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي – صلى الله عليه وسلم – على وجهه ، ويأتي به على نصه ، فيعترف العالِم بذلك بصحته وصدقه ، وأن مثله لم ينله بتعليم . وقد علموا أنه – صلى الله عليه وسلم – أميّ لايقرأ ولايكتب ولا اشتغل بمدارسة ...)) في كلام طويل[١] .

وهذا النص وبقيته منقول بحروفه من كتاب ((الشفا)) للقاضي عياض ، وهو الوجه الرابع من أوجه الإعجاز التي ساقها القاضي[٢] و لم يُشِر السيوطيّ إلى هذا النقل الطويل .

٤ – وكذلك فعل السيوطيّ في الوجه العشرين من وجوه الإعجاز – وهو روعته وهيبته – إذ نقله بنصه تقريباً من ((الشفا))[٣] ، و لم يبين ذلك .

٥ – وكذلك نقل الإمام السيوطي الوجه الحادي والعشرين من وجوه الإعجاز – وهو أن سامعه لايمجه ، وقارئه لايمله – نقله بنصه تقريباً من ((الشفا)) و لم يبين ذلك[٤] .

وللسيوطيِّ – رحمه الله تعالى – كلام في الحثّ على عَزْوِ العلم إلى قائله لم يلتزم به في كتابه هذا ، لكنه ادّعى دعوى لاتسلّم له أبداً بإطلاقها حيث يقول :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ – ٢٤٢ .

٢- انظر ((الشفا)) : ١ / ٣٧٩ – ٣٨٢ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١/ ٢٤٢ – ٢٤٤ ، و ((الشفا)) : ١/ ٣٨٤ – ٣٨٨ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ – ٢٤٥ ، و ((الشفا)) ١ / ٣٨٩ – ٣٩٠ .

((ومن بركة العلم وشكره عَزْوُه إلى قائله ... ولهذا لاتراني أذكر في شيء من تصانيفي حرفاً إلا معزواً إلى قائله من العلماء مبيناً كتابَه الذي ذُكر فيه !!))[1] .

وقال في كتاب آخر :

((وقد عَلِم الله والناسُ من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ونسبته إلى ناقله أداءً لشكر نعمته وبراءةً من دَرَكه وعهدته))[2] .

ولكن لعله يقال دفاعاً عن بعض مايهمل عزوَه - في هذه السلبية الرابعة وفي السلبية الثانية المذكورة آنفاً - مايأتي :

١ - قد تكون المعلومات قد استقرت في ذهنه لكنه لم يعد يعرف مصدرها ، وذلك لأنه إما أن يكون قد استقاها من شيوخه ، أو أن تلك المعلوماتِ مما حفظه قديماً ونسي مصدره[3] .

٢ - وقد يكون المنقول مما شاع وذاع بين طلاب العلم بحيث يكتفي بشيوعه عن نسبته إلى مرجعه .

٣ - لم يكن المرجع موجوداً لديه ساعة التصنيف .

هذا بعض ماقد يعتذر به للسيوطي ، لكن لما أكثر من ترك عزو الأقوال عددتُ ذلك من السلبيات في هذا الكتاب .

---

١ - ((المزهر)) : ٢ / ٣١٩ .

٢ - ((شرح مقامات السيوطي)) : مقامة ((الكاوي في تاريخ السخاويّ)) : ٢ / ٩٤٩ - ٩٥٠ .

٣ - ((السيوطي وجهوده في الدرسات اللغوية)) : ٢١٩ .

ولايخالف هذا أن السيوطيّ تغلب عليه الأمانة العلمية في نقل الكلام حتى بالإشارة كقال بعضهم ونحوه ، لكن الكلام هنا على ذكر المصادر والتصريح بها ، وذكر الأشخاص والتصريح بأسمائهم .

٥ – إيراده لعدد من الأحاديث الموضوعة :

مع أن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – إمامٌ من أئمة الحديث وحافظ من حفاظه ، إلا إنه أورد بعض الأحاديث الموضوعة الظاهرةِ البطلانِ في كتابه دون أن ينبه على وضعها أو ينقضَها ، ومما أورده من هذا النوع :

أ – حديث مكذوب – ولاشك – عن عبد الله بن سَلاَم[١] رضي الله عنه.

والحديث طويل ولكن ممّا جاء فيه :

((... قال يامحمد : فقرار الأرض من أي شيء ؟ قال : بالجبال . قال : وقرار الجبال بأي شيء ؟ قال : بجبل قاف . قال : وجبل قاف من أي شيء ؟ قال : من زمرّدة خضراء ، وخضرة السموات منه)) .

((... فهذه الأَرَضون على أي شيء ؟ قال : على الثور . قال : وكيف صفة الثور ؟ قال : له أربعة آلاف رأس مابين الرأسين مسيرة خمسمائة عام . قال : صدقت ...)) .

والخبر على هذا النَّسَق ، طويل ، مكذوب ، ولاشك .

ولم يكتف السيوطيّ بإيراده ، بل جَعل تصديقَ عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، دليلاً على وجود ذلك المسئول عنه في التوراة ، والخبر في جملته كذبٌ ووضع محض ، قال السيوطي :

---

١ – الإمام الحَبْر عبد الله بن سَلاَم بن الحارث الإسرائيليّ ، حليف الأنصار . من خواص أصحاب النبي ، صلى الله عليه وسلم . أسلم وقت هجرة النبي – صلى الله عليه – وقدومه . وكان من أحبار اليهود . توفي سنة ٤٣ رضي الله عنه . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢ / ٤١٣ – ٤٢٦ .

((فانظر تصديق عبد الله - حَبْرِ بني إسرائيل والمسلمين - لسيدنا ومولانا محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - لوجود ذلك كلّه في التوراة التي جعل الله فيها بيان كل شيء وتفصيله))[1] .

ومعنى كلامه هذا أن الحديث ثابت أو على الأقل غير موضوع مع أن علائم الوضع عليه ظاهرة .

قال ابن كثير[2] رحمه الله تعالى :

((وقد رُوي عن بعض السلف أنهم قالوا : (ق) : جبل محيط بجميع الأرض ، وكأن هذا - والله أعلم - من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لِما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لايُصدق ولا يُكذب . وعندي أن هذا وأمثالَه وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم يُلبسون به على الناس أمرَ دينهم ، كما افتُري في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديثُ عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، ومابالعهد من قِدَم ، فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلةِ الحفاظ النقاد فيهم ، وشربِهم الخمور ، وتحريفِ علمائهم الكلمَ عن مواضعه ، وتبديلِ كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله : ((وحدثوا عن بَني إسرائيل ولاحرج))[3] فيما قد يجوزه العقل ، أمّا فيما تُحيله العقول ويُحكم عليه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القَبيل ، والله أعلم)) [4] .

---

١ - انظر نص الحديث وكلام السيوطيّ في ((المعترك)) : ٣ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

٢ - هو الشيخ الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير البُصرويّ ، عماد الدين ، ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير ، ونشأ بدمشق ، وسمع من طائفة ، واشتغل بالحديث ، وجمع التفسير ، والتاريخ الذي سماه ((البداية والنهاية)) ، وله عدة مصنفات سارت في البلاد . كان كثير الاستحضار ، حسن المفاكهة .
مات سنة ٧٧٤ وكان قد أضرَّ في أواخر عمره . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١ / ٣٩٩ - ٤٠٠ .

٣- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء : باب ما ذكر عن بني إسرائيل : ٤ / ٢٠٧ .

٤- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٣٧٢ - ٣٧٣ .

ثم أورد أثراً يشابه الأثر الذي أورده السيوطي ، رحمهما الله تعالى ، وحكم عليه بالبطلان .

وقال الآلوسيّ[١] رحمه الله تعالى :

((وذهب القرافي[٢] إلى أن جبل قاف لاوجود له ، وبرهن عليه بما برهن ثم قال : ولايجوز اعتقاد مالا دليل عليه)) .

ثم ذكر أن الذي يذهب إليه هو نفسه الذي ذهب إليه القرافيّ - رحمهما الله - مِن أنه ((لاوجود لهذا الجبل بشهادة الحس فقد قطعوا هذه الأرضَ برَّها وبحرها على مدار السرطان مراتٍ فلم يشاهدوا ذلك ، والطعن في صحة هذه الأخبار[٣] أهون من تكذيب الحس ، وليس ذاك من باب نفي الوجودِ لعدم الوجدان[٤] ، كما لايخفى على ذوي العرفان))[٥] .

وقد قال ابن القيم[٦] - رحمه الله تعالى - منبهاً على ((أمور كلية يُعرف بها كون الحديث موضوعاً))[٧] :

١- هو الشيخ شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسيّ . جده الأعلى من (آلوس) جزيرةٍ في الفرات . ينتهي نسبه إلى سيد الخلق ، صلى الله عليه وسلم . ولد سنة ١٢١٧ .
كان صدرَ المدرسين ، مشغولاً بالإفتاء والتدريس بهمة عالية . أخذ عنه خلق كثير وقصدته الطلبة . له مصنفات عديدة ورسائل كثيرة . توفي سنة ١٢٧٠ ببغداد ، رحمه الله تعالى . انظر ((المسك الأذفر)) : ٦٤ - ٨٥ .

٢- هو الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصِّنْهاجيّ البهنسيّ المصريّ ، الإمام العلامة . انتهت إليه رئاسة الفتوى على مذهب مالك ، وجدّ في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى . كان إماماً بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية ، وله معرفة بالتفسير . تخرج به جماعة من الفضلاء . وله مصنفات سارت في الناس مسير الشمس . توفي سنة ٦٨٤ ، ودفن بالقرافة بمصر . انظر ((الديباج المُذْهب)) : ١ / ٢٣٦ - ٢٣٩ .

٣- أي الأخبار الواردة بذكر جبل قاف .

٤- أي إنه لم ينف وجود جبل قاف لعدم العثور عليه ، وإنما نفاه لاستحالة وجوده عقلاً .

٥- ((روح المعاني)) : ٩ / ١٧١ - ١٧٢ .

٦- هو الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرَعيّ الدمشقيّ ، شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبليّ . ولد سنة ٦٩١ . وكان جريء الجَنان ، واسعَ العلم ، عارفاً بالخلاف ومذاهب السلف . غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل ينتصر له في جميع ذلك . وكان كثير الصلاة والتلاوة ، حسنَ الخُلق ، كثير التودد . توفي سنة ٧٥١ بدمشق ، وكانت جنازته حافلة . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤ / ٢١ - ٢٣ .

٧- ((المنار المنيف)) : ٥٠ .

((منها أن يكون الحديث مما تقوم الشـواهد الصحيحـة علـى بطلانـه ... ومـن هـذا حديث :

((إن قاف جبـل مـن زَبَرْجَـدَة خضـراء تحيـط بالدنيـا كإحاطـة الحـائط بالبسـتان ، والسماء واضعة أكنافها عليه فزُرْقتها منه)) .

وهذا وأمثاله مما يزيد الفلاسفةَ وأمثالَهم كفراً))[1] .

وإنما سُقت هذه النصوصَ عن الأئمة الثلاثة المتقدمين ابن كثير والآلوسيّ وابن القيم لبيان وضع هذا الحديث وبطلانه ، ولأني لم أجد لـه ذكـراً في المصنفـات الـتي هي مظانّه بعد البحث الطويل والتفتيش الكثير ، خاصة في مصنفات السيوطيّ نفسه مثل ((الموضوعات)) ، و ((الدر المنثور)) ، و ((كنز العمال)) الذي أُلِّف مـن مادة ((الجامع الكبير)) .

ب – وأورد أيضاً حديثاً موضوعاً في فضل سورة الإخلاص قارن بينه وبين حديث آخرَ في فضل علي بن أبي طالب ، رضي اللـه عنـه ، وكـلا الحديثـين مـن الموضـوع الظاهرِ الوضع ، فاسمع إليه حيث قال :

((... وشَبَّهه بسورة الإخلاص[2] في قوله :

(من قرأ سورة الإخلاص مرّة واحدة فله ثواب ثلثِ هذه الأمّة ، ومن قرأها مرتـين فله ثلثا ثوابِ هذه الأمة ، ومن قرأها ثلاث مرات فله ثواب هذه الأمة) .

وقال : (من أحب علياً بقلبه فله ثلث ثواب هذه الأمة ، ومن أحبه بقلبه ولسـانـه

١– المصدر السابق : ٧٨ ، وإنما يزيد هذا الخبرُ الفلاسفة كفراً لأنهم قوم يستندون إلى الحس والعقل كثيراً ، ويحيلون أموراً ثبتت بالحديث الصحيح ، فكيف بهذا الحديث الموضوع وبطلانِ مافيه فإنـه يزيـد من شكهم في الأحـاديث المنقولة بجملتها ؛ وذلك لعدم علمهم بطرق نقل الحديث والحكم عليه .

٢– أي شبّه الرسول – صلى اللـه عليه وسلم – علياً ، رضي اللـه عنه ، بسورة الإخلاص .

فله ثلثا ثوابِ هذه الأمّة ، ومن أحبه بلسانه وقلبه وجوارحه فله ثواب جميعِ هذه الأمة)))[1] .

وهذان الحديثان لم أجدهما بعد طول بحث وتنقيب ، لكنهما من الأحاديث التي عليها علائم الوضع .

وأحاديث فضائل علي - رضي الله عنه - كثيرة جداً ، وكثير منها موضوع ، فقد ذُكر أن الرافضة وضعت في فضائل علي - رضي الله عنه - وأهلِ البيت نحوَ ثلاثِ مائة ألف حديث[2] .

وإنما قلت : هذان الحديثان عليهما علائم الوضع ؛ لما فيهما من ثواب عظيم مترتب على عمل يسير ؛ وقد ذكر ابن عَراق[3] أن من علائم الوضع في الحديث ((ركة لفظه ومعناه ... قال شيخ شيوخنا البرهان البِقاعيّ[4] :
ومما يرجع إلى ركة المعنى الإفراطُ بالوعيد الشديد على الأمر الصغير ، أو بالوعد العظيم على الفعل اليسير ، وهذا كثير في أحاديث القُصّاص .

١- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٥٥ .

٢- المنار المنيف : ١١٦ .

٣- هو الشيخ سعد الدين علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عَراق ، الفقيه المقرئ ، الشاميّ الحجازيّ ، الشافعيّ . ولد سنة ٩٠٧ ببيروت ، وحفظ القرآن العظيم وكتباً عديدة في فنون شتى . وكان ذا قدم راسخة في الفقه والحديث والقراءات ومشاركةٍ جيدة في غيرها ، وله قوة في نظم الأشعار الفائقة ، واقتدار على نظم الشعر . وكان أصمّ ، وولي خطابة المسجد النبويّ وإمامته . توفي بالمدينة سنة ٩٦٣ .
انظر ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٣٣٧ - ٣٣٨ .

٤- هو الشيخ الإمام إبراهيم بن عمر بن حسن البِقاعيّ ، برهان الدين . نزيل القاهرة ثم دمشق . ولد سنة ٨٠٩ بقريةٍ من أعمال البِقاع ونشأ بها ، ثم تحول إلى دمشق ثم فارقها ودخل بيت المقدس ثم القاهرة ، وبرع وفاق الأقران . مرّت عليه محن بالديار المصرية فانتقل منها إلى دمشق .
وقد حجّ ثم اعتزل الناس فأخذ عنه الطلبة في فنون ، وصنف التصانيف . توفي سنة ٨٨٥ بدمشق ، رحمه الله.
انظر ((البدر الطالع)) : ١ / ١٩ - ٢٢ .

قال ابن الجوزي :
وإني لأستحيي من وضع أقوام وضعوا : (من صلى كـذا فله سـبعون داراً ، في كـل دار سبعون ألف بيت ، في كل بيت سبعون ألف سرير ، على كـل سـرير سـبعون ألف جارية) وإن كانت القدرة لاتعجـز ولكـن هـذا تخليـط قبيـح ... وهـذا يفسـد مقادير موازين الأعمال))[1] .

فالعجب من الحافظ السيوطيّ - رحمه اللـه تعـالى - كيـف يـورد مثـل هـذا الذي أورده ولايتحرج منه ، وهوالإمام الحافظ الحجة[2] .

وإيراد مثل هذه الأحاديثِ في هذا الكتابِ ثُلمـةٌ كبـيرة وثغـرة واضحـة فيـه ، خاصة أن السيوطيّ أوردها و لم يتكلم عليها ، بل أوردها موافقاً عليها مستدلاً بها .

ولايقال إن السيوطيّ تسامح في نقل هذه الأحاديثِ وأمثالها لضعفهـا عنـده ؛ إذ هي ظاهرة الوضع والبطلان .

ولا يقال إنه رواها وهي موضوعة لأنه قال في حكم رواية الموضوع :
((وتحرم روايته مع العلم به - أي بوضعـه - في أي معنـى كـان ، سـواء الأحكـام والقصص والترغيب وغيرها ، إلا مبيناً - أي مقروناً ببيان وضعه ...))[3] .

فلا أدري وجه روايته لأمثال هـذه الأحـاديث ، خاصـة أنـه قرنهـا بمـا يؤكـد صحتها عنده حيث ذكر أن ((تصديق عبدِ اللـه حبرِ بني إسرائيل لسيدنـا ومـولانـا

---

١ - ((تنزيه الشريعة المرفوعة)) : ٧ .
٢ - انظر كذلك الأثر الذي أورده في الجزء ٣ آخر صفحة ٢٨٠ وصفحة ٢٨١ .
٣- ((تدريب الراوي)) : ١ / ٢٣٢ .

محمدٍ – صلى اللـه عليه وسلم – لوجود ذلك كله في التوراة ...))[1] .

وقال في الحديث الآخر : ((وشبهه بسورة الإخلاص في قوله : ((من قرأ ...))[2] .
فاللـه أعلم بالحامل له على ذكر هذه الموضوعات .

٦ – أخطاء علمية منهجية :

قد وقع السيوطيّ في أخطاء عجيبٌ أن يقع فيها إمام مثله ، فمن ذلك :

أ – خطأ عقديّ :

أورد أبياتاً منسوبة لعليٍّ – رضي اللـه عنه – جاء في آخرها :

وهذا العلم لايحويه إلا نبيٌّ أو وصيُّ الأنبياء[3] .

ثم إنه لم يردّ هذا اللفظ و لم يُفَنِّدْه .

وكلة (وصيّ) ابتدعها غلاة الشيعة ليثبتوا بها أن النبي – صلى اللـه عليه وسلم – وصّى بالخلافة لعلي – رضي اللـه عنه – نصًّا وكتمتها الأمة وغصبته حقَّه ، قاتلهم اللـه ماأجهلهم ، وماأجرأهم على خير القرون رضي اللـه عنهم[4] .

ب – تبني الآراء الضعيفة أو التي ليس عليها دليل :

ذكر الإمام السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – في كتابه قضيتين أغرب فيهما ،

١- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٦٦ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٥٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٢٠ .

٤- انظر للتفصيل في أمر رد هذه الوصية المزعومة : ((الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)) : ٤ / ١٥٧-١٧٥، وقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيميّة في الرد على من زعم بأن الرسول – صلى اللـه عليه وسلم – وصى بالخلافة لعلي رضي اللـه عنه ، انظر ((منهاج السنة النبويّة)) : ٦ / ٤٨٩ – إلى آخر الجزء ، والجزء السابع بتمامه ، والجزء الثامن من أوله إلى صفحة ٢٦٠ .

وكان ذلك الإغراب بسبب استناده إلى حديث ضعيف ، أو إلى رأي ضعيف ليس عليه نص صحيح صريح ، أو أنه لم يذكر نصاً في المسألة .

والقضية الأولى كانت تتناول عذاب الموحدين في النار ، والقضية الأخرى تتناول قصة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بأم المؤمنين زينب بنت جحش[1] ، رضي الله عنها .

أما القضية الأولى فلم يستند فيها إلى نص بل أرسلها إرسالاً فناقشته فيها وبينت مالعله يكون مستنداً له .

وأما القضية الأخرى فقد استند فيها إلى حديث ضعيف ، وإلى رأي ليس عليه دليل صريح .

وتفصيل القضيتين على النحو التالي :

أولاً : قضية تعذيب بعض الموحدين في النار :

قد ثبت في نصوص كثيرة أن بعض الموحّدين يدخل النار فيعذب فيها لذنوب ارتكبها ، ثم يخرج منها بعد ذلك برحمة الله وفضله ، فمن تلك النصوص قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾[2] .

وقوله تعالى ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3] .

ومن النصوص النبوية قوله ، صلى الله عليه وسلم :

((حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد ، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار ، أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار من كان لايشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لاإله إلا الله فيعرفونهم في النار بأثر السجود ؛ تأكل النار ابنَ آدمَ إلا أثر السجود ...))[4] .

١- هي زينب بنت جحش بن رَباب الأسديّة ، أم المؤمنين . أمها أُميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ماتت سنة عشرين في خلافة عمر رضي الله عنها ، أخرج لها الجماعة . انظر ((التقريب)) : ٧٤٧ .

٢- سورة التوبة : آية ١٠٦ .

٣- سورة التوبة : آية ٣٩ .

٤- هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : كتاب الرقاق : باب الصراط جسر جهنم : ٩ / ١٤٦ - ١٤٧ .

وقد بيّن النبي – صلى الله عليه وسلم – في آخر هذا الحديث حال آخر الموحدين دخولاً الجنةَ وكلامه مع الله تعالى فقال :
((ويبقى رجل مُقبل بوجهه على النار – وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة – فيقول : **أيْ ربّ : اصرف وجهي عن النار فقد قَشَبَني ريحُها** وأحرقني ذَكاؤها ...))[1] .

فهذا الحديث صريح في تعرض ذلك الرجل الموحِّد للعذاب .

ومن تلك النصوص التي تدل على وجود عذاب في النار وأنه يتفاوت ، من تلك النصوص قول النبي صلى الله عليه وسلم :
((إن أشدّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون))[2] .

فهذه النصوص – وأمثالها كثير – ثابتة قاطعة بأن بعض الموحدين ينالهم عذاب محدد مقدر في النار ثم يخرجون منها ولايخلدون فيها ، والمسألة أوضح من أن يُتكلم عليها ، لكن ذكر الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في كتابه أمراً يدل على أن العذاب الواقع على الموحدين في النار عذابٌ صوريٌّ وليس حقيقياً ، وقد ذكر هذا عند تفسيرقوله تعالى : ﴿ مُلِيم ﴾[3] فقال :
((﴿ مُلِيم ﴾ من اللوم ، وهو التعيير ، وذلك أنه فعل مايلام عليه في خروجه من قومه بغير إذن ربه ، فحبسه في بطن الحوت حتى طهره ، وأخرجه بتسبيحة واحدة .

١- المصدر السابق .
ومعنى ((قَشَبَني)) : آذاني وأهلكني وسمّني ، انظر ((فتح الباري)) : ٢٤ / ٢٨١ .و((ذَكاؤها)) : كثرة لهبها ، وشدة اشتعالها ووهجها . المصدر السابق ، و ((لسان العرب)) : ذكي .
٢- أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب اللباس : باب عذاب المصورين يوم القيامة : ٧ / ٢١٥ .
٣- سورة الصافات : آية ١٤٢ .

وكذلك المؤمن يحبسه في النار حتى يطهرَه من غير ألم يناله فيها ؛ لأن له عَقْدَ الوصلة[1] ، كأيوبَ حلف أن يضرب زوجته مائةَ سوط ، فأمره الله أن يأخذ بيده ضِغْثاً – وهو مِلْءُ كفّ من الحشيش – كي لاتتأذى امرأته بالضرب))[2] .

وقول السيوطي : ((وكذلك المؤمن يحبسه في النار حتى يطهره من غير ألم يناله فيها)) قولٌ ليس عليه دليل ، بل هو مخالف لكثير من النصوص التي تدلّ على أن بعض الموحدين يناله في النار عذابٌ محددٌ مؤقتٌ ، خاصة ما أوردته آنفاً من إخبار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن حال بعض أهل النار ، وعذابهم فيها ، وتضررهم من ذلك العذاب وتألمهم منه .

وتلك النصوص لاتخفى على الإمام السيوطيّ ، فلا أدري من أين أتى بذلك الرأي الغريب ، خاصة أن اللغة لاتسمح به ؛ إذ معنى العذاب فيها هو النكال والعقوبة[3] .

ولعل مستند الإمام السيوطيّ فيما ذهب إليه في هذه المسألة الحديثُ الذي ذكره في كتابه : ((البدور السافرة في أمور الآخرة)) –حيث قال :

((باب من دخل النار من الموحدين يموت فيها :

أخرج مسلم[4] عن أبي سعيد[5] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١- كأنه يعني الوصلة بين العبد وربه في الدار الآخرة ، ورؤيته ربَّه سبحانه وتعالى فيها .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥١٩ .

٣- انظر ((لسان العرب)) : ع ذ ب ، و ((مفردات ألفاظ القرآن)) للراغب : ع ذ ب .

٤- هو الإمام الكبير ، الحافظ المجوّد ، الحجة ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيريّ النيسابوريّ . ولد سنة أربع ومائتين – فيما قيل – وارتحل قبل سنة ثلاثين ، وسمع على مشايخَ كثيرين ، وسمع منه خلق كثير . وقد صنف صحيحه المشهور من ثلاث مائة ألف حديث ، وكان يُقدم في معرفة الحديث على أكثر المشايخ في عصره . توفي سنة إحدى وستين ومائتين في نيسابور ، رحمه الله تعالى .انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٢ / ٥٥٧ – ٥٨٠ .

٥- هو سعد بن مالك بن سنان الأنصاري ، أبو سعيد الخدريّ . له ولأبيه صحبة ، استصغر بأحد فشهد مابعدها ، وروى الكثير . مات بالمدينة سنة ثلاث وستين ، رضي الله عنه . انظر ((التقريب)) : ٢٣٢ .

أمّا أهل النار – الذين هم أهلها – فإنهم لايموتون فيها ولايحيون ، ولكنّ ناساً أصابتهم النار بذنوبهم – أو قال بخطاياهم – فأماتهم الله إماتةً حتى إذا كانوا فحماً أذن لهم في الشفاعة فيجيء بهم ضبائرَ[1] فبُثّوا على أنهار الجنة))[2] .

ثم ذكر الإمام السيوطي كلاماً للإمام القرطبي في هذه المسألة ، فقال :

((قال القرطبيّ :

هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية ، لأنه أكدها بالمصدر ؛ **وذلك تكريماً لهم حتى لايحسوا ألم العذاب** .

قال : فإن قيل : فأيّ فائدة في إدخالهم النارَ وهم لايحسون بالعذاب ؟

قلنا : يجوز أن يدخلهم النار تأديباً وإن لم يذوقوا فيها العذاب ، ويكون صرف نعيم الجنة عنهم مدة كونهم فيها عقوبةً لهم ؛ كالمحبوسين في السجون ؛ فإن الحبس عقوبة لهم وإن لم يكن معه غِلٌّ ولاقيد .

قال : ويحتمل أنهم يعذبون أولا وبعد ذلك يموتون ، ويختلف حالهم في طول التعذيب بحسَب جرائمهم وآثامهم[3] . ويجوز أن يكونوا معذبين حالة موتهم غير أن آلامهم تكون أخفّ من آلام الكفار ...))[4] .

ولكن هذا الحديث الذي ذكره الإمام السيوطي لايدلّ على ماذهب إليه من أن الموحّد يحبس في النار مدةً من غير ألم يناله ؛ وذلك لأن هذا الفهمَ لايثبت مع نصوص الأحاديث الأخرى الكثيرة المنبئة عن تألم الموحدين في النار وأنهم يخرجون بعد عقوبة تنالهم ، وليت شِعْري مالذي يردع عصاةَ الموحدين عن الذنوب إذا علموا أنهم لن تقع عليهم عقوبة أخروية ، إنما كل عقابهم أنهم يؤخرون ويحبسون

١- الضبائر : جماعات الناس ، وكل مجتمع : ضبارة . انظر ((لسان العرب)) : ض ب ر .

٢- أخرجه الإمام مسلم في كتاب ((الإيمان)): باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار : ٣ / ٤٠٨ .

٣- هذا هو الرأي الذي ارتضاه القرطبي فيما بعد جمعاً بين هذا الحديث والآثار الكثيرة المخبرة بعذاب أهل النار من الموحدين ، وسأورد كلامه آخرَ الكلام على هذه المسألة إن شاء الله .

٤- ((البدور السافرة في أمور الآخرة)) : ٣٥١ – ٣٥٢ وكلام القرطبي هذا في كتاب ((التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة)) : ٢ / ٤٥٦ .

فلا يدخلون الجنةَ إلا بعد حبس طال أو قَصُر ؟ وهل خوف الطائعين ، وتورع المتقين ، ودعاء العابدين إلا رغبةً في الجنة ونعيمها وخوفاً من النار وعذابها .

قال الإمام النووي[1] – رحمه الله تعالى – في معنى ((أماتهم إماتة)) وما بعدها :

((معناها أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله – تعالى – إماتةً بعد أن يعذَّبوا المدة التي أرادها الله – تعالى – وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس ، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ، ثم يميتهم ، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساسٍ المدةَ التي قدرها الله – تعالى – ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً ... هذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه .

وحكى القاضي عياض – رحمه الله تعالى – فيها وجهين : أحدهما أنها إماتة حقيقية ، والثاني ليس بموت حقيقيّ ولكن تغيّب عنهم إحساسهم بالآلام ، قال : ويجوز أن تكون آلامهم أخفّ ، فهذا كلام القاضي،والمختار ماقدمناه))[2] .

وقال الإمام ابن حجر[3] – رحمه الله تعالى – في سرد فوائد أحاديث باب الصراط جسر جهنم :

١- يحيى بن شرف بن مُرّي ، مفتي الأمة ، شيخ الإسلام ، محي الدين ، أبوزكريا النوويّ ، الحافظ الفقيه الشافعيّ الزاهد ، أحد الأعلام . ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة بـ (نوى) ، إحدى قرى حوران شمالَ الشام . قدم إلى دمشق فاجتهد في الاشتغال بالعلم ، وألف مصنفات نفع الله بها المسلمين ، واشتهرت ، وحُلبت إلى الأمصار . توفي بـ (نوى) سنة ست وسبعين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((فوات الوفيات)) : ٤ / ٢٦٤ – ٢٦٨ ، و ((الأعلام)) : ٨ / ١٤٩ – ١٥٠ .

٢- شرح صحيح مسلم للنووي : ٣ / ٤٠٨ .

٣- أحمد بن علي بن محمد ، الأستاذ إمام الأئمة ، أبوالفضل الكنانيّ العسقلاني المصري ثم القاهريّ الشافعيّ ، ويُعرف بـ (ابن حجر) وهو لقب لبعض آبائه . ولد سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة بمصر العتيقة ، ونشأ بها يتيماً ، وحفظ بعض المنظومات ، وأخذ على كثير من المشايخ ، وجدّ في الفنون حتى بلغ الغاية ، وأقبل على الحديث بكلّيته ، وارتحل في طلبه ، وتصدى لنشره وإقرائه . وَلِيَ عدة وظائف في الحسبة والإمامة والقضاء ، وله المصنفات النافعة المشهورة . توفي في القاهرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((الضوء اللامع)) : ٢ / ٣٦ – ٤٠ .

((وفيه أن جماعة من مذنبي هذه الأمةِ يعذبون بالنار ثم يخرجون بالشفاعة والرحمة ... وأن تعذيب الموحدين بخلاف تعذيب الكفار لاختلاف مراتبهم من أخذ النارِ بعضَهم إلى ساقه ، وأنها لاتأكل أثر السجود ، وأنهم يموتون فيكون عذابهم إحراقهم وحبسهم عن دخول الجنة سريعاً كالمسجونين ، بخلاف الكفار الذين لا يموتون أصلاً ليذوقوا العذاب ولايحيون حياةً يستريحون بها .

على أن بعض أهل العلم أوّل ماوقع في حديث أبي سعيد من قوله : ((يموتون فيها إماتةً)) بأنه ليس المراد أنه يحصل لهم الموت حقيقة وإنما هو كناية عن غيبة إحساسهم وذلك للرفق بهم ، أو كنى عن النوم بالموت ، وقد سمّى الله النوم وفاة .

وقد وقع في حديث أبي هريرة أنهم إذا دخلوا النار ماتوا فإذا أراد الله إخراجهم أمسّهم ألمَ العذاب تلك الساعة))[1] .

فالجمع الحسن في هذه المسألة - والله أعلم - أن المسلم إذا دخل النار فإنه يعذب بقدر ذنوبه ، ويموت موتة بقدر ماقدّر الله له من الحبس في النار تخفيفاً عنه ، وهذا الجمع هو مختار الإمامين النووي وابن حجر ، وهو أولى من رأي السيوطيّ أن الموحدين يحبسون في النار لكن لاينالهم ألم فيها ، وإنما كان أولى لجمعه بين النصوص المختلفة على وجه حسن ، وعدمِ مناقضته للثابت من نصوص الوعيد الدالّة على عذاب بعض الموحدين في النار عذاباً حقيقياً ، عافانا الله .

وهذا الجمع هو الذي انتهى إليه القرطبي - أيضاً - بعد تأويله الذي ذكرته آنفاً ، إذ قال :

((قلت : إن قال قائل :

١- ((فتح الباري)) : ٢٤ / ٢٨٦ ، ولم أجد الحديث المذكور عن أبي هريرة .

قد تقدم مِن حديث أبي سعيد الخدريّ أن مَن ليس من أهل النار[1] إذا دخلوها أُحرقوا فيها وماتوا ، على ماذكرتموه في أصح القولين ، وهذه الأحاديث التي جاءت في العصاة بخلاف ، فكيف الجمع بينهما ؟

قيل له : الجمع ممكن ، وذلك - والله أعلم - أن أهل النار الذين هم أهلها كما قال الله تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾[2] ... والعصاة بخلاف هؤلاء فيعذبون وبعد ذلك يموتون ...

وقد قيل إنه يجوز أن يكونوا متألمين حال موتهم ، غير أن آلام المؤمنين تكون أخفَّ من آلام الكفار ...))[3] .

وهذا الذي انتهى إليه القرطبي - أولا - هو الذي ذهب إليه الإمامان ابن حجر والنووي ، رحمهم الله جميعاً .

وبهذا يتبين ضعف رأي الإمام السيوطيّ الذي ذهب إليه في أن عذاب الموحِّد في النار عذابٌ صوريّ ، والله أعلم .

ثانياً : مسألة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بزينب بنت جحش ، رضي الله عنها :

ذكر الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، في مسألة زواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بزينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، كلاماً غير مقبول من إمام مثله ، فقد قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾[4] :

١- أي مخلد فيها .

٢- سورة النساء : آية ٥٦ .

٣- ((التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة)) : ٢ / ٥٥٦ - ٥٥٧ .

٤- سورة الأحزاب : آية ٣٧ .

وسوف أذكر في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، أن الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - قد ينتزع الشاهد من الآية انتزاعاً مُخلاً ليستقيم له وضعها تحت الحرف الذي ساقها فيه ، انظر ص ٤١٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وتمام الآية وكمال سياقها الدالّ على الموضوع المراد منها : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ .

((رُوي أنه – صلى الله عليه وسلم – ذهب يوماً لزيارة زيد ، فخرجت زينب كالشمس الضاحية ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فلما جاء زيد أخبرته بقوله – صلى الله عليه وسلم – ففهم أنها أعجبته ، ومن خصائصه – صلى الله عليه وسلم – إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقُها رِضاً له صلى الله عليه وسلم .

فأتى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال له : قد طلقتُ زينبَ يارسول الله .

فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ...))[1] .

والأمر العجيب من الإمام السيوطيّ ذِكرُه قضيتين في هذه المسألة ، وهما :

١ – سبب زواجه من زينب ، رضي الله عنها ، أنه وقوع بصره عليها وإعجابه بها .

٢ – قوله إن من خصائص النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقُها رِضاً له ، صلى الله عليه وسلم .

أما القضية الأولى – وهي سبب زواجه – صلى الله عليه وسلم – من زينب بنت جحش ، رضي الله عنها ، فإن السيوطيّ قد صدّرها بلفظ رُوي المشعر بالضعف ، ثم إنه اعتقد صحة ماذكره لأنه قال بعد ذلك :

((فإن قلت : قد حرّم الله عليه خائنة الأعين ، فكيف أخفى في نفسه حُبَّه طلاقَها من زيد ؟[2] فالجواب أن الذي أخفى إنما هو أمرٌ مباح لاإثم فيه ولاعَيْب ؛ أشفق على أمته من التسلط عليه بألسنتهم فيكون فيه هلاكُهم ...))[3] .

١– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٩٨ .

٢–لايظهر لي تناسقٌ بين شطري السؤال لكنه كذا ورد ، والمعنى المراد واضح والله أعلم .

٣– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٩٨ – ٣٩٩ .

وهذه القصة كلها باطلة ؛ فقد أخرجها ابن سعد[1] وغيره من طريق محمد بن عمر الواقديّ[2] عن عبد الله بن عامر الأسلميّ[3] عن محمد بن يحيى بن حَبّان[4] قال :

جاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بيت زيد بن حارثة يطلبه - وكان زيد إنما يقال له : زيد بن محمد ، فربما فقده رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الساعةَ فيقول : ((أين زيد)) ؟ - فجاء منزله يطلبه فلم يجده ، وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجتُه فُضُلاً[5] ، فأعرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنها فقالت : ليس هو هاهنا يارسول الله ، فادخل بأبي أنت وأمي ، فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدخل .

وإنما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها : رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الباب ، فوثبت عَجْلى ، فأعجبت رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - فولى وهو يُهمهم[6] بشيء لايكاد يُفهم منه إلا ربما أعلن : ((سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب ...)) والحديث طويل[7] .

١- محمد بن سعد بن مَنيع ، الهاشمي بالولاء ، البصريّ ، نزيل بغداد . كاتب الواقديّ . صدوق فاضل ، مات سنة ثلاثين ومائتين ، وهو ابن اثنتين وستين سنة . انظر ((التقريب)) : ٤٨٠ .

٢- محمد بن عمر بن واقد الأسلميّ الواقديّ ، المدنيّ ، القاضي . نزيل بغداد . متروك مع سعة علمه . مات سنة سبع ومائتين ، وله ثمان وسبعون سنة . انظر ((التقريب)) : ٤٩٨ .

٣- عبد الله بن عامر الأسلميّ ، أبوعامر المدنيّ . ضعيف . مات سنة مائة وخمسين أو إحدى وخمسين ، انظر ((التقريب)) : ٣٠٩ .

٤- محمد بن يحيى بن حَبّان الأنصاريّ المدنيّ . ثقة فقيه ، مات سنة إحدى وعشرين ومائة ، وهو ابن أربع وسبعين سنة . أخرج له الجماعة . انظر ((التقريب)) : ٥١٢ .

٥- رَجل فُضُل وامرأة فُضُل : أي في لباس واحد ، والفَضْلة : الثياب التي تُبتذل للنوم ؛ لأنها فضلت عن ثياب التصرف ، انظر ((لسان العرب)) : ف ض ل .

٦- الهَمْهمة : ترديد الصوت في الصدر . ((لسان العرب)) : همم .

٧- انظر ((المستدرك)) : ٤ / ٢٥ ، و ((طبقات ابن سعد)) : ٨ / ١٠١ - ١٠٢ .

وهذا الأثر ضعيف جداً ، وذلك لأن الواقدي متروك ، وعبد الله بن عامر الأسلمي ضعيف ، ومحمد بن يحيى بن حَبّان ثقة لكنه تابعيّ وقد أرسل هنا ، فمثل هذا الحديث لايثبت بوجه من الوجوه ، والله أعلم .

قال الإمام ابن العربي[1] :

((وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد ... فأما قولهم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - رآها فوقعت في قلبه فباطلٌ فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، و لم يكن حينئذ حجابٌ ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ولاتقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ؟ ... حاشا لهذا القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله له : ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2] ، والنساء أفتن الزهرات وأنشر الرياحين ...

وإنما كان الحديث أنها لما استقرت عند زيد جاءه جبريل : إن زينب زوجُك ، و لم يكن بأسرعَ أن جاءه زيد يتبرأ منها ، فقال له : اتق الله ، وأَمسِك عليك زوجَك ، فأبى زيد إلا فراقها ، وطلقها ، وانقضت عدّتها ، وخطبها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ... وأنزل الله القرآن المذكورَ فيه خبرُهما ... فقال : واذكر يامحمد إذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمتَ عليه : أَمسِك عليك زوجك ، واتّق الله في فراقها ، وتخفي في نفسك ماالله مبديه ، يعني من نكاحك لها ، وهو الذي أبداه لاسواه ...))[3] .

وإنما قال الله - تعالى - لنبيه ، صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾[4] لأن زيداً كان يسمّى زيدَ بن محمد ، فيخشى أن يقول الناس : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تزوج زوجَ ابنه[5] .

١- أبوبكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافريّ الإشبيليّ . إمام ، علامة ، حافظ ، متبحر . ولد سنة ٤٦٨ بإشبيلية ، ونشأبها ، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والعراق .كان حسن المعاشرة ، وقد تولّى القضاء في إشبيلية وكان صارماً فيه . له تآليف عديدة . توفي سنة ٥٤٣ ، ودفن في فاس . انظر ((الديباج المذهّب)) : ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٦ .

٢- سورة طه : آية ١٣١

٣- ((أحكام القرآن)) لابن العربي : ٣ / ٥٧٧ - ٥٧٨ .

٤- سورة الأحزاب : آية ٣٧ .

٥- انظر ((روح المعاني)) : ٢٢ / ٢٤ .

((وما كان محمد- صلى الله عليه و سلم - في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه إلى التلذذ ببنت عمه وزوجة مولاه ، ولا أن يُسمعها مايدلّ على شغَفه بها ، ولا أن تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها . وما كان رب محمد يُعلل شهوته ، ويرفّه من هواه فيما يخالف أمره ، وهو الذي نهاه أن يمد عينيه إلى مامتع به الناسَ من زهرة الحياة الدنيا ، ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن ذلك ، وتعالى شأن ربه عن هذا علوّاً كبيراً .

أما والله لولا ماأدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ماخطر ببال مطّلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه ؛ فإن نص الآية ظاهر جليّ لايحتمل معناه التأويل ، ولايذهب إلى النفس منه إلا أن العتاب كان على التمهّل في الأمر والتريّث به ، وأن الذي كان يخفيه من نفسه هو ذلك الأمر الإلهي الصادر إليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب ، وأن يتناول المِعْول ليهدمها بنفسه ... ولم يكن يمنعه عن إبداء ماأبدى الله إلا حياءُ الكريم ، وتُؤَدة الحكيم ، مع العلم بأنه سيفعل لامحالة لكن مع معاونة الزمان))[1] .

مما نقلته آنفاً يتبين خطأ ما نقله الإمام السيوطي وأَثبتَه في كلامه على تفسير هذه الآية .

أما القضية الأخرى فهي قوله : ((ومن خصائصه - صلى الله عليه وسلم - إذا وقع بصره على امرأة وأعجبته وجب على زوجها طلاقها - رضاً له - صلى الله عليه وسلم)) .

وقول السيوطيِّ هذا قد بيّنه أكثر في كتاب آخر له ، حيث قال :

((قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[2] ...

١- ((محاسن التأويل)) للقاسمي : ١٣ / ٤٨٧٥ ، نقلاً عمن أبهمه فقال : ((للإمام مفتي مصر - رحمه الله تعالى - مقالة على هذه الآية ، رأيت نقلها هنا تعزيزاً لما سلف ، وإيقافاً من أسرار الآية على نُخَب ما وصف)) : ١٣ / ٤٨٧٠ ، فلعلّ هذا المفتي هو الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى .

٢- سورة الأحزاب : آية ٦ .

ولو رغب في نكاح امرأة فإن كانت خليّةً وجب عليهـا الإجابـة وحـرم علـى غيره خطبتها ، وإن كانت ذاتَ زوج وجب علـى زوجهـا طلاقُهـا لينكحهـا للآيـة السـابقة ولقولــه تعــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية[1] ، . . . واستدلّ الغزاليّ[2] لوجوب التطليق بقصة زيد ...))[3] .

وقال الخفاجي رحمه الله تعالى :

((الأئمة الشافعية قالوا إنه من خصائصه – صلى اللــه عليـه وسـلم – أنـه يجـوز لـه النكاح بغير الرضى ، وأنه إذا رغب في نكاح امرأة لزم إجابته ، وحرم على غيره[4] خطبتها ، فإن كانت تحت زوج وجب عليه طلاقها لأنــه يجـب علـى كـل أحـد أن يكون رسول اللـه – صلى الله تعـالى عليـه وسـلم – أحـبَّ إليـه مـن نفسـه وأهلِـه وولده))[5] .

وقال الزُّرْقانيّ[6] ، رحمه اللـه تعالى ، مبيناً ضعفَ الاسـتدلال بتلـك القصـة – قصة زيد – على هذه المسألة :

((وفي هذا الدليلِ نظرٌ لابتنائه على أنه – صلى اللـه عليه وسلم – رغب في نكاحهـا لما رآها ، وقال : سبحان اللـه مقلب القلوب ، ففهمت زينب ذلك منـه وأخـبرت

١- سورة الأنفال : آية ٢٤ .

٢- الشيخ الإمام البحر ، حجة الإسلام ، زين الدين أبوحامد محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسيّ الشافعيّ الغزاليّ ، صاحب التصانيف والذكاء المفْرط . تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل ، وشرع في التصنيف ، وعظم جاه الرجل ، ثم رفض الرئاسة وتزهّد وحج ، وانعزل عن الناس مدةً ، وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله . توفي سنة خمس وخمسمائة بطوس ، رحمه اللـه تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٩ / ٣٢٢ – ٣٤٦ .

٣- ((الخصائص الكبرى)) : ٣ / ٢٩٧ .

٤- في المطبوع : غيرها .

٥- ((نسيم الرياض)) : ٤ / ٢٧٢ .

٦- محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزُّرقانيّ الأزهري المالكيّ . الإمام ، المحدث ، الناسك ، الفقيه ، العلامة . ولد سنة ١٠٥٥ بالقاهرة ، ونسبته إلى (زُرْقان) إحدى قرى مصر ، وله عدة مؤلفات نافعة . توفي بالقاهرة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف ، رحمه اللـه تعالى .

انظر ((سلك الدرر)) : ٤ / ٣٢ – ٣٣ ، و ((الأعلام)) : ٦ / ١٨٤ .

زيداً ففارقها ، وهذا منكر ، وعلى تقدير تسليمه لايدل على الوجوب ، إذ قوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ ﴾ صورة واقعة حال ، والصواب أن تطليق زيد لها لتعظمها عليه ، ولذا قال ابن الرِّفعة[1]: قصة زيد لاتدل على ذلك بل تدل على عكسه ، وبسط القول فيه بما يطول ذكره ، وكذا فعل ابن الصلاح[2] في كلامه على ((بسيط)) الغزاليّ))[3] .

وهذه مسألة فَرَضية لم تقع ، ولايحسن الكلام عليها وعرضها بهذه الصورة ؛ لأنها لم تحدث أصلاً ، والكلام فيها ضربٌ من التكلف ، ورحم الله الإمام السبكيّ[4] حيث قال :

((و لم يكن – صلى الله عليه وسلم – تعجبه امرأة أحد من الناس ، وقصة زينب إنما جعلها الله تعالى – كما في سورة الأحزاب – قطعاً لقول الناس : إن زيداً ابنُ محمد ، وإبطالاً للتبني .

قال : وبالجملة فهذا الموضع من منكرات كلامهم في الخصائص ، وقد بالغوا في هذا البابِ في مواضعَ ، واقتحموا فيها عظائمَ لقد كانوا في غنية عنها))[5] .

١- أحمد بن محمد بن علي المصريّ الشافعيّ ، نجم الدين ابن الرفعة . ولد سنة ٦٤٥ . اشتهر بالفقه إلى أن صار يضرب به المثل ، وإذا أُطلق الفقيه انصرف إليه من غير مشارك ، مع مشاركته في العربية والأصول . له مصنفات نافعة ، ووَلِي حِسبة مصرَ مدةً ، وناب في الحكم ، ثم عزل نفسه ، ومحاسنه كثيرة . توفي سنة ٧١٠ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١ / ٣٠٣ – ٣٠٦ .

٢- الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام ، تقي الدين أبوعمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكُرديّ الشَّهرَ زُوريّ الموصليّ الشافعيّ . ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، واشتغل على والده وغيره ، وجمع وألّف وأفتى ، وكان من كبار الأئمة ، ذا جلالة عجيبة وهيبة ووقار ، وفصاحة ، وعلم نافع . كان متبحراً في الفقه واللغة والحديث . توفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة بدمشق ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٣ / ١٤٠ – ١٤٤ .

٣- ((شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)) : ٥ / ٢٣٢ .

٤- أبو الحسن علي بن عبدالكافي بن عليّ السُّبكيّ ، الشيخ الإمام المحدث . ولد سنة ٦٨٣ ، وتفقه على والده وغيره ، وارتحل في طلب العلم . كان خيراً ، ديّناً ، متواضعاً ، من أوعية العلم ، وصنف التصانيف المتقنة . توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ١٠/ ١٣٩-٣٣٨ .

٥- ((شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)) : ٥ / ٢٣٥ .

جـ - أخطاء في قضايا في الرسم العثماني[١] :

ذكر الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - عدداً من مسائل الرسم العثمانيّ التي كثر النقاش فيها واختلفت فيها الأنظار ، وحامت حولها شبهاتٌ مريضة ، ذكرها السيوطيّ دون تفنيد ولامناقشة ، ولعل ذلك لشهرتها واستفاضة أجوبتها في زمانه .

لكن ذكرها في هذا الكتاب وأمثاله من الكتب فيه خطر على أذهان ناشئة زماننا حيث يتوهمون بسببها الخطأ في كتاب الله المصون ، وهي أيضاً مصدر سرور للمستشرقين وأذنابهم ليكيدوا بها المسلمين .

ومن هذه المسائل التي أوردها الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى :

أولاً : قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾[٢] :

في قراءة من شدد النون من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ﴾ وأبقى ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ على الرفع فلم ينصبها[٣] .

ومما قاله السيوطي في هذه المسألة :

((... وقالت عائشة : ((هذا مما لحن فيه كاتب المصحف)) ، وقد أكثروا في الكلام في هذه الآية وألفوا فيها تأليفاً))[٤] .

وإيراده قولَ عائشة هذا دون تفنيد أو مناقشة زلة علمية من إمام كبير مثل السيوطيّ ، رحمه الله تعالى .

١- قد مر (أ) و (ب) ، انظر ص ٣٠٥ .

٢- سورة طه : آية ٦٣ .

٣- قرأ ابن كثير وحفص بإسكان النون ، وقرأ الباقون بتشديدها ، وقرأ أبو عمرو بالياء في ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ جرياً على أصل الإعمال . انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٢٠ - ٣٢١ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٠٤- ٢٠٥ .

ثانياً : مسألة لفظ ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾[1] وماورد فيها :

وهذه مسألة أخرى مشابهة في خطورتها للمسألة السابقة ، حيث قال :

((... وقرأ علي بن أبي طالب : (وطَلْع منضود) - بالعين - فقيل له :

إنها بالحاء .

فقال : ماللطلح والجنة ؟

فقيل له : أنصلحها في المصحف ؟

فقال : المصحف اليومَ لايغيرّ))[2] .

والكلام على هاتين القضيتين بالتفصيل سيأتي في مكان آخر إن شاء الله تعالى[3] ، وإنما الغرض - هنا - بيان السَّلبية الكبيرة الحاصلة في نقل هذا الكلام دون تفنيد ولامناقشة .

٧ - **وهناك بعض السلبيات والمآخذ التي تتعلق** ببعض وجوه الإعجاز التي أوردها - رحمه الله تعالى - في كتابه ، وسأذكرها ، إن شاء الله تعالى ، بالتفصيل حال مناقشتي لتلك الأوجه في الباب القادم[4] .

٨ - **وهناك بعض المآخذ الخفيفة** التي سببها السرعة ، أوالوهم ، أو سبق القلم - ولايخلو من هذا بشر - غضضت الطَّرْفَ عنها جملةً إلا مثالاً واحد أذكره للبيان ؛ إذ يقول الإمام السيوطيّ عند قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا ﴾[5] .

قال :

((يعني : محمداً عبدنا ، فما أشرفها من إضافة ؛ لأنه قرنه بنون العظمة))[6] .

١- سورة الواقعة : آية ٢٩ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٥٢ .

٣- انظر الفصل الثالث من الباب الثالث القادم ، إن شاء الله تعالى ، ص ٥٤٣ وما بعدها .

٤- انظر ص ٣٣٧ ومابعدها .

٥- سورة القمر : آية ٩ .

٦- ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٣٥ .

والكلام ليس عن رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما هو عن رسول الله نوح عليه الصلاة والسلام .

وبعرض الميزات والسَّلبيات يتضح الآتي في منزلة الكتاب العلمية :

أولاً : الكتاب مصّنف من أنواع شتّى من علوم القرآن سيقت للدلالة على الإعجاز ، وقد جمع فيه المصنف عدداً ضخماً من الأدلة والآثار وأقوال سلف الأمة وخلَفها مما جعل الكتابَ مبسوطاً غاية البسط ، وصار أشبهَ شيء بما يسمى ((الموسوعة)) أو ((دائرة المعارف)) .

ثانياً : غلبت على الكتاب صفة الجمع والحشد للأدلة والأقوال ، ولم يظهر فيه جهد نقديّ واضح لما يَرِد فيه من آراء حتى ماكان منها في أمَسّ الحاجة لهذا النقد[1] ، ولا يخالف هذا ما ذكرته في موضع سابق من بيان لبعض ما ارتآه السيوطيّ خطأً فناقش قائله فيه[2] ؛ لأن تلك المناقشةَ كانت في جوانبَ جزئية من الكتاب لكن ماأعنيه هو :

(١) - غياب النقد الكلي لوجوه الإعجاز الواردة في الكتاب وتفنيد مايصلح أن يُلحق منها بالإعجاز وما يُمنع منه[3] .

(٢) - وأعني أيضاً غياب النقد للأخطاء العلميّة الواردة في الكتاب التي أشرت إليها قبلُ[4] .

١- مثل الفقرة الخامسة والسادسة من السَّلبيات المذكورة آنفاً ، انظر ص ٢٩٩ ، ٣٠٥ .

٢- انظر ص ٢٩٠ ، ٢٩٢ .

٣- انظر ص ٢٩٣ .

٤- انظر ص ٢٩٩ ، ٣٠٥ وما بعدها .

ثالثاً : مع أن عنوان الكتاب دالٌّ على الإعجاز إلا أن أكثره لم يَخْلُص لهذا المعنى ، إنما جاء الحديث عن الإعجاز في جوانبَ محدودةٍ منه ، وتُعُسِّف - في تقديري ، وكما سأسوق في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى ، عند عرض وجوه الإعجاز - في إلحاق كثير من مادة الكتاب بالإعجاز .

فالمصنف يملك قدرة فائقة على تسخير العلوم المتنوعة لعرض قضية الإعجاز ولو كان المشار إليه بأنه من الإعجاز ليس منه قطعاً ، وقد تخلص من هذه التَّبِعةِ بقوله :

((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطلاع على بعض معانيه فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك ...))[1] .

ويبقى سؤال هو :

لماذا جيء بقضية منزلة الكتاب العلمية قبل تمام عرض الكتاب ؛ وهو لايتم إلا بالبابين : الثالث والرابع ، وبهما يتضح بجلاء جهد المصنِّف ومنزلةُ ماصنفه ؟

والجواب : أنني قدمت هذا لأسباب هي :

١ - أردت أن أجعل ذلك مقدمةً وتمهيداً للدخول إلى الباب الثالث - منهج المؤلف في كتابه - حتى يُفهم مايأتي به الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - على الوجه الأتم ، حيث إن كثيراً مماجاء في ثنايا الكتاب لايعد من الإعجاز بحال .

٢ - لما كان الكتاب المتناوَلُ بالبحث ليس موضوعَ تحقيق لكن موضوع دراسة نقدية فإنه يحسن بالقارئ الاطِّلاع على مافي الكتاب من ميزات وسلبيات على وجه الإشارة والاختصار قبل ذكر بعضها بالتفصيل في مواضعها .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

٣ - كثير مما ذكرته في الميزات والسَّلبيات لاتعلق له بالبابين الثالث والرابع إنما هي قضايا منفردة تصح مناقشتها في أي مكان من الكتاب .

كان ذلك بياناً موجزاً لمنزلة الكتاب العلمية ، ويبقى أن يُنظر في هذه المسألة نظرة فاحصة بمقارنة منزلة الكتاب بين كتب الإعجاز السابقة عليه واللاحقة به ، وهو ماخصصت له الباب الرابع ، إن شاء الله تعالى[1] .

١- انظر ص ٦٠٤ وما بعدها .

المطلب الثاني : أثر الكتاب

الأثر في اللغة :

للأثر في اللغة معان عدة ، والمعنى المناسب هنا هو ((بقية الشيء ... وما بقي من رسم الشيء ... وأثّر في الشيء ترك فيه أثراً))[1] .

والمقصود – هنا – هو ماتركه الكتاب في نفوس معاصري المصنِّف ومن جاء بعده من تقدير أو عكسه ، ورضىً عنه أو سخطٍ عليه .

ولابد قبل الحديث عن أثر الكتاب من بيان أمرين مهمين أثّرا في رواج الكتاب في الأوساط العلمية :

الأمر الأول : اختلاف اسم الكتاب :

أكثر المصادر ذكرت هذا الكتابَ بعنوان ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) كما بينت ذلك قبلُ[2] ، وكان لهذا أثرُه في ذكر هذا الكتابِ أو الاستفادةِ من مباحث الإعجاز فيه في العصور التي تلت عصر الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ؛ إذ أن من يسمع بهذا العنوانِ لايدور في خَلَده إلا أن الكتاب خاصٌّ بالمشترك اللفظيّ في القرآن ليس غير فينصرف عنه من ليس له حاجة في بحث المشترك .

الأمر الآخر : تأخر طبعه :

تأخرُ طبع الكتاب إلى مابعد سنة تسعين من القرن الماضي أثر كثيراً في رواجه وانتشاره بين طلبة العلم ، حتى أن كثيراً منهم لم يسمع بالكتاب قطٌّ ، وإذا قارنّاه بكتاب السيوطي : ((الإتقان)) وهو أقرب كتبه – في مباحثه – إلى ((المعترك)) نجد أن ((الإتقان)) طُبع لأول مرّة سنة ١٢٧١ هـ[3] أي قبل ((المعترك)) بمائة

١- ((لسان العرب)) : أثر .

٢ – انظر ص ٢٧٠ وما بعدها .

٣- ((مكتبة الجلال السيوطيّ)) : ٥٣ .

وعشرين سنة تقريباً ، ثم توالت طبعاته وانتشر في العالم الإسلاميّ انتشاراً عظيماً خلافاً لـ ((المعترك)) .

هذان الأمران – خاصة الأول منهما – أدّيا إلى ندرة ذكره لدى من كتب في الإعجاز أو سرد المؤلفات فيه ، حتى أن الشيخ طاش كبري زاده[1] قد ذكر كتاب ((معترك الأقران)) في فصل ((علم معرفة الوجوه والنظائر))[2] – وهو المشترك اللفظيّ – ولم يذكره في فصل ((علم معرفة إعجاز القرآن))[3] مع أنه مَظِنَّة ذِكره ، ولعل هذا لأنه لم يطّلع على محتواه .

وللتمثيل أيضاً على خفاء موضوع الكتاب لاضطراب عنوانه وتأخر طباعته فإن الأستاذ نعيم الحمصي – وهو ممن حاول استيعاب كثيرٍ من كتب الإعجاز مطبوعةً كانت أو مخطوطة ، من القرن الثالث إلى الرابع عشر – لم يتعرّض لذكره في كتابه ، ولعله لم يطلع على هذا الكتابِ لندرته وخفاء عنوانه ، وإنما قلت ذلك لأنه عندما ذكر المصنفين في الإعجاز من أهل القرن العاشر ذكر منهم الإمام السيوطيّ وأنه أفرد فصلاً من كتابه : ((الإتقان)) لموضوع الإعجاز[4] ، فلو أن الباحث اطّلع على الكتاب الذي أفرده السيوطي للإعجاز – وهو ((المعترك)) – لذكره بدون شك ، لأهميته في موضوع كتابه .

لكن ((المعترك)) منذ أن طبع أصبح موضع نظر الباحثين والدارسين للإعجاز وعلوم العربية ، وقد استفاد منه كثيرون سيأتي ذكرهم قريباً ، إن شاء الله تعالى .

١- هو الشيخ أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل . مورخ تركي الأصل ، مستعرب . ولد في بورصة ونشأ في أنقرة . تأدب وتفقه وتنقل في البلاد التركية مدرساً للفقه والحديث وعلوم العربية ، تولى القضاء في القسطنطينية . توفي سنة ٩٦٨ . انظر ((الأعلام)) : ١ / ٢٥٧ .

٢- ((مفتاح السعادة)) : ٢ / ٣٧٧ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٤٨٢ .

٤- ((فكرة إعجاز القرآن)) : ١٦١ - ١٦٣ .

بعد هذا البيانِ يُقسّم أثر الكتاب إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أثره في المصنفات التي صنفها علماء جاؤوا بعد الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – فضمنوا كتبهم نقولاً من ((المعترك)) ، أو جرى ذكره في مصنفاتهم .

القسم الثاني : أثره في الدراسات الحديثة التي تعرضت لـ ((المعترك)) بالدراسة والنقد .

القسم الثالث : أثره في الدراسات التي استفادت من ((المعترك)) فكان مرجعاً من مراجعها .

أما القسم الأول – وهو أثر الكتاب في المصنفات التي صنفها علماء جاؤوا بعد السيوطيّ – فإني لم أجد ذكراً له إلا في الكتب الآتية :

١ – ذكره طاش كبرى زاده في كتابه ((مفتاح السعادة)) حيث قال في فصل : علم معرفة الوجوه والنظائر :

((فالوجوه : اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معانٍ – كلفظ (الأمر) – وكتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) للسيوطيّ كافٍ في هذا الفنّ))[1] .

٢ – ذكره حاجي خليفة[2] حيث قال :

((((معترك الأقران في مشترك القرآن)) لجلال الدين السيوطيّ المتوفى سنة ٩١١))[3] .

---

١ – ((مفتاح السعادة)) : ٢ / ٣٧٧ .

٢ – الشيخ مصطفى بن عبد الله كاتب حلبي ، المعروف بالحاج خليفة ، مورخ بحاثة ، تركيّ الأصل مستعرب . ولد سنة ١٠١٧ في القسطنطينية . تولىّ أعمالاً كتابية في الجيش العثمانيّ ، وانقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى تدريس العلوم ، وله عدة مصنفات بالعربية والتركية والفارسية . توفي – رحمه الله تعالى – في القسطنطينية سنة ١٠٦٧ . انظر ((الأعلام)) : ٧ / ٢٣٦ – ٢٣٧ .

٣ – ((كشف الظنون)) : ٢ / ١٧٣١ .

و لم أعثر على مايدل على أن حاجي خليفة اطلع على الكتاب ، والله أعلم .

٣ – ذكره إسماعيل باشا البغدادي[1] باسم ((معترك الأقران في مشترك القرآن))[2] أيضاً ، و لم أعثر على مايدل أنه اطّلع عليه ، والله أعلم .
هذا ماوجدته من كلام المصنفين القدامى الذين أتوا بعد السيوطي – رحمهم الله تعالى – إلى بدايات العصر الحديث ، فيما يتعلق بذكر كتاب ((معترك الأقران)) .

وكلامهم على الكتاب يقتصر على ذكر عنوانه وموضوعه كما في ((مفتاح السعادة)) ، أو عنوانه فقط كما في الكتابين الآخريْن .

هذا وليُعلم أني قد بحثت عن مظان استفادة العلماء والمشايخ من كتاب ((معترك الأقران)) في عدد من كتب العلوم الشرعية واللغوية من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر فلم أجد إلا ماقدمته ، والله أعلم .

أثر الكتاب في الدراسات الحديثة

أما القسم الثاني فهو : الدراسات الحديثة التي تعرضت لـ ((المعترك)) بالدراسة لبعض جوانبه والنقدِ الجزئيّ لها ؛ فقد اعتنى بكتاب السيوطيِّ – رحمه الله تعالى – عددٌ من الباحثين المُحْدَثِين ، وضمنوه دراساتِهم اللغوية والقرآنيّة ، وتلك الدراسات التي اطّلعت عليها هي :

---

١ – هو إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني البغدادي . عالم بالكتب ومؤلفيها . أقام زمناً قرب الآستانة مشتغلاً بإكمال كتابه ((إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون)) بجلدان . توفي سنة ١٣٣٩ ، رحمه الله تعالى . انظر ((الأعلام)) : ١ / ٣٢٦ .

٢ – ذكره في سياق تعداد مصنفات السيوطي في كتابه ((هدية العارفين)) : ١ / ٥٣٥ – ٥٤٤ ، وذكر ((المعترك)) في صفحة ٥٤٣ .

١- كتاب ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغويّة))
تأليف الدكتور : عبد العال مَكْرَم .

أفرد – حفظه الله- فصلاً في كتابه بعنوان : ((أثر السيوطيّ في الدراسات اللغويّة من خلال القرآن الكريم))[١] ، وجعل قسماً منه للحديث عن المشترك اللفظيّ في القرآن الكريم ، وذكر أن ((من أعظم المؤلفات التي ألّفها السيوطي في حقل الدراسات اللغويّة القرآنية كتابه : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))))[٢].

ثم بعد حديث مختصر عن الكتاب وجهد السيوطيّ في تصنيفه عرّج على أمثلة من المشترك اللفظيّ في كتاب ((المعترك)) ، فذكر خمس عشرة كلمة قرآنية – على سبيل المثال – من المشترك اللفظيّ الذي جاء به السيوطيّ في الوجه الخامس والثلاثين من وجوه الإعجاز التي ساقها في ((المعترك))[٣] .

ثم إن الباحث ذكر في الفصل الثالث نفسِه في قسم : غريب القرآن الكريم[٤] ، ذكر نماذج من الألفاظ التي عدّها السيوطيّ من قسم الغريب في القرآن ، فأورد تسع عشرة كلمة قرآنية من هذا الباب من جملة الكلمات الكثيرة التي ذكرها السيوطيّ في ((معترك الأقران))[٥] مع مناقشة يسيرة للسيوطي فيما ذهب إليه في معنى الغريب[٦] .

١- انظر الفصل الثالث من الباب الثاني : ص ٤٨٥ .

٢- ص ٤٩٨ ، وهذا الذي أشار إليه : ((حقل الدراسات اللغوية القرآنية)) جاء على سبيل التغليب ، وإلافغي الكتاب دراساتٌ أصولية وفقهية وعقديّة وغيرها ، كما سأبين في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى .

٣- ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية)) : ٥٠٠ – ٥١٢ .

٤- ذكر الباحث أن الرافعيّ – رحمه الله تعالى – عرف الغريب بقوله : ((في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة فإن القرآن الكريم منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغربية هاهنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لايتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس)) : انظر ص ٥٤٠ من كتاب ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغويّة)) .

٥- ١/١٩٩-٢٠٤ .

٦- ((جلال الدين السيوطيّ وأثره في الدراسات اللغوية)) : ٥٤٥ – ٥٤٧ .

ولكني أظن أن الباحث - حفظه الله تعالى - وهم في بعض صنيعه هذا ، حيث إنه ظنّ أن السيوطيّ ((يرجع في الغريب إلى الكلمات والألفاظ التي وردت بغير لغة الحجاز ، كأن الغريب عند السيوطيّ هو الكلمات القرآنية التي ليست حجازية ، فقد عقد فصلاً في هذا الكتاب بعنوان : ((مافي القرآن بغير لغة الحجاز)) ...))[1] .

وبنى على وهمه هذا أنه عقد فصلاً بعنوان : ((ماجاء بغير لغات أهل الحجاز فهو من الغريب))[2] ، فأنشأ قاعدة ليس لها أصل ، ومنشأ وهمه - والله أعلم - أنه أخطأ في قراءة كلام السيوطيّ حيث قال :
((وهذه الألفاظ الواردة في القرآن بغير لغة الحجاز ، **وأما ماوقع فيه بغير لغة العرب فنذكر تفسير الغريب على حروف المعجم**))[3] .

فالسيوطيّ إنما يريد - والله أعلم - تذكيرُ القارىء بأن ماوقع في القرآن **بغير لغة العرب** فسيذكر تفسير الغريب منه في الوجه الخامس والثلاثين من وجوه الإعجاز التي ساقها في كتابه ، وأشار إلى ذكره هنالك بقوله ((على حروف المعجم)) حيث إن ذلك الوجه مرتب على حروف المعجم[4] ، أما مافي القرآن بغير لغة الحجاز فقد ساقه كلّه و لم يذكر أنه من الغريب .
وللتدليل على صحة ماذهبتُ إليه فإني أذكر أمرين :

١- المصدر السابق : ٥٤٥ .

٢- المصدر السابق .

٣- ((معترك الأقران)) : ١٩٩/١ .

٤- هناك خلط كبير في ترتيب الوجه الخامس والثلاثين ، وسوف أبين ذلك في موضعه ، إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

الأول : أن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – بعد فراغه من إيراد مافي القرآن بغير لغة الحجاز نقل فائدة وهي أنه ((ليس في القرآن حرفٌ غريب من لغة قريش غير ثلاثة أحرف ...))[1] ثم ذكرها .

وهذا يدل على أن السيوطيَّ يذهب إلى أن في لغة الحجاز ألفاظاً غريبة ، خلافاً لما قعّده الباحث ، حفظه الله.

الآخر : بمراجعة بعض ماجاء في الوجه الخامس والثلاثين يتبين أنّ السيوطيّ قد أورد فيه بعض الألفاظ القرآنية التي يُظن أنها من غير لغة العرب[2] موفيا بما وعد به من قوله الذي سقته آنفاً :

((وأما ماوقع فيه بغير لغة العرب فنذكر تفسير الغريب على حروف المعجم))[3] .[4]

وبهذا يتبين وهم الباحث – حفظه الله– من نسبته إلى السيوطيّ – رحمه الله تعالى – القولَ بأن الغريب هو ماوقع في القرآن بغير لغة الحجاز ، والله أعلم .

وقد ذكر الباحث نصوصاً من كتاب ((المعترك)) في مواضعَ متعددةٍ من كتابه لغرض بيان إخلاص السيوطيّ – رحمه الله تعالى – وتجردِهِ في تصانيفه[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢٠٦/١ .

٢- سأناقش قضية وجود المعرّب في القرآن ومايُظن من كونه حاوياً لغةَ غير العرب في الباب القادم إن شاء الله تعالى ، انظر ص ٣٦٨ ومابعدها .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢٠٦/١ .

٤- انظر – مثالاً – ألفاظ : آدم ، إدريس ، إبراهيم ، إسحاق ، اليسع ، إسرائيل في ((معترك الأقران)) : ٥١٩/١ – ٥٢٢ .

٥- انظر الصفحات ٣٠٣ ، ٤٩٨– ٥٠٠ من كتاب ((جلال الدين السيوطيّ وأثره في الدراسات اللغوية)) .

٢-كتاب ((قطف الأزهار في كشف الأسرار))
لجلال الدين السيوطيّ

قام محقق هذا الكتاب[١] بعمل مقارنة بين كتاب ((معترك الأقران)) وبين كتاب ((قطف الأزهار)) من حيث المنهج .

ولقد جاءت هذه المقارنة سطحية ، لم تزد على صفحتين ، وصف بهما كتاب ((معترك الأقران)) وصفاً سريعاً ، وقارن بينه وبين ((قطف الأزهار)) مقارنة عَجْلى ، وأدى ذلك بالمحقق إلى أن يردد بعض كلام السيوطيّ في ((معترك الأقران)) ، وإلى أن يُصدر أحكاماً ينقصها الدقة كقوله :
((هذا الكتاب يبحث في وجوه إعجاز القرآن ، وهو من الكتب التي تحيط بهذا الموضوع **وتجمع كل ماقيل فيه**))[٢] .

وكقوله عن الوجه الخامس والثلاثين - وهو ألفاظه المشتركة - :
((قد جمع فيه ألفاظاً من القرآن ، ورتبها على حسب حروف الهجاء ، وفسرها ، ورجع في كل ذلك إلى **كل كتب التفسير والحديث واللغة وغيرها**))[٣] .

وهذه الكليات مدّعاة تنقصها الدقة والدراسة العلمية الجادّة ؛ لكن لعلّ للمحقق عذراً في صنيعه هذا لم يظهر لي ، والله أعلم .

١- وهو الدكتور أحمد الحمّادي،قدنال بهذا التحقيق درجة ((الدكتوراه)) في التفسير ، انظر ((قطف الأزهار)) : ٨ .

٢- ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) :٨٣ .

٣- المصدر السابق .

٣- ((السيوطيّ وجهوده في الدراسات اللغويّة))
تأليف الأستاذ محمد يعقوب تركستاني

الكتاب رسالة ((ماجستير)) أعدها الباحث وتقدم بها لجامعة أم القرى[١].
وقد اجتهد الأستاذ الباحث في دراسة مصنفات السيوطيّ في اللغة ، وقام بدراسة عن آثاره اللغوية المطبوعة والمخطوطة والمفقودة[٢] ، وكان من هذه الكتب : كتاب ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) كما سماه[٣] .

وهذه الدراسة التي قام بها الأستاذ الباحث دراسة خفيفة غير فاحصة للكتاب ؛ ولهذا خرج بنتائجَ غيرِ دقيقة منها :

١- قطع بأن اسم الكتاب : ((معترك الأقران في مشترك القرآن)) ، ولام الأستاذَ البجاوي محقق الكتاب لأجل تغييره عنوانَ الكتاب في زعمه ، وقد ناقشته في هذا سابقاً[٤] .

٢- زعم بأن الإمام السيوطيّ أحاط بوجوه الإعجاز في القرآن الكريم إحاطة تامة ، وهذا زعم ليس وراءه دراسة وافية ، كما سيتضح عند مناقشة السيوطي في وجوهه التي أتى بها في كتابه - إن شاء الله تعالى - حيث سيظهر أن بعض أوجه الإعجاز المهمة طَرَقها السيوطيّ طَرْقاً خفيفاً غير وافٍ[٥] ، أو لم يتناولها بالبحث أصلاً[٦] .

١- سيأتي وصفها في فهرس المراجع والمصادر ، إن شاء الله تعالى .

٢- في الفصل الأول من رسالته ص ٥٣ وما بعدها .

٣- وقد أتى على ترجيحه هذا بما لاينهض حجةً له ، كما ذكرت سابقاً ، انظر ص ٢٧٦ وما بعدها من هذا البحث .

٤- انظر ص ٢٧٦ وما بعدها من هذا البحث ، وانظر ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٥- انظر الباب الثالث : الفصل الأول ص ٣٧٦ - ٣٧٩ ، وانظر ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٦- انظر ص ٣٥٠ - ٣٥٢ من هذا البحث .

٣- زعم بأن الذي دعا السيوطيَّ لتأليف الكتاب هو الألفاظ المشتركة في القرآن الكريم دون أن يأتي على زعمه هذا بدليل واضح[١] .

هذا عدا عن مبالغته الكبيرة في إطراء صنع السيوطيّ في كتابه كقوله :
((وقارىء الكتاب يحس أن السيوطي لم يترك كتاباً أُلف في موضوع المشترك اللفظيّ في القرآن الكريم ومايتصل به إلا قرأه واستعان به في كتابه ، ولذلك فهو يُعدّ بحق مرجعاً في موضوعه لايستهان به))[٢] .

هذا و لم يذكر الباحث - حفظه الله تعالى - أن أغلب ماجاء في المشترك اللفظيّ عند السيوطيّ ليس من المشترك بحال ، كما سأبين بعدُ ، إن شاء الله تعالى[٣] .

١- ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : ٦٢ .

٢- المصدر السابق : ٦٣ .

٣- انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

٤- ((دراسات في الإعجاز العدديّ بين الماضي والحاضر في ضوء الكتاب والسنة)) للأستاذ مصطفى عمر الكَنَديّ ، رحمه الله تعالى[١]

وهي رسالة ((ماجستير)) أعدها الباحث فيما يسمّى بـ ((الإعجاز العدديّ)) في القرآن الكريم[٢] .

وقد ذكر الباحث - رحمه الله تعالى - في مبحث منها كلاماً موجزاً عن توسع بعض العلماء في وجوه الإعجاز [٣]، وعدَّ بعضَ من ألّف في الإعجاز القرآنيّ من القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر .

وكان ممن ذكرهم الإمامُ السيوطيّ وكتابُه : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) حيث بيّن أن الكتاب يحوي خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز ، ثم سردها ، وكان حاصل نقده لهذه الأوجه هو :

١- أن بعضها داخل في بعض حيث إن عدداً منها يرجع إلى أصل واحد .

٢- أن عدداً منها لايُعدّ من الإعجاز بل هو من خصائص القرآن[٤] .

وسيأتي بيانٌ لهذه الأوجهِ ونقدها بالتفصيل في الباب القادم ، إن شاء الله تعالى[٥] .

١- هو أحد المهتدين الكنديين ، وقد انتقل إلى رحمة الله تعالى - إن شاء الله - قبل سنوات قليلة .

٢- أُعدت في جامعة أم القرى ، ونوقشت سنة ١٤٠٩ .

٣- صفحة ٩٣ ومابعدها .

٤- ((دراسات في الإعجاز العدديّ)) : ٩٩-١٠٣ .

٥- انظر ص ٣٣٧ ومابعدها من هذه الرسالة .

هذا ماوقفت عليه من الكتب التي تناولت - في مبحث أو مباحثَ منها - كتابَ الإمام السيوطيّ بالدراسة والنقد الجزئي .

أمّا القسم الثالث وهم الباحثون الذين اعتمدوا كتاب ((المعترك)) مرجعاً من مراجع بحوثهم فهم جماعة كُثُرٌ معاصرون منهم :

١- الدكتور أحمد العمري في كتابه ((المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآنيّ : نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري[1])) .

٢- الأستاذ ناصر المطروديّ في تحقيقه لكتاب ((التيسير في قواعد علم التفسير))[2] للإمام محمد بن سليمان الكافِيَجيّ .

٣- الشيخ خالد العك في كتابه : ((أصول التفسير وقواعده))[3] .

٤- الدكتور فتحي عبد القادر فريد في تحقيقه لكتاب ((التحبير في علم التفسير)) للسيوطيّ[4] .

٥- الأستاذ محمد شعباني في تحقيقه لكتاب ((البرهان في ترتيب سور القرآن))[5] للإمام أبي جعفر الغرناطيّ[6] .

١- نشر مكتبة الخانجي ، القاهرة : ١٤١٠ هـ .

٢- الكتاب رسالة ماجستير حُضرت في جامعة الإمام محمد بن سعود ، وهو من منشورات دار القلم بدمشق ودار الرفاعيّ بالرياض . الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

٣- نشر دار النفائس : بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .

٤- سبق بيان علاقة هذا الكتاب بـ ((المعترك)) ، انظر ص ٢٤٧ وما بعدها من هذه الرسالة .

٥- هذه رسالة لنيل دبلوم الدراسات الإسلامية من دار الحديث الحسنية بالمغرب ، نشر وزارة الأوقاف المغربية سنة ١٤١٠ هـ .

٦- هو الشيخ الإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبو جعفر الأندلسيّ الغرناطي . ولد سنة ٦٢٧ ، وتلا بالقراءات السبع ، وجمع وصنّف ، وصار علامة عصره في الحديث والقراءة ، وتصدر للإقراء وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عاكفاً على ذلك عامة نهاره ، وصارت الرحلة إليه . وقد حصلت له محنة تحوّل على إثرها عن وطنه ثم فرج الله عنه . توفي بغرناطة سنة ٧٠٨ ، رحمه الله تعالى . =

٦- الدكتور عبد الجواد خلف في تحقيقه كتاب ((غُرر التبيان في من لم يُسَمّ في القرآن))[١] تأليف الإمام بدرالدين ابن جماعة[٢] .

٧- الأستاذ محمد عبدالكريم الراضي في تحقيقه لكتاب ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر))[٣] للإمام ابن الجوزي ، رحمه الله تعالى .

٨- الأستاذة هند شلبي في تحقيقها لكتاب ((التصاريف))[٤] للإمام يحيى بن سَلاّم[٥] .

٩- الدكتور عبدالعظيم المطعني في كتابه : ((المجاز في اللغة والقرآن الكريم بين الإجازة والمنع : عرض وتحليل ونقد))[٦] .

هذا ما تيسر لي من الكلام على أثر كتاب الإمام السيوطيّ ، وبه ينتهي هذا الباب الذي يعدّ هو والباب الأول ممهديْن لمباحث البابين : الثالث والرابع ، والله الموفق .

= انظر ((الدرر الكامنة)) : ١/٨٩-٩٠ .

١- هي رسالة جامعية من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة البنجاب بباكستان ومن نشر دار قتيبة ، دمشق ، الطبعة الأولى سنة ١٤١٠ هـ .

٢- هو الشيخ الإمام محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكنانيّ الحمويّ الشافعيّ. ولد بحماة سنة ٦٣٩ ، وتفقه ومهر في الفنون ، ثم ولي قضاء القدس سنة ٦٨٧ ، ثم تولى قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٠ فأحسن السيرة ثم تنقل في المناصب المختلفة من قضاء في الشام وخطابة بها وغير ذلك .كان ورعاً حسن الهَدْي ، متين الديانة ، ذا تعبد وأوراد ، متقشفاً ، مقتصداً في مأكله وملبسه ومركبه ومسكنه ، حسن التربية من غير عنف ولا تخجيل . توفي سنة ٧٣٣ وقد جاز التسعين بأربع سنين وأشهر .

انظر ((الدرر الكامنة)) : ٣/٣٦٧ - ٣٦٩ .

٣- الكتاب رسالة جامعية مقدمة إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية ببغداد ، وقد نشر الكتابَ مؤسسة الرسالة : الطبعة الثالثة : ١٤٠٧ .

٤- نشر الكتاب الشركة التونسية للتوزيع سنة ١٣٩٩ .

٥- هو الإمام يحي بن سَلاّم بن أبي ثعلبة ، أبو زكريا البصري ، نزيل المغرب . ولد سنة ١٢٤ . حدّث ، وأخذ القراءات عن أصحاب الحسن البصري وجمع وصنّف . قال الدانيّ : له تفسير ليس لأحد من المتقدمين مثله ، وقال : كان ثقة ثبتاً ، عالماً بالكتاب والسنة ، وله معرفة باللغة العربية . مات بمصر سنة مائتين ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٩/٣٩٦ - ٣٩٧ .

٦- نشر مكتبة دار وهبة ، القاهرة .

الباب الثالث

منهج المؤلف في كتابه (دراسة تفصيلية)

وفيه تمهيد وثلاثة فصول :

الفصل الأول : وجوه الإعجاز التي ذكرها : عرض ومناقشة .

الفصل الثاني : منهجه في عرض هذه الوجوه

الفصل الثالث : دراسة أهم القضايا العلمية في
((معترك الأقران))

تمهيـــد

بهر الإعجاز القرآني العلماء ، وشدتهم طريقة القرآن وتفرده في هـذا البـاب فشرعوا يصنفون المصنفات المطولة والمختصرة في إعجاز القرآن ، فمنهـم مـن اقتصر على بلاغته ، ومنهم من أبرز فصاحـة ألفاظـه ، ومنهـم مـن مـال إلى قـوة نظمهـا ، ومنهم من جمع ذلك كله وأضاف عليه وجوهاً أُخَر ، بـل قـد أوصلهـا بعضهـم إلى ألوف باعتبار عدد آيات القرآن وما انطوت عليه كل آية من بلاغة وفصاحة وحسن نظم ، هذا وقد قال القاضي عياض – رحمه اللـه تعالى – :

((واعلم أن المعجزاتِ التي ظهرت على يد نبينا ، صلـى اللـه عليـه وسـلم – دلائـلَ نبوتـه وبراهـينَ صدقـه – مـن هذيـن النوعـين معـاً[1] ، وهـو أكـثر الرسـل معجـزةً وأبهرُهم آية وأظهرهم برهاناً – كما سنبينه – وهي في كثرتها لايحيـط بهـا ضبـط ؛ فـإن واحـداً منهـا – وهـو القـرآن – لا يُحصـى عـدد معجزاتـه بـألف ولا ألفـين ولا أكثر ؛ لأن النبي ، صلى اللـه عليه وسلم ، قد تحدى بسورة منه فعُجز عنها .

قال أهل العلم : وأقصر السـور :﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ ، فكـل آيـة أو آيات منه بعددها وقدْرها معجزة ، ثم فيها نفسـها معجـزات علـى ماسـنفصله فيمـا انطوى عليه[2] من المعجزات))[3] [4] .

وقال السيوطي ، رحمه اللـه تعالى :

((وقال ابن سراقة[5] :

اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمـة وصواب ، وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره ...))[6] .

١- أي مما هو من قدرة البشر ومما هو خارج عن قُدَرِهم ، كما يفهم من سابق سياقه .

٢- أي القرآن .

٣- قد سبق بيان أنه بهذه الطريقة الحسابية يبلغ عدد المعجزات في القرآن ألوفاً ، وانظر صنيع السيوطي في هذا ص ٢٥٣ من هذه الرسالة .

٤- ((الشفا)) : ١ / ٣٥٠ - ٣٥١ .

٥- سبق أن بينت أن هناك من وَهِم في اسم الرجل والعصر الذي عاش فيه ، انظر ص : ٨٧ .

٦- ((الإتقان)) : ٢ / ١٢١ - ١٢٢ .

وقد ذُكر عنه أنه ألّف كتاباً في إعجاز القرآن ((من حيث الأعداد ، ذكر فيه من واحد إلى ألوف))[1] .

ولعل المقصود أنه ذكر أوجهاً كثيرة بلغت ألوفاً ؛ وذلك بالنظر إلى أعداد الآيات وماتضمنه كلٌّ منها من معجزات ، وما قاله القاضي عياض - آنفاً - يوضح هذا ، والله أعلم .

وجاء السيوطيّ - رحمه الله تعالى - فجمع ماورثه من هذه الأوجه ، وذكر غالبَ الأقوال في إعجاز القرآن ، وتوسع توسعاً ضافياً جعله يذكر وجوها ربما لاتمت للإعجاز بصِلة ، وإنما ذكرها ((للاطلاع على بعض معانيه ؛ فيثلج له صدرك وتبتهج نفسك))[2] ، وقد نص على أن بعض هذه الأوجه ليست من الإعجاز بقوله :

((وإن كانت بعض الأوجه لاتعد من إعجازه فإنما ذكرتها للاطلاع على بعض معانيه))[3] .

لكنه لم يبين الوجه المعجز من غيره وإنما ذكرها كلها على أنها أوجه إعجاز فيقول مثلاً : الوجه الأول من وجوه إعجازه كذا ، الوجه الثاني من وجوه إعجازه .... وهكذا .

تنبيه مهم :

قد أكثر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من نسبة بعض أنواعٍ من علوم القرآن إلى الإعجاز ، وبعضها يمكن أن يُلحظ فيه الإعجاز بشيء من إعمال الذهن ، وبعضها لايُلحظ فيه الإعجاز أبداً .

ويمكن القول بأن أوجه الإعجاز على قسمين :

١- ((كشف الظنون)) : ١ / ١٢٠ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢ .

٣- المصدر السابق .

الأول : وجوه إعجاز ذاتية ثابتة للقرآن العظيم من حيث ذاته ، ومن حيث النظر إليه مجموعاً بعد تمام النزول ، ويدخل في هذا ماسيذكره الإمام السيوطيّ من الإعجاز بتناسب الآيات والسور ، والإعجاز بالآيات المتشابهات ونحو هذا مما يُعد أشبهَ بالخصائص منه بالإعجاز ، لكن إذا نُظر فيه نظرةٌ فاحصة يمكن أن يُلحظَ فيه شيء من معاني الإعجاز التي تلحق بوجوه من الإعجاز متفق عليها كالإعجاز النظمي والبلاغي ، وسيأتي بيان ذلك وتفصيله .

الآخر : الإعجاز الذي تقوم به الحجة عند سماعه ، وتثبت به الرسالة عند بلاغه ، وعند العجز أن يُؤتى بمثله ، وذلك نحو الإعجاز البلاغيّ الذي هو منتشر في القرآن العظيم في كل آية منه .

فبهذا يُفهم - إن شاء الله تعالى - كثير من الأوجه التي عدها الإمام السيوطيّ أوجهاً مستقلة بالإعجاز وهي مندرجة تحت أوجه أعمَّ منها .

هذا وقد بلغت عدة الأوجه التي أوردها خمسة وثلاثين وجهاً متفاوتةً قِصَراً وطولاً ، لكنه مهما أمكن له التطويل والاستقصاء فإنه يصنع ذلك في جميع الأوجه تقريباً .

طريقة السيوطي في إيراد أوجه الإعجاز

طريقته في إيراد هذه الأوجه كالتالي :

أولا : يُصدِّر الكلام - غالباً - بذكر من صنّف في هذا الذي عدّه وجهاً من أوجه الإعجاز ، ويبين - أيضاً - تأليفه إن كان له تأليف في هذا العلم ، وذلك نحو ماذكره في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز حيث قال :

((الوجه الرابع من وجوه إعجازه : مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقةَ المعاني منتظمةَ المباني .

وقد ألّف علماؤنا في أسرارها تواليفَ كثيرةً منهم العلامة أبو جعفر بن الزبير[1] ، شيخ أبي حيّان[2] في كتاب سماه ((البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن))[3] ، ومن أهل العصر الشيخ برهان الدين البِقاعيّ في كتاب سماه ((نظم الدرر في تناسب الآي والسور))[4] ، وكتابي الذي صنفته في أسرار التنزيل[5] كافل بذلك ، جامع لمناسبات السور والآيات مع ما تضمنه مرتباً من جميع وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة ، وقد لخصت منه مناسبات السور خاصة في جزء لطيف سميته :

((تناسق الدرر في تناسب السور))[6] ...))[7] .

ثانيــاً : ثم إنه - إذا اقتضى المقامُ - يورد فضلَ ذلك العلم الذي جعله وجهاً من أوجه الإعجاز وينوه به كقوله :

((وعلم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته))[8] .

١- هو الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفيّ الغرناطيّ ، وقد سبقت ترجمته .

٢- هو الشيخ محمد بن يوسف بن علي الغَرناطيّ ، أثير الدين أبوحيان الأندلسيّ الجيّانيّ . ولد سنة ٦٥٤ ، وقرأ القرآن إفراداً وجمعاً ، وسمع الكثير ببلاد الأندلس وإفريقية ، ثم قدم الإسكندرية . كان ثبتاً فيما ينقله ، عارفاً باللغة ، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما . وله اليد الطُولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ، وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته . أضر قبل موته بقليل ، وتوفي سنة ٧٤٥ بالقاهرة ، رحمه الله تعالى :
انظر ((الدرر الكامنة)) : ٥ / ٧٠ - ٧٦.

٣- هذا الكتاب مطبوع بعناية وزارة الأوقاف المغربية بتحقيق الأستاذ محمد شعباني ، سنة ١٤١٠ .

٤- كتابه هذا مطبوع متداول .

٥- هذا الكتاب مطبوع باسم ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) ، وقد سبق الحديث عنه ، انظر ص ٢٥٥ .

٦- قد سبق الحديث عن كتابه هذا ، انظر ص ٢٤٥ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤ - ٥٥ .
ومن الأوجه التي صنع فيها هذا - أيضا - الوجهُ العاشر : ١ / ١٦١ ، والوجه الثالث عشر : ١ / ١٩٥ ، والوجه الرابع والعشرون : ١ / ٢٦٩ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ .

وكقوله في الوجه الخامس من أوجه الإعجاز – وهو افتتاح السور وخواتمها – :
((وهو من أحسن البلاغة عند البيانيين))[1] .
وكقوله في الوجه الخامس عشر من أوجه الإعجاز – وورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبينة – :
((وفي ذلك من حسن البلاغة مايعجز عنه أولو الفصاحة))[2] .

ثالثاً : ثم إنه يورد – غالباً – معنى الوجه الذي جعله من الإعجاز وأنواعَه وأقسامه مستقصياً ما أمكنه الاستقصاء ؛ وذلك كقوله في الوجه الرابع من وجوه الإعجاز – وهو مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقةَ المعاني منتظمةَ المباني – :
((المناسبة في اللغة : المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنىً رابطٍ بينهما عام أو خاصّ ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ ، أو غير ذلك من أنواع علاقات التلازم الذهنيّ كالسبب والمسبّب ، والعلّة والمعلول ، والنظيرين والضدين ، ونحوه ...)) .
ثم أخذ في بيان ماذكره وضرب الأمثلة عليه باستفاضة[3] .

رابعاً : قد لايلتزم الترتيب السابق المذكور في الفقرتين : الأولى والثالثة فيقدم الكلام على معنى الوجه باختصار ثم يأتي بأسماء المصنفات فيه ، وذلك نحو قوله في الوجه السادس ، وهو مشتبهات آياته :
((وذلك أن القصة الواحدة ترد في سور شتّى وفواصلَ مختلفة ؛ بأن يأتي في موضع واحد مقدماً وفي آخرَ مؤخراً ... وفي موضع بزيادة وفي موضع بدونها ... وفي آخر منكّراً ...)) .

١- المصدر السابق : ١ / ٧٤ .
٢- المصدر السابق : ١ / ٢١٧ .
٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٧ وما بعدها .
وانظر – أيضاً – الوجة التاسع : ١ / ١٣٦ ، والوجه الحادي عشر : ١ / ١٧١ .

ثم ذكر مَن صنّف في هذا النوع[1] .

خامساً : يلتزم الإطناب في كل مايورده تقريباً عدا الأوجه :
الثاني[2] ، والثامن عشر إلى الثاني والعشرين[3] ، والوجه الرابع والثلاثين[4] ، فقد جاء بها على غاية الاختصار .

وهذا عدا الوجه الخامس والثلاثين الذي خصه بالقدر الأكبر من كتابه ، حيث شغل هذا الوجهُ ثلثي حجم الكتاب تقريباً .

سادساً : التزم السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أن يورد في الوجه الذي أتى به مُطْنَباً – وهو الغالب فيما أتى به – التزم أن يستقصي الكلام على أنواعه وأقسامه ، وأن يأتي بأمثلة عديدة كثيرة على ما يأتي به ، مازجاً ذلك كله بأقوال الأئمة واستشهاداتهم .

ومن أبرز مايوضح ذلك كلامُه على الوجه الثالث والعشرين : وقوع الحقائق والمجاز فيه[5] ، والوجه السابع والعشرين : وقوع البدائع البليغة فيه[6] .

وبعد هذا التمهيد الذي قدمته بين يدي الأوجه سأذكر الأوجه التي جاء بها الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أذكرها وجهاً وجهاً ، وأتكلم عليها مراعياً الآتي غالباً وحسَب الحاجة :

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٨٥ – ٨٦ .
وانظر – أيضاً – الوجه الثامن : ١ / ١٠٨ ، والوجه الثالث والعشرين : ١ / ٢٤٦ ، والوجه الثلاثين : ١/٤٥٦ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .
٣- المصدر السابق : ١ / ٢٣٩ – ٢٤٦ .
٤- المصدر السابق : ١ / ٥١٢ .
٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ – ٢٦٨ .
٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ – ٤٢٠ .

أولاً : تلخيص وجه الإعجاز المذكور بعبارات يُفهم منها المراد إن دعت إلى ذلك حاجةٌ ، وقد أستعمل بعضاً من عبارات الإمام نفسها .

ثانياً : شرح المصطلحات التي لابد من ذكرها لبيان معنى الوجه المذكور .

ثالثاً : تمييز الأوجه التي هي من الإعجاز من الأوجه التي لاتعلق لها به .

رابعاً : نقد ما يحتاج إلى نقد مما ذكره في هذه الأوجه .

خامساً : بيان الجديد الذي جاء به في الوجه المذكور - إن كان هناك جديد - أو بيان إضافته على ماسبقه به غيره ، إن كانت هناك إضافة .

وينبغي أن أُذكّر بأني قد بينت في موضع سابق أن غالب مادة الكتاب منقولة من كتب السيوطيّ الأخرى ، فلا أعيد - إذاً - بيان ما وضحته بالتفصيل آنفاً[1] .

هذا وقد سبق التنبيه[2] إلى أنني قد توسعت في ذكر أوجه الإعجاز عند المصنفين قبل السيوطيّ - رحمهم الله جميعاً - وأن ذلك التوسعَ سيكون مغنياً عن إعادة بعض الكلام على أوجه الإعجاز عند السيوطي بالتفصيل ، فسأكتفي إذاً عند الكلام على تلك الأوجهِ بأن أذكر ما لم يُذكر من قبل ومناقشتِه ، والإحالةِ على ماسبق الكلام عليه في الباب الأول .

١- انظر الصفحات : ٢٣١-٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ١٢٤ - ١٢٥ من هذه الرسالة .

الفصل الأول:
وجوه الإعجاز التي ذكرها:
عرض ومناقشة

الوجه الأول : ((العلوم المستنبطة منه))[1] :

هذا الوجه بأكمله منقول من مقدمة كتابه ((الإكليلِ)) بتصرف يسير ؛ كما بينت ذلك سابقاً[2] .

وهذا الوجه ظاهرٌ معناه من عنوانه ؛ فقد بحث فيه العلوم المستنبطة من كتاب الله – تعالى – وأورد الآثار وأقوال العلماء الذين ذهبوا إلى أن القرآن يحوي كل الأمور التي يحتاجها الفرد في دنياه وأخراه على سبيل الإجمال والإشارة ، أو التفصيل والبيان ، فمن تلك الآثار :

١ – عن ابن مسعود – رضي الله عنه[3] – أنه قال : ((من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علمَ الأولين والآخرين))[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ – ٢٧ .

٢- انظر ص ٢٤٦ من هذه الرسالة .

وإنما قلت إنه منقول من ((الإكليل)) ولم أقل بالعكس لأني أعتقد أن ((المعترك)) أُلف بعد الإتقان كما ذكرت ذلك في ص ٢٧٢ وما بعدها ، و ((الإكليل)) مصنف قبل ((الإتقان)) حيث ورد ذكره في ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٠ ، وقد استفدت في هذا من مقدمة تحقيق كتاب ((الإكليل)) للأستاذ سيف الدين الكاتب ص : ٧ .

٣- هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذليّ ، أبو عبد الرحمن . من السابقين الأولين ، ومن كبار العلماء من الصحابة رضي الله عنهم . مناقبه جمة ، وأمّره عمر – رضي الله عنه – على الكوفة . توفي سنة ٣٢ بالمدينة . ((التقريب)) : ٣٢٣ .

٤- أورده السيوطي وعزاه إلى سنن سعيد بن منصور – رحمه الله تعالى – .

وأورده الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – ونسبه إلى مسند مُسدّد ، فقال :

((مُرَّةُ قال : قال عبد الله : من أراد العلم فليُثَوِّر القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين (لمسدد)))

((المطالب العالية)) : ٣ / ١٣٣ .

((ثوّر القرآن : بحث عن معانيه وعن علمه ... وتثوير القرآن : قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه)) :

((لسان العرب)) : ث و ر .

وهذا الأثر أخرجه بنصه الإمام الطبراني عن عبد الله بن مسعود بأسانيد ، ورجال أحدها رجال الصحيح ؛ كما قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) : ٧ / ١٦٨ .

٢ - وعن الشافعي[1] - رحمه اللـه تعالى - أنه قال :
((سلوني عمّا شئتم أخبركم عنه من كتاب اللـه ...))[2] .

ثم ساق العلوم الشرعية والدنيوية المستنبطة من القرآن الكريم على وجه الإجمال والتأصيل لاالتفصيل والتطويل .

والحق ماقاله الإمام السيوطيّ مِن أن هذا الوجهَ معجز ؛ وذلك لأن هذا الكتاب العظيم باقٍ في الناس إلى يوم القيامة ، ويُظهر اللـه - تبارك وتعالى - في كل عصر من العصور وجوهاً من وجوه الإعجاز تناسب أهل العصر ، ولما كان الزمانُ الذي أُصّلت فيه العلوم ودُونت انفتح لبصائر العلماء من أصول العلم الشرعي والدنيوي ماكان مغلقاً على مَن قبلهم ، كماأنه في هذا العصر دلّ اللـه - تبارك وتعالى - بعض خلقه على كثير من وجوه الإعجاز العلميّ التى بهرت كثيراً من الناس وأعجزتهم ، وتبينوا به عظمة المرسِل - سبحانه وتعالى - وصدقَ المرسَل به .

وقد يجادل بعض الناس في إعجاز هذا الوجه بدعوى أن أي كتاب من كتب الحكمة التي وضعها عظماء الحكماء قد يكون فيه الكثير من العلوم التي تخفى على أهل عصره فمن بعدهم .

وأقول : هاتوا لنا كتاباً يقارب مافي القرآن العظيم من العلوم المنثورة والحكم العظيمة المأثورة فتدللوا به على صحة دعواكم لنسلم لكم ، أما إن كان الأمر اعتراضا ذهنياً مجرداً فيبقى للقرآن تفوقه وإعجازه في هذا الباب ، واللـه أعلم .

١- هو الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ المطلبي ، أحد كبار الأئمة المجتهدين . توفي بمصرسنة ٢٠٤ ، انظر ((سيرأعلام النبلاء)) : ١٠ / ٥ - ٩٩ .

٢- أخرجه الإمام البيهقيّ في ((معرفة السنن والآثار)) في كتاب المناسك : باب : أصل مايحل قتله من الوحش ويحرم عليه : ٧ / ٤٧٦ - ٤٧٧ .

وأخرجه في سننه الكبرى أيضاً في كتاب الحج باب : ((ماللمحرم قتله من دواب البر)) : ٥ / ٢١٢ .

وهذا الوجه المذكور يتضمن الذي يسمى اليوم : الإعجاز العلميّ في القرآن .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور[1] رحمه الله تعالى :

((وأما الجهة الثالثة من جهات الإعجاز - وهي ماأُودعَه من المعاني الحِكْميّة والإشارات العلمية ، فاعلموا أن العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار ...[2]

إن العلم نوعان : علم اصطلاحي وعلم حقيقيّ ، فأما الاصطلاحي فهو ماتواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء ، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار ، وهذا النوع لاتخلو عنه أمة .

وأما العلم الحقيقيّ فهو معرفة مابمعرفته كمالُ الإنسان ، وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلاً وآجلاً ...

وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب ؛ لأن أغراض شعرهم كانت لاتعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة ، ولاتحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي أغراض القرآن ...

وقد اشتمل القرآن على النوعين ، فأما النوع الأول فتناوله قريب لايحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظراً ؛ فإن مبلغ العلم عندهم يومئذ علوم أهل الكتاب ، ومعرفةُ الشرائع والأحكام ، وقصص الأنبياء والأمم ، وأخبار العالم ...

١- محمدالطاهر بن عاشور رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس . ولد سنة ١٢٩٦ بتونس ، وعين عام ١٩٣٢ شيخاً للإسلام مالكياً وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة . له مصنفات مطبوعة مشهورة ، ومقالات كثيرة في المجلات . توفي بتونس سنة ١٣٩٣ رحمه الله تعالى .
انظر ((الأعلام)) : ٦ / ١٧٤ .

٢- قد كان للعرب علوم أخرى غير الشعر مثل علم الإهتداء بالنجوم .

وأما النوع الثاني من إعجازه العلميّ فهو ينقسم إلى قسمين : قسم يكفي لإدراكه فهمُه وسمعه ، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فيتبلج للناس شيئاً فشيئاً انبلاج أضواء الفجر على حسَب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم ، وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله ؛ لأنه جاء به أميٌّ في موضع لم يعالج أهله دقائقَ العلوم ، والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم ...

وهذا النوع من الإعجاز هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة ...

وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر ؛ إذ لاقبل لهم بتلك العلوم ...))[1] .

لكن قد يقال في هذا الوجهِ أن الإعجاز فيه إعجازٌ جزئيّ ، بمعنى أنه ليس في كل آية من كتاب الله - تبارك وتعالى - وذلك كالإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذ هو إعجاز جزئيّ كما بينت في موضع سابق[2] .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور في بيان الإعجاز العلميّ في القرآن :

((وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه أي بمجموعِ هذا الكتاب ؛ إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز ، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن[3] ، وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله :

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[4] ...))[5] .

وهذا الوجه الذي جاء به الإمام السيوطيّ ليس جديداً ؛ إذ سبقه إلى القول

١- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٥ - ١٢٩ بتصرف .

٢- انظر ص ١٣٤ ومابعدها من هذه الرسالة .

٣- أي بمجموعه .

٤- سورة النساء : آية ٨٢ .

٥- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٩ .

به أئمة [1] ؛ لكن الإمام السيوطيّ جاء به مبسوطاً ، كثيرَ الأحاديث والآثار ، وأكثر فيه – كعادته – من إيراد كلام الأئمةوجمعه على وجه حسن .

وقد كان من المناسب أن أبسط الحديث عن الإعجاز العلمي في هذا الموضع ؛ وذلك لتوسع السيوطي في الكلام عليه .

الوجه الثاني :

((كونه محفوظاً عن الزيادة والنقصان ، محروساً عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان بخلاف سائر الكتب))[2] :

لم يضف السيوطي – رحمه اللـه تعالى – على عنوان هذا الوجه شيئاً إلا قولَه :

((قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [3] فلم يقدر أحد – بحمد اللـه – على التجاسر عليه)) .

فجاء هذا الوجه قصيراً في كلماته طويلاً في معانيه .

ورأيي أن هذا الوجه ليس من الإعجاز بل هو دليل واضح على أن هذا الكتاب العظيم هو من عند اللـه – تبارك وتعالى – وهو الذي تكفل بحفظه سبحانه ، فهذا الحفظ إذاً خصوصية خص اللـه بها هذا الكتاب العظيم .

والسبب في كون هذا الوجه ليس من الإعجاز هو أن المعجزة يجب أن يكون إعجازها واضحاً ماثلاً للأذهان من العصر الذي ظهرت فيه وما بعده من الأزمان ، فكيف يقال إن مشركي العرب قد أعجزهم القرآن بالحفظ عن الزيادةوالنقصان والتبديل والتغيير وهم الذين لم يُؤْثر عنهم محاولة تغيير القرآن بالزيادة والنقصان أو بالتحريف والبهتان ؟ ! وإنما حُوول هذا الأمر في الأزمان المتأخرة ، و لم ولن تفلح كل المحاولات لتحريف هذا الكتاب المحفوظ .

١- انظر – مثالاً – ص ١٦٣ من هذه الرسالة .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ .

٣- سورة الحجر : آية ٩ .

الوجه الثالث : حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقةُ عادةَ العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشان[1] :

قد جمع السيوطيّ في هذا الوجهِ ثلاثةَ أوجه من أوجه الإعجاز التي أتى بها مَن قبله ؛ إذ حسن التأليف والتئام الكلام هو الإعجاز النظميّ ، وذكر معه الإعجاز بفصاحة كلم القرآن ، ثم ثلّث بالإعجاز البلاغيّ .

وقد أتى بمقدمة توضح إعجاز القرآن من هذا الوجه ، ثم ذكر بعض مناحي المحسنات اللفظية في كتاب اللـه العزيز ، وهي فواصل الآيات[2] ، وقارن بينها وبين السَّجْع ذاكراً مذاهبَ العلماء في جواز مجيئه في كتاب اللـه العزيز[3] ، ثم توسع في إيراد أنواع الفواصل بين الآيات وأسباب مجيئها كذلك ، واستمر في إيرادها إلى آخر الوجه .

فهو إذاً لم يتكلم على أوجه البلاغة في القرآن - كما هو مثبت في عنوان هذا الوجه الثالث من وجوه الإعجاز - ولعله أرجأ الكلام عليها إلى الوجوه : الثالث والعشرين إلى الثامن والعشرين ، وهي على الترتيب : وقوع الحقائق والمجاز فيه ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧ - ٥٤ .

وعنوان هذا الوجه منقول - مع تصرف يسير - من كتاب ((الشفا)) للقاضي عياض : ١ / ٣٥٨ ، ٣٦٩ ، ولم يُشرِ السيوطيّ إلى نقله هذا ، وقد بينت ذلك من قبل ، انظر ص ٢٩٦ .

وقولي في المتن : قد جمع السيوطيّ في هذا الوجه ثلاثة أوجه ... يتوجه باعتبار أنّ السيوطيّ ذكر هذا المنقولَ عن ((الشفا)) وصدّر به هذا الوجهَ الثالث من أوجه الإعجاز فبدا كأنه كلامه ، فصحَّ إذاً مانسبته إليه في المتن .

ويمكن أن يتوجه أيضاً بأن السيوطيَّ جاء بهذا المنقولِ وارتضاه وبنى عليه كلامه في هذا الوجه ، فصح إذاً عدُّه من جملة كلامه ، واللـه أعلم .

٢- وهي ((كلمة آخرِ الآية ، كقافية الشعر وقرينة السجع)) : ((البرهان)) : ١ / ٥٣ ، وسيأتي الكلام على مباحثَ مما ورد منها في هذا الوجه في الفصل الثالث من هذا الباب - إن شاء اللـه تعالى - انظر ص ٥٧٤ وما بعدها .

٣- سبق ذكر هذا المبحث ، انظر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

تشبيهه واستعاراته ، وقوع الكناية والتعريض ، والإيجاز والإطناب ، وقوع البدائع البليغة فيه ، احتواؤه على الخبر والإنشاء[1] .

وإنما قلت : لعله ؛ لأنه لم يصرح بذلك ، ولعله سها عن إيراد البلاغة في هذا الوجهِ الثالث .

وهذا الوجه الذي ذكره السيوطيّ ، وهو الإعجاز بنظمه وفصاحته وبلاغته ، هو من أعظم أوجه الإعجاز في الكتاب العزيز ، وهو الوجه الذي لم يكد يَشِذُّ عن عدِّه معجزاً أحدٌ ، فهو متفق عليه بين من تكلم على إعجاز القرآن العظيم - إلا من قال بـ (الصَّرفة) ممن ذكرتهم سابقاً[2] - حتى أن السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، نقل قولاً للإمام ابن عطيّة ، رحمه الله تعالى ، أنه يقرر أن :
((الصحيح والذي عليه الجمهور والحُذّاق في وجوه إعجازه أنه بنظمه ، وصحة معانيه ، وتوالي فصاحة ألفاظه ...))[3] .

وفي هذا الوجهِ بعضُ المآخذ العلمية الواردة أثناء حديث الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - عن الفواصل ، وسيأتي الكلام عليها في الفصل الثالث من هذا البابِ ، إن شاء الله تعالى[4] .

والملاحظ في هذا الوجهِ أن الكلام على الفواصل وأنواعِها وأقسامها شغل القسم الأكبر من هذا الوجه البالغِ عددُ صفحاته سبعاً وعشرين صفحة ، حيث جاء الكلام على الفواصل في خمس وعشرين منها .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ - ٤٤٩ .

٢- انظر ص ٩٢ وما بعدها .

٣- انظر ((المحرر الوجيز)) : ١ / ٣٨ وقد نقل السيوطي كلام ابن عطية - رحمهما الله تعالى - بالمعنى .

٤- انظر ص ٥٧٤ وما بعدها .

أما الكلام على الإعجاز بالنظم وبالفصاحة والبلاغة فقد كان نزراً يسيراً ، وقد قدمت أن الكلام على البلاغة قد أُخر إلى موضع آخر ، ولكن ماشأن الكلام على الإعجاز النظمي والإعجاز بالفصاحة حيث إنهما لم يَرِدا في مكان آخر ؟ !

وكان الأولى أن يتوسع في ذكرهما في هذا الموضعِ عِوضَ البسط الذي بسطه في حديثه عن الفواصل ، حيث إنهما من أركان الإعجاز القرآني ، وهما أجدر بالبسط في الذكر خاصة في هذا الموضع حيث وردا وجهاً من أوجه الإعجاز مع البلاغة .

الوجه الرابع :

((مناسبة آياته وسوره ، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعاني ، منتظمة المباني))[١] :

قد توسع السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في ذكر المناسبات بين الآيات بعضها ببعض ، وبين السور كذلك ، وذكر أسباب ترتيب السور في المصحف ، وافتتاح السور بالحروف المقطَّعة[٢] ومناسبتها للسور ، وغير ذلك .

وقد اختلفت أنظار العلماء في هذا الوجه ، وقليل منهم عدّه وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز مثل ماصنع الإمام الرازي – رحمه الله تعالى – إذ قال في تفسيره في سورة البقرة فيما نقله عنه السيوطيّ :

((ومن تفكر في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو – أيضاً – بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غيرَ منتبهين لهذه الأسرار ...))[٣] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤ – ٧٤ .

٢- هي الحروف الواردة في أوائل السور مثل : ﴿ ألم ﴾ و ﴿ حم ﴾ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٦ .

وقد حاولت العثور على كلام الرازي في مظانه من تفسيره المطبوع فلم أجده ، والله أعلم .

وأكثر المصنفين في الإعجاز لم يجعلوا علم المناسبة بين الآيات والسور وجهاً مستقلاً من وجوه الإعجاز ، بل إن بعض العلماء يرى أنه لايُطلب للآيات الكريمة مناسبات لربطها لأنها نزلت حسَب الوقائع وفي مدة طويلة ، وما كان كذلك فلا يتأتّى فيه الربط[1] .

ولكن يمكن أن يقال لهم إن الأمر الذي رددتم به التوسع في ذكر المناسبات بين الآيات والسور هو نفسه المدخل إلى إظهار الإعجاز في المناسبات ، حيث إنه ليس في قدرة البشر أن يرتبوا كلاماً طويلاً ، قيل في مدة زمنية طويلة ، وهو في مناحٍ شتى من وجوه الخطاب ، ليس في مقدورهم ترتيبه على هذا الوجهِ المعجز في القرآن ، ولا على طريقة قريبة من الترتيب القرآني الذي جاء على غاية من الدقة واللطف والإحكام حيث صار القرآن كأنه نزل جملة واحدة .

ومن أحسن المحاولات في إيجاد المناسبة بين الآيات والسور ما صنعه الإمام برهان الدين البِقاعيّ في كتابه ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) ، وإن هاجمه لأجل صنيعه هذا بعضُ معاصريه[2] ، نعم قد ينكَر على المتكلف الآتي بالوجوه البعيدة في الربط بين المناسبات .

والذي أراه ، والله أعلم ، أن هذا العلمَ من دلائل الإعجاز ولكنه ليس وجهاً مستقلاً من أوجهه ؛ حيث إنه ملحق - في تقديري - بالإعجاز النظميّ المذكور في الوجه الثالث السابق ؛ فالإعجاز النظميّ بمعناه العام الشامل يتناول نظم الكلمات لتصبح جملا وآيات ، ويتناول - أيضاً - نظم الآيات ونظم السور ، والله أعلم .

فالجديد في هذا الوجه الذي جاء به السيوطي إذاً هو عدُّه المناسبة وجهاً مستقلاً من أوجه الإعجاز ، وإبرازُ ذلك بوضوح وإطناب ، وقد ساق لأجل ذلك

١- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥ - ٥٦ .

٢- انظر تفصيل هذا في ((البدر الطالع)) : ١ / ٢٠ - ٢١ .

عدداً من أقوال الأئمة وتقريراتهم في هذه المسألة ، وبسط الكلام على أنواع الروابط بين الآيات فجاء هذا الوجه كأنه جديد لم يقل به أحد قبل ذلك .

الوجه الخامس : افتتاح السور وخواتمها[1] :

ومقصد السيوطي أن الكلام إذا افتُتح بالتأنّق والجمال والتحرير أقبل عليه السامع وإلا أعرض عنه ودفعه ، وقد جاء القرآن بأعظم الفواتح وأحسنها ، وأدق الخواتم وأفضلها .

وقد شرح الإمام السيوطيّ مقصده فقال :

((وهو[2] من أحسن البلاغة عند البيانيين ، وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول مايقرع السمع فإن كان محرّراً قَبِل السامع الكلام ووعاه ، وإلا أعرض عنه وإن كان في نهاية الحُسن ، فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقه ، وأجزله وأسلسه ، وأحسنِه نظماً وسبكاً ، وأصحِه معنى وأوضحه ، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير المُلبِس أو الذي لايناسب .

قالوا : وقد أتت فواتح جميع السور على أحسن الوجوه وأكملها كالتحميدات وحروف النداء والهجاء وغير ذلك)) .

ثم قال : ((وخواتم السور مثل الفواتح في الحسن))[3] .

وأرى – والله أعلم – أنّ هذا الوجه لايستقل عن الإعجاز البلاغي والإعجاز بالفصاحة ؛ فهو يرجع إليهما لاينفك عنهما وإلا أخلّ بالنظم الكريم .

١- ((معترك الأقران)) : ١ : ٧٤ - ٨٥ .

٢- أي افتتاح الكلام بالفواتح الحسنة .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٤ - ٧٥ .

ولذلك لاأرى وجهاً لإفراد هذا المبحثِ وجهاً من وجوه الإعجاز ، والله أعلم ، إلا أن يكون السيوطي قد أراد التفصيل والبسط لما لعله يصلح أن يُبسط من جوانب الإعجاز البلاغي والإعجاز بالفصاحة ، فيستقل في مبحث منفصل كما فعل هنا .

الوجه السادس : مشتبهات آياته[1] :

ويقصد بالمشتبهات تشابه بعض الآيات في فواصلها ، أو في التقديم والتأخير ، أو بإضافة كلمة أو حرف في آية دون أخرى إلخ ...

ومثال ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2] .

مع قوله تعالى :

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[3] ، فقد اجتمع في الآيتين أنواعٌ من التشابه كثيرة .

وهذا الوجه لايستقل عن وجه الإعجاز بالنظم إلا فيما يتعلق بذكر سبب ورود التشابه ؛ ومثال ذلك قول السيوطي رحمه الله :

((قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[4] .

وقال بعد ذلك : ﴿ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[5] ؛ لأن الأولى وردت بعد نواهٍ فناسب النهي

١- ((معترك الأقران)) ١ / ٨٥ - ٩٤ .

٢- سورة البقرة : آية ٥٨ .

٣- سورة الأعراف : آية ١٦١ .

٤- سورة البقرة : آية ١٨٧ .

٥- سورة البقرة : آية ٢٢٩ .

عن قربانها ، والثانيةَ بعد أوامر فناسب النهي عن تعديها وتجاوزها بأن يوقف عندها))[1] .

فإن لوحظ هذا المعنى – الذي أكثر السيوطي من إيراده وإيراد الأدلة الدالة عليه – كان هذا وجهاً معدوداً من وجوه الإعجاز ، أما إن ذكر متشابه القرآن من باب تنوع اللفظة وإيرادها في صيغ مختلفة بلاغةً وتفنناً فيلحق هذا بوجه الإعجاز البلاغي والإعجاز بالنظم ، والله أعلم .

وقولي : كان هذا وجهاً معدوداً من وجوه الإعجاز إنما هو مرتبط بما ذكرته في التمهيد لهذا البابِ من أن وجوه الإعجاز على قسمين ، وهذا مندرج في القسم الأول منه وهو الإعجاز الذاتي الذي يُلحظ فيه شيء من الإعجاز لكنه أشبه بالخصائص منه بالإعجاز المستقل ، والله أعلم .

الوجه السابع : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات[2] :

ذكر السيوطيّ في هذا الوجهِ بعض الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض ، والتعارض الموهوم في الآية إما في نفسها أو مقارنة بغيرها .

ومن أمثلة ما أتى به مما يوهم تعارض الآية مع بعض المسلّمات الثابتة ما جاء أن ابن عباس – رضي الله عنه – قال له يهوديّ :

((إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ فقال : إنه كان في

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٣ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٤ – ١٠٨ .

نفسه عزيزاً حكيماً))[1] .

ومن أمثلة ما أتى به مما يوهم التعارض بين آيتين أو أكثر ماجاء في قوله تعالى :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[3] .

مع قوله :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾[4] .

قال السيوطيّ :

((قال الحَلِيمي[5] : فتحمل الآية الأولى على السؤال عـن التوحيد وتصديق الرسل ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٩ .

وهذا الأثر أخرجه ابن أبي حاتم - كما ذكر السيوطيّ رحمه الله تعالى - في تفسير قوله تعالى :

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ من سورة النساء : آية ١٥٨ ، فقال : حدثني أبي ، ثنا حسين بن عيسى بن ميسرة ، ثنا أبوزهير عبد الرحمن بن مَغْراء ، أنبأ مجمع بن يحيى؛ عن عمه عن ابن عباس قال : قال يهودي : إنكم تزعمون أن الله كان عزيزاً حكيماً ، فكيف هو اليوم ؟ قال ابن عباس : إنه كان في نفسه عزيزاً حكيماً)) : ((تفسير القرآن العظيم)) لابن أبي حاتم : الجزء الرابع : ١٧٠٦ ، من رسالة الدكتوراه لتحقيق سورتي آل عمران والنساء للدكتور حكمت بشير ياسين .

وقد ذكر المحقق أن إسناد هذا الأثر حسن ، وبالنظر إلى حال رجاله يتبين التالي :

- أبوحاتم الرازي = محمد بن إدريس بن المنذر : هو أحد الحفاظ ، وانظر ((التقريب)) : ٤٦٧ .

- حسين بن عيسى بن ميسرة : صدوق ، كما في ((الجرح التعديل)) : ٣ / ٦٠ .

- عبد الرحمن بن مَغْراء الدوسيّ : صدوق ، تُكلم في حديثه ، كما في ((التقريب)) : ٣٥٠ .

- مَجْمع بن يحي بن يزيد بن حارية = صدوق كما في ((التقريب)) : ٥٢٠ ، وقد يقال : مجمع بن يحي بن زيد كما في ((التهذيب)) : ١٠ / ٤٣ .

عمه هو خالد بن يزيد كما ذكر الأستاذ المحقق ، وهو كما قال ، وانظر ((التهذيب)) : ١٠ / ٤٣ .

وحال عمه هذا أخبر عنه أبو حاتم الرازي بقوله : مابه بأس ، كما في ((الجرح والتعديل)) : ٣ / ٣٣١ .

فالإسناد - بالنظر إلى رجاله - حسنٌ ، إن شاء الله تعالى ، كما ذكر الأستاذ الحقق ، والله أعلم .

٢- سورة الصافات : آية ٢٤ .

٣- سورة الأعراف : آية ٦ .

٤- سورة الرحمن : آية ٣٩ .

٥- هو الشيخ أبوعبدالله الحسين بن الحسن بن محمد بن حَليم البخاريّ الشافعي أحد الأذكياء . كان متفنناً سيال الذهن مناظراً ، طويل الباع في الأدب والبيان . وله مصنفات نفيسة . وللحافظ البيهقي اعتناء بكلامه . مات سنة ٤٠٣ ، رحمه الله تعالى .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٢٣١ - ٢٣٤ .

والثانيةُ[1] على مايستلزمه الإقرار بالنبوات من شرائع الدين وفروعه[2] ، وحمله غيره على اختلاف الأماكن ، لأن في القيامة مواقفَ كثيرة ، ففي موضع يُسألون وفي موضع آخر لايُسألون . وقيل إن السؤال المثبتَ سؤالُ تبكيت وتوبيخ ، والمنفيَّ سؤالُ المعذرة وبيانِ الحجة))[3] .

وقد أتى السيوطيّ في هذا الوجه أيضاً بأسباب اختلاف الآيات وتوهُّم تعارضها ، وكيفية الجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض .

والحق أن هذا الوجهَ ليس من الإعجاز ، وإنما هو عائد إلى التنوع في أساليب القرآن ومجيءِ الآيات على أوجه متعددة في أحوال مختلفة ، وإنما يَفهم ذلك ويوجهه الراسخون في العلم ، أمّا عدُّه من الإعجاز ففيه تجوّز ، والله أعلم ؛ إذ غايته أن يُعد من خصائص القرآن .

الوجه الثامن : ((وقوع ناسخه ومنسوخه))[4] :

عرف السيوطيّ النسخ فقال :

((يرد النسخ بمعنى الإزالة ، ومنه قوله :

﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ﴾[5] .

وبمعنى التبديل ، ومنه : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾[6]

١- أي قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾

٢- أورد الحَليميّ هذه الإجابةَ في كتاب ((المنهاج)) في موضعين : ١ / ٣٨٦ وما بعدها ، ١/ ٤١٧ وما بعدها ، وأورد كلامه في ((البرهان)) : ١ / ٥٥ ، الذي نقل منه السيوطيّ ، أورد مختصراً وبالمعنى .

٣-((معترك الأقران)) : ١ / ١٠١ ، وكلامه إلى قوله : ((لايُسألون)) نقله من ((البرهان)) للزركشي : ١ / ٥٥ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ - ١٣٦ .

٥- سورة الحج : آية ٥٢ .

٦- سورة النحل : آية ١٠١ .

وبمعنى التحويل : كتناسخ المواريث ، بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد ، وبمعنى النقل من موضع إلى موضع ومنه : نسخت الكتاب : إذانقلت مافيه حاكياً للفظه وخطه))[1] .

وقد توسع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - كثيراً في هذا المبحث وأتى فيه بأقسام النسخ وأحكام متفرقة فيه ، ثم استوعب ذكر الآيات المنسوخة في القرآن مستفيداً من تأليف له سابق في هذا الباب[2] .

وقد تتبعت كلام السيوطيّ في هذا الوجه لأرى كيف استخرج وجه الإعجاز من الناسخ والمنسوخ لكني لم أجد إلا مباحثَ أصولية فقهية أو مباحث تفسيرية محضة للناسخ والمنسوخ في القرآن ، مما لاتعلق له ألبتة بمبحث الإعجاز .

والناسخ والمنسوخ مما خُصت به هذه الأمة لحِكم كثيرة منها التيسير والتخفيف[3] ، وتحقيق حكمة التدرج في التشريع ، وغير ذلك من فوائد ورود الناسخ والمنسوخ في كتاب الله تعالى .

الوجه التاسع : ((انقسامه إلى محكم ومتشابه))[4] :

توسع السيوطي رحمه الله تعالى في هذا الوجه ، وأتى بمباحثَ كثيرة فيه حيث أتى ببعض تعاريف المحكم والمتشابه ، ثم ذكر أنواع المتشابه ، ثم عقد فصلاً كاملاً لبيان أن آيات الصفات من المتشابه ، وختم الوجه ببيان أن أوائل السور من المتشابه ، وذِكرِ فوائد المتشابه .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٩ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ١١٥ ، وكتابه هذا هو : ((الناسخ والمنسوخ في القرآن)) كما في ((دليل مخطوطات السيوطيّ)) : ٤٥ .

٣- قد ذكر ذلك السيوطيّ في بداية هذا الوجه : ١ / ١٠٨ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٦١ .

تعريف المحكم والمتشابه :

المحكم هو الأمر الذي لااختلاف فيه ولااضطراب[1] .

أما التعريف الاصطلاحيّ للمحكم والمتشابه في القرآن فهو بحسَب متعلّقه :
فإن تعلق بالمعاني فالمحكم هو ماعُرف المراد منه ، والمتشابه مااستأثر الله بعلمه كقيام الساعة والحروف المقطعة في فواتح بعض السور ، فالمحكم هنا يقابل المتشابه .

وإن تعلق بالألفاظ والمعاني معاً فالقرآن محكم كله لأنه لايتطرق النقص إليه والاختلاف ، وهو متشابه كله بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز[2] .

وقيل إن المحكم هو الذي لايحتمل إلا وجهاً واحداً من التأويل ، والمتشابه بخلافه ، وقيل فيهما غير ذلك[3] .

والذي أراه - والله أعلم - أن هذا الوجه لايعد من الإعجاز إنما جيء بالمحكم والمتشابه في القرآن لحكم منها :

١ - حث العلماء على النظر فيه والبحث عن دقائقه[4] .

٢ - اختبار العباد بالوقوف عند متشابهه والتسليم ، والتعبدُ بالاشتغال به من جهة التلاوة[5] .

١- ((لسان العرب)) : حكم .
٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣٦ - ١٣٧ .
٣- المصدر السابق : ١ / ١٣٧ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٨ - ١٥٩ بتصرف .
٥- المصدر السابق .

٣ - ((إظهار التفاضل وتفاوت الدرجات ؛ إذ لو كان القرآن كله محكماً لايحتاج إلى تأويل ونظر لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره))[١] .

تلك بعض الفوائد لمجيء المحكم والمتشابه في القرآن ، أما أن يُعدَّ هذا من وجوه الإعجاز ففيه بُعْد ، كما أنه لم يعدّه أحدٌ من وجوه الإعجاز ، فيما أعلم ، والله أعلم .

وقد أتى السيوطيّ في هذا الوجهِ بعدد من صفات الله تبارك وتعالى على أنها من المتشابه[٢] ، وسوف أبين الصواب في هذا - إن شاء الله تعالى - في مطلب : منهجه في العقيدة[٣] .

الوجه العاشر : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من التخفيف والتشديد وغيرهما[٤] :

ذكر السيوطي في هذا الوجهِ مباحثَ في القراءات ، وفوائدَ اختلاف القراءة .

وهذا الوجه ليس من وجوه الإعجاز إلا ماكان من مبحث فوائد اختلاف القراءة ؛ إذ أن بعض الكلمات القرآنية تُرسم بوجه واحد وتنطق بأوجه مختلفة ، وهذا النطق ينبني عليه الاختلاف في المعنى[٥] أو في الحكم الفقهي[٦] ، أو غير ذلك .

١- المصدر السابق : ١ / ١٥٨ .

٢- المصدر السابق : ١ / ١٤٦ - ١٥٥ .

٣- انظر ص ٤٩٣ وما بعدها .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦١ - ١٧٠ .

٥- وذلك نحو قوله تعالى ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ و﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ سورة الحجر : آية ٤١ . فقراءة يعقوب ﴿ عَلِيٌّ ﴾ وقراءة الجمهور : ﴿ عَلَىَّ ﴾ .
وانظر ((النشر)) : ٢ / ٣٠١ .

٦- وذلك نحو : ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ ، و ﴿ يَطَّهَّرْنَ ﴾ فالقراءة الأولى يُفهم منها جواز قُربان النساء بمجرد انقطاع الدم ، والثانية يُفهم منها وجوب الغُسْل بعد انقطاع الدم قبل الوِقاع ، انظر ((النشر)) : ٢ / ٢٢٧ ، و((المغني)) : =

وهذا الوجه لايستقل عن الإعجاز بالفصاحة الذي هو أصل له ؛ لأن القرآن نزل متلوّاً مقروءاً لامرسوماً ، ولما كانت الفصاحة مدارها على حسن اختيار الألفاظ فناسب أن تتعلق مباحث القراءات واختلاف الألفاظ بالإعجاز بالفصاحة ، والله أعلم .

وكذلك ماأورده السيوطيّ في فوائد القراءات على أنها من إعجاز الإيجاز ؛ ((إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات ، ولوجُعلت دلالة كل لفظ آيةً على حدة لم يَخْفَ ماكان من التطويل))[1] ؛ هذا الذي أورده هو من نوع الإعجاز البلاغيّ في القرآن ؛ لأن الإيجاز من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة[2] .

فهذا الوجه إذاً غير مستقل بالإعجاز إنما هو مندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة ، لكن إبرازه على هذا النحوِ وعدُّه وجهاً مستقلاً بالإعجاز إنما هو من الجديد الذي جاء به الإمام السيوطيّ في كتابه هذا حيث إني لم أطّلع على من حاول هذا من قبل .

وعدُّه من الجديد إنما هو بالنسبة إلى الكتب التي تحدثت عن الإعجاز وأوجهه ، أما غيرها من الكتب فقد سبق إلى عدّ هذا من إعجاز القرآن الإمامُ ابن الجزري ، رحمه الله تعالى ، حيث قال :

((وأما فائدة اختلاف القراءات وتنوعها فإن في ذلك فوائدَ غيرما قدمنا من سبب التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة، ومنها[3] مافي ذلك من نهاية البلاغة ، وكمال الإعجاز ، وغاية الاختصار ، وجمال الإيجاز ؛ إذ كان تنوع اللفظ بكلمة

= ١ / ٤١٩ - ٤٢٠ حيث أجاز الإمام أبوحنيفة قربان المرأة إذا انقطع دمها لأكثر مدة الحيض ، وهي - عنده - عشرة أيام .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٦٩ .

٢- انظر ((جواهر البلاغة)) : ٤٦ - ٤٧ .

٣- كذا ورد بالعطف في المطبوع ، والأوجه حذفُ الواو ، والله أعلم .

تقوم مقام آيات ، ولو جُعلت دلالة كل لفظ آيةً على حِدَتها لم يخف ماكان في ذلك من التطويل))[1] .

الوجه الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع[2] :

قد قسم السيوطيّ هذا المبحث إلى قسمين :
قسم أشكل معناه بحسَب الظاهر ، والقسم الآخر ماليس كذلك .

ومثال الأول عند السيوطيّ :
((ومنه : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [3] والأصل : (هواه إلـهه) ؛ لأن من اتخذ إلـهه هواه غيرُ مذموم ، فقدم المفعول الثاني للعناية به))[4] .
و لم يمثل السيوطي للقسم الآخر ، ومثاله قوله تعالى :
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[5] .
مع قوله سبحانه :
﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾[6] .

وقد ذكر السيوطيّ في هذا المبحثِ عشرة أسباب للتقديم والتأخير ، وبها ختم الكلام على هذا الوجه .

وهذا الوجه يصح أن يكون من الإعجاز إذا لُوحظت أسباب وأسرار التقديم والتأخير التي أوردها السيوطي - رحمه الله تعالى - ولكنه مندرج في الإعجاز

١- ((النشر في القراءات العشر)) : ١ / ٥٢ .
٢- ((معترك الأقران)) : ١/ ١٧١ - ١٨١ .
٣- سورة الجاثية : آية ٢٣ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١٧٣/١ .
٥- سورة البقرة : آية ٥٨ .
٦- سورة الأعراف : آية ١٦١ .

النظميّ وليس وجها مستقلاً منفرداً ، والله أعلم .

ولبيان ذلك فإني أذكر سبباً من أسباب التقديم والتأخير العشرة التي أوردها السيوطي - رحمه الله تعالى - في هذا الوجه :

الرابع[1] : المناسبة :

((وهي إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام كقوله :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾[2] ، فإن الجَمال بالجِمال وإن كان ثابتاً حالتي السراح والإراحة إلا أنها حالة إراحتها - وهو مجيئها من المرعى آخر النهار - يكون الجمال بها أفخر ؛ إذ هي فيه بِطان[3] ، وحالة سراحها للرعي أول النهار يكون الجمال بها دون الأول ؛ إذ هي فيه خِماص[4] .

ونظيره قوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾[5] .

قدم نفي السرف لأن السرف في الإنفاق[6] .

وقوله :

﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[7] .

لأن الصواعق تقع مع أول برقة ، ولايحصل المطر إلا بعد توالي البرقات[8] .

وقوله :

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[9] .

١- أورد قبله ثلاثة أسباب وبعده ستة أسباب ، وإنما اخترت هذا لأنه أدلّ على المقصود من غيره .

٢- سورة النحل : آية ٦ .

٣- أي ممتلئة البطون ، ((لسان العرب)) : ب ط ن .

٤- الخِماص : ضمور البطن لخلوها من الطعام ، انظر : ((لسان العرب)) : خ م ص .

٥- سورة الفرقان : آية ٦٧ .

٦- لم يتجه لي المعنى ؛ إذ الإقتار يكون في الإنفاق أيضاً ، كما يفهم من سياق الآية الكريمة ، ولعل هناك سقطاً ، والله أعلم .

٧- سورة الرعد : آية ١٢ .

٨- فالخوف حاصلٌ بسبب الصواعق ، وقد قُدم لأنه يحصل مع أول صاعقة ، بينما المطر لايحصل إلا بتوالي الصواعق فأخر الطمع في نزوله لهذا ، والله أعلم .

٩- سورة الأنبياء : آية ٩١ .

قدمها على الابن لما كان السياق في ذكرها في قوله :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾[1] .

ولذلك قدم الابن في قوله :

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾[2] .

وحسّنه تقديمُ موسى في الآية قبله[3] .

ومنه قوله :

﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[4] .

قدم الحكم وإن كان العلم سابقاً عليه[5] لأن السياق فيه ؛ لقوله في أول الآية[6] :

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾[7] ...))[8] .

والناظر لما ذكره السيوطيّ يعلم أن هذا لايستطيعه البشر ، وتعجز عنه عقولهم القاصرة ، وهذا مدخل الإعجاز الذي ذكره السيوطيّ ، رحمه الله تعالى .

وإنما قلت - في أول الوجه - إنه مندرج تحت الإعجاز النظمي لأن أسرار وأسباب التقديم والتأخير التي أوردها متعلقة كلها بتقديم وتأخير الألفاظ القرآنية وطريقة نظمها ، وهذا عين الإعجاز النظميّ .

لكنّ الجديد في هذا الوجهِ هو إبراز التقديم والتأخير وبيان أنه من الإعجاز على وجه لم يُسبق به الإمام السيوطيّ ، فيما أعلم ، والله أعلم .

١- سورة الأنبياء : آية ٩١ .

٢- سورة المؤمنون : آية ٥٠ .

٣- أي حسّن تقديم عيسى عليه الصلاة والسلام على أمه تقديمُ موسى عليه الصلاة والسلام في السياق السابق في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ ...﴾ الآية : ٤٥ . وإني أظن أن التقديم - هنا - جرى على الأصل ؛ إذ عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، نبي مقدم على غيره ، والله أعلم .

٤- سورة الأنبياء : آية ٧٩ .

٥- أي في التحصيل والاكتساب الذهني .

٦- قوله : ((في أول الآية)) سهوٌ ؛ إذ هي في الآية التي قبلها ، وليس هنالك اختلاف في عدّ هذين الآيتين بين علماء عدّ الآي .

٧- سورة الأنبياء : آية ٧٨ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١/١٧٦ - ١٧٧ .

الوجه الثاني عشر : ((إفادة حصره واختصاصه))[1] :

وقد عرّفه السيوطيُّ قائلاً :

((هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص .

ويقال أيضاً : إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه))[2] .

ثم ذكر أقسام الحصر – ويقال له أيضاً القَصْر – فمن ذلك :

١ – تقسيم القصر باعتبار طرفيه ، وهو نوعان :

أ – قصر الموصوف على الصفة ، وهو قسمان :

حقيقي ومجازيّ :

ومثل للحقيقي بقوله : ((ما زيدٌ إلا كاتب)) أي لاصفة له غيرها .

ومثل للمجازيّ بقول الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾[3] أي أنه مقصور على الرسالة لايتعداها إلى التبري من الموت الذي استعظموه ؛ إنه شأن الإله[4] .

ب – قصر الصفة على الموصوف ، وهو أيضاً قسمان : حقيقي ومجازيّ :

ومثّل للمجازيّ بقول الله تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ... ﴾[5]

وإنما كان هذا قصراً مجازياً لأن هناك محرمات غير هذه ثبتت في الشرع ، وقيل بأن ذلك قصر حقيقي ، والصواب الأول ، والله أعلم[6] .

ومثل للحقيقي بـ : لاإله إلا الله .

٢ – تقسيم القصر بحسَب حال المخاطب إلى :

١– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ – ١٩٤ .

٢– المصدر السابق : ١ / ١٨١ .

٣– سورة آل عمران : آية ١٤٤ .

٤– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ .

٥– سورة الأنعام : آية ١٤٥ .

٦– انظر تفصيل هذه المسألة في ((الجامع لأحكام القرآن)) : ٧ / ١١٥ – ١٢٣ .

أ – قصر إفراد :

ويخاطب به من يعتقد الشِّركة ، ومثل له بقول الله تعالى :

﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[1] .

ب – قصر قلب :

ويخاطب به من يعتقد إثبات الحكم لغير من أثبته المتكلم له ، ومثّل له بـ ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[2] .

ج – قصر تعيين :

ويخاطب به من تساوى عنده الأمران فلم يحكم بإثبات الصفة لواحد بعينه ولا لواحد بإحدى الصفتين بعينها[3] .

أي إذا كان المخاطب متردداً في الحكم كأن يكون مثلاً متردداً في كون الأرض متحركة أو ثابتة فيقال له: الأرض متحركة لا ثابتة[4] .

ثم إن السيوطيّ سرد طرق الحصر وهي أربعَ عشرةَ طريقة ومثّل لها ، وختم هذا الوجهَ بذكر الخلاف في عدّ تقديم المعمول على العامل : هل هو من طرق الحصر ؟ وأتى بكلام أئمة اللغة والبيان في هذا .

والذي أراه – والله أعلم – أن هذا الوجهَ ليس من أوجه الإعجاز المستقلة بل هو راجع إلى الإعجاز البلاغي ؛ إذ أساليب الحصر من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة .

١- سورة النساء : آية ١٧١ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨٢ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ١٨٦ .

وفائدة الحصر والاختصاص هي التفنن في إيراد الكلام على وجوه عدّة ، ولتثبيت المعاني في أذهان المخاطبين وجعلها من المسلّمات ، ولغير ذلك من الأغراض ، فكأن السيوطيّ جعله وجهاً مستقلاً لهذا ، ولكنّ الحقّ ماقدمته من اندراجه تحت الإعجاز البلاغيّ ، والله أعلم .

الوجه الثالث عشر : ((احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم من الفرس والروم والحبشة وغيرهم))[1] :

قد صنّف السيوطيّ كتاباً في المعرّب سماه : ((المهذب فيما وقع في القرآن من المعرّب))[2] ، وقد لخصه في هذا الوجهِ الثالثَ عشر .

والمعرّب هو ((ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها))[3] .

وهو على أقسام :

١ - قسم غيرّته العرب وألحقته[4] بكلامها ، فحكم أبنيته في اعتبار الأصليّ والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع نحو (درهم)[5] .

٢ - قسم غيرّته العرب و لم تلحقه بأبنية كلامها نحو : آجُرّ[6] .

٣ - وقسم تركوه غيرَ مغيّر فما لم يلحقوه بأبنية كلامهم لم يُعدّ منها نحو خراسان ،

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ - ٢٠٦ .

٢- طبع هذا الكتاب أكثر من طبعة .

٣- ((المزهر)) : ١ / ٢٦٨ ، ولم يعرّف السيوطيّ المعرّب في ((معترك الأقران)) .

٤- الإلحاق هو ((جعل مثال على مثال أَزْيدَ منه ليعاملَ معاملتَه في التصريف)) :
((المغني في تصريف الأفعال)) : ٥٩ .

٥- الدِّرهَم والدِّرهِم : لغتان ، فارسي معرب ، ملحق ببناء كلام العرب ، فدرهَم كهجْرَع - وهو الرجل الطويل أو الأحمق - ، ودِرْهِم - بكسر الهاء - كجِفْرِد - وهو نوع من النبات ، أو من الجوهر - وانظر ((لسان العرب)) : درهم ، جِفْرِد ، هِجْرَع .

٦- هو الطين المطبوخ ، وتضبط الكلمة على وجوه عدة ، وهو من الفارسيّ المعرب ، وانظر ((لسان العرب)) : أ ج ر .

وما ألحقوه بها عُدّ منها نحو (كُركُم) أُلحق بـ (قُمقم)[1] .

وقد ذكر السيوطيّ في هذا الوجهِ الخـلافَ في وقـوع المعـرَّب في كتـاب اللـه العزيز ، ثم استقصى مانزل من القرآن بلهجات قبائل العرب المختلفـة ممـا هـو ليـس من لغة أهل الحجاز.

والسيوطيّ - رحمه اللـه تعالى - ممن يذهب إلى وقوع المعرّب في القرآن حيث قال : ((وأقوى ما رأيته للوقوع - وهو اختياري - ما أخرجـه ابـن جريـر[2] بسـند صحيح عن أبي ميسرة[3] التابعيّ الجليل قال : ((في القرآن من كل لسان))[4] ...

فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علم الأولين والآخرين ونبأ كل شيء ؛ فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم إحاطته بكل شيء ، فاختير من كل لغة أعذبُها وأخفها وأكثرها استعمالاً للعرب .

وأيضاً فإن النبيّ - صلى اللـه عليه وسلم - أُرسل إلى كل أمّة ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾[5] فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث به من لسان كل قوم ، وإن كان أصله بلغة قومه هو ...))[6] .

١- ((المزهر)) : ١ / ٢٦٦ - ٢٧٠ بتصرف ، ونقل السيوطيّ هذا عن أبي حيان .

والكُرْكُم نوع من النبات ، والقُمقم : وعاء ضيق الرأس . انظر ((لسان العرب)) : كركم ، قمم .

٢- هو أبوجعفر محمد بن جرير بن يزيد ، الإمام العَلَم المجتهد . ولد سنة ٢٢٤ بآمُل طَبَرِستان .

وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرةَ تصانيف . وكان من كبار أئمة الاجتهاد ، وأكثر الترحال في طلب العلم ثم استقر ببغداد وتوفي بها سنة ٣١٠ .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٢٦٧ - ٢٨٢ .

٣- هو عمرو بن شُرَحبيل الهَمْدانيّ ، أبو ميسرة الكوفيّ . ثقة عابد مخضرم ، وهو من رجال البخاري ومسلم . توفي بالطاعون سنة ٦٣ . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٨ / ٤٢ - ٤٣ ، و ((التقريب)) : ٤٢٢.

٤- انظر ((جامع البيان)) : ١٤/١ . ومعنى هذا الأثر محمول على أن في القرآن ألفاظاً أصلها غير عربي لكن العرب عرّبتها واستعملتها قبل نزول القرآن ، أما أن يكون في القرآن ألفاظ غير عربية فهذا مردود ، وانظر كلام ابن جرير على هذه المسألة في تفسيره : ١/ ١٣-٢٠ .

٥- سورة إبراهيم : آية ٤ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٦ - ١٩٧ .

ولعل هذا الملحظَ الذي لحظه السيوطيّ - رحمه الله تعالى - هو الذي دعاه لعدِّ هذا الوجهِ من الإعجاز ؛ حيث إن القرآن حوى - على رأيه - جميعَ لغات العرب ، وكثيراً من اللغات غير العربية بعد تعريبها واستعمال العرب لها ، ولعجز البشر عن هذه الإحاطةِ أورد السيوطيّ هذا المبحثَ وجهاً من أوجه الإعجاز ، والله أعلم .

وأرى - والله أعلم - أن عدَّ مثل هذا من الإعجاز فيه تسامح وتجوُّز ؛ إذ يمكن أن يعدّ من خصائص هذا الكتاب العظيم وتفرده وامتياز خطابه عن غيره ، أمّا أن يكون معجزاً فلم يقل بهذا أحد ولاأجد له تعلقاً معقولاً بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها[1] :

شرع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ابتداءً من هذا الوجهِ بذكر بعض المباحث الأصولية وعدِّها أوجهاً من أوجه الإعجاز .

وابتدأ السيوطيّ هذا الوجهَ بتعريف العامّ بقوله :
((هو لفظ يستغرق الصالح له من غير حصر))[2] .

ثم شرع في ذكر صيغ العموم ، وأقسامِه ، وختم بمسائلَ منثورة تتعلق بهذا الباب ؛ باب العموم والخصوص .

ولا أدري الحاملَ للسيوطيّ على إيراد مثل هذا البحثِ وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ إذ لم يقل بذلك أحد ، وليس لِما أورده من أبحاث تعلقٌ معقول بالإعجاز ، ولعله من الأوجه التي لم يعدّها هو نفسه من الإعجاز وإنما أوردها للاطّلاع على بعض المعاني القرآنية كما ذكر من قبل [3] ، والله أعلم .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ - ٢١٧ .

٢- المصدر السابق : ٢٠٧/١ .

٣- المصدر السابق : ١٢/١ .

الوجه الخامسَ عشر :

((ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة))[1] :

والإجمال هو ((ماله دلالة على أحد أمرين لامزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه)) ، ويُمثل له بقوله تعالى :
﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾[2] ، فإن صاحب العقدة متردد بين الزوج والوليّ[3] .

وقد تكلم السيوطيّ على هذا الوجهِ بشيء من التفصيل فذكر أسباب الإجمال وأحوال التبيين ، وختم هذا الوجهَ بذكر بعض الآيات التي اختُلف في كونها مجملة .

وقد عدّ السيوطيّ - رحمه الله تعالى - هذا الوجهَ من الإعجاز حيث صدّر الحديث عنه بقوله :
((وفي ذلك من حسن البلاغة مايعجز عنه أولوا الفصاحة))[4] .

وإذا لوحظت بعض أسباب الإجمال التي أوردها الإمام السيوطيّ فإنه يمكن عدُّ بعضها راجعاً إلى الإعجاز البلاغي ؛ إذ أنه ذكر من أسباب الإجمال الحذفَ ومثل له بقوله تعالى :
﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾[5] فقال :
((يحتمل (في) و (عن)))[6] .

١- ((معترك الأقران)) : ١/٢١٧ - ٢٢٤ .
٢- سورة البقرة : آية ٢٣٧ .
٣- ((الإحكام في أصول الأحكام)) : ٣ / ١٣ ، بتصرف .
ولم يعرّف الإمام السيوطيّ المجمل في ((معترك الأقران)) .
٤- ((معترك الأقران)) : ١/ ٢١٧ .
٥- سورة النساء : آية ١٢٧ .
٦- ((معترك الأقران)) : ١/ ٢١٧ .

أي ترغبون في نكاحهن ، وترغبون عن نكاحهن فاحتُمل المعنيان لأجل حذف حرف الجر .

وهذا من أوجه الإيجاز في الكلام الذي اشتهرت به العرب واستعملته في كلامها ، والإيجاز من أنواع علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة[1] .

فعلى هذا يمكن إدراجُ بعض جوانب هذا الوجه - بملاحظة أسباب وروده - في الإعجاز البلاغيّ ، ولا أجد سبباً لإفراده وجهاً من أوجه الإعجاز هاهنا إلا لقصد الإبراز ومزيدِ الإظهار للمباحث التي أوردها فيه ، والله أعلم .

الوجه السادس عشر : ((الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه))[2] :

وقد عرّف السيوطيّ المنطوق ثم قسّمه بقوله :

((وهو مادلّ عليه اللفظ في محل النطق ، فإن أفاد معنى لايحتمل غيره **فالنصُّ** نحو :
﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[3] . . .
أو[4] مع احتمال غيره احتمالاً مرجوحاً **فالظاهر** نحو :
﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾[5] فإن الباغي يطلق على الجاهل وعلى الظالم وهو فيه أظهر وأغلب ...

١- انظر ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٢ ومابعدها .

وقد ذكر سبعة أسباب أخرى للإجمال هي : الاشتراك ، واختلاف مرجع الضمير ، واحتمال العطف والاستئناف ، وغرابة اللفظ ، وعدم كثرة الاستعمال ، والتقديم والتأخير ، وقلب المنقول ، ولا أجد لكثير منها تعلقاً بالإعجاز ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٢١٧/١ - ٢١٨ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢٢٤/١ - ٢٢٨ .

٣- سورة البقرة : آية ١٩٦ .

٤- العطف على قوله : فإن أفاد معنى لايحتمل غيره .

٥- سورة البقرة : آية ١٧٣ .

وإن حُمل على المرجوح لدليل فهو **تأويل** ، ويسمى المرجوح المحمول عليه **مؤولا** . . .))

ثم إن السيوطيّ - رحمه الله تعالى - أتم مباحث المنطوق ، وشرع في تعريف المفهوم وتقسيمه كصنيعه في المنطوق .

وهذا الوجه لايعد من أوجه الإعجاز حيث ليس له تعلقٌ معقول به ، بل هي مباحث أصولية محضة ، والله أعلم .

الوجه السابع عشر : ((وجوه مخاطباته))[1] :

وقد قسمها إلى ثلاثة أقسام :
((قسم لايصلح إلا للنبي - صلى الله عليه وسلم - وقسم لايصلح إلا لغيره ، وقسم يصلح لهما))[2] .

ثم إنه قسم تلك الأقسامَ كلها باعتبار مضمون الخطاب حيث قال :
((قال بعض الأقدمين : أنزل القرآن على ثلاثين نحواً ، كل نحوٍ منه غيرُ صاحبه ، فمن عرف وجوهها وتكلم في الدين أصاب ووفّق ، ومن لم يعرفها وتكلم في الدين كان الخطأ إليه أقرب))[3] .

ثم إنه أورد تقسيم ابن الجوزي وغيره لها حيث وصلت إلى أربعة وثلاثين وجهاً ، وذكر السيوطيّ أمثلة لها .

١- ((معترك الأقران)) : ١/٢٢٩ - ٢٣٩ .
٢- المصدر السابق : ١/٢٢٩ .
٣- المصدر السابق .

وهذه الأوجه التي ذكرها يندرج بعضها تحت علوم القرآن كـالمكي والمدنـيّ ، ويندرج بعضها تحت مباحث أصول الفقه كالناسـخ والمنسـوخ ، والخـاص والعـام ، وبعضها مندرج تحت علوم اللغة كالتقديم والتأخـير ، وبعضهـا متنـوع في الخطـاب بحسـب أحـوال المخـاطبين كخطـاب التهييـج ، وخطـاب التحنـن والاسـتعطاف ، وخطاب التعجيز ، إلخ ...

ثم إنه أورد نصاً عن ابن القيم - رحمه اللـه تعالى - يبين فيـه عظمـة الخطـاب الإلهيّ في القرآن وأنه شامل لأمور الدنيا وأحوال الآخرة ، وبـه ختـم الوجـه السـابع عشر .

وحكمه على هذا الوجهِ بأنه معجز لايستقيم - في تقديري - لسببين :

الأول : أن الحكم على الكلام بأنه معجز لايكون بتعدد وجوه خطابه ولكنـه يكـون بما فيها من معانٍ وألفاظ معجزة ، أليس خطاب عامة الناس يحوي وجوهاً عـدة ؛ إذ فيه أمر ونهي ، وتخصيص وتعميم ، وتهييج واستعطاف وهو مع ذلك خطابٌ عـاميٌّ ساقط لاوزن له ، فلا يصح إذاً جَعْلُ وجـوه الخطـاب القرآنـيّ وتنوعهـا معجـزةً في نفسها ، واللـه أعلم .

الآخر : أن كثيراً من أوجه الخطاب التي ساقها قد احتوت أنواعاً ليست من الإعجاز كالمكي والمدني ، والخاص والعام إلخ ...

فكيف يستقيم عدّ مثل هذا من وجوه الخطاب المعجز ، إذ هـو منـدرج تحـت أنـواع شتى من العلوم وليس له تعلق معقول بالإعجاز ؟ !

وهنا تنبيه على أن عدداً من أوجه الخطاب التي سـاقها - نقـلاً عـن عـدد مـن العلماء - قد فُرغ من بيان تعلقه بالإعجاز أو عدمه ، أو أنه سيأتي الكـلام عليـه في الأوجه القادمة ، وبعض الذي أورده متعلق بالإعجاز النظمي ، ولتمام بيـان ذلـك فإني سأورد بعض أوجه الخطاب التي سـاقها وأبـين مـايمكن أن ينـدرج تحـت أنـواع معدودة من الإعجاز ، مما هو ليس منها :

١ - المكي والمدني .

٢ - الناسخ والمنسوخ .

٣ - المحكم والمتشابه ، وهذه الثلاثة ليست من الإعجاز ، وقد سبق الكلام على المحكم والمتشابه[١] .

٤ - التقديم والتأخير ، ومثل له بقوله تعالى :
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ﴾[٢] .
التقدير: كتب عليكم الوصية إذا حضر أحدكم الموت .
وهذا يمكن إلحاقه بالإعجاز النظمي[٣] .

٥ - ((الأُبـَّهة : نحو ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا ﴾[٤] ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾[٥] ، عبر بالصيغة الموضوعة للجماعة للواحد تعالى تفخيماً وتعظيماً وأُبـَّهةً))[٦] .
وهذا لايندرج تحت الإعجاز بحال ، والله أعلم .

٦ - ((الخطاب العام الذي لم يُقصد به مخاطب معين نحو :
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ ﴾[٧] ... ولم يقصد بذلك خطاب معينٍ بل كل أحد))[٨] .

١- انظر ص ٣٥٩ ومابعدها .

٢- سورة البقرة : آية ١٨٠ .

٣- ينظر في الأوجه الأربعة السابقة ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٢٩ .

٤- سوة القمر : آية ١٩ .

٥- سورة الزخرف : آية ٣٢ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٠ .

٧- سورة الحج : آية ١٨ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٦ .

٧ - ((خطاب التحبُّب نحو :
﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ ﴾[١] ، ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ ﴾ [٢] ...))[٣] .

وهذه الأوجه السبعة شاملة - من حيث التمثيل - للأوجه الأربعة والثلاثين التي ساقها ، وبالنظر إليها يتبين أنها ليست من الإعجاز إلا ماكان منها ملحقاً بالإعجاز النظميّ ، والله أعلم .

الوجه الثامنَ عشر : ((**مانطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات**))[٤] :

والمقصود واضح ، جاء به السيوطيّ بإيجاز ذاكراً نوعي الغيب الحاضر والمستقبل بقوله :
((مانطوى عليه من الإخبار بالمغيّبات ، ومالم يكن ومالم يقع)) ، وهو الغيب المستقبل ، ومثل له بأمثلة ، ثم أشار إلى أخبار الغيب الحاضر بقوله :
((وما فيه مِن كشف أسرار المنافقين واليهود ، ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله :
﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [٥] ...)) .

وأخبار الغيب الماضية سيأتي الكلام عليها في الوجه التاسع عشر الآتي ، إن شاء الله تعالى .

والملاحظ أن الإمام السيوطيّ تناول هذا الوجهَ والأوجه الثلاثة بعده تناولاً خفيفاً ، والحال أنها من أهم الأوجه التي قيلت في إعجاز القرآن .

١- سورة مريم : آية ٤٢ .
٢- سورة لقمان : آية ١٦ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٧ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .
٥- سورة المجادلة : آية ٨ .

وقد تكلمت على أخبار الغيب قبل ذلك[1] ، وبينت أن أخبار الغيب هي من الإعجاز الجزئي وليس الكلي ؛ إذ ليس هو في كل آية كالإعجاز البلاغي مثلاً ، والله أعلم .

الوجه التاسع عشر : ((الإخبار بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة))[2] :

وهذا الوجه مكمِّل للوجه السابق ، أورده السيوطيّ باقتضاب ذاكراً كلامَ القرآن الدقيق عن الأمم السالفة ، وأن مثل هذا لايُنال عن تعليم .

وهذا الوجه حكمه كسابقه ؛ إذ أن أخبار الغيب على ثلاثة أقسام :
غيب ماضٍ ، وغيب حاضر ، وغيب مستقبل ، وقدسمّى الله – تعالى – أخبار القرون السالفة غيباً فقال جلّ من قائل :
﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3] .

والكلام على الوجه السابق من حيث الإعجاز منسحبٌ على هذا الوجه أيضاً .

الوجه العشرون : ((روعته وهيبته))[4] :

ذكر السيوطي في هذا الوجهِ بعضَ الآيات والأحاديث التي تثبت روعة القرآن في القلوب وأسرَه للنفوس ، وذكر بعض المحاولات لمعارضته ، وأتى على كل هذا بإيجاز .

١- انظر ص ١٣٤ وما بعدها .
٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٠ – ٢٤٢ .
٣- سورة هود : آية ٤٩ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٢ – ٢٤٤ .

وللقرآن روعةٌ وهيبة في النفوس لايلحق شأوَه فيها كلامٌ ، حتى أن أعظم الكلام وأفصحه بعد كلام الله - تعالى - وهو حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لايدرك سامعَه منه مايدركه من سماع القرآن ، وهذا أيضاً من أعظم الأدلّة على صدق المخبرِ به - صلى الله عليه وسلم - إذِ المخبر بالوحيين واحد ، صلى الله عليه وسلم ، والكلام متباين ، متميز أحدُه عن الآخر.

أما عن كون هذا الوجهِ من الإعجاز فقد سبق أن ذكرت أن هذه الروعةَ والهيبة هي من أثر الإعجاز وليست الإعجازَ نفسه ، وضربت على ذلك مثالاً فلينظر[1] .

الوجه الحادي والعشرون : أن سامعه لايَمَجُّه[2] وقارئه لايمله[3] :

قد أورد السيوطيّ هذا الوجهَ بإيجاز ، لم يزد فيه على أن ذكر بعض الأحاديث والآثار المنبئة عن هذا الأمر ، وصدّر هذا الوجهَ بكلام يسير عن حلاوة هذا القرآن العظيم في القلوب والصدور .

وهذا الوجه داخل تحت الوجه السابق ؛ إذ أن تلك الروعةَ والهيبة تحمل القارىء على ترداد مايقرؤه بلا ملل ، والله أعلم[4]

الوجه الثاني والعشرون : تيسيره - تعالى - حفظَه ، وتقريبُه على متحفظيه[5] :

١- انظر ص ١٤٤- ١٤٥ .

٢- المجّ هو اللفظ والترك ، انظر ((لسان العرب)) : مجج .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٤ - ٢٤٥ .

٤- سبق الكلام على هذا الوجه ، انظر ص ١٦٣ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١/٢٤٥ - ٢٤٦ .

وقد بينت سابقاً أن الوجوه من التاسع عشر إلى الثاني والعشرين منقولة بنصها - تقريباً - من ((الشفا)) للقاضي عياض ، ولم يُشِرِ السيوطي إلى هذا ، انظر ص ٢٩٧ .

أوجز السيوطيّ – رحمه الله تعالى – الكلام على هذا الوجه ، وأوضح كيفية تيسيره – تعالى – هذا الحفظَ على الناس حتى أن الغلمان الصغار يحفظونه في مدة قصيرة ، وهو أمر مشاهد إلى اليوم .

وهذا الوجه ليس من أوجه الإعجاز ، وإنما جبل الله العرب على الحفظ وسهله عليهم فهم أمة حافظة ، وأخبارهم في هذا الباب معروفة ، لكن قد يقال إن هذا من خصائص القرآن العظيم التي لانظير لها ، وقد بينت هذا سابقاً[١] .

وقد أورد السيوطيّ – رحمه الله تعالى – مبحثاً لاتعلق له بهذا الوجه ، وهو كثرة ختم بعض الناس لكتاب الله – تعالى – وأورد فيه حكاياتٍ مستغربةً تفتقر إلى برهان[٢] .

الوجه الثالث والعشرون : ((وقوع الحقائق والمجاز فيه))[٣] :

ذكر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في هذا الوجهِ الحقيقةَ والمجاز في القرآن الكريم ، وبيّن اختلاف العلماء في وقوع المجاز فيه ، وتكلم على أقسام المجاز وأنواعه فجاء هذا الوجه مبسوطاً متفرعاً .

والمجاز هو ((اللفظ المستعمل في غير ماوضع له في اصطلاح التخاطب لعلاقة ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعيّ))[٤] .

فإذا قلتَ مثلاً : رأيت أسداً يخطب ، فقولك : ((أسداً)) : مجاز ؛ لأنك استخدمت هذا اللفظ في غير ماوضع له في اصطلاح التخاطب ، والعلاقة :

١- انظر ص ١٦٧ من هذه الرسالة .

٢- انظر ١/٢٤٦ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١/٢٤٦ – ٢٦٨ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ٢٩٠ – ٢٩١ .

الشجاعة ، والقرينة : قولك : يخطب ، وهي المانعة من إرادة المعنى الوضعيّ .

وكلام العرب قبل نزول القرآن وبعده مشتمل على المجاز ولم يقل أحد بأنه معجز إلا إذا قيل إن استعمالات الحقيقة والمجاز قد جاءت على ضرب لم تألفه العرب في لغتها ، بل على وجه متفرد في الاستعمال العربيّ ، وهذا هو الذي يمكن أن يحصل به الإعجاز .

لكن إذا قيل بالإعجاز في هذا فلا ينبغي إفراده وجهاً مستقلاً بالإعجاز – كصنيع الإمام السيوطيّ – إلا لإرادة إظهاره وتمييزه ؛ إذ المجاز من أنواع علم البيان الذي هوأحد أقسام البلاغة الثلاثة[1] ، فهو مندرج تحت الإعجاز البلاغيّ ، وذِكره هنا من باب ذكر الخاص بعد العام إبرازاً وتأكيداً لأهميته ليس غير ، والله أعلم .

الوجه الرابع والعشرون من وجوه إعجازه :
((تشبيهه واستعاراته ، وهو من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها))[2] :

قد بسط السيوطي الكلام على هذا الوجهِ بسطَه للوجه السابق ، وذكر أقسام ومباحث التشبيه والاستعارة[3] .

وهذا الوجه ملحق بوجه الإعجاز البلاغي – كسابقه – لايصح إفراده وجهاً مستقلاً بالإعجاز ؛ لأن التشبيه من أبواب علم البيان ، والاستعارة من أقسام المجاز الذي هو من أبواب علم البيان أيضاً ، وعلم البيان أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، فالإعجاز في التشبيه والاستعارة مندرج تحت الإعجاز البلاغي .

١- المصدر السابق .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ – ٢٨٦ .

٣- قد سبق تعريف التشبيه والاستعارة ، انظر ص ١٧٨ .

لكن قد يقال إن الإمام السيوطيّ أراد زيادة بيانٍ لهذين المبحثين : التشبيه والاستعارة ، ومزيدَ إظهار لشرفهما وفضلهما - كما يدل على هذا قوله في عنوان هذا الوجه : ((وهو من أشرف البلاغة وأعلاها)) - فمن أجل ذلك أفردهما بالذكر لاعلى اعتبار أنهما مستقلان بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض[1] :

بسط السيوطي - رحمه الله تعالى - الحديث على هذا الوجهِ بسطَه لسابقَيْهِ ، وذكر أسباب الكناية والفرق بينها وبين التعريض .

أما الكناية فهي ((لفظٌ أُريدَ به غيرُ معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصليّ لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته ؛ نحو : زيد طويل النِّجاد[2] ، تريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم ، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة إلى الإشارة إليها بشيء تترتب عليه وتلزمه ، لأنه يلزم من طول حمالة السيف طول صاحبه ، ويلزم من طول الجسم الشجاعةُ عادةً ، فإذاً المراد طول قامته وإن لم يكن له نِجاد ، ومع ذلك يصح أن يراد المعنى الحقيقيّ ، ومن هنا يعلم أن الفرق بين الكناية والمجاز صحة إرادة المعنى الأصليّ في الكناية دون المجاز ، فإنه ينافي ذلك))[3] .

والتعريض قسم من أقسام الكناية ، ويراد به ((أن يُطلَق الكلام ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق نحو قولك للمؤذي : ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)) [4] تعريضاً بنفي صفة الإسلام[5] عن المؤذي))[6] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ - ٢٩٣ .

٢- سيبين الشارح أن معناها حمالة السيف .

٣- ((جواهر البلاغة)) : ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان ، باب : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده بسنده إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ١ / ٩٠ .

٥- أي الإسلام الكامل .

٦- ((جواهر البلاغة)) : ٣٥٠ .

وهذا الوجه ملحق – كسابقَيْهِ – بالإعجاز البلاغي ؛ لأن التعريض من أقسام الكناية ، والكناية أحد أبواب علم البيان الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة .

الوجه السادس والعشرون :

((إيجازه في آية وإطنابه في أخرى ، وهما من أعظم أنواع البلاغة))[1] :

قد أطنب السيوطي في هذا الوجه فاستقصى فيه مباحث الإيجاز والإطناب وأقسامهما وقواعد تختص بهما .

والإطناب عكس الإيجاز ، ومعنى الإطناب : ((تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء لفائدة تقويته وتوكيده ... فإذا لم تكن في الزيادة فائدة يسمى (تطويلاً) إن كانت الزيادة في الكلام غير متعينة ، ويسمّى حشواً إن كان الزيادة في الكلام متعينة لايفسد بها المعنى))[2] .

ومعنى الزيادة المتعينة أي المعروفة بأنها زائدة لايضر إسقاطها ، بخلاف الزيادة غير المتعينة التي تكون في المترادفات غالباً فلا يتعين الزائد منهما[3] .

ومثال الإطناب – وهو التطويل في تأدية المعنى لفائدة – قوله تعالى :

﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾[4] أي كبرتُ ، والفائدة فيه تقوية المعنى وتوكيده[5] .

١– ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٣ – ٣٧٣ ، و هذا الوجه أطول الأوجه التي جاءت في الكتاب خلا الوجه الخامس والثلاثين .

٢– ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ – ٢٢٧ .

٣– المصدر السابق : ٢٢٧ .

٤– سورة مريم : آية ٤ .

٥– ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ .

ومثال التطويل :

.... وألفى قولها كذباً ومَيْناً[1] .

فالمين والكذب بمعنى واحد ، و لم يتعين الزائد منهما ؛ لأن العطف بالواو لايفيد ترتيباً ولاتعقيباً ولامعية فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت .

ومثال الحشو :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم مافي غد عمي[2]

وقوله (قبله) حشو لأنه معلوم من قوله : (أمس)[3] .

والإيجاز والإطناب في القرآن العظيم جزء من الإعجاز البلاغيّ ، لأن الإيجاز والإطناب من أقسام علم المعاني الذي هو أحد أركان البلاغة الثلاثة .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور :

((فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معانيَ من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم ، وهو لكونه كتابَ تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقاً بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ماتحتمله الألفاظ في أقل مايمكن من المقدار ، بحسَب ماتسمح به اللغةُ الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات ... وقد تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر[4] تكثيراً للمعاني مع إيجاز اللفظ ، وهذا من وجوه الإعجاز ...))[5] .

وقال أيضاً :

١- البيت لعدي العبادي كما في ((جواهر البلاغة)) : ٢٢٦ .

٢- البيت لزهير بن أبي سلمى كما في ((جواهرالبلاغة)) : ٢٢٧ .

٣- المصدر السابق .

٤- أي من وجوه القراءات .

٥- ((التحرير والتنوير)) : ٩٣ - ٩٤ بتصرف .

((ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز ، وهو متنافَسُهم وغايةٌ تتبارى إليها فصحاؤهم ، وقد جاء القرآن بأبدعه ؛ إذ كان مع مافيه من الإيجاز المبين في علم المعاني فيه إيجاز عظيم آخر وهو صُلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لاينافيها اللفظ ...))[١] .

وإنما ذكرت هذا ليتبين الناظر في وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيُّ السببَ الذي من أجله أفرد الإيجاز والإطناب وجهاً من وجوه الإعجاز ، وأن ذلك كان إبرازاً لأهميته وفضله وكثرته في كتاب الله تعالى .

وقد قال الإمام السيوطيّ بعد أن ذكر مثالاً على الإيجاز بالحذف :
((فتأمل ماأجملته فسوف يتضح لك به إذا استوفيته مايعنيك على فهم الإعجاز))[٢].

وكلامه هذا ربما يدلّ على أنه يرى أن هذا الوجه معجز بذاته ، مستقل عن غيره ، والحق ماقدمته من اندراجه تحت الإعجاز البلاغيّ ، والله أعلم .

الوجه السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه[٣] :

بسط السيوطي - رحمه الله تعالى - الكلام على هذا الوجه ، وتوسع فيه ذاكراً أقسام البديع وممثلا لها .

أما البديع فهو ((علم يعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسناً وطلاوة ، وتكسوه بهاءً ورونقاً بعد مطابقته لمقتضى الحال ، مع وضوح دلالته على المراد لفظاً ومعنى))[٤] .

١- المصدر السابق : ١٢١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٢١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ - ٤٢٠ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ٣٦٠ - ٣٦١ .

وقد أورد السيوطي ستةوأربعين نوعاً من أنواع البديع ، وقد ذكر أن بعضهم أنهاها إلى مائتي نوع[1] .

وسأذكر هنا أول ثلاثة أنواع أوردها من البديع ، وهي :

١ – **الإيهام أو التورية** : وهي ((أن يُذكر لفظٌ له معنيان ... أحدهما قريب والآخر بعيد ، ويُقصد البعيد ويورّى عنه بالقريب فيتوهمه السامع في أول وهلة ...))[2] .

والتورية على أقسام فمنها ((المجردة))[3] وهي التي ((لم يذكر فيها شيء من لوازم المورّى به ولا المورّى عنه)) ، ومنها ماتسمى ((مرشحة))[4] وهي التي ذُكر فيها شيء من لوازم هذا أو هذا ... ومنها :
﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾[5] .
فالضلال يحتمل الحب وضدَّ الهدى ، فاستعمله أولاد يعقوب ضد الهدى تورية عن الحب))[6] .

٢ – الاستخدام :

((وهو والتورية أشرف أنواع البديع ، وهما سِيّان ، بل فضّله بعضهم عليها ، وله فيه عبارتان :

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٤ .

٣- وسميت مجردة لتجريدها عن بعض المبالغة ؛ لبعد المشبه عن المشبه به بعض بُعد :
انظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٣١ .

٤- وسميت مرشحة لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم للمستعار له . انظر ((جواهر البلاغة)) : ٣٣١ .

٥- سورة يوسف : آية ٩٥ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ .

أحدهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحدُ معانيه ، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر[1] .

والأخرى : أن يؤتى بلفظ مشترك ، ثم بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين ومن الآخَر الآخَرُ ... ومثل له بقوله تعالى :
﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ... ﴾[2] الآية ، فلفظ ﴿ كِتَابٌ ﴾ يحتمل الأمد المحتوم والكتابَ المكتوب ، فلفظ ﴿ أَجَلٍ ﴾ يخدم المعنى الأول ، و ﴿ يَمْحُواْ ﴾ يخدم المعنى الثاني ...))[3] .

٣ - الالتفات :

((وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر ، أعني من التكلم أو الخطاب أو الغَيبة إلى آخرَ منها بعد التعبير بالأول ، هذا هو المشهور))[4] .

ثم إنه ذكر فوائد الالتفات ومثل له بأمثلة منها :
((مثاله من التكلم إلى الخطاب - ووجهه حثُّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أقبل المتكلم عليه وأعطاه فضل عناية وتخصيص بالمواجهة - قوله تعالى :
﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[5] الأصل : وإليه أرجع ، فالتفت من التكلم إلى الخطاب ...))[6] .

١- قد مثل له بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ (سورة النحل : آية ١) فأمر الله يراد به قيام الساعة والعذاب ، ويراد به بعثةُ النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد أريد بلفظه الأخيرُ ، ثم إنه ساق أثرا يدل على ذلك ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٧ .

٢- سورة الرعد : آية ٣٨ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣٧٦/١ - ٣٧٧ .

٤- المصدر السابق : ٣٧٧/١ .

٥- سورة يس : آية ٢٢ .

٦- ((معترك الأقران)) : ٣٧٨/١ .

وبعد فراغ الإمام السيوطيّ من ذكر شروط الالتفات ذكر أمثلة وافية لأنواعه .

وقد أشار إلى عدِّ هذا القسمِ من الإعجاز بقوله في أنواع البديع التي ذكرها :

((وقد قدمنا منها من نوع الفواصل والمناسبات والخواتم وفي الوجه الذي قبل هذا[1] مالامزيد لذكره ، ونذكر هنا بعضها لتطلع على أسرار هذا الكلام الذي أعجز عقول ذوي الأفهام عن إدراك عجائبه التي لاتنقضي ؛ لأنه في أحسن نظام ...))[2].

وهذا الوجه ملحق بالإعجاز البلاغي لأن البديع أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، ولعل إفراده بالذكر هنا من باب إبرازه وإظهاره لا على أنه وجه مستقل بالإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء[3]:

تكلم السيوطيّ في هذا الوجهِ على أقسام الخبر والإنشاء ، وقواعدِهما، ومثّل لكل ماأتى به .

والخبر هو ((كلام يحتمل الصدق والكذب لذاته)) أي إنما ينظر في احتمال الصدق والكذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله[4] .

١- وهو الإيجاز والإطناب .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣٧٣/١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٤٢٠/١ - ٤٤٩ .

٤- ((جواهر البلاغة)) : ٥٣ .

والإنشاء هو ((الكلام لايحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته نحو : اغفر وارحم ، فلا يُنسب إلى قائله صدقٌ أو كذب))[١] .

وقد ذكر أن من أقسام الخبر التعجبَ[٢] ، والوعد والوعيد[٣] ، والنفي[٤] .

وأن من أقسام الإنشاء :
الاستفهام[٥] ، والتوبيخ[٦] ، والتقرير[٧] ، والتعجب[٨] ، والعتاب[٩] ، ... في اثنين وثلاثين نوعاً ذكرها في هذا القسم[١٠] .

والخبر والإنشاء من أبواب علم المعاني الذي هو أحد أقسام البلاغة الثلاثة ، فلا داعي لإفرادهما عن الإعجاز البلاغي إلا لغرض الإظهار والإبراز ، والتوسع في الكلام على أنواعهما وأقسامهما ، والله أعلم .

الوجه التاسع والعشرون :
((إقسامه – تعالى – في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها))[١١] :

ذكر في هذا الوجهِ مباحث متعددة عن القَسَم ، وختمه بنقل طويل من كتاب ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم رحمه الله تعالى .

١- المصدر السابق : ٧٥ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١/٤٢٣ – ٤٢٤ .

٣- المصدر السابق : ١/٤٢٤ .

٤- المصدر السابق : ١/٤٢٤ – ٤٣١ .

٥- المصدر السابق : ١/٤٣١ – ٤٣٣ .

٦- المصدر السابق : ١/٤٣٣ .

٧- المصدر السابق : ١/٤٣٣ – ٤٣٥ .

٨- المصدر السابق : ١/٤٣٥ ، وقد سبق ذكر التعجب في أقسام الخبر لكنه قال هناك : إن التعجب من أقسام الخبر على الأصح فدل على أن هناك من قال بأنه من أقسام الاستفهام ، ولذا كرره هنا ، والله أعلم .

٩- المصدر السابق .

١٠- ((معترك الأقران)) : ١/٤٣١ – ٤٤٩ .

١١- ((معترك الأقران)) : ١/٤٤٩ – ٤٥٥ .

والقَسَم في كلام العرب كثير مكرور ، لكن قد يقال إن القَسَم في كتاب الله تعالى جاء على طريقة متفردة ، فالمقسِم سبحانه عظيمٌ ، والمقسَم به مخلوقات عظيمة تدل على عظمة خالقها ، والمقسم عليه أمر عظيم مهم ، فقد يكون هذا هو الملحظَ للقول بالإعجاز .

لكني لا أرى أن هذا الوجهَ يصلح للإعجاز سواء أكان بذاته أم باندراجه تحت وجه أعمّ ؛ إذِ القَسَم من باب التفنن في إيصال المعاني إلى أذهان السامعين وتثبيتها وتقويتها ، أما أن يُعدَّ من الإعجاز فلا أجد متعلقاً له به حتى باعتبار أن أقسام القرآن جاءت نسيجاً مختلفاً لايشبهه شيء ، والله أعلم .

الوجه الثلاثون :

((اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة))[1] :

ومقصوده هنا البراهينُ والأدلة المستعملة في المجادلات والمناظرات ، وبعضها يُبحث في باب القياس من علم أصول الفقه ، وبعضها يُبحث في علم المنطق والجدل والمناظرة .

وقد أورد في هذا الوجهِ عدّةَ مباحثَ تتلخص في الآتي :

١- ورود البراهين والأدلةِ في القرآن مغايرٌ لطرائق المتكلمين .

٢- الصحيح أن المذهب الكلامي الجدليّ موجود في القرآن بخلاف من نفاه ، وأورد الإمام السيوطيّ آياتٍ فيها براهين وأدلة عقلية كلامية ؛ وذلك نحو أول سورة الحج فقد نقل الإمام السيوطيّ عن الأستاذ ابن أبي الإصبع قوله إن من أول سورة الحج إلى

١- ((معترك الأقران)) : ١/٤٥٦ - ٤٦٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ خمسَ نتائجَ تستنتج من عشر مقدمات ، ثم أتى بها[1] .

وكذلك نقل السيوطي أن أحد العلماء ذكر أن الله - تعالى - استدلّ على المعاد الجسماني بقياس الإعادة على الابتداء ، وبقياس الإعادة على خلق السماوات والأرض بطريق الأَولى ، وبقياس الإعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات ، وبقياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر ...[2]

٣- أورد أنواعاً للبراهين والأدلة القرآنية ، منها :

السَّبْر والتقسيم[3] :

ومثل له بقوله تعالى :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ الآيتين[4] .

((فإن الكفار لَمّا حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثَها أخرى رد تعالى ذلك عليهم بطريق السَّبْر والتقسيم ، فقال : إن الخلق لله ، خلق من كل زوج مما ذكر ذكراً وأنثى فممّ جاء تحريم ماذكرتم ؟ وماعلته ؟ لايخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمالِ الرحم الشامل لهما ، أو لايُدرى له علةٌ ، وهو التعبدي ، بأَنْ أُخذ ذلك عن الله ، والأخذ عن الله إما بوحي ، أو إرسال رسول ، أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه ، وهو في معنى قوله :

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ﴾[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ /٤٥٦ -٤٥٧ ، والآيات من سورة الحج : ١ - ٧ .

٢- المصدر السابق : ١ /٤٥٨ - ٤٥٩ .

٣- ((معناه أن الباحث عن العلة يقسم الصفات التي يتوهم عِلّيتها بأن يقول : علة هذا الحكم إما هذه الصفة وإما هذه ، ثم يَسْبِر كل واحدة منها - أي يختبره - ويلغي بعضها بطريقه ، أي يبطل باقي الأوصاف ، فيتعين الباقي للعِلّية ، فالسبر هو أن يختبر الوصف : هل يصلح للعِلّية أم لا .
والتقسيم هو قولنا : العلة إما كذا وإما كذا ، فكان الأولى أن يُقدَّم التقسيم في اللفظ فيقال : التقسيم والسَّبْر)) : ((نهاية السُّول في شرح منهاج الأصول)) : ١٢٨/٤ - ١٣٠ .

٤- سورة الأنعام : الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

٥- سورة الأنعام : آية ١٤٤ .

فهذه وجوه التحريم لاتخرج عن وجه منها :
والأول يلزم عليه أن تكون جميع الذكور حراماً .
والثاني يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً .
والثالث يلزم عليه تحريم الصنفين معاً .

فبطل مافعلوه من تحريم بعضٍ في حالة ؛ لأن العلة - على ماذكر - تقتضي إطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل و لم يدّعوه ، وبواسطة رسولٍ كذلك ؛ لأنه لم يأت إليهم رسولٌ قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - .

وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدّعى وهو أن ماقالوه افتراء على الله وضلال))[1] .

وهذا النوع أوردته بطوله ليكون فيه غَناءٌ عن إيراد غيره مفصَّلاً ؛ إذ أنه أورد ستة أنواع أخرى لعلم الجدل هي :
القول بالموجِب ، والتسليم ، والإسجال ، والانتقال ، والمناقضة ، ومجاراة الخصم ، تنظر أمثلتها في ((المعترك))[2] .

وهذا الوجه الذي أورده له تعلق بالإعجاز لكنه ليس وجهاً كلياً ، أي ليس شاملاً لكل آيات القرآن بل هو في بعضها فقط .

أما وجه تعلقه بالإعجاز فلأن العرب زمنَ نزول القرآن وقبله لم يكونوا يعرفون هذا النوع من البراهين والأدلة و لم يضمنوه كلامهم ، فقد كان الخطباء والشعراء يرسلون الكلام إرسالاً بلا دليل ، بل ربما استخدموا أدلة ساقطة أشبه

---

١ - ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٠ - ٤٦١ .
٢ - ١ / ٤٦١ - ٤٦٣ .

بالدعاوى الفارغة ، فلما نزل القرآن جاءهم بما لاقِبَل لهم به ولاعهد من الطرائق الكلامية والبراهين والأدلة العقلية الجدليّة ، وذلك لأن القرآن يسوق كلَّ حكم بدليله وكلَّ قضية ببرهانها ، وكلَّ أصل أو فرع بما يثبته من أنواع الإثباتات والحجج إلخ ...

فإذاً يكون هذا الوجهُ الذي ساقه السيوطيّ نوعاً جليلاً من الإعجاز .

لكن إذا نُظر إلى هذا الوجهِ باعتبار مجموع القرآن وما ورد فيه من براهينَ وأدلةٍ جدلية ، إذا نُظر إليه بهذا الاعتبارِ كان وجهاً من أوجه الإعجاز الجزئيّ ليس الكليّ بمعنى أنه ليس في كل آية من كتاب الله تعالى كالإعجاز البلاغي - مثلاً - وهو مماثل بهذا الاعتبارِ الإعجازَ بأخبار الغيب الذي تكلمت عليه قبل هذا مراراً[1] .

وعلى كلٍّ حال فإن هذا الذي جاء به الإمام السيوطيّ يُعدّ جديداً في باب الإعجاز لم ينبه عليه أحدٌ قبله تنبيهَه عليه وبسطه له ، والله أعلم .

الوجه الحادي والثلاثون : ((ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة))[2] :

قدم السيوطيّ بمقدمة بين فيها أهمية علمِ أمثال القرآن وفهمِها ، وأتى ببعض أقوال العلماء في هذا .

ثم إنه قسم أمثال القرآن قسمين :

ظاهر ، وكامن أو مضمر ، وفسر ذلك بقوله :

((أمثال القرآن قسمان : ظاهر مصرح به ، وكامن لاذكر للمثل فيه ، فمن أمثلة الأول : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ... ﴾ الآيات[3] ، ضرب الله فيها للمنافقين مثلين مثلاً بالنار ومثلاً بالمطر))[4] .

---

١ - انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢ - ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٤ - ٤٧٢ .

٣ - سورة البقرة : الآيات ١٧ - ٢٠ .

٤ - ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٦ .

وقد فسر الأمثال الكامنة بقوله :

((وأما الكامنة فقال الماورديّ : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم[١] يقول : سمعت أبي[٢] يقول : سألت الحسين بن فضل[٣] فقلت : إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله : (خير الأمور أوساطها) ؟

قال : نعم ، في أربعة مواضع : قوله :

﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾[٤] .

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[٥] .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾[٦] .

وقوله :

﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[٧] .

قلت : فهل تجد في كتاب الله : (من جهل شيئاً عاداه) ؟

قال : نعم ، في موضعين :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾[٨] .

---

١ - لم أعثر له على ترجمة .

٢- لم أعثر له على ترجمة .

٣- هو الشيخ العلامة المفسر اللغوي الحسين بن فضل بن عُمير البَجَليّ الكوفي ثم النيسابوريّ . ولد قبل الثمانين والمائة . وكان إمامَ عصره في معاني القرآن . قال مضارب بن إبراهيم : كان علم الحسين بن فضل بالمعاني إلهاماً من الله فإنه كان قد تجاوز حد التعليم . توفي بنيسابور سنة اثنتين وثمانين ومائتين وهو ابن مائة وأربع سنين .

انظر ((سير أعلام النبلاء)):١٣ / ٤١٤ - ٤١٦ .

٤- سورة البقرة : آية ٦٨ .

٥- سور الفرقان : آية ٦٧ .

٦- سورة الإسراء : آية ٢٩ .

٧- سورة الإسراء : آية ١١٠ .

٨- سورة يونس : آية ٣٩ .

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1] ...))[2] .

ثم ختم هذا الوجه بذكر ألفاظ من القرآن تجري مجرى المثل ، وقد نقلها من كتاب ((الآداب)) لجعفر بن محمد شمس الخلافة[3] فمن تلك الألفاظ :

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾[4] .

﴿لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[5] .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾[6] .

وهذا الوجه من أجلّ وأعظم وجوه الخطاب القرآنيّ ، وهو مندرج - في تقديري - في الوجه السابعَ عشر وهو : ((وجوه مخاطباته)) فحكم هذا الوجهِ حكم المندرَجِ تحته ، وقد بينت في الوجه السابع عشر أن ماكان من وجوه المخاطبات متعلقاً بالنظم القرآنيّ فهو معجز لإعجاز النظم ، وأمثال القرآن يصح إدراجها في الإعجاز النظميّ أيضاً ، والله أعلم .

١- سورة الأحقاف : آية ١١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٨ - ٤٧٠ .

٣- هو أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة محمد بن مختار الأفضليّ الشاعر المشهور . ولد سنة ٥٤٣ ، كان فاضلاً حسن الخط ، وله تواليف وديوان شعر أجاد فيه . توفي بمصر سنة ٦٢٢ .
انظر ((وفيات الأعيان)) : ١ / ٣٦٢ - ٣٦٣ .

٤- سورة النجم : آية ٥٨ .

٥- سورة آل عمران : آية ٩٢ .

٦- سورة الحج : آية ١٠ .

الوجه الثاني والثلاثون :

((مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف فتارة يُرجِّي وتارة يُخوف))[1] :

جاء السيوطي في هذا الوجهِ بمجموعة من الآيات وُصفت كل آية منها بوصف :

فآية هي الأرجى ، وأخرى هي الأشد تخويفاً ، وثالثة تعدّ الأعدل ، وهكذا ...
وقد أَلحق بهذا مباحث مثل : أيُّ آية أفضل ؛ وأي آية أطول ؟ وأيّ آية أغرب ؟ وهكذا ...

والإعجاز هو الانقطاع عن المواجهة والضعف عن المعارضة – كما بينت قبل هذا[2] – فليس لهذا الوجهِ إذاً تعلقٌ معقول بالإعجاز بل هو ، والله أعلم ، من باب فضائل القرآن العظيم وخصائصه ، حيث إن القرآن جمع بين الترهيب والترغيب ، والوعد والوعيد ، والرجاء والقنوط وهكذا ، وهذا التنوع في الخطاب القرآنيّ أقرب للخصائص منه إلى الإعجاز ، والله أعلم .

الوجه الثالث والثلاثون :

((ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها))[3] :

والمبهم هو الشيء الذي لايعرف معناه ، وإبهام الأمر : أن يشتبه فلا يُعرف وجهُه ، ويقال : أمر مبهم إذا كان لايعرف معناه ولا بابه[4] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٢ – ٤٨٣ .

٢- انظرص ٢٥ وما بعدها .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٤ – ٥١١ .

٤- انظر ((لسان العرب)) : ب هـ م .

والمبهمات في هذه الآيات هي المسميات التي لم تُبين أسماؤها سواء كانت من البشر أو الملائكة أو الجن أو الحيوانات بأنواعها ، أو الجمادات ، فكل ما لم يُسمّ فهو مبهم .

وقد ذكر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - أسباب الإبهام في القرآن ، ثم إنه أورد جميع المبهمات التي في القرآن على ترتيب ورودها في السور ، وعرّف المبهماتِ على مافيها من اختلاف كثير ، ومرجع كثير منها إلى أخبار بني إسرائيل غير الدقيقة .

والحق أن الله - تبارك وتعالى - أبهم في القرآن لِحِكَم قد يكون منها حثُّنا على الالتفات إلى العظة والعبرة في الخبر القرآني والتعلق بهما ، لاأن نستفرغ وسعنا في البحث عن أسماء الحيوانات والطيور وغير ذلك مما لو كان فيه فائدة لنا لبينه سبحانه و لم يُبهمه .

وقول السيوطيّ : ((آيات مبهمة **يحارالعقل فيها**)) فيه إشارة إلى أن هذا الوجهَ معجز عنده أو له تعلق بالإعجاز ، وسبب إعجازه هو تلك الحَيرة التي تخالط العقل بسبب الإبهام .

لكني أرى - والله أعلم - أن مثل هذا الذي أورده السيوطي إنما هو مندرج تحت غيره من وجوه الإعجاز ، وذلك لأن الآيات المبهمة التي يحار العقل فيها نوعان :

١ - نوع تاريخيّ مثل ماورد في الآية الكريمة :

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[١] ونحوه ، وهذا داخل في الإعجاز بأخبار الغيب الماضي الذي بينته قبل هذا[٢] .

١- سورة طه : آية ٩٦ .

٢- انظر ص ١٣٤ .

٢ – نوع إخباريّ كالآيات التي تتحدث عن العرش والكرسيّ والعوالم العلوية ونحوه مما لامجال للعقل فيه ، وهو من باب الإعجاز بأخبار الغيب الحاضر الذي ذكرته قبل هذا أيضاً[١] .

أما الآيات الأخرى التي تتحدث عن طير إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وبقية الحيوانات المبهمة فليس الإعجاز في الإبهام ولكن الإعجاز فيها كائن من نواح ثلاث :

١ – الإخبار بالقصة إعجاز بعد أن اندثر أهلها فلم يكد يعرفها أحد حتى من خواص أهل الكتاب ، وهذا هو الإعجاز بأخبار الغيب الماضي.

٢ – الحدث نفسه معجز لرائيه .

٣ – الإعجاز بقص القصة نفسها ، وما فيها من فصاحة وبلاغة وحسنِ نظم .

فلعلّ السيوطيّ حين أشار إلى إعجاز هذا الوجهِ أراد المعنى الذي أوردته ، والله أعلم .

الوجه الرابع والثلاثون :

((احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة ، والكنى والألقاب ، وأسماءِ القبائل والبلاد ، والجبال والكواكب))[٢] :

أتى السيوطي – رحمه الله تعالى – في هذا الوجهِ بأسماء مذكورة في القرآن لأصناف وأنواع من المخلوقات ، فأتى بأسماء الكواكب في القرآن ، وأسماء القبائل ، وأسماء الطير والحيوانات إلخ ...

وأرجأ أسماء الأنبياء والألقاب إلى الوجه الخامس والثلاثين وهوالألفاظ المشتركة على أنه لاتعلق لهما به ، كما سأبين ، إن شاء الله تعالى[٣] .

١– انظر ص ١٣٤ وما بعدها .

٢– ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٢ – ٥١٤ .

٣– انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

وليس لمجرد سرد الأسماء في القرآن إعجازٌ ، لكن الإعجاز فيها يأتي لأسباب ، منها :

أولاً : ذكر أسماء لم يعد يعلمها كثير من الناس بل أكثرهم ، وهذا من باب الإعجاز بأخبار الغيب الماضية .

ثانيـــاً : براعة الصياغة اللفظية لبعض هذه الأسماء التي هي أعلام غير عربية ، حيث صيغت في نطقها بأفصح صياغة بما يناسب اللغة العربية وطرائق الاستعمال فيها ، بحيث يُفهم لفظ العَلَم بعد نقله إلى اللغة العربية بأفصح عبارة ، ومثال ذلك ماجاء في القرآن من لفظ جالوت وداود وطالوت ، وهي ألفاظ تؤدي معنى الأعلام الأعجمية لكن بما يناسب الاستعمال العربي[1] .

ثالثـــاً : براعة نظم وسبك الألفاظ بعضها بجوار بعض بحيث لاتبدو أنها مجرد سرد لأعلام وإنما هي تركيبة في الأسلوب تجعل الكلام على غاية الروعة والسهولة في التلاوة والحفظ[2] .

فلعلّ السيوطيّ لحظ هذا المعنى الذي أوردته عندما حكم على هذا الوجه بأنه معجز ، والله أعلم .

الوجه الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة :

هذا الوجه هو أكبر أوجه الإعجاز التي أثبتها الحافظ السيوطيّ في كتابه حجماً ، إذ استغرق ثلثي الكتاب تقريباً[3] .

وقد بيّن السيوطي - رحمه الله تعالى - المشترك بقوله :

((الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ، ولايوجد ذلك في كلام البشر))[4] .

فإذا أُضيف إلى ذلك ماقاله في ((المزهر)) كان الكلام أكثر دقةً وتقعيداً إذ يقول :

١- وهذه الألفاظ في اللغة العبرية هي على الترتيب : حوليات ، دِيفِيد ، شاؤول ، انظر ((معجم أعلام الشرق والغرب)) لفرديناند اليسُوعي : ١٢٤ ، ١٨٩ ، ٢٨٤ على التوالي .

٢- راجع الآيتين اللتين فيهما سرد لأسماء الأنبياء ، وذلك في سورة النساء : آية ١٦٣، وسورة الأنعام : آية ٨٣-٨٦ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٤ إلى نهاية المجلد الأول ص٦٤٠ ، والمجلد الثاني بتمامه ، والثالث إلى صفحة ٥٦١، في نحو ١٤٠٠ صفحة من أصل ألفي صفحة تقريباً .

٤- المصدر السابق : ١ / ٥١٤ .

((قد حدّه أهل الأصول بأنه اللفظ الواحد الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر ، دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة))[1] .

وقد اختلف العلماء في وجود المشترك في اللغة وفي القرآن ، وأدلى كلٌّ بحججه ، والأصح أنه موجود في اللغة وفي القرآن ، وقد ناقش الإمام السيوطيُّ كلَّ ذلك مناقشة مستفيضة في كتابه ((المزهر)) ، وأتى بأمثلة كثيرة لبيان وقوعه في لسان العرب[2] .

وقد أتى بأمثلة كثيرة للمشترك اللفظي في ((المعترك)) منها قوله :

((﴿ هُدَى ﴾ بضم الهاء له سبعة وعشرون وجهاً

١ – الهدى بمعنى الثبات :

﴿ اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] .

٢ – والبيان :

﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾[4] .

٣ – والدين :

﴿ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾[5] .

٤ – والإيمان :

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[6] .

١- ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) : ١ / ٣٦٩ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٦٩ - ٣٨٦ .

٣- سورة الفاتحة : آية ٦ .

٤- سورة البقرة : آية ٥ .

٥- سورة آل عمران : آية ٧٣ .

٦- سورة مريم : آية ٧٦ .

٥ – والدعاء :

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[1] ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾[2] .

٦ – وبمعنى الرسل والكتاب :

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾[3] .

٧ – والمعرفة :

﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[4] .

٨ – والنبيّ ، صلّى الله عليه وسلم :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾[5] .

٩ – وبمعنى القرآن :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [6] .

١٠ – والتوراة :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[7] .

١– سورة الرعد : آية ٧ ، وهاد – هنا – بمعنى داعٍ كما قال السيوطيّ .

٢– سورة الأنبياء : آية ٧٣ .

٣– سورة البقرة : آية ٣٨ .

٤– سورة النحل : آية ١٦ .

٥– البقرة : آية ١٥٩

وقد يطلق الهدى في هذه الآية على صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – في الكتب القديمة ، وقد يطلق على القرآن ، وقد يطلق على العلم ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ١ / ٢٨٨ ، و ((التصاريف)) ليحيى بن سلام : ٩٩ .

٦– سورة النجم : آية ٢٣ .

وقد يطلق الهدى هنا على الرسل ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٤٣٣ ، و ((التصاريف)) : ١٠٠ .

٧– سورة غافر : آية ٥٣ .

١١ - والاسترجاع :

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١].

١٢ - والحجة :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ثم قال بعده ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢] أي لايهديهم حجةً .

١٣ - والتوحيد :

﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[٣] .

١٤ - والسنّة :

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[٤] ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٥] .

١٥ - والإصلاح :

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٦] .

١٦ - والإلهام :

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[٧] ، أي ألهم المعاش .

١- سورة البقرة : آية ١٥٧ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

٣- سورة القصص : آية ٥٧ .

٤- سورة الأنعام : آية ٩٠ .

٥- سورة الزخرف : آية ٢٢ .

٦- سورة يوسف : آية ٥٢ .

٧- سورة طه : آية ٥٠ .

١٧ - والتوبة :
﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾[١] .

١٨ - والإرشاد :
﴿ أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾[٢]))[٣] .

ولم يورد السيوطيّ - رحمه الله تعالى - سوى هذه الأوجه من الأوجه السبعة والعشرين التي ذكر أن (الهدى) يأتي بمعناها .

أما وجه الإعجاز في الألفاظ المشتركة - على مارآه الإمام السيوطيّ - فهو :
((أن الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل ، ولايوجد ذلك في كلام البشر)) فصار ((هذا الوجه من أعظم إعجازه))[٤] .

ولابد أن يُعلم أن للكلمة في لغة العرب دلالاتٍ محددةً موضوعةً بإزائها ، فقد توضع كلمة لتأدية معنى أصليّ واحد أو معنيين أو ثلاثة[٥] ، ثم إن الكلمة قد يكون لها معانٍ كثيرةٌ تفهم من السياق فهي معانٍ تفسيرية وليست معانيَ لغوية أصلية ، كحال لفظ (الهدى) المارِّ ذكرُه حيث إن السيوطيّ قال إن له سبعة وعشرين وجهاً بينما قال ابن فارس[٦] إن له أصلين اثنين ، وهذا كلامه :
(((هدى) : الهاء والدال والحرف المعتل : أصلان : أحدهما التقدم للإرشاد والآخر بَعثة لَطَف[٧] .

١- سورة الأعراف : آية ١٥٦ .

٢- سورة القصص : آية ٢٢ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٤ .

٥- وذلك يتضح بمراجعة ((معجم مقاييس اللغة)) حيث يقول ابن فارس عن كلمة معينة إن لها أصلين أو ثلاثة ، وعلى هذا بُني معجمه .

٦- الشيخ الإمام أحمد بن فارس بن زكريا القَزوينيّ . ولد سنة ٣٢٩ ، وكان مقيماً بهَمَذان والريّ ، وله تصانيف كثيرة في اللغة والأصول والفقه والقرآن ، وله شعرحسن . توفي بالريّ سنة ٣٩٥ .
انظر ((الوافي بالوفيات)) : ٧ / ٢٧٨ ، و ((الأعلام)) : ١ / ١٩٣ .

٧- قال الأستاذ عبد السلام هارون - رحمه الله تعالى - محققُ الكتاب : اللطَف - بالتحريك - التحفة والهدية ، وكلمة بَعثة ... هي المدة من البعث .

فالأول[1] قولهم : هديته الطريق هدايةً أي تقدمته لأرشده ، وكل متقدم لذلك هادٍ ... وينشعب[2] هذا فيقال :
الهدى خلاف الضلالة ، تقول : هديته هدىً ...))[3] .

فلعله من هنا – إذاً – جاء القول بالإعجاز في الألفاظ المشتركة لكثرة تصريف اللفظ الواحد بين معانيه الأصلية اللغوية ومعانيه التفسيرية السياقية ، وهذا يمثل ظاهرة قرآنية واضحة في كثير من الألفاظ ، وقد يقع هذا في كلام العرب لكن ليس بهذه الكثرة ولا بهذا التنوع .

قال الأستاذ الطاهر بن عاشور :
((ومن أساليب القرآن المنفردِ بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يَرِد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام بحسَب اللغة العربية لإرادة مايصلح منها ، واستعمالُ اللفظ في معناه الحقيقيّ والمجازي إذا صلح المقام لإرادتهما[4]، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز ، وهذا من آثار كونه معجزةً خارقة لعادة كلام البشر ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه))[5] .

والاشتراك في بعض ألفاظ القرآن العظيم – وإن انفرد القرآن بكيفية وكمية الألفاظ المشتركة – لايصح أن يُعد وجهاً مستقلاً بالإعجاز لكنه مندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة ، فلعل السيوطيّ أراد إبراز هذا الباب وإظهارَه فعده وجهاً مستقلاً بالإعجاز لكن الصحيح ما قدمته من اندراجه تحت وجه أعمَّ منه ، والله أعلم .

١- أي الأصل الأول لمادة : هـ د ى .
٢- أي يتفرع .
٣- ((معجم مقاييس اللغة)) : هـ د ى ، وانظر كذلك ((تحصيل نظائر القرآن)) للحكيم الترمذيّ : ١٩ – ٢٤ فقد ذكر مسألةً حاصلها أن النظائر القرآنية انشعبت من أصل واحد .
٤- أي استعمالهما معاً .
٥- ((التحرير والتنوير)) : ١ / ١٢٣ .

لأن هذا الوجه أعظم الأوجه طولاً وأكثرها تشعباً فإنه ينبغي ذكر بعض النقاط التي تعين على فهم طريقة ورود المادة العلمية ، ثم أعقب هذا بذكر الإيجابيات والسلبيات في هذا الوجه .

أما منهجه في إيراد الألفاظ المشتركة فيتلخص في الآتي :

أولاً : إيراد الألفاظ بدون إرجاعها إلى موادها اللغوية غالباً :

التزم الإمام السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، إيرادَ الألفاظ المشتركة وغيرها – مما سيأتي التنبيه عليه إن شاء اللـه تعالى – التزم إيرادها على حالها كما جاءت في المصحف الشريف من غير إرجاعها إلى موادها اللغوية ، وهذا هو الغالب فيما أتى به من ألفاظ ، لكن هناك بعض الاستثناءات ، هي كالآتي :

أ – الجمع بين اللفظ ومادته :

قد يجمع بين إيراد اللفظ كما هو وبين إرجاعه إلى مادته ، ومثال ذلك من الألفاظ المشتركة قوله تعالى : ﴿تَعْبُرُونَ﴾[٢]؛ فقد جاء به في موضعٍ وجاء بمادته (عبر) في موضع آخر ، إلا أنه قرن مع معنى تعبير الرؤيا معنى آخر وهو الجواز على الموضع[٣] .

ومثال ذلك من الألفاظ غير المشتركة قوله تعالى : ﴿ تَعْضُلُوهُنَّ ﴾[٤] ؛ فقد جاء به في موضع وجاء بمادته (عضل) في موضع آخر[٥] .

١- إنما قلت الألفاظ المشتركة لأنه سماها كذلك وإلا فأغلبها غير مشترك كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

٢- سورة يوسف : آية ٤٣ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣ و ٢ / ٦٤٢ .

٤- سورة البقرة : آية ٢٣٢ .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥ و ٢ / ٦٣٤ .

وانظر مثالاً آخر – في : ١ / ٢٩٢ ، ٦٢٥ – وهو (عاذ) و ﴿ معاذ الله ﴾ : سورة يوسف : آية ٢٣ .

ب – الإتيان بالمادة فقط :

قد يأتي باللفظ على مادته فقط – وهو قليل – ومثال ذلك :

(دعا)[1] و (عمه)[2] .

ثانيــاً : التوسع في التفسير :

يكثر السيوطيّ رحمه اللـه تعالى من تفسير الألفاظ التي يوردها ، بل قد يفسر معها مايقاربها من الألفاظ أو أنه يتوسـع في تفسـير الآيـة كلهـا ، ولعـل هـذا معنـى قوله :

((مع أني زدت مع اللفظ المشترك تفسير مفردات لابد له منها ليتم له معناه))[3] .

ومثال ذلك في اللفظ المشترك قوله تعالى ﴿ ءَامَنَ ﴾[4] فقد قال فيه :

((﴿ ءَامَنَ ﴾ إيـماناً : أي صـدّق ، والإيمـان في اللغـة : التصديـق مطلقـاً ، وفي الشـرع : التصديق باللــه وملائكتـه وكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر ، والمؤمـن في الشرع : المصدق بهذه الأمور ، والمؤمن اسم اللـه تعالى ؛ إذ هو المصـدق لنفسـه ، وقيل إنه من الأمن ، أي يؤمن أولياءه من عذابه .

وأَمِن – بكسر الميم وقصر الألف – أمناً ، وأمنتُ : ضد الخوف .

وأمن – أيضاً – من الأمانة ، وأمّن غيره من التأمين))[5] .

ومن غير المشترك قوله تعالى : ﴿ رُخَآءً ﴾[6] ، فقد ذكر فيها ملـك سـليمان – عليه الصلاة والسلام – وما حباه اللـه به[7] .

١- المصدر السابق : ٢ / ٩٩ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ٦٢٥ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

٤- سورة البقرة : آية ٢٨٥ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٢٧ .

٦- سورة ص : آية ٣٦ .

٧- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٣٥ – ١٣٦ ، وانظر كذلك كلامه على قوله تعالى : ﴿دَحَىٰهَآ﴾ : ٢ / ٩٨ .

ثالثاً : الاستطراد :

يستطرد الإمام السيوطي - كثيراً - في إيراده للألفاظ القرآنية فيورد معها مواضيع قد لاتتعلق بها ، كما صنع في قوله تعالى :﴿ لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[1]؛ فإنه توسع في ذكر كيفية إنزال القرآن الكريم ، والحكمة من نزوله مُنجماً ، وكيفية نزول التوراة ، وكيفية نزول الوحي ، وفوائد أخرى[2] .

وكذلك صنع الشيء نفسه في قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [3] ، فإنه ذكر آداب قراءة القرآن وطرائق قراءته وختمه ، وماكان عليه السلف في كل ذلك ، وذكر مباحث أخرى في هذا الباب[4] .

رابعاً : الاستقصاء في ذكر الحروف ومعانيها وذكر الأدوات والأفعال الناسخة وما شابه ذلك :

استقصى السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ذكر الحروف ومعانيها في كل مأأتى به منها ، تقريباً ، كحروف الجر والنصب والجزم ، وكذلك الأفعال الناسخة ، وأدوات الشرط ، وغير ذلك[5] .

وكل ذلك ليس من المشترك ، كما هو ظاهر ، وقد بين السيوطي أنه ماصنع هذا إلا ((لأن معرفة ذلك من المهمات المطلوبات لاختلاف مواقعها ، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسَبها ، كما في قوله تعالى :

١- سورة الدخان : آية ٣ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٠٢ - ٢١٨ .

٣- سورة المزمل : آية ٤ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ١٢٣ - ١٣١ ، والأمثلة كثيرة جداً مبثوثة في الكتاب .

٥- انظر ((معترك الأقران)) - مثالاً - : ٢ / ١٩١ - ١٩٤ ، ٢ / ٢٣٩ - ٢٥٩ .

﴿ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[1] فاستعملت ﴿ عَلَىٰ ﴾ في جانب الحق و ﴿ فِي ﴾ في جانب الضلال ، لأن جانب الحق كأنه مُستعلٍ يصرف نظره كيف شاء ، وصاحب الباطل كأنه في ظلام منخفض لايدري أين يتوجه))[2] .

ثم إنه أتى بأمثلة أخرى متعددة وقال بعدها :

((فقد علمت من هذا أنه لابد من ذكر معاني هذه الأدوات وتوجيهها))[3] .

وهذا الاستقصاء هنا ضرب من الاستطراد والزيادة التي لاتعلق لها بموضوع الوجه ولا بالإعجاز ، والله أعلم .

ملاحظات على منهجه في إيراد الألفاظ المشتركة

هناك مجموعة من الملاحظات على منهج السيوطيّ في إيراد الألفاظ المشتركة هي الآتي :

أولاً : بيان الألفاظ المشتركة وتحديدها :

قد عجبت من أمر السيوطي في إتيانه بالألفاظ الكثيرة التي دعاها مشتركة؛ فإنه قد أتى على غالب كلمات القرآن ؛ حتى صار الكتاب كأنه تفسير شامل للقرآن العظيم ، وخلط المشترك مع غيره خلطاً عظيماً حتى أن أغلب الكلمات التي أوردها ليست من الألفاظ المشتركة ؛ فقد أورد أسماء الأنبياء الأعجمية مثل : ﴿ إِدۡرِيسَ ﴾ ، و ﴿إِسۡمَٰعِيلَ﴾ ، و ﴿ إِسۡحَٰقَ ﴾ على أنها من المشترك ، وأورد ألفاظاً من أمثال : ﴿ أُفّٖ ﴾ ، و ﴿ أُجَاجٞ ﴾ ، و ﴿أَلِيمٞ﴾ ، و ﴿ أَبّٗا ﴾ ، على

١- سورة سبأ : آية ٢٤ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٥١٧ .

أنها من المشترك[1] .

ولا أدري وجه إتيانه بهذه الألفاظ ومثلها وهي تعدّ بالمئـات، ولكنـه إذا أورد اللفظ المشترك يبين أوجه الاشتراك كما فعل في لفظ : ﴿ هدى ﴾ الآنف الذكـر[2] ، فلعلّه أراد الإتيان بالمشترك ضمن غيره ، لكنه لما لم يبين ذلك عَمِي على قارئ كتابه مـراده وصنيعُـه ، والأهـم مـن ذلـك أن الواقـف علـى الكتـاب ليستخرج الألفـاظ المشتركة منه سيحتاج إلى جهد عظيم ووقت طويل لأن تلك الألفـاظَ مبثوثـة ضمـن مئات من الألفاظ غير المشتركة. والعجـب أنـه لم ينبـه إلى هـذا الأمـر و لم يذكـر أنـه سيخلط مع المشترك غيره وإنما كان غاية ماذكره قوله :

((مع أني زدت مع اللفظ المشترك تفسـير مفـردات لابـد لـه منهـا ليتـم لـه معنـاه ، وأعقبت كل حرف بحروف تشـاكلها منهـا مـن الأسمـاء والظـروف))[3] . لكنـه لم يكتف بتفسير ألفاظ واردة مع اللفظ المشترك أو إيراد الظروف وحروف الجر فقـط ، إنما أتى بمئات الألفاظ التي لاتعلق لها بالمشترك ولا ارتباط لها به ، وهذا الصنيع سَـلبية بارزة في هذا الوجهِ الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز التي ذكرها في كتابه .

ثانياً : ترتيب الألفاظ التي أتى بها :

لم يكن للسيوطيّ – في تقديري – منهجٌ واضح محدد في ترتيـب الألفـاظ الـتي جاء بها في هذا الوجه،فقد جاءت هذه الألفاظ مشوشة مبعثرة ، **وهذا التشويش ظاهر من أربعة جوانب :**

الجانب الأول : عدم ترتيب الألفاظ نفسها على نظام معروف :

لم تأت الألفـاظ مرتبـة ترتيبـاً دقيقـاً ؛ فقـد جـاء بالألفـاظ مرتبـة مـن حـرف (الهمزة) إلى حرف (الزاي) ترتيبـاً هجائيـاً ، ثـم انتقـل إلى حـرف (الطـاء) ثـم (الظاء) تاركاً (السينَ والشين) ، ثم بعد (الظاء) انتقل إلى (الكـاف) مرتِّبـا إلى

١- شأن الحافظ السيوطيّ أعظم من أن تلتبس عليه مثل هذه الألفاظ ، لكني إنما ذكرت ذلك لورود تلك الألفاظ في الوجه الخامس والثلاثين : ((ألفاظه المشتركة)) بدون تمييز المشترك من غيره .

٢- انظر ص ٣٩٩ .

وانظر – مثالاً أيضاً – ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٩ : (دعا) ، ٢ / ٦٤٢ : (عَبَر) .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٦ .

(النون) تاركاً (العينَ والغين والفاء والقاف) ، ثم أتى (بالصاد والضاد) ، ثم أتى (بالعين والغين) ، و (الفاء والقاف) مرتّباً ، ثم عاد إلى السين ثم الشين ثم جاء بالهاء ثم الواو ثم حرف اللام ألف ، ثم حرف الياء .

وهكذا يُتبين أن هذا الترتيبَ لم يأت على نظام معين ، إذ لم يُراعَ فيه النَّسَق الهجائيُّ ، ولم يَرِد كذلك على النظام الأبجديّ المشرقيّ أو المغربيّ[1] ، ولم يُراعَ فيه ترتيبُ الحروف بحسَب المخارج[2] ، فجاء نسق الألفاظ المشتركة على ضرب من البعثرة والتشويش ، ولا أدري سبباً لذلك إلا أن يكون من عبث النساخ وهو احتمال بعيد ضعيف ، لاتفاق النسختين على الترتيب الذي ذكرته آنفاً .

الجانب الثاني : عدم ترتيب الألفاظ تحت الحروف في أحيان كثيرة :

ترتيب الألفاظ تحت الحروف لم يكن دقيقاً أيضاً ، وليس له علةٌ ظاهرة ، فتارة يلتزم الترتيب الهجائيَّ المعروف ، وتارة تختلط هذه الألفاظ ويتشوّش ترتيبها ، فمن أمثلة ذلك ماأورده تحت حرف (اللام) فقد أتى بآيات فيه على النسق التالي :
﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[3] .
﴿ لَوَٰقِحَ ﴾[4] .

١- ذكر المحقق أن السيوطي اتبع في ترتيبه الألفاظَ القرآنية طريقة المغاربة ، انظر ((معترك الأقران)) : ١ / س ، ولا أعرف علام بنى الأستاذ المحقق حكمه هذا ؟ !

٢- ولها أكثر من ترتيب ، وكل يشابه الآخر ، وأحد هذه الترتيبات : أ ، هـ ، ع ، ح ، غ ،خ ، ق ، ك ، ج ، ش ، ي ، ض ، ل ، ن ، ر ، ط ، د ، ت ، س ، ش ، ص ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، و ، ب ، م) ، وانظر ((شرح المقدمة الجزرية)) : ص ٣١ وما بعدها .

٣- سورة النساء : آية ٨٧ .

٤- سورة الحجر : آية ٢٢ .

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [1] .

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ ﴾[2] .

فهـذه الألفـاظ لم يُـراعَ فيهـا ترتيـبُ الكلمـات حسـب الحـرف الثـاني بعـد (اللام) لذلك قدمّ فيها الياء على الواو ، والواوَ على الهاء .

وقد يقال إن الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - لم يلتزم في الألفاظ ترتيـب الحروف التي بعد الحرف الأول إنما التزم إيراد الألفاظ على ترتيب الآيات في سـورها بحسب الحرف الأول فقط وهذا مردود بالآيات الثلاثة الأخيرة من سورة الحجر إذ لم تترتب على حسَب ورودها في سورتها ، ويزيد هذا إيضاحاً مايلي :

الجانب الثالث : تشوش ترتيب الآيات في السورة الواحدة في أحيان كثيرة :

لم تترتب الآيات - في كثير من الأحيان - في السورة الواحـدة ، ومثـال هـذا النَّسَقُ التالي :

﴿يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ (سورة التوبـة : ٤٢)

﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ (سورة الأنفال : ٣٧)[3]

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾ (سورة التوبـة : ٣٥)

﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ (سورة التوبـة : ٣٧)

ثم أورد عدة آيات من هذه السورة - سورة التوبة - بالطريقة نفسها[4] .

الجانب الرابع : عدم التزام إيراد السور على ترتيب المصحف حين يذكر اللفـظ ، في أحيان كثيرة :

١- سورة الحجر : آية ٧ .

٢- سورة الحجر : آية ٤٤ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ .

٣- في هذا الموضع شاهد - أيضاً - على الجانب الرابع الآتي .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٤٧١ - ٤٧٣ .

وليس له سبب ظاهر من كونه مراعياً ترتيب الألفاظ على الحروف الهجائية أو الأبجدية ، أو غير ذلك ، ومثال هذا النَّسَق التالي :

﴿ دَيَّارًا ﴾ (سورة نـــوح : ٢٦)
﴿ أَدْبَرَ ﴾[1] (سورة المدثـــر : ٣٣)
﴿ دَحَىٰهَآ ﴾ (سورة النازعات : ٣٠)
﴿دَسَّىٰهَا ﴾ (سورة الشمـس : ١٠)
﴿دَمْدَمَ﴾ (سورة الشمس : ١٤)
﴿ دُلُوكِ ﴾ (سورة الإسراء : ٧٨)
﴿ دُرِّيٌّ ﴾ (سورة النور : ٣٥)[2]

فالألفـاظ الخمسـة الأولى مرتبـة ، بينمـا لفـظ ﴿ دُلُوكِ ﴾ و ﴿ دُرِّيٌّ ﴾ غـير مرتبين مع ماقبلهما .

ثالثاً : التكرار :

كرر السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – ذِكْرَ بعض الألفاظ القرآنية بـدون سـبب ظاهر ؛ فقد أورد قوله تعالى : ﴿ نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾[3] تحت حرف النـون[4] ، وأورد ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ في حرف الهاء[5] ، صحيحٌ أنه قد أضاف هنـا ذكر الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ لكن كان يمكن الجمع بذكر الآية في حرف الهاء فقط .

وقد يُكرر المعنى في اللفظ المشترك نفسِه ؛ فقد جاء بقوله تعالى :

١– لعل مراده منها قراءة (دَبَر) ، وهي قـراءة ابن كثير وأبي عمرو وشعبـة والكسائيّ وأبي جعفر : انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٩٣ .
وإنما قلت ذلك لأن ﴿أَدْبَرَ﴾ ليست مبدوءة بحرف الدال فتستقيمَ مع سائر ماأورده ، وقد ذكر السيوطيّ نفسه أنها قرئت بالوجهين المذكورين وأن معناهما واحد ((حيث يقال دبر الليل النهار ؛ أي جاء في دبره ، وأدبر)) انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٨ .
٢– انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٧ – ٩٩ .
٣– سورة النجم : آية ٥٦ .
٤– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥٨٢ .
٥– المصدر السابق : ٣ / ٣٠٦ .

﴿ قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾[1] وذكر أن من معاني ﴿ قَضَىٰٓ ﴾ : الفراغ ، ومثل له بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ ﴾[2] ، ثم ذكر أوجهاً أُخَر عاد بعدها إلى ذكر (الفراغ) ومثل له بقوله تعالى : ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [3] .

ومعنى ﴿ قَضَىٰٓ ﴾ في الآيتين واحد [4] .

رابعاً : التكلف في إيراد بعض الألفاظ :

قد ينتزع السيوطيُّ – رحمه الله تعالى – اللفظ من الآية انتزاعاً فيثبته في مكانه على حسب الحرف الأول منه ، لكن إيراده لايكون مناسباً لاختلال السياق وعدم اكتمال ألفاظ الآية ، ومثال هذا :

١ – جاء بقوله تعالى : ﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾[5] ولم يذكر موصوفه وهو ﴿ كِتَٰبًا ﴾ والعجيب أنه أعرب كلمة ﴿ كِتَٰبًا ﴾ فقط حيث قال :

((﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾ نُصب على المصدر[6] ، لأن المعنى كتب الموت كتاباً ، وقال ابن عطية : نُصب على التمييز))[7] .

فليس لإيراد كلمة : ﴿ مُّؤَجَّلًا ﴾ هنا سببٌ إلا إدراجها تحت حرف الميم ، أما كلامه فكان على لفظ ﴿ كِتَٰبًا ﴾ فقط ، ولاأدري لِم لم يورد ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ في مكانها من حرف الكاف .

١- سورة البقرة : آية ١١٧ ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٧٣ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٠٠ .

٣- سورة يوسف : آية ٤١ .

٤- فعل ذلك أيضاً في قوله تعالى : ﴿فِتْنَةٌ﴾ ، فقد كرر من معانيها (الضلال) ، انظر ١٦٩/٣ .

٥- سورة آل عمران : آية ١٤٥ .

٦- قوله : ((نُصب على المصدر)) متوجه إلى إعراب كلمة ﴿كِتَٰبًا﴾ ، كما سيأتي .

٧- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٨٦ .

٢ - وكذلك صنع في قوله تعالى :

﴿ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ ﴾[١] حيث قال :

((نصب على الحال من الضمير في لكم))[٢] ، والكلام على لفظ ﴿ غَيْرَ ﴾ الواردة قبل ﴿ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ ﴾ .

٣ - قوله تعالى : ﴿ قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[٣] حيث قال فيه السيوطيّ :

((أي لاتدرسوا[٤] منه إلا ما يُحتاج للأكل خاصة خوف ضياعه))[٥]، وسياق قوله تعالى ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ضروريّ لفهم المراد .

والمتأمل في الأمثلة الثلاثة الماضية يعلم أن إيراد السيوطيّ لها تكلف محضٌ ، والله أعلم[٦] .

كانت تلك بعض الملاحظات النقدية على منهج السيوطي في إيراده الألفاظ القرآنية المشتركة وغيرها ، وتلك الملاحظات المذكورة كلها لاتنافي أنه بذل جهداً علمياً ضخماً في تجميع تلك المادة الكبيرة ، وإنما كان الكلام منصباً على تنظيمها وترتيبها ووفاءِ العنوان بمضمونها حيث كان في ذلك خللٌ وضحته آنفاً ، والله أعلم .

١- سورة المائدة : آية ١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٤٩٠ .

٣- سورة يوسف : آية ٤٧ .

٤- الدَّرْس - هنا - معناه دَوْس السنابل حتى ينفصل عنها الحَبُّ ، وانظر ((لسان العرب)) : درس .

٥- ((معترك الأقران)) : ٣ / ١٨٧ .

١- انظر - للمزيد من الأمثلة - : ٢ / ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٩٨ ، ٣ / ٥٥٢ .

نظرة مجملة على وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيّ

وبعد عرض وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيّ في كتابه يتضح الآتي :

أولاً : لم يختر الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - وجهاً محدداً أو أكثر من وجوه الإعجاز التي ساقها ، إنما ساق أكثرها على أنها وجوه إعجاز ، فصار كأنه يختار الإعجاز بمجموعها ؛ وذلك لأنه لم ينص نصًّا واضحاً على إرادته واحداً منها وتفضيله إياه على سواه .

أو أنه يرى أن الإعجاز ليس في مقدور الخلق الكشف عنه ، وذلك لأنه قال في أول كتابه قبل الحديث عن أوجه الإعجاز :

((فإذا علمت عجز الخلق عن تحصيل وجوه إعجازه فما فائدة ذكرها ؟ لكنا نذكر بعضها تطفلاً على من سبق ...))[1] .

ثانياً : كان همّ السيوطيّ منصبًّا على الجمع والإحاطة أكثر من اهتمامه بالتحليل والنقد ، ويتضح ذلك جليًّا من عدد النقول التي ساقها مِن كتب من تقدّمه من الأئمة ، وقلةِ نقده لها ، وكلامهِ عليها كلاماً موجزاً ، ويتضح ذلك - أيضاً - بذكره أوجهاً لاتعلق لها بالإعجاز ألبتّة وتوسعه فيها توسعاً كبيراً .

ثالثاً: لم تستو وجوه الإعجاز التي ساقها من حيث الكمّ ، فتارةً يكون الحديث عن أحدها في صفحة أو أقل ، وأخرى يكون الحديث عنها في قرابة خمسين صفحة .

والعجب أن أوجه الإعجاز التي أوجز الحديث عليها إلى الغاية هي الأوجه التي يمكن التفصيل فيها ، وتقريرُ الإعجاز تقريراً حسناً بمناقشتها ، فمن الوجه الثامن عشر إلى الوجه الثاني والعشرين - أي خمسة أوجه من أوجه الإعجاز - جرى الكلام على

١- ((معترك الأقران)) : ١١/١ .

الإعجاز فيها في قرابة ست صفحات فقط ، وكانت تلك الأوجه من أهم أوجه الإعجاز التي ساقها في كتابه .

رابعاً : لم تستو وجوه الإعجاز التي ساقها من حيث الكيف ، فبعضها تتضح فيه علائم الجدّة والتفكير العميق والابتكار ، وبعضها لاتعلق له ألبتة بالإعجاز ، وبينهما وجوه تتجاذبها الجدّة والتكرار .

هذا وقد انقسمت وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – من حيث الابتكار والتكرار إلى ستة أقسام هي :

أولاً : أوجه جديدة متفردة مستقلة بالإعجاز لم يذكرها أحد قبله على أنها من أوجه الإعجاز ، فيما أعلم ، وهي :

١ – الوجه السادس : مشتبهات آياته[1] .

٢ – الوجه الثلاثون : اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلّة .

ثانياً : أوجه جديدة لم يذكرها أحد من قبله لكنها ليست مستقلة بالإعجاز بل هي مندرجة تحت أوجه أعمّ منها ، وهي :

١ – الوجه الخامس عشر : افتتاح السور وخواتمها .

٢ – الوجه الحادي عشر : تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها في مواضع .

٣ – الوجه الثاني عشر : إفادة حصره واختصاصه .

٤ – الوجه الخامس عشر : ورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبينة .

٥ – الوجه السابع عشر : وجوه مخاطباته .

٦ – الوجه الثالث والعشرون : وقوع الحقائق والمجاز فيه .

٧ – الوجه الرابع والعشرون : تشبيهه واستعاراته .

٨ – الوجه الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض .

١– وذلك باعتبار جزئي معين يراجع في ص ٣٥٥ – ٣٥٦ .

٩ - الوجه السادس والعشرون : إيجازه في آية وإطنابه في أخرى .
١٠ - الوجه السابع والعشرون : وقوع البدائع البليغة فيه .
١١ - الوجه الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء .
١٢ - الوجه الحادي والثلاثون : ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة .
١٣ - الوجه الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة .

ثالثاً : أوجه ذكرها المصنفون قبله لكنه أبرزها جلية واضحة :

١ - الوجه الأول : العلوم المستنبطة منه .
٢ - الوجه الرابع : مناسبة آياته وسوره .
٣ - الوجه العاشر : اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها من التخفيف والتشديد وغيرهما .

رابعاً : أوجه ذكرها عدد من الأئمة قبله :

١ - الوجه الثاني : كونه محفوظاً من الزيادة والنقصان ، محروساً عن التبديل والتغيير .
٢ - الوجه الثالث : حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب .
٣ - الوجه الثامن عشر : ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيَّبات .
٤ - الوجه التاسع عشر : إخباره بأحوال القرون السالفة والأمم البائدة .
٥ - الوجه العشرون : سامعه لايمجه وقارئه لايمله .
٧ - الوجه الثاني والعشرون : تيسيره تعالى حفظَه وتقريبه .

خامساً : أوجه لاتعلق لها بالإعجاز إلا بشيء من التكلف :

١ - الوجه السابع : ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات .

٢ – الوجه الثالث عشر : احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم.

٣ – الوجه التاسع والعشرون : إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها .

٤ – الوجه الثاني والثلاثون : مافيه من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف .

٥ – الوجه الثالث والثلاثون : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها .

٦ – الوجه الرابع والثلاثون : احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب ، وأسماءِ القبائل والبلاد ، والجبالِ والكواكب .

سادساً : أوجه لاتعلق لها بالإعجاز ألبتّة :

١ – الوجه الثامن : وقوع ناسخه ومنسوخه .

٢ – الوجه التاسع : انقسامه إلى محكم ومتشابه .

٣ – الوجه الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها .

٤ – الوجه السادس عشر : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه .

خلاصة أوجه الإعجاز التي سيقت في هذا البحث

قد سبق لي ذكر أحد عشر وجهاً للإعجاز في الباب الأول هي خلاصة ماقيل عن أوجه الإعجاز في الكتب التي ذكرتها ، وسأعيد ذكرها هاهنا مضيفاً إليها الجديدَ الذي ذكره الإمام السيوطي :

١ – الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم .

٢ – الإعجاز بالأسلوب .

٣ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٤– الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٥ – اشتماله على الحقائق والأسرار والدقائق .

٦ – خلوه من الاختلاف والتناقض .

٧ – الإعجاز أمر لايستطاع التعبير عنه .

٨ - التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق،وفيه وقع الإعجاز .

٩ - الإعجاز بـ (الصَّرفة) .

١٠ - الإعجاز بمجموع أوجهٍ منها (الصَّرفة) .

١١ - الجمع في القرآن بين الدليل والمدلول[١] .

وأضيف إلى هذه الإحدى عشرة ما عدّه السيوطي من أوجه الإعجاز ، وهو جديد مستحق للتفرد :

١٢- اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة .

١٣- الإعجاز بالآيات المشتبهات (على اعتبار جزئي معين فيها)[٢].

هذا عدا ثلاثة عشر وجهاً عدّها السيوطي من أوجه الإعجاز وهي كذلك إلا أنها مندرجة تحت بعض الوجوه الثلاثة عشر المذكورةِ آنفاً ، كما بينت ذلك في موضعه ، والله أعلم .

١- انظر ص ٢١١ - ٢١٢ من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ٣٥٥ - ٣٥٦ من هذه الرسالة .

الفصل الثاني(*)

منهجه في عرض وجوه الإعجاز

(*) من الباب الثالث .

المبحث الأول

منهجه في تصنيف المادة العلمية وتقسيمها

((معترك الأقران)) كتاب ضخم ، مطبوع في ثلاثة أجزاء كبيرة ، عدد صفحاتها يزيد قليلاً عن ألفي صفحة .

والكتاب يحوي خمسة وثلاثين وجهاً من وجوه الإعجاز ؛ أعظمها حجماً وأوفاها دراسةً (الوجه الخامس والثلاثون) ؛ إذ قد شغل ثلثي حجم الكتاب تقريباً ، وقد سبق الكلام عليه في الفصل السابق[1] .

وقد قدم الإمام السيوطيّ للكتاب بمقدمة عن الإعجاز القرآنيّ ، وختم بأبحاث متنوعة في علوم القرآن ، وقد بينت ذلك كله سابقاً[2] .

أمّا منهجه في تصنيف تلك المادة الكثيرة فهو كالآتي :

أولاً : التقسيم والترتيب :

قد قسم السيوطي – رحمه الله تعالى – كتابه تقسيماً حسناً ؛ وذلك لأن عصره كان عصرَ تبويب وتقسيم وترتيب للمادة العلمية ، وحسنِ عرض لها في أبواب وفصول ومباحثَ ، والسيوطيّ – رحمه الله تعالى – كان إماماً في هذا الشأن فجاء كتابه حسنَ التقسيم والتبويب كما يتجلى ذلك في المسائل الآتية :

أ – حُسن تقديم الكتاب :

وذلك لأن السيوطيّ – رحمه الله تعالى– قد صنع الآتي :

١– انظر ص ٣٩٨ ومابعدها .

٢– انظر ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

١ – قدم بمقدمة ضافية برزت فيها براعة الاستهلال[١] .

٢ – ذكر عدداً ممن صنف في الإعجاز قبله ، وهذا مهم لبيان تواصل الجهد العلميّ في اطّلاع المصنف على جهد من سبقه[٢] .

٣ – ناقش أوجه الإعجاز التي ذكرها مَن قبله من العلماء على وجه الإيجاز والإشارة كما يليق بالمقدمة[٣] .

٤ – عرض بعض مباحث الإعجاز فطرقها طرقاً خفيفاً يناسب ذكرها في المقدمة[٤] ، ثم شرع في ذكر أوجه الإعجاز الخمسة والثلاثين التي هي صُلب الكتاب .

ب – حُسن تقسيم المادة العلمية :

قسم السيوطيّ المادة العلمية في كتابه إلى فقرات يسهل الرجوع إليها والنظر فيها ، وقد كان هذا من العلامات الواضحة في هذا الكتاب ، صحيحٌ أن المحقق قد صنع بعض العناوين وأحسن تقسيم الكتاب لكن جهده هذا ماكان ليبرز كذلك لولا أن السيوطي أحسن في الأصل تقسيم كتابه .

ويبدو هذا التقسيم واضحاً أيضاً إذا نُظر في العناوين التي وضعها لكثير من مباحث الكتاب ، مثل : فصل[٥] ، تنبيهات[٦] ، قاعدة[٧] ، تنبيه[٨] ،

١- ((براعة الاستهلال هي أن يأتي الناظم أو الناثر في ابتداء كلامه بما يدل على مقصوده منه بالإشارة لا بالتصريح)) : ((جواهر البلاغة)) : ٤٢٠ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٣ – ٦ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٦ – ١١ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٠ ، والأمثلة كثيرة لهذا ولما بعده من الإحالات المماثلة .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٢ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ٦٢ .

٨- المصدر السابق .

فائدة[1] ، فروع منثورة[2] ، إلخ ... وهذه العناوين تلفت نظر القارئ وتعينه على الوقوف على مايريده من الكتاب .

جـ – حسن الخاتمة :

فبعد أن ذكر وجوه الإعجاز الخمسة والثلاثين ختم ببعض المباحث القرآنية – كما بينت ذلك آنفاً[3] – فجاءت نهاية الكتاب قوية واضحة كفاتحته ، ولها صلة مناسبة بمباحث صلب الكتاب .

ثانياً : سلاسة المادة المعروضة ووضوحها :

الإمام السيوطيّ أديب سلس العبارة ، واضحها لايتكلف في إيرادها ، ويختار لها أجمع المعاني وأسهلَ المباني ، ومن جوانب السلاسة في عباراته :

أ – الكلمات غير معقدة ولاقلقة ولامتنافرة .

ب – عباراته بمنأى عن المحسِّنات اللفظية التي تؤدي أحياناً – إذا روعيت على حساب المعاني – إلى الركاكة ، فكتابه خلا تقريباً من السَّجْع ، وغلب على جُمَله الاسترسالُ وطَرقُ المعاني طرقاً مباشراً سهلاً قريبَ المقصد .

وهذا الأسلوب مطلوب في تناول المادة العلمية المحتاجةِ إلى الإيصال للأذهان بسهولة ويسر قد لايتأتيان لصاحب الأسلوب المعتمد على التوغل في علم البديع .

ومن يقرأ كتاب السيوطيّ يفهم مايريده غالباً حتى إن كان ممن ليس له اطّلاع على أساليب المصنفين القدامى ؛ وذلك لسلاسته وسهولته .

١- المصدر السابق : ١ / ٢٠٦ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٢١٤ .

٣- انظر ص ٢٨٨ من هذه الرسالة .

ومما يدل على سلاسة أسلوبه :

١ - مقدمته التي يقول فيها :

((الحمد لله الذي جعل معجزاتِ هذه الأمةِ عقليةً لفَرْط ذكائهم ، وكمالِ أفهامهم ، وفضلهم على من تقدمهم ؛ إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم[1] ، نحمده سبحانه على قوله لرسوله : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [2] ، وخصه بالإعانة على التبليغ فلم يقدر أحد منهم على معارضته بعد تحديهم ، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغَ البلغاء ، وأمهلهم طولَ السنين فعجزوا ...))[3] .

٢ - وقال في نهاية الوجه الرابع والثلاثين من أوجه الإعجاز التي ساقها وهو : ((احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة و**الكُنى** ..)) :

((فتأمّل إحساس البهائم ومالنا حِسّ ؛ ملأنا بطوننا من الحرام فغلبت علينا سكرةُ المنام ، وتراكمت على قلوبنا سحائبُ المخالفة ، فادعينا الدعاوى الباطلة ، وعن قريب ينكشف السحاب فتهب علينا نسائمُ الأسف والحزن ونقول : ياحسرتنا على مافرطنا ، فبالله أيها الأخ : قُم على قدم الاعتذار ، واكشف رسائل الاستغفار ، وناد بلسان الاضطرار :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [4] ...))[5] .

٣- وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ ﴾[6] :

١- لاينبغي هذا الإطلاق ؛ لأن فيمن سبقنا صالحين وأهلَ بصيرة وفقه في الدين ، من أهل الكتاب ومن غيرهم . لكن هذا ليس من كلام السيوطيّ بل الجملة في قوله : ((إذ معجزاتهم حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم)) من كلام الراغب الأصفهانيّ ، انظر ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) للراغب : ١٠٢ .

٢- سورة النحل : آية ٤٤ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ١ .

٤- سورة الأعراف : آية ٢٣ .

٥- (معترك الأقران)) : ١ / ٥١٣ .

٦- سورة الرحمن : آية ٥٤ .

((قد قدمنا أن الجَنَى مايُجتنى من الثمار ... هذا هو النعيم المقيم ، وكيف لا ونبينا فيها نديم ، والثواب عظيم ، والبقاء فيها قديم ، والعطاء فيها جسيم ، والحزن فيها عديم ، والـمُضِيف فيها كريم ، نعيمها مؤبّد ، ومقامها مخلّد ، وبقاؤها سرمد[1] ، وفرشها ممدود ، ومرافقها مُمَهّد ، وحورها مُنَهَّد[2] ، وقصورها مشيد ، وظلها ممدود ، وفيها جنة الفردوس نزولا لمن لم يجعل لمولاه شريكاً ولا مثيلا ، وأخلص له في دنياه قولاً وعملاً وفعلاً ، ولم يزل على عصيانه خائفاً وجلاً))[3] .

فهذه جمل قوية رصينة ، وهي في الوقت نفسه قريبة إلى الأفهام والقلوب .

ثالثاً : إيثار مسلك الإطناب[4] في كل مايورده من مباحث تقريباً :

للمصنفين طُرقٌ في عرض المادة العلمية :

فإما أن يوجزوا مبانيها وقد يودي ذلك الإيجازُ إلى الإخلال .

وإما أن يُطنبوا في بيانها فربما آل الأمر إلى الإطالة والإملال .

وإما التوسط بينهما .

والسيوطي سلك – في كتابه هذا – المسلك الثاني ، وإن جاء الكتاب بعيداً عن الإملال والإطالة في غير مواضعها .

١– أي أبدي دائم لاينقطع . انظر ((لسان العرب)) : سرمد .

٢– الحُور : جمع الحَوْراء ، وهي التي اشتد بياض عينها ، واشتد سوادُ سوادها ، مع استدارة في الحَدَقة ورقة في الجفون ، ولا تكون الحوراء إلا بيضاء الجسد . انظر ((لسان العرب)) : ح و ر .

أما المنهَّد فيقال : نَهَد الثدي إذا ارتفع عن الصدر وصار له حجم ، والحُور المنهَّد أي اللواتي برزت أثداؤهن وارتفعت وصار لها حجم . انظر ((لسان العرب)) : ن هـ د .

٣– ((معترك الأقران)) : ٥٧/٢ .

٤– قد سبق بيان الإطناب مع ضرب الأمثلة عليه ، انظر ص ٣٨٢ وما بعدها .

ومظاهر الإطناب في كتابه تتضح في الآتي :

١ - الاستقصاء :

طريقة السيوطيّ الاستقصاءُ - غالباً - في بيان مذاهب العلماء في المسائل العلمية التي يوردها ، وبيانُ الأدلة التي استدل بها كل فريق على ماذهب إليه ، وإن كان للمسألة التي يوردها السيوطي في كتابه أنواعٌ وأقسام فإنه يأتي بها على التفصيل ، ويأتي بأمثلة تؤيد مايراه ويجنح إليه .

ففي الوجه السابع والعشرين من وجوه الإعجاز التي أوردها في ((المعترك)) وهو ((وقوع البدائع البليغة فيه)) أورد أنواع علم البديع على التفصيل ، حيث ذكر أربعين نوعاً من أنواع البديع مع التمثيل عليها ، فهذا إطناب مفيد في بابه لأنه قصد فيه الاستقصاء وإبراز استيعاب النصّ القرآني لهذه الأنواع .

وهذا مثال على ماجاء به في ذلك الوجه حيث تكلم على النوع البديعيّ المسمى : ((ائتلاف اللفظ مع اللفظ وائتلافه مع المعنى))[1] فقال مبيناً أقسام هذا النوع :

((**الأول** : أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً بأن يقرن الغريب بمثله ، والمتداولُ بمثله رعايةَ الفاصلة لحسن الجوار والمناسبة[2] .

والثاني : أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد ، فإن كانت فخمة كانت ألفاظه فخمةً ، أو جزلاً فجزلةً ، أو غريباً فغريبة ، أو متداولة فمتداولة ، أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك .

١- إنما اخترت هذا النوع لتوسطه بين الطول والقِصَر ، فهو أدل على المقصود ، ولاعتبار آخر حيث سبق لي التمثيل بالأنواع الثلاثة الأولى .

٢- أي كمراعاة الفاصلة لحسن الجوار والمناسبة .

فالأول : كقوله تعالى ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾[1] ، أتى بأغرب ألفاظ القَسَم وهي التاء فإنها أقل استعمالاً وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو ، وبأغرب صيغ الأفعال[2] التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار ، فإن ((تزال)) أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً منها ، وبأغرب ألفاظ الهلاك وهو (الحَرَض) ، فاقتضى حُسنُ الوضع في النظم أن تجاوَرَ كلُّ لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة توخياً لحسن الجوار ، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم .

ولما أراد غير ذلك قال :
﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾[3] فأتى بجميع الألفاظ متداولةً لاغرابة فيها .

ومن الثاني[4] قوله تعالى :
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[5]
لما كان الركون إلى الظالم – وهو الميل إليه ، والاعتماد عليه – دون مشاركته في الظلم وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظالم فأتى بالمس الذي هو دون الإحراق والاصطلام[6] .

وقوله : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[7]
أتى بلفظ الاكتساب المشعر بالكلفة والمبالغة في جانب السيئة لثقلها .

١- سورة يوسف : آية ٨٥ .

٢- أي قوله تعالى : ﴿ تَفْتَؤُا ﴾ .

٣- سورة الأنعام : آية ١٠٩ .

٤- أي أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد .

٥- سورة هود : آية ١١٣ .

٦- الاصطلام : الاستئصال ، واصطُلِم القوم : أبيدوا ، والاصطلام افتعال من الصَّلْم أي القطع ، انظر ((لسان العرب)) : ص ل م .

٧- سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

وكذا قوله : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ [1]
فإنه أبلغ من كُبُّوا للإشارة إلى أنهم يكبون كباً عنيفاً فظيعاً .

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ [2]
فإنه أبلغ من يصرخون ؛ للإشارة إلى أنهم يصرخون صراخاً منكراً خارجاً عن الحد المعتاد .

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [3]
فإنه أبلغ من قادر ؛ للإشارة إلى زيادة التمكن في القدرة ، وأنه لاراد له ولامعقب .

ومثل ذلك : ﴿ وَاصْطَبِرْ ﴾[4] فإنه أبلغ من (اصبر) .

و ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾[5] أبلغ من ﴿ الرَّحِيمِ ﴾[6] ، فإنه مشعر باللطف والرفق ، كما أن الرحمن مشعر بالفخامة والعظمة .

ومنه الفرق بين (سقى) و (أسقى) فإنه سقي لِما لاكُلْفة معه في السقيا ؛ ولذا أورده - تعالى - في شراب الجنة فقال :
﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾[7]

وأسقى لما فيه كُلْفة ؛ ولهذا أورده - تعالى - في شراب أهل الدنيا فقال :

١- سورة الشعراء : آية : ٩٤ .

٢- سورة فاطر : آية ٣٧ .

٣- سورة القمر : آية ٤٢ .

٤- سورة القمر : آية ٢٧ .

٥- سورة الفاتحة : آية ١ .

٦- سورة الفاتحة : آية ١ .

٧- سورة الإنسان : آية ٢١ .

﴿ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ [1] ﴿ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾ [2]
لأن السقي في الدنيا لايخلو من كلفة أبداً))[3] .

وإنما سقت هذا المثالَ على طوله ليتبين الناظرُ فيه مدى إطناب السيوطي في هذا الوجه ، خاصة أن هذا النوع متوسط بين الطول والقِصَر في الأنواع الأربعين التي ساقها السيوطي في هذا الوجه[4] .

٢ – تتميم الأقوال وإيراد الأمثلة :

ومن مظاهر الإطناب – أيضاً – أن السيوطيّ يورد القول أو الرأيَ لأحد العلماء ، فإن وجد أقوالاً وأمثلة تتمم ماذهب إليه ذلك العالم فإنه يوردها حتى إن طالت ، وإن لم يمثل صاحب المقالة بمثال فإن السيوطي يأتي بمثال أو أكثر .

فمن الأمثلة على إتمامه استدلالات العلماء قوله في النوع البديعي المسمى : تأكيدَ المدح بما يشبه الذم[5] :

١- سورة المرسلات : آية ٢٧ .
٢- سورة الجن : آية ١٦ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٨٩ – ٣٩٠ .
٤- انظر – كذلك – عدداً من هذه الأمثلة في هذا الوجه في الجزء الأول من صفحة ٣٧٣ إلى ٤٢٠ .
وانظر كذلك الوجه السادس والعشرين في الجزء الأول من صفحة ٢٩٣ إلى ٣٧٣ ، وهو أطول أوجه الكتاب ماعدا الوجه الخامس والثلاثين ، فقد ذكر فيه السيوطي أقسام الإيجاز وشروطه ومثل لما جاء به من الكتاب والسنة وآثار السلف ، وعضّد أقواله بآراء الأئمة وأقوالهم .
٥- وهو نوعان :
((أحدهما : أن يستثنى من صفة ذمّ منفية عن الشيء صفةَ مدح بتقدير دخولها فيها ، كقوله :
ولاعيبَ فيهم غير أن سيوفَهم … بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب .
الثاني : أن يثبت لشيء صفة مدح ، ثم يؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى – والنوع الأول أبلغ – كقوله :
ولا عيبَ فيه غيرَ أني قصدتُه … فأنستنيَ الأيامُ أهلاً وموطناً ...)) : ((جواهر الأدب)) : ٣٨١-٣٨٢ .

((قال ابن أبي الإصبع :

هو في غاية العزة في القرآن ، قال : و لم أجد منه إلا آية واحدة ، وهي قوله : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ... ﴾الآيـة[1] ؛ فـإن الاسـتثناء بعـد الاستفهام الخارج مخرجَ التوبيخ على ماعابوا به المؤمنين من الإيمـان يوهـم أن مايـأتي بعده ممايوجب أن ينقم على فاعله ممايذم به ، فلما أتى بعد الاستثناء مايوجب مدح فاعله كان الكلام متضمناً تأكيدَ المدح بما يشبه الذم .

قلت : ونظيرها قوله :

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2]

وقوله :

﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[3]

فإن ظاهر الاستثناء أن مابعده حق يقتضي الإخراج ، فلما كان صفةَ مـدحٍ تقتضـي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم .

وجعل منه التنوخي[4] في ((الأقصى القريب))[5] :

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[6] :

استثنى ﴿ سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ الذي هو ضد اللغو والتأثيم ، فكان ذلك مؤكداً لانتفاء اللغو والتأثيم))[7] .

١- سورة المائدة : آية ٥٩ .

٢- سورة التوبة : آية ٧٤ .

٣- سورة الحج : آية ٤٠ .

٤- هو الشيخ محمد بن محمد بن عمرو ، أبوعبد الله زين الدين التنوخيّ . أديب دمشقيّ ، استقر في بغداد . له عدة كتب . توفي سنة ٧٤٨ . انظر ((الأعلام)) : ٧ / ٣٥ ، و ((هدية العارفين)) : ٢ / ١٥٤ .

٥- كتابه ((الأقصى القريب في علم البيان)) مطبوع بهذا الاسم كما في ((الأعلام)) : ٧ / ٣٥ ، واسم كتابه في ((هدية العارفين)) : ٢ / ١٥٤ : ((أقصى القُرَب في صناعة الأدب)) .

٦- سورة الواقعة : آية ٢٦ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٩٣ - ٣٩٤ ، وانظر كذلك : ١ / ٤٧٧ - ٤٧٨ حيث ذكر أقوالاً متممة لأقوال العلماء في بيان أي آية أرجى في كتاب الله تعالى .

ففي هذا المثال يورد السيوطيّ ، رحمه الله تعالى ، مثالين إضافيين – من لدنه – على ماجاء به ابن أبي الإصبع ويضيف مثالاً ثالثاً أتى به عالم آخر .

إنشاؤه الأمثلةَ لِما لم يرد له مثال :

ومن الأمثلة على إيراده المثالَ من القرآن لما لم يرد له مثال في أقوال العلماء ، من الأمثلة على هذا قوله في النوع البديعيّ المسمى : القول بالموجب :
((قال ابن أبي الإصبع : وحقيقته ردّ كلام الخصم من فحوى كلامه .
وقال غيره :
هو قسمان :
أحدهما : أن تقع صفةٌ في كلام الغير كنايةً عن شيء أُثبت له حُكمٌ فيثبتها لغير ذلك الشيء ؛كقوله تعالى :
﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ ...﴾ الآية[1] ، فالأعز وقعت في كلام المنافقين كنايةً عن فريقهم ، والأذلُّ كناية عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراجَ المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون ، وكأنه قيل : صحيحٌ ذلك ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ ، لكن هم الأذل المُخْرَج ، والله ورسوله الأعز المُخرِج .

والثاني : حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، و لم أرمن أورد له مثالاً من القرآن ، وقد ظفرتُ بآية منه وهي قوله تعالى :
﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾[2]))[3]
فالسيوطيّ – رحمه الله تعالى – مثل هنا بمثال لِما لم يُمثَّل له[4] .

١- سورة المنافقون : آية ٨ .

٢- سوة التوبة : آية ٦١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦١ – ٤٦٢ .

٤- انظر مثالاً آخر في : ١/ ٣٧٧ .

المبحث الثاني

منهجه في استعمال المصادر والمراجع ، وأقوالِ العلماء

المطلب الأول : ذكر بعض مصادره ومراجعه :

قد مزج السيوطيّ كلامَه بكلام العلماء ، واستفاد من كتبهم بأن أورد منها في كتابه عدداً كبيراً من المسائل الشرعية واللغوية .

ومن المهم ذكرُ استفادته من بعض المصادر والمراجع[1] حتى يتبين مدى اعتمادِ السيوطي عليها ، وقدرُ الاستفادة منها ، وطريقة هذه الاستفادة هل هي نصية أو بالمعنى ، وهكذا ...

وسوف أبين حال ذكري لهذه الكتب هل هي مطبوعة أو مخطوطة أو مفقودة ؟ وأتكلم عليها - إن دعت الحاجة - باختصار .

ثم بعد ذكري لعدد من مصادره ومراجعه سأبين - إن شاء الله تعالى - منهجه في الاستفادة من هذه المصادر والمراجع .

وهذه المصادر والمراجع تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول : مراجع من شيء من كتبه .

القسم الآخر : مراجع من كتب غيره .

أما القسم الأول : فإن من أهم كتبه التي أوردها في ((معترك الأقران)) ملخصةً أوبنقل جمل منها هي :

١- وضعت فهرساً في آخر الكتاب يضم جميع مصادر الإمام السيوطيّ ومراجعه مع بيان حالها : أهي مطبوعة أم مخطوطة أم مفقودة ؟ انظر ص ٧٨٥ ومابعدها .

أ – ((**الإتقان في علوم القرآن**)) :

وقد سبق أن بينت بالتفصيل استفادة السيوطي من هذا الكتاب[1] .

ب – ((**الإكليل في استنباط التنزيل**))[2] :

قد نقل السيوطيُّ – رحمه الله تعالى – مقدمة كتاب ((الإكليل)) بتصرف يسير ، كما بينت ذلك سابقاً[3] ، فجعلها الوجهَ الأول من وجوه الإعجاز التي ذكرها في كتابه ((المعترك)) .

ج – ((**المهذّب فيما وقع في القرآن من المعرّب**)) :

يقول السيوطيّ عن كتابه هذا :

((هذا كتاب تتبعت فيه الألفاظ المعرّبة التي وقعت في القرآن ، مستوعباً ماوقفت عليه من ذلك ، مقروناً بالعزو والبيان))[4] .

وقد لخص السيوطي – رحمه الله تعالى – كتابه هذا في الوجه الثالث عشر من وجوه الإعجاز التي ذكرها في ((معترك الأقران)) وهو :

((احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغة غيرهم من الفرس والروم والحبشة وغيرهم))[5] .

وقد بين استفادته من هذا الكتاب بقوله :

١- انظر ص ٢٣٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢- الكتاب مطبوع متداول ، وهو – الآن – يحقق في رسالة ((دكتوراه)) بجامعة أم القرى – حفظها الله تعالى – ويحققه الباحث الشيخ عامر علي العرابي ، وفقه الله .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤ – ٢٧ .

٤- ((مكتبة الجلال السيوطي)) : ٣٦٠ .

وقد ذكر صاحب الكتاب أن ((المهذب)) قد طبع محققاً ضمن المجلد الأول من مجلة ((المورد)) العراقية سنة ١٩٧١ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ .

((وقد أفردت في هذا النوع كتاباً سميته((المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب)) ، وألخص هنا ماوقع تتمة للفائدة))[1] .

القسم الآخر :

أما القسم الآخر من المصادر والمراجع التي رجع إليها السيوطي - رحمه الله تعالى - في كتابه ((المعترك)) وهي من تأليف غيره فقد اخترت أهمها[2] ، وقسمتها بحسَب العلوم التي تناولتها إلى أقسام هي :

١ - التفسير .

٢ - علوم القرآن .

٣ - العقيدة .

٤ - الحديث الشريف .

٥ - الفقه .

٦ - الأصول .

٧ - اللغة العربية .

٨ - التاريخ .

وهي كتب كثيرة بلغت قرابة سبعين ومائة كتاب ، وسأستوعبها سرداً - إن شاء الله تعالى - في فهرس خاص آخرَ الكتاب[3] .

وقد سبق أن ذكرت أن السيوطيّ أرسل في كتابه هذا مئاتٍ من أقوال العلماء فلم يسندها إلى كتبها ، بل قد ترك إسناد أقوال كثيرة إلىقائليها[4] ، ولو أسند الأقوال كما ينبغي لازداد عدد المصادر والمراجع زيادة كبيرة .

وسأتكلم عن كل منها على الترتيب :

١- المصدر السابق .

وانظر كذلك في استفادته من شيء من كتبه : ((معترك الأقران)) : ١ / ١١٥ .

٢- كان اختيار الكتاب بحسَب اعتماد السيوطيّ عليه في ((المعترك)) وكثرة نقله منه ، كان هذا هو المعيارَ الأساس في اختياري لهذه الكتب .

٣- سأبين - إن شاء الله تعالى - المطبوع منها من المخطوط ، وماغلب على ظني أنه مفقود .

٤- انظر ص ٢٩٤ .

أولا : مصادره في التفسير :

قد اعتمد السيوطي على عدد كبير من كتب التفسير ، منها ماهو بالمأثور ومنها ماهو بالرأي .

أما كتب التفسير بالمأثور فكان جلّ اعتماده على ثلاثة كتب منها هي :

١ - كتاب ((جامع البيان من تأويل آي القرآن)) [١] لابن جرير .

٢ - وكتاب ((تفسير القرآن العظيم)) [٢] لابن أبي حاتم [٣] .

٣ - وكتاب ((تفسير القرآن)) لعبد الرزاق الصنعاني [٤] [٥] .

أما كتاب ابن جرير فمشهور معروف ، وأما كتاب ابن أبي حاتم فإنه لم يكتمل نشراً بعد ، وأما كتاب عبد الرزاق فهو الذي سأتكلم عليه وأبين استفادة السيوطي منه .

١- انظر استفادة السيوطيّ من هذا الكتاب في : ١ / ٩٧ ، ١١٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٠ ، وهناك عشرات المواضع غيرها .

٢- ومن مواضع استفادة السيوطيّ من هذا الكتاب : ١ / ١٧١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، وعشرات غيرها .

٣- هو الشيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس . ولد سنة ٢٤٠ أو ٢٤١ .
كان بحراً في العلوم ومعرفةِ الرجال . صنف تصانيف نفيسة ، وله حكايات عجيبة تدل على ورعه وولايته . توفي سنة ٣٢٧ بالريّ وله بضع وثمانون سنة .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٢٦٣ - ٢٦٩ .

٤- الحافظ الكبير ، عالم اليمن عبد الرزاق بن همّام بن نافع ، أبوبكر الحميريّ بالولاء ، الصنعانيّ الثقة .
ولد سنة ١٢٦ . ارتحل وحدث عن كثير من المشايخ ، وأخذ عنه خلق . وله عدة مصنفات ، وكان يحفظ سبعة عشر ألف حديث ، وقد عمي بعد أن كبر ، وتوفي سنة ٢١١ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٩ / ٥٦٣ - ٥٨٠ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٦ / ٢٧٨ - ٢٨١ .
وقد طبع كتاب عبد الرزاق بتحقيق الدكتور مصطفى مسلم ، ونشرته مكتبة الرشد بالرياض سنة ١٤١٠ .

٥- في الكتاب أجزاء مفقودة ، وقد حُقق الموجود منه في جامعة أم القرى ، ويصدر تباعاً عن إحدى دور النشر ، ولم يصدر منه حتى الآن إلا مجلدان ، فيهما تفسير سورتي البقرة وآل عمران .

((تفسير القرآن)) للإمام عبد الرزاق الصنعانيّ :

هذا كتاب تفسير محض بالمأثور ؛ إذ هو مليء بالأحاديث والآثار فقط ليس فيه غيرُ هذا ، وقد رجع إليه السيوطي في كتابه ((المعترك)) كثيراً ، فمن تلك المواضع :

في الوجه السابع من وجوه الإعجاز وهو ((ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات)) حيث قال السيوطيّ :

((قال عبد الرزاق في تفسيره :

أخبرنا مَعْمر[١] ، عن رجل ، عن المنهال بن عمرو[٢] ، عن سعيد بن جبير[٣] ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : أرأيت أشياء تختلف علي من القرآن ؟

فقال ابن عباس : ماهو ؟ أشكٌّ ؟

قال : ليس بشك ولكنه اختلاف .

قال : هات مااختلف عليك من ذلك .

قال : أسمع الله يقول :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [٤] .

وقال : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾[٥] وقد كتموا ...))[٦] .

١- هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو عروة مَعْمر بن راشد الأزدي بالولاء ، البصري ، نزيل اليمن .
ولد سنة ٩٥ أو ٩٦ ، وطلب العلم وهو حَدَث . وكان من أوعية العلم مع الصدق والتحري والورع والجلالة وحسن التصنيف . حدّث عنه خَلْقٌ . مات سنة ١٥٤ .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٧ / ٥ - ١٨ .

٢- المنهال بن عمرو الأسديّ بالولاء ، الكوفي . صدوق ربما وَهِم . أخرج عنه البخاري وغيره .
توفي سنة بضع عشرة ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٥ / ١٨٤ ، و((تقريب التهذيب)) : ٥٤٧ .

٣- الإمام الحافظ ، المقرئ ، المفسر ، الشهيد أبومحمد سعيد بن جُبير بن هشام الأسدي الوالبيّ بالولاء ، الكوفي .
روي عن بعض الصحابة وكبار التابعين ، وقرأ القرآن على ابن عباس وكان من كبار العلماء ، عاش سبعاً وخمسين سنة ، وقتله الحجاج سنة ٩٥ لخروجه في فتنة ابن الأشعث . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٤ / ٣٢١ - ٣٤٣ .

٤- سورة الأنعام : آية ٢٣ .

٥- سورة النساء : آية ٤٢ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٩٥ - ٩٦ .

والأثر طويل أورده السيوطي باختلاف يسير عما في ((تفسير القرآن))[1][2].
والمواضع التي رجع السيوطي فيها إلى هذا الكتاب كثيرة[3].

وأما كتب التفسير بالرأي فكان جل اعتماده منها على ((الكشاف)) للزمخشريّ[4]، حيث أورد نصوصاً كثيرة عنه، فتارة يصرح بذكر كتابه وتارة يكتفي بالقول: قال الزمخشريّ[5].

ومن المواضع التي صرّح فيها بالنقل من ((الكشاف)) قولُه في بيان طرق الحصر:

((الرابع عشر:

قلب بعض حروف الكلمة، فإنه يفيد الحصر على مانقله في ((الكشاف)) في قوله:

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾[6] قال:

القلب للاختصاص بالنسبة للطاغوت؛ لأن وزنه على (فَعَلُوت) من الطغيان، كـ (مَلَكُوت) و (رَحَمُوت)، قُلب بتقديم اللام على العين فوزنه (فَلَعُوت) ففيه مبالغات: التسمية بالمصدر، والبناء بناء مبالغة.

والقلب هو للاختصاص؛ إذ لايطلق على غير الشيطان))[7].

١- انظر ((تفسير القرآن)): ١ / ١٦٠ - ١٦٢.

٢- هذا الأثر بهذا السند ضعيف لوجود مجهول في سنده، لكن أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) بنحوه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبيّ: انظر ((المستدرك)): ٢ / ٤٢٨.

٣- انظر - مثالاً - ١ / ١٣٨، ٤٧٢.

٤- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد الخوارزميّ الزمخشريّ. ولد بزمخشر من أعمال خوارزم سنة ٤٦٧. كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسعَ العلم، كثير الفضائل، متفنناً في علوم شتى، معتزليَّ المذهب مجاهراً بذلك. له عدة تصانيف. توفي بخوارزم سنة ٥٣٨. انظر ((معجم الأدباء)): ١٩ / ١٢٦ - ١٣٥.
وكتابه هذا طبع عدة طبعات بحواش متعددة.

٥- انظر - مثالاً - : ١/ ١٨٠، ١٩٢، ٢٨٥، ٢٩١، ٣٠٧، ٣٤٤، ٣٤٧، ... فقد اكتفى في تلك المواضع بالقول: قال الزمخشري.

٦- سورة الزمر: آية ١٧.

٧- ((معترك الأقران)): ١ / ١٨٩.

وقد نقل السيوطي كلام الزمخشري بالمعنى واختصره اختصاراً قد يؤدي إلى بعض غموض ، فقد قال الزمخشريّ :

((الطاغوت : (فَعَلوت) من الطغيان ، ك (المَلَكُوت) و (الرحَمُوت) ، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين ، أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدراً[1] ، وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان ، وأن البناء بناء مبالغة ؛ فإن (الرحَمُوت) : الرحمة الواسعة ، و (المَلَكوت) : الملك المبسوط ، والقلبُ وهو للاختصاص ؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان ، والمراد بها - ههنا - الجمع ، وقرئ (الطواغيت)[2]))[3] .

١- وذلك لأن المصدر - من حيث هو مصدرٌ - لأيثنى ولايجمع ، انظر ((ضياء السالك إلى أوضح المسالك)) : ٣ / ١٣٨ .

٢- وهي قراءة الحسن البصري - رحمه الله تعالى - وهي قراءة شاذة ، وانظر ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات)) : ٢ / ٢٣٦ .

٣- ((الكشاف)) : ٣ / ٣٩٢ - ٣٩٣ .

ثانياً : مصادره في علوم القرآن الكريم :

والكتب التي رجع إليها في هذا العلم كثيرة ، منها :

١- ((إحكام الراي في أحكام الآي)) لابن الصائغ[١] ، رحمه الله تعالى :

قد استفاد السيوطي من هذا الكتاب في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز وهو :

((حسن تأليفه ، والتئام كلمه وفصاحتها ، ووجوه إيجازه ، وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام ...)) .

إذ قال :

((وقد ألف الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفيّ كتاباً سماه ((إحكام الراي في أحكام الآي)) قال فيه :

اعلم أن المناسبة أمر مطلوب في اللغة العربية يُرتكب بها أمور من مخالفة الأصول[٢] .

قال : وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على ماينيف على الأربعين حكماً :

١ - تقديم المعمول ...)) .

ثم إن السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ساق تلك الأربعين حكماً كلها[٣] .

١- هو الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن علي الحنفيّ الزمرديّ . ولد قبل سنة ٧١٠ . اشتغل بالعلم ، وبرع في اللغة والنحو والفقه . ولي قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، ودرّس بالجامع الطولونيّ وغيره . وله عدة مصنفات . مات سنة ٧٧٦ . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤ / ١١٩ - ١٢٠ .

ولم أطّلع على مَن عثر على هذا الكتاب فكأنه مفقود ، والله أعلم .

٢- هذه الأمور قد بينها بعد ذلك وهي كثيرة منها : تقديم الضمير على مايُفسّره نحو: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾: سورة طه : آية ٦٧ ، ومنها صرف مالاينصرف ، ومنها الفصل بين الموصوف والصفة ، وانظر ذلك في ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٨ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٢ - ٣٩ .

٢- ((**البرهان في علوم القرآن)) للزركشي** ، رحمه الله تعالى :

قد أكثر السيوطي من الرجوع إلى هذا الكتابِ واستفاد منه استفادة ظاهرة ، وكان يرجع إليه باسمه تارة وباسم مصنِّفه أخرى[١] .

وهذا مثال على ماصرح فيه باسم ((البرهان)) :

((قال في (البرهان) :

ومن ذلك[٢] افتتاح السور بالحروف المقطّعة ، واختصاص كل واحدة بما بدئت به حتى لم تكن تَرِد ﴿ الم ﴾ في موضع ﴿ الر ﴾ ، ولا ﴿ حم ﴾ في موضع ﴿ طس ﴾ .

قال : وذلك أن كل سورة بُدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتِها وحروفها مماثل له ، فحقُّ كل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها ، فلو وضع ﴿ ق ﴾ موضعَ ﴿ ن ﴾ لم يمكن ؛ لعدم التناسب الواجبِ مراعاتُه في كلام الله ، وسورة ﴿ ق ﴾ بدئت به لِما تكرر فيها من الكلمات بلفظ (القاف) ...))[٣] .

وقد اختصر السيوطي كلام الزركشي ونقله بالمعنى[٤] .

٣ - ((**غرائب التفسير وعجائب التأويل)) لِلكِرْماني**[٥] .

قال السيوطي عن كتاب الكرماني هذا :

((ضمّنه أقوالاً - ذُكرت في معاني آياتٍ - منكرةً لايحل الاعتماد عليها

١- كما صنع في : ١ / ٢٥٠ .

٢- أي من أسرار الفواتح .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٠ ، ومن مواضع رجوعه إلى كتاب ((البرهان)) باسمه : ١ / ١٠٠ .

٤- انظر ((البرهان)) : ١ / ١٦٩ - ١٧٠ .

٥- الشيخ برهان الدين أبو القاسم ، محمود بن حمزة بن نصر الكِرْمانيّ المعروف بـ (تاج القراء) . إمام محقق ، ثقة . كان في حدود الخمسمائة وتوفي بعدها . له عدة مؤلفات . انظر ((غاية النهاية)) : ٢ / ٢٩١ ، و ((معجم الأدباء)) : ١٩ / ١٢٥ ، و ((طبقات المفسرين)) للداوديّ : ٢ / ٣١٢ - ٣١٣ .

ولاذِكرها إلا للتحذير منها))[1] .

وقد رجع السيوطي إلى هذا الكتاب مرات عديدة ، وكان يرجع إليه تارة باسم ((غرائب التفسير))[2] – وقد يقتصر على قوله : قال الكرماني في ((غرائبه))[3] – وتارة باسم ((العجائب))[4] .

وقد يكتفي بذكر اسم المصنف دون اسم كتابه[5] ، وبمراجعة كتاب ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) يتبين أن مقصود السيوطيّ هو هذا الكتاب .

ومن المواضع التي رجع فيها السيوطي إلى هذا الكتاب قوله :
((وقال الكِرْمانيّ في غرائبه في قوله ﴿ الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ ﴾[6] :
الاستفهام – هنا – يدل على انقطاع الحروف عما بعدها في هذه السورة وفي غيرها))[7] .

أي ليس لحروف الفواتح تعلقٌ بما بعدها ، إنما جيء بها – على هذا الرأي – للتنبيه ونحوه .

١- ((الإتقان)) : ٢ / ١٨٦ ، وفيه نماذج لبعض تلك الأقوال .

وقد نصّ المصنف في كتابه أنه لم يشتغل ((بذكر الآيات الظاهرة والوجوه المعروفة المتظاهرة ، ولابذكر الأسباب والنزول ، والقصص والفصول ، فإني قد أودعت جميع ذلك في كتابي الموسوم بـ ((لباب التفاسير)) :

((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) : ١ / ٨٨ .

فلعل عزوفه عن ذكر الوجوه المعروفة في التفسير هو الذي أدى به إلى ذكر كثير من الأقوال المنكرة الغريبة ، والله أعلم .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧ .

٣- المصدر السابق : ١ / ١٥٧ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٦٦ .

٥- المصدر السابق : ١ / ١٠٧ ، ٤٨١ ، ٤٩٨ .

٦- سورة العنكبوت : آية ١ ، ٢ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٧ .

وقد نقل السيوطي هذا النصَّ بحروفه تقريباً[1] .

٤ – ((فضائل القرآن)) لأبي عُبيد[2] .

وهذا الكتاب مصنف على أبواب ، في كل باب منها بضعة أحاديث وآثار بأسانيدَ خرّجها المصنف لنفسه .

وقد أكثر السيوطي من النقل عنه ، فمن تلك المواضع قوله في المواضع التي نسخت فيها التلاوة دون الحكم :

((وأمثلة هذا الضرب كثيرة ، قال أبو عُبيد :

حدثنا إسماعيل بن إبراهيم[3] عن أيوب[4] عن نافع[5] عن ابن عمر[6] قال :

((لايقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، ومايدريه ماكلُّه ؟ قد ذهب منه قرآن كثير ، ولكن ليقل قد أخذت منه ماظهر))[7] .

١- ((غرائب التفسير)) : ٢ / ٨٧٧ .

٢- الإمام المشهور أبوعُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله . حافظ ، مجتهد ، ذوفنون ، ثقة ، ديِّن . كان أبوه سلاّم مملوكاً رومياً لرجل هَرَوِيّ . وُلد أبوعبيد سنة ١٥٧ .

وقد صنف التصانيف التي سارت بها الركبان ، وقدم بغداد فحدّث بها وصنف ، ثم حج فتوفي بمكة سنة ٢٢٤ .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠ / ٤٩٠ – ٥٠٩ .

٣- إسماعيل بن إبراهيم بن مِقْسَم الأسدي بالولاء ، أبو بشر البصري ، المعروف بـ (ابن عُلَيَّة) . ثقة حافظ . مات سنة ثلاث وتسعين ومائة ، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة . أخرج عنه الستة . ((التقريب)) : ١٠٥ .

٤- أيوب بن أبي تميمةَ كَيسانَ السَّختيانيّ ، أبوبكر البصري . ثقة ثبت حجة ، من كبار الفقهاء العباد . مات سنة إحدى وثلاثين ومائة وله خمس وستون سنة ، أخرج عنه الستة . ((التقريب)) : ١١٧ .

٥- أبوعبد الله المدنيّ ، مولى ابن عمر ، ثقة ثبت فقيه ، مشهور . مات سنة سبع عشرة ومائة أوبعد ذلك ، أخرج عنه الستة . ((تقريب التهذيب)) : ٥٥٩ .

٦- أبوعبد الرحمن . ولد بعد المبعث بيسير ، وهو أحد المكثرين من الصحابة ، وكان من أشد الناس اتباعاً للأثر . مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو أول التي تليها ، انظر ((تقريب التهذيب)) : ٣١٥ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢٤ .

وإسناد هذا الأثر صحيح – إن شاء الله تعالى – فرجاله أئمة ، لكن القرآن هو ماجمعه عثمان – رضي الله عنه – أمّا مارفع منه فليس بقرآن بعد رفعه ، ومثل هذا الأثر مُلْبس على العامة الذين لايدرون ماالمرفوع من القرآن ، وإذا سئل أحد عن القرآن أي قراءته له أوحفظه إياه فليجب بقوله : حفظته كله أو قرأته كله أو ما شابه هذا ، منعاً للتلبيس ، والله أعلم .

ثم ذكر تسعة آثار أخرى من كتاب أبي عُبيد ، وقد كان نقله من هذا الكتاب بالنص تقريباً[1] .

٥ - ((**مفردات ألفاظ القرآن**)) للراغب الأصبهانيّ ، رحمه الله تعالى :
هذا كتاب مهم ، فريد في بابه ، لِما فيه من الترتيب والكلامِ الحسن على معاني الألفاظ القرآنية ، وقد رجع السيوطي إلى هذا الكتاب مراراً تارة باسم المصنف[2] ، وأخرى باسم كتابه[3] .

فمن تلك المواضع التي رجع إليها ذاكراً اسمَ الكتاب قوله :
((وقال الراغب في ((مفردات القرآن)) :
الآيات عند اعتبار بعضها ببعض ثلاثة أضرب :
محكم على الإطلاق ، ومتشابه على الإطلاق ، ومحكم من وجه متشابه من وجه .
فالمتشابه بالجملة ثلاثة أَضْرُب :
متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ، ومن جهتهما ...))
ثم أخذ في تقرير أحوال المتشابه في القرآن في كلام طويل[4] .

وقد تصرف السيوطي قليلاً في نقل كلام الراغب[5] .

١- انظر ((فضائل القرآن)) : ١٩٠ - ١٩٣ .
ومن المواضع التي نقل منها السيوطي من ((فضائل القرآن)) : ١ / ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦٩ .
٢- انظر - مثالاً - ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٧٩ ، ٣٤٥ ، ٤٠٣ .
٣- المصدر السابق : ١ / ١٤٣ .
٤- المصدر السابق : ١ / ١٤٣ - ١٤٦ .
٥- انظر ((**مفردات ألفاظ القرآن**)) : ٢٦٠ - ٢٦٢ .

ثالثاً : مصادره في الحديث الشريف :

كتاب ((معترك الأقران)) مليء بالأحاديث والآثار ، رجع السيوطي فيه إلى عدد ضخم من المصادر الحديثية المتنوعة كان منها :

١- الجامع الصحيح للإمام البخاريّ [١] :

وقد رجع إليه كثيراً ، فمن ذلك قوله :

((أخرج البخاري عن ابن عباس قال :

قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - :

فيمن ترون نزلت هذه الآية : ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾[٢] ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أولا نعلم .

فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء .

فقال : ياابن أخي : قل ولاتَحْقِر نفسك . قال ابن عباس : ضُربت مثلا لعمل .

قال عمر : أي عمل ؟

قال ابن عباس : لعمل رجل غنيّ يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله))[٣] .

وقد أخرجه الإمام البخاري باختلاف يسير في الألفاظ التي ساقها السيوطي لكن كان التفسير للآية مِن قِبَل عمر لامن قِبَل ابن عباس رضي الله عنهم ، فلعل السيوطي اعتمد على نسخة أخرى غير التي بأيدينا أوأنه وَهِم ، والله أعلم .

١- الإمام الحافظ أبوعبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجُعفي بالولاء . ولد سنة ١٩٤ ببخارى ، وطلب العلم صغيراً، ثم ارتحل وعمره ست عشرة سنة ، وابتدأ التصنيف وعمره ثماني عشرة سنة وله تصانيف معتبرة نفيسة ، وهو أحد حفاظ الإسلام الكبار . توفي سنة ٢٥٦ في خَرْتَنك - قرية من أعمال سمرقند - ودفن بها .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٢ / ٣٩١ - ٤٧١ .

٢- سورة البقرة : آية ٢٦٦ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٦٨ .

ونص البخاريّ هو :

((قال عمر ، رضي الله عنه ، يوماً لأصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – :

فيم ترون هذه الآيةَ نزلت:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ ﴾؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

فغضب عمر فقال :

قولوا نعلم أو لانعلم .

فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين.

قال عمر : يا ابن أخي : قل ولا تَحْقِر نفسك .

قال ابن عباس : ضربت مثلاً لعمل .

قال عمر : أيُّ عمل ؟

قال ابن عباس : لِعملٍ .

قال عمر : لرجل غنيّ يعمل بطاعة الله – عز وجلّ – ثم بعث الله له الشيطانَ فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله)) [1] .

وقد أفرد فصلاً في أحاديث نبوية تفسر آيات قرآنية ساقها من صحيح البخاري[2] .

٢ – المستدرك على الصحيحين للحاكم [3] .

وقد رجع إليه كثيراً ، فمن ذلك قوله :

١- أخرجه الإمام البخاري في كتاب التفسير : باب تفسير سورة البقرة : ٦ / ٣٩ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٦٢٢ – ٦٤٦ .

وانظر كذلك في رجوعه إلى صحيح البخاري : ١ / ٤٧٩ ، ٤٩٤ ، ٣ / ١١٣ .

٣- الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد ، أبوعبد الله ابن البيِّع الضبيّ الطهمانيّ النيسابوريّ . ولد بنيسابور سنة ٣٢١ ، وطلب العلم في صغره وله من العمر تسع سنوات . كان من بحور العلم ، وله تصانيف ، وكان يميل إلى التشيع . توفي سنة ٤٠٥ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧/ ١٦٢ – ١٧٧ .

((أخرج الحاكم في ((المستدرك)) عن أبي بن كعب[1] قال : قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، فقرأ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾[2] ومن بقيتها : لو أن ابن أدم سأل وادياً من مال فأعطيه سأل ثانياً ، وإن سأل ثانياً سأل ثالثاً ، ولايملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية السمحة غير اليهودية ولاالنصرانية ، ومن يعمل خيراً فلن يكفره))[3] .

والآيات الواردة في هذا الحديث بعد الآية الأولى قد نُسخت ورُفعت فيما رُفع من القرآن في حياة النبي ، صلى الله عليه وسلم .

٣ – مسند الإمام أحمد :

وقد رجع إليه كثيراً فمن ذلك قوله :

((وفي مسند أحمد عن علي بن أبي طالب قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

((ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله – تعالى – حدثنا بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾[4]

١– أبي بن كعب بن قيس الأنصاري الخزرجيّ ، أبو المنذر ، سيد القراء . من فضلاء الصحابة . اختلف في سنة موته اختلافاً كثيراً قيل سنة تسع عشرة ، وقيل سنة اثنتين وثلاثين ، وقيل غير ذلك ، أخرج له أصحاب الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٩٦ .

٢– سورة البينة : آية ١ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢٧ ، ومن مواضع رجوعه للمستدرك – وهي كثيرة –: ١ / ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ...

وهذا الحديث أخرجه الحاكم – كما قال السيوطي – وقال : ((حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه)) ، ووافقه الذهبيّ ، انظر ((المستدرك)) : ٢ / ٢٤٤ ، وفي ألفاظ الحديث عند الحاكم اختلافٌ يسير عما أورده السيوطي .

٤– سورة الشورى : آية ٣٠ .

وسأفسرها لك ياعلي[1] :

ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم ، والله أكرم من أن يثني بالعقوبة ، وماعفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه))[2] [3] .

١- هكذا السياق في ((معترك الأقران)) ، وفي ((المسند)) : ٢ / ٦٤٩ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر ، وفي ((الفتح الربانيّ)) : ١٨/٢٦٥ .

وإنما قلت ذلك لأنه يبدو من ظاهر السياق أن هناك انقطاعاً بين تمام الآية وبين ((وسأفسرها لك ياعلي)) ، لكن المعنى مفهوم ، والله أعلم .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٥ ، وانظر كذلك - في رجوعه لمسند الإمام أحمد - : ١ / ٤٨٨ ، ٥١١ في مواضع كثيرة .

وهذا الحديث قد أخرجه الإمام أحمد في المسند في مسند علي رضي الله عنه : ٢ / ٦٤٩ . وفي بعض ألفاظه اختلاف يسير عما أورده السيوطيّ . وقد حكم الشيخ أحمد شاكر على إسناد هذا الحديث بأنه حسن كما في ((المسند)) : ٢ / ٦٤٩ ، وقال الشيخ أحمد البنا :

((والحديث له طرق كثيرة ترفعه إلى درجة الحسن)) : ((الفتح الربانيّ)) : ٨ / ٢٦٦ .

٣- وقد رجع السيوطي - أيضاً - بكثرة لسنن البيهقي ، و ((شعب الإيمان)) له ، وسنن سعيد بن منصور ، وصحيح مسلم وغيرها ، وانظر فهرس مصادر السيوطيّ في ثَبَت الفهارس الملحق بآخر هذه الرسالة .

رابعاً : مصادره من كتب العقيدة :

رجع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - إلى عدد يسير من كتب العقيدة ، كان منها :

١- ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين مِن بعدهم)) للإمام أبي القاسم اللالْكائيّ .

وقد سماه السيوطيّ اختصاراً بـ ((السنة)) .

وهو كتاب مليء بالأحاديث ، وبالآثار عن أئمة السلف من صحابة وتابعين ومَن بعدهم ، رضي الله عنهم .

وقد رجع السيوطيّ إلى هذا الكتاب في الوجه التاسع من أوجه الإعجاز التي ساقها وهو : ((انقسامه إلى محكم ومتشابه)) عند الحديث عن آيات الصفات ، فقال :

((جمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المراد إلى الله - تعالى - ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها .

أخرج أبو القاسم اللالكائيّ من طريق في ((السنة)) عن الحسن[1] عن

١- الحسن بن أبي الحسن يَسار ، أبو سعيد البصريّ ، مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه . وأبوه يسار من سبي ميْسان [بين البصرة وواسط] سكن المدينة وأُعتق وتزوج بها في خلافة عمر فوُلد له بها الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر . كان سيد أهل زمانه علماً وعملاً . وكان يدلس ومراسيله ليست بذاك .

قال أيوب : كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدُّر . مات سنة عشر ومائة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٤/ ٥٦٣ - ٥٨٨ .

أمه[1] عن أم سلمة[2] في قوله : ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[3] .

قال[4] : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به من الإيمان ، والجحود به كفر))[5] .

٢ - ((شرح آيات الصفات)) لابن اللبّان[6] :

قد رجع السيوطي إلى هذا الكتاب كثيراً في الوجه التاسع من وجوه الإعجاز التي ساقها - وهو ((انقسامه إلى محكم ومتشابه)) - فذكر في فصل آيات الصفات

١- اسم أمه خَيْرة - كما في ((سير أعلام النبلاء)) : ٥٦٤/٤ - وقال الحافظ ابن حجر : مولاة أم سلمة : مقبولة ، روى عنها وأخرج لها مسلم والأربعة ، وهي من الطبقة الثانية من الرواة . انظر ((التقريب)) : ٧٤٦ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٤٤٥/١٢ .

٢- السيدة الطاهرة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية ، بنت عم خالد بن الوليد سيف الله وبنت عم أبي جهل . من المهاجرات الأُوَل . كانت قبل النبي - صلى الله عليه وسلم - عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد ، ودخل بها النبي صلى الله عليه وسلم في سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسباً . لها جملة أحاديث ، وأخرج عنها أصحاب الكتب الستة ، وهي آخر من مات من أمهات المؤمنين حيث عاشت تسعين سنة تقريباً وماتت سنة ٦١ . رضي الله عنها .

((انظر سير أعلام النبلاء)) : ٢٠١/٢-٢١٠ .

٣- سورة طه : آية ٥ .

٤- في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) : قالت ، وهو الصواب .

وقد نقل محقق الكتاب عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله : ((روي هذا الجواب عن أم سلمة - رضي الله عنها - موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس إسناده مما يعتمد عليه)) ، وانظر ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) : ٣٩٧/٣ .

وقد راجعت إسناد اللا لكائيّ في كتابه فإذا فيه عدد من الرجال لم أعثر لهم على ترجمة ، والله أعلم .

٥- ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة)) : ٣٩٧/٣ ، و ((معترك الأقران)) : ١٤٧/١ . وقد ذكر السيوطي رواية أخرى عن اللالكائي في مسألة الصفات : انظر ١٤٧/١ أيضاً .

٦- محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الأسْعرديّ ثم الدمشقيّ ، نزيل القاهرة ، شمس الدين بن اللبّان . ولد سنة ٦٨٥ أو نحوها ، وتفقه وبرع في الفنون ، واتهم بكلمات ضبطت عليه على طريق أهل الاتحاد . وكان عارفاً بالفقه والأصلين [أصول الدين وأصول الفقه] والعربية ، أديباً ذكياً ، فصيحاً ، ذا همة وصرامة وانجماع . مات في الطاعون العام سنة ٧٤٩ . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٤٢٠/٤-٤٢١ .

و لم أجد تفسيراً لنسبته ((الأسعردي)) فيما بحثت فيه من مظان ، والله أعلم .

ولعل كتابه هذا هو : ((**إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات**)) **وهو مخطوط ، أو** ((**رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات**)) **وهو مطبوع ، وانظر ((الأعلام)) : ٣٢٧/٥ .**

أن لابن اللبان فيها تصنيفاً مفرداً[1] ، ثم ساق جملة من كتابه هذا في ثنايا هذا المبحث ، وكان مما ذكره عنه قوله :

((وقال ابن اللبان : فإن قلت : فما حقيقة اليدين في خلق آدم ؟

قلت : الله أعلم بما أراد ، ولكن الذي استفسرته من تدبر كتابه أن اليدين استعارة لنور قدرته القائم بصفة فضله ، ولنوره القائم بصفة عدله ، ونبه على تخصيص آدم وتكريمه بأن جمع له في خلقه بين فضله وعدله ...))[2] .

وليت ابن اللبّان - رحمه الله تعالى - توقف عند قوله : الله أعلم بما أراد ، حيث إن الذي ذكره بعد ذلك هو من التأويل الذي ليس عليه دليل ، وأمْر الصفات عظيم لايُتكلم فيه بمثل هذا ، والله أعلم .

١- ((معترك الأقران)) : ١/١٤٦ .

٢- المصدر السابق : ١/١٥١- ١٥٢ .

خامساً : مصادره من كتب الفقه :

أكثر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من ذكر المسائل الفقهية ، لكنه كان يذكرها بدون رجوع إلى مصدر معين[1] إلا في النادر ، فمن ذلك كتاب ((فتاوى قاضيخان))[2] ، حيث قال السيوطيّ :

((وفي ((فتاوى قاضيخان)) :

لابأس أن يطرح القملة حية ، والأدب أن يقتلها))[3] .

ونصّ مافي الفتاوى :

((ويباح قتل القملة بكل حال ، ويكره إحراقها وإحراقُ العقرب بالنار ، فإن طرح القملة حيةً لابأس به ، والأدب أن يقتلها))[4] .

١- انظر ((معترك الأقران)) : ٢١/٢ ، ٢٧-٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤-٣٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٩٠ ...

٢- العلامة شيخ الحنفية ، أبو المحاسن حسن بن المنصور بن محمود البخاريّ الحنفيّ الأُوزْجنديّ ، صاحب التصانيف . سمع من طائفة ، وأملى مجالس كثيرة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٣١/٢١-٢٣٢ .

وفي ((كشف الظنون)) :

((المتوفي سنة ٥٩٢ ، وهي [أي فتاواه] مشهورة مقبولة معمول بها متداولة بين أيدي العلماء والفقهاء ، وكانت هي نصبُ عين ممّن تصدر للحكم والإفتاء ، ذكر في هذا الكتاب جملة من المسائل التي يغلب وقوعها وتَمسّ الحاجة إليها ، وتدور عليها واقعات الأمة ، وترتيبها على ترتيب الكتب المعروفة ، بيّن لكل فرع أصلاً ، وفيما كثرت فيه الأقاويل من المتأخرين اقتصر منه على قول أو قولين ، وقدم ماهو الأظهر)) : ((كشف الظنون)) : ١٢٢٧/٢ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢١٧/٣ .

٤- ((فتاوي قاضيخان)) : ٤١١/٣ .

سادساً : مصادره من كتب الأصول :

ذكر السيوطيّ مباحث أصوليةً كثيرة في كتابه[1] ، لكن كان الشأن فيها كالشأن في مباحث الفقه حيث لم يصرح بمصادره التي رجع إليها إلا في النادر ، ومن ذلك :

١ - ((الرسالة)) للإمام الشافعيّ - رحمه الله تعالى - حيث قال السيوطي :

((قال الشافعيّ في ((الرسالة)) : لايحيط باللغة إلانبيّ))[2] .

ونصُّ الشافعيّ :

((ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولانعلمه يحيط بجميع علمه إنسانٌ غيرُ نبيّ))[3] .

٢ - ((المحصول في أصول الفقه)) للرازي :

قد رجع السيوطيّ إلى هذا الكتاب مرة واحدة حيث قال في الوجه الثامن والعشرين من وجوه الإعجاز وهو ((احتواؤه على الخبر والإنشاء)) :

((وقد اختلف الناس في حد الخبر ، فقيل : لايُحدّ لعسره ، وقيل لأنه ضروريّ ؛ لأن الإنسان يفرق بين الإنشاء والخبر ضرورة ، ورجحه الإمام في ((المحصول))))[4].

١- وذلك في الوجه الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر ، وانظر ((معترك الأقران)) : ٢٠٧/١- ٢٢٨ ، وذلك خلاف المباحث الأصولية المتفرقة في كتابه وذلك نحو ماجاء في ١٠٨/١ ، ١٣٦ ، ٢٤٦ ، ٣٠٤/٢ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٦ .

٣- ((الرسالة)) : ٤٢ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٢٠ - ٤٢١ .

وكتاب ((المحصول)) مطبوع .

سابعاً : مصادره من كتب اللغة العربية :

ومراجعها عند السيوطي كثيرة متعددة مابين نحو وصرف وبلاغة .

١ - مصادره من كتب النحو :

أماكتب النحوالتي رجع إليها فهي قليلة ، منها :

((**مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**)) لابن هشام[١] ، رحمه الله تعالى :

وهو كتاب واسع فريد ، فيه مباحث متعددة جمع فيها ((الحروف والأدوات ، فتحدث عن كلٍّ منها في باب خاص جمع فيه كل مايتصل بالأداة من قواعدَ وأحكام ، وما يُمثل لها من شواهد ، ثم أفرد أبواباً أخرى لأحكام عامة تتصل بأشباه الجمل ، والجمل ، وأقسامها ، والذكرِ والحذف ، والمظانٌ التي توقع المعربين في الخطأ ، وتصحيح ماشاع من ذلك ، وأصولِ توجيه الإعراب ...))[٢] .

وقد رجع السيوطي إلى هذا الكتابِ مراراً ، فمن ذلك قوله عند الكلام على حذف المفعول اختصاراً في الوجه السادس والعشرين من وجوه الإعجاز ، وهو : ((إيجازه في آية وإطنابه في أخرى)) :

١- جمال الدين أبومحمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله . ولد سنة ٧٠٨ بمصر ، وتفقه للشافعي ثم تحنبل ، وأتقن العربية ففاق فيها الأقران بل الشيوخ ، وتخرّج به جماعة من أهل مصر . انفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحثِ الدقيقة ، والاستدراكاتِ العجيبة ، والتحقيق البالغ ، والاطّلاع المُفرِط . توفي سنة ٧٦١ بمصر .

انظر ((الدرر الكامنة)) : ٢ / ٤١٥ - ٤١٧ . وكتابه هذا مطبوع مشهور متداول .

٢- مقدمة تحقيق ((مغني اللبيب)) : ٦ .

((قال ابن هشام :

جرت عادة النحويين أن يقولوا بحذف[1] المفعول اختصاراً واقتصاراً ، ويريدون بالاختصار الحذفَ لدليل ، وبالاقتصار الحذف لغير دليل ، ويمثلونه بنحو ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ ﴾[2] أي أوقعوا هذين الفعلين .

والتحقيق أن يقال [يعني كما قال أهل البيان][3] :

تارة يتعلق الغرض بالإعلام بمجرد وقوع الفعل من غير تعيين مَن أوقعه ومن أُوقع عليه ، فيجاء بمصدره مسنداً إلى فعلِ كَوْنٍ عامّ فيقال : حصل حريق أو نهب .

وتارة يتعلق بالإعلام بمجرد إيقاع الفعل للفاعل فيقتصر عليهما ولايذكر المفعول ولا يُنوى ؛ إذ المنويّ كالثابت ، ولايسمى محذوفاً ؛ لأن الفعل ينزل لهذا القصدِ منزلةَ مالامفعول معه ، ومنه ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾[4] ... إذ المعنى ربي الذي يفعل الإحياء والإماتة ...

وتارة يُقصد إسناد الفعل إلى فاعله وتعليقُه بمفعوله فيذكران نحو :
﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[5] ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[6] ، وهذا النوع إذا لم يذكر محذوفه[7] قيل محذوف ...))[8] .

١- في ((المغني)) ٧٩٧ : ((يُحذف)) ، والمعنى في كليهما صحيح .

٢- سورة الأعراف : آية ٣١ .

٣- هذه الجملة تفسيرية من السيوطيّ .

٤- سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

٥- سورة آل عمران : آية ١٣٠ .

٦- سورة الإسراء : آية ٣٢ .

٧- في ((المغني)) : (مفعوله) وهو الصواب ، انظر ص ٧٩٨ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١/٣٠٩ - ٣١٠ .

وقد تصرف السيوطي في كلام ابن هشام تصرفاً يسيراً [١] [٢] .

٢ **–مصادره من كتب الصرف**[٣] : أما كتب الصرف فإنه لم يصرح بمصادره منها مع أنه ذكر عدة مباحث صَرْفية[٤] ، لكن يمكن عدُّ كتاب ((ليس في كلام العرب)) لابن خالويه[٥] مصدراً من مصادر السيوطي في علم الصرف ، وقد رجع إليه السيوطي مراراً .

وإنما قلت يمكن عدُّه مصدراً من مصادر السيوطي في علم الصرف لأن الكتاب لم يُجعل في الأصل لبيان أحوال أبنية الكلام ، لكن ابن خالويه أتى بكثير من الأبنية وقاس عليها ماجاء في كلام العرب موافقاً لها ، وحكم على أبنية أخرى أنه لم يأت في كلام العرب على وزنها ، وذلك نحو قوله :

((ليس في كلام العرب واوٌ وقعت بين ياء وفتحة ، ... فسقطت إلاحرفاً واحداً وهو (يَذَرُ) ، والأصل : يَوْذَرُ .

وقياس الواو إذا وقعت بين ياء وفتحة أن تثبت مثل (يَوْحَل) ، و (يَوْجَل) ، فإن وقعت بين ياء وكسرة سقطت مثل :(يَزِن) و (يَعِدُ) ، وأصله (يَوْزِن) و (يَوْعِدُ) ،

١- انظر ((المغني)) : ٧٩٧ – ٧٩٨ .

٢- وقد نقل السيوطيّ عن ((مغني اللبيب)) نقلاً طويلاً في موضع آخر ، انظر ((معترك الأقران)) : ١/٣١٤-٣١٥ .
وانظر كذلك من مواضع نقله عن ((المغني)) : ١/٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨١ ، وقد صرح السيوطي باسم الكتاب في ١/٥٨٣ .
وقد رجع السيوطيّ إلى عدد آخر من كتب اللغة مثل ((شرح الكافية)) لابن مالك ، و ((ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب)) لأبي حيان ، وهو اختصار لكتاب ((التذييل والتكميل في شرح التسهيل)) لأبي حيان أيضاً ، و ((شرح التسهيل)) لابن مالك ، وانظر فهرس مصادر ومراجع السيوطي في آخر الكتاب ؛ ففيه بيان لتلك الكتب كلها .

٣- الصرف هو ((علم بأصول تُعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب)) :
((شرح شافية ابن الحاجب)) : ١/١ .

٤- انظر – مثالاً – ((معترك الأقران)) : ٢/١٨ ، ١٩ ، ٦٩ .

٥- الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدون ، أبو عبد الله النحويّ اللغويّ ، نزيل حلب الإمام المشهور . له تصانيف كثيرة في القرآن والقراءات واللغة . مات بحلب سنة ٣٧٠ . انظر ((غاية النهاية في طبقات القراء)) : ١/ ٢٣٧ .

وإنما جاز ذلك لأنهم بنوا (يَذَرُ) على (يَدَع) ؛ إذ كان لايُنطق منهما بـ (فَعَل) ولا : (فاعلَ) ، ولا:(مفعول) ، ولامصدر ، فاعرف ذلك))[1] .

ونحو قوله أيضاً :

((ليس في كلام العرب : (فَعِل يَفعِلُ) بكسر العين في الماضي والمستقبل[2] من الصحيح إلاثلاثة أحرف : نَعِم يَنعِم ، ويَبِس يَيْبِس ، ويَئس يَيْئِس ...))[3] .

ومن مواضع رجوع السيوطي إلى هذا الكتاب قوله :

((وقال ابن خالويه في كتاب ((ليس)) :

ليس في كلام العرب لفظٌ جَمَع لغاتِ (ما) النافية إلا حرف واحد في القرآن جمع اللغاتِ الثلاث ، وهي قوله تعالى :

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ﴾[4] ، قرأ الجمهور بالنصب ، وقرأ بعضهم بالرفع[5] ، وقرأ ابن مسعود : (مَّا هُنَّ بِأُمَّهَٰتِهِمْ)[6] بالباء .

قال : وليس في القرآن لفظ على (اِفعَوْعِل) إلا في قراءة ابن عباس :

(أَلَآ إِنَّهُمْ تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ)[7]))[8] .

١- ((ليس في كلام العرب)) : ٤١ .

٢- قد يطلق المستقبل على المضارع كما هو هنا .

٣- ((ليس في كلام العرب)) : ٤٤ - ٤٥ .

٤- سورة المجادلة : آية ٢ .

٥- وهي قراءة المفضّل عن عاصم ، وهي قراءة شاذة ، وانظر ((البحر المحيط)) : ٨ / ٢٣٢ .

٦- وهي قراءة شاذة ، وانظر المصدر السابق .

٧- سورة هود : آية ٥ .

وهذه قراءة شاذة ، وانظر ((المحتسب)) : ١ / ٣١٨ . وقد ذكر ابن جني أن وزن الكلمة (تَفْعَوْعِل) .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٨٢ . ولم أجد هذا النصّ في كتاب ((ليس)) المطبوع .

٣ – وأما كتب البلاغة التي رجع إليها فكثيرة منها :

١ – ((**بديع القرآن**)) لابن أبي الإصبع رحمه الله تعالى :

قد رجع السيوطيّ إلى هذا الكتاب في مواضعَ كثيرةٍ جداً ، فمن ذلك قوله متحدثاً عن الإيجاز في الوجه السادس والعشرين من وجوه الإعجاز التي أتى بها في كتاب ((المعترك)) : ((إيجازه في آية وإطنابه في أخرى)) :

((وقوله : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾[1] ، قال ابن أبي الإصبع :

المعنى : صرِّح بجميع ماأُوحي إليك ، وبلغ كل ماأمرت ببيانه ، وإن شقّ بعض ذلك على بعض القلوب فانصدعت ، والمشابهة بينهما فيما يؤثّره التصريح في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من القبض والانبساط ، ويلوح عليها من حيث علامات الإنكار أو الاستبشار ، كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة ، فانظر إلى جليل هذه الاستعارة ، وعظيمِ إيجازها ، وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة))[2] .

٢ – ((**عروس الأفراح**)) لبهاء الدين السبكيّ[3] رحمه الله تعالى :

وهذا الكتاب شرح فيه السبكيّ ((تلخيص المفتاح)) للشيخ جلال الدين محمد القزويني[4] ، وكتابُ ((مفتاح العلوم)) من تأليف السكّاكيّ[5] .

١- سورة الحجر : آية ٩٤ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٩٩ – ٣٠٠ .

ومن مواضع رجوعه إلى هذا الكتاب : ١ / ٣٩ ، ٥٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ .

٣- بهاء الدين أبوحامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي . ولد سنة ٧٢٩ . إمام علامة ، له فضائل وفيه أدب وتقوى . ساد وهو ابن عشرين سنة . مات مجاوراً بمكة سنة ٧٧٣ ، وله أربع وخمسون سنة وبضعة أشهر . انظر ((الدرر الكامنة)) : ١ / ٢٢٤ – ٢٢٩ .

وهذا الكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ١ / ١٧٦ .

٤- محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني ((قاضي القضاة)) العلامة ذو الفنون . مولده بالموصل سنة ست وستين وستمائة ، وسكن الروم وولي بها قضاء ناحيةٍ وله نحوٌ من عشرين سنة ، وولي قضاء دمشق ، وولي خطابة الجامع الأموي مدةً ، ثم ولي قضاء القضاة بالديار المصرية ، وبلغ من العز والوجاهة مالايوصف ، وكان فصيحاً ،حلوَالعبارة، سمحاً جواداً ، حليماً ، جمَّ الفضائل . توفي بدمشق سنة ٧٣٨ . انظر ((وفيات الأعيان)) : ٣ / ٢٤٢ – ٢٤٣ .

٥- يوسف بن أبي بكر السكّاكيّ . أخذ عن جماعة ، وكان حنفياً ، إماماً كبيراً ، عالمًا بارعاً متبحراً في النحو والتصريف ، وعلم المعاني والبيان والعَروض والشعر . توفي سنة ٦٢٦ ، انظر ((شذرات الذهب)) : ٥ / ١٢٢ .

وقد شرح القزويني من ((المفتاح)) القسم الثالثَ الخاص بالبلاغة ، ثم شرح بهاء الدين السبكيّ شَرْح القزوينيّ [1] .

وقد رجع السيوطيّ إلى هذا الكتاب كثيراً ، فمن ذلك قوله في الكلام على طرق الحصر وأن منها ضميرَ الفصل[2] حيث قال :

((وقد استنبطت دلالته على الحصر في قوله :

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾[3] لأنه لو لم تكن للحصر لما حسُن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم ، وإنما حصل بتوفيته أنه لم يبق لهم رقيب غيرُ الله ، ومن قوله:

﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[4] ؛ فإنه ذكر لتبيين عدم الاستواء ، وذلك لايحسن إلا بأن يكون الضمير للاختصاص))[5][6] .

ثامناً : مصادره من كتب التاريخ :

رجع السيوطي إلى بعض كتب التاريخ ، منها :

١ – **((المبتدأ والمبعث والمغازي))** لابن إسحاق[7] رحمه الله تعالى .

١- انظر ((كشف الظنون)) : ١ / ٤٧٣ - ٤٧٧ .

٢- ((قد يقع الضمير المنفصل المرفوع في موقع لايُقصد به إلا الفصلُ بين ماهو خبر وماهوتابع ، ولا محل له من الإعراب ، ويقع فصلاً بين المبتدأ والخبر ، أوما أصله مبتدأ وخبر نحو : ﴿ إن كان هذا هو الحقَّ ﴾ و ﴿ كنت أنت الرقيبَ ﴾ ...))

((معجم النحو)) : ٢٢٠ - ٢٢١ .

٣- سورة المائدة : آية ١١٧ .

٤- سورة الحشر : آية ٢٠ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨٦ - ١٨٧ .

٦- انظر كذلك في رجوعه لهذا الكتاب : ١ / ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٤٤٤ ، في مواضعَ كثيرة .

٧- محمد بن إسحاق بن يَسار ، أبوعبدالله القرشي المطّلبي بالولاء ، المدني . ولد سنة ٨٠ ، ورأى أنس بن مالك بالمدينة . كان من أحفظ الناس ، وكان علامة في المغازي . مات سنة خمسين ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٧ / ٣٣ - ٥٥ .

وقال ابن حجر :

((صدوق يُدلس ، ورمي بالتشيع والقَدَر ...)) : انظر ((التقريب)) : ٤٦٧ .

وهو من أهم كتب السيرة ، وقد فُقدت أجزاء منه ، وطبع بعضه .

وقد رجع السيوطيّ إلى هذا الكتاب مراراً ، فمن ذلك ماقاله في الوجه الثالث والثلاثين من وجوه الإعجاز التي ساقها وهو : ((ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها)):

((﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾[1] : قال ابن إسحاق :

أولاد آدم لصلبه أربع وعشرون بطناً ، كل بطن ذكر وأنثى ، وسُمّي من بنيه قابيل وهابيل ، وإيماد ، وشبونة ، وهند ، وضرابيس ، ومحور ، وسند ، وبارق ، وشيث ، وعبد المغيث ، وعبد الحارث ، ووَدّ ، وسُواع ، ويغوث ، ويَعُوق ، ونسراً .

ومن بناته : أقليمة ، وأشوف ، وجزوزة ، ويمن ، وعز ، ورا ، وأمة المغيث))[2] .

٢ - ((تاريخ دمشق)) للإمام ابن عساكر[3] :

هذا كتاب فريد في تاريخ دمشق ، بل في تواريخ البلدان ، قد اعتنى به العلماء .

وقد رجع إليه الإمام السيوطيّ مراراً ، فمن ذلك قوله في ترجمة ذي الكفل - عليه السلام - :

((وقال ابن عساكر : هو نبيّ تكفل الله له في عمله بضعف عمل غيره من الأنبياء .

وقيل : لم يكن نبياً ، وأن اليَسَع استخلفه فتكفل له أن يصوم النهار ويقوم الليل ، وقيل : أن يصلي كل يوم مائة ركعة .

١- سورة النساء : آية ١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٠٣ ، ولا يوجد هذا في المطبوع من سيرة ابن إسحاق .

ولايخفى أن ضبط كثير من هذه الأسماء مما لاسبيل إليه لاختلاف المؤرخين فيها اختلافاً كثيراً ، والله أعلم .

ومن مواضع رجوع السيوطي إلى كتاب ابن إسحاق : ١ / ٤٩٠ ، ٥١٩ ، ٥٢١ .

٣- الإمام العلامة ، الحافظ ، محدث الشام ، ثقة الدين أبو القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله الدمشقيّ الشافعيّ . ولد سنة تسع وتسعين وأربعمائة . وقد غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه ، ورحل ، ولقي المشايخ . وكان ديِّناً . صنّف التصانيف المفيدة أجلّها ((تاريخ دمشق)) . توفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بدمشق ، رحمه الله تعالى .

انظر ((وفيات الأعيان)) : ٣ / ٣٠٩ - ٣١١ .

وقيل : هو اليسع وإن له اسمين))[1] .

وقال السيوطيّ أيضاً :

((وأخرج ابن عساكر في تاريخه عن عبد الله بن عمرو[2] - مرفوعاً - أن قوم مدين وأصحاب لَيْكَةَ أُمَّتان بعث الله إليهما شعيباً))[3] [4] .

١- انظر ((مختصر تاريخ دمشق)) لابن منظور : ٨ / ٢٣١ - ٢٣٨ .

٢- عبد الله بن عمرو بن العاص السَّهميّ ، أبو محمد . أحد السابقين المكثرين ، وأحد العبادلة الفقهاء . مات سنة ٦٣ بالطائف . انظر ((التقريب)) : ٣١٥ .

٣- ((معترك الأقران)) :٣ / ٢٧٧ ، وقد ذكر السيوطي أن ابن كثير قال إن هذا الحديث غريب وفي رفعه نظر ، وانظر ((مختصر تاريخ دمشق)) : ١٠ / ٣٠٩ .

٤- وقد رجع السيوطيّ أيضاً إلى تاريخ المظفري ، انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٠١ .

وانظر فهرس مصادر ومراجع السيوطي للاطلاع على تعريف ((تاريخ المظفري)) .

المطلب الثاني : منهجه في الاستفادة من المصادر والمراجع

قد مزج السيوطيّ كلامه بكلام العلماء ، واستدل على مسائل كتابه بإيراده عدداً كبيراً من المسائل الشرعية واللغوية من مصادر ومراجع كثيرة متنوعة ، كما بينت آنفاً ، وطريقته في الاستفادة من هذه المصادر والمراجع - كما تبين لي بالنظر في كتابه - هي كالتالي [1] :

١ - النقل المحض :

قد ينقل السيوطيّ المبحث من كتب غيره ولايتصرف فيه ، وهذا قليل في كتابه ؛ إذ أكثر نقله من كتب غيره قد تصرف فيه بوجه من وجوه التصرف الآتية .

ومثال النقل المحض بدون تصرف قوله في الوجه السابع من وجوه الإعجاز التي أوردها - وهو ((ورود مشكله حتى يوهم التعارض بين الآيات)) - قال :

((قال الزركشيّ في ((البرهان)) :

للاختلاف أسباب :

أحدها : وقوع المخبر به على أحوال مختلفة وتطورات شتى ؛ كقوله في خلق آدم مرة ﴿ مِن تُرَابٍ ﴾[2] ، ومرة ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[3] ، ومرةً : ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾[4] ومرة ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[5] فهذه ألفاظ مختلفة ، ومعانيها في أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأ ، والحمأ غير التراب ، إلا أن مرجعها كلها إلى جوهر وهو التراب ، ومن التراب تدرجت هذه الأحوال .

١- سأقتصر على ذكر طريقة استفادته من كتب غيره ، أما استفادته من بعض كتبه فقد سبق الكلام عليها ، انظر الصفحات : ٢٣١ - ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ من هذه الرسالة .

٢- سورة آل عمران : آية ٥٩ .

٣- سورة الحجر : آية ٢٦ .

٤- سورة الصافات : آية ١١.

٥- سورة الرحمن : آية ١٤ .

وكقوله ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾[1] في موضع ، وفي موضع : ﴿ تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾[2] .
والجانّ : الصغير من الحيات ، والثعبانُ : الكبير منها ؛ وذلك لأن خلقها خلقُ الثعبان العظيم ، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وحركته وخفته .
السبب الثاني : لاختلاف الموضوع ...))[3] .

وهذا النقل المحض من غير تصرف قليل في كتابه - كما ذكرتُ - خاصة بهذا الطول ، وإنما يتصرف في غالب نقله بوجوه عدة من التصرف كما يظهر من الآتي .

٢ - التصرف في النقل وعدم الإشارة إلى هذا التصرف :

قد ينقل السيوطي كلام غيره دون أن يذكر أنه تصرف فيه ، فقد نقل عن الزركشيّ - رحمه الله تعالى - من كتابه ((البرهان)) في مواضعَ متعددة ، فمن ذلك مانقله عنه في الكلام على افتتاح السور بالحروف المقطعة في الوجه الرابع من وجوه إعجازه وهو ((مناسبة آياته وسوره ...)) فقال :
((قال في ((البرهان)) : ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة ...))[4] .

وقد رجعت إلى ((البرهان)) فوجدت أن النقل كان بالمعنى مع إثباته - أحياناً - لبعض كلام المصنف ضمن كلامه ، لكن أكثر المنقول كان جامعاً بين الاختيار من النص وبين النقل بالمعنى ، ولم يميز انتهاء نقله من ((البرهان))[5] .

١- سورة الشعراء : آية ٣٢ .
٢- سورة القصص : آية ٣١ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٠ - ١٠١ .
٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٠ وما بعدها .
٥- ((البرهان)) : ١ / ١٦٩ - ١٧١ .

وقد نقل كلاماً لابن القيم – رحمه الله تعالى – من كتابه ((التبيان في أقسام القرآن)) في الوجه التاسع والعشرين من وجوه الإعجاز التي أوردها السيوطي – رحمه الله تعالى – وهو : ((إقسامه تعالى في مواضعَ لإقامة الحجة وتأكيدها)) فقال :
((وقال ابن القيم : اعلم أنه سبحانه يقسم بأمور على أمور ...)) .

وقد رجعت إلى ((التبيان)) فوجدت أن السيوطيّ ينقل جملاً يختارها من كلام ابن القيم بحروفها ، ثم ينقل جملاً بعدها بصفحات وهكذا حتى إنه لخص نحو سبعين صفحة من كلام ابن القيم في نحو ثلاث صفحات[1] مع ملاحظة أنه يكاد ينقل مااختاره منها بحروفه تقريباً .

٣ – النقل مع التلخيص :

هذا النوع داخل في الذي قبله ؛ وإنما أفردته هاهنا كي لايُظنّ أني سهوت عنه ، وهذا النوع هو الغالب في كتابه هذا .

٤ – النقل مع التلخيص والإضافة :

أي أنه ينقل كلام مصنفٍ ملخصاً ثم يضيف عليه مادة أخرى ؛ وذلك نحو صنيعه في نقله من كتاب ((الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)) حيث قال في الوجه الخامس من وجوه الإعجاز التي ساقها وهو : ((افتتاح السور وخواتمها)) ، قال :
((والكلام في هذا الوجه عريض ، أفرده بالتأليف ابن أبي الإصبع في كتاب سمّاه : ((الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)) ، وها أنا ألخص هنا ماذكره مع زوائدَ من غيره ...)) .

فهو قد صرح هنا بالتلخيص مع الإضافة .

١– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٥٣ – ٤٥٥ ، وانظر ((التبيان)) : ١– ٧٣ .

٥ – الاختيار من المنقول :

وهو نوع من التلخيص لكنه أقل كلفة ؛ إذ ليس فيه عمل للناقل سوى الاختيار المحض بدون تصرف ، ومثال ذلك قول السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في الوجه الحادي والثلاثين من وجوه الإعجاز ، وهو ((ضرب الأمثال فيه ظاهرة ومضمرة)) :
((عقد جعفر بن محمد شمس الخلافة في كتاب ((الآداب))[1] باباً في ألفاظ من القرآن جارية مجرى المثل ، وهذا هو النوع البديعيّ المسمى بـ ((إرسال المَثَل))، وأورد من ذلك قوله سبحانه :
﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [2] .
﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾[3] ...
﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [4] ، في ألفاظ أُخَر))[5] .
وهذه الجملة الأخيرة تعني أنه اختار اختياراً من المنقول .

٦ – خلط كلامه بالمنقول :

إذا أورد السيوطيّ أقوالَ الأئمة فإنه يبين في أحيان كثيرة مكان ابتداء النقل وانتهائه ، ولكنه يغفل – أحياناً – تحديد موضع انتهاء النقل فيختلط الكلام المنقول بكلام السيوطي فلا يتبيّن الناظر في الكتاب أي الكلامين هو كلام السيوطي رحمه الله تعالى ، وذلك نحو قوله : ((قال الشيخ تقي[6] الدين في كتاب ((الاقتصاص بين الحصر والاختصاص))[7] :

١- ((الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة)) ، وانظر فهرس مصادر ومراجع السيوطي في آخرالرسالة .
٢- سورة النجم : آية ٥٨ .
٣- سورة آل عمران : آية ٩٢ .
٤- سورة الحشر : آية ٢ .
٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٧٠ – ٤٧١ .
٦- هو الشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكيّ ، وقد تقدمت ترجمته .
٧- اسم الكتاب – كما ذكر تاج الدين السبكي في ((الطبقات)) : ١٠ / ٣١٥ : – ((الاقتناص في الفرق بين الحصر والقصر والاختصاص)) ، وذكر أنه في علم البيان .

اشتهر كلام الناس في أن تقديم المعمول يفيد الاختصاص ، ومن الناس من ينكر ذلك ويقول : إنما يفيد الاهتمام ...))[1] .

ثم يستمر في إيراد كلام السبكي في صفحات عدة ، ثم ينتقل إلى الوجه الذي يليه من وجوه الإعجاز دون أن يبين أين انتهى كلام السبكيّ ، وبالرجوع إلى ((الإتقان))[2] يتبين موضع انتهاء النقل من كلام السبكي ، رحمه الله تعالى[3] .

٧ - النقل من غير عزو ، أوبعزو ناقص :

والنقل من غير عزو كقوله :

(قال بعضهم) ، و (قيل) ، و (قال بعض العلماء) .

والنقل مع العزو الناقص كقوله :

قال ابن الجوزي ، أو قال ابن حجر .

وقد تكلمت على هذا في مبحث ((منزلة الكتاب العلمية))[4] .

٨ - النقل من الكتب من غير إشارة :

وهذا يحدث في كتاب السيوطي كثيراً ؛ إذ ينقل كلام عدد من العلماء من غير إشارة لهذا النقل فيبدو أن النص من كلامه ، وليس كذلك .

وقد تكلمت على هذا في مبحث ((منزلة الكتاب العلمية))[5] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩١ - ١٩٤ .

٢- ٢ / ٥٣ .

٣- وانظر كذلك ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٠ ؛ فقد نقل كلام الزركشي و لم يتبين موضع انتهاء النقل إلا بالرجوع إلى ((البرهان)) : ١ / ١٦٩ - ١٧١ ، والأمثلة على هذا كثيرة .

٤- انظر ص ٢٩٤ .

٥- انظر ص ٢٩٦ .

المبحث الثالث

منهجه الاستدلالي

كتاب ((معترك الأقران)) مليء بالآيات والأحاديث والآثار ، متميز عن غيره من كتب الإعجاز في هذا ، وسبب ذلك هو الآتي :

أولاً : الكتاب موضوع في إعجاز القرآن ، فلا غرابةً أن يمتلىء بالآيات الدالة على الإعجاز والمبينة له .

ثانيــاً : السيوطيّ حافظ من حفّاظ الحديث والأثر ؛ فلهذا كثرت في كتابه الأحاديثُ والآثار كثرةً لافتة للنظر بالمقارنة مع كتب الإعجاز الأخرى .

ثالثــاً : كِبَر حجم الكتاب وتنوع مباحثه أديا إلى كثرة الآيات والأحاديث والآثارفيه .

أما تفصيل هذا المنهج الاستدلالي فهو الآتي :

أولاً : استدلاله بالآيات الشريفة :

أكثر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – من الاستدلال بآيات الكتاب العظيم ، فجاءت لآلىءَ متناثرةً بين تضاعيف الكتاب وثناياه ، وقد كان السيوطيّ – رحمه الله تعالى – حريصاً على أن يورد آية أو آيات تدلل على كل مايقرره ويورده من قواعد ، سواء عليه أوجد لها شاهداً من الأحاديث والآثار وكلام العرب أم لم يجد ، وسواء أكان الموضوع متعلقاً تعلقاً مباشراً بالقرآن أم لم يكن كذلك .

وهذا يصبغ الكتاب بصبغة علمية قوية ؛ إذ أن الدليلَ من كتاب الله – تعالى – إذا كانت دلالته واضحة على المراد ، غير مرجوحة ، فإنه يكون فصلاً لايملك أحدٌ ردّه أو تأويله إلا إن كان متعنتاً .

ومن أمثلة جهده وعنائه في استخراج الدليل القرآني ماجاء في الوجه الثلاثين من أوجه الإعجاز وهو :

((اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة)) ، في قسم القول بـ (الموجَب)[1] حيث ذكر أنه قسمان ، وبين أن القسم الآخر منه هو :

((حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله[2] بذكر متعلقه ، ولم أر من أورد له مثالاً من القرآن ، وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى :

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[3]))[4] .

فالسيوطي استدل بهذه الآية على رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، فيجيء خلافَ مراده .

ومما يدل أيضاً على إعمال السيوطيّ ذهنَه في استخراج الآيات مدلِّلاً بها على قواعدَ ، يدل على ذلك قولُه معرفاً الاستخدامَ :

((وله[5] فيه عبارتان :

إحداهما : أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً به أحدُ معانيه ، ثم يُؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخرُ ، وهذه طريقة السكاكي وأتباعه ...

قال : ولم يقع في القرآن على طريقة السكاكيّ .

قلت : وقد استخرجت بفكري آياتٍ على طريقته ، منها قوله :

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾[6] ، فأمر الله يراد به قيام الساعة والعذابُ ، وبعثةُ النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد أريد بلفظه الأخيرُ[7] ، كما أخرج ابن مردويه[8] من طريق

١- هو بفتح الجيم وكسرها ، ومعناه – كما قال السيوطيّ – ((رد كلام الخصم من فحوى كلامه)) ، انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٦١ .

٢- أي مما يحتمله كلامه .

٣- سورة التوبة : آية ٦١ .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١/٤٦١-٤٦٢ .

٥- أي لابن أبي الإصبع كما يفهم من السياق قبله .

٦- سورة النحل : آية ١ .

٧- أي النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم .

٨- الحافظ المجود العلامة ، محدث أصبهان ، أبو بكر أحمد بن موسى بن مَرْدويه الأصبهانيّ ، صاحب التفسير الكبير والتاريخ والأمالي ، وغير ذلك . ولد سنة ٣٢٣ . كان ورعاً ، ديّناً ، وكان من فرسان الحديث ، فهماً ، يقظاً ، متقناً مات سنة عشر وأربعمائة عن سبع وثمانين سنة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٧ / ٣٠٨ - ٣١١ .

الضحّاك [1] عن ابن عباس في قوله : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ ، قال : محمد [2] .
وأعيد الضمير عليه في ﴿تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ مراداً به قيامُ الساعة والعذاب . ومنها ... قوله تعالى :
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [3] .
فإن المراد به آدمُ ، ثم أعيد الضمير عليه مراداً به ولدُه فقال :
﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [4] .
ومنها قوله تعالى :
﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [5] .
ثم قال :
﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [6] أي أشياءَ أخر ؛ لأن الأولِين لم يسألوا عن الأشياء التي سألوا [7] عنها فنُهوا عن سؤالها)) [8] .

هذا طَرَف من جهد السيوطي في الاستدلال بالآيات والعَناء في استخراجها .
هذا ومن المعلوم أن الأئمة السابقين كانوا يذكرون الآية أو طرفها فقط ولايذكرون من أي سورة هي – إلا نادراً – وذلك اعتماداً على أنهم حفاظ يخاطبون حفّاظاً ، غالباً ، وهذا ماجرى عليه الإمام السيوطيّ في كتابه هذا بل في كتبه كلها التي اطلعت عليها ، وتلك كانت عادةَ الأقدمين .

١- الضحّاك بن مزاحم الهلالي ، أبومحمد . كان من أوعية العلم ، وليس بالمجود لحديثه ، وهو صدوق في نفسه . واختلف في لُقيّه ابنَ عباس ، فأكثر نقاد الحديث على أنه لم يَلقه . وكان مقره ببَلْخ وسَمَرْقند . توفي سنة ١٠٢ .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٤ / ٥٩٨ – ٦٠٠ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٤ / ٣٩٧ – ٣٩٨ ، و ((التقريب)): ٢٨٠ ، وقال عنه الحافظ ابن حجر : صدوق ، كثير الإرسال .

٢- تفسير ابن مردويه غير مطبوع وغير مكتمل ، والأثر ضعيف لإرسال الضحّاك ، حيث إن الأرجح أنه لم يلق ابن عباس كما تقدم آنفاً في ترجمته .

٣- سورة المؤمنون : آية ١٢ .

٤- سورة المؤمنون : آية ١٣ .

٥- سورة المائدة : آية ١٠١ .

٦- سورة المائدة : آية ١٠٢ .

٧- أي الصحابة .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٦ – ٣٧٧ .

ثانيا : استدلاله بالأحاديث الشريفة والآثار المطهّرة :

قد أكثر السيوطيّ - رحمه الله تعالى - من إيراد الأحاديث والآثار ، من كتب السنة المتنوعة على مابينته سابقاً [1] .

ولما كان اعتماده - في الأغلب - على حفظه فإنه جاء بهذه الأحاديث والآثار على طرائقَ متنوعة فمن ذلك :

١ - إيراد الحديث أو الأثر مخرّجاً :

قد يورد الحديث أو الأثر بنصه ، مع ذكر راويه الصحابي ، أو مَن دونه من التابعين ، أو من دونهم ، ويعزوه إلى مُخرِّجه ، وهذا كثير مبثوث في كتابه .

- ومن أمثلة **الأحاديث** التي يوردها على هذه الطريقةِ قولُه :
((أخرج أحمد ، وأبو داود[2] في ناسخه[3] ، وسعيد بن منصور وغيرهم عن ابن سعيد الأسدي[4] قال : قال رجل : يارسول الله : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾[5] ،

١- انظر ص ٤٤٣ وما بعدها .
٢- هو الشيخ الإمام سليمان بن الأشعث بن شداد الأزدي السِّجِسْتاني ، شيخ السنة ومحدث البصرة . ولد سنة ٢٠٢ . رحل وجمع وصنف وبرع في علم الحديث . وكان من الفقهاء أصحابِ الإمام أحمد . توفي سنة ٢٧٥ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٢٠٣ - ٢٢١ .
٣- أي كتابه : ((الناسخ والمنسوخ)) .
٤- في ((الإتقان)) : ٢ / ١٩ : أبو رَزِين الأسديّ ، وهو الصحيح كما في سنن البيهقي : ٧ / ٣٤٠ .
وأبو رزين هو مسعود بن مالك الكوفي . تابعيّ ثقة فاضل . مات سنة ٨٥ ، انظر ((التقريب)) : ٥٢٨ .
٥- سورة البقرة : آية ٢٢٩ .

فأين الثالثة ؟ قال : ﴿ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾))[1] [2] .

- ومن أمثلة مايرويه من الآثار على هذه الطريقة قوله :

((أخرج الحاكم عن المقداد[3] ، قيل له : لو قعدت العام عن الغزو ، قال : أبت علينا البَحُوث - يعني براءة ...))[4] [5].

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢١٩ .

قال السيوطيّ : ((وأخرج ابن مردويه والبيهقي عن أنس قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله : إني أسمع الله يقول ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾ ...)) انظر ((الدر المنثور)) : ١/٦٦٤ .

وبالرجوع إلى سنن البيهقي : ٧/٣٤٠ نجد أن البيهقي أخرجه مسنداً عن إسماعيل بن سُميع الحنفي عن أنس ، ثم قال البيهقي : ((كذا قال : عن أنس - رضي الله عنه - والصواب عن إسماعيل بن سميع عن أبي رَزين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مرسلاً ، كذلك رواه جماعة من الثقات عن إسماعيل)) ، ثم ساق البيهقي إسناداً آخر إلى إسماعيل بن سميع عن أبي رَزين .

وقال البيهقي أيضاً : ((وروي عن قتادة عن أنس - رضي الله عنه - وليس بشيء)) ، انظر سنن البيهقي : ٧/٣٤٠ .

لكن تعقبه العلامة ابن التركماني - في ذيل السنن المسمى ((الجوهر النقي)) : المطبوع مع السنن - فقال :

قال [أي البيهقي] : وروي عن قتادة عن أنس وليس بشيء .

قلت : رواه الدارقطني في سننه فقال : الحسين بن إسماعيل ، ثنا عبيدالله بن جرير بن جبلة ، ثنا عبيدالله بن عائشة ثنا حمّاد بن سَلَمة ، ثنا قتادة عن أنس أن رجلاً قال يارسول الله : أليس يقول الله : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾ ... الحديث .

قال ابن القطان : صحيح .

عبيدالله بن محمد بن جعفر يُعرف بابن عائشة : ثقةٌ أحد الأجواد .

وعبيد الله بن جرير بن جبلة بن أبي رواد : قال الخطيب : كان ثقة))

((سنن البيهقي)) : ٧/٣٤٠ ، وانظر ((سنن الدار قطني)) : ٤/٣-٥ .

والحديث أخرجه ابن مردويه بمثل الحديث المسند الذي أخرجه البيهقي عن إسماعيل بن سميع عن أنس ، وانظر تعليق العلامة الآبادي على سنن الدارقطني : ٤/٤ .

أما شيخ الدارقطني : الحسين بن إسماعيل فهو المحامليّ ، وقال عنه الخطيب :

((كان فاضلاً ، صادقاً ، ديناً)) انظر ((تاريخ بغداد)) : ٨/٢٠ .

فالحديث إذاً صحيح إن شاء الله تعالى ؛ إذ أن حمّاد بن سلمة وقتادة من كبار الأئمة ، والله أعلم .

٢- انظر - مزيداً من الأمثلة على ذكر تخريج الأحاديث ، وهي كثيرة - ٢ / ٢٢ ، ٢٠٧ ، ٦١٦ ...

٣- المقداد بن عمرو بن ثعلبة الكنديّ ، رضي الله عنه ، تبناه الأسود بن عبد يغوث الزهري فنسب إليه ، فصار اسمه المقدادُ بن الأسود هو الغالبَ عليه ، من الصحابة السابقين ولم يكن ببدر فارسٌ غيره . مات سنة ٣٣ وهو ابن سبعين سنة ، وخرج حديثه أصحاب الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٥٤٥ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٤٣ .

هذا الأثر أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) - كما ذكر السيوطي - في تفسير سورة التوبة : ٢/٣٦٣ ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الإمام الذهبي ، رحمهما الله تعالى .

٥- ينظر لمزيد من الأمثلة في تخريجه للآثار ، وهي كثيرة - : ٣ / ١٤٣ ، ١٧٠ ، ٢٧١ ، ٥٦٧ ، ٦٤٩ ...

٢ – إيراد الحديث والأثر مع ذكر الراوي فقط :

قد يورد السيوطيّ الحديث أو الأثر ويذكر راويه فقط ولايبين مُخرّجه .

– ومن أمثلة مايذكره من **الأحاديث** على هذه **الطريقةِ** قولُه في **مسائلَ** تتعلق بالعام والخاص :

((وعارضه في ذلك حديث جابر[١]:

((ليس في الحليّ زكاة))[٢]))[٣].

ومن أمثلة ذلك في **الآثار** قوله : ((﴿ حُوبًا ﴾[٤]: بالضم ، والحَوْب – بالفتح – المصدر ، ومعناه : أَثِم إثماً عظيماً ، قال ابن عباس : هو الإثم بلغة الحبشة))[٥] [٦].

١– جابر بن عبد الله بن عمرو بن حَرام الأنصاري الخزرجي ، من أهل بيعة الرضوان . روى علماً كثيراً عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتوفي سنة ٧٨ عن أربع وتسعين سنة ، رضي الله عنه . له رواية في الكتب الستة .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٣ / ١٨٩ – ١٩٤ ، و ((التقريب)) : ١٣٦ .

٢– قال البيهقي في هذا الحديث :

((والذي يرويه بعض فقهائنا مرفوعاً : ((ليس في الحلي زكاة)) لاأصل له ، إنما يُروى عن جابر من قوله غيرَ مرفوع . والذي يُروى عن **عافيةَ بنِ أيوبَ** عن الليث عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً باطلٌ لاأصل له ، وعافية بن **أيوبَ** مجهول ، فمن احتج به مرفوعاً كان مغرراً بدينه ، داخلاً فيما نعيب به المخالفين في الاحتجاج برواية الكذابين ، والله يعصمنا من أمثاله)) : ((معرفة السنن والآثار)) : ٦ / ١٤٤ .

٣– ((معترك الأقران)) : ١ / ٢١٥ .

٤– سورة النساء : آية ٢ .

٥– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٧٤ ، ولمزيد من الأمثلة ينظر : ٢ / ٧٥ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ...

٦– وقد أخرج الأثرَ ابن جرير فقال :

((حدثني المثنى ، قال : حدثنا أبوصالح ، قال : حدثنا معاوية ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ قال : إثما عظيماً)) : ((جامع البيان)) : ٧ / ٥٣٠ .

المثنّى هو ابن إبراهيم **الآمُلي**، كما قال محقق ((جامع البيان)) : ١ / ١٧٦ ، هامش ٢ .

وأبوصالح هو عبد الله بن صالح المصري ، كما قال محقق ((جامع البيان)) : ١ / ١٧٦ هامش (٢) ، وقال عنه ابن حجر : مات سنة اثنتين وعشرين [أي ومائتين] وله خمس وثمانون سنة ، وذكر بأنه صدوق كثير الغلط ، ثَبْتٌ في كتابه . انظر ((التقريب)) : ٣٠٨ .

ومعاوية هو ابن صالح بن حُدَير الحضرميّ ، كما قال محقق ((جامع البيان)) : ١ / ١٧٧ ، وذكر ابن حجر أن معاوية صدوق له أوهام ؛ مات سنة ثمان وخمسين [أي ومائة] ، انظر ((التقريب)) : ٥٣٨ .

علي بن أبي طلحة : مولى بني العباس ، أرسل عن عبد الله بن عباس ولم يره ، مات سنة ٤٣ [أي ومائة] ، انظر ((التقريب)) : ٤٠٢ . وقال السيوطي : ((قال قوم :

لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير . قال ابن حجر : بعد أن عُرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك)) : ((الإتقان)) : ٢ / ١٨٨ .

وهذا الطريق – طريق أبي صالح عن **معاويةَ** عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس – طريق مشهور ، أخرج منها أئمة التفسير كثيراً كابن جرير وابن أبي حاتم بوسائط بينهم وبين أبي صالح . انظر المصدر السابق .

٣ - تخريج الأحاديث والآثار وتحقيقها :

وقد يحكم على الحديث والأثر مع تخريجه ، وهو قليل في كتابه هذا .

- ومن أمثلة حكمه على **الأحاديث** قوله :

((أخرج الإمام أحمد في مسنده ، وابن أبي حاتم وغيرهما من طريق درّاج[1] ، عن أبي الهيثم[2] ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة)) .
هذا إسناد جيد ، وابن حبان[3] يصححه))[4] [5] .

- ومن أمثلة حكمه على الأثر قوله :

((وأخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابن مسعود ، قال :

١- دَرّاج بن سمعان ، أبو السمح ، السهمي بالولاء ، المصريّ ، القاصّ . صدوق ، في حديثه عن أبي الهيثم ضعف ، مات سنة ١٢٦ . انظر ((التقريب)) :٢٠١ .

٢- أبوالهيثم ، سليمان بن عمرو بن عَبْد أو عُبيد ، الليثيّ ، المصريّ . ثقة ، من الطبقة الرابعة . انظر((التقريب)) :٢٥٣ .

٣- الإمام العلامة ، الحافظ المجود ، شيخ خراسان ، أبو حاتم محمد بن حِبّان بن أحمدَ التميميّ الدارميّ البُسْتي ، صاحب الكتب المشهورة .
ولد سنة بضع وسبعين ومائتين ، وحدث عن نفسه أنه كتب عن أكثرَ من ألفي شيخ . توفي بمدينة بُسْت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٦ / ٩٢ - ١٠٤ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٥٦٧ ، وانظر مثالاً آخر في ٣ / ١٠٦ .

٥- قال الهيثمي :
((رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانيّ في الأوسط ، وفي إسناد أحمدَ وأبي يعلى ابنُ لَهيعة ، وهو ضعيف)) :
((مجمع الزوائد)) : ٦ / ٣٢٣ .
وقد وصف السيوطي الإسناد بأنه جيد - كما في متن هذه الصفحة - مع أن الإمام أحمد والإمام الآجُرّيّ قد ذكرا بأن حديث دَرّاج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد فيه ضعف ، انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٣ / ١٨١ .

هو اسم الله الأعظم))[1] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٦ ، والمقصود هنا فواتح السور حيث قيل إنه يؤلف منها اسم الله الأعظم ، انظر ((المعترك)) : ١ / ١٥٥ - ١٥٦ .

وانظر كذلك أثرين آخرين قد حكم عليهما في ١ / ١٩٦ ، ٥٢٠ ، وفي أول الأثر الآخر تحريفٌ ، صحته : ((وفي المستدرك بسند واهٍ عن الحسن ...)) كما في ((الإتقان)) : ٢ / ١٣٨ .

وهذا الأثر أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره حيث ساق بسنده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال عن فواتح السور : ((هي اسم الله الأعظم)) .

ثم ساق سنداً آخر عن ابن مسعود فقال :

حدثنا محمد بن المثنى ، قال:حدثني أبو النعمان ، قال:حدثنا شعبة ، عن إسماعيل السُّدِّيّ ، عن مُرّة الهَمْدانيّ ، قال : قال عبد الله : فذكر نحوه)) . ((جامع البيان)) : ١ / ٢٠٦ .

وبالنظر إلى رجال السند يتضح الآتي :

- محمد بن المثنى هو محمد بن المثنى بن عبيد العَنَزيّ البصريّ = ثقة ثبت . انظر ((التقريب)) : ٥٠٥ .

- أبو النعمان هو محمد بن الفضل السدوسي البصريّ = ثقة ثبت تغير في آخر عمره . انظر ((التقريب)) : ٥٠٢ .

((وقال الدار قطني : تغير بآخره ، وماظهر له بعد اختلاطه حديث منكر ، وهو ثقة)) .

وقال الذهبي : ((القول فيه ماقال الدار قطنيّ)) : ((تهذيب التهذيب)) : ٩ / ٣٥٨ - ٣٥٩ .

- شعبة هو شعبة بن الحجاج بن الوَرْد العَتَكيّ البصريّ : ثقة حافظ متقن ، أمير المؤمنين في الحديث . ((التقريب)) : ٢٦٦ .

- إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّيّ = صدوق يهِم ((المصدر السابق)) : ١٠٨ . وهو من رجال الإمام مسلم ، انظر ((تهذيب التهذيب)) : ١ / ٢٧٤ .

والسدي هذا هو الكبير ، أما الصغير فهو محمد بن مروان ، وهو متهم بالكذب ، انظر ((التقريب)) : ٥٠٦ .

- مُرّة الهَمْدانيّ هو مُرّة بن شراحيل الهمداني = ثقة . ((المصدر السابق)) : ١٠٨ .

فرواة هذا الأثر من الثقات كما مرّ إلا إسماعيل السُّدِّيّ فقيل فيه : صدوق يَهِم .

فالحديث على هذا في مرتبة الحسن إلا أن يكون الحافظ السيوطيّ قد لاحظ أن إسماعيل السُّدِّي من رجال الإمام مسلم فأطلق على سند الحديث أنه صحيح بهذا الاعتبار .

وقد يكون إطلاقه على هذا السند أنه صحيح بالنظر إلى أن له شاهداً آخر عند الطبري وهو ما أخرجه بسنده قائلاً :

((حدثنا محمد بن المثنى ، قال : حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ ، قال : حدثنا شعبة ، قال : سألت السُّدِّيّ عن ﴿ حم ﴾ و ﴿ طسم ﴾ و ﴿ الم ﴾ فقال : قال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم)) ((جامع البيان)) : ١ / ٢٠٦ .

عبد الرحمن بن مهدي : ثقة ثبت حافظ ، كما في ((التقريب)) : ٣٥١ .

والسُّدِّي من الرواة عن ابن عباس كما في ((تهذيب التهذيب)) : ١ / ٢٧٤ .

إذاً استوى الإسنادان في القوّة فيرتقي الحديث إلى أن يكون صحيحاً بهذه المتابعة .

قال ابن الصلاح - رحمه الله تعالى - :

((إذا كان راوي الحديث متأخراً عن درجة أهل الحفظ والإتقان ، غير أنه من المشهورين بالصدق والستر [كما هو حال السُّدِّيّ هنا] وروي مع ذلك حديثه من غير وجه فقد اجتمعت له القوة من الجهتين ، وذلك يُرقي حديثه من درجة الحسن إلى درجة الصحيح)) : ((مقدمة ابن الصلاح)) : ١٠٨ .

٤ – إيراد الحديث والأثر بالسند :

قد يورد السيوطي الحديث والأثر بالسند المتصل من مُخَرِّجه إلى راويه .

– ومن أمثلة ماساقه من **الأحاديث** بالسند المتصل – وهو نادر – **قوله** :

((وقال[١] : حدثنا عبد الله بن صالح[٢] ، عن هشام بن سعد[٣] ، عن زيد بن أسلم[٤] ، عن عطاء بن يسار[٥] ، عن أبي واقد الليثيّ[٦] ، قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أُوحي إليه أتيناه فعلّمَنا مما أُوحي إليه ، قال : فجئت ذات يوم فقال :

((إن الله يقول : إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم وادياً لأحب أن يكون إليه الثاني ، ولو كان له الثاني لأحب أن يكون له الثالث ، ولايملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب))))[٧] .

– ومن أمثلة ماذكره من **الآثار** بالسند المتصل – وهو قليل – **قوله** :

١– أي أبوعُبيد ، القاسم بن سلام ، كما في السياق قبله ، وقد أخرجه أبوعبيد في ((فضائل القرآن)) : ١٩٢ باختلاف يسير في ألفاظ الحديث .

٢– قد سبق أنه كاتب الليث ، وأنه صدوق كثير الغلط ، ثَبْتٌ في كتابه . انظر ((التقريب)) : ٣٠٨ .

٣– هشام بن سعد المدني ، أبوعباد . صدوق له أوهام ، ورُمي بالتشيع . مات سنة مائة وستين أو قبلها ، وهو من رجال مسلم . انظر ((التقريب)) : ٥٧٢ .

٤– زيد بن أسلم العدويّ ، أبو عبد الله المدنيّ ، مولى عمر . ثقة عالم ، وكان يرسل . مات سنة ست وثلاثين ومائة . انظر ((التقريب)) : ٢٢٢ .

وقد ذكر ابن حجر جماعة ممن كان زيد بن أسلم يرسل عنهم ليس فيهم عطاء بن يسار ، انظر ((التهذيب)) :٣ / ٣٤٢ .

٥– عطاء بن يسار الهلالي ، أبومحمد المدني ، مولى أم المؤمنين ميمونةَ بنتِ الحارث الهلالية ، رضي الله عنها . ثقة فاضل ، صاحب مواعظ وعبادة .مات سنة أربع وتسعين ، وقيل بعد ذلك . انظر ((التقريب)) : ٣٩٢ ، و((تهذيب التهذيب)): ٧ / ١٩٤ .

٦– صحابي كريم ، قيل : اسمه الحارث بن مالك ، وقيل غير هذا ، مات سنة ثمان وستين وهو ابن خمس وثمانين سنة . انظر ((التقريب)) : ٦٨٢ .

وهذا الحديث – بهذا الإسناد – حسنٌ ، والله أعلم .

٧– ((معترك الأقران)) : ١ / ١٢٥ – ١٢٦ .

((قال البيهقيّ في ((شعب الإيمان))[1] :

أخبرنا أبوالقاسم بن حبيب[2] ، حدثنا محمد بن صالح بن هانئ[3] ، حدثنا الحسين بن فضل[4] ، حدثنا عفان بن مسلم[5] ، عن الربيع بن صَبيح[6] عن الحسن[7] قال : أنزل الله مائة وأربعة كتب ...))[8] .

٥ - إيراد الحديث والأثر مجرداً من التحقيق والتخريج وذكر الراوي :

قد يورد السيوطيّ الحديث والأثر خالياً من كل ماسبق فلا يذكر راويه ولا من خرَّجه ولادرجته وإنما يكتفي بقوله : ورد في الحديث ، أو ورد في الأثر ، أو قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ونحو هذا ، وذلك نحو قوله :

((﴿ٱلْخَيْرِ﴾[9] : الخيل ، سميت بذلك لما فيها من المنافع ، وفي الحديث :

١- ٥ / ٣٠٨ - ٣٠٩ .

٢- لم أجد له ترجمة .

٣- لم أجد له ترجمة ، وإنما ذكر الإمام الذهبي أن محمد بن صالح بن هانيء ممن روى عن الحسين بن فضل ، انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٤١٤ - ٤١٦ .

٤- الحسين بن فضل بن عُمَير النيسابوريّ . العلامة المفسر ، الإمام اللغوي المحدث ، أبوعلي البَجَليّ . ولد قبل الثمانين ومائة . توفي سنة ٢٨٢ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٤١٤ - ٤١٦ .

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في ((لسان الميزان)) أن الأولى ألايذكر هذا الرجل في ((الميزان)) - ((ميزان الاعتدال)) للإمام الذهبيّ - وذلك لجلالته وكونه من كبار أهل العلم والفضل . انظر ((لسان الميزان)) : ٢ / ٣٧٥ - ٣٧٦ . وإنما قال ابن حجر ذلك لضعف أكثر رجال ((الميزان)) .

٥- عفّان بن مسلم بن عبد الله الباهليّ ، أبوعثمانُ الصفّار البصريّ ، من رجال الكتب الستة . ولد سنة ١٣٤ ، ومات سنة ٢٢٠ ، وهو ثقة ثبت . اختلط قبل موته بأيام . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٧ / ٢٠٥ - ٢٠٩ ، و ((التقريب)) : ٣٩٣ .

٦- الربيع بن صَبيح السعديّ البصريّ ، أبو حفص ، من موالي بنى سعد .كان من العباد الزهاد . وهو أول من صنف بالبصرة . أمّا في الحديث فهو صدوق سيء الحفظ . خرج غازياً إلى السند فمات في البحر ، فدفن في جزيرة ، وذلك سنة ١٦٠ . انظر ((التهذيب)) : ٣ / ٢١٤ - ٢١٥ ، و ((التقريب)) : ٢٠٦ .

٧- الحسن بن أبي الحسن البصريّ ، تقدمت ترجمته،وهو ثقة مشهور .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٨ ، وقد حكم محقق ((شعب الإيمان)) بأن إسناد هذا الأثر لابأس به ، انظر((الشعب)): ٥ / ٣٠٨ .

وانظر كذلك آثاراً أخرى مذكورة بأسانيدها في ١ / ١٢٤ - ١٢٥ ، ٢ / ٢٥٨ .

٩- سورة ص : آية ٣٢ .

((الخير معقود في نواصي الخيل))[1] ...))[2] .

ونحو قوله :

((وهذا كما جاء في الأثر أن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه ، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه))[3] .

ونحو قوله :

((... وهي صلاح الدين والمعاد التي جمعها قوله - صلى الله عليه وسلم - ((اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي)) ...))[4] .

٦ - إدراج الحديث والأثر في الكلام :

وقد يحكي الحديث أو الأثر مجرداً عن كل ماسبق ، مُدرجاً في الكلام فيبدو كأنه كلام مقصوص ، فلا يُدرى أنه حديث أو أثر إلا بسبب سوق الغيبيات التي لابد أن تكون منتزعة من نقلٍ ما ، وذلك نحو كلامه على قوله تعالى :

١- قال الهيثميّ : ((رواه أبو يعلى والطبرانيّ في الأوسط [عن أبي هريرة] ورجاله رجال الصحيح)) : ((مجمع الزوائد)) : ٥ / ٢٦٢ .

وقد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة : باب فضيلة الخيل ، وأن الخير معقود بنواصيها : ١٣ / ١٦ عن عُروة البارقيّ - رضي الله عنه - بلفظ ((الخير معقوص بنواصي الخيل)) ، ومعقوص بمعنى معقود .

وأخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد والسير : باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة : ٤ / ٣٣ - ٣٤ بلفظ : ((الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)) .

وأخرج الحديثَ غيرُهم.

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٤١ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ /٥٥٢ .

وهذا الأثر أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب الدعوات : باب التوبة : ٨ / ٨٣ - ٨٤ عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - موقوفاً ، قال :

((إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا ، قال أبو شهاب بيده فوق أنفه)) .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٧٣ .

وهذ الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار : بابٌ في الأدعية ، وأخرجه غيره .

﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾[1] فإنه قال :

((أي تقرن السماوات والأرض بعضها إلى بعض – كما تبسط الثياب – فذلك عرض الجنة ، ولايعلم طولَها إلا الله ؛ لأن الله قال لها امتدي فامتدّت ، ثم قال لها : امتدي فامتدت ، ثم قال لها : امتدي فامتدت ، قالت : إلى أين يارب ؟ قال : إلى منتهى رحمتي فقالت : لامنتهى لرحمتك ، فقال لها : ولامنتهى لك))[2] .

فالسيوطيّ قد أدرج أثرين في ثنايا حديثه :

أما الأول : فقد أخرج نحوَه ابن جرير الطبريّ – رحمه الله تعالى – حيث قال :حدثني محمد بن الحسين[3] ، قال : حدثنا أحمد بن المفضل[4] ، قال : حدثنا أسباط[5] ، عن السُّدِّيّ[6] : ((وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ)) قال :

قال ابن عبّاس : تُقرن السماوات السبع والأرَضون السبع كما تقرن الثياب بعضها إلى بعض فذاك عرض الجنّة))[7] .

١- سورة آل عمران : آية ١٣٣ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٦٣١ .

٣- هو الشيخ محمد بن الحسين بن موسى الكوفيّ . صدوق . وقد ذكر ابن أبي حاتم أنه روى عن أحمد بن المفضّل الآتي في سياق السند . انظر ((الجرح والتعديل)) : ٧ / ٢٣٠ .

٤- أحمد بن المفضَّل القرشي الأمويّ ، أبو علي الكوفيّ الحَفَريّ . صدوق شيعيّ ، في حفظه شيء . مات سنة ٢١٥ . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ١ / ٧٠ ، و ((التقريب)) : ٨٤ .

٥- المقصود – هنا – أسباط بن نصر لأنه هو الذي روى عن أحمد بن المفضل – كما في ((تهذيب التهذيب)): ١/ ٧٠ ، ١٨٥ . وهو أسباط بن نصر الهَمْداني ، أبو يوسف وأبو نصر . من رجال الإمام مسلم . وهو صدوق كثير الخطأ ، يُغرب . من الطبقة الثامنة [وهم الطبقة الوسطى من أتباع التابعين كما في ((التقريب)) : ٧٥] . انظر ((التقريب)) : ٩٨ .

٦- المقصود – هنا – هو إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّيّ الكبير ، وهو صدوق يَهِم ، تقدمت ترجمته .

٧- ((جامع البيان)) : ٧ / ٢٠٧ . أما الحكم على هذا الأثر فهو أثر حسن ، إن شاء الله ؛ لأن رواته كلهم عدا ابن جرير – رحمه الله تعالى – قيل فيهم : صدوق .
ولو احتج أحدٌ على ضعف الحديث بما قيل في أسباط إنه صدوق كثير الخطأ ، وبما قيل في إسماعيل السُّدّي إنه صدوق يَهِم لقيل لهذا المحتج إنهما من رجال الإمام مسلم وقد احتج بهما .
وإليك كلام الحاكم – رحمه الله تعالى – في إسماعيل السُّدّي وإخراج الإمام مسلم لحديثه ، أنقله من كلام ابن حجر :
((قال الحاكم في ((المدخل)) في باب الرواة الذين عِيب على مسلم إخراجُ حديثهم :
((تعديل عبد الرحمن بن مهدي [أي للسُّدّيّ كما في السياق قبله] أقوى عند مسلم ممن جرحه بجرح غير مفسَّر)) :
((تهذيب التهذيب)) : ١ / ٢٧٤ .

أما الأثر الآخر الذي أورده عن امتداد الجنّة وتكليم الرب - جلّ وعلا - لها فإني لم أجده بعد طول بحث ، وا لله أعلم .

ثالثاً : استشهاده بالإسرائيليات[1] :

أكثر السيوطيّ - رحمه ا لله تعالى - من الاستشهاد بالإسرائيليات ، وهي ماروي عن أهل الكتابين ، ((من باب التغليب للجانب اليهودي على الجانب النصرانيّ ؛ فإن الجانب اليهوديّ هو الذي اشتهر أمره فكثر النقل عنه))[2] ؛ وذلك لأن أصل النبوة كان في بني اسرائيل ، ومنهم جاء الأنبياء حتى عيسى عليهم الصلاة والسلام جميعاً .

وقد أجاز لنا النبيّ الكريم - صلى اللـه عليه وسلم - الرواية عنهم بقوله : ((حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج))[3] ، وقد وضع العلماء شروطاً لهذه الرواية موجودة في مظانّها ، وألخصها بالآتي :

١ - ألاتكون الآثار المروية عنهم متعلقة بالعقيدة أو الأحكام الشرعية .
٢ - ألايُعلم كذبُ هذا الأثرِ الإسرائيليّ المرويّ عنهم .
٣ - ألانصدقهم ولانكذبهم فيما لانعرف صدقه أو كذبه .
٤ - لاحرج في تصديقهم فيما يوافق شرعنا ، أو تكذيبهم فيما يخالف شرعنا الثابت[4] .

ويظهر استشهاد السيوطيّ بالإسرائيليات واضحاً في الوجه الثالث والثلاثين من وجوه الإعجاز ، وهو : ((ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها)) حيث عين أسماء المسميات المبهمات الاسم في كتاب ا لله تعالى ، ولايخفى أن طريقه إلى ذلك هو أخبار

١- قد كان الأول والثاني هما استشهاد السيوطي بالآيات ، وبالأحاديث والآثار .

٢- ((التفسير والمفسرون)) : ١ / ١٦٥ .

٣- أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب الأنبياء باب ماذكر عن بني إسرائيل ٤ / ٢٠٧ .

٤- انظر ((التفسير والمفسرون)) : ١ / ١٦٥ - ١٧٣ ، و ((مقدمة في أصول التفسير)) : ١٠٠ - ١٠١ .

بني إسرائيل ؛ حيث إن الشارع الحكيم قد أخفى أسماءها لحكم قد يكون منها أن تُطلب العبرة من الحدث والخبر نفسِه ، فإن هذا هو أهم جانب في القَصص ، أما الأسماء المبهمات من إنس وجن وحيوانات وطيور وجمادات فإن هذا مما لم تُعْنَ به هذه الشريعة الخاتمة الحكيمة .

ويظهر استشهاده بالإسرائيليات - أيضاً - في مواضعَ مبثوثة في كتابه ، منها :
ماذكره عن زكريّا - عليه الصلاة والسلام - أنه ((كان من ذرية سليمانَ بنِ داود - عليهما السلام ، وقُتل بعد قتل ولده يحيى ؛ وذلك أنه هرب من اليهود فقفوا أثره فلما دنوا منه رأى شجرة فقال لها : اكتميني ، فانشقت الشجرة فدخل فيها ثم التأمت عليه فجاؤوا فلم يجدوه ، فقال لهم إبليس : هو في هذه الشجرة ، فأتوا بمنشار وشقوها على نصفين ، فلما بلغ المنشار إلى أم رأسه صاح وتأوّه ، فتزلزل الملكوت فنزل عليه جبريل وقال : يازكريا إن الله - تعالى - يقول لك : لئن قلت آه مرةً أخرى لأمحونّك من ديوان الأنبياء ، فعضّ زكريا على شفتيه حتى شقوه بنصفين))[1] .

وكثير من أخبار الأنبياء التي أوردها في كتابه هي من أخبار بني إسرائيل[2] .
وقد ينسب الإمام السيوطي هذه الأخبار إلى مصدرها ، والأكثر أنه لايعزوها .
فمن الأمثلة على مايعزوه إلى مصدره قوله :
((وفي ((شعب الإيمان)) للبيهقيّ ، عن وهب بن مُنَبِّه[3] :
إذا قامت القيامة أُمر بالمِغْلَق فيُكشف عن سقر وهو غطاؤها ، فيخرج منه نار ، فإذا وصلت إلى البحر المطبق على شفير جهنم - وهو بحر البحور - نَشَفَتْه أسرع من طرفة

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٤٠ .

٢- انظر - مثالاً - المصدر السابق : ٢ / ٥٥٩ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٦٠٥ - ٦٠٦ .

٣- وهب بن مُنبِّه بن كامل ، الإمام العلامة ، الأخباري القَصصيّ ، أبو عبد الله ، اليمانيّ الذّماريّ الصنعانيّ . ولد سنة أربع وثلاثين . روايته قليلة ، وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات وصحائف أهل الكتاب . وكان ثقة . مات سنة أربع عشرة ومائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٤ / ٥٤٤ - ٥٥٧ .

عين ، وهو حاجز بين جهنم والأرَضين ، فإذا نشفت الأرَضين السبع فتدعها جمرة واحدة))[1] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٦٣٢ .

وقد أخرجه الإمام البيهقي - رحمه الله تعالى - في ((شعب الإيمان)) : الشعبة التاسعة : باب في أن دار المؤمنين ومآبهم الجنة ، ودار الكافرين ومآبهم النار : ٢/٢٤٩ - ٢٥٠ ، فقال :

أخبرنا أبوالحسن المقرئ ، أخبرنا الحسن بن محمد بن إسحاق ، أنبأنا محمد بن أحمد بن البراء ، حدثنا عبد المنعم بن إدريس ، حدثني أبي ، عن وهب بن منبه قال :

إذا قامت القيامة وقضى الله بين أهل الدارين ، أمر بالغَلَق [في المطبوعة : الفلق ، والوجه ماأثبتُّ] ، فيُكشف عن سقر ، وهو غطاؤها ، فتخرج منه نار فتحرق نار جهنم وتأكلها ، كما تأكل النار في الدنيا القطن المندوف [المقطوع] ، فإذا وصلت البحر المطبق على شفير جهنم - وهو بحر البحور - نَشَفَتْه أسرع من طرفة العين نَشْفاً فينضب كأن لم يكن مكانه ماءٌ قطُّ ، وهو حاجز بين جهنم والأرَضين السبع ، فإذا نشفت ماءَ ذلك البحر اشتعلت في الأرَضين السبع فتدعها جمرة واحدة)) .

والسيوطي قد تصرف في النقل باختصار فالتبس المعنى قليلاً .

ومحقق ((الشعب)) قد حكم على الأثر بأن إسناده ضعيف حداً لضعف عبد المنعم بن إدريس واتهامه بالكذب ، وضعف أبيه ، انظر ((الشعب)) : ٢/٢٤٩ ، وانظر ((ميزان الاعتدال)) : ٢ / ٦٦٨ ، ١ / ١٦٩ .

رابعاً : الاستشهاد بما في بعض الكتب السماوية المنزّلة

يورد السيوطيّ – رحمه الله تعالى – مقاطع كثيرة من بعض الكتب السماوية ، وهو في صنيعه ذلك لايذكر ماهي تلك الكتب ، ولا المصدرَ الذي أوردها منه – إلا نادراً – ، فمن ذلك قوله :

((وفي التوراة :

يا ابن آدم أظهرت الذنوب معي وأخفيتها عن الخلق ، وأبديت الحسناتِ لخلقي و لم تُخلصْها لي ، وأكلت رزقي و لم تشكرني ، وبارزتني بالمعاصي و لم تستحِ مني ، و لم تحْذرني ...)) [1] .

ومنه – و لم أر مثالاً ثالثاً – قوله : ((وقيل : أربع كلمات في أربعة كتب : في (التوراة) : الحسود يموت كمداً ، وفي (الإنجيل) : البخيل تأكل ماله العِدا ، وفي (الزبور) : الظالم لايُفلح أبداً ، وفي الفرقان : ﴿ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾)) [2] .

ولعلّ ماأورده لايخرج عن المصادر التالية :

١ – أخبار بني إسرائيل المبثوثة في كثير من الكتب المؤلفة قبل السيوطي ، وقد تكلمت عليها آنفاً .

٢ – بعض كتب وأسفار اليهود والنصارى المترجمة إلى العربية مثل التوراة – وقد ذكرت مَثلين منها آنفاً – والإنجيل ، على مافيهما من تحريف ، والتلمود اليهوديّ وغيرها .

ومثال ماأورده عن هذه الكتب – مبهماً إياها – قوله :

((يقول الله – تعالى – في بعض الكتب المنزّلة :

طلبت من خلقي الطاعةَ لي والزهادة في أعدائي فلم يفعلوا ، ثم طلبت منهم إعانة الزهاد من أهل طاعتي فلم يفعلوا ، فقلت لهم : ارضوا عنهم فلم يفعلوا ، فقلت لهم :

١– ((معترك الأقران)) : ٣ /١٥ .

٢– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥٦٥ ، والآية من سورة الأعراف : ٥٨ .

لاتمنعوهـم منهـا[1] إذاً ، فمنعوهـم ، فقلـت لهـم : لاتَدْعوهـم إلى مـالأيُرضيني ، ولاتعادوهم عليها إن لم يتابعوكم ففعلوا[2] ، وصاروا عندهم أنـتنَ مـن جيفـة حمـار ، فكيف أقدس أمة هذه أفعالهم))[3] .

ويغلب على الظن أن هذا من بعض أسفار أهل الكتاب ، وهـي كثـيرة ، فـإن هذا الأسلوبَ يشبه أسلوبها ، والله أعلم .

خامساً : الاستشهاد بالموضوعات

مرّ في فصل سابق تفصيل استشهاد الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - بـ (الموضوعات) عند ذكر السلبيات والمآخذ في كتابه ، فليُنظر هنالك[4] .

١- كأن في السياق سقطاً هنا ؛ إذ لايُتبين مرجع الضمير من ((منها)) ، والله أعلم .

٢- أي خالفوا وفعلوا مانهوا عنه .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٤٢١ - ٤٢٢ .

٤- انظر ص ٢٩٩ وما بعدها .

عدد الأحاديث والآثار التي أوردها الحافظ السيوطي في كتابه

قد استشهد السيوطيّ - رحمه الله تعالى - بعدد ضخم من الأحاديث والآثار بلغت خمسةً وتسعين ومائةً وألفَ حديث : (١١٩٥) ، وهي تنقسم إلى الآتي :

أولاً : الأحاديث الشريفة :

أورد السيوطي - رحمه الله تعالى - ثمانيةً وتسعين ومائتي حديث : (٢٩٨) مَعْزُوَّةً إلى مخرجيها[١] .

وأورد ثلاثة وستين وثلاثمائة حديث : (٣٦٣) غير معزوّة[٢] .

فمجموع ماأورده من أحاديث يبلغ واحداً وستين وستمائة حديث : (٦٦١)

وهذه الأحاديث تنقسم إلى أحاديثَ قد حكم عليها ، وأحاديث لم يحكم عليها - وهي الأعم الأغلب - كما ذكرت سابقاً[٣] .

ثانياً : الآثار :

قد أورد السيوطيّ ثلاثة وخمسين ومائتي أثر : (٢٥٣) عازياً إلى مُخرجيها[٤] ، وأورد واحداً وثمانين ومائتي أثر : (٢٨١) غير معزوّة[٥] .

فبلغ مجموع هذه الآثار أربعة وثلاثين وخمسمائة أثر : (٥٣٤) .

١- انظر - مثالاً - : ١ / ١٤ ، ١٥ ، ٤٠ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ....
وانظر : ٢ / ٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ...
وانظر : ٣ / ١٠٢ ، ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٦٣ ...

٢- انظر - مثالاً - ١ / ٧٣ ، ٧٧ ، ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ...
وانظر : ٢ / ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ٢١ ...
وانظر : ٣ / ٧ ، ١٣ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٥ ...

٣- انظر ص ٤٧٨ .

٤- انظر - مثالاً - : ١ / ١٤ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٧٨ ، ٩٥ ، ٩٧ ...
وانظر : ٢ / ١٢ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٢٧ ...
وانظر : ٣ / ١٤٣ ، ١٧٠ ، ٢٠٢ ، ٢٤٣ ...

٥- انظر - مثالاً - : ١ / ٢٤٥ ، ٤٧٣ ، ٤٩٦ ...
وانظر : ٢ / ٣٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ...
وانظر : ٣ / ٣١ ، ٣٣ ، ٥٤ ...

وهو لم يحكم إلا على القليل مماأورده من هذه الآثار ، مثلما صنع في الأحـاديث النبويـة الشريفة ، وقد بينت ذلك سابقاً[1] .

وهذا العدد من الآثار لايشمل مانقله السيوطيّ من أخبار بـني إسـرائيل ، أو مـن بعض الكتب السماوية ، وهو عدد كبير .

وإيراد مثل هذا العددِ الكبير مـن الأحـاديث والآثـار في كتـاب واحـد يعـد مـن حسنات الكتاب وأوجه القوة فيه - كما ذكرت سابقاً[2] - خاصة أن تلك الأحـاديثَ والآثار لاتخلو من إحدى الحالات الآتية :

١ - أن يكون السيوطي قد حكم عليها .

٢ - أو أن يكون ذكر مخرجها ، وقد صنع هذا في قرابة نصف عدد الآحاديث والآثـار التي أوردها ، كما بينت من قبل[3] .

٣ - أو أن يجمع بين الحكم والتخريج .

٤ - أو أن يغفل الحكم والتخريج ، لكن كثيراً منها مشهور معروف .
فورود مثل هذه الأحاديثِ والآثار على الصفة المذكورة يثري الكتاب ويدعم مباحثه .

١- انظر ص ٤٧١ .
٢- انظر ص ٢٩١ .
٣- انظر ص ٤٦٨ .

مدى مطابقة الأحاديث والآثار لموضوع الكتاب (الإعجاز) :

الملاحظ أن عدداً كبيراً من الأحاديث والآثار التي ساقها السيوطيّ ليس ذا صلة مباشرة بإثبات الإعجاز وتبيانه ، إنما جاء بكثير منها في ثنايا التفسير ، ومباحث الأصول ، ومبحث توضيح المبهمات إلخ ... فلا يقال إذاً إن تلك الأحاديثَ والآثار الكثيرة كانت كلها مسوقة لبيان الإعجاز ، إنما يتعلق منها بالإعجاز ماكان الموضوع الواردةُ هي فيه متعلقاً بالإعجاز تعلقاً مباشراً أو غير مباشر ، والله أعلم .

معلوم أنه لابد لمريد تفسير القرآن ، أو المتعرض لشرح ألفاظه لابد له من فهم اللغة العربية على وجه يمكنه معه أن يتصدّى لهذا الأمر ، وقد كانت للسيوطي المكانةُ الكبرى في اللغة ، ظهر ذلك في مصنفاته التي وضعها في اللغة فصارت مراجعَ لمن جاء بعده من العلماء ، منها ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) ، و ((جمع الجوامع)) ، و ((الأشباه والنظائر)) ، وغير ذلك من المصنفات الجليلة .

وقد ظهر جلياً تفوقه في هذا الجانب من خلال تعرضه لمباحثَ لغويةٍ كثيرة في ثنايا كتابه ، فمنها :

أ – النحو :

قد كان لمباحث النحو قدر بارز في كتاب السيوطي – رحمه الله تعالى – فمن هذه المباحث أنه أكثر من ذكر الأوجه الإعرابية للألفاظ القرآنية ، فمن ذلك قوله عند تعرضه لشرح قوله تعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[1] :

((أي مثل هذه الفعلة العجيبة يفعل مايشاء ، فالكاف لتشبيه أفعاله العجيبة بهذه الفعلة ، والإشارة إلى هبة الولد لزكرياء ، واسم ﴿ ٱللَّهُ ﴾ مرفوع بالابتداء ، و﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ خبره فيجب وصله معه .

وقيل إن الخبر ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ويُحمل ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ على وجهين :

أحدهما : أن يكون في موضع الحال من فاعل يفعل ، والآخر أن يكون في موضع خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر كذلك ، أو أنتما كذلك ، وعلى هذا يوقف على

١- سورة آل عمران : آية ٤٠ .

﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ ، والأوّل أرجح ؛ لاتصال الكلام ، وارتباط قوله : ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ مع ماقبله ، ولأن له نظائرَ كبيرةً في القرآن منها قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾[1]))[2] .

ومن مباحث النحو التي أوردها حروف الجر ومعانيها ، وأدوات الشرط ، والجزم ، والنصب ، والحروف والأفعال الناسخة .

وقد توسع في بعض تلك المباحث توسعاً كبيراً ، وذلك نحو حرف (اللام) ، وحرفا : (لو) و (لولا) في فصل اللام ، فقد أورد الكلام على هذه الأحرف الثلاثة في نحو عشرين صفحة من المطبوع[3] .

ب – الصرف[4] :

وذلك نحو قوله في شرح قوله تعالى :

﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾[5] حيث قال :

((﴿ تترا ﴾ وزنه (فعلى) ، ومعناه : التواتر والتتابع ، وهو موضوع موضعَ الحال : أي متواترين واحداً بعد واحد ، فمن قرأه بالتنوين فألفه للإلحاق[6] ، ومن قرأه بغير

١- سورة هود : آية ١٠٢ .

٢- وانظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٦٤ - ١٦٥ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٣٩ - ٢٥٩ .

٤- هو ((علم بأصول تُعرف بها أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب)) : ((شرح شافية ابن الحاجب)) : ١ / ١ .

٥- سورة المؤمنون : آية ٤٤ .

٦- الإلحاق المقصود هنا هو الإلحاق الصَّرفيّ وهو ((جعل مثال على مثال أَزْيَدَ منه ليعامل معاملته في التصريف)) : ((المغني في تصريف الأفعال)) : ٥٩ .

((وإن نُوِنت الكلمة في لغة ولم تنون في لغة أخرى فهي [أي الألف] للتأنيث عند من لم ينون ، وللإلحاق عند من ينون مثل ﴿ تترى ﴾ – من المواترة وهي المتابعة – ... قرئ في السبعة بتنوين ﴿ تترا ﴾ وبغير التنوين)) : المصدر السابق : ٦٦ .

أي أن أصل الكلمة – على أن الألف للإلحاق ، وإنما أضيف لها ألفٌ إلحاقاً لها بكلمة أخرى لتعامل معاملتها ، ومثلوا لهذه الكلمة الأخرى بـ (أَرْطى) : شجر ينبت في الرمل . المصدر السابق : ٦٥ .

والكلمة على وزن (فَعْلى) ، فتحتمل ألفها أن تكون للتأنيث فلا تنوين فيها حينئذٍ لأنها ممنوعة من الصرف ، وتحتمل أن تكون للإلحاق – كما مرّ – فلا تكون الكلمة مؤنثة هنا وإنما هي مصدر لحقته ألف الإلحاق على قلة وندرة . انظر ((البحر المحيط)) : ٦ / ٣٩٣ - ٣٩٤ .

تنوين فألفه للتأنيث و لم ينصرف[1] ؛ وتأنيثه لأن الرسل جماعة[2] ، والتاء الأولى فيها بدل من الواو ، وهي فاء الكلمة[3]))[4] .

ومن المباحث الصرفية التي ساقها قوله في شرح قوله تعالى﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾[5] :

((﴿ حَمِئَةٍ ﴾ : و ﴿ حَامِيَة ﴾ و ﴿ حَمِيَةٍ ﴾ : حارة ، وقرئ بالهمز على وزن (فَعِلَة) أي ذات حَمَأة[6] ، وقرئ بالياء على وزن (فاعله)[7] ... ويحتمل أن تكون[8] بمعنى ﴿ حَمِئَةٍ ﴾[9] ولكن سهلت همزته[10] فيتفق معنى القراءتين ، وقد قيل : يمكن أن يكون فيها حمأة وتكون حارة لحرارة الشمس فتكون جامعة للوصفين ، ويجتمع معنى القراءتين[11]))[12] .

١- وإنما لم تنصرف الكلمة - أي لم تنون - لأن التأنيث علةٌ كافية في المنع من الصرف .

انظر ((شرح قطر الندى)) : ٤١٩، ٤٢٦ .

٢- لأن جموع التكسير مؤنثة ، والرُّسُل جمع تكسير ، انظر ((معجم النحو)) : ١٣٦ .

٣- لأن أصل الكلمة (وَتَرَ) ومصدرها (وَتْراً) ، والواو هنا فاء الكلمة فكذلك التاء المبدلة عنها .

٤- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٨ - ١٩ .

٥- سورة الكهف : آية ٨٦ .

٦- أي ذات طين أسود منتن ، انظر ((لسان العرب)) : (ح م أ) .

٧- وهما القراءتان الصحيحتان المتواتران ، انظر ((النشر)) : ٢ / ٣١٤ .

٨- أي قراءة ﴿حَامِيَة ﴾ .

٩- في المطبوع ((حمية)) ولايستقيم المعنى بها .

١٠- أي سهلت الهمزة من ((حَمِئة)) فأصبحت : ((حَمية)) والتسهيل هنا بمعنى الإبدال ؛ إذ التسهيل يأتي بمعنى نطق الهمزة بصفة بين الهمزة وحركتها ، ويقيد عادة بأن يُقال : التسهيل بَيْن بَيْن ، وقد يطلق وهو الأكثر في كلام المصنفين في القراءات .

ويأتي التسهيل - أيضاً - بمعنى إبدال الهمزة حرفَ مد من جنس حركتها ، وهو المراد هنا ، وانظر هامش رقم (١١) الآتي .

والأحسن أن يُقال في مثل هذا الموضع : ((أبدلت همزته)) عوضاً عن : ((سهلت همزته)) لما فيها من اللَّبس ، والله أعلم .

١١- قال أبوحيان : ((قال أبوحاتم : وقد يمكن أن تكون ﴿ حَامِيَة ﴾ مهموزة بمعنى ذات حمأة ، فتكون القراءتان بمعنى واحد ، يعني أنه سهلت الهمزة بإبدالها ياءً لكسرة ماقبلها...)) : ((البحر المحيط)) : ٦ /١٥٩ .

١٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٦٩ ، وانظر مثالاً آخر على المباحث الصرفية في : ٢ / ٣٣٢ .

جـ – علوم البلاغة : المعاني والبيان والبديع :

قد كان لهذه العلومِ اللغوية نصيبٌ وافر في كتاب السيوطيّ – رحمه الله تعالى – **ففي علم المعاني** أورد عدة أوجه عدها من وجوه الإعجاز ، وهي :

١ – الوجه الثاني عشـــــر : إفادة حصره واختصاصه[١] .

٢ – الوجه السادس والعشرون : إيجازه في آية وإطنابه في أخرى[٢] .

٣ – الوجه الثامن والعشرون : احتواؤه على الخبر والإنشاء[٣] .

وفي علم البيان أورد الأوجه التالية – التي عدّها من وجوه الإعجاز –وهي :

١ – الوجه الثالث والعشرون : وقوع الحقائق والمجاز فيه[٤] .

٢ – الوجه الرابع والعشرون : تشبيهه واستعاراته[٥] .

٣ – الوجه الخامس والعشرون : وقوع الكناية والتعريض فيه[٦] .

وأمّا علم البديع فقد أفرد له الوجه السابع والعشرين : وقوع البدائع البليغة فيه[٧] .

وقد سبق الكلام على هذه الأوجه البلاغية[٨] .

د – لهجات العرب والمعرّب :

قد أفرد السيوطيّ – رحمه الله تعالى – لهذا المبحثِ الوجهَ الثالث عشر من وجوه الإعجاز : احتواؤه على جميع لغات العرب[٩] .

وقد سبق الكلام على هذا المبحث[١٠] .

١– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨١ .

٢– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٣ .

٣– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٢٠ .

٤– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٦ .

٥– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٦٩ .

٦– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨٦ .

٧– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧٣ .

٨– انظر الصفحات : ٣٦٦ ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ من هذه الرسالة على التوالي .

٩– انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٩٥ .

١٠– انظر ص ٣٦٨ وما بعدها من هذه الرسالة .

المبحث الخامس : منهجه في تأصيل القضايا الشرعية

هذا الكتاب : ((معترك الأقران)) كتاب جليل ، من يشتغل فيه وفي مدارسته ينل علماً متنوعاً ؛ فقد امتلأ بعدد وافر من القضايا الشرعية المتنوعة في شتى شعب الشريعة الإسلامية مثل : العقيدة ، والتفسير ، والقراءات ، والتجويد ، والفقه ، إلخ ...

وسأذكر - إن شاء الله تعالى - منهجه في هذه القضايا الشرعية ، مرجئاً مناقشةَ بعض مسائلها التي تحتاج إلى نقاش مطوّل إلى الفصل الثالث القادم ، وهو : دراسة أهم القضايا العلمية التي أوردها في كتابه .

المطلب الأول : منهجه في العقيدة

أورد السيوطي في كتابه مسائل منثورة عن بعض جوانب العقيدة ، وذلك نحو مسألة صفات الله - تبارك وتعالى - ومايبنغي للمؤمن حيالها ، وكذلك ناقش بعض مسائل المعتزلة العقديّة ، فمن مسائل العقيدة التي ناقشها :

١ - قضية الصفات بين الإثبات والتأويل :

أمّا مسألة صفات الله - تبارك وتعالى - فقد مال في كثير من المواضع في كتابه هذا إلى مذهب المثبتين لها من غير تكييف ، ولم يمنعه هذا من ذكر مذهب المؤوّلة ؛ بل قد عقد فصلاً في كتابه لذكر تأويل المؤوّلين لصفات الله تبارك وتعالى[١] .

المواضع التي مال فيها السيوطيّ إلى مذهب المثبتين :

من المواضع التي مال فيها إلى الإثبات مع ذكره لمذهب المؤوّلين قوله :

(((غمام) : سحاب أبيض ؛ سمي بذلك لأنه يَغُمّ السماء ، أي يسترها ، ومنه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ ﴾[٢] جمع (ظُلّة) وهو ماعلاك من فوق ، فإن كان ذاك لأمر الله فلا إشكال ، وإن كان لله فهو من المتشابه ؛ **فيجب** الإيمان بها من غير تكييف كما قدمنا في وجه المتشابه[٣] ، وتأويله عند المتأولين : يأتيهم عذاب الله في الآخرة أو أمره في الدنيا)) [٤] .

وذكر في موضع آخر من كتابه آياتِ الصفات وبين أن ((جمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها ، وتفويض معناها المراد إلى الله تعالى ، ولانفسرها ، مع تنزيهنا له عن حقيقتها)) [٥] .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤٦ - ١٥٥ .

٢- سورة البقرة : آية ٢١٠ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤٧ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ٦٧٧ ، وكلامه - هنا -يُشعر بميله إلى الإثبات .

٥- المصدر السابق : ١ / ١٤٧ .

وكلامه هذا واضح ، لا إشكال فيه في ميله نحو الإثبات ، ولكن قوله بالتفويض للمعاني ليس من مذهب السلف ؛ فإن المعاني عندهم معروفة ؛ إذ هي بلسان العرب الذي كان من سليقتهم ، ولكنهم كانوا يفوضون الكيفية فقط وليس المعنى[1] .

ولكن لعله يقال إنه يريد بـ ((معناها المراد)) : الكيفية ؛ وذلك لأنه لم يرد مطلق المعنى وإنما أراد معنى مراداً يمكن أن يكون هو الكيفية ، والله أعلم .

ثم إن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – ذكر أنه قد ((ذهبت طائفة من أهل السنة أنا نؤولها على مايليق بجلاله تعالى ، وهذا مذهب الخَلَف ، وكان إمام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه فقال في ((الرسالة النظامية))[2] : الذي نرتضيه ديناً ونَدين الله به عقداً اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها .

وقال ابن الصلاح[3]: وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، وإياها اختار أئمة الفقهاء وقادتها ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يَصْدِف[4] عنها ويأباها))[5] .

١- انظر في هذا : ((درء تعارض العقل والنقل)) : ١ / ٢٠١ – ٢٠٨ ، ٣ / ٣٨١ ، ٥ / ٢٤٩ ، ٢٨٠ – ٢٨١ .

٢- وتسمى ((العقيدة النظامية)) ، وقد طبعت مرةً سنة ١٣٦٧ في مطبعة الأنوار في القاهرة ، ومرة سنة ١٣٩٩ في القاهرة أيضاً بتحقيق الدكتور أحمد حجازي السقّا .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن أول قولي أبي المعالي التأويل وآخره التفويض للمعاني .

انظر ((درء تعارض العقل والنقل)) : ٣ / ٣٨١ ، ٥ / ٢٤٩ .

٣- الإمام الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام تقيّ الدين أبوعمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان الكرديّ الشهرزوريّ ، الموصليّ الشافعيّ . مولده سنة ٥٧٧ ، وجمع وألف وأفتى وكان من كبار الأئمة . توفي سنة ٦٤٣ بدمشق – وكان قد نزح إليها بعد رحَلات كثيرة – انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢٣ / ١٤٠ – ١٤٤ .

٤- أي يميل عنها ويُعرض . انظر ((لسان العرب)) : ص د ف .

٥- ((معترك الأقران)) ١ / ١٤٧ – ١٤٨ .

المواضع التي مال فيها السيوطيّ إلى مذهب المؤوّلين :

وهذا الكلام الذي ساقه دالٌّ على رضائه عن مذهب المثبتين ، ولكنه لايلبث أن يرتضي بعض ماذهب إليه المؤولون في هذا الباب - باب الصفات - وذلك نحو قوله :

((ومن ذلك اليد كما في قوله تعالى:

﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[1]، ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [2]،﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾[3]،

و ﴿ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ ﴾[4] ، وهي مؤولة بالقدرة .

وقال السُّهيليّ[5] :

اليد في الأصل كالمصدر عبارة عن صفة لموصوف ، ولذلك مَدح سبحانه بالأيدي مقرونة بالأبصار في قوله : ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[6] ، ولم يمدحهم بالجوارح ؛ لأن المدح إنما يتعلق بالصفات لابالجواهر .

قال الأشعري : إن اليد صفة ورد بها الشرع .

والذي يلوح من معنى هذه الصفة أنها قريبة من معنى القدرة ، إلا أنها أخص والقدرة أعم ؛ كالمحبة مع الإرادة والمشيئة ، فإن في اليد تشريفاً لازماً))[7] .

ثم ساق نصوص من ذهب إلى أن اليد هنا أو اليدان صفة من صفات ذاته وليست بمعنى القوة والنعمة ، وساق نصوصَ من ذهب إلى تأويلها .

١- سورة ص : آية ٧٥ .

٢- سورة الفتح : آية ١٠ .

٣- سورة يس : آية ٧١ .

٤- سورة آل عمران : آية ٧٣ .

٥- الشيخ أبو القاسم وأبوزيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهَيليّ الإمام المشهور . ولد سنة ٥٠٨ بمالَقَة . وكان صاحب تصانيف كثيرة ممتعة ، وأشعاره كثيرة . وكان ضريراً . توفي بمرّاكُش سنة ٥٨١ ، وكان صاحبها قد طلبه فمكث عنده ثلاث سنوات مكرماً . انظر ((وفيات الأعيان)) : ٣ / ١٤٣ - ١٤٤ .

٦- سورة ص : آية ٤٥ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٠ - ١٥١ .

ومما يدل – أيضاً – على رضائه لبعض التأويلات في هذا الباب قوله :

((ومن ذلك صفة المجيء في قوله ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾[1] ... أي أمره ... ومن ذلك صفة الحب في قوله ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[2] ...

وصفة الغضب في قوله و ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ﴾[3] .

وصفة الرضا في قوله :

﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾[4] ...

وصفة الرحمن في آيات كثيرة ، وقد قال العلماء : كل صفة يستحيل حقيقتها على الله تعالى تفسر بلازمها))[5] .

يتضح مما سبق أن السيوطيّ – رحمه الله تعالى – لم يَسِرْ على نهج واحد في هذا الباب ، ولم يختر طريقة ثابتة فيها ، في هذا الكتاب ، والله أعلم .

٢ – قضية آيات الصفات وإدخالها في المتشابه :

ذكر السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أن ((من المتشابه آيات الصفات ... وجمهور أهل السنة منهم السلف وأهل الحديث على الإيمان بها وتفويض معناها المرادِ إلى الله تعالى[6] ، ولانفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها ... وذهبت طائفة من أهل السنة أنا نؤولها على مايليق بجلاله تعالى ، وهذا مذهب الخلَف ...))[7] .

فالسيوطي يعدُّ آيات الصفات من المتشابه ، وهذا القول خلاف قول السلف ، وبيان هذه القضية فيما يلي :

١- سورة الفجر : آية ٢٢ .

٢- سورة المائدة : آية ٥٤ .

٣- سورة النساء : آية ٩٣ .

٤- سورة المائدة : آية ١١٩ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٥٢ – ١٥٣ .

٦- سبق قريباً بيان قضية التفويض هذه ، انظر ص ٤٩٠ ، ٤٩١ .

٧- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٤٦ – ١٤٧ .

أولاً : إن هذا القولَ لم يقل به أحدٌ من السلف ، حيث قال شيخ الإسلام ابن تيميّة : ((أما الدليل على بطلان ذلك فإني ماأعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لاأحمد بن حنبل ولاغيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية[1] ونفى أن يعلم أحد معناه ، وإنما قالوا : كلماتٌ لها معان صحيحة ...))[2] .

ثانياً : التشابه أمر نسبي ؛ فقد يتشابه على قوم مالايتشابه على آخرين ، ((وهذا هو الذي أراده مَن جعل الراسخين يعلمون التأويل ، فإنه جعل المشتبهات في القرآن من هذا البابِ الذي يشتبه على بعض الناس دون بعض ، ويكون بينهما من الفروق المانعة للتشابه مايعرفه بعض الناس ، وهذا المعنى صحيح في نفسه لاينكر ، ولا ريب أن الراسخين في العلم يعلمون مااشتبه على غيرهم))[3] .

ثالثاً : ((لايجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لامعنى له ، ولايجوز أن يكون الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وجميع الأمة لايعرفون معناه - كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين - وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ ... فإن معنى الدلائلِ الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره))[4] .

١- أي قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ سورة آل عمران : آية ٧ .

٢- ((مجموع الفتاوى)) : ١٣ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .

٣- ((مجموع الفتاوى)) : ١٧ / ٣٨٣ - ٣٨٤ .

٤- المصدر السابق : ١٧ / ٣٩٠ .

وقول ابن تيمية أن ((جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره)) يخالف ماذكره السيوطي - رحمه الله تعالى - أن ابن جرير أخرج ((من طرق عن ابن عباس ، قال :

((التفسير أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لايعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء ، وتفسير لايعرفه إلا الله تعالى)) ، ثم رواه مرفوعاً بسند ضعيف ...)) : ((الإتقان)) : ٢ / ١٨٢ .

وهذا الأثر أخرجه ابن جرير بإسناده فقال :

حدثنا محمد بن بشار ، قال : حدثنا مؤمّل ، قال :حدثنا سفيان ، عن أبي الزناد ، قال : قال ابن عباس : ...)) : ((جامع البيان)) : ١ / ٧٥ .

أما محمد بن بشار فهو العبدي البصري ، المشهور بـ (بُندار) وهو ثقة ، مات سنة ٢٥٢ ، كما في ((التقريب)): =

وقال شيخ الإسلام :

والعاشر[1] : قول بعض المتأخرين إن المتشابه آياتُ الصفات وأحاديث الصفات ، وهذا أيضاً مما يعلم معناه ؛ فإن أكثر آيات الصفات اتفق المسلمون على أنهم يعرفون معناها ، والبعض الذي تنازع الناس في معناه إنما ذم السلف منه تأويلات الجهمية[2] ؛ ونفوا علم الناس بكيفيته ، كقول مالك[3] :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، الإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وكذا قال سائر أئمة السنة ، وحينئذ ففَرْق بين المعنى المعلوم والكيف المجهول ، فإن سُمي الكيف تأويلاً ساغ أن يقال : هذا التأويل لايعلمه إلا الله))[4] .

٣ - الكلام على بعض عقائد المعتزلة :

تكلم السيوطي على بعض عقائد المعتزلة وناقشهم فيها ورد عليهم أباطيلهم ، فمن ذلك قوله مناقشاً لهم في قضية رؤية الله - تبارك وتعالى - في الدار الآخرة :

(((لن) : حرف نصب ونفي واستقبال ... وادّعى الزمخشريّ - أيضاً - أنها لتأبيد النفي كقوله تعالى : ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا﴾[5] و ﴿لَن تَفْعَلُواْ﴾[6] .

= ٤٦٩ .

مؤمل هو ابن إسماعيل العَدَويّ البصري ، صدوق سيء الحفظ كما في ((التقريب)) : ٥٥٥.

سفيان : جبل لايُسأل عنه ، سواء كان الثوري أو ابن عيينة ، إذ كلاهما روى عن أبي الزناد ، ومؤمل قد روى عنهما أيضاً ، انظر ((تهذيب التهذيب)) : ١٠ / ٣٤٠ ، و ((الجرح والتعديل)) : ٥ / ٤٩ .

وأبو الزناد هو عبد الله بن ذَكوان : ثقة فقيه كما في ((التقريب)) : ٣٠٢ .

فإسناد هذا الأثر حسن ، إن شاء الله تعالى .

١- أي العاشر من إطلاقات المتشابه ، كما في السياق قبله .

٢- فرقة مبتدعة ضالة ، أتباع جَهْم بن صفوان ، تفردوا بأقوال شنيعة في توحيد الله تبارك وتعالى وفي كثير من جوانب العقيدة ، انظر في أقوالهم : ((مقالات الإسلاميين)) : ٢٧٩-٢٨٠ .

٣- أحد أئمة أهل السنة الأعلام ، توفي بالمدينة سنة ١٧٩ عن تسع وثمانين سنة ، انظر في ترجمته ((سير أعلام النبلاء)) : ٨/٤٨-١٣٥ .

٤- ((مجموع الفتاوى)) : ١٧/٤٢٣-٤٢٤ .

٥- سورة الحج : آية ٧٣ .

٦- سورة البقرة : آية ٢٤.

قال ابن مالك[1] :

وحمله على ذلك اعتقاده في ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[2] أن اللـه لايُرى .

ورده غيره بأنها لو كانت للتأبيد لم يُقيّد مَنفيُّها بـ ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ في ﴿ لَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾[3] ، ولم يصح التوقيت في ﴿ لَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾[4] ، ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[5] ، ولكان ذكر الأبد في ﴿ لَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[6] تكرار والأصل عدمه ، واستفادة التأبيد في : ﴿ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا ﴾[7] ونحوه من خارج[8] .

ووافقه على إفادة التأبيد[9] ابن عطية ، وقال في قوله : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[10] : لو أبقينا على هذا النفي لتضمن أن موسى لايراه أبداً ، ولا في الآخرة ، لكن ثبت في

١- الإمام العلامة جمال الدين محمد بن عبد اللـه بن عبد اللـه بن مالك الطائي الجَيّاني الشافعي الأستاذ المقدم في النحو واللغة ، صاحب التصانيف السائرة . ولد سنة ستمائة .كان إماماً في القراءات واللغة ، صاحبَ دين متين وتقوى راسخة ، توفي سنة ٦٧٢ .

انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٨ / ٦٧-٦٨ .

وجَيّان مدينة بالأندلس .

٢- سورة الأعراف : آية ١٤٣ .

٣- سورة مريم : آية ٢٦ .

٤- سورة يوسف : آية ٨٠ .

٥- سورة طه : آية ٩١ .

٦- سورة البقرة : آية ٩٥ .

٧- سورة الحج : آية ٧٣ .

٨- أي من دليل عقلي خارجي .

٩- أي وافق ابن عطية الزمخشريّ على إفادة (لن) التأبيدَ ، لكن دلّ الدليل الشرعي على أننا نرى اللـه يوم القيامة فتكون ﴿ لَن ﴾ هنا - مفيدةً للتأبيد في الدنيا فقط وهذا هو مراد ابن عطية ، فليست موافقته للزمخشري موافقة مطلقة ، ونصّ كلام ابن عطية - رحمه اللـه تعالى - هو : ((وقوله : عز وجلّ ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ نص من اللـه - تعالى - على منعه الرؤيةَ في الدنيا ، و (لن) تنفي الفعل المستقبل ، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لايراه موسى أبداً ولافي الآخرة ، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون اللـه - تعالى -يوم القيامة ، فموسى - عليه السلام - أحرى برؤيته)) : ((المحرر الوجيز)) : ٧ / ١٥٥ .

١٠- سورة الأعراف : آية ١٤٣.

الحديث المتواتر[١] أن أهل الجنة يرونه ...))[٢] .

وقد يذكر السيوطي مذهب المعتزلة ولايناقشه ، نحو قوله :

((﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[٣] الآية في الكفار ، وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين ، لأن مذهبهم خلودهم في النار))[٤] .

١- أخرج البخاري أحد عشر حديثاً في الرؤية ، منها ما أخرجه بسنده عن جرير - رضي الله عنه - قال : ((كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ نظر إلى القمر ليلة البدر ، قال : إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ...)) وانظر صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ : ٩/١٥٥-١٦٣ . و ((فتح الباري)) : ٢٨ / ٢٠٥ وما بعدها. هذا ما أخرجه البخاري عدا ماأخرجه باقي الستة ، وما أخرجه أصحاب المعاجم والمسانيد .

وقال ابن حجر :

((جمع الدارَ قطنيّ طرق الحديث الواردة في رؤية الله - تعالى - في الآخرة فزادت على العشرين ، وتتبعها ابن القيم في ((حادي الأرواح)) فبلغت الثلاثين ، وأكثرها جياد ، وأسند الدار قطني عن يحيى بن معين ، قال : عندي سبعة عشر حديثاً في الرؤية صحاحٌ)) : ((فتح الباري)) : ٢٨/٢١٨-٢١٩ .

فرؤية الله في الآخرة ثبتت بالتواتر إذاً ، كما قال ابن عطية ، رحمه الله تعالى .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢/٢٥١-٢٥٢ .

٣- سورة النساء : آية ١٤ ، ومحل الشاهد من الآية : ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٢/٤٦٣ ، وهناك أمثلة أخرى لمناقشة السيوطي المعتزلة في ٢/٨٢ ، ٤٤٨ .

المطلب الثاني : منهجه في التفسير

التفسير في كتاب الحافظ السيوطي - رحمه اللـه تعالى - ((معترك الأقران)) يكاد يكون محصوراً في الأوجه الثلاثة الأخيرة من أوجه الإعجاز التي أوردها ، وهي :

الوجه الثالث والثلاثون : ورود آيات مبهمة يحار العقل فيها .
وقد قام ببيان هذه المبهمات ، وهو نوع من التفسير .

الوجه الرابع والثلاثون : احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والكنى والألقاب .
وقد ذكر في هذا الوجهِ بعضَ أسماء لكنىً وقبائلَ وطيور وغيرها ، وأحال القارئ إلى الوجه الخامس والثلاثين لمعرفة أسماء الأنبياء ، والبلاد ، والألقاب.
وهذا الوجه وجه قصير ، لم يفسر فيه السيوطي إلا القليل من الكلمات .

الوجه الخامس والثلاثون : ألفاظه المشتركة .
وهذا الوجه هو الذي يظهر فيه بوضوح منهج الحافظ السيوطي في تفسيره لكتاب اللـه تعالى ، ولكن لابد قبل الكلام على منهجه في التفسير أن يُلاحظ الآتي :

قد كان تفسير السيوطي متوجهاً لكلمات أو جمل قصيرة و لم يفسر آياتٍ كاملة ؛ وذلك أورث نقصاً في الحكم على منهجه لأنه ليس وحدة متكاملة ، وخاصة أن هذه الكلماتِ أو الجمل القصيرة ليست مترتبة ترتيبَها في القرآن بل هي مترتبة - في كثير منها - على الحروف الهجائية ، وهناك ألفاظ بين هذه الكلمات تبدأ بأحرف مغايرة سيعود إليها في مكانها .

وسأورد كلمات فسرها في صفحة واحدة من كتابه ليتبين ما أعنيه :

﴿سُلَيْمَٰنُ﴾ : سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .
﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ : سورة البقرة ، الآية : ١٠٨ .
﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : سورة البقرة ، الآية : ٥٨ .
﴿ٱلسَّلْوَىٰ﴾ : سورة البقرة ، الآية : ٥٧ .
﴿سُجَّدًا﴾ : سورة البقرة ، الآية : ٥٨ .[١]

فهذه الكلمات التي أوردها من سورة البقرة إنما التزم إيرادها - كما هو ظاهر - على ترتيب حرفها الأول ، وإن كان في إيراده لها خللٌ في ترتيب الكلمات بحسب ورود آياتها في السورة[٢] .

وهذه الكلمات ليس بينها وحدة موضوعية واحدة حتى يُربط بينها بمناسبة ما .

وهو لم يفسر في الآية إلا بعضَها .

وبعض تلك الكلمات لايحتاج إلى تفسير .

وهكذا جرى في كتابه ، ومن كانت طريقته كذلك لايصح أن يُنسب إليه أنه قد فسر كتاب الله - تعالى - تفسيراً كاملا على ماهو معلوم من التفسير .

ولكني سأذكر منهجه الذي جرى عليه في تفسيره لهذه الألفاظ فقط دون نسبة تفسير القرآن إليه في كتابه هذا .

١- ((معترك الأقران)) : ٣/٢٢٥ .

٢- قد تكلمت على منهجه في إيراد الألفاظ التي اندرجت تحت الوجه الخامس والثلاثين : ((ألفاظه المشتركة)) ، انظر ص ٤٠٤ وما بعدها .

منهجه في تفسير الألفاظ القرآنية

أ – مصادر التفسير :

إن مصادر التفسير التي ينبغي أن يرجع إليها كل مفسِّر هي : القرآن ، والسنة ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، وكلام العرب نثرهم وشعرهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى :

((فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟
فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ؛ فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر ، وما اختُصر من مكان فقد بُسط في موضع آخر .

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، بل قد قال الإمام أبوعبد الله محمد بن إدريس الشافعي : كل ماحكم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو مما فهمه من القرآن ...

وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولافي السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ؛ فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن ، والأحوالِ التي اختُصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم ...

إذا لم تجد التفسير في القرآن ، ولا في السنة ، ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ...))[1] .

وقد تنوعت المصادر عند السيوطي – رحمه الله تعالى – شأنه شأن أي مفسر من كبار المفسرين قد حاز الرواية والدراية معاً ، فمن طرق التفسير التي سلكها :

١- ((مجموع الفتاوى)) : ١٣ / ٣٦٣ – ٣٦٨ .

أولاً : تفسير القرآن بالقرآن :

واضحٌ من عمل السيوطيّ في تفسيره للألفاظ - التي اندرجت تحت عنوان الألفاظ المشتركة[1] - أنه يستعين بالقرآن ليفسر به القرآن مااستطاع إلى ذلك سبيلاً ، وذلك نحو قوله :

((﴿ هَلُوعًا ﴾[2] : قد فسره[3] وهو قوله :

﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا • وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [4]))[5] .

ونحو قوله :

((﴿ وَاسِعٌ ﴾[6] جواد لِما يُسأل . ويقال : الواسع المحيط بعلم كل شيء كما قال :

﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾[7]))[8] .

والأمثلة كثيرة جداً[9] .

ثانياً : تفسير القرآن بالسنّة :

من أنفع التفاسير تفسير القرآن بحديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث إنه أعرف الناس بربه ، سبحانه ، وقد جرى السيوطيّ على هذا في بعض الألفاظ القرآنية التي فسّرها ، ومن ذلك قوله :

١- قد سبق بيان أن جمهورها الأعظم ليس بمشترك ، انظر ص ٤٠٧ وما بعدها .

٢- سورة المعارج : آية ١٩ .

٣- أي الله - تعالى- كما هو ظاهر السياق .

٤- سورة المعارج : آية ٢٠ ، ٢١ .

٥- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٠٧ .

٦- سورة البقرة : آية ١١٥ .

٧- سورة غافر : آية ٧ .

أي كما قال تعالى قاصاً ثناءَ الملائكة .

٨- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣١٢ .

٩- انظر - للمزيد من الأمثلة - ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٢٨ ، ٣٤١ ، ٤٩١ .

((﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [1] يعني تنكشف سرائر العبد التي كانت في قلبه من عقائدَ ونيات ، وتالله لايجد فيها في هذا الزمان إلا ضغائن وحقائد وخبث طويّات .

وروي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – :
((إن السرائر الإيمانُ والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة))[2]))[3] .

١- سورة الطارق : آية ٩ .

٢- أخرجه الإمام البيهقيّ في ((شعب الإيمان)) ٦ : ٥٠ – ٥١ بسنده إلى أبي الدرداء – رضي الله عنه – ولفظه :
((ضمن الله – عز وجل – خلقَه أربعاً : الصلاة ، والزكاة ، وصوم رمضان ، والغسل من الجنابة ، وهن السرائر التي قال الله عز وجلّ : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾)) .
وذكر البيهقي سنده فقال :
أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن القاضي ، وعبد الملك بن عثمان الزاهد ، وأبونصر بن قتادة ، قالوا : حدثنا أبوعلي حامد بن محمد الهروي ، حدثنا محمد بن يونس ، حدثنا أبوعلي الحنفيّ ، حدثنا عمران القطان ، عن قتادة ، عن خُلَيْد العَصَري ، عن أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .
أحمد بن الحسن القاضي : ذكره الخطيب في ((تاريخ بغداد)) : ٤ / ٩١ ، ولم أعثر له على ترجمة .
عبد الملك بن عثمان الزاهد : ترجمه الخطيب البغدادي لكنه ذكر أن اسمه عبد الملك بن أبي عثمان محمد بن إبراهيم ، ويكنّى عبد الملك هذا بأبي سعد ، وهو واعظ من أهل نيسابور . كان ثقة صالحاً ، ورعاً ، زاهداً . توفي سنة ست وأربعمائة . انظر ((تاريخ بغداد)) : ١٠ / ٤٣٢ .
وقد نص الخطيب على أن عبد الملك روى عن حامد الهرويّ .
أبو نصر بن قتادة : لم أعثر على ترجمته .
أبوعلي حامد بن محمد الهروي : ذكر الخطيب البغدادي أنه قد سمع على عدد من المشايخ في بلدان كثيرة ، وقدم بغداد مرتين ، وكان ثقة . توفي بـ (هراة) سنة ست وخمسين وثلاثمائة . انظر ((تاريخ بغداد)) : ٨ / ١٧٢ – ١٧٤ .
محمد بن يونس : هو الكُدَيمي ، أبو العباس الساميّ ، البصريّ .ضعيف . مات سنة ست وثمانين ومائتين ، انظر ((التقريب)) : ٥١٥ .
أبو علي الحنفيّ : عُبيد الله بن عبد المجيد الحنفيّ ، أبوعلي البصريّ . صدوق . مات سنة تسع ومائتين . انظر ((التقريب)) : ٤٢٩ .
عمران القطان : عمران بن داوَر ، أبو العوّام البصري . صدوق . مات سنة تسع ومائتين . انظر ((التقريب)) : ٤٢٩.
قتادة : هو ابن دِعامة بن قتادة السَّدوسيّ ، تقدمت ترجمته ، وهو ثقة ثبت .
خُلَيْد العَصَري : أبو سليمان البصري ، يقال إنه مولى أبي الدرداء ، صدوق يرسل ، من الطبقة الرابعة .
انظر ((التقريب)) :١٩٥. وقد حكم محقق ((شعب الإيمان)) : ٦/ ٥١بأن الإسناد ضعيف لضعف محمد بن يونس الكُدَيْمي .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٥٤٨ .

ونحو قوله أيضاً :

((﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[1] :

هل تدرون ماقال ربكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم

قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة[2]))[3] .

والأمثلة كثيرة مبثوثة في ((المعترك))[4] .

١- سورة الرحمن : آية ٦٠ .

وهكذا جاء السياق في ((المعترك)) : ٣ / ٦٤١ ، أما في ((الدر المنثور)) : ٧ / ٧١٤ فقد قال السيوطي :

((قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، وقال : هل تدرون ما قال ربكم ؟ ...)) .

٢- هذا الحديث - بهذا النص - عزاه السيوطيّ - رحمه الله - في ((الدر المنثور)): ٧ / ٧١٤ إلى الحكيم الترمذي في ((نوادر الأصول)) ، والبغوي في تفسيره ، والديلمي في ((مسند الفردوس)) وابن النجار في تاريخه عن أنس رضي الله عنه .

أما البغويّ - رحمه الله تعالى - فقد أخرج الحديث بسنده إلى بشر بن الحسين عن الزبير بن عدي عن أنس - رضي الله عنه - وقد كذب الأئمة بشراً هذا في روايته عن الزبير عن أنس ، انظر ((لسان الميزان)) : ٢ / ٢٧ - ٢٩ ، وانظر((معالم التنزيل)) للبغويّ : ٧ / ٤٥٦ .

أما الديلميّ فقد ذكر محقق كتابه ((الفردوس)) سند هذا الحديث من ((زهر الفردوس)) - وهو مخطوط من تصنيف ابن حجر - وإسناده ينتهي ، أيضاً ، إلى بشر بن الحسين عن الزبير عن أنس . انظر ((الفردوس بمأثور الخطاب)) : ٤ / ٣٣٧ .

وكتاب ((الفردوس)) مجرد من الأسانيد ، وإنما أسند ولده أحاديثه في ((مسند الفردوس)) وعلق عليها الحافظ ابن حجر في ((زهر الفردوس)) وكلاهما مخطوط ، انظر مقدمة ((الفردوس)) : ١ / ع .

وقد ذكر السيوطي - رحمه الله تعالى - عدة روايات مقاربة لألفاظ هذا الحديث عن ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) وذكر السيوطيّ أن البيهقيّ ضعف الحديث .

انظر ((الدر المنثور)) : ٧ / ٧١٣ - ٧١٤ .

٣- ((معترك الأقران)) ٣ / ٦٤١ .

٤- انظر - للمزيد من الأمثلة - ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٠ ، ٣٢ - ٣٣، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٥ .

ثالثاً : تفسير القرآن بالآثار :

وهي ماروي عن الصحابة والتابعين - رضي اللـه عنهـم - وهـو مصـدر غـنيٌّ لتفسير القرآن العظيم ، وقد أورد السيوطي طائفة كثيرة من هذه الآثار .

فمن الآثار التي أخرجها عن الصحابة قوله :

((﴿مَّوْقُوتًا﴾[1] أي محدوداً بالأوقات ، وقال ابن عباس : فرضاً مفروضاً[2]))[3] .

ومن أمثلة ماذكره من الآثار عن التابعين قوله :

(((جِبت) : فيه أقوال ، والصحيح أنه كل ماعبد من دون اللـه ، ويقال : ﴿ٱلْجِبْتِ﴾ : السحر ... وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جُبير قال : ﴿ٱلْجِبْتِ﴾ : الساحر بلسان الحبشية))[4] .

والأمثلة على هذا كثيرة جداً[5] .

١- سورة النساء : آية ١٠٣ .

٢- ذكره السيوطيّ في ((الدر المنثور)) : ٢ / ٦٦٧ ، وعزاه لابن أبي حاتم ولفظه : ((وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ قال : مفروضاً)) .

وقد رجعت إلى الجزء المحقق من تفسير ابن أبي حاتم لنيل درجة ((الدكتوراه)) من جامعة أم القرى : ٤ / ١٠٣ فوجدت أن ابن أبي حاتم ذكر سنده فقال :

حدثني أبي ، ثنا أبوصالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ يعني : مفروضاً)) .

وقد حكم المحقق د . حكمت ياسين على الإسناد بأنه جيد ، وهو كما قال فإن رجال الإسناد مشهورون سبق الحديث عنهم بالتفصيل ، انظر ص ٤٧٠ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٦٩ .

٤- ((معترك الأقران)): ٢ / ٦٠ .

وقد أخرج هذا الأثرَ ابن جرير فقال : حدثنا ابن بشّار ، قال : حدثنا محمد بن جعفر ، قال : حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبير في هذه الآية ﴿ٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ ، قال :((﴿ٱلْجِبْتِ﴾ : الساحر بلسان الحبشة ، و ﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾ : الكاهن)) : ((جامع البيان)) : ٨ / ٥١ .

ابن بشار : هو محمد بن بشار ، وقد سبقت ترجمته ، وهو ثقة .

محمد بن جعفر : هو الهُذليّ ، أبو عبد اللـه البصريّ المشهور بـ (غُنْدَر) . ثقة . مات سنة ثلاث وتسعين ومائة . أخرج له الجماعة . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٩ / ٨٤ - ٨٦ ، و ((التقريب)) : ٤٧٢ .

شعبة : الإمام الحافظ الثقة المشهور ، وقد سبقت ترجمته .

أبوبشر : جعفر بن إياس ، أبوبشر بن أبي وَحْشيّة . ثقة ، من أثبت الناس في سعيد بن جبير . مات سنة خمس وعشرين ومائة . أخرج له الجماعة . انظر ((التقريب)) : ١٣٩ . فإسناد هذا الأثر صحيح قوي .

٥- انظر - للمزيد من الأمثلة - ٢ / ١٥ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٦٠ ...

رابعاً : تفسير القرآن بكلام العرب وأشعارهم :

وذلك لأن الله – تعالى – أنزله قرآناً عربياً بلسان العرب ففهموه وعملوا به ، وخير ما يعرف به مرادُ الله من كتابه بعد تفسيره بالقرآن والأحاديث والآثار هو الرجوع إلى كلام وأشعار أصحاب اللسان العربي الذين نزل القرآن بلسانهم ؛ لأن هذه الكلمات القرآنية قد استعملتها العرب ونطقت بها ، فيرجع إليهم إذاً في فهم معناها .

وقد استعان السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في تفسيره بطائفة كبيرة من كلامهم : نثره وشعره، **فمن استعانته بنثرهم قوله:**

((﴿ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [1] ... والواو والتاء في ملكوت زائدتان[2] مثل (الرحَموت) من الرحمة ، و (الرهَبوت) من الرهبة ، تقول العرب : رَهَبوت خيرٌ من رَحَموت ؛ أي أن تُرْهبَ خيرٌ من أن تُرحم))[3] .

ومن استعانته بشعر العرب في التفسير – ونادراً مايصنع هذا – قولُه :

((﴿ وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾[4] :

أي قد سُعدت بدعائي لك فيما مضى ، فاستجب لي في هذا ، فتوسّلَ إلى الله بإحسانه القديم إليه ، ولذلك قيل :

إذا أثنى عليك المرء يوماً   كفى من تعرضه الثناءُ [5]))[6] .

١- سورة الأنعام : آية ٧٥ .

٢- أي زائدتان على أصل كلمة (المُلْك) : قال أبو حيان :

((قال الزجاج وغيره : الملَكوت : المُلك ، كالرغَبوت والرهَبوت والجَبروت ، وهو بناء مبالغة)) :

((البحر المحيط)) : ٤ / ١٦٥ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٧١ .

٤- سورة مريم : آية ٤ .

٥- قائل هذا البيت هو أمية بن أبي الصَّلت ، من قصيدة مدح بها عبد الله بن جُدعان ، كما في((عيون الأخبار)) : ٣ / ١٧٢.

والبيت في ((المعترك)) مكسور في شطره الآخر في قوله : ((كفى)) ، والصحيح : **كفاه، كما في** ((عيون الأخبار)) . لأن البيت من بحر الوافر الذي لايستقيم بـ ((كفى)) كما في ((المعترك)) ، ولعل ذلك من صنيع النساخ .

وانظر ((شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل)) : ص ٨٢ وما بعدها .

٦- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٩٨ .

وكقوله في تفسيره قوله تعالى : ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾[1] :

((ونصب ﴿ رِحْلَةَ ﴾ لأنه مفعول بـــ ﴿ إِۦلَـٰفِهِمْ﴾[2] ، وقـال : ﴿ رِحْلَةَ ﴾ وأراد رحلتين ؛ فهو كقول الشاعر :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا[3]))[4] .

أي في بعض بطونكم[5] .

خامساً : استعانته بكلام المفسرين :

وهذا كثير جداً ، مبثوث في كتابه ، وفعله هذا لامحيص عنــه ؛ إذ لابـد للمتـأخر من مراجعة تفاسير الأقدمين حيث لاغنى له عنها .

وقد نقد السيوطي منها ماكان مفتقــراً إلى تقويـم وترجيـح ، ومـن أمثلـة ذلـك قوله :

((﴿ مَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾[6] :

الآيات – هنا – المعجزات ؛ كقلب العصا حيةً ، وإخراجِ اليد بيضاءَ .

وقيل : البراهين والحجج العقلية ، **والأول أظهر** .

ومعنى ﴿ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أنها في غاية الكِبَر والظهور ، و لم يُرد تفضيلها على غيرها مـن آياتـه ، إنمـا المعنـى أنـك إذا نظـرت وجـدت كبـيرةً ، وإذا نظـرت غيرهـا وجدت كبيرة ، فهو كقول الشاعر :

١- سورة قريش : آية ١ .

٢- فهو مصدر عمل عمل فعله .

٣- وعجز البيت : فإن زمانكم زمنٌ خَميصُ .

والبيت مجهولٌ قائله كما ذكر الأستاذ عبد السلام هارون في ((خزانة الأدب)) : ٧ / ٥٣٧ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٤٥٢ .

٥- ((روح المعاني)) : ٣ / ٣٠٧ .

٦- سورة الزخرف : آية ٤٨ .

مَن تَلْقَ منهم تَقُلْ لقيت سيدهم[1]

هكذا قال الزمخشري[2] .

ويحتمل – عندي – أن يريد: مانريهم من آية إلا هي أكبر مما تقدمها ؛ فالمراد أكبر من أختها المتقدمة عليها)) [3] .

وقد ذكرت سابقاً أن السيوطي ، رحمه الله تعالى ، إذا نقل من المصادر فإنه إما أن يصرح بالمصدر، أو يقول : قال فلان – كما هو الحال هنا – أو يغفل المصدر والقائل فيقول : قيل ، أو: قال بعضهم[4] ، وهذا يسري على منهجه في استعانته بكلام المفسرين أيضاً .

ب – أسباب النزول[5] :

لأسباب النزول فائدة عظمى في فهم كثير من الآيات ، وقد استعان بها الإمام السيوطي كثيراً – كصنيع غيره من المفسرين – ومن أمثلة ذلك قوله :

((﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[6] : لالغيره ...

١- قائل هذا البيت هو : العَرَندس الكِلابي ، كما في ((خزانة الأدب)) : ١٠ / ١٢٠ ، وتتمته :

مثل النجوم التي يسري بها الساري

والبيت في ((الخزانة)) : ((تقل لاقيت)) بألف بين اللام والقاف ، وما في ((المعترك)) صحيح بحذف السين من (مستفعلن) ، حيث جاز ذلك في بحر البسيط ، وانظر ((شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل : العروض والقافية)) : ٢٦ .

٢- كلام الزمخشري هذا نقله السيوطي بالمعنى انظر ((الكشاف)) : ٣ / ٤٢١ – ٤٢٢ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٤٢٨ .

وانظر نقده لأقوال المصنفين – أيضاً – : ١ / ٥٥٢ ، ٦٠٩ ، ٦٣١ ، والأمثلة كثيرة .

٤- انظر تفصيل هذا في ص ٢٩٤ .

٥- قد كانت فقرة (أ) هي مصادر التفسير ، انظر ص ٥٠٠ .

٦- سورة الأعراف : آية ١٨٠ .

وسبب نزول الآية[1] أن أبا جهل سمع بعض الصحابة يقرأ فيذكر اللـه مرة والرحمن أخرى فقال : يزعم محمدٌ أن الإله واحد ، وهاهو يعبد آلهة كثيرة[2] ، فنزلت الآية مبينة أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمّى واحد))[3] .

١- وسبب النزول المذكور قد ذكره عدد من المفسرين - كما سيأتي في تخريج سبب النزول في الهامش القادم - في تفسير آية الإسراء :﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ : ١١٠ .

فلعل تحريفاً وقع لدى الناسخ فكتب ﴿ لِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ عوضاً عن ﴿ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ ، واللـه أعلم .

٢- الأثر المذكور قد أخرجه الإمام ابن جرير في تفسيره حيث قال :

حدثنا القاسم ، قال : حدثنا الحسين ، قال:حدثني محمد بن كثير ، عن عبد اللـه بن واقد ، عن أبي الجوزاء ، عن ابن عباس قال :

كان النبي - صلى اللـه عليه وسلم - ساجداً يدعو :يارحمن يارحيم فقال المشركون : هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل اللـه تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾)) .

ثم أورد أثراً آخر مرسلاً عن مكحول بنحو الحديث السابق . انظر ((جامع البيان)) : ١٥ / ١٨٢ .

ولكن لم يرد ذكر أبي جهل في أيٍّ من الحديث والأثر .

أمّا رجال الحديث الأول فهم :

القاسم = القاسم بن الحسن ، فقد ذكر الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري أنه لم يجد له ترجمة إلاّ أن يكون القاسم بن الحسن بن يزيد ، أبومحمد الهَمَذانيّ الصائغ المتوفي سنة ٢٧٢ إلاّ أنه لم يجد دليلاً على هذا .

انظر ((جامع البيان)) : ٧ / ٥٠٧ .

الحسين : الحسين بن داود المِصِّيصيّ المشهور بـ (سُنَيد) ، وهو قد ضُعِّف ، انظر ((التقريب)) : ٢٥٧ .

محمد بن كثير = لعله محمد بن كثير بن أبي عطاء نزيل المِصِّيصة ، وهو صدوق كثير الغلط كما في ((التقريب)) : ٥٠٤ ، وقد توفي سنة ٢١٦ كما في : ((تهذيب التهذيب)) : ٩ / ٣٦٩ .

عبد اللـه بن واقد = يمكن أن يكون عبد اللـه بن واقد بن الحارث الهرويّ المتوفّى بعد الستين ومائة ، وهو ثقة .

انظر ((تهذيب التهذيب)) : ٦ / ٥٩ - ٦٠ ، و ((التقريب)) : ٣٢٨ .

ويمكن أن يكون عبد اللـه بن واقد الحرّاني المتوفي سنة ٢١٠ وهو متروك ، انظر ((التهذيب)) : ٦ / ٦٠ - ٦٢ ، و ((التقريب)) : ٣٢٨ .

أبو الجوزاء = أوس بن عبد اللـه الرَّبَعيّ : ثقة ، توفي سنة ٨٣ ، وكان يرسل كثيراً . ((التقريب)) : ١١٦ .

والحديث على كل حال ضعيف لضعف بعض رجال إسناد الحديث الأول ، ولإرسال مكحول في الأثر الآخر ، وهو مروي عن القاسم عن الحسين أيضاً وقد عرفتَ حالهما .

وقد ذكر البغوي الحديث أيضاً ولكن بدون إسناد ، وذكر أن الرجل القرشيّ العائب على رسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم - دعاءه هو أبو جهل . انظر ((معالم التنزيل)) : ٥ / ١٣٧ .

وقد نسب السيوطيّ - رحمه اللـه تعالى - تخريج الحديث لابن مِرْدَوَيْه أيضاً ، انظر ((الدر المنثور)) : ٥ / ٣٤٨ .

٣-((معترك الأقران)) : ٢ / ٢٢٦ .

وانظر - مزيداً من الأمثلة - ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، والأمثلة كثيرة مبثوثة في الكتاب .

جـ - مَزْجُ التفسير بالقصص والمواعظ والرقائق :

وهذه سمة بارزة في كتاب ((معترك الأقران)) فقد أكثر السيوطيّ من إيراد القصص والمواعظ والرقائق في ثنايا كتابه ، وسيأتي تفصيل لمنهجه في هذا الجانب في المبحث السادس إن شاء الله تعالى[1] .

ومن الأمثلة على ذلك قوله :

((﴿ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾[2] [3]

هذه الجملة في جواب : ﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ ؛ لأن معناها : أخبرني ، فكأنه سؤال وجواب .

والمعنى : انظر الذي يكذب بالدين تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة ، والأعمال السيئة ؛ وإنما ذلك لأن الدين يحمل صاحبه على الحسنات وترك السيئات ، فمقصود الكلام ذم الفاعل لذلك .

قال الجُنَيد : [4]

عرضت نفسي ليلةً على هذه السورة فلم أجد فيها ذلك ، ثم عرضت عليها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾[5] فقلت : سبحانك لامن هؤلاء ولامن هؤلاء ، فسمعت هاتفاً[6] يقول :

١- انظر ص ٥٢٣ وما بعدها .

٢- هكذا جاء الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - بالآية مجردة عن ﴿ وَلَا ﴾ وإنما تكلف ذلك ليستقيم له وضع ﴿ يَحُضُّ ﴾ في حرف الياء حتى لو أدّى ذلك إلى قلب معنى الآية !! فلعله لم ينتبه لإحالة المعنى ، والله أعلم .

٣- سورة الماعون : آية ٣ .

٤- الجُنَيد بن محمد بن الجُنَيد النهاونديّ ثم البغداديّ ، شيخ الصوفية . ولد سنة نيف وعشرين ومائتين ، وتفقه وأتقن العلم ، وتعبد ونطق بالحكمة .روى قليلاً من الأحاديث ، أفتى وله عشرون سنة . توفي سنة ٢٩٨ .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٤ / ٦٦ - ٧٧ .

٥- سورة المؤمنون : آية ١ ، وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ هو من سورة المعارج ، لكن الأقرب أن السيوطي أراد : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾ في سورة المؤمنون آية ١٠ ، فلعل السيوطيّ سها عنها أو أن تحريفاً حصل من الناسخ ، والله أعلم .

٦- الهاتف هو صوت مسموع بدون أن يُبصر مصدره ، والهَتْف والهُتاف : الصوت العالي أو الصوت الشديد .
انظر ((لسان العرب)) : هـ ت ف .

من الذين ﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [1] .
هذا الجنيد فكيف حالك ياخُوَيْد [2])) [3] .

١- سورة التوبة : آية ١٠٢ .

٢- الأقرب أن أصل هذه الكلمة فارسيّ ، ولم أعثر على معنى لها فيما بحثت فيه في المعاجم التي تبحث في الكلمات الفارسية المعربة ، لكن لعل الكلمة هي خَوَنْد ، وهي بمعنى السيد ، انظر ((الألفاظ الفارسية المعرّبة)) : ٥٨ . ومعنى السيد لايتفق مع السياق ، والمناسبة بين الجنيد وخُويد أكثر ، والله أعلم .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٥٥٢ ، وهناك مزيد من الأمثلة في المبحث السادس من هذا الفصل : ((منهجه في ذكر القصص والمواعظ والرقائق)) ، انظر ص ٥٢٣ وما بعدها .

المطلب الثالث : منهجه في القراءات

توسع السيوطيّ - رحمه الله تعالى - في إيراد القــراءات في كتابه ، حيث أتى بجملة كبيرة من القراءات الصحيحة والشاذة ، هذا وهو لم يقرأ القراءات على شيخ وليس له سند بها[1] .

وهاك منهجَه في إيراده القراءاتِ :

١ - التوجيه[2] :

يوجه السيوطي بعض القراءات ويغفل توجيه بعضها الآخر ، ومن أمثلة توجيهه للقراءة قوله :

((﴿ دُرِّيٌّ ﴾[3] بضم الدال وتشديد الياء من غير همز ، ولهذه القراءة وجهان : إما أن يُنسب الكوكب إلى الدُّر لبياضه وصفائه ، أو يكون مسهلا من الهمز[4] .

وقُرئ بالهمزة وكسر الدال[5] ، وبالضم والهمز[6] ، وهو مشتق من (الدَّرْء) بمعنى الدفع[7] .

١- ذكر ذلك في كتابه ((حسن المحاضرة)) : ١ / ٣٣٨ - ٣٣٩ .

٢- توجيه القراءة هو الاحتجاج لها وتوثيقها ، والتماس الدليل لقراءة كل قارئ من القراء ؛ وذلك إما بالاستناد إلى قاعدة مشهورة في العربية،أوبالتماس علة خفية بعيدة الإدراك يُحاوَل اقتناصها أو توليدها ، أو بالاعتماد على القياس وحشد النظائر ومقارنة المثيل بالمثيل . وقد يساق للاحتجاج والتوجيه الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والشعر الصالح للاحتجاج ، والأمثال ، ولغات العرب ولهجاتها ، وأقوال أئمة العربية .

مقدمة تحقيق كتاب ((الحجة)) لأبي علي الفارسيّ : ١ / ١٤ - ١٥ بتصرف يسير .

٣- سورة النور : آية ٣٥ .

٤- ستأتي قراءة الهمز ، والتسهيل هنا بمعنى الإبدال ، - كما سبق ذكر ذلك ، انظر ص ٤٨٧ - فأبدلت الهمزة ياءً وأدغمت في الياء الأولى ، وانظر ((حجة القراءات)) : ٤٩٩ .

٥- أي ﴿دِرِّيء﴾ ، وهي قراءة أبي عمرو والكسائيّ ، انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٣٢ .

٦- أي ﴿دُرِّيء﴾ ، وهي قراءة شعبة وحمزة . المصدر السابق .

٧- هذا التوجيه الذي ذكره السيوطي - رحمه الله تعالى - هو لكلتاالقراءتين : بضم الدال وكسرها مع الهمزة بعد الياء ، ومعنى الدفع - هنا - أي يدفع الكوكب بنوره الناظر من أن ينظر إليه ، انظر ((حجة القراءات)) : ٤٩٩ .

وشبه الزجاجة في إنارتها بكوكب دري ؛ لأنها تضيء بالمصباح الذي فيها))[1] .

ثانياً : عزو القراءة :

إذا أورد السيوطي قراءة صحيحة عشرية ثابتة[2] فإنه لايذكر من قرأ بها – فيما علمته من كتابه – وربما يكون ذلك لأجل الاختصار ، أو لأجل أنه يورد القراءات من حفظه ، فيبين اختلاف القراءات ولايبين من قرأ بكل منها ، ومن أمثلة ذلك قوله :

((﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ ﴾[3] يعني الزيت .

وقُرِىء : ﴿ تَنۢبُتُ ﴾ بفتح التاء ، فالمجرور على هذا في موضع الحال كقولك : جاء زيد بسلاحه .

وقُرِىء بضم التاء وكسر الباء[4] ...))[5] .

أما إذا أورد قراءة شاذة فقد وجدت بالاستقراء أن له أربعة طرق في إيرادها :

الطريق الأول :

أن ينسبها إلى الصحابيّ أو التابعي الذي قرأ بها ، وذلك نحو قوله :

((﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ ﴾[6] ...

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٩٩ ، وانظر لمزيد من الأمثلة على توجيه القراءات : ٣ / ٢٥٤ ، ٢٩٧ – ٢٩٨ .

٢- القراءة الصحيحة هي ماستوفت أركاناً ثلاثة : صحة السند – تواتراً أو شهرةً واستفاضة ، على خلاف بين القراء – وأن تكون موافقة للعربية بوجه فصيح أو أفصح ، وأن تكون موافقة للرسم العثماني ، فإن اختل أحد هذه الشروط الثلاثة صارت شاذة مردودة ، انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ١ / ٩ – ١٣ .

٣- سورة المؤمنون : آية ٢٠ .

٤- وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو ورويس ، وقرأ الباقون من القراء العشرة : ﴿تَنۢبُتُ﴾ ، انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢/ ٣٢٨ .

٥- ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٨ ، ولمزيد من الأمثلة انظر : ٢/ ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٥٠ ، ٦٩ .

٦- سورة الواقعة : آية ٨٢ .

قرأ علي بن أبي طالب : (وتجعلون شكركم أنكم تَكْذِبون) وكذا قرأ ابن عباس إلا أنه قرأ : ﴿ تُكَذِّبُونَ ﴾ بضم التاء والتشديد كقراءة الجماعة ...))[1] .

وهو في إيراده لما يورده - هنا - لايحكم عليه بالشذوذ ، وربما كان ذلك لشهرة شذوذ القراءة .

الطريق الثاني :

أن ينسبها إلى أحد الأربعة المشهورين برواية الشاذ ، وهم :

ابن مُحَيْصن[2] ، واليزيدي[3] ، والحسن البصريّ ، والأعمش[4] ، وذلك نحو قوله :

(((أن) : بالفتح والتخفيف على أوجه : الأُولى أن تكون حرفاً مصدرياً ناصباً للمضارع ... وقد يرفع المضارع بعدها إهمالاً لها ... كقراءة ابن محيصن :

(لمن أراد أن يتمُّ الرضاعة)[5]))[6] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٠ ، وانظر مزيداً من الأمثلة في : ١ / ٦٠٤ ، ٢ / ٧٨ ، ٨٠ .

٢- محمد بن عبد الرحمن بن مُحَيْصن السهميّ - بالولاء - المكيّ ، قارىء أهل مكة . روى عدداً من الأحاديث وكان من رجال الإمام مسلم . توفي سنة ١٢٣ بمكة ، رحمه الله تعالى . انظر ((معرفة القراء الكبار)) : ١ / ٩٨ - ٩٩ .

٣- شيخ القراء ، أبومحمد يحيى بن مبارك بن المغيرة العَدَويّ البصري النحوي . عُرف باليزيديّ لاتصاله بالأمير يزيد بن منصور - خال المهديّ - يؤدب ولده . وهو نحوي علامة ، بصير بلسان العرب ، أخذ العربية عن أبي عمرو البصريّ وعن الخليل . له عدة مصنفات . عاش أربعاً وسبعين سنة ، وتوفي سنة اثنتين ومائتين ببغداد - وقيل بمرو .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٩ / ٥٦٢ - ٥٦٣ .

٤- سليمان بن مِهران ، الإمام ، شيخ المقرئين والمحدثين ، أبومحمد الأسديّ الكاهلي - بالولاء - الكوفي الحافظ . رأى أنس بن مالك - رضي الله عنه - وحكى عنه وروى عنه . مكث قرابة سبعين سنة لاتفوته التكبيرة الأولى ، وكان عَسِراً في الرواية ، وتحكى عنه نوادر . مات سنة ١٤٨ بالكوفة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٦ / ٢٢٦ - ٢٤٨ .

٥- كذا وجدتها مرسومةً في الكتاب المحقق ، وأما قراءة ابن مُحيصن - رحمه الله تعالى - فهي : (تَتِمَّ الرضاعةُ) كما في ((إتحاف فضلاء البشر)) : : ١ / ٤٤٠ ، وقد يكون ذلك تحريفاً من الناسخ أو سهواً من المصنف أو المحقق ، والله أعلم ، وأصل الآية في سورة البقرة : ٢٣٣ .

٦- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٦٠٧ ، وانظر - مثالاً آخر - ٢ / ٥٣ .

وهو يكتفي بنسبتها إلى أحد هؤلاء الأربعة لشهرة شذوذ ماروي عنهم من القراءات .

الطريق الثالث :

أن ينسب القراءة إلى الشذوذ ثم لايذكر من قرأ بها ، وذلك نحو قوله :

(((إذن)[1] : ... حرف ينصب المضارع بشرط : تصديرها ، واستقباله ، واتصالها أو انفصالها بالقسم أو بلا النافية .

قال النحاة :

وإذا وقعت بعد الواو والفاء جاز فيها الوجهان ، نحو :

﴿ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [2]، ﴿ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [3]، وقرىء شاذاً بالنصب فيهما [4])) [5] .

الطريق الرابع :

أن يورد القراءة الشاذة ثم لايذكر أنها شاذة بل يُغفل الحكم عليها تماماً ، ويغفل ذكر من قرأها أيضاً ، وفي إغفاله ذكرَ شذوذها يحصل الفرق بين هذا الطريق والطريق الثالث ، ومن ذلك قوله :

(((الهمزة) ... قد تقع في القسم ؛ ومنه :

(ولا نكتم شهادةً آللـه[6]) بالتنوين[7] ، (اللـه) بالمد))[8] .

١- هكذا جاءت في المطبوعة ، ((والجمهور يكتبونها بالألف ويقفون عليها بالألف ، وهناك من يرى كتابتها بالنون والوقف عليها بالنون ، ويرى البعض أنها إن عَمِلت كتبت بالألف وإلا كتبت بالنون ، وهذا تفريق جيد)) : ((معجم النحو)) : ٧ .

٢- سورة الإسراء : آية ٧٦ .

٣- سورة النساء : آية ٥٣ .

٤- أي بحذف النون من الفعلين : (يلبثوا ، يؤتوا) لأنهما من الأفعال الخمسة ، وكلتا القراءتين تنسب لابن مسعود رضي اللـه عنه ، انظر ((مختصر في شواذ القرآن)) : ٢٧ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٨٦ . ولمزيد من الأمثلة انظر : ١ / ٥٩٠ ، ٦١١ ، ٢ / ٤٢ .

٦- سورة المائدة : آية ١٠٦ .

٧- أي بالتنوين في ﴿ شَهَٰدَةَ ﴾ ، وهذه قراءة منسوبة لعليّ بن أبي طالب – رضي اللـه عنه – ولأبي عبد الرحمن السُّلَميّ أيضاً ، انظر ((مختصر في شواذ القرآن)) : ٣٥ .

٨- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٧٣ ، ولمزيد من الأمثلة انظر : ١ / ٥٦١ ، ٦١٣ ، ٢ / ٤٦ .

ثالثاً : الإكثار من إيراد القراءات[1] :

يكاد السيوطي - رحمه الله تعالى - يستقصي ماورد من قراءات للكلمات القرآنية التي أتى بها ، خاصة في الوجه الخامس والثلاثين : (ألفاظه المشتركة) ، فهو كثير التنبيه على مافي تلك الكلمات من قراءات ، سواء كانت صحيحة أو شاذة[2] .

١- قد مرّ (أولاً) ، و (ثانياً) في ص : ٥١١ ، ٥١٢ على التوالي .

٢- انظر - مثلاً - : ١ / ٥٦١ ، ٥٧١ ، ٥٧٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ .

٢ / ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ .

٣ / ٢٠٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٥٢ .

المطلب الرابع : منهجه في بيان الوقف والابتداء

وهو من علوم التجويد التي يعرف بها كيفية الوقف على الكلمات القرآنية ، والابتداء بها،ومكان ذلك وزمانه ، فالسكت[1] ، والقطع[2] ، والوقف ، كلٌّ له زمن معين يوقف به على الكلمة القرآنية المراد الوقوفُ عليها ، وكذلك هناك أنواع للوقف ، مثل الوقف التام[3] ، والكافي[4] ، والحسن[5] ، والقبيح[6] ، والوقف الاضطراريّ والاختباري إلخ ...

وقد جاء الكلام على الوقف والابتداء عند السيوطيّ مقتضباً وقليلاً ، فلم يذكر القواعد في الوقف والابتداء ، أو أنواعه ، إنما اكتفى بذكر بعض الآيات التي للمعنى فيها تعلق بالوقف والابتداء ، فمن ذلك قوله :

((﴿ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [7] :

ما : استفهامية معناها التوبيخ ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، والمجرور بعدها خبرها .

ينبغي الوقف على قوله : ﴿ مَالَكُمْ ﴾ ثم يُقرأ :

١- ((السكت عبارة عن قطع الصوت زمنا مّا دون زمن الوقف عادةً من غير تنفس)) :

((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) : ٨ .

٢- ((القطع عبارة عن قطع القراءة رأساً)) : المصدر السابق ، أي بدون نية معاودة القراءة .

٣- ((التام هو مايحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، ولايتعلق مابعده بشيء مما قبله لالفظاً ولامعنى ، وأكثر مايوجد عند رؤوس الآي)) : المصدر السابق : ١٠ .

٤- ((الكافي هو مايحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده إلا أن له به تعلقاً مامن جهة المعنى ، وسمي كافياً لاكتفائه واستغنائه عما بعده واستغناء مابعده عنه)) : المصدر السابق : ١١ .

٥- ((الحسن مايحسن الوقف عليه ، ولايحسن الابتداء بما بعده)) : المصدر السابق .

٦- ((القبيح هو ماشتد تعلقه بما قبله لفظاً ومعنى ... نحو : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ ﴾ [سورة البقرة : آية ٢٦] ، ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [سورة الماعون : آية ٤] فإنه يوهم غير ماأراده الله تعالى)) : المصدر السابق : ١٣ .

٧- سورة الصافات : آية ١٥٤ .

﴿ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴾))[1] .

ونحو قوله أيضاً :

((﴿ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴾[2] :

أي علموا أنهم لامهرب لهم من العذاب .

وقيل : يوقف على ﴿ظَنُّواْ﴾ ويكون ﴿ مَا لَهُم﴾ استئنافاً))[3] .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٤١٣ .

وإنما أرشد السيوطيّ إلى الوقف على ﴿ مَا لَكُمۡ ﴾ لأنها جملة استفهامية من مبتدأ و خبر مستقلة عما بعدها ، وهذه الجملة ومابعدها جملتان استفهاميتان توبيخيتان ليس لإحداهما تعلق بالأخرى من حيث الإعـراب ، وليس بينهمـا تعلق معنوي قوي يوجب الاتصال ؛ إذ الأُولى استفهام إنكاريّ عما استقر لهم وثبت ، والجملة الأخرى استفهام تعجبيّ من حكمهم بهذا الحكم الجائر حيث جعلوا لله مايتشاءمون منه من جنسي البشر .

انظر ((الدُّر المصون من علوم الكتاب المكنون)) للسّمين الحلبي : ٩ / ٣٣٤ .

٢- سورة فصلت : آية ٤٨ ، وهكذا ساق الإمام السيوطيّ الآية ، والشاهد : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم ... ﴾ .

وقد ساق الإمام السيوطي الآية بدون ذكر الشـاهد وهو : ﴿ وَظَنُّواْ مَا لَهُم ... ﴾ ، وإنما لم يأت به لـيتمكن من المجيء بـ ﴿ مَا لَهُم ﴾ تحت حرف الميم . وإنما يوقف على ﴿وَظَنُّواْ﴾ إذا قُدرت بمعنى الكَذِب والشك ، حتى يستقيم المعنى لما بعدها ، وإذا قُدرت بمعنى العلم فالوقف على ﴿ مَّحِيصٖ ﴾ ، وانظر ((المكتفى في الوقف والابتدا)) للداني : ٤٩٩ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٤٢٤ .

المطلب الخامس : منهجه الفقهيّ

السيوطيّ – رحمه الله تعالى – شافعيّ المذهب ، وهو وإن أظهر الاجتهاد فإنه لايخرج عن أقوال الشافعيّ ، وقد ذكر ذلك في كتابه : ((الرد على من أخلد إلى الأرض)) فقال :

((والذي ادّعيناه هو الاجتهاد المطلق لاالاستقلال ، بل نحن تابعون للإمام الشافعيّ – رضي الله عنه – وسالكون طريقَه في الاجتهاد امتثالاً لأمره ، ومعدودون من أصحابه...)) [1] .

وقد سبق ذلك كلام طويل عن الاجتهاد وأنواعه ، إلا أنه يقرر فيه أنه – في اجتهاده – لايخرج عن أقوال الإمام الشافعيّ [2] .

لكنه مع تقيده في اجتهاده بعدم الخروج على المذهب الشافعي فإنه غير متعصب للمذهب ، ويذكر في المسألة مذاهب الأئمة فيها ، ولايرجح بين هذه المذاهب ؛ ولعل الإمام السيوطي قصد عدم تطويل الكلام في الفقه في موضوع قرآني صِرْفٍ كهذا .

ومن أمثلة كلامه في الفقهيات – على النحو الذي وصفتُ – قوله :

((﴿ تَعَاسَرْتُمْ ﴾ [3] أي تضايقتم . والمعنى إن تشططت[4] الأم على الأب في أجرة الرضاع ، وطلبت منه كثيراً فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق به ، إلا ألاّيَقبل الطفل غير ثدي أمه فتُجبر حينئذ على إرضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج ، فلا تضيع الزوجة ولايُكلَّف هو مالايطيق .

١- ((الرد على من أخلد إلى الأرض ، وانكر أن الاجتهاد في كل عصر فرض)) : ١١٦ .

٢- المصدر السابق : ٩٧ – ١١٦ .

٣- سورة الطلاق : آية ٦ .

٤- أي جارت وظلمت وجاوزت القدر المحدود : ((لسان العرب)) : (ش ط ط) .

وفي هذه الآيةِ دليل على أن النفقة تختلف باختلاف الناس ، وهو مذهب مـالك خلافـاً لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية[1] .

ومَن عجز عن نفقة امرأته فمذهب مالك أنها تطلق عليه خلافاً لأبي حنيفـة[2] ، وإن عجز عن الكسوة دون النفقة ففي التطليق عليه قولان في المذهب[3]))[4] .

١- أما مذهب مالك فإنه كما قال السيوطي ، وانظر ((جواهر الإكليل شرح مختصر العلامة خليل)) : ١ / ٤٠٢ ، وأما الأحناف فإنهم وافقوا المالكية في هذا وانظر ((حاشية رد المحتار)) : ٣ / ٥٧٤ - ٥٧٥ حيث ذكر المصنف أن النفقة للمرأة تختلف باختلاف حالها وحال زوجها من الإيسار والإعسار .

٢- وهو كما قال . انظر ((جواهر الإكليل)) : ١ / ٤٠٥ ، و ((حاشية رد المحتار)) : ٣ / ٥٩٠ .

٣- أي المذهب الشافعي ؛ لأنه مذهب السيوطي ، وما ذكره من أن في التطليق عليه قولين في المذهب لم أجده وإنما الذي في ((المجموع)) : ١٨ / ٢٦٧ : ((إن أعسر بالكسوة ثبت لها الفسخ ؛ لأن البدن لايقوم بغير الكسوة كمالايقوم بغير القوت)) .

٤- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٤ - ٣٥ ، ولمزيد من الأمثلة انظر ٢ / ٢١ ، ٢٧ - ٢٨ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٩٠ .

المطلب السادس : منهجه في أصول الفقه

قد أفرد السيوطي – رحمه الله تعالى – في كتابه أبواباً من الأصول عدَّها وجوهاً من أوجه الإعجاز ، وهي : الوجه الرابع عشر : عموم بعض آياته وخصوص بعضها[1] ، والوجه الخامس عشر : ورود بعض آياته مجملة وبعضها مبينة[2] ، والوجه السادس عشر : الاستدلال بمنطوقه أو بمفهومه[3] ، وقد بسطت الكلام عليها في مكان سابق[4] .

وهناك بعض المباحث التي يتنازعها علم الأصول وغيره من العلوم مثل : الناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه ، والحقيقة والمجاز ، والكناية والتعريض ، والمشترك وكلها جاءت في كتاب السيوطي أوجهاً من أوجه الإعجاز[5] ، وقد سبق الكلام عليها أيضاً[6] .

وقد جاء السيوطي بهذه المباحث كلها على وجه التفصيل ، فكان فيها طويلَ النَّفَس ؛ فهو يستقصي مااستطاع فيما يورده من مباحث ، وذلك نحو مبحث العام والخاص في كتابه إذ جاء به على التقسيم التالي :

١ – تعريف العموم .

٢ – صيغ العموم .

٣ – أقسام العموم :

أ – عام باقي على عمومه .

ب – عام مخصوص .

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٠٧ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٢١٧ .

٣- المصدر السابق : ١ / ٢٢٤ .

٤- انظر ص ٣٧٠ وما بعدها .

٥- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ١٠٨ ، ١٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٨٦ ، ٥١٤ على الترتيب .

٦- انظر ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٩٨ ، من هذا البحث على الترتيب .

جـ - عام مراد به الخصوص .

ثم أخذ في مباحث الخصوص فذكر مايلي :

١ - المخصصات المتصلة وهي خمسة :

أ - الاستثناء .

ب - الوصف .

جـ - الشرط .

د - الغاية .

هـ - بدل البعض من الكل .

٢ - المخصصات المنفصلة وهي :

أ - آيات القرآن العظيم .

ب - الأحاديث الشريفة .

جـ - الإجماع .

د - القياس .

ثم أتى بمسائلَ وفروعٍ تتعلق بالعام والخاص وهي :

١ - تخصيص القرآن للسنة .

٢ - بقاء العام على عمومه إذا سيق للمدح أو الذم .

٣ - هل الخطاب الخاص بالرسول - صلى الله عليه وسلم - يشمل الأمة أم لا ؟

٤ - هل الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يشمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أم لا ؟

٥ - هل تتناول لفظة ﴿ مَن ﴾ الأنثى ؟

٦ - الخطاب بـ ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ هل يشمل المؤمنين ؟

٧ - الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هل يشمل أهل الكتاب ؟

ثم إنه مثل لكل ماأتى به من أقسام ومباحث ، مثل لها من كتاب اللـه تعالى .

من هذا التقسيم لمبحث العام والخاص في كتاب ((معترك الأقران)) يتضح شمول التناول الأصولي عند الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - حيث لم يترك شاذّةً ولافاذّة إلا أتى بها تقريباً .

أما المسائل الأصولية المنثورة في كتابه عدا تلك المباحث الأساسية فهي قليلة ، مندرجة تحت الألفاظ المشتركة التي جاءت في الوجه الخامس والثلاثين من أوجه الإعجاز التي ساقها ، ومن هذه المسائل المنثورة :

((﴿ مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ [1]

المعنى أن اللـه يسمع كل شيء فالجهر والإسرار عنده سواء ، ولذلك أتى به بعد قوله : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾[2] .

فإن قلت : قوله : ﴿ تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ ﴾ قرينة في الخصوص .

فالجواب أن الفخر[3] والآمديّ[4] قالا : إن العام إذا عُقِّب بصنف من أصنافه[5] فمذهب مالك والشافعيّ بقاؤه على عمومه))[6] .

١- سورة الرعد : آية ١٠ .

٢- سورة الرعد آية ٨ ، وقال ابن كثير رحمه اللـه : ((قال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال : مانقصت من تسعة ومازاد عليها)) : ((تفسير القرآن العظيم)) : ٤ / ٣٥٨ .

٣- هو فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن التيميّ البكريّ الرازي ، الإمام المتكلم . وقد سبقت ترجمته .

٤- سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد الثعلبيّ الآمديّ ، الأصولي المتكلم . ولد بعد الخمسين وخمسمائة بمدينة آمد ، وتفقه على المذهب الحنبلي ثم انتقل إلى المذهب الشافعيّ ، تفنّن في علم النظر ، وأحكم الأصلين [أصول الدين وأصول الفقه] والفلسفة وسائر العقليات ، ثم دخل الديار المصرية وتخرّج به جماعة، ثم قدم دمشق فتوفي بها سنة ٦٣١ . انظر ((طبقات الشافعية الكبرى)) : ٨ / ٣٠٦ - ٣٠٧ .

٥- انظر هذه المسألة في ((الإحكام في أصول الأحكام)) للآمدي : ٢ / ٣٥٩ : المسألة الثانية عشرة .

٦- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٠٤ .

المبحث السادس

منهجه في ذكر القصص والرقائق والمواعظ

قد ذكرت سابقاً[1] أن من مَـيْزات كتـاب السـيوطيِّ - رحمه اللـه تعـالى - الإكثارَ من ذكر المواعظ والرقائق[2] والقصص[3] التي ليّنت مادة الكتاب ، وحببتها إلى القارئ ، وهذا العدد من المواعظ والقصص لافت للنظر في كتاب السيوطيّ هذا بحيث إني لم أره في أي كتاب آخر له ، فيما اطّلعت عليه من كتبه التي طرقت علوماً شرعية أولغوية .

وهو في صنيعه هذا لم يكثر الإكثارَ المعيب الطاغي على المادة العلمية ، إنما أورد القصص والمواعظ بقدْر معقول محبب إلى النفس ، وسأتكلم على كلٍّ منهما على الترتيب :

أولاً : منهجه في القصص :

أما منهجه في إيراد القصص فهو كالآتي :

١ - عدم اطّراد ورودها في الكتاب على طريقة واحدة :

لم يكن ورود القصص منضبطاً بضابط محدد ، بل قد تناثرت في الكتاب ، فلم يظهر لي جامع محدد لكيفية أو مكان ورودها .

١- وذلك عند الكلام على منزلة الكتاب العلمية ، انظر ص ٢٩٢ وما بعدها .

٢- انظر في المواعظ والرقائق : ١ / ١٣ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ، ٥٣٩ .

: ٢ / ١٢ ، ٣٨ ، ٥٧ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٣٣٢ - ٣٣٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٥ .

: ٣ / ١ - ٢٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٢٦ .

٣- انظر في القصص : ١ / ١٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٦ .

: ٢/ ٣١٧ ، ٣٧٤ ، ٥٣١ ، ٦٠٣ .

: ٣/ ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ٢٩٢ .

٢ – غرابة وبُعد بعض مايورده من القصص :

إذ حرص السيوطيّ – رحمه الله تعالى – على إيراد عدد من كرامات الأولياء ، وكان بعض ماأورده منها مما يحتاج إلى برهان لتصديقه ؛ وذلك لبعده في حكم العقل أو العادة ؛ **فمما أورده وهو بعيد في حكم العقل** قوله في الوجه الثاني والعشرين من وجوه الإعجاز التي أوردها ، وهو ((تيسيره – تعالى – حفظه وتقريبه)) :

((قال ابن عطية : يُسِّر بما فيه من حسن النظم وشرف المعاني ، فله لَوْطَةٌ[١] بالقلوب ، وامتزاج بالعقول ، وهذا مشاهد بالعيان فلا يحتاج فيه إلى برهان .

وأعظم من هذا أن الله يُقدر بعضَ خلقه على ختمه في آن واحد مرات كثيرة ؛ قال بعضهم :

كنت أستغربه حتى شاهدت بعضهم ختمه في دورة الطواف بالبيت الحرام ، فحققته مشاهدةً .

قال الشيخ ولي الله المرجانيّ[٢] :

وذلك أن الله أطلق كل شعرة في الجسد لقراءته ، والله أعلم))[٣] .

فهذه القصة مما تحتاج إلى برهان لبعدها في حكم العقل .

وقال أيضاً في موضع آخر :

((﴿ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ﴾[٤] : أي رفعناه ، والضمير لبني إسرائيل ؛ يعني أن الله قال لهم : خذوا التوراة ، فأبوا من أخذها[٥] ، فاقتلع الجبل ورفعه ﴿ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ... ﴾ الآية ...

١- اللَّوْط : الحُبُّ اللازق بالقلب . ((لسان العرب)) : ل و ط .

٢- لم أعثر له على ترجمة .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٤٥ – ٢٤٦ .

٤- سورة الأعراف : آية ١٧١ .

٥- هكذا في الكتاب بزيادة (من) .

وأين هؤلاء القومُ من هذه الأمةِ المحمدية حيث أخذوا الكتاب بقوة ، فصاروا يتلونه آناء الليل والنهار ، قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ...

ولما أخذوا الكتاب بقوة ورضاً سهّله الله عليهم ، ويسره لهم ، حتى إن منهم من يختمه في كل ساعة ، ومنهم من يختمه اثنا عشر ألف بالليل ، واثنا عشر ألف بالنهار ...))[١] .

فهذا الخبر من المستحيلات العقلية .

ومما أورده وهو بعيد في حكم العادة قوله :

((وقال - أيضاً[٢] - رضي الله عنه :

دخلت مسجد نبي بالإسكندرية بالديمان[٣] ، فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصلي ، عليه عباءة مخططة ، فقال : تقدم فصلّ . قلت له : تقدم أنت فصلّ . قال : إنكم من أمة نبيّ لاينبغي لنا التقدمُ عليه . قال : قلت له : بحق هذا النبيّ ، وقد[٤] وضع فمه على فمي إجلالاً للفظة النبي كي لاتبرز إلى الهواء . قال : فتقدمت وصليت))[٥] .

هذه قصة غريبة ، ولاتقوم على ضوابط شرعية صحيحة ؛ بل فيها تجاوزات مثل ادعاء نسبة هذا الرجل إلى النبوة بدون برهان ، وكالقسم بغير الله .

والملاحظ - هنا - أن السيوطيّ لم ينقد شيئاً مما أورده على هذه الشاكلة .

١- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥٦٥ - ٥٦٦ .

٢- كان ينقل عمّن سماه : ابن الأسمر .

٣- لم أقف على معنى هذه الكلمة ، والسياق يدلّ على أنها موضع .

٤- كأن في السياق انقطاعاً ، وإن كان المعنى يصح بتكلف .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٣ ، وانظر - أيضاً : ٢ / ١٤٠ ، ٣١٧ ، ٣ / ٥٢٦ .

ثالثاً : عدم عزوه لما ينقله من القَصص إلا نادراً :

كان أغلب ماأورده غيرَ معزوٍّ إلى مصدره ، ولا إلى قائله ، إنما يكتفي بـ (قال بعضهم) ، أو (قيل) ، أو (روي) إلخ ...

وقد يكون عزوه محيراً للباحث ؛ لكثرة التجهيل في عزوه ، مثل قوله :
((ذكر بعض شراح البخاريّ عن بعض من سمع الحديث : ((أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام في الصلاة أن يحوّل الله رأسه رأس حمار))[1] ، فاستهونه ، ورفع رأسه امتحاناً بما صحّ عن الصادق المصدوق ، فحوّل الله رأسه رأس حمار ، وصار عجباً يُنظر إليه))[2] .

ومن العزو النادر قوله :
((وحُكي أنه كان شداد بن حكيم البلخي الحاكم[3] يمر يوماً بمسجد من مساجد البلخي[4] ، ومؤذنه يؤذن ، وبحذاء هذا المسجدِ حانوتُ رجلٍ مُعَدِّل[5] ، فلما فرغ المؤذن من الأذان اشتغل ذلك المعدِّل بجمع المتاع الذي بين يديه ، ثم خرج إلى الصلاة ، فلما كان في الغد جاء المعدِّل وشهد على رجل بحق ، فرد شهادته ، وقال : إنك مستخفٌّ بأمر الصلاة حيث استقبلت أولا إلى رفع الأمتعة التي بين يديك بعد الأذان ، ثم خرجت إلى الصلاة . ذكره في الإحياء))[6] .

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه : كتاب الصلاة : باب إثم من رفع رأسه قبل الإمام : ١ / ١٧٧ ، ونص الحديث هو ((أما يخشى أحدكم ، أو لايخشى أحدكم ، إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار ، أو يجعل الله صورته صورة حمار)) ، وراوي الحديث هو أبوهريرة ، رضي الله عنه .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٩٢ .

٣- لم أعثر على ترجمته .

٤- لعلها : بمسجد من مساجد بلخ ، فإن المعنى بها أقوم ، و ((بلخ)) مدينة في أفغانستان اليوم .

٥- هو الذي يشهد للناس بالعدالة ، وهو مانسميه اليوم : المزكّي .

٦- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٦٠٨ - ٦٠٩ .

ولم أجد هذه القصةَ في مظانها من ((إحياء علوم الدين)) للغزالي .

رابعاً : الحكم على مايورده :

والمقصود بالحكم بيان حال القصة من الصحة ، أو الضعف ، أو الوضع .

لم يحكم السيوطي على ماأورده من قصص في كتابه هذا إلا في القليل النادر ، ومثال هذا قوله :

((وحكى البِكاليّ[1] **بسند صحيح** عن رجل كان بمكة ؛ انتهت حاله في العبادة إلى مقام عظيم ، ويقصده أصحاب الأموال ...)) .

والقصة طويلة[2] .

ثانياً : منهجه في إيراد المواعظ والرقائق :

أما منهجه في إيراد المواعظ والرقائق فهو الآتي :

١ - تناثر المواعظ والرقائق في ثنايا الكتاب :

لم يكن للإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - ضابطٌ واضح في إيراد المواعظ والرقائق ، بل قد تناثرت في الكتاب بدون أن يظهر لي جامع محدد لورودها .

وهذا أمر بديهي ؛ إذ قد يعتري المؤلفَ أمرٌ وجداني يستدعيه ذكرَ بعض الرقائق ، وقد لايعتريه مثله في مكان مماثل فلا يورد فيه شيئاً .

٢ - مزج المواعظ بالرؤى المرققة :

قد يذكر المنامات المرققة في مواعظه ورقائقه ، وذلك نحو قوله : ((فتأمل إحساس البهائم ومالنا حِسّ ، ملأنا بطوننا من الحرام ، فغلبت علينا سكرة المنام ، وتراكمت

١- لعله : نوف بن فضالة الحميريّ البكاليّ ، أبويزيد . من أهل الشام ، وهو ابن امرأة كعب الأحبار . روى عن عدد من الصحابة ، وكان أحد العلماء ، إماماً لأهل دمشق . مات بعد التسعين . انظر ((تهذيب التهذيب)) : ١٠ / ٤٣٦ - ٤٣٧ ، ولكن سياق القصة لايرجح أن يكون المقصود هو نوفاً هذا ، لأنه متقدم ، وسياق القصة متأخر عن زمن الصدر الأول ، والله أعلم .

وقال فيه الحافظ ابن حجر : مستور ، إنما كذّب ابنُ عباس مارواه عن أهل الكتاب : انظر ((التقريب)) : ٥٦٧ .

٢- انظر ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٧٢ - ٢٧٣ .

على قلوبنا سحائب المخالفة ، فادّعينا الدعاوى الباطلة ، وعن قريب ينكشف السحاب فتهب علينا نسائم الأسف والحزن ونقول : ياحسرتنا على مافرّطنا .

فبالله أيها الأخ قُم على قدم الاعتذار ، واكشف رأس الاستغفار ، وناد بلسان الاضطرار :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [1] .

قال بعضهم :

بت ليلةً ألوم نفسي ، وأُعدّد عليها ، ثم نمت ، فرأيت كأن القيامة قد قامت ، والناس جَمْعٌ جَمْعٌ ، فجئت إلى قوم عليهم ثياب حسنة ، ورائحة طيبة ، فأردت الجلوس معهم ، فأخذ بيدي شخصٌ وأزالني ، وقال :

أين أنت ؟ وما أنت منهم ؟ أين حالك من حالهم ؟ أين نورك من نورهم ؟ فلم أزل أُصرف من جَمْع إلى جَمْع حتى انتهيت إلى قوم عليهم أطمار[2] رثة ، ووجوهم مغبرة ، فلما رأوني قالوا :

تقدم إلينا ؛ فأنت من أصحابنا ، فعلمت ذُلي ومقامي ، فلزمت الحزن إلى يوم ألقاه .

اللهم إنك أنعمت على هذا العبد بإلزام الحزن قلبَه ، اخلع علينا بُرد[3] حُزن حتى أقوم على ساق سَبْق توبة تكابد الحزن إلى يوم ألقاك ...))[4] .

١- سورة الأعراف : آية ٢٣ .

٢- أطمار : جمع طِمْر ، وهو الثوب البالي ، وانظر ((لسان العرب)) : ط م ر .

٣- يمكن أن يضبط : بُرْد فيكون الثوب المخطط ، لكن المناسب للسياق أن تُضبط الكلمة : بُرُد جمع بُرْدة ، وهي الكساء الذي يُلتحف به ، وانظر ((لسان العرب)) : ب ر د .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥١٣ - ٥١٤ ، وانظر : ١ / ١٢ ، ٢ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

٣ - مزج المواعظ والرقائق بالقصص:

قد يذكر القصة ويتبعها الموعظة أو العكس ، لكن الغالب أنه يفرد القصص عن المواعظ إلا ماكان من القصص ذا صفة وعظيّة ، وذلك نحو قوله :

((وحُكي أنه كان في غار السودان[١] عابدٌ ، فأتى بعض الشباب بعود وكوز من الخمر فجلس بأعلى الغار من غير علم بالعابد ، فلما شرع في ضرب العود والسُّكر قرأ العابد :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ الآية[٢] ، فسمعه الشاب فقال : بلى ، آن ، وكسر العود والكوز ، وخرج فارّاً بنفسه ...

وأنت يامحمديّ تتلوها كل ساعة ولاترجع إلى ربك ، أهكذا شأن من يريد الرجوع إلى الله ؟ كلا والله ، ليس ثَمّ رجوع ولاندم ، وإنما هو انهماك في المعاصي ، وقلة الخضوع ...))[٣] .

٤ - ذِكر جملة من العبادات القلبية :

أورد الإمام السيوطي - رحمه الله تعالى - عدداً من العبادات القلبية ، وتوسّع في الكلام على بعضها ، فقد تحدث عن التقوى[٤] ، والصبر[٥] ، والتوكل[٦] ، والخوف[٧] ، والرجاء[٨] ، والتوبة[٩] ، والاستغفار[١٠] ، والرضا بالقضاء[١١] ، وغيرها .

١- هكذا أبهمه السيوطيّ رحمه الله تعالى .

٢- سورة الحديد : آية ١٦ ، وكمال الآية هو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

٣- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٥٢٦ ، وانظر أيضاً : ١ / ١٢ - ١٣ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٥- المصدر السابق : ٢ / ٣٣٣- ٣٣٤ .

٦- المصدر السابق : ٢ / ٤٨٦ .

٧- المصدر السابق : ٢ / ٩١ - ٩٢ ، ٤٩٥ .

٨- المصدر السابق : ٢ / ٩١ - ٩٢ .

٩- المصدر السابق : ٢ / ٥٨٣ - ٥٨٤ ، ٣ / ٤٥ - ٤٦ .

١٠- المصدر السابق : ٣ / ٤٥ - ٤٦ .

١١- المصدر السابق : ٢ / ٤٤٤ - ٤٤٦ .

فمن أمثلة كلامه على هذه المرقفات قوله في التقوى عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾[1] :

((معناه مع الذين اتقوا بمعونته ونصرته ، وهو مصدر مشتقّ من الوقاية ؛ فالتاء بدل من واو ، ومعناه الخوف والتزام طاعة الله ، وتركِ معاصيه ، فهو جِماع كل خير .

وقد ضمن الله للمتمسك به الهدى ، لقوله : ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2] .

والولاية ، لقوله : ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] .

والمحبة ، لقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4])) .

ثم أخذ السيوطيّ في تعداد فوائد التقوى ، وعرّج بعد ذلك على بواعثها ، ودرجاتها في كلام جميل[5] .

٥ - ذِكْر جملة من الأدعية ، وبيان آداب الدعاء :

ذكر الإمام السيوطيّ آداب الدعاء ، وتخلّل كتابَه عددٌ من الأدعية ، وكل ذلك من المرقفات المهمة ، فمما ذكره في آداب الدعاء قوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[6] ، فقال بعد كلام طويل مُرقق في شرح الآية وسبب نزولها :

((فإن قلت : قد رأينا من يدعو ولايستجيب له .

١- سورة النحل : آية ١٢٨ .

وقد سبق أن ذكرت أن الإمام السيوطي ينتزع الشاهد من الآية انتزاعاً مُخلاً بمعناها - أحياناً - ليستقيم له وضعها تحت الحرف الذي ساقها فيه ، انظر ص ٤١٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

وكمال الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ﴾ .

٢- سورة البقرة : آية (٢) .

٣- سورة الجاثية : آية ١٩ .

٤- سورة التوبة : آية ٤ .

٥- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٣٢ - ٣٣٣ .

٦- سورة البقرة : آية ١٨٦ .

والجواب إذا وقع الدعاء من المضطر حصل جوابه على كل حال ، ومن وُفّق للدعاء لم يحرم الإجابة ...

فإن قلت : بيّن لنا الاضطرار وشروطَ الدعاء .

فالجواب : إن الاضطرار ألا تبقى فيك علاقةٌ مع غيره سبحانه ، وإن أخلصت له في الدعاء وتضرعت ، ورجوت وخِفتَ ، واستغثت به فلا بد من إجابتك إما عاجلاً فتبلغ سُؤْلك ، أو يكفر لك به من ذنوبك ، أو يؤخر لك لمصلحتك ، أو يرفع درجتك ، ولعله يعطيك سُؤلك فتغفلَ عنه[1] .

وهو يحب الملحّين في الدعاء ...))[2] .

ثم أخذ السيوطيّ في تبيين أسباب قبول الدعاء ، وأوقاته الفاضلة ، ودرجات الناس في الدعاء .

وقد تفرق في مواضعَ من كتابه أدعية كثيرة ومناجاة لله تبارك وتعالى[3] .

تلك كانت نبذة موجزة عن منهج الإمام السيوطيّ في إيراد القصص والمواعظ والرقائق .

وأنا أميل إلى أن الإمام السيوطيّ قد ألّف هذا الكتاب أواخرَ حياته ؛ وذلك لما فيه من كثرة واضحة في المواعظ ، والرقائق ، والأدعية ومناجاة الله تبارك وتعالى وسؤاله الرحمة ، مما لم أره له في كتاب آخر على شاكلة ((معترك الأقران)) ، والله أعلم .

١- أي فتغفل عن الله بعد الإجابة .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٣ - ٢٤ .

٣- انظر : ١ / ٣٧٣ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٢ / ١٢ ، ٩٩ ، ٣ / ٤٦ ، ١٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٦٤٩ .

المبحث السابع
منهجه في ذكر المسائل العلمية المادية

تحدث الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – عن جملة من المسائل العلمية المتعلقة بالمادة و ((الطبيعةِ)) التي خلقها الله – تعالى – تحدّث عن ذلك في مواضعَ كثيرةٍ من كتابه ، ولم يعرف عن السيوطيّ تخصصٌ في هذه المسائل ، ولم يشتهر عنه التوسع فيها ، وإنما كان ينقل ماوصل إلى عصره من العلوم والمعارف .

وقد كان للمسلمين السَّبقُ والتقدم في المسائل العلمية النظرية والتجريبية ، وكانت لهم حضارة مادية أدهشت المؤرخين لصحة قواعدها ، ولعظمة ما أنتجته من صناعات وفنون[1] .

لكني أعني هنا ماأورده السيوطيّ من مسائلَ نظريّة مجردة ، ليست من قَبيل العلم التجريبيّ الذي برع فيه المسلمون قديماً ، وقد كان يشوب بعضَ هذه المسائلِ بعضُ الأخطاء العلمية التي لايُسأل عنها أهل عصر السيوطيّ فمَن قبلهم ، إنما اكتُشف أنها أخطاء في وقت متأخر عن عصر الإمام السيوطي ، وكثير من الحقائق العلمية إنما ظهرت واشتهرت إبّان مايسمى بعصر النهضة في أوروبا .

وقد انقسمت المسائل العلمية التي ناقشها السيوطي من حيث تعلقها بالقرآن إلى قسمين :

مسائل لها تعلق بحقائقَ علميةٍ مذكورة في القرآن العظيم .

ومسائل علمية ذكرها السيوطي استطراداً ، ليس لها ذكر في القرآن العظيم .

١- انظر في هذا ((معالم الحضارة الإسلامية)) للدكتور مصطفى الشكعة ، و ((معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية)) للشيخ عبد الله علوان – رحمه الله تعالى – ، و ((شمس العرب تسطع على الغرب)) للأستاذة الألمانية زيغريد هونكه .

أ – مسائل علمية مذكورة في القرآن :

لابد أن يذكر هنا أن بعض المسائل التي أوردها السيوطيّ هي حقائق قرآنية مقطوع بها ، لكن تفسيره لها داخله الخطأ الذي كان فاشياً في عصره ، وذلك نحو قوله في مسألة تكوّن اللبن في الضَّرْع :

((﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ ﴾ [1] ...

قال الزمخشري :

إذا استقر العَلَف في كَرِش البهيمة طبخته ، فكان أسفله فَرْثاً[2] ، وأوسطه لبناً ، وأعلاه دماً ، والكبد مسلطة على ذلك تقسمه ، فيجري الدم في العروق ، واللبن في الضروع ، ويبقى الفَرْث في الكَرِش[3] .

ورده ابن الخطيب[4] بأنا مارأينا قطٌّ في كَرِش البهيمة المذبوحة لبناً ولا دماً .

١- سورة النحل : آية ٦٦ .

هكذا أورد السيوطي – رحمه الله تعالى – هذه الآية ، ولم يأت بأولها وهو قوله تعالى : ﴿ نُّسۡقِيكُم ﴾ ، وإنما فعل ذلك ليستقيم له إيرادها في حرف الميم من الوجه الخامس والثلاثين : ((ألفاظه المشتركة)) ، وقد نبهت على أمثال هذه المواضع سابقاً ، انظر ص ٤١٢ وما بعدها .

٢- الفَرْث : بقايا الطعام في الكَرِش : ((المعجم الوسيط)) : (ف ر ث) .

٣- قد نقل السيوطي كلام الزمخشري بتصرف يسير ، انظر ((الكشاف)) : ٢ / ٤١٦ .

٤- يعني به الإمامَ فخر الدين الرازي ، فإنه كان معروفاً بـ (ابن خطيب الريّ) ، وقول السيوطيّ : رده ابن الخطيب يُفهم منه أن الرازي رد كلام الزمخشري ، وإنما ردّ الرازي أثراً ضعيفاً عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ونصّه كما قال الرازي :

((روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال : إذا استقر العلف في الكَرِش صار أسفله فرثاً ، وأعلاه دماً ، وأوسطه لبناً ، فيجري الدم في العروق ، واللبن في الضَّرْع ، ويبقى الفرث كما هو ، فذاك هو قوله تعالى : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا ﴾ لايشوبه الدم ولا الفرث)) : ((مفاتيح الغيب)) : ٢٠ / ٦٦ .

وقول الرازي هذا فيه ملاحظتان :

الأولى : أنه رد هذا الأثر رداً عقلياً ولم يبين هل هو ضعيف أو لا ، ولعله اكتفى بإيراد سنده إشارةً إلى ضعفه ، لأن الكلبي متهم بالكذب ، كما ذكر ابن حجر ، انظر ((التقريب)) : ٤٧٩ .

الأخرى : أن كلام الزمخشري يكاد يكون هو بنصه الأثر المذكور عن ابن عباس آنفاً ، ولم يشر إلى ذلك الزمخشري ، ولم يبين ذلك السيوطيّ ، والله أعلم .

وأجاب بعضهم عنه بأن حالة الحياة لها زيادة ، ألاترى أن الميت إذا قُطع منه لم يخرج منه دم بوجه ، بخلاف الحيّ ؛ ولذلك كان الفلاسفة يشقون جوف الإنسان وهو حيّ لينظروا مايتحرك في بطنه .

والصحيح أن الغذاء يطبخه الكَرِش فيخرج منه أولاً الأجزاء الكثيفة – وهي الفَرْث – ويبقى دماً ، فيطبخه ثانيةً ويخُرج منه إلى الضروع الأجزاء اللطيفة وهي اللبن ، ويصير الباقي دماً صِرْفاً فيجعله في العروق ...))[1] .

الصحيح علمياً في هذه المسألة :

هذا الذي ذكره السيوطي – رحمه الله تعالى – في مسألة تكون اللبن وأنه هو الصحيح إنما هو بالنسبة إلىماوصل إليه علمُ عصره ، أما الصحيح الثابت علمياً في مسألة تكون اللبن هو أن الضروع لها غُددٌ تَفْرز اللبن ، قال الشيخ الطاهر بن عاشور ، رحمه الله تعالى :

((ومعنى كون اللبن من بين الفَرْث والدم إنه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفَرْث ، وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضَّرْع يمر بجوار الفضلات البولية والثُّفليّة[2] ، فتفرزه غدد الضَّرْع لبناً كما تفرزه غدد الكُليتين بولاً بدون معالجة زائدة ... وليس المراد أن اللبن يتميع من طبقتي فرث ودم ، وإنما الذي أوهم ذلك من توهمه حَمْله ﴿ بَيْنَ ﴾ على حقيقتها من ظرف المكان ، وإنما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازيّ ، فيُراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم : الشجاعة صفة بين التهور والجُبن ، فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسَب مبالغ علمهم ، مع كونه موافقاً للحقيقة .

١– ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٢٧ .

وانظر للمزيد من الأمثلة : ٢ / ٣٠٣ ، ٣ / ٣٨٧ ، ٤٠١ .

٢– الثُّفْل : ثُفْل كلّ شيء مااستقر تحته مِن كدره ، والثُّفْل – أيضاً – مارسب خُثارته وعلا صفوه من الأشياء كلها .

انظر ((لسان العرب)) : ث ف ل .

والمعنى إفرازٌ ليس هو بدم لأنه ألين من الدم ، ولأنه غير باق في عروق الضرع كبقاء الدم في العروق ، فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه ، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مُغذٍّ ، وليس قذراً ضاراً غير صالح للتغذية كالبول والثُّفْل))[1] .

وقال سيد قطب[2] ، رحمه الله تعالى :

((فهذا اللبن الذي تدره ضروع الأنعام ممّ هو ؟ إنه مستخلص من بين فرث ودم ، والفرث مايتبقى في الكَرِش بعد الهضم ، وامتصاصِ الأمعاء للعصارة التي تتحول إلى دم ، هذا الدم الذي يذهب إلى كل خلية في الجسم ، فإذا صار إلى غُدد اللبن في الضرع تحول إلى لبن ببديع صنع الله العجيب ، الذي لايدري أحد كيف يكون ... وقد بقي هذا كله سراً إلى عهد قريب ، وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا : خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر ، وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقةِ العلمية الكاملة))[3] .

ب – مسائل علمية ليست مذكورة في القرآن :

قد أورد السيوطيّ بعض المسائل العلمية التي ليست في أصلها حقائقَ قرآنية ، ولم يأت لها ذكر في كتاب الله تعالى ، إنما أوردها استطراداً ؛ وذلك نحو قوله :

١- ((التحرير والتنوير)) : ١٤ / ٢٠٠ - ٢٠١ .

٢- هو سيد بن قطب بن إبراهيم . مفكر إسلامي مصريّ . ولد في أسيوط سنة ١٣٢٤ . وتخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ ، وعمل في جريدة الأهرام ، وكتب في بعض المجلات الأدبية ، وعين مدرساً للعربية ، ثم تنقل في الوظائف الحكومية . انضم إلى الإخوان المسلمين سنة ١٣٧٣ ، ثم سجن فعكف على تأليف صفوة كتبه في السجن ، ثم أعدم بعد ذلك سنة ١٣٨٧ . انظر ((الأعلام)) : ٣ / ١٤٧ - ١٤٨ .

٣- ((في ظلال القرآن)) : ٤ / ٢١٨٠ - ٢١٨١ .

((﴿ ٱضۡطُرَّ ﴾[١] : أُلجئ ، وهو مشتق من الضرورة ... واختُلف في حدّ الاضطرار ، والصحيح أنه ثلاثة أيام .
والحكمة فيه أن الميتة إنما حُرّمت لسمّها وضرّها ، والآدمي إذا خلت معدته من الطعام نشأ منها سمٌّ قاتل يغلب على سمّ الميتة ، فلذا أُبيح أكلها))[٢] .

ومسألة السمّ الناشئ في المعدة إذا خلت من الطعام ليست مسألةً صحيحة – كما هو معروف اليوم – إنما أبيح أكل الميتة لئلا يموت الإنسان جوعاً إذا لم يجد طعاماً يسدّ حاجته ، والله أعلم .

منهج السيوطي في ذكر هذه المسائل :

أولاً : عدم ورود هذه المسائلِ تحت قواعدَ منضبطة :

لم يورد السيوطيّ هذه المسائل في كتابه إلا عَرَضاً واستطراداً ؛ فهي لم تُقصد ابتداءً ، إنما تذكر **في ثنايا الكلام على تفسير آية** ، أو **تقريرِ قاعدة** .

فمن كلامه على المسائل العلمية في ثنايا التفسير قوله في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ [٣] ، فقال بعد كلام في تفسير الآية :

((ومعنى الفلك جسم مستدير ... وقد قدّمنا أن مجاري القمر ثمانية وعشرون ؛ لأنه يقطع الفلك في شهر ، ومجاري الشمس مائة وثمانون لأنها تقطع الفلك في سنة ، ووجهه أن السنة ثلاثمائة وستون يوماً ، ونصفها مائة وثمانون ، فهي تقطع في نصف السنة ستة بروج ، ثم ترجع صاعدة أوهابطة فتمشي في نظائر تلك البروج ، فما مجاريها في الحقيقة إلا ستة بروج ...))[٤] .

١- من قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ ﴾ سورة البقرة : آية ١٧٣ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٥٥٤ ، وانظر – للمزيد من الأمثلة – :٢/ ٦٢٠، ٦٥١ - ٦٥٤.

٣- سورة الأنبياء : آية ٣٣ .

٤- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٤٠٠ .

وجُلّ ماأورده من مسائل علمية إنما هو منثور في ثنايا تفسيره لبعض الآيات[1] .

أما ماأورده في تقرير قاعدة فمثاله قوله في أسباب التقديم وأسراره في السبب الثالث منها ، وهو التقديم بسبب التشريف :

((... وتقديم المؤمنين على الكفار في كل موضع ، وأصحابِ اليمين على أصحاب الشمال ، والسماء على الأرض ، والشمس على القمر حيث وقع إلا في قوله : ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا * وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا * وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴾[2] .

فقيل لمراعاة الفاصلة[3] ، وقيل لأن انتفاع أهل السموات العائد عليهن الضمير به أكثر .

وقال ابن الأنباريّ :

يقال إن القمر وجهه يضيء لأهل السماوات ، وظهره لأهل الأرض ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِنَّ ﴾ لما كان أكثر نوره يضيء إلى أهل السماء))[4] .

ثانياً : نقد بعض المسائل ومناقشتها :

نقد السيوطيّ عدداً من المسائل التي أوردها ، وناقش مصنفيها فرجح مايعتقده الراجح في المسألة ، وإن ظهر أنه خطأ بعد ذلك كما ذكرت سابقاً ؛ إذ مثل هذا لايضره[5] .

١- انظر - للمزيد من الأمثلة - : ١ / ٥٤٩ ، ٢ / ٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٧ ، ٣ / ٣٨٧ .

٢- سورة نوح : آية ١٥ ، ١٦ .

٣- أي لتستوي ﴿ طِبَاقٗا ﴾ و ﴿ سِرَاجٗا ﴾ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٧٥ - ١٧٦ .

وانظر مزيداً من الأمثلة في : ١ / ٨٠ - ٨١ ، ٥٥٤ ، ٢ / ٦٢٠ .

٥- انظر ص ٥٣٢ .

ومن هذه المسائل قوله عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[1] فقال :

((كل ماعلاك يسمى سماءً ، وسُمي السحاب سحاباً لعلوه ، وهذا جارٍ على الخلاف في المياه - على ماقدمنا - هل هي من السماء ؟ أو هي من بخار لطيف يصعد من البحار فيتكون منه السحاب ؟ والصحيح الوقف))[2] .

ومن هذه المسائل - أيضاً - قوله عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾[3] ، فقال :

يقتضي أنها بسيطة لاكُرة ، وهو ظاهر الشريعة[4] ، وقد يُرتب لفظ المد والبسط مع التكوير ؛ لأن كل قطعة من الأرض ممدوة على حِدَتها ، وإنما التكوير لجملة الأرض :

وقال الشيخ عبد الخالق[5] :

وكنت أسمع من الشيوخ أن في الأرض خمسةَ أقوال : قيل : كروية ، وقيل : بسيطة ، وقيل : إنها شبه مكب[6] ، وقيل بمنزلة حميلة السيف[7] الذي يُتقلد به ، وإنها شبه حلقة محيطة بهذا العالم كإحاطة الحميلة ، وقيل شبه سمكة ، ومن أجل ذلك وضعوا الاصطرلاب[8] الحوتي الجنوبيّ .

١- سورة البقرة : آية ٢٢ .

٢- ((معترك الأقران)) : ٣ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

٣- سورة الرعد : آية ٣ .

٤- أي ظاهر الآيات قبل إعمال النظر ، كما يفهم من السياق بعده .

٥- لم أجد له ترجمة .

٦- معاني الكَبِّ في اللغة تدور على القلب والانحناء والسقوط ، ولعل المعنى هنا : فيها انحناء يسير من فوقها ، والله أعلم .

٧- الحَميلة : علاقة السيف : ((لسان العرب)) : حمل .

٨- آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية كارتفاع الشمس ، ومعرفة الطالع ، وسَمْت القبلة ، وعرض البلاد ، وغير ذلك ، واصطرلاب كلمة يونانية الأصل ، وقد تنطق (اسطرلاب) بالسين على أصلها اليونانيّ ، وقيل إن أول من وضعه بَطَلَيْموس ، وأول من عمله في الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزاريّ . انظر ((كشف الظنون)): ١/ ١٠٦ - ١٠٧ . وانظر في أنواعه وأشكاله بالتفصيل كتاب ((أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك)) للدكتور علي الدفاع : ٣٣ - ٣٨ .

قال : والصحيح عندهم أنها كورية ، وأن السماء كورية[1] .

وقال ابن عرفة[2] :

استدل بعضهم بهذه الآية على أن الأرض بسيطة ، ولادليل له في ذلك ؛ لأن اقليدس الهندسي[3] قال : الكرة الحقيقية لايمكن إقامة الزوايا والخطوط عليها بوجه ، ونحن نجد الأرض تقام عليها الخطوط وغير ذلك ، ونراها مستوية ، وذلك من أدلِّ دليل على أنها وإن كانت كروية فليست كالكرة الحقيقية ؛ بل أعلاها مُستوٍ كبعض الكور التي أعلاها يكون بسيطاً مستوياً))[4] .

ثالثاً : الربط بين العلم ومبدعه سبحانه وتعالى :

أورد السيوطي في موضع واحد فقط مجموعة من إبداعات الخالق في جسم الإنسان ، وربط بينها وبين خالقها بأسلوب جميل ، وذلك عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ عَدَلَكَ ﴾ – أي ﴿ خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [5] – فقال بعد كلام في تفسير الآية :

١- كذا وردت في المطبوعة ، وعلق المحقق على ذلك بقوله : ((هذا بالأصلين ، وقد ذكرها المؤلف في هذا البحث كله بلفظ : كورة ، وهي – بفتح الكاف – : لَوْث العمامة [طيّها] وإدارتها ، وبالضم : الصُّقع [أي الموضع]))، انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٠٣ .

٢- محمد بن محمد بن عرفة ، أبوعبد الله الوَرْغَمّيّ – نسبة لـ ((وَرْغَمّة)) قرية من إفريقية – التونسيّ المالكيّ ، عالم المغرب . ولد سنة ٧١٦ ، وتفقه وقرأ القرآن بالقراءات ، ومهر في العلوم مع الدين المتين والخير والصلاح . وله بعض المصنفات في الفقه والفرائض والتفسير وغيرها . مات بتونس سنة ٨٠٣ . انظر ((الضوء اللامع)) : ٩ / ٢٤٠ – ٢٤٢ . وكتابه في التفسير يطبع تباعاً في تونس منذ سنة ١٤٠٧ .

٣- إقليدس بن نوقطرس الصُّوريّ . فيلسوف يونانيّ ، رياضيّ . قيل إنه ولد في الإسكندرية ، وتوطّن في بلاد الإغريق قبل ميلاد المسيح – عليه الصلاة والسلام – بثمانمائة سنة ، ثم جاء إلى الإسكندرية وافتتح مدرسة لتعليم الرياضيات ، وهو أقدم من أرشميدس . أشهر كتبه ((أصول إقليدس)) . انظر ((الفهرست)) : ٥٣٧ ، وهامش رقم (١) في الصفحة نفسها .

٤- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٣٠٣ ، وفي مثال خلق اللبن الذي ذكرته آنفاً مثالٌ أيضاً على ترجيحه بين الأقوال العلمية .

٥- سورة الانفطار : آية ٧ .

((فتأمل ياابن آدم هذه الكرامات التي أكرمـك بهـا ... وإلى تفصيل أعضـائك مـن عظم ولحم ، ومخ وعصب ، وعروق ودم ، وجلـد وظفـر وشـعر ، كـل واحـد منها لحكمة ، لولاها لم يكن الجسد بحسَب العادة ؛ فالعظام منها هي عمود الجسد فضـمَّ بعضهـا إلى بعـض بمفاصلَ وأقفالٍ مـن العضـلات والعَصَـب رُبطـت بهـا ، و لم يجعلها عظماً واحداً ... ثم خلق العروق في جميع الجسد جـداولَ لجريـان الغـذاء فيها إلى أركان الجسد ، لكل موضع مـن الجسـد عـدد معلـوم مـن العـروق صغـاراً وكباراً ... ثم أجرى الدم في العروق سيالا خاثراً[1] ، ولو كان يابساً أو أكثـف ممـا هو عليه لم يَجْرِ في العروق ...))[2] .

وهكذا استمرّ في ذكر أعضاء جسم الإنسان على هذا المنوال حتى قال :

((فـانظر إلى دقـائق هـذا الصنعِ الجليـل ، وحسـن المعـاني مـن رب جميـل لجميـع الحيوان ؛ وخصّ هـذا الآدمـي بخصائصَ وحِكَـم يُعجِـز ذكرُهـا ، وقـد أشـرنا إلى بعضها ، وقد ذكر أهل علم التشريح تفصيلها .

وبالجملـة فهـذا الآدمـي هـو العـالَم الأكـبر ، وجميـع المخلوقـات هـو العـالم الأصغر ، وكيف لاوقد جمع الله فيه مـاتفرق في كـل الأشـياء ... اللـهم يـامقلب القلوب ثبت قلوبنا على طاعتك ، وأعنها على عبادتك ، وهب لها أرواحاً تقودهـا إلى مشاهدتك ...))[3] .

تلك كانت نبذة موجزة عن منهج الإمام السيوطيّ في طَرْق الجوانـب العلميـة الماديّة في كتابه .

وبهذا المبحثِ ينتهي الكلام على منهج الإمام السيوطيّ في عرض وجوه الإعجاز .

١- الخُثورة : نقيض الرقّة . انظر ((لسان العرب)) : خ ث ر .

٢- ((معترك الأقران)) : ٢ / ٦٥١ - ٦٥٢ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٦٥٤ .

الفصل الثالث

دراسة أهم القضايا العلمية في كتاب ((معترك الأقران))

كتاب ((معترك الأقران)) كبير الحجم ، فيه مسائل متنوعة ، وكثيرة شاملة ، يصعب تناولها ومناقشتها على وجه الحصر ، لكن هناك بعض القضايا التي أوردها الإمام السيوطي في الكتاب تمس الحاجة إلى مناقشتها ، منها ماهو شبهة تحتاج إلى تفنيد ، ومنها ماهو مجمل بحاجة إلى تفصيل وزيادة بسط .

وقد أشرت إلى بعضها سابقاً[1] ، وذكرت أني سأتناولها بالتفصيل في هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

والقضايا التي سأدرسها في هذا الفصل هي :

١ - قضيّة الرسم العثماني وماجاء فيها في كتاب ((المعترك)) مما يحتاج إلى دراسة ومناقشة .

٢ - قضية الفاصلة القرآنية .

٣ - قضية الذبيح : أإسماعيل هو أم إسحاق ، عليهما الصلاة والسلام ؟

١- انظر ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

أولاً : قضية الرسم العثماني وماجاء فيها في كتاب ((المعترك))
ممايحتاج إلى مناقشة ودراسة

حرص الرسول العظيم - صلى الله عليه وسلم - على كتابة الوحي الذي كان يتنزّل به جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فاتخذ لأجل ذلك عدداً من كتبة الوحي المطهّر، اختصوا بكتابته من بين كتّاب النبي - صلى الله عليه وسلم - الذين كان عددهم يفوق الأربعين[١] .

وكان من أشهر كتبة الوحي ذو النورين عثمان، وعلي بن أبي طالب، وأبيُّ ابن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم[٢]، رضي الله عنهم أجمعين.

ولكن هذه الكتابةَ كانت مثبتة على صحف وألواح وعُسُب[٣] متفرقة فلم تكن مجموعة في مكان واحد[٤] .

ثم لما كان عهد الصديق رضي الله عنه جمع القرآن في صحف واحدة مجموعة، وعهد إلى زيد بن ثابت - رضي الله عنه - القيام بهذه المهمة الجليلة[٥] .

وفي عهد عثمان - رضي الله عنه - تمّ جمع الناس على مصحف واحد ، موثقاً تمام التوثيق بإجماع الصحابة الذين كانوا في المدينة في زمان عثمان ، رضي الله عنهم أجمعين[٦] .

١- نقل ذلك الأستاذ غانم الحمد عن عدد من المصادر ، انظر كتاب ((رسم المصحف)) : صفحة ٦٠ .

٢- المصدر السابق : ٩٦ .

٣- العُسُب جمع عَسِيب ، وهي الجريدة من النخل إذا نُحِّيَ عنها خُوصها : انظر ((لسان العرب)) : عسب .

٤- انظر ((رسم المصحف)) : ٩٩ ، فقد ذكر المصنف عدداً من الآثار في هذا الباب .

٥- انظر تفصيل ذلك في المصدر السابق ص : ١٠٠ - ١٠٦ ، و ((صحيح البخاري)) : ٦ / ٢٢٥ .

٦- انظر تفصيل ذلك في المصدر السابق : ١٠٧ ومابعدها ، و ((صحيح البخاري)) : ٦ / ٢٢٦ .

وقد عُرفت طريقة كتابة كلمات المصحف بـ ((الرسم العثمانيّ)) أي الرسم الذي تم في عهد الخليفة الراشد عثمانَ بنِ عفان – رضي الله عنه – بموافقته وإشارته ، وموافقةِ جميع الصحابة – رضي الله عنهم – الذين كانوا في المدينة المنورة آنذاك ، فلم يشذ منهم أحد .

وقد رأى كثير من العلماء وجوب المحافظة على الرسم العثماني وعدمِ تغييره[1] .

وقد اختلفت الأنظار في هذا الرسمِ وطريقته ، فجمهور العلماء قد اعتقد فيه الكمال ، وأن الصحابة – رضي الله عنهم – كانوا موفقين في كتابته إلى الغاية التي لامزيد عليها ؛ حيث استطاعوا كتابة الكلمات التي تختلف قراءتها بطريقة تجمع بين القراءات المختلفة[2] .

وذهب آخرون إلى أن الرسم توقيفيّ ؛ لكن ليس لهم دليل على هذا[3] .

وبعض العلماء رأى أن طريقة كتابة المصحف تدل على أن الخط العربي كان في بداية أمره ، وأن الصحابة – رضي الله عنهم – كتبوا المصحف بأفضل ماتوفر في زمانهم وإن خالف ذلك قواعد الإملاء المستقرة بعد عصرهم بمدة ، فكتابتهم لبعض الكلمات القرآنية حصل فيها خطأٌ غير متعمد ؛ لأنهم – رضي الله عنهم – لم يكونوا يعلمون غير ذلك، فممن ذهب إلى هذا الرأيِ ونصره ابن خلدون[4]– رحمه الله تعالى – حيث قال :

١- انظر ((رسم المصحف)) : ١٩٧ – ٢٠٠ .

٢- انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ١ / ١١ – ١٢ .

٣- انظر ((رسم المصحف)) : ٢٠٢ .

٤- هو الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، ولي الدين ، أبو زيد الحضرمي ، الإشبيلي الأصل التونسيّ ثم القاهريّ المالكيّ . ولد بتونس سنة ٧٣٢ ، وحفظ القرآن وعدة كتب ، وطلب العلم على مشايخَ عدة ، واعتنى بالأدب ، وحفظ عدداً من دواوين الشعر ، ارتحل إلى عدة بلدان ، وصارت عليه أمور حتى قدم القاهرة سنة ٧٨٤ فأُكرم ووُلي قضاء المالكية بالديار المصرية . ألّف تاريخاً وقدم له بمقدمة اشتهرت بـ ((مقدمة ابن خلدون)) . توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦ . انظر ((الضوء اللامع)) : ٤ / ١٤٥ – ١٤٩ .

((كان الخط العربيّ لأول الإسلام غيرَ بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة ، ولاإلى التوسط ؛ لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع ؛ وانظر ماوقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف ؛ حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غيرَ مستحكمة في الإجادة ؛ فخالف الكثيرُ من رسومهم مااقتضته رسومُ صناعة الخط عند أهلها ، ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه ...

ولاتلتفتن في ذلك إلى مايزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محْكمين لصناعة الخط ، وأن مايُتخيّل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيّل بل لكلها وجهٌ ... وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط ، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته ، وطلبوا تعليل ماخالف الإجادة من رسمه ، وليس ذلك بصحيح))[1] .

والدارس لعلم القراءات وعلم الرسم يعرف ضعف رأي ابن خلدون هذا ، وأنه تحامل في كلامه ، و لم يناقش ماصنعه الصحابة – رضي الله عنهم – مناقشة علمية صحيحة .

وقد ذهب إلى رأيه هذا عدد من القدامى والمحدثين و لم يأتوا فيه بجديد[2] .

والرأي الذي ينبغي المصير إليه في هذه المسألة هو أنه ينبغي على المتكلم في

١- ((مقدمة ابن خلدون)) : ٤١٩ .

٢- انظر ((رسم المصحف)) : ص ٢٠٨ – ٢١٢ ، وانظر الهوامش : ٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، فقد ذكر الباحث عدداً من القدامى منهم : الفرّاء ، وابن قتيبة ، وذكر من المحدثين : عبد العزيز فهمي ، وابن الخطيب ، والدكتور علي وافي ، وعبد الجليل عيسى ، وبيّن أن عبد العزيز فهمي وابن الخطيب كانا ذوَيْ نيات سيئة وأغراض باطلة ، انظر ص ٢١٢ هامش ٤١ .

الرسم العثمانيّ ((أن يستبعد فكرة الخطأ وهو يحاول أن يجد التفسير الصحيح لظواهر الهجاء الواردة فيه ، وأن يتوقف عن القول فيما لم يتوفر لديه فيه مايرجح به رأيا أو يقدم به تفسيراً ؛ لأن جانباً كبيراً من تاريخ الكتابة العربية في تلك الفترةِ المتقدمة لايزال غيرُ معروف ، ويظل الرسم العثماني بكل مايقدم من أمثلة وصور لرسم الكلمات خيرُ ممثل لواقع الكتابة العربية في تلك الحقبة ...))[1] .

وهناك أمر مهم في هذه القضيةِ وهو أن القول بأن قواعد الرسم العثماني جاءت موافقة لقواعد الهجاء إلا في كلمات قليلة ، هذا القول ((منهج مقلوب في دراسة القضية ؛ وذلك أن الرسم العثماني ماهو إلا النموذج الحقيقي لحالة الكتابة العربية في الفترة التي نسخت فيها المصاحف ، وظل الناس يكتبون وفقاً لما جرى في المصحف فترة طويلة ، إلا أن حرص علماء العربية على تيسير القواعد الكتابية بعد ذلك الاستعمالِ الواسع للكتابة جعلهم يسعون إلى توحيد قواعد الرسم العثمانيّ وفقاً لأصولهم الصرفية وأقيستهم النحوية ، وظلت قواعد الرسم العثماني هي العمودَ الأساسيّ في قواعد الهجاء العربي التي وضعها علماء العربية ، وليس من المنطقي ولا من المنهج العلمي السديد أن نقيس ظواهر الرسم العثماني بأصول وقواعدَ جاءت لاحقةً لتاريخ وجود تلك الظواهر ، ومعتمدة عليها في أكثر جوانبها))[2] .

هذا هو الرأي السديد – في تقديري – في هذه المسألة ، والله أعلم .

وبعد هذا التمهيدِ لهذه المسألةِ فإني أذكر موقف الإمام السيوطي حيال بعض قضاياها ، فقد ذكر – رحمه الله تعالى – عدداً من مسائل الرسم العثمانيّ التي كثر الحديث فيها ونوقشت مناقشة مستفيضة ، ذكرها مرسلةً بدون نقد ولا مناقشة ولادراسة ، ولعل ذلك لشهرتها ، واستفاضة أجوبتها في زمانه .

١– ((رسم المصحف)) : ٢٤٢ .

٢– المصدر السابق : ٢٤٤ .

وهذا منهج خطر على أذهان الناشئة - في زماننا - حيث يتوهمون الخطأ في كتاب الله تعالى ، وهو أيضاً مصدر سرور للمستشرقين وتلاميذهم المقلدين ، الذين يتلقفون هذه الرواياتِ بتلهف وتشوّق كيما يكيدوا للمسلمين ولكتابهم .

ومن هذه المسائل التي أوردها الإمام السيوطي :

أولاً : تشديد ((إن)) ورفع ﴿ هـذان ﴾ من قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [1] .

هذه قضية كثر النقاش فيها عند أئمة التفسير واللغة ؛ وهذا لأن (إنّ) تعمل في الاسم فتنصبه ، وقد تَخَلَّف هذا العمل في هذه القراءة ، وهي قراءة الأكثر من أئمة القراء[2] .

كلام الإمام السيوطي :

أما تناول الإمام السيوطيّ لهذه القضيةِ - في هذا الكتاب - فقد جاء على غايةٍ من الاقتضاب والإيجاز ؛ فقد قال رحمه الله تعالى :

((قُرئ : ﴿ إِنَّ هَٰذَيْنِ ﴾ بالياء ولاإشكال في ذلك[3] .

وقُرئ بالتخفيف[4] ، وهي مخففة من الثقيلة وارتفع بعدها ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ بالابتداء ، وأما على قراءة نافع[5] وغيره بتشديد إن ورفع ﴿هَٰذَٰنِ﴾ فقيل : ﴿ إِنَّ ﴾ هنا بمعنى (نَعَمْ) فلاتَنصب وقيل : اسم إن ضمير الأمر والشأن ؛ تقديره (إن الأمر) و ﴿ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ مبتدأ وخبر في موضع خبر ﴿ إِنَّ ﴾ .

١- سورة طه : آية ٦٣ .

٢- قرأ ابن كثير وحفص بإسكان النون وقرأ الباقون بتشديدها ، وقرأ أبوعمرو بالياء في ﴿ هَٰذَيْنِ ﴾ جرياً على أصل الإعمال . انظر ((النشر في القراءات العشر)) : ٢ / ٣٢٠ - ٣٢١ .

٣- لأن (إن) عملت عملها فنصبت ﴿هَٰذَيْنِ﴾ بالياء .

٤- أي بسكون النون من ﴿ إِنْ ﴾ .

٥- نافع بن عبد الرحمن الليثيّ بالولاء . قرأ على جماعة من التابعين من أهل المدينة ، وكان إماماً عالماً بوجوه القراءات ، توفي سنة تسع وستين ومائة . انظر ((غاية النهاية)) : ٢ / ٣٣٠ - ٣٣٤ .

وقيل جاء القرآن في هذه الآية بلغة بني حارث بن كعب[1] ، وهي إبقاء التثنية بالألف في حال النصب والخفض .

وقالت عائشة : هذا مما لحن فيه كاتب المصحف[2] .
وقد أكثروا في الكلام في هذه الآية ، وألفوا فيها تأليفاً))[3] .

وإيراده قولَ عائشة – رضي الله عنها – دون تفنيد أو تأويل أو بيان أقوال الأئمة فيها زلّة علمية عظيمة من إمامٍ مثله ، وهي طامّة من الطامات التي وردت في بعض الكتب العلمية ، وأطنب الأئمة في بيانها وتفنيدها .

وقد كان للسيوطي – رحمه الله تعالى – مندوحةٌ في عدم ذكر هذه المسألةِ ألبتة ، أو يذكرها ويبينها ، أما أن يتركها غُفْلاً كما صنع هنا فليس هذا بمحمود ؛ وذلك لأنه يمكن أن تَعْلَقَ في الأذهان شبهةٌ يصعب امّحاؤها من عقول الناشئة وقِصار العلم ، وضعاف الرأي والفكر ، ولأن أعداء الإسلام من مستشرقين وغيرهم يبذلون الغالي والنفيس لجمع مثل هذه المروياتِ لإفساد إيمان عامة المسلمين بعظمة كتابهم ، وعلوّه عن التغيير والتحريف .

وقد تكلم السيوطي – رحمه الله تعالى – على هذه المسألةِ في كتابه ((الإتقان)) كلاماً حسناً وإن لم يستوعب أطرافها ، وكان ينبغي له أن يبين مثل ذلك التبيانِ في هذا الكتابِ أيضاً ؛ لأن هذا موضع مناسب ، ولعل الإمام السيوطيّ اكتفى بما ذكره في ((الإتقان)) ، ولو أحال إليه لكان حسناً ، والله أعلم .

١–بطن من تميم ، من العدنانية ، أوهم من أهل نجران بطن من مَذْحِج من القحطانية ، وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن بني الحارث بن كعب الذين هذه لغتهم هم أهل نجران .
انظر ((معجم قبائل العرب)) : ١ / ٢٣١ ، و ((مجموع الفتاوى)) : ١٥ / ٢٥١ .
٢– سيأتي تخريج هذا الأثرِ بالتفصيل قريباً ، إن شاء الله تعالى .
٣– ((معترك الأقران)) : ٣ / ٢٠٤ – ٢٠٥ .

والمحقق الفاضل لم يتكلم على هذه المسألةِ بشيء ، وكان التعليق عليها – ولو يسيراً – من المهم الواجب في دين اللـه تعالى ، ولعله لم ينتبه لخطورتها .

تخريج هذا الأثر :

قبل الكلام على هذا الأثرِ وإيرادِ أقوال الأئمة فيه لابد من ذكر سنده وبيان درجته :

قد أخرج هذا الأثرَ الإمام أبوعبيد القاسم بن سلاّم[1] – رحمه اللـه تعالى – فقال :

((حدثنا أبو معاوية[2] عن هشام بن عروة[3] عن أبيه[4] قال : سألت عائشة عن لحن القرآن[5] : عن قوله :

﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾[6] :

وعن قوله :

﴿ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[7].

وعن قوله :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾[8] .

فقالت :

١- الإمام المشهور : ثقة فاضل ، مصنف . ليس له في الكتب الستة حديثٌ مسند بل أقوال في شرح الغريب . مات سنة ٢٢٤ . انظر ((التقريب)) : ٤٥٠ . وقد سبقت ترجمته ، وإنما أعدت بعضها لبيان حال رجال الأثر .

٢- محمد بن خازم ، أبو معاويةَ الضرير الكوفيّ . عمي وهو صغير . ثقة ، أحفظ الناس لحديث الأعمش وقد يَهِم في غيره .

مات سنة ١٩٥ وله اثنتان وثمانون سنة ، وقد رُمي بالإرجاء . روى له أصحاب الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٤٧٥ .

٣- هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسديّ . ثقة فقيه ، ربما دلّس . مات سنة ١٤٥ وله سبع وثمانون سنة ، وحديثه في الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٥٧٣ .

٤- عروة بن الزبير بن العوام الأسدي ، أبوعبيد اللـه المدني . ثقة فقيه مشهور . مات سنة ٩٤ ، ومولده في أوائل خلافة عثمان ، رضي اللـه عنه . حديثه في الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٣٨٩ .

٥- أي في ظنه ورأيه لاعلى أنه واقع في القرآن العظيم .

٦- سورة طه : آية ٦٣ .

٧- سورة النساء : آية ١٦٢ .

٨- سورة المائدة : آية ٦٩ .

يابن أختي : هذا عمل الكُتّاب ، أخطأوا في الكتاب))[1] .

وقد حكم الإمام السيوطيّ على هذا الإسنادِ بأنه صحيح على شرط الشيخين[2] .

لكن محقق كتاب ((فضائل القرآن)) قد ذكر أن هذا الأثرَ ضعيف لضعف أبي معاويةَ في هشام ولأنه عنعن في روايته[3] ، حيث إنه ربما يدلّس .

ولكن ليس كل أحاديث أبي معاوية عن هشام ضعيفة[4] ، و لم يقل أحد إنه دلس عن هشام حتى يُتهم في العنعنة هاهنا ، إلا أن كان قصد المحقق أن هشاماً هو الذي دلّس ، وتدليس هشام هنا لايضرّ ، إذ لم يتهمه أحد في إرساله عن أبيه[5] .

والأمر الفصل في سند هذا الأثر هو أن هذا السند قد اعتمده البخاري[6] ومسلم كما ذكر الإمام السيوطي ، وماكان كذلك فلايحكم على مثله بالضعف بل هو أثر قويّ الإسناد ، والله أعلم .

وأخرج هذا الأثرَ - أيضاً - ابن أبي داود[7] ، رحمهما الله تعالى ، في كتاب ((المصاحف))[8] .

١- ((فضائل القرآن)) : ١٦٠ - ١٦١ .

٢- انظر ((الإتقان)) : ١ / ١٨٢ ، ١٨٤ .

٣- ((فضائل القرآن)) : ١٦٠ .

٤- قد ذكر ابن حجر - رحمه الله تعالى - في ((التهذيب)) : ٩ / ١٢٢ أن أبا داود قال لأحمد : ((كيف حديث أبي معاويةَ عن هشام بن عروة ؟ قال : فيها أحاديث مضطربة ، يرفع منها أحاديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم)) . فقول الإمام أحمد : فيها أحاديث مضطربة يدل على أنه ليست كل أحاديثه عن هشام مضطربة بل بعضها مضطرب ، وما اضطرب منها فهو معروف عند أئمة النقد .

٥- انظر - في إرسال هشام بعضَ أحاديثَ عن أبيه - ((تهذيب التهذيب)) : ١١ / ٤٥ .

٦- انظر - مثالاً -باب غسل الدم من كتاب الوضوء من صحيح البخاري ، رحمه الله تعالى ، الجزء الأول صفحة ٦٦ حيث قال : ((حدثنا محمد | هوابن سلام | حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ...)) .

٧- عبد الله بن سليمان بن الأشعث ، الإمام العلامة الحافظ ، شيخ بغداد ، أبوبكر السجستاني . ولد بـ (سِجِسْتان) سنة ٢٣٠ . روى كثيراً من الأحاديث ، وكان من بحور العلم بحيث إن بعضهم فضله على أبيه الإمام صاحب السنن. وقد اتُّهم بالكذب لكن ذلك - إن صح - يُراد به الكذب في اللهجة لافي الحديث فإنه حجة فيما ينقله . مات سنة ٣١٦ . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٣ / ٢٢١ - ٢٣٧ .

٨- ص ٣٤ .

وأخرجه الفرّاء[1] – رحمه الله تعالى – في ((معاني القرآن))[2] .

وأخرجه الداني[3] – رحمه الله تعالى – في ((المقنع))[4] .

كلهم أخرجوه من طريق أبي معاويةَ الضرير عن هشام بن عروة عن أبيه ، أي من طريق أبي عُبيد الذي ذكرته آنفاً .

ذكر من نحا إلى تضعيف المتن :

وقد نحا عدد من الأئمة نحو تضعيف هذا الأثرِ من حيث نكارة متنه لامن حيث الإسناد ، منهم :

١ – الإمام ابن تيميةَ – رحمه الله تعالى – فقد أطال في إثبات صحة هذه القراءة : ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ ﴾ بالألف في ﴿ هَٰذَانِ ﴾ ، وذكَر مذاهب العرب فيها ، ومذاهب القراء في قراءتها ، ومذاهبُ النحاة في توجيه هذه القراءة[5] .

ثم إن ابن هشام نقل عن ابن تيميّةَ – رحمهما الله تعالى – أنه قال :

((وقد زعم قوم أن قراءة من قرأ : ﴿ إِنَّ هَٰذَانِ ﴾ لحنٌ ... وهذا خبر باطل لايصح من وجوه :

١- العلامة صاحب التصانيف ، أبوزكريا ، يحيى بن زياد بن عبد الله الأسدي بالولاء ، الكوفي النحويّ . قيل عُرف بـ (الفرّاء) لأنه كان يفري الكلام [أي يُصلحه ويأتي بالعجيب فيه] . كان بحراً في اللغة والنحو ، عارفاً بالفقه والطب وأيام العرب والشعر والنجوم .

توفي بطريق الحج سنة ٢٠٧ وله ٦٣ سنة ، رحمه الله تعالى .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٠ / ١١٨ – ١٢١ .

٢- ٢/ ١٨٣ .

٣- الشيخ الإمام ، الحافظ ، المقرئ ، عالم الأندلس عثمان بن سعيد بن عثمان الدانيّ . ولد سنة ٣٧١ ، وأخذ عن علماء بلده ثم رحل إلى المشرق . كان مالكيَّ المذهب ، جيد الضبط ، ديناً فاضلاً ، مجاب الدعوة ، بارعاً في القراءات والحديث والنحو والتفسير . مات سنة ٤٤٤ بـ (دانية) رحمه الله تعالى .

انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٧٧ – ٨٣ .

٤- ص : ١١٨ .

٥- انظر ((مجموع الفتاوى)) : ١٥ / ٢٤٨ – ٢٦٤ .

أحدها : أن الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يتسارعون إلى إنكار أدنى المنكرات فكيف يقرون اللحن في القرآن ، مع أنه لاكلفة عليهم في إزالته ؟

والثاني : أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام ، فكيف لايستقبحون بقاءه في المصحف ؟)) .
فابن تيميّة إذاً ردّ الحديث من حيث نكارة المتن لاقوة الإسناد .

ثم إن شيخ الإسلام قد ذكر أمراً مهماً يدل على يقظة الصحابة - رضي الله عنهم - وشدةِ احترازهم في القرآن ، فمما ذكره أنه ((قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب ﴿ٱلتَّابُوتُ﴾[١] بالهاء - على لغة الأنصار - فمنعوه من ذلك ورفعوه إلى عثمانَ ، رضي الله عنه ، وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[٢] ، ولما بلغ عمرَ - رضي الله عنه - أن ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قرأ (عَتىّ عين)[٣] على لغة هذيل أنكر ذلك عليه وقال : أقرىء الناس بلغة قريش فإن الله - تعالى - إنما أنزله بلغتهم و لم ينزله بلغة هذيل))[٤] .

وهذه لفتة طيبة من الإمام تدل على أن الصحابة لم يكونوا ليقرّوا خطأ الكاتب - لو كان أخطأ - في كتابة أي كلمة من كتاب الله تعالى .

١- سورة البقرة : آية ٢٤٨ .
٢- هذا الأثر أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب فضائل القرآن : باب جمع القرآن : ٦ / ٢٢٦ .
٣- سورة المؤمنون : آية ٥٤ : ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾
٤- ((شرح شذور الذهب)) : ٧١ .
وأخرج هذا الأثرَ عن عمرَ الإمام أبوداود كما قال الحافظ ابن حجر :
((وأخرج أبوداود من طريق كعب الأنصاريّ أن عمر كتب إلى ابن مسعود أن القرآن نزل بلسان قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش لابلغة هذيل)) : انظر ((فتح الباري)) : ١٩ / ١٠ .
لكني لم أجد هذا الأثرَ عند أبي داود بعد بحث طويل ، وليس هو أيضاً عند أبي داود الطيالسيّ - فيما بحثت فيه - والله أعلم .

٢ – ويبدو أن ابن هشام كان يرى هذا الرأيَ أيضاً – أي أن المتن منكر – إذ قـال ، رحمه اللـه تعالى :

((وهذا – أيضاً – بعيد الثبوت عن عائشة ، رضي اللـه عنها ؛ فـإن هـذه القـراءاتِ كلهـا موجهـة ... فـلا يتجـه القـول بأنهـا خطـأ ، لصحتهـا في العربيـة وثبوتهـا في النقل))[١] .

٣ – وممن أنكر هذا المتنَ – أيضاً – الإمام الرازي ، رحمه اللـه تعالى ؛ إذ قال :

((إن المسلمين أجمعوا على أن مابين الدَّفَّتين كلام اللـه ، تعالى ، وكلام اللــه تعـالى لايجوز أن يكون لحناً وغلطاً ، فثبت فساد مانقل عن عثمانَ وعائشةَ – رضــي اللــه عنهما – أن فيه لحناً وغلطاً))[٢] .

٤ – وقد تكلم الإمام الطـبري رحمه اللـه تعالى على هـذه المسألةِ ومثيلاتهـا كلامـاً حسناً ؛ حاصله أن المتن منكر ، فقال رحمه اللـه تعالى :

((لو كان خطأً من جهة الخط لم يكن الذين أُخذ عنهم القرآن من أصحاب رسول اللـه – صلى اللـه عليه وسلـم – يُعلّـمون من علّموا ذلك مــن المسـلمين علـى وجـه اللحن ، ولأصلحوه بألسنتهم ولقّنوه الأمـة تعليمـاً علـى وجـه الصـواب ، وفي نقـل المسلمين جميعاً ذلك قراءةً على ماهوبه في الخط مرسوماً أدلُّ الدليل على صحة ذلـك وصوابـه ، وأن لاصنع في ذلك للكاتب))[٣] .

١- ((شرح شذور الذهب)) : ٧٢ .

٢- ((مفاتيح الغيب)) : ١١ / ٧٥ .

٣- ((جامع البيان)) : ٩ / ٣٨٩ .

وقد ذكر الشيخ محمود شاكر في تعليقه على هذا الكلامِ أن ((هذه الحجة التي ساقها إمامنا أبوجعفر – رضي اللـه عنه – هي حجة فقيه بمعاني الكلام ووجوه الرأي ، وهي حجة رجل عالم محيط بأساليب العلم ، عارف بما توجبه شواهد النقل ، وأدلة العقل . وقد تناول ذلك الجمهور من أئمتنا ولكن لاتزال حجة أبي جعفر أقومَ في رد هذه الروايةِ التي نُسبت إلى عائشة أم المؤمنين .

٥ - وممن ذهب - أيضاً - إلى تضعيف المتن وأنه منكر الشيخُ الآلوسيّ - رحمه الله تعالى - حيث قال :

((والذي أجنح إليه أنا - والعاصم هو الله تعالى - تضعيفُ جميع ماورد مما فيه طعن بالمتواتر ، ولم يقبل تأويلاً ينشرح له الصدر ويقبله الذوق وإن صححه من صححه ، والطعن في الرواة أهون بكثير من الطعن بالأئمة الذين تلقوا القرآن العظيم ، الذي وصل إلينا بالتواتر من النبي - صلى الله عليه وسلم - ولم يألوا جهداً في إتقانه وحفظه .

وقد ذكر أهل المصطلح أن مما يدرك به وضع الخبر مايؤخذ من حال المرويّ ؛ كأن يكون مناقضاً لنص القرآن ، أوالسنة المتواترة ، أو الإجماعِ القطعيّ ، أوصريح العقل ، حيث لايقبل شيءٌ من ذلك التأويلَ ، أو لم يحتمل سقوط شيء منه يزول به المحذور ، فلوقال قائل بوضع بعض هاتيك الأخبار لم يبعد ، والله تعالى أعلم))[1] .

والذي يتحرر من كلام الآلوسي أنه يرد السند إذا تناقض متنه مع المتواتر القطعي ، وهو - هنا - ثبوت هذه القراءة قرآناً عند أئمة السلف والخلف ، فلا يُعتد بالمتن - وإن صح سنده - مع نكارته .

تأويل هذه الرواية :

قد أوّل عددٌ من الأئمة هذه الرواية ذاتَ السند الصحيح ليستقيم متنها مع القطعي المتواتر فلا يتناقض ، وهذا مسلك حسن لكن بشرط ألا يُتعسف في التأويل فيكون بارداً بعيداً .

١- ((روح المعاني)) : ١٦ / ٢٢٤ .

١ – ومن التأويلات الجيدة – في تقديري – ماصنعه الإمام أبوعمرو الداني ، رحمه الله تعالى ، حيث قال :

((فإن قيل :

فما تأويل الخبر الذي رويتموه أيضاً عن هشام بن عروةَ عن أبيه أنه سأل عائشة ... ؟؟

قلت :

تأويله ظاهر ؛ وذلك أن عروة لم يسأل عائشة فيه عن حروف الرسم التي تُزاد فيها لمعنى وتنقص منها لآخر تأكيداً للبيان وطلباً للخفة[1] ، وإنما سألها عن حروف من القراءة المختلفة الألفاظ المحتملة الوجوه على اختلاف اللغات التي أذن الله – عز وجلّ – لنبيه ، عليه السلام ، ولأمته في القراءة بها واللزوم على ماشاءت منها تيسيراً لها وتوسعة عليها ، وماهذا سبيله وتلك حاله فعن اللحن والخطأ والوهم والزلل بمعزل ؛ لفشوّه في اللغة ووضوحه في قياس العربية .

وإذا كان الأمر في ذلك كذلك فليس ماقصدته فيه بداخل في معنى المرسوم ولاهو من سببه في شيء ، وإنما سمّى عروة ذلك لحناً وأطلقت عائشة على مرسومه كذلك الخطأ على جهة الاتساع في الأخبار وطريق المجاز في العبارة ؛ إذ كان ذلك مخالفاً لمذهبهما وخارجاً عن اختيارهما ، وكان الأوجهَ[2] والأَولى عندهما ، والأكثر والأفشى لديهما ، لاعلى وجه الحقيقة والتحصيل والقطع[3] ؛ لِما بيناه قبل من جواز ذلك وفُشوِّه في اللغة واستعمال مثله في قياس العربية ، مع انعقاد الإجماع على تلاوته كذلك دون ماذهبا إليه ... دون أن يُقطع به[4] على أن أم المؤمنين – رضي الله عنها – مع عظيم محلها وجليل قدرها واتساع علمها ومعرفتها بلغة قومها لحّنت

١– وذلك نحو زيادة الياء في قوله تعالى ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في سورة الذريات : آية ٤٧ ، وانظر ((المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار)) : باب ((ذكر مارسم بإثبات الياء زائدة أو لمعنى)) ص : ٤٧-٤٩ ، وباب ذكر ماحذفت منه إحدى الياءين اختصاراً وماأُثبتت فيه على الأصل)) ص : ٤٩-٥١ .

٢– أي كان مذهبهما الأوجهَ والأَولى .

٣– أي القطع على أن ماسواه باطل وخطأ .

٤– أي هذا الخبر .

الصحابَة وخطّأت الكتبة ، وموضعهم من الفصاحة والعلم باللغة موضعهم الذي لايُجهل ولايُنكر ، هذا مالايسوغ ولايجوز .

وقد تأول بعض علمائنا[1] قول أم المؤمنين : ((أخطأوا في الكتاب)) أي أخطأوا في اختيار الأَولى من الأحرف السبعة بجمع الناس عليه ، لاأنّ الذي كتبوا من ذلك خطأٌ لايجوز ؛ لأن ما لايجوز مردود بإجماع وإن طالت مدة وقوعه وعظم قدرموقعه ، وتأوّل[2] اللحنَ أنه القراءة واللغة كقول عمر رضي الله عنه :

((أبيٌّ أقرؤنا وإنا لندع بعض لحنه))[3] أي قراءتِه ولغته ، فهذا بَيِّن ،

١- هو ابن أُشْتة كما ذكر ذلك السيوطي في ((الإتقان)) : ١ / ١٨٤ ، وستأتي ترجمته قريباً .

٢- أي ابن أُشتة.

٣- أخرجه الإمام البخاريّ في كتاب فضائل القرآن : باب القراء من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بلفظ :
((أبيٌّ أقرؤنا وإنا لنـدع من لحن أُبيّ ، وأبيٌّ يقـول : أخذتـه من في رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا أتركـه لشيء، قال الله تعالى:﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾:[سورة البقرة: آية ١٠٦]».
وهذه الآية من ردِّ عمر على أُبيّ رضي الله عنهما ، ويتضح هذا أكثر في الموضع الآخر الذي أخرج البخاري فيه هذا الأثرَ في كتاب التفسير:باب قوله ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ : حيث ساق بسنده إلى عمر رضي الله عنه أنه قال :
((أقرؤنا أُبيّ ، وأقضانا عليّ ، وإنا لندع من قول أُبيّ ، وذاك أن أُبيًّا يقول : لاأدع شيئاً سمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ .
وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى :
((من لحن أُبيّ : أي من قراءته ، ولحن القول فحواه ومعناه ، والمراد به هنا : القول ، وكان أُبيّ بن كعب لايرجع عما حفظه من القرآن الذي تلقاه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو أخبره غيره أن تلاوته نسخت ؛ لأنه إذا سمع ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حصل عنده القطع به فلا يزول عنه بإخبار غيره أن تلاوته نُسخت ، وقد استدل عليه عمر بالآية الدالة على النسخ وهو من أوضح الاستدلال في ذلك)) :
((فتح الباري)) : ١٩ / ٦٤ .
وفي كلام الحافظ على الرواية الأخرى قال :
((اللحن : اللغة ، وفي رواية ابن خلاد : وإنا لنترك كثيراً من قراءة أُبيّ .
قوله : ((سمعته من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم)) في رواية صدقة : ((أخذته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولاأتركه لشيء)) لأنه بسماعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحصل له العلم القطعيّ به ، فإذا أخبره غيره عنه بخلافه لم ينتهض معارضاً له حتى يتصل إلى درجة العلم القطعيّ ، وقد لايحصل ذلك غالباً)) :
((فتح الباري)) : ١٧ / ١٨ .

وبالله التوفيق))[1] .

وتأويل ابن أَشْتة[2] هذا قريب من تأويل الداني ؛ إلا أن الفرق بينهما هو أن تأويل الداني مقترن باختيار عائشة - رضي الله عنها - لنفسها ، وتأويل ابن أشتة مقترن باختيار الأَولى من الأحرف السبعة مطلقاً ، والله أعلم .

٢ - وللقاضي أبي بكر الباقلاني - رحمه الله تعالى - كلام على هذه المسألة أيضاً حيث قال :

((وأمّا قول عائشة - رضي الله عنها - في تلك الحروف إنها غلط من الكاتب فقد بينا أنه من أخبار الآحاد ولاحجة فيه[3] ، ولايجوز لذي دين أن يعتقد أن عائشة - رضي الله عنها - كانت تُلحِّن الصحابة ، وتخطِّىء كتبة المصاحف ، والأشبه فيما روي عنها وعن غيرها - إن صح وسلم سنده - أن يكونوا قالوا : إن الوجه الظاهر المعروف في هذه الحروف غير ماجاء به المصحف ، وأن استعماله على ذلك الوجهِ غامض أو غلط عند كثير من الناس ، ولَحْنٌ عند من لايعرف الوجه فيه ، فلم تُضبط هذه الرواية عنهم ، ولم يسمعوا تمامه ، ولم يوردوه على وجهه لسهوهم ، وأما أن يَقطع عثمان وعائشة - رضي الله عنهما - أن في القرآن لحناً وغلطاً فذلك باطل))[4] .

١- ((المقنع)) : ١١٨ - ١١٩ .

٢- هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أشته ، أبو بكر الأصبهانيّ . أستاذ كبير ، وإمام شهير ، ونحوي محقق ، ثقة صاحب سُنة . قرأ على عدد من المشايخ وله عدة مصنفات . سكن مصر وتوفي بها سنة ٣٦٠ . انظر ((غاية النهاية)) : ٢ / ١٨٤ .

٣- أي عند التعارض مع القطعيّ الثابت من القراءة القرآنية والرسم الذي أجمعت عليه الصحابة .

٤- ((نكت الانتصار لنقل القرآن)) : ١٢٩ - ١٣٠ .

ولايخفى أن توجيه الإمام الباقلاني أن الرواة عن عائشة لم يضبطوا نقل الرواية ، وأنّ لكلامها بقيةً لم يوردوها ، لايخفى أن هذا تأويل ضعيف ، ويحتاج إلى دليل لإمكان أن يقال ذلك في كل خبر من الأخبار ، إلا أن يقال إن ذلك إنما وجب المصير إليه والقول به لتعارضه مع المتواتر القطعيّ، فيمكن تأويله بهذا ، والله أعلم .

٣ – وقال الإمام ابن قُتيبة رحمه الله تعالى :

((وليست تخلو هذه الحروف[١] من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها ، أو أن تكون غلطاً من الكاتب ، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها :
فإن كانت على مذاهب النحويين فليس هاهنا لحنٌ بحمد الله .

وإن كانت خطأً في الكتاب فليس على رسوله – صلى الله عليه وسلم – جناية الكاتب في الخط ، ولو كان هذا عيباً يرجع على القرآن لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التهجي ، فقد كُتب في الإمام[٢] : ﴿ إِنْ هَٰذَٰنِ ﴾ بحذف ألف التثنية ، وكذلك ألف التثنية تحذف في هجاء هذا المصحف في كل مكان ؛ مثل : ﴿ قَالَ رَجُلَٰنِ ﴾ [٣]))[٤] .

ثم شرع ابن قتيبة – رحمه الله تعالى – في إيراد كلمات قرآنية كُتبت في المصحف العثماني على وجه لايتفق مع قواعد الكتابة التي استقرت بعد ذلك بمدة ، وغرضه من ذلك قياسُ تلك الكلماتِ على كلمة ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ التي قيل إن كاتب

١– هي حروف مجموعة من القرآن الكريم ، جمعها ابن قتيبة ليبين ماقد يعتريها من إشكال ، وهي في كتابه : ((تأويل مشكل القرآن)) : باب : ماادُّعي على القرآن من اللحن : ٥٠ – ٦٤ .

٢– أي المصحف الإمام .

٣– المائدة : ٢٣ ، وهي في المصحف الذي بين أيدينا اليوم : ﴿ رَجُلَانِ ﴾ بإثبات ألف التثنية .

٤– ((تأويل مشكل القرآن)) : ٥٦ – ٥٧ .

المصحف أخطأ في كتابتها ، فليست هذه الكلمةُ فقط مما كُتب مخالفاً للقواعد الكتابية التي استقرت بعد ذلك بل هناك كلمات أخرى كثيرة كُتبت على وجه لايتفق مع تلك القواعد .

وتأويل ابن قتيبة جيد لولا أن خطأ كاتب المصحف الذي لايعود على الإسلام بجناية – في تقديره – نشأ عنه خطأ في كتاب الله ، تعالى ، من جهة القراءة ؛ كما يُفهم من أثر عائشة رضي الله عنها ؛ إذ ليس خطأ كاتب القرآن كخطأ غيره ، وكيف يُقرّ الصحابة هذا الخطأ ولايغيرونه ، فلعل هذا فات عن الإمام ابن قتيبة ، والله أعلم .

٤ – وللسيوطي نفسه – رحمه الله تعالى – كلام على هذه المسألةِ في كتابه ((الإتقان)) ؛ إذ قال عن هذه الآثار ومثيلاتها :

((وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يُظن بالصحابة – أولاً – أنهم يلحنون في الكلام ، فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللُّد[1] ، ثم كيف يُظن بهم[2] – ثانياً – في القرآن الذين تلقوه من النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كما أُنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه ، ثم كيف يُظن بهم – ثالثاً – اجتماعُهم كلهم على الخطأ وكتابته ، ثم كيف يُظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مرويّ بالتواتر خلَفاً عن سلف ، هذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادة ، وقد أجاب العلماء عن ذلك بثلاثة أجوبة ...)) .

ثم أورد الأجوبة عن آثار غير الأثر المرويّ عن عائشة ، رضي الله عنها ، ثم قال في أثر عائشة :

---

١ – اللُّدّ جمع ألَدّ وهو الخَصِمُ الشديد الجَدِل.((لسان العرب)) : (ل د د) .

٢ – أي الخطأ في كتاب الله تعالى .

((وبعد ، فهذه الأجوبة لايصلح منها شيء عن حديث عائشة ، أما الجواب بالتضعيف فإسناده صحيح كما ترى ...))[1] .
ثم أجاب عن هذا الأثرِ بما لايخرج عن توجيه الدانيّ له .

خلاصة تأويل الأئمة لهذا الأثر :

قد تبين من المنقول عن الأئمة في تأويل هذا الأثرِ أنهم يوجهونه بالآتي :

أولاً : أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أرادت بخطأ الكُتاب مخالفتَه لِما اختارته هي من القراءة لهذا الحرف دون إرادتها مطلقَ الخطأ في كتاب الله – تعالى – وهذا تأويل الداني ، رحمه الله تعالى .

ثانياً : إن المراد بخطأ الكُتّاب هو الخطأ في اختيارهم الأَوْلى من الأحرف السبعة ؛ حيث كتبوا رسم الكلمة موافقاً لقراءة الرفع ، وكان الأَولى – عندها – كتابتَها بالياء ، منصوبةً ، فكانت قراءة الكلمة إذاً عند الجمهور مخالفة للأَولى – في رأي أم المؤمنين – من الأحرف السبعة .

وهذا التأويل هو لابن أَشتة ، وهو قريب من الأول ، وبينهما فرق دقيق قد بينته سابقاً[2] .

ثالثاً : إن رواة هذا الخبرِ عن عائشة – رضي الله عنها – لم يضبطوا عنها الألفاظ ، وإنما أرادت أن القراءة بالرفع خطأ عند من لايفهم وجهها ، فللرواية عن عائشة تكملةٌ لم ينقلها عنها الرواةُ لحديثها ، وهذا التأويل هو للإمام الباقِلاَني ، وقد بينت ضعفه في مكان سابق[3] .

١- ((الإتقان)) : ١ / ١٨٣ – ١٨٤ .

٢- انظر ص ٥٥٧ .

٣- انظر ص ٥٥٨ .

رابعاً : هذا الخطأ قد حصل من الكاتب فليس على الإسلام بسببه جنايةٌ ولاشبهة .
وهذا تأويل الإمام ابن قتيبة ، وما ذكره ضعيف ؛ لأن هذا خطأً في كتابة كلمة من كتاب الله - تعالى - ينشأُ عنه خطأ في تلفظ تلك الكلمة ، وهو أمر عظيم ، مستحيل الحدوث .

هذا حاصل توجيه الأئمة لظاهر هذا الأثر .

حاصل المسألة ، ورأيي فيها :

يتبن مما سبق نقله الآتي :

أولاً : إن سند هذا المتنِ صحيح من حيث القواعد الحديثية .

ثانياً : إن الأئمة انقسموا حِيال هذا الأثرِ إلى فريقين :

- **فريق** قَبِله وجنح إلى التأويل جمعاً بين معنى المتن القاضي بوجود خطأ في كتابة كلمة قرآنية نتج عنه خطأ في طريقة قراءتها ، جمعاً بين هذا وبين المتواتر القطعي عند أئمة القراء والعلماء بأن تلك القراءة - المظنونَ بأنها خطأ - إنما هي قراءة متواترة ، ليس للخطأ عليها سبيل .

وممن صنع ذلك الإمام أبوعمرو الداني ، والإمام أبوبكر الباقِلاَنيّ ، وابن قُتيبة ، وقد تفاوتت قوة تلك التأويلات بين تأويلات حسنة وتأويلات مستبعدة .

- **وفريق** ردّ هذا الأثر ولم يقبله لأن متنه مُنكر تعارضه القراءة المتواترة المقطوع بها ، ولم يجد لهذا المتن تأويلاً سائغاً ، ولاوجهاً للجمع بينه وبين المصحف الإمام .
ومن هؤلاء الأئمة الطبريّ ، وابن تيمية ، والرازي ، وغيرهم .

رأيي في المسألة :

الملاحظ أن الذين ردوا هذا الخبر قد ضعفوه من جهة أن المتن منكر ، وأنه لايمكن لعائشة - رضي الله عنها - وهي من هي في العلم والفهم أن تقول هذا .
لكن ألا يمكن أن يُقال إن الخبر المرويّ عن أم المؤمنين - رضي الله عنها - صحيحٌ ، لكنها أخطأت ، ورأيُها في هذه المسألة لايقوى على معارضة اتفاق جماهير الصحابة على كتابة هذه الكلمةِ كذلك ثم قراءتِها على الوجهين : الرفع والنصب .

في تقديري ورأيي - والله أعلم - أنه يمكن أن يقال هذا جمعاً بين هذه الرواية ، وبين المقطوع المتواتر من القراءة ، ولاحاجة إلى التأويل أو إبطال الرواية حينئذ .

وخلاصة الذي أراه في هذه المسألة - والله أعلم - أن هذه الرواية إنما تُتلقى بالآتي :

أولاً : قَبولها روايةً صحيحةَ السند لكن يقال إن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أخطأت الصواب في هذه المسألة ، ولايقدح ذلك في دينها ولافي علمها ، فالعصمة في البشر إنما تكون للأنبياء .
وهذا القول بخطأ أم المؤمنين إنما استلهمته من صنيع بعض العلماء من قبل حيث استدركوا عليها بعض المسائل[1] ، رضي الله عنها ، فلا مانع إذاً من القول بأنها أخطأت هاهنا ، والله أعلم .

ثانياً : إن لم تسمح بهذه التخطئة بعضُ النفوس فيمكن أن يُجنح حينئذ إلى التأويل ،كما صنع عددٌ من الأئمة الذين ذكرتهم أنفاً .

١- ينظر في هذا كتاب ((الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة)) للإمام الزركشي ، رحمه الله تعالى .

ثالثاً : إن لم تُستسغ تأويلاتُ الأئمة التي سُقتها آنفاً فإنه يمكن أن ترد هذه الرواية بالقول بأن متنها متعارض مع القطعيّ ولا يمكن الجمع بينهما .

هذا حاصل تلك المسألة الشائكة ، ويبقى توجيه النحاة لقراءة الرفع ، وهو الآتي :

مذاهب النحاة في هذه القراءة :

أما مذهب النحاة في هذه القراءة فقد لخصها السيوطيّ - رحمه الله تعالى - بقوله :

((أما قوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ ففيه أوجه :

أحدها : أنه جارٍ على لغة مَن يُجري المثنى بالألف في أحواله الثلاثة وهي لغة مشهورة لِكنانة[1] وقيل لبني الحارث[2] .

١- هم عدة قبائل وبطون ، ولم أجد - بعد المراجعة - مَن عيّن المراد من كنانة ، بل كل المصنفين - ممن اطلعت على تصانيفهم - الذين تكلموا على هذه المسألة أطلقوا بأنها لغة لكنانة ، وكنانة عدة قبائل وبطون ، ولعل المراد بكنانة - هنا - كنانة بن بكر ، وهم بطن ضخم من عُذرة ، من كلب ، من قضاعة ، من القحطانية : انظر ((معجم قبائل العرب)) : ٣/ ٩٩٦ .

وإنما دعاني لهذا الترجيح ماذكره أبوحيان حيث قال :

((وهي لغة لكنانة - حكى ذلك أبو الخطاب - ولبني الحارث بن كعب ، وخثْعم ، وزبيد وأهلِ تلك الناحية - حُكي ذلك عن الكسائيّ - ولبني العنبر ، وبني الهجيم ، ومراد ، وعذرة)) : ((البحر المحيط)) : ٦ / ٢٥٥ .

فقول أبي حيان : ((وأهل تلك الناحية)) يُفهم منه أنه يريد كنانة القحطانية ؛ لأن بني الحارث وخثْعم وزبيد من قحطان أيضاً ، انظر ((معجم قبائل العرب)) ١ / ٣٣١ ، ٢ / ٤٦٥ .

وقد ذكر شيخ الإسلام أن هذه لغة بني الحارث بن كعب وقريش ، ونسب ذلك إلى ابن الأنباري : انظر ((مجموع الفتاوى)) : ١٥ / ٢٥٠ .

وبالرجوع إلى ((البيان في غريب إعراب القرآن)) : ٢ / ١٤٤ تبين أن ابن الأنباري اقتصر على نسبة هذه اللهجة إلى بني الحارث بن كعب ، فلعلّ شيخ الإسلام وَهِم ؛إذ لم أر من نسب هذه اللهجةَ لقريش غيره ، وإن صح أنها منسوبة لقريش فالمراد من كنانةَ إذاً كنانة بن خزيمة ، القبيلة العظيمة التي تتفرع منها قريش ، وانظر ((معجم قبائل العرب)) : ٣ / ٩٩٦ ، والله أعلم .

٢- أي بني الحارث بن كعب ، وقد سبق ذكر أنهم بطن من مَذْحِج من قحطان ، انظر ص ٥٤٧ .

الثاني : أن اسم ﴿ إنّ ﴾ ضمير الشأن محذوفاً[1] ، والجملة - مبتدأ وخبر - خبر ﴿ إنّ ﴾ .

الثالث: كذلك إلا أن ﴿ سَٰحِرَٰنِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : لهما ساحران .

الرابع : أنّ ﴿ إِنَّ ﴾ - هنا - بمعنى نَعَمْ[2] .

الخامس : أنّ ﴿ هَا ﴾ ضمير القصة اسم ﴿ إنّ ﴾ ، و ﴿ ذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ مبتدأ وخبر، وتقدم ردُّ هذا الوجه بانفصال ﴿ إنْ ﴾ واتصال ﴿ هَا ﴾ في الرسم[3] .

قلت : وظهر لي وجه آخر وهو أن الإتيان بالألف لمناسبة :
﴿ سَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ ﴾ كما نُوّن ﴿ سَلَٰسِلَاْ ﴾ لمناسبة ﴿وَأَغْلَٰلًا ﴾[4]

١- أي إن الأمر والشأن ، وقد سبق ذكر هذا التقدير ، انظر ص ٥٤٧ .

٢- قال ابن هشام :

((مثلها - فيما - حُكي أن رجلاً سأل ابن الزبير شيئاً فلم يعطه ، فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، فقال : إنّ وراكبها ، أي نعم ولعن الله راكبها ، و (إنّ) التي بمعنى نعم لاتعمل شيئاً ، كما أنّ نعم كذلك ، فـ ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ مبتدأ مرفوع بالألف ، و ﴿ سَٰحِرَٰنِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف ، أي : لهما ساحران ، والجملة خبر ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ ، ولايكون ﴿ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ خبر ﴿ هَٰذَٰنِ ﴾ لأن لام الابتداء لاتدخل على خبر المبتدأ)) :

((شرح شذور الذهب)) : ٦٩ .

٣- أي اتصالها مع ﴿ ذَٰنِ ﴾ في الرسم العثماني .

٤- سورة الإنسان : آية ٤ .

وإنما قال ذلك لأن ﴿ سَلَٰسِلَاْ ﴾ ممنوع من الصرف ، قال أبوحيّانَ رحمه الله تعالى :

((قرأ طلحة وعمرو بن عبيد وابن كثير وأبوعمرو وحمزة ﴿ سَلَٰسِلَاْ ﴾ ممنوعٌ الصرفَ وقفاً ووصلاً ... وقرأ باقي السبعة بالتنوين وصلاً ، وبالألف المبدلة منه وقفاً ... قيل : وهذا على ماحكاه الأخفش من لغة من يصرف كل مالاينصرف إلا (أَفْعَلَ مِن))) : ((البحر المحيط)) : ٨ / ٣٩٤ .

وإنما مُنعت ﴿ سَلاسِل ﴾ من الصرف - على قراءة من منعها - لأنها على صيغة منتهى الجموع ، وانظر ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه : ٣٥٨ .

و ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ لمناسبة ﴿ بِنَبَإٍ ﴾[1]))[2] .

وهناك مذهبان للنحاة لم يذكرهما الإمام السيوطي قد ذكرهما ابن هشام – رحمهما الله تعالى – وهما :

١ – ((لما ثُنِّي (هذا) اجتمع ألفان : ألف (هذا) وألف التثنية ، فوجب حذف واحدة منهما لالتقاء الساكنين ، فمن قدر المحذوفة ألفَ (هذا) والباقية ألف التثنية قَلَبها في الجر والنصب ياءً ، ومن قدّر العكس لم يغيِّر الألف عن لفظها[3] .

٢ – لما كان الإعراب لايظهر في الواحد – وهو (هذا) – جُعل كذلك في التثنية ليكون المثنى كالمفرد ؛ لأنه فرع عليه ، واختار هذا القولَ الإمام العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيميّة – رحمه الله – وزعم أن بناء المثنّى إذا كان مفرده مبنياً أفصحُ من إعرابه ، قال : وقد تفطّن لذلك غير واحد من حُذّاق النحاة))[4] .

وبهذا ينتهي الكلام على هذه المسألة ، وإن طال الحديث عنها ففيه خير وفائدة وتوجيه لهذه المسألة الخطيرة ، المشكلةِ في ظاهرها ، وبالله التوفيق .

١- سورة النمل : آية ٢٢: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾، وإنما قال ذلك لأن ﴿ سَبَإٍ ﴾ ممنوع من الصرف أيضاً ، قال أبو حيّان – رحمه الله تعالى – :

((قرأ الجمهور : ﴿ مِن سَبَإٍ ﴾ مصروفاً ... وابن كثير وأبوعمرو بفتح الهمزة غير مصروف ، وقنبل من طريق النبّال بإسكانه)) : ((البحر المحيط)) : ٧ / ٦٦ .

وإنما مُنعت ﴿ سَبَإٍ ﴾ من الصرف – على قراءة من منعها – للعلمية والتأنيث .

٢- ((الإتقان)) : ١ / ١٨٤ .

ومَن صرفها فإنه جعل الكلمة اسماً لجبل أو أبٍ للقبيلة ، انظر ((الحجة في القراءات السبع)) : ٢٧٠ .

وإنما أتيت بما في ((الإتقان)) لأن السيوطي لم يتكلم على هذه المسألة في ((المعترك)) إلا يسيراً ، كما سبق نقله ، انظر ((المعترك)) : ٣ / ٢٠٤ – ٢٠٥ .

٣- لأنها ألف (هذا) .

٤- ((شرح شذور الذهب)) : ٧٠ .

وانظر تقرير شيخ الإسلام لهذه المسألة في ((مجموع الفتاوى)) : ١٥ / ٢٥٧ – ٢٦١ .

ثانياً : مسألة لفظ ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ [1] وماورد فيها :

ومثل المسألة التي أوردها السيوطي عن عائشة – رضي الله عنها – أورد مسألة أخرى مماثلة عن علي ، رضي الله عنه ، فقال عند قوله – تعالى – :﴿ وَطَلۡحٖ ﴾ : ((شجرٌ عِظامٌ كثير الشوك[2] ... وقرأ علي بن أبي طالب : (وطَلْـع منضـود)[3] – بالعين – فقيل له : إنها بالحاء ، فقال : ماللطلح والجنّة ؟ فقيل له : أنصلحها في المصحف ؟ فقال : المصحف اليوم لايغيّر))[4] .

وهذه المسألة تُوهم أن هناك خطأً في كتابة المصحف ، نتج عنه قلب لحرف من الحروف ، فأسفر عن معنى مخالف تماماً للمعنى المراد وهو أن نعيم الجنة لاشوك فيه ولاضرار .

وهذه مسألة خطيرة كان ينبغي للإمام السيوطيّ أن يفندها ، وقد ذكرها الإمام القرطبيّ في تفسيره فقال :

((وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (وطلع منضود) بالعين ، وتلا هذه الآية : ﴿وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ﴾[5] وهو خلاف المصحف .

وفي رواية أنه قُرىء بين يديه : ﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ ، فقال : ماشأن الطلح ؟ إنما هو (وطلع منضود) ، ثم قال : ﴿ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾[6] .

فقيل له : أفلا نحولها ؟

١- سورة الواقعة : آية ٢٩ .

٢- هذا اختيار لمعنى من معاني الطلح ، ومن معانيه المشهورة الموزُ ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٨ / ٤ .

٣- الطلع هو أول مايبدو من الثمر .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ٢ / ١٥٢ .

٥- سورة الشعراء : آية ١٤٨ .

٦- سورة ق : آية ١٠ .

فقال : لاينبغي أن يهاج[1] القرآن ولايُحوّل ...))[2] .

وأخرج هذا الأثرَ أبوبكر الأنباريّ[3] بسنده فقال :

حدثني أبي[4] ، قال : حدثنا الحسن بن عرفة[5] ، حدثنا عيسى بن يونس[6] ، عن مُجَالِد[7] ، عن الحسن بن سعد[8] عن قيس بن عباد[9] قال :

قرأت عند عليّ ، أو قُرئت عند علي - شكّ مجالد - ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ ، فقال علي رضي الله عنه : مابال الطلح ؟ أما تقرأ : (وطَلْع منضود) ثم قال : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[10] .

فقال له :

يأمير المؤمنين : أنحكّها من المصحف ؟

١- الهَيْج : الإثارة ، ((تاج العروس)) : (هـ ي ج) ، والمقصود به هنا المس والتغيير .

٢- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١٧ / ٢٠٨ .

٣- الإمام الحافظ اللغوي أبوبكر محمد بن القاسم بن بشار المقرىء النحويّ . وُلد سنة ٢٧٢ . قال أبوعلي القالي : كان شيخنا أبوبكر يحفظ - فيما قيل - ثلاث مائة ألف بيت شاهد في القرآن . وقال غيره : كان ابن الأنباريّ يملي من حفظه ، ماأملى من دفتر قط . وقال الخطيب : كان صدوقاً ديّناً من أهل السنة . مات سنة ٣٢٨ ببغداد . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٥ / ٢٧٤ - ٢٧٩ .

٤- القاسم بن محمد بن بشّار ، أبومحمد الأنباريّ . سكن بغداد وحدّث بها . وكان صدوقاً أميناً ، عالماً بالأدب ، موثقاً في الرواية . توفي سنة خمس وثلاثمائة . انظر ((تاريخ بغداد)) : ١٢ / ٤٤٠- ٤٤١ .

٥- الحسن بن عرفة بن يزيد العَبْديّ ، أبوعلي البغداديّ ، صدوق . توفي سنة سبع وخمسين ومائتين وقد جاز المائة انظر ((التقريب)) : ١٦٢ .

٦- عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السَّبيعيّ . كوفي نزل الشام مرابطاً ، ثقةٌ مأمون ، مات سنة سبع وثمانين ومائة ، وقيل سنة إحدى وتسعين . أخرج له أصحاب الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٤٤١ .

٧- مُجالِد بن سعيد بن عُمير الهَمْدانيّ ، أبو عمرو الكوفيّ ليس بالقوي ، وهو من رجال الإمام مسلم . مات سنة ١٤٤ ، انظر ((التقريب)) : ٥٢٠ .

٨- هو الحسن بن سعدبن معبد الهاشميّ بالولاء - مولى علي أو الحسن رضي الله عنهما - ثقة من الطبقة الرابعة . انظر ((التقريب)) : ١٦١ و ((تهذيب التهذيب)) : ٢ / ٢٤٤ .

٩- هو قيس بن عُباد الضُّبَعِيّ ، أبوعبد الله البصريّ . ثقة . مات بعد الثمانين ووهم من عدّه في الصحابة . ((التقريب)) : ٤٥٧ .

١٠- سورة ق : آية ١٠ .

فقال : لايهاج القرآن اليوم))[1] [2] .

وقد أخرج هذا الأثرَ أيضاً الإمام الطبريّ – رحمه الله تعالى – في تفسيره بإسنادين حيث قال :

((وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ : أما القراء فعلى قراءة ذلك بالحاء : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ ، وكذا هو في مصاحف أهل الأمصار ، ورُوي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه كان يقرأ : و (طلع منضود) بالعين :

حدثنا عبد الله بن محمد الزهري[3] ، قال : حدثنا سفيان[4] ، قال : حدثنا زكريا[5] عن الحسن بن سعد عن أبيه[6] رضي الله عنه قرأها :
(طلع منضود)))[7] .

وأما الإسناد الآخر فقد ساقه الإمام الطبري بقوله :

١- إسناد هذا الأثر حسن وذلك لأن الحسن بن عرفة صدوق ، ومجالد بن سعيد ليس بالقوي لكنه من رجال الإمام مسلم .

٢- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١٧ / ٢٠٨ - ٢٠٩ ، وقد ساق القرطبي إسناد الأنباري إذا كتابه : من كتابه ((المصاحف)) الذي هو مفقود فيما أعلم ، والله أعلم ، وانظر ((الدر المنثور)) : ٨ / ١٣ .

٣- هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المِسْوَر بن مَخْرمة الزهري البصري . صدوق . مات سنة ست وخمسين ومائتين . انظر ((التقريب)) ٣٢١ ، و ((التهذيب)) : ٦ / ١١ .

٤- هو الإمام سفيان بن عُيَيْنة بن ميمون الهلاليّ ، أبو محمد الكوفيّ ثم المكيّ . ثقة ، حافظ ، فقيه ، إمام ، حجة . توفي سنة ١٩٨ وله إحدى وتسعون سنة . انظر ((التقريب)): ٢٤٥ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٤ / ١٠٤ - ١٠٧ .

٥- زكريا بن أبي زائدة : خالد بن ميمون الهمْدانيّ الوادعيّ ، أبو يحيى الكوفيّ . ثقة وكان يدلس . مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وأربعين بعد المائة . انظر ((التقريب)) : ٢١٦ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٣ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

٦- الحسن بن سعد ، تقديره – والله أعلم – عن الحسن عن أبيه ؛ أي الحسن بن علي عن أبيه ؛ وذلك لأن الحسن بن سعد مولى علي أو مولى الحسن كما سبق في ترجمته ، وبذلك يستقيم الإسناد .

٧- ((جامع البيان)) : ٢٧ / ١٠٣ - ١٠٤.

حدثنا سعيد بن يحي الأمويّ[1] ، قال : حدثني أبـي[2] ، قـال : حدثنـا مجـاهد[3] ، عن الحسن بن سعد[4] ، عن قيس بن سعد[5] قال :

قرأ رجل عند علي : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ .

فقـال علـي : ماشـأن الطلـح ؟ إنمـا هـو : (وطلـعٍ منضـود) ، ثـم قـرأ : ﴿ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾[6] .

فقلنا : أوَ لانحولها ؟

فقال : إن القرآن لايُهاج اليومَ ولايُحوّل))[7] .

١- سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي ، **أبو عثمانَ** البغدادي . ثقة ربما أخطأ . مات سنة ٢٤٩ .
انظر ((التقريب)) : ٢٤٢ .

٢- هو الشيخ يحيى بن سعيد بن أبان الأمويّ ، أبو أيوب الكوفيّ ، نزيل بغداد . لقبه : الجمل . صدوق يُغْرب . مات سنة أربع وتسعين ومائة وله ثمانون سنة . انظر ((تقريب التهذيب)) : ٥٩٠ .

٣- لاأدري من مجاهد هذا ؟ فإنه ليس مجاهدَ بن جَبْر المفسر التابعي المشهور لأنه توفي سنة أربع ومائة على أكثر الأقوال - كما في ((التقريب)) : ٥٢٠ - إلا أن يكون سقطٌ بينه وبين يحيى بن سعيد الأمويّ .
وليس هو مجاهدَ بنَ موسى الخوارزميّ الذي ولد سنة ١٥٨ وتوفي سنة ٢٤٤ - كما في ((التهذيب)) : ١٠ / ٤١ - وذلك أن مجاهداً هذا لم يدرك الحسن بن سعد ، كما أنه من شيوخ الطبري نفسه فقد روى عنه في **مواضعَ** متعددة من كتابه فلا يحتاج أن يروي عنه بواسطة رجلين .
ويمكن أن يكون مجاهدَ بن وردان المدنيّ وهـو صدوق ، من الـطبقـة السابـعة،روى عـن عروة بن الزبير ؛ كما في ((التقريب)) : ٥٢٠ ، و ((التهذيب)) : ١٠ / ٤١ .
لكن قد ذكر ابن أبي حاتم في ((الجرح والتعديل)) : ٩ / ١٥١ أن يحيى بن سعيد قد روى عن مُجالد ، وهو مجالد **ابن سعيد الهَمْدانيّ، وهو من رجال الإمام مسلم، كما في «التقريب»: ٥٢٠، وقد توفي سنة ١٤٤.**
فيُحتمل احتمالاً قويّاً أن تحريفاً حصل في تفسير الطبري وأن الراوي عن الحسن بن سعد مُجالد وليس مجاهداً ، خاصةً أن الإسناد السابق الذي ساقه القرطبي عن الأنباري فيه (مجالد عن الحسن بن سعد) ، والله أعلم .
وقد ذكر الإمام البغوي هذه الرواية وأن مجالداً رواها عن الحسن بن سعد ، انظر ((معالم التنزيل)) : ٨ / ١٢ ، وقد اختار محققو الكتاب مافي نسخة (أ) : (مجالد) على مافي نسخة (ب) : (مجاهد) دون ذكر السبب .

٤- تقدمت ترجمته في الإسناد السابق ، وأنه ثقة .

٥- قيس بن سعد ، أبوالمغيرة الخارفيّ ، من أهل الكوفة . مقبول من الطبقة الثانية .
انظر ((التقريب)) : ٤٥٨ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ٨ / ٣٥٥ ، ٣٦٤ .

٦- سورة الشعراء : ١٤٨ .

٧- ((جامع البيان في تفسير القرآن)) : ٢٧ / ١٠٤ .

والإسناد الأول الذي ساقه الطبري ضعيفٌ للسقط الحاصل فيه ، ولتدليس زكريا بن أبي زائدة . أما الإسناد الآخَر فهو حسن إن كان الراوي عن الحسن بن سعد مُجالداً وليس مجاهداً ، وكون مجالد هو الراوي أقرب كما بينته آنفاً .

وقد أخرج هذا الأثرَ - أيضاً - عَبْدُ بنُ حميد[1] وابن أبي حاتم[2] .

ولعَبْد بن حُميد مسندان : كبير وهو مفقود منذ زمن بعيد ، ومسند صغير ، وهو المعروف بـ (المنتخب) وهو الذي بأيدي الناس اليوم[3] ، ولم أجد هذا الأثر فيه .

وأما أثر ابن حاتم فقد قال الحافظ ابن كثير في شأنه :
((قد روى ابن أبي حاتم من حديث الحسن بن سعد عن شيخ من هَمْدان قال : سمعت عليا يقول هذا الحرف في ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ قال :
(طلع منضود)))[4] .
فهذا الأثر - بهذا الإسناد - ضعيف لجهالة الشيخ الهَمْدانيّ .

وقد ذكر أبو حيانَ أن علياً وجعفر بن محمد[5] وعبد الله[6] قرأوا ذلك الحرفَ بالعين : (وطلع منضود) ، لكنه لم يذكر إسناداً ، ولم يبين مصدر ذلك[7] .

١- الإمام الحافظ ، الحجة ، الجوّال ، أبو محمد عَبْد بن حُميد بن نصر الكِسيّ ، ويقال : الكَشّيّ . ولد بعد السبعين ومائة ، وحدّث عن خلق كثير ، وأخذ عنه عدد كبير من الرواة . جمع وصنّف . مات سنة تسع وأربعين ومائتين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٢ / ٢٣٥ - ٢٣٨ .

٢- انظر ((الدر المنثور)) : ٨ / ١٣ .

٣- ((انظر الرسالة المستطرفة)) : ٦٦ - ٦٧ .

٤- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٨ / ٤ .

٥- جعفر بن محمد بن علي بن الحسين القرشي الهاشميّ المدنيّ ، الإمام الصادق ، شيخ بني هاشم .
ولد سنة ثمانين ، ورأى بعض الصحابة ، وحدث عنه خلق ، وهو ثقة . كذب عليه الرافضة كثيراً ، وكان يمقتهم ويتبرأ منهم . توفي سنة ١٤٨ ، رحمه الله تعالى . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٦ / ٢٥٥ - ٢٧٠ .

٦- لم يبين أبو حيّانَ من عبد الله هذا لكنه ذكر أنه قرأها على المنبر ، فيحتمل أن يكون عبدَ الله بن مسعود ، لأنه إذا أُطلق عبد الله فإنه ينصرف غالباً إلى ابن مسعود - رضي الله عنه - وكان قد أُرسل إلى الكوفة معلماً ووزيراً مع أميرها عمار بن ياسر فيصح لابن مسعود إذاً أن يعتلي المنبر ، انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١٧ / ٦٠٦ .

٧- انظر ((البحر المحيط)) : ٨ / ٢٠٦ .

مما سبق يتبين أن سند هذا الأثر حسن ؛ حيث إن له طرقاً يقوي بعضها بعضاً،لكن عدداً من الأئمة ردوا هذا الأثر واحتجوا بأنه منكر المتن :

ردّ هذا الأثر من حيث نكارة المتن :

ومن تكلم على هذه الرواية الآلوسيّ - رحمه الله تعالى - حيث قال :
((هي رواية غير صحيحة - كمانبه على ذلك الطِّيبيّ[١] - وكيف يُقرّ أمير المؤمنين ، كرم الله تعالى وجهه ، تحريفاً في كتاب الله - تعالى - المتداولِ بين الناس ؟ أو كيف يُظن بأن نقلة القرآن ورواته وكُتّابه من قبل تعمدوا ذلك أو غفلوا عنه ؟ هذا واللهُ - تعالى - قد تكفل بحفظه ، سبحانك هذا بهتان عظيم !!
ثم إن الذي يقتضيه النظم الجليل - كما قال الطيبيّ - حَمْلُ ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾[٢] إلخ ... على معنى التظليل وتكاثف الأشجار على سبيل الترقي[٣] ، لأن الفواكه مستغنى عنها بما بعد[٤] ، وليقابلَ قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ • فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ • وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴾[٥] قوله سبحانه : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾[٦] إلخ ... فإذن لامدخل لحديث الطَّلْع في معنى الظلّ ومايتصل به))[٧] .

١- الحسين بن محمد بن عبد الله ، شرف الدين الطِّيبيّ ، الإمام المشهور . من أهل ((تَوْرِيز)) في عراق العجم . حسن المعتقد ، شديد الردّ على الفلاسفة والمبتدعة ، مظهراً فضائحَهم ، كثيرَ الحياء ، ملازماً للجماعة مع ضعف بصره بآخره . له مصنفات في التفسير ، والمعاني والبيان ، وغير ذلك من العلوم ، وفضائله كثيرة . توفي سنة ٧٤٣ . انظر ((الدرر الكامنة)) : ٢ / ١٥٦ - ١٥٧ ، و ((الأعلام)) : ٢ / ٢٥٦ .

٢- سورة الواقعة : آية ٢٨ .

٣- أي الترقي من ذكر الظل الأدنى إلى الظل الأعلى ، فتظليل ورق المور أكبر من تظليل السدر ، وتظليل الظلّ الممدود أكبر من تظليل ورق الموز ، أما الطلع فلا مدخل له هاهنا ، والله أعلم .

٤- أي بذكره لها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [سورة الواقعة : آية ٣٢ ، ٣٣] ، والطلع أول الفاكهة ، كما سبق تعريفه .

٥- سورة الواقعة : آية ٤١ .

٦- سورة الواقعة : آية ٢٧ .

٧- ((روح المعاني)) : ٢٧ / ١٤١ .

فالآلوسي والطيبيّ ردّا المتن لأنه يتعارض مع المرسوم القطعي الثبوت ، وبأن عليًّا لوعلم أنّ في المصحف خطأً لبادر إلى تصحيحه .

الجمع بين هذا الأثر وبين المرسوم في المصحف :

حاول عدد من الأئمة الجمع بين هذه الرواية : (وطلع) وبين المقطوع بصحته المتفق على رسمه : ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ ، فمن هؤلاء :

١ - الإمام أبوبكر الأنباريّ ، حيث أخرج هذه الرواية بإسناده - كما بينت سابقاً[١] - ثم علّق على قول علي رضي الله عنه : ((لايُهاج القرآن اليوم)) ، فقال :

((ومعنى هذا أنه رجع إلى مافي المصحف وعلم أنه الصواب ، وأبطل الذي كان فَرَط[٢] من قوله))[٣] .

وكلام الأنباريّ هذا فيه تكلف ؛ إذِ السياق لايساعد هذا التأويل ، وصدر الرواية يبطله حيث قال علي : ((ماشأن الطلح ؟)) ، فعليٌّ - رضي الله عنه - ينكر أن يكون المراد (الطَّلْحَ) إنما هو (الطَّلْع) .

٢ - الإمام القُشيري[٤] ، حيث قال :

((قد اختار هذه القراءة ، ولم ير إثباتها في المصحف لمخالفة مارسْمُه مجمعٌ عليه))[٥] .

١- انظر ص ٥٦٧ .

٢- أي سبق ، انظر ((لسان العرب)) : ف ر ط .

٣- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١٧ / ٢٠٨ - ٢٠٩ .

٤- هو الشيخ الإمام ، الزاهد ، القدوة ، أبوالقاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القُشيريّ ، المفسر ، صاحب الرسالة . ولد سنة ٣٧٥ . كان عديمَ النظير في السلوك والتذكير ، لطيف العبارة ، طيب الأخلاق . له عدة مصنفات وكان على مذهب الشافعي . توفي سنة ٤٦٥ بـ ((نيسابور)) .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٢٢٧ - ٢٣٣ .

٥- ((الجامع لأحكام القرآن)) : ١٧ / ٢٠٨ .

وهذا الذي ذهب إليه القُشيريّ حسن جميل ؛ إذ يمكن أن تكون هذه القراءة : (وطلع منضود) مما كان عليّ - رضي الله عنه - يرى قراءتها كذلك ، لكنه لاينكر على من قرأ : ﴿ وَطَلْحٍ ﴾ .

وإنما استحسنت رأي القُشيري - رحمه الله تعالى - لأمور :

أولاً : أمير المؤمنين عليّ - رضي الله عنه - أورعُ وأعلم بالله من أن يقرأ حرفاً من كتاب الله ، تعالى ، بدون أن يكون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأه ، فهو له مستند - ولابد - في قراءته لذلك الحرف كذلك .

ثانياً : يُجمع بهذا الرأي بين الرواية التي سندها حسن وبين المقطوع به المرسوم في المصاحف ، فلا تُهدر تلك الرواية إذا وُجد وجهٌ حسن للجمع .

ثالثاً : قد رُوي عن عدد من الصحابة - ومنهم علي - رضي الله عنهم رواياتٌ شاذة لم يَعُدْ يُقرأ بها ، ومثل هذا المروي عن علي هو من الشاذ الذي لايُعدُّ قرآناً ، وإن ارتآه علي - رضي الله عنه - صحيحاً ، فإن القرآن هو الذي مابين الدَفّتين مما جمعه عثمان ووافقه عليه الصحابة وقرأوا به من غير نكير ، رضي الله عنهم .

فقول القشيري : ((اختار هذه القراءة ، ولم يرإثباتها في المصحف لمخالفة مارسْمُه مجمعٌ عليه)) قول القشيري هذا قول دقيقٌ يصلح أن يكون فصلاً في هذه المسألة ، والله أعلم .

كانت تلك مسألتين من قضايا الرسم العثماني المهمة ، التي قد تكون شبهة نافذة حين تُذكر ولا تُبين البيانَ الشافي ، ولعل ماسقته فيهما كاف في بيانهما ، وحل الإشكال الظاهر فيهما ، والله أعلم .

القضية الثانية : الفاصلة القرآنية

الفاصلة في لسان العرب تأتي على معانٍ متعددة ، الأصل فيها الحجزُ بين شيئين ، فالفاصلة حاجز[1] .

والفاصلة في الاصطلاح استعملت في عدد من العلوم :

فلها في النحو استعمالٌ وهو ضمير الفصل أو العماد[2] ، وفي العَروض لها استعمال[3] ، وفي علامات الترقيم لها استعمال معروف ، وهو مايوضع بين الجمل لفصل بعضها عن بعض .

أمّا في اصطلاح علوم القرآن :

فهي الكلمة الأخيرة من الآية القرآنية :

((أواخر الآيات في كتاب الله – عز وجلّ – فواصلُ بمنزلة قوافي الشعر ، جَل كتاب الله – عزّ وجل – واحدتها فاصلة))[4] .

ونقل السيوطي – رحمه الله تعالى – أن الفاصلة تقع ((عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى (فواصل) لأنه ينفصل عندها الكلامان ؛ وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين مابعدها))[5] .

ويتعلق معنى الفاصلة بقوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ ﴾[6] ؛ إذ للآية معنيان ((أحدهما : تفصيل آياته بالفواصل ، والمعنى الثاني في ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ : بيّناه))[7] .

١- انظر ((لسان العرب)) : ف ص ل .

٢- وذلك نحو قوله تعالى﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾: سورة الأنفال : ٣٢ .

انظر ((لسان العرب)) : ف ص ل .

٣- انظر ((لسان العرب)) : ف ص ل .

٤- المصدر السابق .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣١ ، ونقل السيوطي ذلك عن الزركشيّ في ((البرهان)) : ١ / ٥٤ .

٦- سورة الأعراف : آية ٥٢ .

٧- ((لسان العرب)) ف ص ل .

وللفاصلة تعلق بإثبات السّجْع في القرآن العظيم ، وقد تحدثت عن هذه المسألة قبل هذا ، ورأيت أن الحجة أقوى لمن أثبت السجع غير المتكلف في كتاب الله تعالى[1] ، فالفاصلة إذاً ركن من أركان السجع وعماد له .

ولمعرفة الفواصل طريقان : توقيفي وقياسيّ ، ((فما وقف - عليه السلام - عليه دائماً تحققنا أنه فاصلة ، وما وصله دائماً تحققنا أنه ليس بفاصلة ، وماوقف عليه مرّة ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريفهما[2] ، أو التعريف الوقف التام ، أو للاستراحة))[3] .

والقياسي ((هو ماأُلحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب ، ولامحذور في ذلك ؛ لأنه لازيادة فيه ولانقصان ، وإنما غايته أنه محل فصل أو وصل ، والوقف على كل كلمة جائز ، ووصل القرآن كله جائز))[4] .

وللفاصلة القرآنية أهمية كبرى ، ولها تعلقات بعلوم اللغة العربية ؛ أومأتُ إلى بعضها بإيجاز ، وتركت الباقي .

وللفاصلة أقسام وأنواع تنظر في مظانّها[5] .

ومرادنا من هذا الفصل هو مناقشة قضية مهمة ذكرها الإمام السيوطيّ عند عرضه لمسألة الفاصلة في القرآن ، وهذه القضية تتلخص في أن الإمام السيوطي نقل عن ابن الصائغ أن هناك كلماتٍ قرآنيةً أُخّرت وكان حقُّها التقديم ، أو قدمت

١- انظر ص ١٥٣ - ١٥٤ .

٢- أي لتعريف مواضع الفواصل من غيرها .

٣- ((البرهان)) : ١ / ٩٨ .

٤- المصدر السابق ، وقد ذكر فيه طرق القياس في ضبط الفواصل .

٥- انظر في ((الفاصلة)) : ((البرهان)) : ١ / ٥٣ - ١٠١ ، و ((الإتقان)) : ١ / ٩٦ - ١٠٥ ، وهناك بحث رائد في تاريخ الفاصلة ، وجهود القدماء والمحدثين في تحديدها وتقسيمها ، وعلاقتها ببعض العلوم ، وقد طبع في كتاب بعنوان ((الفاصلة في القرآن)) للأستاذ محمد الحسناوي .

وكان حقها التأخير ، أو ثُنيت وكان حقها الإفراد ، أو أُوثر جلب أغرب اللفظتين وغير ذلك من أسباب مراعاة الفاصلة ، ولم يَذكر سبباً آخر للتقديم أو التأخير إلا ماذكره السيوطي عقِب انتهائه من سرد الأمثلة التي أتى بها في هذه المسألة – نقلاً عن ابن الصائغ – فقال :

((قال ابن الصائغ :

لايمتنع في توجيه الخروج عن الأصل في الآيات المذكورة أمور أخرى مع وجه المناسبة ؛ فإن القرآن العظيم – كما جاء في الأثر[1] – لاتنقضي عجائبه))[2] .

ولم يناقش الإمام السيوطي هذه القضيةَ كما ينبغي ، خاصة أنه أطال في ذكر الفاصلة وأقسامها ، بل جعلها ضمن المناسبة بين الآيات وجهاً من وجوه الإعجاز[3] ، لذلك رأيت أن أبسط الكلام عليها لما لها من عظيم التعلق بكتاب الله – تعالى – وإعجازِه ، وسأذكر ماجاء في ((المعترك)) مماله تعلق بهذه القضية ، وهي ستُّ مسائلَ ، نقلها السيوطي كلها عن ابن الصائغ،وهذه المسائل هي :

١- هذه الجملة وردت في أحاديثَ عدّة لاتخلو من ضعف ، منها ماأخرجه الحاكم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((إن هذا القرآنَ مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته مااستطعتم ، إن هذا القرآنَ حبل الله ، والنورُ المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لايزيغ فيُستعتب ، ولا يعوج فيقوّم ، ولاتنقضي عجائبه ، ولايَخْلَق على كثرة الردّ ...)) .

وقد ضعف الذهبي أحدَ رواته وهو إبراهيم بن مسلم الهَجَريّ : انظر ((المستدرك)) : ١ / ٧٤١ .

وأخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) عن عبد الله بن مسعود ، مرفوعاً وموقوفاً ، بألفاظ مقاربة لما في ((المستدرك)) ، وفيه إبراهيم بن مسلم الهَجَريّ أيضاً ، انظر ((شعب الإيمان)) : ٤ / ٤٩٣ ، ٥٩٤ .

وهذا الحديث أُخرج في عدد من كتب السنة : سننٍ ومعاجم ومسانيد وغيرها – مرفوعاً وموقوفاً – لكن من طريق إبراهيم الهجريّ ، وهو ضعيف . وأخرجه الإمام الترمذي في سننه ٥ /١٧٢ – ١٧٣ ، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) عن علي رضي الله عنه مرفوعاً وفي السند مجاهيل وضعفاء ، انظر ((شعب الإيمان)) : ٤ / ٤٩٣ ، ٤٩٦ – ٤٩٧ ، ٥٤٩ ، وكلامَ المحقق على هذا الحديث .

وقد قال الإمام الترمذيّ :

هذا حديث لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٩ .

٣- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٨ – ٥٤ .

أولاً : التقديم والتأخير في كلمات القرآن مراعاةً للفاصلة :

وقد ذكر السيوطي مثالين للتقديم والتأخير مراعاةً للفاصلة ، وهما :

أ – ذكر أن سبب تقديم هارون على موسى – عليهما الصلاة والسلام – في قوله تعالى : ﴿ بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [1] أن سبب ذلك رعاية الفاصلة[2] .

ب – ذكر من مناسبات آخر الآيات وأحكامها ((تقديم ماهو متأخر في الزمان نحو ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ [3] ، ولولا مراعاة الفواصل لقدمت ﴿ ٱلْأُولَىٰ ﴾ كقوله : ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ ﴾[4]))[5] .

ثانياً : إيثار أغرب اللفظتين مراعاة للفاصلة :

ويعني بهذا أن هناك كلماتٍ أوضحَ من بعض الكلمات القرآنية ، وإنما تكلم الله – سبحانه وتعالى – باللفظة الغريبة مراعاة للفواصل ، وما ساقه من هذه الكلمات قوله :

((إيثار أغرب اللفظتين ، نحو ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[6] ولم يقل : جائرة .

و﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴾[7] ولم يقل : جهنم أو النار .

وقال في المدثر : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[8] ، وفي سأل : ﴿ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴾[9] ، وفي القارعة﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[10] لمراعاة فواصل كل سورة))[11] .

١- سورة طه : آية ٧٠ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٧٥ .

٣- سورة النجم : آية ٢٥ .

٤- سورة القصص : آية ٧٠ .

٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٣ ، وانظر كذلك : ١ / ١٧٧ .

٦- سورة النجم : آية ٢٢ .

٧- سورة الهمزة : آية ٤ .

٨- آية ٢٦ .

٩- آية ١٥ .

١٠- آية ٩ .

١١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٥ .

ثالثاً : إطلاق التثنية والمراد الإفراد لمراعاة الفواصل :

ومعنى هذا أن بعض كلمات القرآن جاءت مثنّاةً وكان حقّها الإفراد ، وإنما كان ذلك لأجل مراعاة الفواصل .

وساق السيوطي - نقلاً عن ابن الصائغ مثالين فقال :

((الاستغناء بالتثنية عن الإفراد نحو : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [1] .

قال الفراء :

أراد جنة ؛ كقوله ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [2] فثنّى لأجل الفاصلة .

قال[3] : والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان مالايحتمله سائر الكلام))[4] .

وقد أورد السيوطيّ - نقلاً عن ابن الصائغ - رداً لابن قتيبة على هذه المسألة ، وكان هذا هو الموضعَ الوحيد ، في سائر المسائل التي وردت في هذه القضية ، الذي رُدّ فيه على الغلو في الزعم بمراعاة الفواصل ولو وردت الألفاظ بسياق مرجوح ، وسأسوق ردّ ابن قتيبة - إن شاء الله تعالى - عند مناقشتي تلك المسائل .

ثم ذكر السيوطي المثال الآخر فقال :

((ونظير ذلك قول الفرّاء - أيضاً - في قوله : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾[5] فإنهما رجلان : قدار وآخر معه ولم يقل : (أشقياها) للفاصلة))[6] .

رابعاً : إطلاق الجمع والمراد الإفراد :

وهذه المسألة شبيهة بسابقتها ، وقد ساق السيوطي فيها مثالاً نقله عن ابن الصائغ فقال :

١- سورة الرحمن : آية ٤٦ .

٢- سورة النازعات : آية ٤١ .

٣- أي ابن الصائغ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٦ .

٥- سورة الشمس : آية ١٢ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٦ .

((الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحـو : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾[1] أي : ولا خلة ، كما في الآية الأخرى[2] ، وجمع مراعاة للفاصلة))[3] .

خامساً : الجمع بين المجرورات :

وهذا مما نقله السيوطي عن ابن الصائغ رحمهما الله ، وهو أخطر من سائر المسائل التي نقلها ، وإنما تكمن خطورة هذه المسألةِ في إطلاق الحكم بأن ما في السياق القرآني مفضول بغيره ؛ وقد مثّل له ابن الصائغ بقوله :
((الجمع بين المجرورات : نحو ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[4] فإن الأحسن الفصل بينهما إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه))[5] .

سادساً : تأخير الأبلغ وتقديم البليغ :

أي أن هناك كلمتين بليغتين متقاربتين ، لكن إحداهما أبلغ من الأخرى ، فقُدمت الكلمة البليغة وأُخرت الكلمة الأبلغ مراعاة للفاصلة .

ومن الأمثلة التي ساقها ابن الصائغ ونقلها عنه السيوطيّ قوله :
((ومن هذا النوعِ تأخيرُ الأبلغ ، وقد خُرِّج عليه تقديم ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ على ﴿ الرَّحِيمِ ﴾[6] .
و (الرؤوف) على ﴿ الرَّحِيمِ ﴾[7] .
و (الرسول) على (النبيّ) في قوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [8] .

١- سورة إبراهيم : آية ٣١ .
٢- أي الآية ٢٥٤ من سورة البقرة : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ .
٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧ .
٤- سورة الإسراء : آية ٦٩ .
٥- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٨ .
٦- في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .
٧- سورة البقرة : آية ١٤٣ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
٨- سورة مريم : آية ٥١ .

وذُكر لذلك نكتٌ أشهرها مراعاة الفاصلة))[1] .

وهذا القول توسّطٌ في المسألة حيث ذكر السيوطيّ نقلاً عن ابن الصائغ أن لمسألة التقديم والتأخير نكتاً منها مراعاة الفاصلة ، وهذا مما لم يتقدم في المنقول السابق على هذا ؛ إذ اكتُفي – في سائرها – بالقول بمراعاة الفواصل فقط .

مناقشة مانقله السيوطي عن ابن الصائغ :

لمناقشة هذه القضيةِ ينبغي أن يوردَ سؤالٌ مهم ، وهو :

هل المعنى في كتاب الله – تعالى – تابع للفواصل ؟ أوِ الفاصلة مقيدة بالمعاني الجليلة ؟

وإنما أوردت هذا التساؤل لأني فهمت من هذا الذي نقله الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – أن المعانى تبعٌ للفواصل في الآيات التي ساقها ، وهذا المعنى يُنزه عنه كتابُ الله – تبارك وتعالى – إذ لابد أن يكون لهذه المواضعِ التي سُقتها آنفاً وغيرِها مما يماثلها لابد أن يكون لها معانٍ جليلةٌ اقتضت بأن تُساق الألفاظ تبعاً للمعاني السياقَ الذي أوردته عن ((المعترك)) آنفاً .

ولايضرُّ كتابَ الله – تبارك وتعالى – أن يكون أحدُ أسباب ذلك السياقِ مراعاةَ الفواصل ؛ إذ لوقْع الفواصل على الآذان تأثير لايُنكر ولايُدفع ، أما أن يكون سبب هذا السياقِ مراعاةَ الفاصلة فقط ، فهذا مما يَرِد على هذه القضية ويوهنها .

إيراد كلام الأئمة الذين أحسنوا مناقشة هذه المسألةِ في بعض جوانبها :

وممن ناقش هذه القضية مناقشة حسنة : الإمامان بدر الدين الزركشيّ والزمخشري ، حيث نقل الزركشي كلام الزمخشريّ قائلاً :

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ١٨٠ .

((ذكر الزمخشريّ في كشافه القديم[1] أنه لاتحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها ، على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، كما لايحسن تخيرّ الألفاظ المُونِقةِ[2] في السمع ، السلسةِ على اللسان إلا مع مجيئها منقادةً للمعاني الصحيحة المنتظمة ، أما أن تُهمل المعاني ويُهتم بتحسين اللفظ وحده غيرَ منظور فيه إلى مؤداه على بال فليس من البلاغة في فتيل[3] أو نقير[4] ، ومع ذلك يكون قوله :

﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[5] ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[6] لايتأتى فيه **تركُ رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية[7] إيثاراً للفاصلة؛ لأن ذلك أمر** لفظيّ لاطائلَ تحته ، وإنما عُدل إلى هذا لقصد الاختصاص))[8] .

ولو جمع الزمخشري – رحمه الله تعالى – إلى جانب إرادة الاختصاص إرادةَ مراعاةِ الفواصل في هذا لكان جمعاً حسناً ، ولانتفى المحذور بالقول برعاية الفاصلة فقط ، أو بإهمال شأن الفاصلة تماماً ؛ إذ أن كلاهما مراد .

١- قد ذكرت في فهرس مصادر ومراجع السيوطيّ أن كتاب ((الكشاف القديم)) للزمخشري مما أُبهم عليّ معرفتُه ، وهل يُقصد به التفسيرُ الذي ألّفه لسورتي الفاتحة والبقرة ثم اختصره لمّا رأى طوله وصنف الكشاف الذي بين أيدينا ؟ **انظر ص٧٩٤ من هذه الرسالة.**

٢- العجيبة الحسنة : انظر ((لسان العرب)) : أ ن ق .

٣- الفتيل : مايكون على هيئة الخيط في شق النواة .

٤- النقير : النكتة في ظهر النواة ، كأن ذلك الموضع نُقر منها . والفتيل والنقير يضربان مثلاً للشيء التافه الحقير القليل : انظر ((لسان العرب)) : ن ق ر ، ف ت ل .

٥- سورة البقرة : آية ٤ .

٦- سورة البقرة : آية ٣ .

٧- المقصود بترك رعاية التناسب في العطف بين الجمل الفعلية أن السياق في الآية الثالثة من سورة البقرة والآيةِ الرابعة منها كان بالجمل الفعلية المتعاطفة إلا ماكان من فاصلتي الآيتين فهما جملتان اسميتان ، فانقطع التناسب بين الجمل لكون أكثرها جملاً فعلية وبعضها جملاً اسمية ، فلايُتوهم أن هذا كان لمراعاة الفاصلة فقط ، وسيأتي قريباً بيانُ الزمخشريّ سببَ هذا .

٨- ((البرهان)) : ١ / ٧٢ .

والمقصود بالاختصاص اختصاص المؤمنين بصفتي الإيقان بالآخرة والإنفاق في سبيل الله على وجه الكمال ، وقد حصل الاختصاص هنا بتقديم المعمولين : ﴿ وَبِالْآخِرَةِ ﴾ ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ على العاملين .

ولم يرتضِ هذا الاختصاصَ في الآية الزركشيُّ انظر ((البرهان)) : ١ / ٦٣ .

ثم إن الزركشيّ – رحمه الله تعالى – ناقش بعض الآيات التي قيل إن نهاياتِها إنما جاءت على صورتها التي هي عليها لمراعاة الفواصل .

ولكن الزركشيّ – رحمه الله تعالى – رجح في آيات كثيرات أن السبب في كون نهاياتِها على صورتها التي هي عليها إنما هو لمراعاة الفاصلة ، ولم يذكر سبباً آخرَ غيرها[١] .

ومن الآيات التي ناقشها الإمام الزركشي مانقلته آنفاً[٢] عن ابن الصائغ – رحمه الله تعالى – في قوله سبحانه : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [٣] ، وقد ذكر فيها قول ابن قتيبةَ – أيضاً – وناقش الفرّاء فيما ذهب إليه[٤] .

وقد ذكر أيضاً قول من قال إن الأحسن الفصل بين المجرورات في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[٥] حيث ذكر أن تأخير ﴿ تَبِيعًا ﴾ أرجح من الفصل به بين المجرورات المذكورة ، ولكنه لم يذكر السبب ، وذكر أيضاً أن تأخيره حسنٌ لمراعاة الفاصلة[٥] .

وسيأتي بيان هذا – إن شاء الله تعالى – عند مناقشتي للمسائل الستّ التي نقلها السيوطيّ عن ابن الصائغ[٦] .

ومن تكلم على هذه القضيةِ كلاماً حسناً الشيخُ الإمام برهان الدين البِقاعيّ حيث قال في قوله تعالى : ﴿ بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [٨] :

١- انظر ((البرهان)) : ١ / ٦٣ – ٦٧ .

٢- انظر ص ٥٧٨ .

٣- سورة الرحمن : آية ٤٦ .

٤- انظر ((البرهان)) : ١ / ٦٤ – ٦٥.

٥- سورة الإسراء : آية ٦٩ .

٦- ((البرهان)) : ١ / ٦٢ .

٧- انظر ص ٥٨٥ ومابعدها .

٨- سورة طه : آية ٧٠ .

((وهذه الآية في أمثالها من آي هذه السورةِ وغيرها - مما قُدم فيه مايتبادر أن حقه التأخير وبالعكس لأنحاء من المعاني دقيقةٍ - هي التي حملت بعض من لم يرسخ إلى أن يقول : إن القرآن يراعي الفواصل كما يتكلف بلغاء العرب السَّجْع ، وتبعه جمع من المتأخرين تقليداً ... وقد قال الإمام فخر الدين الرازي - كما حكاه عنه الشيخ أبوحيّانَ في تفسير سورة فاطر من النهر[1] :

لايقال في شيء من القرآن إنه قُدِّم أو أخر لأجل السجع ؛ لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل فيه وفي المعنى ...))[2] .

وقال البِقاعي - رحمه الله تعالى - في موضع آخر :

((وإذا تأملت كتابي هذا ظهر لك أن كثيراً من الآيات فسرها على غير المراد منها قطعاً أكابرُ العلماء ، فعلى الإنسان إذا خفي عليه أمرٌ أن يقول لاأعلم ، ولايظن أنه رُتب شيء من هذا الكتابِ العزيز لأجل الفواصل ، فذلك أمر لايليق بكلام الله تعالى))[3] .

ثم ذكر أن القرآن قد يقع فيه شيء من الكلام الموزون وشيء من السَّجْع إلا إنه ((وإن وقع فيه كل من الأمرين فغير مقصود إليه ولا معول عليه ، بل لكون المعنى انتظم به على أتم الوجوه فيؤتى به لذلك))[4] .

وقال - رحمه الله تعالى - في موضع آخر :

((وإذا تأملت الفواصل في الإتيان بها تارة بكثرة ، وتارة بقِلّة ، وتارة تترك بالكلية ويؤتى في كل آية بفاصلة لاتوافق الأخرى ، علمت أن هذا المذهب هو الصواب ، ولاسيما آخر سورة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾))[5] .

١- هو كتاب ((النهر المادّ من البحر)) ، وهو تلخيص من ((البحر المحيط)) ، وكلا الكتابين لأبي حيان - رحمه الله تعالى - ولم أجد هذا النقل في ((النهر)) إنما هو في ((البحر المحيط)) : ٧ / ٣٠٩ .

٢- ((نظم الدرر)) : ١٢ / ٣٠٩ - ٣١١ .

٣- المصدر السابق : ٩ / ٥٧ .

٤- المصدر السابق : ٩ / ٥٩ .

٥- المصدر السابق : ٩ / ٦٠ ، ومراده الآية رقم : ١٩ ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ؛ إذ أنها تختلف في فاصلتها عن كل آيات السورة .

فالرأي القوي الحميد إذاً في هذه المسألة هو أن :

فواصل القرآن ((حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعنى))[1] .

وأن ((فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، لأنها طريقٌ إلى إفهام المعاني التي يُحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها))[2] .

و ((ومجرد المحافظة على الرؤوس[3] لايصير نكتةً للتقديم إلا بعد أن يثبت أن المعاني إذا أُرسلت على سجيّتها كانت تقتضي التقديم))[4] .

ولامانعَ من القول بأن إرادة المعنى الصحيح لاتضادّ إتقانَ الفواصل ومجيئها متناسقةً ، جميلةَ الوقع على الأسماع ؛ فكلا الأمرين مرادٌ ومقصودٌ ، لكن المحذور الممتنع أن يقال إن الفواصل جاءت على حساب المعاني ، أو مستقلة عن مراعاة المعاني .

فلا يصح إذاً التعليل الذي ذكره الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ممانقله عن ابن الصائغ أن سبب مجيء نهاية بعض الآيات على صورتها التي هي عليها إنما هو مراعاة الفواصل فقط بل لهذا معانٍ اقتضت مجيئها هكذا ، كما ذكر ذلك ابن الصائغ نفسه في المسألة السادسة .

وقد بحثت عن بعض الحكم التي ذكرها العلماء تفسيراً لسبب مجيء فواصل الآيات التي نقلها الإمام السيوطي عن ابن الصائغ على صورتها تلك ، فوجدت اعتناءً جيداً - و لله الحمد - في بيان أكثرها ، وبيانِ مثيلاتها مما لم يذكره الإمام السيوطي ، رحمه الله تعالى ، وها أنذا أورد ماوجدته من الكلام على تلك المسائل الست.

١- ((النكت في إعجاز القرآن)) : ٩٨ .

٢- المصدر السابق .

٣- أي رؤوس الآي ، والمراد الفواصل .

٤- ((روح المعاني)) : ١ / ٦٣ .

المسألة الأولى : التقديم والتأخير بزعم مراعاة الفاصلة :

قد ذكر السيوطي – نقلاً عن ابن الصائغ – مثالين للتقديم والتأخير بزعم مراعاة الفاصلة .

أما المثال الأول فهو تقديم هارون على موسى – عليهما الصلاة والسلام – في قوله تعالى : ﴿ بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾[1] ، وقد تكلم عدد من الأئمة على سبب هذا التقديم فمنهم :

١ – الإمام البِقاعي ، فقد قال ماحاصله أن تقديم هارون على موسى – عليهما الصلاة والسلام – إنما هو ترقٍّ من السحرة في شكر من أوصل تلك النعمةَ إليهم ، فهارون هو كالوزير بين يدي موسى ، عليهما الصلاة والسلام[2] .

٢ – وقد جمع الشيخ الطاهر بن عاشور بين إرادة رعايةِ الفاصلة وبين التنبيه على معنى آخرَ حسنٍ ، فقال رحمه الله تعالى :

((ووجهُ تقديم هارون هنا الرعاية على الفاصلة ... ويجوز أن يكون تقديم هارون في هذه الآية من حكاية قول السحرة فيكون صدر منهم قولان ، قدموا في أحدهما اسم هارون اعتباراً بكبر سنه ، وقدموا اسم موسى في القول الآخر[3] اعتباراً بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى ، فاختلاف العبارتين باختلاف الاعتبارين))[4] .

٣ – وقد ذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب مذهباً حسناً في تقرير سبب ورود الفاصلة كذلك فقال بعد أن ذكر بعضاً من تعليلات العلماء :

((والأمر – عندنا – أهون من هذا ، وأقرب متناولاً ، فهذه المقولات الثلاث التي حكاها القرآن على لسان السحرة هي جميعها من مقولاتهم في تلك الحال ، فقال بعضهم: ﴿ بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ وقال بعضٌ آخر : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[5] ،

١- سورة طه : آية ٧٠ .

٢- ((نظم الدرر)) : ١٢ / ٣٠٩ .

٣- وهو قوله تعالى : ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ : سورة الأعراف : آية ١٢٢ .

٤- ((التحرير والتنوير)) : ١٦ / ٢٦٣ .

٥- سورة الأعراف : آية ١٢٢ .

وقال بعضٌ ثالث ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [1] ، وقال بعضٌ رابع وخامس وسادس ، وهكذا قالوا جميعاً مقولات تدل على الإيمان بالله ، قالوها بأساليبَ مختلفة وبصور متباينة ، جهر بها بعضهم وخافت بها بعضٌ ، ومحالٌ أن يكونوا جميعاً قالوا قولاً واحداً على صورة واحدة ، فذلك مالايتفق لهذا الجمعِ الكثير ، ولايشهد له واقع الحياة ، وكان الذي حكاه القرآن من مقولاتهم هو الوجهَ الغالب فيها ، وهذا مايتفق وصدق القرآن وإعجازه))[2] .

فالفاصلة - إذاً - جاءت على هيئتها في سورة طه لبيان قول مجموعة من السحرة ، وما كان في سورة الأعراف فهو قول آخر لمجموعة أخرى ، والله أعلم .

وهناك أقوال أخرى في المسألة على طالبها أن يراجعها في مظانها[3] .

وأما الآية الثانية التي ذكرها السيوطي نقلا عن ابن الصائغ ، رحمهما الله تعالى ، فهي : ﴿ فلله الأَخرة والأُولى ﴾[4] وأنه لولا مراعاة الفاصلة لقُدمت ﴿ ٱلْأُولَىٰ ﴾ لأنها أسبق في الزمان وذلك كقوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾[5] .

وقد وجه هذه الآيةَ الشيخُ الطاهر بن عاشور فقال :

((وإنما قدمت الآخرة للاهتمام بها ، والتنبيهِ[6] إلى أنها التي يجب أن يكون اعتناء المؤمنين بها ؛ لأن الخطاب في هذه الآيةِ للنبي - صلي الله عليه وسلم - والمسلمين ، مع مافي هذا التقديمِ من الرعاية للفاصلة))[7] .

١- سورة الأعراف : آية ١٢١ .

٢- ((إعجاز القرآن)) : ٢ / ٢١٩ - ٢٢٠ .

٣- انظر - مثالاً - ((الفاصلة في القرآن)) : ١٣٨ - ١٤١ . فقد ذكر مؤلفه أقوالاً أخرى في هذه المسألة .

٤- سورة النجم : آية ٢٥ .

٥- سورة القصص : آية ٧٠ .

٦- في المطبوع : (والتثنية) ولاأرى لها وجهاً ، ولعل الصوابَ ماأثبتُه .

٧- ((التحرير والتنوير)) : ٢٧ / ١١٢ .

وقد أشار الأستاذ سيد قطب – رحمه الله تعالى – إلى هذه المسألة إشارة حسنة ؛ إذ قال :

((ولاننسى أن نلحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى لمراعاة قافية السورة وإيقاعها إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى كما هي طبيعة الأسلوب القرآني في الجمع بين أداء المعنى وتنغيم الإيقاع ، دون إخلال بهذا على حساب ذاك ... فالجمال في الكون كله يتناسق مع الوظيفة ويؤاخيها .

وإذا خلص الأمر كله لله في الآخرة والأولى فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة – المدّعاة من الملائكة – لهم عند الله ... لاأصل لها ... فالأمر لله في الآخرة والأولى ، ومُنى الإنسان لاتغير من الحق الواقع شيئاً ، والشفاعة لاتقبل إلا بإذن من الله ورضاً فالأمر إليه في النهاية ، والاتجاه إليه وحده في الآخرة والأولى))[1] .

فتقديم الآخرة على الأولى إذاً مرادٌ هاهنا لبيان صلة الآيات السابقة – وهي آيات تقصّ اتخاذ المشركين الأصنامَ والملائكة ، على أحد التفاسير ، آلهةً – بالآيات اللاحقة وهي تخبر بعدم جدوى عبادة هذه الآلهة بدعوى الشفاعة في الآخرة ، فالحديث هنا يدور على الدار الآخرة وما يظهر فيها من بطلان الشفاعات كلها إلا شفاعة من أذن الله له ، فناسب المقامُ تقديم الدار الآخرة في الذكر ، والله أعلم .

١– ((في ظلال القرآن)) : ٦ / ٣٤٠٩ .

المسألة الثانية : إيثار أغرب اللفظتين مراعاةً للفاصلة :

ومقتضى هذه المسألة أن هناك لفظتين أو أكثر لتأدية المعنى نفسه ، لكن أُوثرت اللفظة القرآنية – وهي الأغرب من بين الألفاظ المؤدية لذلك المعنى – مراعاةً للفاصلة فقط ، و لم يبين السيوطيّ أن ذلك اللفظ يؤدي معنى لايؤديه غيره .

وقد ساق السيوطي – نقلاً عن ابن الصائغ – عدة أمثلة ، كان الأول منها قوله :

((نحو ﴿ قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ [1] ولم يقل : (جائرة)[2] ...)) ، ثم ساق أمثلة أخرى[3] ، سأكتفي منها ببيان أولها لما فيه من الغرابة .

وقد تكفل الرافعيّ – رحمه الله تعالى – ببيان أن هذه الكلمة : ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ لها معنى مهم ومقصود لايؤديه أي مرادف لها ، فقال رحمه الله تعالى :

((وفي القرآن لفظةٌ غريبة هي من أغرب مافيه ، وما حَسُنت في كلام قطٌّ إلا في موقعها منه ، وهي كلمة ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ من قوله تعالى :﴿ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾ ، ومع ذلك فإن حُسنها في نظم الكلام من أغرب الحُسن وأعجبِه ، ولو أردت اللغةَ عليها ماصلح لهذا الموضعِ غيرُها ؛ فإن السورة التي هي منها – وهي سورة النجم – مفصلة كلها على الياء[4] ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل[5] ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمِهم في قسمة الأولاد ، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنامَ بناتٍ لله مع وأدهم البنات[6] ، فقال تعالى :

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴾

١- سورة النجم : آية ٢٢ .

٢- أي ومرادفاتها مثل ظالمة وقاسطة إلخ ...

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٥ .

٤- أي بالألف المقصورة التي صُورتها ياءٌ في الكتابة .

٥- هذه واحدة من حِكَم مجيء هذه اللفظة ، وهي مراعاة الفاصلة ، ثم شرع الرافعي في إيراد مناسبتها للمعنى ، وهذا هو المنهج السديد .

٦- في المطبوع : ((أولادهم البنات)) ، والوجه ماأثبتّ ، والله أعلم .

فكانت غرابة اللفظة أشدَّ الأشياء ملاءمةً لغرابة هذه القسمة التي أنكرها ، وكانت الجملة كلها كأنها تُصوِّر في هيئة النطق بها الإنكار في الأُولى[1] والتهكم في الأخرى[2] ، وكان هذا التصويرُ أبلغ مافي البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّين فيها إلى الأسفل والأعلى[3] ، وجمعت إلى كل ذلك غرابةَ الإنكار بغرابتها اللفظية)) .

ثم أخذ الرافعي في تبيين مافي هذه الآية من غُنَن ومُدود مناسبة لغرابة لفظة ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ وموقعها من الآية[4] .

المسألة الثالثة :

إطلاق التثنية في اللفظ القرآني والمراد الإفراد مراعاةً للفواصل :

وقد ساق السيوطيّ – نقلاً عن ابن الصائغ **مثالين** :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[5] .

وذكر قول الفراء :

((أراد جنة ، كقوله ﴿ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [6] فثنى لأجل الفاصلة))[7] .

١- أي قوله تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ .

٢- أي قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ .

٣- المدّان المقصودان : المد الذي في حرف الياء بعد الضاد ، والمد الذي في آخر كلمة ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾ ، فالمد الأول في هذه الكلمة متسفّل ، أما الآخر فهو مُتصعِّد إلى أعلى الفم .

٤- ((إعجاز القرآن)) : ٢٣٠ .

٥- سورة الرحمن : آية ٤٦ .

٦- سورة النازعات : آية ٤١ .

٧- ونصُّ كلام الفراء في كتابه ((معاني القرآن)) : ٣ / ١١٨ هو :

((ذكر المفسرون أنهما بستانان من بساتين الجنة ، وقد يكون في العربية جنةٌ تثنيها العرب في أشعارها ... وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان فيحتمل مالا يحتمله الكلام)) .

فكلامه هذا لايُفهم منه ما ساقه السيوطيّ عن ابن الصائغ ؛ إذ غاية مافيه تفسيرالجنتين ببستانين يكونان داخل جنّة واحدة ، لكن لعل له كلاماً آخر في كتاب غير هذا الكتاب ، والله أعلم .

ثم ذكر ابن الصائغ قول الفرّاء :

((والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان مالايحتمله سائر الكلام))[1] .

ولقد أورد السيوطيّ ردّ ابن قتيبة على الفرّاء حيث قال السيوطيّ :

((وقد أنكر ذلك ابن قُتيبة وأغلظ فيه وقال :

إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت ، أوالألف ، أوحذف همزة ، أو حرف ، فأما أن يكون الله وعد جنتين فيجعلهما جنةً واحدة لأجل رؤوس الآي فمعاذ الله ، وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الاثنين ، قال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾[2]، ثم قال : ﴿ فِيهِمَا ﴾[3]))[4] .

والدليل على أن الله وتعالى وعد عباده أكثر من جنة هوماأخرجه الإمام البخاري بسنده إلى أبي بكر بن عبد الله بن قيس[5] عن أبيه[6] أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

١- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٦ .

٢- سورة الرحمن : آية : ٤٨ .

٣- سورة الرحمن : آية ٥٠ .

ونص كلام ابن قتيبة ، رحمه الله : ((وهذا من أعجب ماحُمل عليه كتاب الله ، ونحن نعوذ بالله أن نتعسّف هذا التعسف ، ونجيزَ على الله – جلّ ثناؤه – الزيادة والنقص في الكلام لرأس آية .

وإنما يجوز في رؤوس الآي أن يزيد هاءً للسكت كقوله : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ﴾ [سورة القارعة] وألفاً كقوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [سورة الأحزاب : آية ١٠] ، أو يحذف همزة من الحرف كقوله : ﴿أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [سورة مريم : آية ٧٤] ، أوياء كقوله : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ [سورة الفجر] لتستويَ رؤوس الآي على مذاهب العرب في الكلام إذا تمّ ، فآذنت بانقطاعه وابتداء غيره ؛ لأن هذا لايزيل معنىً عن جهته ، ولايزيد ولاينقص ، فأما أن يكون الله – عز وجلّ – وعد جنتين فيجعلها جنة واحدة من أجل رؤوس الآي فمعاذ الله .

وكيف يكون هذا وهو – تبارك اسمه – يصفهما بصفات الاثنين فقال : ﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ ثم قال : ﴿ فِيهِمَا ... ﴾ ، ﴿ فِيهِمَا ... ﴾ . ولو أن قائلاً قال في خزنة النار إنهم عشرون ، وإنما جعلهم تسعةَ عشر لرأس الآية ... ماكان في هذا القول إلا كالفرّاء)) : ((تفسير غريب القرآن)) : ٤٤٠ – ٤٤١ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١/ ٣٦ – ٣٧ .

٥- أبوبكر بن أبي موسى الأشعريّ . اسمه عمرو أو عامر ، ثقة . مات سنة ست ومائة . انظر ((التقريب)) : ٦٢٤ .

٦- عبد الله بن قيس بن سليم ، أبوموسى الأشعريّ ، رضي الله عنه . مات سنة خمسين ، وقيل بعدها .
انظر ((التقريب)) : ٣١٨ .

((جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم – عزّ وجلّ – إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن))[1] .

وقد ساق البخاريّ هذا الحديثَ في تفسير قوله تعالى :
﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾[2] .

فإذاً هناك جنتان من ذهب لمن خاف مقام ربه،وجنتان من دونهما من فضة ، كما بين النبي – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الذي سقته آنفاً ، فلا يصحُّ إذاً ماذهب إليه الفرّاء – لو ثبت عنه النقل كما بينت آنفاً – من أنها جنة واحدة وإنما ثُنيت لمراعاة الفاصلة .

المثال الآخر :

قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾[3] .

مثّل ابن الصائغ – رحمه الله تعالى – بهذه الآية : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ على إمكان إطلاق التثنية وإرادة الإفراد ، فقال فيما نقله عنه الإمام السيوطيّ :

((والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان مالايحتمله سائر الكلام ، ونظير ذلك قول الفرّاء أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴾ فإنهما رجلان : قدار وآخر معه ، ولم يقل (أشقياها) للفاصلة))[4] .

١- ((الجامع الصحيح)) : كتاب التفسير : تفسير سورة الرحمن : ٦ / ١٨١ .

٢- سورة الرحمن : آية ٦٢ ، وانظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٤٧٦ .

٣- سورة الشمس : آية ١٢ .

٤- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٦ .

ونصُّ الفرّاء في كتابه ((معاني القرآن)) : ٣ / ٢٦٨ ، وهو :

((يقال إنهما كانا اثنين : فلان ابن دهر ، والآخر قدار ، ولم يقل : (أشقياها) ؛ وذلك جائز لو أتى ؛ لأن العرب إذا أضافت (أفعل) التي يمدحون بها وتدخل فيها (من) إلى أسماء وحدوها في موضع الاثنين والمؤنث والجمع ، فيقولون للاثنين : هذان أفضل الناس ، وهذان خيرُ الناس ، ويثنّون أيضاً)) .

وقول الفراء : ((وذلك جائز لو أتى)) أي يصح إطلاق المفرد وإرادة المثنى لو أتى ذلك صحيحاً في النقل ، أي لو صح أن قاتل الناقة رجلان .
=

أما ضرب تلك الآيةِ مثلاً لبيـان أن القـوافي تحتمـل الزيـادة والنقصـان فـلا يستقيم ؛ وذلك لأن رسول اللـه – صلى الله عليه وسـلم – قـد بـين أن ﴿ أَشْقَىٰهَا ﴾ رجـل واحد وهو الذي عقر الناقة ، فلايستقيم عدُّ ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ رجلين ؛ فقد أخـبر عبد اللـه بن زَمَعة[1] – رضـي اللـه عنـه – أنـه سمـع النبيّ ، صلـى اللـه عليـه وسـلم ، يخطب ، وذكر الناقة والذي عقر ، فقال رسول اللـه – صلى الله عليه وسـلم – : ((﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ : انبعث لها رجل عزيز ، عـارم[2] ، مَنِيـع في رهطـه مثـلُ أبي زَمَعة))[3] .

فهذا حديث صحيح صريح ، وهو نصٌّ في موضع النزاع ، يقطع كل لجـاج وخصام ، ويبين أن عاقر الناقة رجل واحد .

والمسألة الرابعة – وهي إطـلاق الجمـع وإرادة المفـرد – مشـابهة للمسـألة الثالثـة السابقة ، وقد ذكر السيوطيّ – نقـلاً عـن ابـن الصـائغ – مثـالاً واحـداً علـى هـذه المسألة فقال :

((الاستغناء بالجمع عن الإفراد نحو :

= فليس في كلام الفرّاء تأسيسٌ لقاعدةٍ مراعاةً لفاصلة – كما نقل السيوطي عن ابن الصائغ – لكنّ كلامه توجيه لما لعله يصح في النقل والأثر ، والله أعلم .

١– عبد اللـه بن زَمَعة بن الأسود بن المطلب القرشي الأسديّ . صحابي مشهور . استشهد يوم الدار مع ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنهما . حديثه في الكتب الستة . انظر ((التقريب)) : ٣٠٣ .

٢– العارم : الخبيث الشرّير ، والعُرام : الشدة والقوة والشراسة . انظر ((لسان العرب)) : ع ر م .

٣– الأسود بن المطّلب بن أسد القرشيّ : كان من أشد المستهزئين بالرسول – صلى الله عليه وسلم – المؤذين له ، انظر ((السيرة النبوية)) لابن هشام : ١ / ٢٦٥ ، ٤٠٩ ، و ((التبيين في أنساب القرشيين)) : ٢٤٣ ، ٢٤٤ . وقد دعا عليه رسول اللـه – صلى الله عليه وسلم – بالعمى فعَمِي . وهذا الحديث أخرجه الإمام البخاريّ في صحيحه في كتاب التفسير : تفسير سورة الشمس : ٦ / ٢١٠ .
وهناك أحاديث أخرى في هذه المسألة ، انظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٨ / ٤٣٧ .

﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾[1] أي ولا خلّة ، كما في الآية الأخرى[2] ، وجمع مراعاةً للفاصلة))[3] .

و لم أجد في المسألة توجيهاً كافياً ، لكن ذكر بعض المفسرين وعلماء العربية أن ﴿ خِلَٰلٌ ﴾ مصدر لـ (خاللت) ، بمعنى الصداقة والمـُخالّة[4] ، فيستوي إذاً الجمع فيه والمفرد ، فلا يكون اللفظ هنا مراداً به الجمع ، والله أعلم .

لكن هذا ليس شافياً في المسألة ، وإنما ذكرتُ ماوجدته فيها ، والله أعلم .

المسألة الخامسة : الجمع بين المجرورات :

نقل السيوطيّ في هذه المسألة كلام ابن الصائغ فقال :

((الجمع بين المجرورات نحو :

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾[5] .

فإن الأحسن الفصل بينهما إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه))[6] .

وهذا كلام خطير ؛ بل هو أخطر النقول في هذه المسائل الستّ – في تقديري – وذلك أن ابن الصائغ قرر أن النظم القرآني مفضول بغيره ، وأن سبب هذا مراعاة الفاصلة .

وممن تكلّم على هذه المسألةِ الإمام الزركشيّ – رحمه الله تعالى – حيث قال في مبحث ((إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل)) ، في الموضع الثالث منها :

١- سورة إبراهيم : آية ٣١ .

٢- وهي في سورة البقرة : آية ٢٥٤ : ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ .

٣- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٧ .

٤- انظر ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج : ٣ / ١٦٣ ، و ((روح المعاني)) : ١٣ / ٢٢٢ - ٢٢٣ .

٥- سورة الإسراء : آية ٦٩ .

٦- ((معترك الأقران)) : ١ / ٣٨ .

((الثالث : الجمع بين المجرورات ، وبذلك يجاب عن سؤال في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾ فإنه قد توالت المجرورات بالأحرف الثلاثة ، وهي اللام في ﴿ لَكُمْ ﴾ ، والباء في ﴿ بِهِۦ ﴾ ، و ﴿ عَلَىٰ ﴾ في ﴿ عَلَيْنَا ﴾ ، وكان الأحسن الفصل .

وجوابه أن تأخر ﴿تَبِيعًا﴾ وتركَ الفصل أرجحُ من أن يُفصل به بين بعض الروابط ، وكذلك الآيات التي تتصل بقوله:﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ ، فإن فواصلها كلها منصوبة منونة ، فلم يكن بدٌّ من تأخير قوله: ﴿تَبِيعًا﴾ لتكون نهاية هذه الآيةِ مناسبةً لنهايات ماقبلها حتى تتناسق على صورة واحدة))[1] .

فالزركشيّ - رحمه الله تعالى - ذكر سببين لورود الفاصلة على هذه الصورة ، وهما مراعاة فواصل الآيات قبلها وبعدها ، وأن الأرجح لغةً هو ترك الفصل بين المجرورات ، وهذا جمع حسن ، لكنه لم يبين لم كان أرجحَ لغةً ، ولم أجد في هذه المسألةِ قولاً شافياً .

المسألة السادسة : تأخير الأبلغ وتقديم البليغ :

وهذه المسألة هي المسألة الوحيدة التي توسط فيها ابن الصائغ فذكر - فيما نقله السيوطيّ - أنه ((ذُكر لذلك نُكتٌ أشهرها مراعاة الفاصلة)) ، فأثبت حِكماً للتقديم والتأخير - هنا - بخلاف مراعاة الفاصلة ، بينما اقتصر على مراعاة الفاصلة في المسائل الخمس الماضية .

ثم ساق عدة أمثلة تدل على ماذهب إليه ، منها :

١ - تقديم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[2] .

١- ((البرهان في علوم القرآن)) : ١ / ٦٢ .

٢- وذلك في قوله تعالى : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ .

٢ - و (الرؤوف) على ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾[١] .

٣ - و (الرسول) على (النبي) في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[٢] .

لكن الإمام الزركشيّ - رحمه الله تعالى - لم يذكر حكمة التقديم والتأخير في تلك الأمثلةِ التي ساقها .

١ - أمّا المثال الأول - وهو تقديم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ على ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مع أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أبلغ - فقد بيّنه أبو السعود[٣]، رحمه الله تعالى ، بقوله :

((وفيه[٤] من المبالغة ماليس في ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾[٥] ... وتقديمه مع كون القياسِ تأخيرَه ، رعايةٌ لأسلوب الترقي إلى الأعلى ؛ كما في قولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فيّاض ؛ لأنه باختصاصه[٦] به - عز وجل - صار حقيقاً بأن يكون قريناً للاسم الجليل الخاص به[٧] ، تعالى ، ولأن مايدل على جلائل النعم وعظائمها وأصولها أحقُّ بالتقديم مما يدل على دقائقها وفروعها[٨]))[٩] .

١- وذلك في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾: سورة البقرة : آية ١٤٣ .

٢- سورةمريم : آية ٥١ .

٣- العلامة محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفيّ . ولد سنة ٨٩٨ بقرية قريبة من القسطنطينية ، وقرأ على والده وغيره ، وتفقه ، وتولى قضاء بورصة ، ثم تنقل في مناصب القضاء ، ثم صار مفتياً . وحصل له من المجد والشرف الشيء الكثير . له بعض المصنفات أعظمها هذا التفسير . وله شعر كثير . توفي بالقسطنطينية سنة ٩٨٢ .
انظر ((شذرات الذهب)) : ٨ / ٣٩٨ - ٤٠٠ . وقد طبع على غلاف تفسيره أنه توفي سنة ٩٥١ ، وقد ضعّف هذا الزركليُّ ودلل على وفاته سنة ٩٨٢ . انظر ((الأعلام)) : ٧ / ٩٥ .

٤- أي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ، كما في السياق قبلُ .

٥- وذلك لأن لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ زائد بحرف على لفظ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ وزيادة مبنى الكلمة زيادةٌ في بلاغة معناها - غالباً - وانظر ((الكشاف)) : ١ / ٤١ ، و ((روح المعاني)) : ١ / ٥٩ .

٦- أي باختصاص لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالله تعالى فلا يطلق على غيره بخلاف ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ .

٧- أي ﴿ ٱللَّهِ ﴾ من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ .

٨- وإنما قال أبوالسعود ذلك لأن علماء اللغة فرقوا بين ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ فقالوا إنما يطلق الأول للثناء على الله - تعالى - بإفاضة جليل النعم وعظيمها ، وذلك لأن اللفظ أبلغ ، ويطلق الثاني للثناء على الله - تعالى - بأنه مفيض دقائق النعم وفروعها ، وانظر حاشية الشريف على ((الكشاف)) - وهي حاشية مطبوعة مع ((الكشاف)) - : ١ / ٤١ ، و ((روح المعاني)) : ١ / ٦٣ .

٩- ((إرشاد العقل السليم)) : ١ / ١١ ، وانظر - كذلك - ((روح المعاني)) : ١ / ٥٨ - ٦٧ .

فهذه نكتة لتقديم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، مع مافي التقديم من رعاية الفاصلة .

٢ – أما المثال الثاني – وهو تقديم (الرؤوف) على ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ في قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] – فقد نقل الشيخ الطاهر بن عاشور ، رحمه الله تعالى ، عن عدد من علماء اللغة والتفسير أنهم بينوا أن معنى الرأفة : الرحمة ، لكنّ هناك فرقاً دقيقاً بين الرأفة والرحمة ، فالرأفة رحمة قوية ، بينما الرحمة اسم جامع يدخل فيه معنى الرأفة ويدخل فيه معنى الإفضال والإنعام أيضاً ، فالجمع بين الوصفين لإفادة أنه – تعالى – يرحم الرحمة القوية لمستحقها ، ويرحم مطلق الرحمة مَنْ دون ذلك ، تفضلاً منه سبحانه[2] .

٣ – أمّا المثال الثالث – وهو تقديم (الرسول) على (النبي) في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[3] – فقد بين الشيخ الطاهر بن عاشور – رحمه الله تعالى – أن الجمع بين الوصفين : الرسالة والنبوة ، وتقديمَ الرسالة على النبوة مع أن الرسالة أخصّ ؛ إذِ الرسول لايكون إلانبياً بخلاف النبي فقد يوحى إليه لكن لايؤمر بالتبليغ ، بيّن الشيخ أن الجمع بينهما هنا ((لتأكيد الوصف ؛ إشارة إلى أن رسالته بلغت مبلغاً قويّاً ، فقوله ﴿ نَّبِيًّا ﴾ تأكيدٌ لوصف ﴿ رَسُولًا ﴾))[4].

وتفسير الشيخ الطاهر الجمعَ بين الوصفين للإشارة إلى بلوغ رسالة موسى – عليه الصلاة والسلام – مبلغاً قوياً لايستقيم مع قوله تعالى عن إسماعيلَ ، عليه الصلاة والسلام ، ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾[5] ؛ إذ لم تبلغ رسالة إسماعيل مبلغ

١- سورة البقرة : آية ١٤٣ .

٢- ((التحرير والتنوير)) : ٢ / ٢٥ .

٣- سورة مريم : آية ٥١ .

٤- ((التحرير والتنوير)) : ١٦ / ١٢٧ .

٥- سوة مريم : آية ٥٤ .

رسالة موسى – عليهما الصلاة والسلام – لكن يمكن أن يقال إن هاهنا إشارةً إلى رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لأنه النبي الوحيد من ذرية إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، والله أعلم .

وقال الآلوسي :

((وجه ذلك موافقة الواقع ؛ بناء على أن المراد : أرسله الله – تعالى – إلى الخلق فأنبأهم عنه سبحانه))[1] .

ومانقلته عن الشيخ الطاهر أوجهُ ، والله أعلم .

تلك كانت بعضَ التوجيهات لبعض ماأورده السيوطيّ – نقلاً عن ابن الصائغ – رحمهما الله تعالى، من أن أواخر بعض الآيات جاءت على صور معينة لمراعاة الفاصلة فقط[2] ، فأردت أن أبين أنه لايستقيم إفراد إرادة الفاصلة فقط سبباً ، ولوجُمع معها إرادةُ معنىً يقتضيه المقام أيضاً لكان ذلك صواباً يتفق مع جلال القرآن ، والله أعلم .

ولا أدّعي أن مانقلته من توجيهات الأئمة لتلك الفواصلِ قد خفي على السيوطي وابن الصائغ ، لكن لمّا لم يرد في ((المعترك)) توجيهٌ شافٍ عمدتُ إلى نقل مانقلته ، والله الموفق .

١– ((روح المعاني)) : ١٦ / ١٠٣ . وقول الآلوسيّ هذا هو قول البيضاوي ، وأبي السعود ، لكن مافي ((روح المعاني)) أوضح قليلاً ، انظر ((أنوار التنزيل)) : ٤٠٧ ، و ((إرشاد العقل السليم)) : ٥ / ٢٦٩ .

٢– إلا ماكان من أمر المسألة السادسة حيث ذكر السيوطيّ – نقلاً عن ابن الصائغ – أن مراعاة الفواصل سببٌ من أسباب مجيء نهايات بعض الآيات على صورتها في المصحف ، لكنه لم يبين تلك الأسباب ، وقد سقتُ بعض كلام الأئمة فيها ، انظر ص ٥٩٤ ومابعدها .

القضية الثالثة

تعيين الذبيح : أإسماعيل هو أم إسحاق ، عليهما الصلاة والسلام

هذه قضية ترددت في كتب التفسير ، وكثر الحديث فيها ، لكنّ أغلب أهل العلم يذهبون إلى أن الذبيح المفديَّ هو إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - وعلى ذلك أكثر النقول عن أئمة الصحابة والتابعين .

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق .

وتوقفت طائفة ثالثة فلم تجزم برأي في هذه المسألة ، فكأنّ الأدلة قد تكافأت عندها فلم تستطع الترجيح .

وكان من هذه الطائفةِ الإمامُ السيوطيّ - رحمه الله تعالى - فقد استقر رأيه على التوقف في هذه المسألة ، فقال :
((﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ ﴾[1] هو إسماعيل أو إسحاق : قولان شهيران))[2] وقد استقر على التوقف في المسألة بعد أن كان يجزم بأنه إسماعيل ، ثم مال إلى أنه إسحاق ، ثم توقف ، فقد قال في جزمه - أولاً- بأنه إسماعيل ثم ميله إلى أنه إسحاق :
(((الذبيح) : إسماعيل على الأصح .
وقيل : إسحاق وبه جزم السهيليّ ، وأنا الآن أميل إليه))[3] . إذاً قد كان يذهب إلى أنه إسماعيل ثم مال إلى كونه إسحاق ، ثم توقف في هذه المسألة كما نقلت عنه آنفاً ، وكما يتضح من النقل الآتي : ((وكنت ملت إليه في ((علم التفسير))[4] ، وأنا - الآن - متوقف في ذلك ، والله - سبحانه وتعالى - أعلم))[5] .

وقد ألف الإمام السيوطيّ ((التحبير)) في مقتبل حياته العلمية[6] .

١- سورة الصافات : آية ١٠١ .

٢- ((معترك الأقران)) : ١ / ٤٩٧ .

٣- ((التحبير في علم التفسير)) : ٤٠٣ .

٤- أي ((التحبير في علم التفسير)) الذي سقت كلامه فيه آنفاً .

٥- ((القول الفصيح في تعيين الذبيح)) ضمن ((الحاوي للفتاوي)) : ٢ / ٣٩ .

٦- قد صنفه وعمره ثلاث وعشرون سنة ، انظر ((التحبير في علوم التفسير)) : ٤٤٦ .

ذكر أدلة الفريقين والترجيح بينها :

ليس عند الفريقين حديثٌ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صحيحٌ في تعيين الذبيح[1] لكن لكل منهما آثار عن الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين رحمهم الله تعالى ، إلا أن أدلة الذاهبين إلى أن الذبيح هو إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - أكثر وأقوى .

والسياق القرآني للقصة مرجح أن الذبيح هو إسماعيل ، بل يكاد ينص على ذلك من شدة وضوحه .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى :

((قال الله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ ، وهذا الغلام هو إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - فإنه أول ولد بُشر به إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلد ولإبراهيم ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله - تعالى - أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده - وفي نسخة : بكره - فأقحموا هاهنا ، كذباً وبهتاناً إسحاق ، لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم[2] فزادوا ذلك[3] وحرفوا (وحيدك) بمعنى الذي ليس عندك غيره[4] ، فإن إسماعيل كان ذُهب به وبأمه إلى جنب مكة ، وهذا تأويل وتحريف باطل ، فإنه لايقال (وحيد) إلا لمن ليس له

١- هناك عدة أحاديث في هذه المسألة ، بعضها ينص على أن الذبيح إسحاق ، وبعضها الآخر ينص على أن الذبيح إسماعيل ، وكل تلك الأحاديث ضعيفة ، انظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ و ((القول الفصيح)) ضمن ((الحاوي للفتاوي)) : ٢ / ٣٤ - ٣٨ .

٢- قد جاء في حسدهم هذا وبهتانهم أثر عن أحد مسلمة يهود وإقراره بهذا بعد إسلامه بين يدي الخليفة الراشد عمر ابن عبد العزيز ، رحمه الله تعالى ، وانظر القصة في ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٩ .

٣- أي زادوا كلمة إسحاق .

٤- أي في فلسطين حيث كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام مقيماً بعد هجرته .

غيره ، وأيضاً فإن أول ولدٍ له مَعزّة ماليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار))[1] .

وقد ذكر الحافظ ابن كثير – أيضاً – أنه لايجوز أن يكون إسحاق هو الذبيح لأن الله – تعالى – قال في سورة الصافات بعد قصة إسماعيل ونجاته من الذبح : ﴿ وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[2] .
وقال تعالى في سورة هود[3] : ﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾
أي يولد في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته[4] عَقِب ونسل ، فكيف يؤمر بعد هذا بذبحه صغيراً[5] .

بعض الآثار المرجحة أن إسماعيل هو الذبيح :

وهذه الآثار كثيرة صحيحة منها :

١ – ماأخرجه الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – بسنده عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، في حديث طويل صرح فيه ابن عباس بأن الذبيح هو إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام[6] .

٢ – وماأخرجه الحاكم بسنده عن مجاهد[7] – رحمه الله تعالى – حيث قال : ((وزعم ابن عباس أن الذبيح إسماعيل))[8] .

١– ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٣ .

٢– آية : ١١٢ ، أي أن هذه بشارة أخرى لإبراهيم – عليه الصلاة والسلام – بعد أن أُمر بذبح ابنه إسماعيل فهي مغايرة ولابد لقوله تعالى : ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾ .

٣– آية : ٧١ .

٤– أي ذرية إسحاق .

٥– المصدر السابق بتصرف يسير ، وقد جاء هذا القول عن ابن إسحاق نقله عن محمد بن كعب القرظي كما في ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٩ .

٦– انظر ((مسند الإمام أحمد)) : ٤ / ٢٤٨ ، فقد صحح الحديث أحمد شاكر ، وساق الحديثَ مختصراً الحافظُ الهيثميّ – رحمه الله تعالى – وذكر أن الحديث صحيح ، انظر ((مجمع الزوائد)) : ٨ / ٢٠٣ – ٢٠٤ .

٧– مجاهد بن جَبْر المكي ، أبو الحجاج ، المخزومي بالولاء . ثقة . إمام في التفسير وفي العلم . مات سنة إحدى ومائة وله ثلاث وثمانون سنة ، رحمه الله تعالى . انظر ((التقريب)) : ٥٢٠ .

٨– قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الإمام الذهبي . انظر ((المستدرك)) : ٢ / ٤٦٨ .

٣ – وقد ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – أن قرني الكبش الذي فُدِي به إسماعيل ظلاً معلقين داخل الكعبة حتى احترق البيت فاحترقا[١] ، وبيّن الحافظ أن ((هذا دليل مستقل على أنه إسماعيل – عليه الصلاة والسلام – فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ، صلى الله عليه وسلم))[٢] .

فإنما توارثته قريش واحتفظت به لكون إسماعيل هو الذبيح فحرصوا عليه حفاظاً على أثر كبش فُدي به جدّهم ، وقد ذكر العلاّمة الآلوسيّ أن كون إسماعيل هو الذبيح هو المشهور عند العرب قبل البعثة[٣] .

٤ – وقد ذكر الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – عدداً كبيراً من الصحابة والتابعين ممن ذهب إلى أن الذبيح هو إسماعيل[٤] ، وذكر الإمام السيوطيّ أن غالب المحدّثين على هذا القول[٥] .

بيان حال الآثار المنبئة بأن الذبيح هو إسحاق :

وهي كثيرة – أيضاً – وبعضها صحيح إلى قائليها ، وفيهم عدد من الصحابة منهم ابن عباس ؛ لأنه قدروي عنه روايتان في تسمية الذبيح لكن الأظهر عنه أن الذبيح هو إسماعيل كما أخبر الحافظ ابن كثير[٦] .

لكن عِلّة تلك الأقوال كلها أنها مأخوذة عن الإسرائيليات – كما بين الحافظ ابن كثير ، رحمه الله تعالى – حيث قال :

وهذه الأقوال – والله أعلم – كلها مأخوذة عن كعب الأحبار[٧] ؛ فإنه لما أسلم في الدولة العُمَرِيّة جعل يحدث عمر – رضي الله عنه – عن كتبه ، فربما استمع له

١– وذلك أيام رُميت الكعبة بالمنجنيق على عهد عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما – انظر ((روح المعاني)) : ٢٣ / ١٣٤ .

٢– ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٧ .

٣– ((روح المعاني)) : ٢٣ / ١٣٣ .

٤– ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٨ – ٢٩ .

٥– ((القول الفصيح)) : ضمن ((الحاوي للفتاوي)) : ٢ / ٣٤ .

٦– انظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ .

٧– كعب بن ماتع الحِمْيَريّ ، أبو إسحاق ، المعروف بـ (كعب الأحبار) . ثقة . كان من أهل اليمن فسكن الشام ، ومات في آخر خلافة عثمان ، وقد زاد على المائة ، رحمه الله تعالى . انظر ((التقريب)) : ٤٦١ .

عمر ، رضي اللـه عنه ، فترخص الناس في اسـتماع مـاعنده ، ونقلـوا عنـه غثّهـا[1] وسمينها ، وليس لهذه الأمةِ - واللـه أعلم - حاجةٌ إلى حرف واحد مما عنده)) [2] .

وقال الحافظ في موضع آخر :

((وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسـحاق ، وحُكـي ذلـك عـن طائفة من السلف حتـى نقـل عـن بعـض الصحابـة أيضـاً ، وليـس ذلـك في كتـاب ولاسنة ، وما أظن ذلك تُلقّي إلا عن أخبار أهل الكتاب ، وأَخْذ ذلك مسـلماً مـن غير حجة ، وهذا كتاب اللـه شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ...))[3] .

وقال الإمام ابن قَيِّـم الجَوْزية ، رحمه اللـه تعالى :

((إسماعيل هو الذبيـح علـى القـول الصـواب عنـد علمـاء الصحابـة والتـابعين ومـن بعدهم ، وأما القول بأنه إسحاق فباطل بأكثر من عشـرين وجهـاً ، وسمعـت شـيخ الإسلام ابن تيميةَ - قدّس اللـه روحه - يقول :

هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنصّ كتابهم ...))[4] .

وقد ساق الإمام ابن قَيِّـم الجَوْزية كثيراً من الحجج والدلائـل علـى أن الذبيـح لايصح أن يكون إسحاقَ ، عليه الصلاة والسلام[5] .

وقال العلاّمة الآلوسيّ رحمه اللـه تعالى :

((والذي أميل أنا إليه أنه إسماعيل - عليه الصـلاة والسـلام - بنـاءً علـى أن ظـاهر الآية يقتضيه ... ولم أتيقّن صحة حديث مرفوع يقتضي خلاف ذلك ، وحال أهـل الكتاب لايخفى على ذوي الألباب))[6] .

١- الغَثّ : الرديء من كل شيء : ((لسان العرب)) :غثث .

٢- ((تفسير القرآن العظيم)) : ٧ / ٢٨ .

٣- المصدر السابق : ٧ / ٢٣ .

٤- ((زاد المعاد)) : ١ / ٧١ .

٥- المصدر السابق : ١ / ٧١ - ٧٥ .

٦- ((روح المعاني)) : ٢٣ / ١٣٦ .

فالقول الراجح الواضح إذاً إن إسماعيل عليه الصلاة والسلام هو الذبيح .

وأنا أعجب من الحافظ السيوطي - رحمه الله تعالى - كيف توقف في مثل هذه المسألةِ وقد اطلع على كل تلك النصوصِ المنبئة بوضوح عن كون إسماعيل هو الذبيحَ عليه الصلاة والسلام[1] ، وأن اليهود حسدوا العرب على ذلك ، ولكن لعله لّما رأى كثرةً في القائلين بأن الذبيح هو إسحاق توقف في هذه المسألة ، والله أعلم .

تلك كانت أهمَ ثلاث قضايا علمية في كتاب ((معترك الأقران)) ، وبها يُختم الكلام على هذا البابِ الثالث الذي خصصته للحديث عن منهج الإمام السيوطيّ في هذا الكتاب ، وصنيعِه في تناول الإعجاز .

١- وذلك كما في رسالته ((القول الفصيح)) ، وما ساقه في ((الدر المنثور)) : ٧ / ١٠٢ - ١١٥ من آثار كثيرة في هذه المسألة .

المقارنة بين منهج السيوطي وغيره من العلماء في قضية الإعجاز

الفصل الأول : المقارنة بينه وبين العلماء السابقين عليه .

الفصل الثاني : المقارنة بينه وبين مناهج المؤلفين بعده .

الفصل الأول : المقارنة بينه وبين العلماء السابقين عليه :

وفيه مباحث :

تمهيـــد

استولى القرآن على أفئدة سلف المسلمين فأقبلوا عليه ينهلون من معينه ، وقاموا به ليلهم ، وعملوا به نهارَهم .

أما علماؤهم وأدباؤهم فقد وجدوا بغيتهم في هذا الكتاب العظيم الذي لاتنقضي عجائبه ، ولا تفنى كنوزه ، فأقبلت طائفة كثيرة من العلماء والأدباء على التصنيف في علوم القرآن والتنقيرِ عن فنونه .

وقد نال التصنيفُ في الإعجاز نصيباً وافراً من هذه الجهودِ المباركة حيث شرعت أقلام البلغاء والعلماء تسطر إعجابها بهذا الكتاب العظيم ، وتحاول فهم سر إعجازه الذي اقترب منه كثيرون ، لكن سرَّ إعجازه – على التحقيق والقطع – يظلّ أعظمَ من أن يقف عليه أحد .

وأخذت المصنفات في الإعجاز تتوالى منذ انقضاء القرن الثاني حتى يومنا هذا ، كما بينت سابقاً[1] .

ولقد عقدتُ الباب الثالث لبيان منهج الإمام السيوطيّ – رحمه الله تعالى – في التصنيف في هذا العلم ، فبقي أن تُعقد المقارنة بين منهجه ومنهج غيره في طَرْق الإعجاز حتى يكتمل بيانُ الجهود المباركة التي بذلها العلماء لإظهار إعجاز القرآن ، ولكي تتضح الجدةُ التي يمكن أن يوصف بها جهدُ السيوطي في تصنيفه .

ثم إنه لكي تُعقد المقارنة بين منهج الإمام السيوطيّ ومناهجَ مَن سبقه من العلماء ينبغي أن يلاحظ الآتي :

١- انظر ص ٧٩ ومابعدها .

أولاً : الاختلاف من حيث التأصيل :

إن أصول التصنيف في عهد الإمام السيوطي – رحمه الله تعالى – كانت قد استقرت وتأصلت ، وصار لها قواعدُ تحكمها وتضبطها ، بينما لم يكن الأمر كذلك في القرون المتقدمة ، وهذا مردّه إلى أن أهل القرون المتأخرة توارثوا جهود أسلافهم في التصنيف ، وكان كل مصنِّف – في أي علم – ينهل مِن مصنفات مَن سبقه فيجتنب عيبها ، ويسترشد بخيرها ، ويضيف في تصنيفه ذاك تجربته التي اكتسبها في دراسة وتدريس العلم الذي يصنف فيه ، فيصبح المصنَّف اللاحق كالدراسة النقدية للتأليف السابق .

فينبغي إذاً ملاحظة الاختلاف في التأصيل عند مقارنة المنهج في التأليف عند السيوطيّ وعند من تقدمه من المصنفين .

ثانياً : الاختلاف من حيث الزمن :

إن المصنفين الأوائل كانوا بين اختراعٍ لمباحث الإعجاز بما أعملوا فيه ذهنهم ، أو جمعٍ لمتفرقات أخباره من نصوص القرآن العظيم ووقائع السيرة والتاريخ ، أو جمعٍ بين هذا وذاك ، وهذا يصبغ كتبهم بصبغة علمية تأسيسية قويةٍ ، أمّا المتأخرون الذين صنّفوا في الإعجاز فيندر أن تجد عند أحدهم تأسيساً جديداً كلَّ الجدة في مباحث هذا العلم ، إنما غاية أحدهم حسنُ التصنيف وبراعة التقسيم وجمال العرض ، وربما مناقشة المتقدمين والترجيح بين آرائهم ثم إثبات ماالختير منها ، خلا المصنفين المحْدثين الذين أثرى كتبَهم بحوثهم في الإعجاز العلمي والتشريعيّ وردُّ الشبهات الجديدة وغير ذلك .

وهذا الأمر يكاد يكون سمةَ كل العلوم التي صنف فيها المتأخرون وليس علم الإعجاز القرآني فقط .

فينبغي – إذاً – ملاحظة هذا الأمر عند المقارنة بين وجوه الإعجاز عند السيوطيّ وعند مَن تقدمه من المصنفين .

ثالثاً : تفاوت علم المصنفين :

سعةُ علم المصنف ، وشمولُ المادةِ العلمية في كتابه مختلفَ الجوانب الشرعية واللغوية أمران حاكمان في عقد المقارنات بين كتب المصنفين ؛ فلايصح عقد مقارنة بين الإمام السيوطيّ والقاضي عبد الجبار - مثلاً - في الاستدلال بالأحاديث والآثار ؛ إذِ القاضي من المعتزلة الذين تضاءل علمهم بالآثار واضمحل اهتمامهم بها على وجه السعة والإحاطة ، وهكذا الشأن عند المقارنة بين المصادر والمراجع في كتاب السيوطي وكتبِ من تقدمه .

رابعاً : حجم الكتاب وسعة المعلومات الواردة فيه :

لابد من مراعاة حجم الكتابين الذيْن يجري عقد مقارنة بينهما ؛ فكتاب ((معترك الأقران)) الضخم الحجم لاتُعقد مقارنة بينه وبين ((الرسالة الشافية)) للجُرْجانيّ - مثلاً - إلابعد ملاحظة صغر حجم الثانية جداً ، وملاحظةِ أن تكون المقارنة في مناحي متشابهة أو متقاربة في الكتابين يحسن عقد مقارنة بينهما كما بينت في الملاحظة السابقة .

فلذلك كله راعيت أن تكون المقارنة بين كتاب السيوطي وكتب غيره ممن سبقه من العلماء في جوانبَ مشتركةٍ تصح فيها المقارنة ، وسيكون - تبعاً لهذا - تغيرٌ في بعض الكتب المختارة للمقارنة في كل مبحث ، وإبقاء بعضها ، فإذا لوحظ هذا الذي قدمته صحّ البدء بمباحث هذا الفصل من غير شطط في الميزان ، ولابخسٍ لمصنفات رجال هذا الشان ؛ فإن الإمام السيوطيّ قد وقع على كنوز ودرر في كتب من صنفوا في الإعجاز قبله فضمنها كتابه ، وللسابقين فضلٌ لاينكر .

المبحث الأول
المقارنة من حيث المنهج في التأليف

كتب الإعجاز التي وصلت إلينا وعلمنا شأنها تختلف في السعة والشمول والإحاطة ، وتختلف في تناولها مباحثَ الإعجاز طولا وقِصَراً ؛ فمنها الصغير الحجم لكنه كثير الفائدة ، ومنها ماهو كبير في حجمه لكنه قليل الفائدة نسبياً ، ومنها ماهو حسنٌ في عرضه للمباحث الإعجازية ، سلس العبارة فيها ، ومنها ماهو عكس ذلك ، وهكذا ...

وسأعقد - في هذا المبحث - مقارنة بين كتاب السيوطي ، وكتاب ((إعجاز القرآن)) للقاضي عبد الجبار ، وقد اخترت كتابه هذا للأسباب التالية :

أولاً : توسط زمن تصنيف الكتاب :
فليس هو بالمتقدم - ككتاب الرماني مثلاً - فلا تَحْسن المقارنة كما بيّنت في التمهيد ، وليس بالمتأخر فتقلّ الفائدة من المقارنة بين مناهجَ متماثلةٍ أو قريبة من التماثل ، بل هو في زمن متوسط بينهما .

ثانياً : مناسبة الكتاب لهذا المبحث :
إن أنسب مبحث لذكر كتاب القاضي وعقد المقارنة به هو هذا المبحث ؛ إذ ليس فيه كثيرُ أدلةٍ وآثار فيكون في مبحث ((المقارنة من حيث الاستدلال)) ، مثلاً ، ويندر فيه ذكر المصادر والمراجع فيصحّ إدراجه في مبحث ((المقارنة من حيث المصادر والمراجع)) ، وهكذا الشأن في باقي مباحث هذا الفصل .

ثالثاً : التقارب في حجم الكتابين :

حجم كتاب القاضي – مقارنة مع غيره من كتب الإعجاز – قريب من حجم ((معترك الأقران)) لاسيما أن معظم كتب الإعجاز هي أشبه بالرسائل منها بالكتب الكبيرة الحجم الغزيرة المباحث .

رابعاً : التجديد في ذكر كتب الإعجاز :

إذ سبق لي أن ذكرت عدداً كبيراً منها في الأبواب السابقة ، فلا أعيد ذكر ماطرقته مِن قبلُ حرصاً على أن أنظم مااستطعتُ من دُرر في سلك الإعجاز .

وسأذكر قبل عقد المقارنة بين الكتابين ماتضمنه كتاب ((إعجاز القرآن)) للقاضي عبد الجبار مِن مباحث ، وطريقةَ تصنيفه على وجه الاختصار ، ثم أقارن بينه وبين تصنيف السيوطيّ : ((معتركِ الأقران)) ، إن شاء الله تعالى .

إعجاز القرآن

لمؤلفه الشيخ القاضي عبد الجبار الأسد آباذيّ المعتزليّ (ت ٤١٥)

هذا الكتاب هو الجزء السادس عشر في سلسلة كتاب ((المغني في أبواب التوحيد والعدل)) للمصنف ، وهو خاصّ بإعجاز القرآن الكريم ، ويبدو ذلك - أي أن الكتاب جزء من عدة أجزاء - واضحاً إذا نُظر في مقدمة الكتاب ، فمقدمته بدئت بـ ((فصل في صفة الخبر الواقع عن الجماعة الذي يمكن أن يستدل به على صحته)) ويقصد بذلك خبر ((التواتر)) ، فليس هو إذاً كتاباً مستقلاً عما قبله تمام الاستقلال ، بل لمباحثه في هذا الجزء - جزءِ إعجاز القرآن - نوعُ اتصال بما قبله من مباحث[١] .

وقد قسم المصنف كتابه في الإعجاز إلى أقسام :

القسم الأول : الكلام على خبر التواتر ، وتحته فصول[٢] .

القسم الثاني : الكلام على النسخ ، وتحته فصول[٣] .

القسم الثالث : الكلام في إثبات نبوة أبي القاسم ، صلى الله عليه وسلم ، وفي إعجاز القرآن ، وضمنه أجوبة على بعض المطاعن في القرآن[٤] .

القسم الرابع : الكلام في إثبات سائر معجزاته ، عليه الصلاة والسلام ، وتحته فصول[٥] .

١- قد خصّ المصنف الجزء الخامس عشر - وهو الكتاب الذي قبل هذا - بمبحث النبوات والمعجزات ، فناسب أن يكون الجزء السادس عشر في إعجاز القرآن .

٢- ((إعجاز القرآن)) : ٩ - ٤٧ .

٣- المصدر السابق : ٤٩ - ١٤٢ .

٤- المصدر السابق : ١٤٣ - ٤٠٦ .

٥- المصدر السابق : ٤٠٧ - ٤٣٣ .

أمّا القسم الأوّل - فغرض المصنف منه التمهيدُ للقسم الثالث وهو إثبات نبوة أبي القاسم ، صلى الله عليه وسلّم ، وقد بين ذلك في آخر كلامه في هذا القسم بقوله :

((وهذه الجملة هي التي يُحتاج إليها قبل إثبات نبوّة نبينا - صلى الله عليه وسلم - وقد تقصّيناها ، فأمّا الجنس الآخَر من الكلام في الأخبار -وهو الذي يقتضي منها غالب الظنّ كأخبار الآحاد ، والشهادات ، وماشاكلها - فإنما يُحتاج إليه في معرفة الشرائع ، ونحن نذكره عند القول في أدلّة الشرع ؛ لأن الذي يُحتاج إلى بيانه عند أوّل التكليف من الخاصّ وغير ذلك فقد بيناه وكشفنا القول فيه))[1] .

وأما القسم الثاني - وهو الكلام على النسخ - فإنه قد ذكر فيه فصولاً مطوّلة قصد فيها الردّ على اليهود فيما ادّعَوْه من امتناع ورود النسخ على الشرائع المتقدمة ، وأن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد ورد عنه المنع من نسخ شريعته إلى آخر ادعاءاتهم .

وكأن الكلام على هذا القسم ممهِّد للكلام على القسمين الذيْن يتلوانه ، وفيهما إثبات نبوة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم - وإثبات إعجاز القرآن وسائر معجزاته ، صلى الله عليه وسلم ، لأن الشريعة الإسلامية نسخت شريعة اليهود المحرفة .

وأمّا القسم الثالث - وهو إثبات إعجاز القرآن - فقد مهّد له المصنف بفصول ممهِّدات ؛ منها إثبات نبوة سيد الرسل ، صلى الله عليه وسلم ، ومنها بيان طريق معرفة القرآن وثبوت وروده .

ثم ذكر المصنف مراتب الكلام الفصيح .

١- ((إعجاز القرآن)) : ٤٧ .

ثمّ دلف من تلك الفصول إلى الفصل المراد وهو إثبات إعجاز القرآن ، وصحة التحدي به ، ووجوه الإعجاز القرآنيّ ، وختم هذا القسمَ بذكر جملة من المباحث القرآنية ردّ فيها على بعض المطاعن والشبهات التي يرددها ((بعضُ من قسا قلبه وعميت بصيرته)) .

وهذا الفصل هو معظم الكتاب ، ولذلك سُمي به .

وأما القسم الرابع - فقد خصّه بذكر سائر معجزات رسولنا - صلى الله عليه وسلم - سوى القرآن ومباحثَ متصلةٍ بذلك .

أهمية كتاب القاضي عبد الجبار :

كان القاضي عبد الجبّار من الأوائل الذين طرقوا الإعجاز القرآنيّ ، ودرسوه دراسة جادّة قويّة ، مثله في ذلك مثل الرمانيِّ ، والخطابيّ ، والباقلانيّ ، والجُرجانيّ ؛ إذ أن هؤلاء يُعَدُّون المدرسةَ الأولى المؤسِّسة لنظرية الإعجاز القرآني ، على تباين بينهم في العطاء وقَدْرِ المساهمة في تأسيسها .

وكان زمن القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥) متوسطاً بين أولهم وهو الرُّماني (ت ٣٨٤) وآخرهم وهو الجُرجاني (ت ٤٨٥) ، وقد عدّه بعض الباحثين[١] صاحبَ المدرسة الثانية في الإعجاز البلاغي بعد الرُّمّانيّ ، حيث استفاد من آراء الرماني وأضاف إليها الجديد المؤسِّس في كتابه ((إعجاز القرآن)) ، وأن عبد الجبار والجُرجانيّ معاً كان لهما الفضل في تأسيس نظرية النظم[٢] مستفيدين من النحو العربي في دراسة الإعجاز البلاغي في القرآن العظيم[٣] .

---

١ - هو علي مهدي زيتون في كتابه ((إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبيّ)) : ٣٨ .

٢- النظم : المقصود به نظم الحروف لتكون كلمات ، ونظم الكلمات ، لتكون جملاً ، ونظرية النظم هي كيفية نظم الحروف والكلمات بالاستعانة بالنحو العربي ، انظر ((دلائل الإعجاز)) : ٥٥ - ٥٦ .

٣ - ((إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي)) : ٣٩ - ٤٠ .

وكل تلك الجدة والتأسيس إنما أودعها القاضي في كتابه((إعجاز القرآن)) ، الذي لم يدرس بعدُ الدراسة الكافية[1] .

ملاحظات على منهج المصنف في كتابه :

أولاً : اتباع الطريقة الكلامية :

يتضح في الكتاب طريقةُ المعتزلة في الحِجاج والاستدلال ؛ فقد أورد المصنف في كل فصل من فصول الكتاب - تقريباً - جميع حجج المخالفين واستدلالاتهم ، بل إنه قد أورد مايظنه متعلَّقاً لهم في حجاجهم فأورده على أنه حجة لهم ، وقام بالرد على ذلك كلِّه على الطريقة المطوَّلة الكلامية العقليّة المنطقيّة ، وهذه الطريقة تورث قارئَ الكتاب الملل ، وتقلل من التركيز الذهنيّ .

فمن الأمثلة على هذا ماذكره في فصل : ((في أن معارضة القرآن وإيراد مثله لم تقع ، وما يتصل بذلك)) :

((قد بينا في باب الأخبار أنا قد نعلم انتفاء الشيء لفقد الخبر ، إذا كان ذلك الشيءُ مما لو كان ثابتاً لوجب ظهور الخبر عنه ، وبيّنا أن هذه الطريقةَ في باب الأخبار بمنزلتها في باب الإدراك ، فكما نعلم بفقد إدراكنا للشيء - الذي لو كان لوجب أن يُدرك لظهوره - انتفاءه ، فكذلك نعلم بفقد الخبر ، على ماذكرناه ، انتفاءَ المخبر عنه ؛ وهذا كما نعلم أنه ليس بين بغداد وحُلوان مدينة مثل بغداد ؛ لأنه لو كان لظهر الخبر كظهور بغداد ؛ لأن الداعى إلى الخبر عنهما يتفق ... فإذا صح ذلك فلو كان من تحداهم - صلى الله عليه - بمثل القرآن أتوا بالمعارضة لوجب أن يُنقل على وجه يظهر كظهور نقلهم للقرآن وتحديهم به ...

فإن قال :

إن الذي ذكرتموه - في باب الإدراك - إنما وجب لأنه كما تقرر في العقل أنه لابد من أن نعلم المدركات فكذلك تقرر فيه أنه لو أدرك لعلم ، فإذا لم يُعلم عَلِمْنا أنه لم

١- درس جوانبَ يسيرةً منه الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه : ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) ، والأستاذ علي زيتون في كتابه : ((إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبيّ)) .

يدرك ؛ وإذا لم يُدرك علمنا أنه ليس ؛ إذ لوجاز لوجب أن يُدرك ، فلهذه الأصولِ أوجبنا نفي ما لايدرك من الأمور الظاهرة و لم نثبت مثل ذلك في الأخبار .

قيل له :

إن الأخبار لاحقةٌ – في هذا الباب – بالمدركات ؛ لأنا كما نعلم ذلك في المدركات نعلم مثله في الأمور الظاهرة التي طريقها الأخبار ، وقد بيّنا أن الأمر بخلافه في الأخبار يؤدي إلى الجهالات فيها ، كما يؤدي إلى مثله في المدركات ، ولافرق في صحة هذا الكلامِ بين أن يقال في العلم بمخبر الأخبار إنه من كمال العقل ، أو أن لايقال ذلك فيه ؛ لأنه على الوجهين جميعاً لايمتنع أن يكون لاحقاً به ، وإن كان علة أحدهما غير علة الآخر ، فالعلة في المدركات ماذكرناه من وجوب هذه الطريقةِ من جهة كمال العقل ، والعلة في الأخبار مابيّناه في الدواعي والحاجة ، وأن العادة فيهما لاتنتقض على طريقة معروفة ، وقد كشفنا ذلك في باب الأخبار ...

بل لو قيل ...

ولنا أن نقدح بذلك في قولهم ...

فإن قال ...

قيل له ...

فإن قال قائل ...

قيل له ...))

ثم أخذ في سلوك هذه الطريقة ، وإيرادِ الاعتراضات والإجابة عليها ونقضِها[1] ، وهذه الطريقة مرهقة للقارئ ، مشتتة لذهنه ، ولتسلسل فهمِ مايقرؤه ، والله أعلم .

ثانياً : غموض المعاني :

لمّا كان المصنف قد نهج في كتابه الطريقة الكلامية المنطقية فإن مباحث كتابه قد تستغلق – أحياناً – على المطّلع ، وقد تَغمض وتَدِقّ حتى يبدو للقارئ أنه

١- ((إعجاز القرآن)) : ٢٥٠ – ٢٦٣ .

لايفهم مايكتبه الشيخ ولايعقله ، إلا إذا أدار الفكر فيه وأعمل النظر ، وتكلف الفهم .

أي أن الكتاب قد جاء بعيداً عن السلاسة والسهولة ، وإن كان الأسلوب متيناً والعبارات قويّة ، فإن هذا لايضادّ ذلك ولايناقضه .

والمثال السابق المنقول يصلح أن يُمثّل به هاهنا في بعض جوانبه .

ثالثاً : تطويل المقدمات :

قد طوّل المصنِّف المقدمات التي أوردها قبل الكلام على إعجاز القرآن ؛ حيث إنها قد حازت على ثلث حجم الكتاب - تقريباً[1] - وكان يمكنه اختصارها إلى مادون ذلك لولا أنه التزم ماذكرته في الملحظ الأول .

رابعاً : الاستطراد في الأقسام والفصول :

أورد المصنف في كتابه فصولاً لامتعلق لها بإعجاز القرآن - في تقديري - إلا من ملحظ بعيد ؛ فمن ذلك القسم الثاني بأكمله وهو الكلام على النسخ ، وما جاء تحته من فصول ، ومن ذلك عددٌ من الفصول في كل قسم من الأقسام الثلاثة الأخرى[2] ، ولعلّ مادعاه إلى ذلك هو أن هذا الكتابَ - كما ذكرت آنفاً - سلسلة من كتب كثيرة للمصنف ، فاحتاج في هذا القسمِ - قسمِ إعجاز القرآن - إلى أن يصله بما قبله وبعده من سلسلة كتبه ، ولعل ختام كتابه هذا يوضح المراد ؛ إذ قال :

((آخر الكتاب في النبوات ، يتلوه - إن شاء الله - الكلامُ في بيان وجوه معرفة مراد الله - تعالى - ومرادِ رسوله بالخطاب))[3] .

١- من صفحة ٩ - ١٤٣ .

٢- انظر الصفحات : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٨٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

٣- ص ٤٣٣ .

فظهر أن هذا الكتابَ وبعضَ الكتب التي قبله قد كان موضوعها الرئيسُ هو الكلامَ في النبوات ، وإعجاز القرآن بعضٌ من هذا القصد ، وإن طوّل فيه ، والله أعلم .

بسبب الملاحظ الأربعة السابقة فإن الناظر في الكتاب إذا أراد أن يخرج برأي للمصنف في إعجاز القرآن ، أو يقعَ على استدلال بارز يدل على ماذهب إليه ، فإنه يتعب كثيرا ، ويحاول أمراً صعباً ، ويبذل جهداً غير يسير ليظفر بمراده ، وهذا قد يقلل من الإقبال على الكتاب ، بل يقطع الرغبة في الاستزادة من مطالعته والبحث فيه ، إلا للمتخصصين الباحثين .

ملاحظات على تقسيم الكتاب :

أما التقسيم العام للكتاب فيلاحظ عليه مايلي :

١ - افتقر إلى تقسيم جيد من حيث الفصول والمباحث المعينة على تتابع القراءة وفهمها ، فقد قسم الكتاب إلى فصول ، ثم لم يُتبع ذلك التقسيم بتقسيم أصغرَ يعين على تتابع القراءة ، ففي فصل : ((الدلالة على أنهم لم يعارضوه ، عليه السلام ، لتعذر المعارضة عليهم)) لم يأت المصنف فيه بأي تقاسيم ، إنما أورده بكامله - وهو فصل طويل - متتابعاً بحيث يصعب على القارئ تتبع مراد المصنف[١] .

٢ - لم يبدأ بداية واضحة ، ولم يذكر المصنف الغرضَ من تصنيفه .

---

١ - انظر ص ٢٦٤ - ٣١٠ .

٣ - لم تظهر في الكتاب أهمية الموضوع ، أو من سبق المصنفَ إلى التصنيف في هذا الموضوع ، إلى آخر مابرع في إظهاره عددٌ من المصنفين المتأخرين على وجه الخصوص .

ولعل هذا الذي لوحظ في الملاحظتين الأخيرتين إنما كان بسبب أن الكتاب قسم من أقسام عديدة متصلة متسلسلة ، والله أعلم .

المقارنة بين ((إعجاز القرآن)) للقاضي عبد الجبار و((معترك الأقران)) للسيوطيّ من حيث منهج التأليف

قد سبق ذكر منهج السيوطيّ في كتابه بالتفصيل في الباب الثالث السابق[1] ، وسأكتفي هنا بعقد المقارنة بين منهجي التصنيف :

أولاً : تقسيم الكتاب :

أ - ابتدأ السيوطي كتابه ابتداءً واضحاً ، وختمه ختماً واضحاً كذلك ، ولم يكن هذا شأنَ القاضي في كتابه ، وقد بينت مالعله يكون سبباً لهذا ، آنفاً ، وهو كون كتاب القاضي جزءاً من سلسلة كتب متصلة متتابعة في مباحثها .

ب - كتاب القاضي ضم مباحثَ متنوعةً مع الإعجاز ، بينما كان كتاب السيوطي - في أصل وضعه - خالصاً للإعجاز ومقتصراً عليه ، وإن استطرد في عدّ وجوه ليست من الإعجاز ، لكن كان لأكثر ما ساقه من وجوه تعلق بالإعجاز أو بعض تعلق كما بينت سابقاً[2] .

---

١ - انظر ص ٤٢٠ وما بعدها من هذه الرسالة .

٢ - انظر ص ٤١٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

ثانياً : عرض المادة العلمية :

أ - أسلوب السيوطي واضح سهل لايتكلف له ، ولا يحتاج القارئ لفهمه إلى كبير عناء ، بينما غمُض أسلوب القاضي إلى حدّ بعيد حتى أنه يستغلق أحياناً ، ولعل استعماله للطريقة الكلامية قد أدى إلى هذا .

ب - أكثر القاضي من طريقة إيراد الأسئلة والأجوبة حتى يخيل للناظر في كتابه أنه اقتصر عليها ، بينما قلّ ذلك عند السيوطي .

وهذه الطريقة جيدة لإفهام السامع وتنبيهه إلى مالعله لايتنبه له ، لكن الإكثار منها - كما صنع القاضي - قد يُنسي القارئَ الغرض الأصلي الذي سيق الكلام من أجله .

حـ - ابتدأ القاضي كتابه بمقدمات ممهدات طالت وتشعبت بينما ولج السيوطيّ إلى مراده من أول كتابه .

د - اشترك المصنفان في إيراد مالا متعلق له بالإعجاز ، وإن كان السيوطيّ قد فاق القاضي في هذا طولاً وتشعباً ، كما بينت في موضع سابق[1] .

هـ - ليّن السيوطيّ كتابه بذكر كثير من المواعظ والقصص والأخبار المشوِّقة بينما لم يفعل ذلك القاضي ، ولعل لمنهج المعتزلة - القائم على تقديم الأمور العلمية العقلية دائماً - أثراً في عدم إيراده القصص والمواعظ .

---

١ - انظر ص ٤١٤ وما بعدها .

و – شمل كتاب السيوطيّ علوماً ومعارفَ كثيرة ، بينما لم يكن كتاب القاضي على هذا الشمول والسَّعة في تناول العلوم والمعارف واستخدامها ، ولعل مردّ ذلك إلى أن زمن التصنيف في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس لم يعهد مثل هذا التصنيف الشامل المبسوط ، الذي صُبغت به مصنفات القرون المتأخرة .

ز – اشترك المصنفان في الإطناب في كثير من المباحث التي أوردها وإن كان للقاضي نصيبٌ أكبر في ذلك ، حيث جاءت أكثر مباحثه مطنبةً ، بينما جاءت بعض أوجه الإعجاز عند السيوطيّ موجزة غاية الإيجاز [1] .

١ – وذلك نحو الوجه الثامن عشر : ((معترك الأقران)) : ١ / ٢٣٩ ، والوجه التاسع عشر : ١ / ٢٤٠ ، والوجه العشرين : ١ / ٢٤٢ .

المبحث الثاني

المقارنة من حيث وجوه الإعجاز

اختلفت أنظار العلماء – رحمهم الله تعالى – في تحديد أوجه الإعجاز القرآنيّ ، فبعضهم جعله وجهاً واحداً لاغير وهو عجيب نظمه وبديع تأليفه ، وماهو عليه من المنزلة البلاغية العليا ، ومنهم من نوّع أوجه الإعجاز وعدّدها ، ومنهم من أوصلها إلى عدد كبير كما فعل الإمام السيوطيّ في ((معترك الأقران)) .

وليس فيما فعلوه إشكالٌ ؛ إذ ((كل ماذكره العلماء من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ، ولاتناقض في ذلك ؛ بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له))[١].

وإنما اختلفت وجهات النظر في الإعجاز لأن تحديده على حقيقته أمر صعب ، فقد قال السكّاكيّ متحدثاً عن الإعجاز البلاغيّ :
((ولها – أعني البلاغة – طرفان : أعلى وأسفل ، وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر ، متفاوتة ، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة – وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات – ثم تأخذ في التزايد متصاعدة إلى أن تبلغ حداً لإعجازٍ عجيب يُدرك ولايمكن وصفه ؛ كاستقامة الوزن : تدرك ولايمكن وصفها ، وكالملاحة .

ومُدرِك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العِلْمين[٢] .

---

١ – ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) : ٥ / ٤٢٩ .

٢– قد جاء في ((البرهان)) للزركشيّ : ٢ / ١٠٠ توضيحٌ لهذين العِلْمين ، وهما : المعاني والبيان .

نعم للبلاغة وجوه ملتثمة[1] ربما تيسّرت إماطة اللثام عنها لتَجْلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا))[2] .

وقال أبوحيّان التوحيدي :

((لم أسمع كلاماً ألصقَ بالقلب ، وأعلق بالنفس من فصل تكلم به بُنْدار بن الحسين الفارسيّ[3] - وكان بحراً في العلم - وقد سُئل عن موضع الإعجاز من القرآن فقال :

هذه مسألة فيها حَيْفٌ[4] على المفتي ، وذلك أنه شبيه بقولك : ماموضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضعٌ من الإنسان ، بل متى أشرتَ إلى جُملته حققته ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه لايُشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ، ومعجزةً لمحاوِله ، وهدىً لقائله ، وليس في طاقة البشر الإحاطةُ بأغراض الله في كلامه وأسراره في كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده))[5] .

فهذان النقلان يدلان على صعوبة تحديد الإعجاز ، والوقوفِ على حقيقته .

وقد ذكر الأستاذ عبد الكريم الخطيب كلاماً علل به اختلاف العلماء في بيان وجوه الإعجاز فقال مفسراً ذلك :

((ليس مما يواجه النظر ، أو يقع في مجاله ، وإنما هو يُستشعر بالقلب استشعاراً ، ويُلمح بالبصيرة لمحاً .

١- كذا وردت ، لكن لعلها : ملثّمة ، إذ السياق يساعد على هذا المعنى .

٢- ((مفتاح العلوم)) : ٤١٥ - ٤١٦ .

٣- بُنْدار بن الحسين الشيرازيّ ، القُدوة ، شيخ الصوفية . كان ذا أموال فأنفقها وتزهّد ، وله معرفة بالكلام والنظر والأصول . وله حكم منثورة ومنظومة . توفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ١٦ / ١٠٨ - ١٠٩ .

٤- الحَيْف : المَيْل في الحكم ، والجَوْر والظلم : ((لسان العرب)) : ح ي ف .

٥- ((البرهان في علوم القرآن)) : ٢ / ١٠٠ .

هذا هو سبب الخلاف بين الناظرين في إعجاز القرآن ، اختلفوا في سلامة الأجهزة التي يتعاطون بها النظر إلى القرآن ، فاختلفت مُعطيات القرآن لهم، وبهذا اختلفت مقولاتهم فيه ، وهذا - في رأينا - أصدق نظر يُنظر به إلى الإعجاز من حيث إنه أمر لايخضع لمقاييس العلم[1] ، وإنما هو مما يستجيب لمناجاة الروح ولمحات البصيرة ، أما الإعجاز ذاته[2] فلا خلاف فيه، إذ كان أمره أوضحَ من أن يختفي منه شيء على ناظر ينظر إليه من أي اتجاه كان))[3] .

هذا وقد ناقشت وجوه الإعجاز التي ساقها الإمام السيوطي بالتفصيل[4] ، وإنما أتخير لعقد المقارنة بين كتابه وكتب غيره كتابين :

١ - كتاب ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطابيّ (ت ٣٨٨) .

٢ - كتاب ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) للشيخ كمال الدين الزَّمْلَكانيّ (ت ٦٥١) .

وقد اخترت هذين الكتابين لِما فيهما من جِدّة في عرض وجوه الإعجاز ، ولِما قصدت إليه ووضحته آنفاً من رغبتي في جمع أكبر عدد ممكن من كتب الإعجاز والحديث عنها في هذه الرسالة ، خدمةً لهذا الضربِ من علوم القرآن الكريم .

وسأتحدث عن مقارنة هذين الكتابين على الترتيب :

١- لاأُسلّم أن الإعجاز لايخضع لمقاييس العلم مطلقاً ؛ بل فيه جانب علمي ، وفيه جانب إيمانيّ ، وفيه جانب ذَوْقيّ :
فالجانب العلميّ في دراسة الإعجاز هو مايُحتاج لفهمه من دراسات بلاغية ولغوية وتشريعية وعلمية ماديّة .
والجانب الإيماني في فهم الإعجاز يرجع إلى سلامة الفطرة ونقائها ، وإلى التوفيق الإلهي ؛ إذِ الكفار قديماً وحديثاً لم يهتدوا لإعجاز القرآن مع أنه أوضحُ من أن يُستدلّ عليه .
والجانب الذوقيّ في فهم الإعجاز هو سلامة الحِسّ ، ودقّة الشعور ، وقوّة البصيرة .
فمن حصل له هذه الجوانب كلها فقد فهم الإعجاز وعرفه على وجهه ، والله أعلم .

٢- أي بدون تحديد وجه الإعجاز فيه بل المقصود استشعار الإعجاز .

٣- ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : ١٨٢ - ١٨٣ .

٤- انظر الفصل الأول من الباب الثالث : ص ٣٣٨ وما بعدها .

كتاب ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطّابيّ (٣١٩ – ٣٨٨)[١] .

هو أول مصنف في الإعجاز يصنفه إمام من أهل السنة – فيما أعلم – والكتاب رسالة مختصرة أوجزها مصنفها وذكر فيها عدداً من أوجه ارتضى منها اثنين ورد ماسواهما :

أما اللذان ارتضاهما فهما :

الإعجاز بالفصاحة والبلاغة والنظم والإعجاز التأثيريّ .

١ – الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم :

قال رحمه الله تعالى :

((القرآن صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف ، متضمناً أصحَّ المعاني ، مِن توحيدٍ له – عزّت قدرته – وتنزيهٍ له في صفاته ، ودعاءٍ إلى طاعته ...))[٢] .

قد جمع الخطابي في هذا الوجهِ بين الفصاحة والنظم والبلاغة ، أما الفصاحة والنظم فقد نصّ عليهما ، وأما البلاغة ففي قوله : ((متضمناً أصحَّ المعاني ...)) إشارةٌ إليها ؛ إذِ البلاغة متعلقة تعلقاً كبيراً بالمعاني .

وهذا الوجه الذي جاء به يكاد يكون مجمعاً عليه عند كل من تكلم في الإعجاز .

وقد قرر أحد المعاصرين[٣] أن الخطابي يرى أن البلاغة ليست جهةَ إعجاز ، والخطابي لم يقل بهذا على إطلاقه ، لكنه عدّ البلاغة جهةَ إعجاز مؤتلفةً مع غيرها وليست مستقلة بنفسها ، وإنما صنع ذلك لأنه رأى أن عامة من جعل البلاغة

١- الكتاب مطبوع ضمن مجموع يحوي ثلاثة كتب في الإعجاز ، وحققه محمد خلف الله ، والدكتور محمد زغلول سلام ، نشر دار المعارف ، القاهرة .

٢- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٧ .

٣- هو الدكتور عبد الفتاح لاشين في كتابه ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار)) : ٤٤٦ – ٤٤٧ .

وحدها وجهاً للإعجاز ((قد جَرَوْا في تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضربٍ من غلبة الظن ، دون التحقيق له وإحاطة العلم به ، ولذلك صاروا **إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغةِ التي اختصّ بها القرآن ، الفائقةِ في وصفها سائرَ البلاغات ، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة** قالوا : إنه لايمكننا تصويره ولاتحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيرَه من الكلام ، وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرباً من المعرفة لايمكن تحديده ... [1]

قالوا : وقد توجد لبعض الكلام عذوبةٌ في السمع وهشاشةٌ في النفس لاتوجد مثله لغيره منه ، والكلامان معاً فصيحان ثم لايوقف لشيء من ذلك على علة .

قلت : وهذا لايقنع في مثل هذا العلمِ ، ولايشفي من داء الجهل به ، وإنما هو إشكال أحيلَ به على إبهام))[2].

فهل في كلام الخطّابي مايفهم منه أنه يرى أن البلاغة ليست وجهاً من أوجه الإعجاز ؟

إنما غاية مايُفهم منه – والعلم عند الله تعالى – أن الذين ذكروا البلاغة قد جاء تعريفهم لها قاصراً ، أو أنهم لم يحسنوا تعريفها .

لكني لاأوافق الخطّابي على أن عدم استطاعة التعبير عن الإعجاز إنما هو ((إشكال أُحيل به على إبهام)) ، بل لعل عدم استطاعة إدراك موطن الجمال في الشيء تكون إدراكاً كاملاً له ، والله أعلم .

---

١ – لعل هذا هو مايعرف بالذوق ، أي أن إعجاز القرآن يُتذوق لكنه لايُستطاع تقعيده ؛ كما مر في كلام بندار الفارسي قريباً .

٢ – ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٤ – ٢٥ .

٢ – الإعجاز التأثيريّ :

وهو الوجه الآخر من وجهي الإعجاز اللذيـن ارتضاهمـا : الإمـام الخطّـابي ، رحمه اللـه تعالى .

وهذا الوجه قد تفرد الخطابي به وسبق غيره إلى تقريره ، وإنما ارتضـاه وجهـاً من أوجه الإعجاز لـ ((صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن – منظوماً ولا منثوراً – إذا قرع السـمعَ خلـص لـه إلى القلـب مـن اللـذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى مايخلص منــه إليـه ، تستبشـرُ بـه النفوس ، وتنشرح له الصدور ...))[١] .

ثم ذكر أمثلة من عصر النبوة تؤيد ماذهب إليه وارتآه .

أما الأوجه التي ردّها فهي :

١ – الصَّرفة :

وقد ردّها بدلالة قوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾))[٢] .

حيث أشار اللـه تعالى فيها إلى ((أمـر طريقـه التكلـف والاجتهـاد ، وسـبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى في (الصَّرفة) التي وصفوها لايلائم هذه الصفة ، فدل على أن المراد غيرها ، واللـه أعلم))[٣] .

---

١ – المصدر السابق : ٧٠ .

٢– سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٣– ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٢ – ٢٣ ، وانظر الرد على (الصرفة) مفصلاً في ص ٩٢ وما بعدها .

٢ – الإعجاز بأخبار الغيب :

حيث قال فيه بعد أن أورد آيتين من الآيات المنبئة عن أخبار الغيب المستقبل : ((ولايُشَكّ في أن هذا وما أشبهه من أخباره نوع من أنواع إعجازه ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن ، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزةً بنفسها لايقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1] من غير تعيين[2] ، فدلّ على أن المعنى فيه غير ماذهبوا إليه))[3] .

وكلامه في هذا الوجهِ جيد لكن رده للإعجاز بأخبار الغيب بالسبب الذي ذكره لاينبغي ؛ إذ يصح أن يقال إن الإعجاز بأخبار الغيب ثابت في القرآن العظيم لكنه نوع من الإعجاز الجزئي الذي لايضره عدم انتشاره في كل آيات القرآن ، وقد نصّ الخطابي على ذلك – كما في النقل السابق عنه – ثم إنه لم يرتضه ، وقد بينت ذلك سابقاً[4] .

ثم إن الخطّابيَّ – رحمه الله تعالى – قصر الكلام على الإعجاز بأخبار الغيب على نوع منه وهو الغيب المستقبَل ، لكن لوعمم بإدخال الغيب الماضي والحاضر لكان للمسألة وجهٌ آخر ؛ إذِ الغيب الماضي والحاضر منتشر في القرآن انتشاراً عظيماً .

١- سورة البقرة : آية ٢٣ .

٢- أي من غير تعيين سورة ، بل كلّ سورة فيها إعجاز،وهذا مالايتوفر في القول بالإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذ ليس هو في كل سورة .

٣- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٣ – ٢٤ .

٤- انظر ص ١٣٦ وما بعدها من هذه الرسالة .

٣ – الإعجاز بالبلاغة :

وهذا هو الوجه الثالث الذي الثالث ردّه ، وإنما ردّ الخطّابيّ الإعجاز البلاغي إذا اقتُصر عليه دون الفصاحة والنظم[١] ، وقد بينت مراده آنفاً[٢] .

المقارنة بين الكتابين : ((بيان إعجاز القرآن)) و ((معترك الأقران)) في أوجه الإعجاز :

١ – الوجهان اللذان ارتضاهما الخطّابيّ وقررهما يظهر فيهما الجدّة والتأصيل ؛ إذ هو سابق إلى التصنيف في الإعجاز ومن أوائل من تكلم في وجوهه ، بينما نقل السيوطيُّ – بحكم تأخر زمانه – كثيراً من أوجه الإعجاز ممن سبقه .

٢ – نقد الخطابيّ وجوه الإعجاز التي ساقها ، وبينٌ مافيها ، بينما لم يكن النقد عند السيوطيّ واضحاً أو بارزاً ، بل أستطيع القول بأن السيوطيّ اكتفى بنقل أو تأسيس ماساقه من أوجه بدون نقد أو مناقشة .

٣ – ردّ الخطابي بعض الأوجه التي قيل فيها إنها أوجه إعجاز ، بينما لم ينقدِ السيوطيّ شيئاً مما أورده على أنه من وجوه الإعجاز ، ولم يتكلم على وجه اتفق العلماء على رده وهو (الصَّرفة) إلا في سياقٍ نقله عن الأصبهاني[٣] من تفسيره[٤] .

١- انظر ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٤ – ٢٧ .

٢- انظر ص ٦٢٤-٦٢٥ .

٣- لم أعرف الأصبهانيّ هذا لعدم ورود مايعيّنه في ((المعترك)) ولكثرة من لُقّبوا بهذا اللقب ، لكن رجح الدكتور عمر الساريسي أن السيوطي استعان في ((الإتقان)) بتفسير الراغب الأصبهاني ، انظر ((الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب)) : ٧٢ ، وكثير من المواضع التي استشهد فيها السيوطي بتفسيره الأصبهاني في ((الإتقان)) هي بعينها في ((المعترك)) .

٤- انظر ((معترك الأقران)) : ١ / ٤ .

٤ - قرر الخطّابيُّ أوجه الإعجاز - مالرتضاه منها ومارِدّه - في صفحات معدودة ، وسياق سيّال لم ينقطع أو يتشوش ، بينما قرر السيوطيّ أوجه الإعجاز في صفحات كثيرة ، وكلام طويل ، قد ينسي آخرُه أوّلَه .

ثانياً : كتاب ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) للشيخ كمال الدين الزَّمْلَكانيّ [1] :

هذا كتاب متوسط الحجم في مجلد واحد ، بدأ فيه مصنفه بمقدمة ، ثم قسمه إلى أقسام ، وجعل القسم الأول منه في بيان إعجاز القرآن ، وأوجزه غاية الإيجاز ، وجعل باقي أقسام الكتاب خاصة بمباحث البلاغة وغيرها من فنون الأدب .

وقد ذكر ثمانية أوجه للإعجاز[2] ، ستةٌ منها على طريقة السَّبْر والتقسيم[3] ، وآخران ليسا كذلك ، والأوجه التي ذكرها هي :

١ – الصَّرفة :

وقد ذكرها في الأوجه الستة التي جاءت على طريقة السبر والتقسيم ، لكنه توسع في ذكرها وردِّها توسعاً نسبياً في صدر الحديث عن أوجه الإعجاز .

وقد ردّ (الصَّرْفة) بالآتي :

أ – لم يَرِد عن العرب أنهم تعجبوا من حالهم إزاء القرآن حيث إنه مما يقدررون على مثله لكنهم لايجدون في أنفسهم الرغبة في معارضته[4] ، كما هو لازم القول بـ (الصّرفة) .

ب – لم يرد عن العرب أنهم عارضوا القرآن بكلامهم الفصيحِ الذي قالوه قبل حدوث (الصَّرفة)[5] بزعمهم .

١– حققه الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي ، وطبع في بغداد سنة ١٣٩٤هـ .

٢– الأوجه الثمانية هي : الصَرفة ، وهي مذكورة في هذه الصفحة ، وستة أوجه مذكورة في الصفحة القادمة ، ووجه ثامن مذكور في صفحة ٦٣٤ .

٣– قد مر تعريف السبر والتقسيم ، انظر ص ٣٩٠ .

٤– ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ٥٣ .

٥– المصدر السابق .

جـ - ((سلب قُدَرهم يجريهم مجُرى الموتى فلا يجدي اجتماعهم قوةً وظهوراً على المعارضة ، وهو مخالف لقوله تعالى :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾[1]))[2] .

وقد بسطت الكلام على الردود على مذهب (الصَّرْفة) سابقاً[3] .

٢ - ثم إنه لما أثبت بطلان مذهب (الصَّرفة) ، وبطلانَ كون القرآن معجزاً لأمر خارج عنه ، لما أثبت بطلان ذلك شرع في ذكر الأوجه التي يمكن أن يثبت بها إعجاز القرآن الذاتي ، فذكر ستة أوجه للإعجاز على طريقة السبر والتقسيم ، ارتضى منها واحداً ورد الباقي ، وهذه الأوجه هي المذكورة بقوله :

١ - ((إعجازه إما من جهة ذوات الكلم .

٢ - أو عوارضِه من الحركات .

٣ - أو مدلولِه .

٤ - أو المجموع .

٥ - أو التأليف .

٦ - أو أمرٍ خارج عن ذلك[4] .

١- سورة الإسراء : آية ٨٨ .

٢- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ٥٤ .

٣- انظر ص ٩٢ ومابعدها .

٤- ((البرهان)) : ٥٤ .

ومراده بـ (العوارض من الحركات) هو مايعرض للكلمة من ضروب الحركات التي تغير المعنى مثل : (أَسَد) و (أُسْد) .

والمقصود بـ (المدلول) هو المعنى الذي يدل عليه اللفظ ، بحيث يصير القرآن معجزاً من جهة لفظه ، ومعجزاً من جهة معناه أيضاً ، أي أن قوالبه اللفظية البالغةَ غايةَ الفصاحة والبيان تحمل- أيضاً - أشرفَ المعاني وأجل المدلولات .

ومراده بـ (الأمر الخارج عن ذلك) هو (الصَّرْفة) ؛ أي أن القرآن غير معجز في ذاته بل بأمر خارجي عنه عاق البشر عن الإتيان بمثله ، وذلك هو (الصَّرْفة) ، وقد بسطت القول عليها سابقاً[1] .

هذه هي الأوجه الستة للإعجاز التي أوردها ، ثم إنه أجمل نقد مأأورده منها بقوله :

((الأول والثاني باطلان ؛ إذ صغير العرب يمكنه ذلك)) .

والمصنف إن عنى بذوات الكلم - وهي الوجه الأول الذي ردّه من الإعجاز - الكلماتِ القرآنيةَ بدون اعتبار فصاحتها ، أي الألفاظ المفردة مثل (الصلاة) و (الزكاة) فرده لهذا الوجهِ صحيح ، أما إن اعتبر فصاحتها فرده لهذا الوجهِ مردود ؛ لأن الفصاحة - ومدارها على خلوّ الكلام من التعقيد وسلاسته وجمال ألفاظه - تتفاوت في كلام البشر أنفسهم فكيف بكلامهم وكلامِ الله تعالى ؟

أما الوجه الثاني الذي ردّه وهو عوارض الحركات التي تنتاب الكلمات ؛ أي مايعرض للكلمة من ضروب الحركات التي تغير المعنى ، فردّه له صحيح .

---

١ - انظر ص ٩٢ وما بعدها من هذه الرسالة .

ثم ردّ الوجه الثالث – وهو المدلول – بقوله :

((وأما المدلول فليس صنيعَ البشر ، ولايقدرون على إظهار المعاني من غير مايدل عليها))[1]، أي من غير مايدل عليها من الألفاظ . كأنه يعني ، والله أعلم ؛ أن المدلول وحده – وهو المعاني – لايصح أن يكون جهةَ إعجاز بمفرده ؛ لأنه لايظهر إلا بالألفاظ الدالة عليه والمبرزةِ له ، فلو كانت الألفاظ غير فصيحة لما ظهرت قوة المعاني ، فالألفاظ الحسنة الفصيحة دالة على المعاني القوية الشريفة .

أو أنه يعني أن المدلول – وهو المعاني – لايُستطاع التعبير عنه إلا بألفاظ ، وكأنه يشير إلى اللغة أتوقيفية هي أم اصطلاحية ، فهو يذهب إلى أن اللغة توقيفية ، وأن الدالّ والمدلول فيها هو من عند الله – تعالى – وليس من صنيع البشر ، فلما كانت اللغة كذلك كان القول بالإعجاز بالمدلول فقط وترك الألفاظ الدالّة عليه قولاً متروكاً عند المصنف .

هذا مقدار مافهمته من كلامه ، والله أعلم .

ثم ردّ الوجه الرابع – وهو الإعجاز بمجموع ماسبق – بقوله : ((وأما المجموع فالكلام عليه كالكلام على ماسبق))[2] ، أي كما أن أفراد ماسبق مردودة عنده فكذلك مجموعها مردود .

ثم رد الوجه الخامس – وهو (الصّرْفة) – بقوله :

((وأما الخارجيّ فباطل – إلا على رأي النظام ، وقد عُرف))[3] ، أي عُرف مافيه من فساد .

---

١ – ((البرهان الكاشف)) : ٥٤ .

٢– المصدر السابق .

٣– المصدر السابق .

ثم إنه بيّن الوجه الذي ارتضاه - وهو ((التأليف)) - بقوله :
((فتعين أن يكون الإعجاز نشأ من التأليف الخاص به لامطلق التأليف ؛ وذلك بأن اعتدلت مفرداته تركيباً وزِنَةً ، وعلت مركباته معنى))[1] .

وقوله : ((اعتدلت مفرداته تركيباً)) هو النظم .
وقوله : ((زِنةً)) فيه إشارة إلى الفصاحة .
وقوله : ((علت مركباته معنى)) : إشارة إلى البلاغة ، والمضمونِ المتمثل في المعاني القرآنية .

وهذا الوجه الذي ارتضاه هو الذي أَطبق عليه جماهير السلف والخلف .

٨ - ثم ذكر الوجه الثامن للإعجاز على هيئة سؤال وجواب فقال :
((فإن قلت : لِم لايجوز أن يكون إعجازه نشأ من جهة مافيه من الأنباء السابقة واللاحقة ؟))[2] ثم ردّ هذا الوجهَ بأنه ((ليس الإعجاز منحصراً في ذلك))[3] .

أي أن الإعجاز القرآني أعمُّ من كونه منحصراً في الإعجاز بأخبار الغيب ؛ إذِ الإعجاز منتشر في آيات وسور القرآن ، بينما أخبار الغيب ليست كذلك .

فكأنه - والله أعلم - يرد هذا الوجه إذا قيل بتفرده بالإعجاز ، أما إن ذُكر وجهاً من وجوه الإعجاز فإني لاأجد من كلامه رفضاً أو قبولاً له ، حيث إنه قال : ((قد ذهب إلى هذا المذهبِ قومٌ ، لكن ليس الإعجاز منحصراً في ذلك بل نظمه المخصوص معجز ... وليس في كل سورة إخبارٌ بالغيب))[4] .

١- المصدر السابق .
٢- المصدر السابق : ٥٥ .
٣- المصدر السابق .
٤- المصدر السابق : ٥٥ - ٥٦ .

المقارنة بين وجوه الإعجاز

في كتابي ((معترك الأقران)) و ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن))

١ - جاءت وجوه الإعجاز في ((معترك الأقران)) مستغرقةً للكتاب كله ، بينما طُرقت في ((البرهان الكاشف)) طرقاً خفيفاً في صفحات معدودات أولَ الكتاب .

٢ - لم يقرر الزَّمْلَكانيّ وجوه الإعجاز حقّ التقرير ، ولم يُفصّلها إنما جاء بها مسرودةً مختصرة ، حتى إن كلامه كان محتاجاً إلى شرح وبيان لِما لعله ينبهم على القارئ ، بينما توسع السيوطيّ في تقرير معظم أوجه الإعجاز التي ساقها توسعاً كبيراً ، ووضحها غاية الإيضاح .

٣ - جاء الكلام على أوجه الإعجاز في كتاب ((البرهان الكاشف)) كالتمهيد لمباحث البيان التي استغرقت معظم الكتاب ، بينما ضمّن السيوطيُّ كلَّ مايريد الحديث عنه في أوجه الإعجاز التي ساقها .

٤ - اقتصر الزَّمْلَكانيّ على ذكر جزء من أوجه الإعجاز فلم يستغرق كل ماقيل في الإعجاز عند المصنفين فيه قبله ، بينما كان غرض السيوطيِّ الإحاطةَ بكل أوجه الإعجاز التي ذكرها مَن قبله .

٥ - قد نقد الزملكاني عدداً من أوجه الإعجاز التي لم يرتضها نقداً خفيفاً وبين مافيها بياناً مجملاً ، بينما قَبِل السيوطي كلّ الأوجه التي ساقها في ((معترك الأقران)) ، بل ذكر أنه سيورد أوجهاً ليست من الإعجاز ، وقد خلا كتاب السيوطيّ من نقد أوجه الإعجاز كما بينت من قبل[١] ، فكان من جرّاء ذلك أن الزملكاني قد خرج برأي اعتمده في وجه الإعجاز المختار ، بينما لم يصنع ذلك الإمام السيوطيّ ، ولم يظهر في كتابه رأيه المختار في الإعجاز ولامذهبه فيه[٢] .

---

١ - انظر ص ٢٩٣ ، ٣٢١ ، ٤١٤ .

٢- انظر ص ٤١٤ من هذه الرسالة .

المبحث الثالث

المقارنة من حيث الاستدلال

تمهيـــــد :

اعتمـد المصنفـون في الإعجـاز اعتمـاداً كبـيراً علـى آيـات الكتـاب العزيـز ، وجعلوا منها أدلة وشواهدَ لـما أوردوه مـن قواعـدَ بلاغيـةٍ دالّـةٍ علـى إعجـاز القـرآن العظيم ، وتكاد تستوي كتـب الإعجـاز في الإكثـار مـن إيـراد الأدلـة مـن الكتـاب الكريم .

أمّا الحديث النبويّ الشريف والآثار عن الصحابـة والتـابعين فلـم يكـثر قدمـاء المصنفين في الإعجاز من إيرادهـا ، وبعضهـم لم يـورد أي أثـر أوحديـث كمـا صنـع الرمانيّ ؛ وذلك لأن الكلام منصبٌّ على إعجاز القرآن وليس على مطلـق الأسـاليب العربية .

وسأورد عدداً من الكتـب الـتي صُنفـت في الإعجـاز فـأبين ماجـاء فيهـا مـن الاستدلال بآيات القرآن الكريم ، ثم مـاأورده مصنفوهـا مـن الأحـاديث والآثـار ، وبيان طريقة إيرادهم لها ، وأعني بهذا بيان تخريجهـم لتلـك الأحـاديث ، وحكمهـم عليها أو إغفالهم لها .

وهذه الكتب التي سأوردها هي : ((بيان إعجـاز القـرآن)) للإمـام الخطّـابيّ (ت ٣٨٨) ، وكتـاب ((إعجـــاز القــرآن)) للإمــام البــاقِلانيّ (ت ٤٠٣) ، وكتاب ((البرهان الكاشف عن إعجـاز القـرآن)) للإمـام الزّمْلَكـانيّ (ت ٦٥١) وكتاب ((الطراز المتضمن لأسرار البلاغـة وعلـوم حقـائق الإعجـاز)) للسـيد يحيـى العلوي (ت ٧٤٥) .

فهذه أربعة كتب أسوقها للمقارنة بينها وبين كتـاب ((معـترك الأقـران)) في مبحث الاستدلال بالآيات والأحاديث والآثار :

أولاً : ((بيان إعجاز القرآن)) للإمام الخطّابيّ :

أ - أدلته من القرآن :

قد كثر الاستدلال بآيات القرآن العظيم في كتاب الإمام الخطّابيّ ، وهذا الاستدلال - عنده - ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ - استدلال غَرَضي استشهادي لوجوه الإعجاز : قَبولاً وردّاً ، كقوله : ((وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه (الصَّرْفة) ، أي صَرْفُ الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها ، وغير مُعجَّزة عنها ، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات صار كسائر المعجزات ...)) .

ثم إنه استدل - للرد على هذا المذهب - بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1] .

٢ - استدلال عَرَضيّ كشرح معنى لغويّ مثلاً ، وذلك نحو قوله :
((وأما قولك (بلى) و (نعم) ، فإن (بلى) جواب عن الاستفهام بحرف النفي ؛ كقول القائل : ألم تفعل كذا ، فيقول صاحبه : بلى ، كقوله - عز وجلّ - : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾[2] .
وأما (نعم) فهو جواب عن الاستفهام[3] ، نحو : هل ، كقوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ ﴾[4]))[5] .

---

١ - سورة الإسراء : آية ٨٨ . وانظر ((بيان إعجاز القرآن)) : ٢٢ - ٢٣ .

٢ - سورة الأعراف : آية ١٧٢ .

٣- أي الاستفهام غير المنفي .

٤- سورة الأعراف : آية ٤٤ .

٥- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٣١ .

٣ – الاستدلال بين الغَرَض والعَرَض ، فليس هو غرضاً مجرداً ولاعَرَضًا مجرداً ، وذلك مثل استدلاله في موضوع رد شبهات على بلاغة القرآن ، نحو قوله :

((وأما ماعابوه من التكرار ؛ فإن تكرار الكلام على ضربين : أحدهما مذموم وهو ماكان مستغنى عنه ، غير مستفاد به زيادةُ معنى لم يستفيدوه بالكلام الأول ؛ لأنه حينئذ يكون فضلاً من الكلام ولغواً ، وليس في القرآن شيءٌ من هذا النوع .

والضرب الآخر ماكان بخلاف هذه الصفة ؛ فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه ، وتدعو الحاجة إليه فيه بإزاء[١] تكلف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار ... وقد أخبر الله – عز وجل – بالسبب الذي من أجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾))[٣] .

ثم شرع في تبيان الفائدة من الآيات التي قيل إنها من التكرار المحض[٤] .

ب – أدلته من الأحاديث والآثار :

أورد الخطابيّ – رحمه الله تعالى – في كتابه ثلاثة[٥] أحاديث وسبعة آثار[٦] . روى حديثين وأربعة آثار منها بسنده المتصل ، وأغفل ذكر السند في الباقي من الأحاديث والآثار . هذا وإنّه لم يَعْزُ أيًّا منها إلى كتب الحديث ، ولم يحكم على أيٍّ منها ، وهذا من الخطابي عجيب ؛ إذ أنه من أئمة رجال الحديث المعروفين .

١– هذا هو خبر إن .

٢– سورة القصص : آية ٥١ .

٣– سورة طه : آية ١١٣ .

٤– ((بيان إعجاز القرآن)) : ٥٢ – ٥٣ .

٥– انظر الصفحات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٤١ .

٦– انظر الصفحات : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٥٦ .

وقد أورد الأحاديث والآثار عرضاً في كتابه ؛ إذ لم يقرر بها الإعجاز، ولم يوردها استشهاداً في موضوعه ، إنما ساقها لنصرة بعض المعاني اللغويّة ، أو لبيان أهمية إتقان اللغة العربية لطالب تفسير القرآن ، فمما أورده من الأحاديث على هذا قوله في مبحث أهمية إحكام اللغة :

((حثّ – صلى الله عليه وسلم – على تعلم إعراب القرآن وطلَبِ الغريب منه : نا إسماعيل[١] بن محمد الصفّار[٢] ، قال : حدثني محمد بن وهب الثقفي[٣] ، قال : حدثني محمد بن سهل العسكريّ[٤] ، قال حدثني ابن أبي زائدة[٥] عن عبد الله بن سعيد المَقْبُريّ[٦] عن أبيه[٧] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((أعربوا[٨] القرآن والتمسوا غرائبه))[٩] .

ومما أورده من الآثار على هذا النحو قوله :

١- أي حدثنا إسماعيل .

٢- إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفّار ، الثقة الإمام ، النحويّ المشهور . مات سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وقد جاز التسعين بأربع سنين . انظر ((لسان الميزان)) : ١ / ٤٨٢ .

٣- لم أجد له ترجمة إلا في ((تاريخ بغداد)) : ٣ / ٣٣٢ ، فقال الخطيب : ((محمد بن وهب بن يحي؛ ، أبوبكر الثقفي المقرئ)) ثم سرد مشايخه وتلاميذه ، ولم يتكلم فيه تعديلاً أو تجريحاً .

٤- راوٍ للموضوعات . انظر ((ميزان الاعتدال)) : ٣ / ٥٧٦ ، و ((لسان الميزان)) : ٥ / ٢٢٠ .

٥- يحى بن زكريا بن أبي زائدة الهَمْداني ، أبو سعيد الكوفيّ . ثقة متقن . مات سنة ثلاث أو أربع وثمانين ومائة ، وله ثلاث وستون سنة . انظر ((التقريب)) : ٥٩٠ .

٦- عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المَقْبُريّ ، أبوعبّاد ، الليثيّ بالولاء ، المدني . متروك . انظر ((التقريب)) : ٣٠٦.

٧- سعيد بن أبي سعيد كَيْسان المَقْبُريّ ، أبو سعد المدنيّ . ثقة . مات في حدود سنة عشرين ومائة . انظر ((التقريب)) : ٢٣٦ .

وهذا إسناد ضعيف جداً لأن فيه عبد الله بن سعيد المَقْبُريّ وهو متروك ، وفيه محمد بن سهل العسكريّ وهو راو للموضوعات .

وقد أخرج الحديثَ أبويعلى الموصليّ ، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) ، والحاكم في ((المستدرك)) ، ومدار إسنادهم على عبد الله بن سعيد المقبُريّ ، وهو متروك ، وانظر ((المطالب العالية)) : ٣ / ٢٩٨ ، و((شعب الإيمان)) : ٥ / ٢٣٩ ، و ((كنز العمال)) : ١ / ٦٠٧ ، و ((مجمع الزوائد)) : ٧ / ١٦٦ .

٨- الإعراب معناه – هنا – التبيين والإفصاح . انظر ((لسان العرب)) : ع ر ب .

٩- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٣٤ .

((وأما (مِن) و (عن) فإنهما يفترقان في مواضع ، كقولك : أخذت منه مـالاً ، وأخـذت عنـه علمـاً ، فـإذا قلـتَ ، سمعـت منـه كلامـاً أردت سماعـه مـن فيـه ، وإذا قلت : سمعت عنه حديثاً كان ذلك عن بـلاغ[1] ، وهـذا علـى ظـاهر الكـلام وغالبه ، وقد يتقاربان في مواضعَ من الكلام .

ومما يدخل في هذا الباب ماحدثني محمد بن سعدويه[2] ، قال : حدثني محمـد ابن عبد اللـه بن الجنيد[3] ، قال : حدثـني محمـد بـن النضـر بـن مسـاور[4] ، قـال : حدثنا جعفر بن سليمان[5] ، عن مالك بن دينار[6] ، قال :
جمعنا الحسن لَعرْض المصـاحف[7] أنـا وأبـا العاليـة الريـاحيّ[8] ، ونصـر بـن عـاصم الليثيّ[9] ، وعاصمـاً الجَحْـدريّ[10] ، فقـال رجـل : يأبـا العاليـة : قـول اللـه في كتابه :

١- أي لم يكن ذلك الحديث مسموعاً عن مشافهة .

٢- لم أعثر على ترجمته .

٣- محمد بن عبد اللـه بن الجُنيد ، أبو الحسين التميمي البزّاز حدث عن عبد اللـه بن الإمام أحمد ، هذا ماجاء في ((تاريخ بغداد)) : ٥ / ٤٥٠ ، أما ابن أبي حاتم فقال : محمد بن عبد اللـه بن الجنيد ، أبوعبد اللـه النيسابوري نزيل جُرجان ، وذكر أنه ابن أبي حاتم سمع منه الحديث بالريّ . انظر ((الجرح والتعديل)) : ٧ / ٢٩٥ .

٤- محمد بن النضر بن مُساور المَرْوزيّ . صدوق . مات سنة تسع وثلاثين ومائتين . انظر ((التقريب)) : ٥١٠ .

٥- جعفر بن سليمان الضُّبَعيّ ، أبو سليمان البصريّ . صدوق عابد . مات سنة ثلاثين ومائة . انظر ((التقريب)) : ٥١٧ .

٦- مالك بن دينار البصري الزاهد ، أبويحي . صدوق عابد . مات سنة ثلاثين ومائة . انظر ((التقريب)) : ٥١٧ .

٧- المقصود بـ (عَرْض المصاحف) هو قراءة المصحف بعد كتابته على إمام من أئمة القرآن ، انظر ((المصاحف)) لابن أبي داود : ١٧٤ - ١٧٦ .

٨- رُفيع بن مِهران ، أبوالعالية الرياحيّ البصريّ ، الإمام ، المقرئ ، الحافظ ، المفسر . أدرك زمان النبي - صلى اللـه عليه وسلم - وهو شاب ، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق ، رضي اللـه عنه ، ودخل عليه . حفظ القرآن ، وقرأه على أبيّ بن كعب ، وتصدر لإفادة العلم ، وبعُد صيته ، وله كلام رائق وحكم مفيدة . مات - رحمه اللـه تعالى - سنة تسعين . انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٤ / ٢٠٧ - ٢١٣ .

٩- نصر بن عاصم الليثيّ البصريّ . أحد القرّاء من التابعين . كان على رأي الخوارج ثم تركهم ، وهو ثقة . انظر ((التقريب)) : ٥٦٠ ، و ((تهذيب التهذيب)) : ١٠ / ٣٨١ .

١٠- عاصم بن أبي الصبّاح الجَحْدريّ البصريّ ، المقرىء المفسر . ثقة ، وله قراءة شاذة منسوبة إليه . توفي سنة ثمان وعشرين ومائة . انظر ((الوافي بالوفيات)) : ١٦ / ٥٦٨ .

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾[1] ماهذا السهو ؟

قال : الذي لايدري عن كم ينصرف ، عن شفع أو عن وتر .

فقال الحسن : مَهْ[2] ياأبا العالية ، ليس هذا ، بل الذين سَهَوْا عن ميقاتهم حتى تفوتهم ، قال الحسن : ألا ترى قوله عز وجلّ : ﴿ عَن صَلَاتِهِمْ ﴾[3] ...

قلت : وإنما أُتي أبو العالية في هذا حيث لم يفرّق بين حرف (عن) و (في) فتنبه له الحسن ...))[4] .

كان ذلك منهجَ الإمام الخطابيّ في الاستدلال بالآيات والأحاديث والآثار ، وقد ظهر أنه مُقلّ في استدلاله بالأحاديث والآثار ، وأنه لم يأت بها استشهاداً على الإعجاز .

١- سورة الماعون : آية ٤ ، ٥ .

٢- مَهْ : اسم فعل أمر بمعنى : كُفَّ واسكت . وانظر ((لسان العرب)) : م هـ هـ .

٣- أخرج هذا الأثرَ الإمامُ عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره : ٢ / ٤٠٠ فقال :

((عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال : كنا نعرض المصاحف أنا والحسن وأبو العالية ...)) .

وألفاظه مقاربة لمارواه الإمام الخطّابي ، وطريق الخطّابي هو طريق عبد الرزاق ، وإسناد هذا الأثر حسن لأن جعفر ابن سليمان ومالك بن دينار كلاهما قيل فيه صدوق كما سبق في ترجمتهما في سند الخطّابي .

٤- ((بيان إعجاز القرآن)) : ٣٢ - ٣٣ .

ثانياً : ((إعجاز القرآن)) للقاضي الباقِلاّنيّ

أ – الاستدلال بالآيات الكريمة :

قد أورد القاضي – رحمه الله تعالى – في كتابه مئاتٍ من الآيات ، وقد جاء استدلاله بها على قسمين :

١ – استدلال غَرَضيّ ، وذلك في استشهاده بالآيات لغرض إثبات الإعجاز ؛ وذلك كقوله :

((فصل في جملة وجوه إعجاز القرآن :

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثةَ أوجه من الإعجاز :

أحدها : يتضمن الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لايقدر عليه البشر ، ولاسبيل لهم إليه ، فمن ذلك ماوعد الله – تعالى – نبيه ، عليه السلام ، أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجلّ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[1] ففعل ذلك))[2].

وهذا القسم من الاستدلال يندرج تحته العدد الأكبر من الآيات التي ساقها في كتابه .

٢ – استدلال عَرَضيّ ، لم يُرِدِ الباقِلاّنيّ به الاستشهاد على شيء من الإعجاز إنما ساقه عَرَضاً أثناءَ الكتاب ، كقوله في تعظيم القرآن :

((وأمر عند افتتاحه بما أمر به لتعظيمه من قوله :

﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[3]))[4] .

ب – الاستدلال بالأحاديث والآثار :

١- سورة التوبة : آية ٣٣ .

٢- ((إعجاز القرآن)) : ٣٣ .

٣- سورة النحل : آية ٩٨ .

٤- ((إعجاز القرآن)) : ٢٠٣ .

قد أورد الباقلاني عدداً من الأحاديث والآثار ، كان سياق معظمها ليس لغرض الاستشهاد للإعجاز ، إنما كان عرضاً .

فمما أورده من الأحاديث غَرَضاً - وهو قليل - قوله :

((ومما يبين ماقلناه - مِن أن البليغ المتناهي في وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن ، وتكون معرفته حجةً عليه إذا تُحدِّي إليه وعجز عن مثله ، وإن لم يُنتظر وقوع التحدي في غيره ، وما الذي يصنع ذلك بالغير - فهو مارُوي في الحديث أن جُبير بن مُطْعِم ورد على النبي - صلى الله عليه وسلم في مُعَنّىً[1] حليف له أراد أن يفاديَه فدخل والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقرأ سورة ﴿ وَٱلطُّورِ . وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ﴾ في صلاة الفجر ، قال : فلما انتهى إلى قوله :

﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ . مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾[2] قال :

خشيت أن يدركني العذاب فأسلم[3]))[4] .

ومن أمثلة ماذكره من الأحاديث عَرَضاً قوله :

((أخبرني محمد بن علي الأنصاري بن محمد بن عامر[5] ، قال : حدثنا علي بن إبراهيم[6] ، حدثنا عبد الله بن داود بن عبد الرحمن العمرى[7] ، قال : حدثنا الأنصاريّ : عليّ بن محمد الحنظليّ[8] - من ولد حنظلة الغسيل[9] - حدثنا جعفر

١- أي أسير ، انظر ((لسان العرب)) : ع ن ى .

٢- سورة الطور : آية ١ - ٨ .

٣- أخرج الإمام البخاري هذا الأثر بألفاظ مقاربة ، وقد سبق تخريجه ، انظر ص ١١٦.

وقد عزاه السيوطيّ إلى سعيد بن منصور ، وطبقات ابن سعد ، ومسند الإمام أحمد ، ولم يعزه إلى البخاري . انظر ((الدر المنثور)) : ٧ / ٦٣٠ .

٤- ((إعجاز القرآن)) : ٢٧ .

٥- لم أعثر له على ترجمة .

٦- لم أعثر له على ترجمة .

٧- لم أعثر على ترجمة .

٨- لم أعثر له على ترجمة .

٩- حنظلة بن أبي عامر بن صيفي الأنصاري الأوسيّ ، وأبوه أبو عامر هو الراهب الذي سماه المسلمون : الفاسق . استشهد حنظلة في أحد ، رضي الله عنه ، ومن المشهور أنه غسلته الملائكة في أحد لكونه خرج إليها جنباً ، وانظر ((الإصابة)) : ١ / ٣٦٠ .

ابن محمد[١] ، عن محمد بن حسان[٢] ، عن محمد بن حجاج اللخميّ[٣] ، عن مُجالِد[٤] عن الشَّعْبِيّ[٥] عن ابن عباس قال :

لما قدم وفد عبد القيس[٦] على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

أيكم يعرف قُسّ بن ساعدة[٧] ؟

قالو : كلنا نعرفه يارسول الله .

قال : لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير له أحمر فقال :أيها الناس ...))[٨] [٩] .

١- هناك جماعة بهذا الاسم ، ولعلّ هذا هو جعفر بن محمد الواسطيّ الورّاق ، نزيل بغداد . توفي سنة ٢٦٥ ، صدوق وانظر ((تهذيب التهذيب)) : ٢ / ٩٠ و ((التقريب)) : ١٤١ .

٢- محمد بن حسّان بن خالد الضّبّيّ السَّمْتيّ ، أبوجعفر البغداديّ . صدوق لين الحديث . مات سنة ثمان وعشرين ومائتين . انظر ((التقريب)) : ٤٧٣ .

٣- محمد بن الحجاج اللخميّ الواسطيّ . كذبه يحيى بن معين وأبوحاتم ، انظر ((الجرح والتعديل)) : ٧ / ٢٣٤ . وفي ((تاريخ بغداد)) أن الدار قطني كذبه أيضاً ، ونقل الخطيب عن ابن محمد بن الحجاج أن أباه توفي سنة إحدى وثمانين ومائة . انظر ((تاريخ بغداد)) : ٢ / ٢٧٩ - ٢٨٢ .

٤- مُجالِد بن سعيد بن عُمَير الهَمْدانيّ ، أبوعمرو الكوفيّ . ليس بالقوي ، وقد تغير في آخر عمره . توفي سنة ١٤٤ ، انظر ((التقريب)) : ٥٢٠ ، وقد تقدمت ترجمته .

٥- عامر بن شراحيل الشَّعْبِيّ ، أبوعمرو . ثقة مشهور ، فقيه فاضل . مات بعد المائة وله نحو من ثمانين سنة . انظر ((التقريب)) : ٢٨٧ .

٦- هي قبيلة عظيمة تنتسب إلى عبد القيس بن أَفْصى بن دُعْمِيّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، كانت مواطنهم بتهامة ثم خرجوا إلى البحرين ، وقد ارتد أهل البحرين بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا عبد القيس ، وكان منهم مددٌ للمسلمين .

وفي النسبة إليهم ثلاثة مذاهب : أحدها عَبيديّ - على النسبة الأولى - والثانية : قيسيّ ، على النسبة الثانية ، والثالث عبد قيسيّ ، على النسبة إليهما جميعاً . انظر ((معجم قبائل العرب)) : ٢ / ٧٢٦ - ٧٢٧ .

٧- قُسّ بن ساعدة بن حذامة الإياديّ البليغ الخطيب المشهور . أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا في الخطبة ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من كتب : من فلان إلى فلان . وكانت العرب تعظمه . انظر ((الإصابة في تمييز الصحابة)) : ٣ / ٢٦٤ - ٢٦٥ .

٨- ((إعجاز القرآن)) : ١٥١ - ١٥٢ ، وانظر للمزيد من الأمثلة : ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٨٤ ...

٩- هذا الأثر - بهذا الإسناد - موضوع لأن أحد رواته كاذب ، وهو محمد بن الحجاج اللخميّ الواسطيّ . وقد قال الحافظ ابن حجر :

((وقد أفرد بعض الرواة طريق حديث قُسّ ، وفيه شعره وخطبته ، وهو في ((المطوّلات)) للطبرانيّ وغيرها ، وطرقه كلها ضعيفة)) . انظر ((الإصابة)) : ٣ / ٢٦٥ .

وقد أورد القاضي - رحمه الله تعالى - في كتابه اثنين وثلاثين حديثاً[١] ، واثنين وثلاثين أثراً[٢] .

وهو في إيراده للآثار والأحاديث لايعزو لكتب الحديث ، ولايحكم على مايورده من الأحاديث والآثار ، وكثيراً مايُصَدِّر الحديث بلفظ ((روي)) ، وهو - في أصله - صيغة تمريض وتضعيف عند المحدثين[٣] .

وهو تارة يروي الأحاديث والآثار بالسند وتارة يغفله ، وهو الأكثر .

١- انظر الصفحات :٢٧ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٤ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤، ١٣٥ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ .

٢- انظر الصفحات : ٦٧ ، ٦٨ ،٨٤ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

٣- انظر - مثالاً - ص : ٢٧ ، ٥٨ ، ٧٦ ...

ثالثاً : ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن))
لكمال الدين الزَّمْلَكانيّ ، رحمه الله تعالى .

أمااستدلال الإمام الزمْلَكاني بالآيات فهو على مثال استدلال الإمام الباقِلّانيّ الذي سقته آنفاً[١] .

وأما استدلاله بالأحاديث والآثار فقد أورد في كتابه ثلاثين حديثاً وأثرين[٢] ، وعزا ثلاثة من الأحاديث إلى الصحيحين[٣] .

وقد حكم على أثر بأنه صحيح، أما باقي الأحاديث والآثار فلم يَعْزُها و لم يحكم عليها .

أما الأحاديث التي عزاها للصحيحين فثلاثة - كما مرّ - ساق واحداً منها في مسألة البسملة : هل هي جزء من السورة أم لا ، فقال :

((قوله - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم ، رحمه الله :

((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد : الحمد لله ، قال الله تعالى : حمدني عبدي))[٤]))[٥] .

والحديثان الآخران ساقهما المصنف في مسألة خلق الجنين حيث قال :

١- انظر ص ٦٤٢ .

٢- قد استفدت من فهرس الأحاديث الذي صنعه المحققان ، لكنهما أسقطا حديثاً فلم يورداه في الفهرست وهو في ص : ٧٣ ، وقد عدّا مثالاً أورده المصنف حديثاً وهو ليس بحديث ، وذلك ص : ٤٨ . و لم يصنع المحققان فهرساً للآثار في الكتاب كله فوجدت بالاستقراء أن المصنف رحمه الله تعالى قد أورد أثرين فقط ، وذلك في الصفحتين : ٥٦ ، ٢٦٥ .

٣- انظر ص : ٧٤ ، ٢٦٨ .

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة : باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة : ٤ / ١٠١ - ١٠٢ ، والذي ساقه الإمام الزَّمْلكاني فيه خلاف يسير عن نص الإمام مسلم ، ونص مافي صحيح مسلم : ((قال الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ...)) .

٥- ((البرهان الكاشف)) : ٧٤ .

((وقد ورد عن الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصحيح من حديث حذيفة بن أَسيد[1] رحمه الله[2] :

((إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة أرسل الله ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وكتب رزقها وأجلها)) ... وهذه رواية مسلم[3] ، رحمه الله.

وفي صحيح البخاريّ رحمه الله تعالى :
((إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ثم يكون علقةً مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله الملك فيؤْذن له ثم يؤمر فيكتب رزقه وأجله))[4] [5].

أما الحديث الذي حكم عليه بالصحة فهو ماأورده في بيان قوله تعالى :
﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[6] حيث قال الزَّمْلَكانيّ :
((فإن قلت : وهل كان أحدهم في الحج لايدخل بيتاً إلا من ظهره ؟

١- أبو سَرِيحة : حذيفة بن أُسيد الغِفاريّ . صحابي من أصحاب الشجرة . مات سنة ٤٢ ، رضي الله عنه : انظر ((التقريب)) : ١٥٤ .

٢- كذا قال مع أن الوجه : رضي الله عنه .

٣- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب القدر : باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه : ١٦ / ١٩٣ - ١٩٤ ، ونصُّ مافي صحيح مسلم : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة **بعث الله إليها** ملكاً فصورها وخلق سمعها **وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها** ...)) .

٤- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في ثلاثة مواضع وهي:كتاب الحيض : باب نقض المرأة شعرها عند غسل المحيض : ١ / ٨٦ ، وكتاب الأنبياء : باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته : ٤ / ١٦٠ ، وبابٌ في القدر : ٨ / ١٥٢ ، وليس في تلك المواضع كلها سياق المصنف بحروفه إنما هو بألفاظ مقاربة .

٥- ((البرهان الكاشف)) : ٢٦٨ .

٦- سورة البقرة : آية ١٨٩ .

قلت : في الحديث الصحيح أن ناساً من الأنصار كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدٌ منهم حائطاً ولاداراً ولافسطاطاً من باب ؛ فإن كان من أهل المَدَر[1] نقب في ظهر بيته ، منه يدخل ويخرج ، أو يتخذ سلماً يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوَبَر[2] خرج من خلف الخِباء[3] ...))[4] .

هذا ولم يَسُقِ الإمام الزَّمْلَكانيُّ شيئاً من الأحاديث والآثار للاستشهاد بها لغرض الإعجاز إنما أوردها كلها لأغراض أخرى أثناء كتابه .

١- أهل المدر: أهل المدن ؛ لأن مبانيها تُبنى بالمدر وهو الطين ، انظر ((لسان العرب)):مدر .

٢- أهل الوَبَر : أهل البوادي ، وذلك لأن بيوتهم يتخذونها من وَبَر الإبل وهو صوفها : انظر ((لسان العرب)): وبر .

٣- الخِباء من الأبنية هو ماكان من وَبَر أو صوف ولايكون من شعر ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وما فوق ذلك فهو بيت ، انظر ((لسان العرب)) : خبا .

٤- ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : ٢٦٥ .

وهذا الأثر أخرجه الإمام البخاري بألفاظ مقاربة بإسناده عن البراء رضي الله عنه قال :

((نزلت هذه الآية ، فينا ، كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها ، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابه فكأنه عُيِّرَ بذلك فنزلت ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾)) : كتاب الحج : باب قول الله تعالى : ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ : ٣ / ٩ - ١٠ .

وقد أورد الإمام ابن جرير في تفسيره آثاراً كثيرة قريبة في ألفاظها من الأثر الذي ساقه المصنف، انظر((جامع البيان)): ٣ / ٥٥٥ - ٥٦٠ .

رابعاً : ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) للسيد يحيى بن حمزة العلويّ

هذا كتاب يشترك مع كتاب السيوطيّ في خصائصَ تجعله أقرب الكتب للمقارنة من حيث الاستدلال ، ومنها :

١ - كِبَر حجم الكتاب ومقاربته لحجم ((معترك الأقران))[1] .

٢ - توسعه في ذكر المباحث البلاغية كصنيع السيوطيّ في ((المعترك)) .

٣ - كثرة ورود الآيات والأحاديث والآثار فيه كثرة نسبية إذا ماقورنت بما في الكتب الثلاثة السابقة .

أما منهجه في الاستدلال بالآيات فهو مماثل لمنهج الإمام الخطّابيّ الذي بيّنته آنفا[2] .

وأما الاستدلال بالأحاديث والآثار فقد أورد - رحمه الله تعالى - اثنين وثمانين ومائة حديث[3] ، عزا منها واحداً لصحيح البخاري .

١- الكتاب مطبوع في ثلاثة مجلدات ، فيها قرابة ١٣٠٠ صفحة .

٢- انظر ص ٦٣٧ - ٦٣٨ .

٣- انظر : ١/ ٢ ، ١٠ ، ٣٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٣ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ .

وانظر ٢ / ٦ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، ١٩٥ ، ٢١١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٤٩ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

وانظر : ٣ / ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٦٩ ، ٨٩ ، ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ٢١٦ ، ٣١٣ ، ٤٣٦ ، ٤٥٥ .

وأورد أربعةً وأربعين ومائة أثر ، لم يَعْزُ أيًّا منها[1] ، فيكون مجموع ماأورده من أحاديثَ وآثار ستةً وعشرين وثلاثمائة حديث وأثر ، وهو عدد كبير .

أما الحديث الذي عزاه لصحيح البخاري فقوله :

((وقوله – صلى الله عليه وسلم – فيما ورد في صحيح البخاريّ في صفة النار ، وأن الجبار يضع قدمه في النار))[2] .

ونص الحديث كما أخرجه الإمام البخاريّ هو :

((عن أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال :

لايزال يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضعَ فيها ربُّ العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض ...))[3] .

ولقد كانت المباحث البلاغية وافرة في كتاب ((الطِّراز)) ، وكان مراد المصنف من ذلك تسهيل السبيل لفهم مباحث الإعجاز التي ساقها في آخر الكتاب كما بينت ذلك من قبل[4] ؛ لذا يصح أن يقال إن استشهاده بالأحاديث والآثار كان استشهاداً غَرَضيًّا في معظمه وأكثره ؛ أو هو استشهاد يخدم الغرض الذي سيق الكتاب من أجله وهو الإعجاز ؛ فقد أكثر من إيراد الإحاديث والآثار أثناء كلامه على مباحث البلاغة ، وهذا الضرب من الاستشهاد – بالاعتبار الذي سقته آنفاً ، وهو التمهيد لمباحث الإعجاز – يعدُّ استشهاداً غَرَضياً .

١- انظر : ١ / ٢٩ ، ٧٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٩ .

وانظر : ٢ / ٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٢٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٢٥ ، ٣٤٩ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠ ، ٣٨٠ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ .

وانظر : ٣ / ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٧٢ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦٠ .

٢- ((الطراز)) : ٣ / ٨ – ٩ .

٣- صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب قوله تعالى : وهو العزيز الحكيم : ٩ / ١٤٣ .

٤- انظر ص ٢٠٢ .

و لم يمنعه ذلك أن يورد بعض الأحاديث والآثار عرضاً كقوله :

((وفي الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اتقوا الغضب فإنه يُوقد في فؤاد ابن آدم النار ، ألاترووه[1] إذا غضب كيف تحمرُّ عيناه وتنتفخ أوداجه[2]))[3] .

١- كذا وردت في المطبوع ، والوجه : ترونه .

٢- الأوداج جمع وَدَج : عرق في العنق ، انظر ((لسان العرب)) : و د ج .

وهذا الذي ساقه المصنف جزء من حديث طويل أخرجه الإمام الترمذي في جامعه : كتاب الفتن : باب ماجاء ما أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة : ٤ / ٤٨٤ ، ومنه : ((... ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ...)) وقال الإمام الترمذي : حسن صحيح .

وقد أخرجه عن عمران بن موسى القزاز البصري : حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا علي بن زيد بن جُدعان القُرشيّ عن أبي نَضْرة عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه .

أما عمران بن موسى فهو صدوق . مات بعد الأربعين ومائتين . انظر ((التقريب)) : ٤٣٠ .

وأما حماد بن زيد فهو ثقة فقيه ثبت ، توفي سنة تسع وسبعين ومائة كما في ((التقريب)) : ١٧٨ .

أما علي بن زيد بن جُدعان فهو ضعيف ، توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة ، انظر ((التقريب)) : ٤٠١ .

وأما أبو نضْرة فهو المنذر بن مالك بن قُطَعة العبديّ ، ثقة مات سنة ثمان أو تسع ومائة . انظر ((التقريب)) :٥٤٦ .

فالحديث - بهذا الإسناد - ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان ، لكن سبق ذِكر أنّ الترمذيّ حكم على الحديث بأنه حسن صحيح ، وذلك لأن الترمذي حكم على عليّ بن زيد بأنه صدوق كما في ((تهذيب التهذيب)) : ٢٨٤/٧ .

٣- انظر ((الطراز)) : ٣ / ١٦١ - ١٦٢ .

نظرة إجمالية :

يتضح مما سبق أن منهج أصحاب كتب الإعجاز الأربعة المذكورة في الاستدلال بالأحاديث والآثار هو الآتي :

١ – سياق السند تارةً وإغفال ذلك أخرى ، وذلك عند الإمامين الخطابيّ والباقلانيّ ، أما الإمامان الزمْلَكاني والعلويّ فلم يذكرا إسناداً ، وربما كان ذلك لتأخر زمانهما .

٢ – عزو الحديث والأثر أحياناً وإغفال ذلك في أكثر ماورد عند الإمامين الزمْلَكاني والعلويّ من أحاديثَ وآثار ، أما الإمامان الخطّابيّ والباقِلاَنيّ فلم يعزوا ماأورداه من أحاديثَ وآثار أيضاً .

٣ – عدم الحكم على الحديث والأثر إلا فيما ندر .

٤ – قلة الاستشهاد بالأحاديث والآثار عند أصحاب الكتب السابقة ، ماعدا الإمام يحيى بن حمزة العلوي .

المقارنة بين كتاب ((معترك الأقران)) والكتب الأربعة من حيث الاستدلال :

قد تحدثت عن منهج الإمام السيوطي بالاستدلال بالآيات والأحاديث والآثار فيما سبق[١] ، وبينت أن الآياتِ والأحاديثَ والآثار كانت كثيرة كثرةً واضحة في كتابه ، حيث بلغت الآيات مئات ، والأحاديث والآثار جاوزت الألف[٢] ، والسبب في هذا يعود إلى الآتي :

١– انظر ص ٤٦٥ وما بعدها .

٢– انظر ص ٤٨١ وما بعدها .

١ - التوسع في ذكر مباحث لاتعلق لها بالإعجاز عند الإمام السيوطي ؛ مثل مباحث أصول الفقه التي توسع في إيرادها ، ومثل مبحث المبهمات وفيه عشرات الأحاديث والآثار ، وهكذا ، وقد بينت هذا بالتفصيل سابقاً[١] .

٢ - تأخر زمان الإمام السيوطيّ وكونه محدثاً مشهوراً اجتمعت عنده كثير من كتب الحديث والأثر عاملان مهمان في إكثاره من إيراد الأحاديث والآثار .

أما إذا قورن كتاب الإمام السيوطيّ بما في الكتب السابقة فإنه يتضح الآتي :

أولاً : أورد الإمامان الخطّابيّ والباقِلاَنيّ عدداً من الأحاديث والآثار بإسناد هما المتصل بينما لم يفعل ذلك الإمام السيوطي ، وهذا عائد لتأخر زمانه حيث إن الأحاديث والآثار قد دونت في الكتب ولم تعد بالعلماء المتأخرين حاجةٌ لإثبات أسانيدهم فيما يوردونه .

ثانياً : تفرد الإمام السيوطيّ بالحكم على عدد كبير من الأحاديث والآثار التي أوردها[٢] ، بينما لم يصنع ذلك أحد من أصحاب كتب الإعجاز الأربعة المذكورة إلا نادراً .

ثالثاً : أكثر الإمام السيوطيّ من عزو مايورده من أحاديث وآثار[٣] ، بينما قلّ ذلك عند غيره أو انعدم .

١- انظر ص ٤١٦-٤١٧ ، ففيهما إحالات على تلك المباحثِ التي لا تعلق لها بالإعجاز .

٢- انظر ص ٤٧١ وما بعدها .

٣- انظر ص ٤٦٨ وما بعدها .

رابعاً : اشترك الإمام السيوطي ويحيى بن حمزة العلوي في الإكثار من حشد الأحاديث والآثار التي تدل على مايذهب إليه كلٌّ منهما في كتابه من آراء ، بينما كان أصحاب الكتب الباقية يكتفون بإيراد عدد قليل من الأحاديث والآثار ، وكثيراً مايكتفون بإيراد حديث أو أثر واحد فقط في المسألة ، وربما لايوردون فيها شيئاً.

خامساً : قد أكثر الإمام السيوطيّ والإمام يحيى العلويّ - رحمهما الله تعالى - من إيراد الأحاديث والآثار للاستشهاد بها على الإعجاز ، بينما قلَّ ذلك عند الإمام الباقِلاَنيّ ، وكان استشهاد الإمام الخطّابيّ والإمام الزَّمْلَكانيّ بالأحاديث والآثار عَرَضاً في أثناء مُصَنَّفَيْهما .

المبحث الرابع
المقارنة من حيث المصادر والمراجع

قد بينتُ سابقاً أن الإمام السيوطيّ – رحمه اللـه تعالى – قد رجع إلى عدد كبير من المصادر والمراجع ، بلغ قرابة سبعين ومائة كتاب في علوم شرعية ولغوية وتاريخية متنوعة[1] .

واستعانة غيره بالمصادر والمراجع نزر يسير إذا ماقورنت بما استعان به منها ، ولأدلل على هذا فإني سأبين استعانة ثلاثة من المصنفين بالمصادر والمراجع لمناسبة حجم كتبهم كتاب الإمام السيوطيّ ؛ إذ أكثر كتب الإعجاز صغيرة الحجم ، وهؤلاء المصنفون هم :

الباقلانيّ وكتابه ((إعجاز القرآن)) ، والجُرْجانيّ وكتابه ((دلائل الإعجاز)) ، ويحيى بن حمزة العلويّ وكتابه ((الطِّراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) .

وسوف أبدأ بذكر كتاب ((الطِّراز)) لأنه أكبر حجماً من باقي الكتب .

والكتابان الآخران لم يقاربا كتاب ((المعترك)) ولاكتاب ((الطِّراز)) في الحجم ، وإنما أوردتهما مثلاً على مدى اعتماد مصنفَيْهما على مصادر ومراجع لعلماء سابقين ، ولِلكبرَ النسبيّ في حجمهما مقارنةً بكتب الإعجاز الأخرى .

قد أورد الإمام العلويّ في كتابه أربعة عشر مصدراً ومرجعاً[2] فقط على ضخامة الكتاب وكِبَر حجمه[3]؛ والسبب في هذا أن الكتاب مصنَّف في غالبه من كلام الشيخ – رحمه اللـه تعالى – بعكس كتاب السيوطي الذي كان معتمداً في

١- انظر ص : ٤٣١ ، ٤٣٣ من هذا البحث .

٢- انظر : ١ / ٣ ، ١٣٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٠ ، ٣٠٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٧ .
وانظر : ٢ / ٣٨ ، ١٢٩ ، ٢٨٨ . وانظر : ٣/ ٨ .

٣- قد بلغ حجم الكتاب ألفاً وثلاثمائة صفحة تقريباً كما ذكرت سابقاً .

تصنيف أجزاء كبيرة منه على كلام من سبقه من العلماء ، وعلى مقاطعَ كبيرةٍ من كتبه ، كما بينت سابقاً[١] .

هذا وقد ذكر الشيخ كلّ أسماء الكتب التي نقل منها عدا كتب الحديث والأثر فقد ذكر منها كتابين فقط وأغفل ذكر الباقي[٢] .

وكان أكثر مصادره التي رجع إليها في اللغة والأدب .

((إعجاز القرآن)) للباقِلاَنيّ :

قد استعان الباقلاني بأربعة مصادرَ فقط في كتابه الذي بلغ حجمه قرابة أربعمائة صفحة .

وكل الكتب التي أوردها الإمام الباقِلاَني إنما هي في اللغة والأدب[٣] .

هذا وقد ذكر الإمام الباقِلاَنيّ أسماء المصادر التي رجع إليها فلم يُغفلها .

((دلائل الإعجاز)) للشيخ عبد القاهر الجُرجاني :

قد استعان في كتابه هذا - الذي يبلغ قرابة ستمائة صفحة - بأحدَ عشرَ مصدراً ومرجعاً فقط .

وكل تلك المرجع والمصادر إنما كانت في علوم اللغة والأدب فقط[٤] .

هذا وقد ذكر الإمام الجُرْجاني أسماء المصادر التي رجع إليها فلم يُغفلها .

١- انظر ص ٢٣١ - ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٥ .

٢- انظر : ١ / ٤١٧ ، ٣ / ٨ .

٣- انظر فهرس الكتب الذي صنعه أحمد صقر في تحقيقه لكتاب الباقلاني : ص٣٧٢ . ولْيعلم أنه أورد ثمانية عشر كتاباً ذكرها الباقلاني في كتابه ، أربعة عشر منها ليست مصدراً أو مرجعاً للباقلانيّ إنما ذكرها عَرَضاً ومَثَلاً فقط ، والكتب الأربعة التي رجع إليها هي : ((البيان والتبيين)) للجاحظ ، و ((الحماسة)) لأبي تمام ، و ((الدرة)) و ((اليتيمة)) وكلاهما لابن المقفع .

٤- انظر فهرس الكتب الذي صنعه الأستاذ محمود شاكر في تحقيقه لهذا الكتاب ص ٦٦٩ ، وقد ذُكر في ذلك الفهرس كتابان ليسا مما يعد مصدراً للجرجاني إذ ذَكَرهما عرضاً ، وهما ((الجمهرة)) لابن دريد ، ذكره في : ص ٥٠ ، وكتاب ((العين)) للخليل ، ذكره في صفحة ٥٠ أيضاً .

وبالمقارنة بين كتاب السيوطي والكتب الثلاثة الماضية يتبين الآتي :

١ - السيوطي يعتمد على النقل ويكثر منه بينما لم يكن غيره كذلك ، ولعل ذلك مرده إلى أن الباقلاني والجُرْجانيّ كانا مؤسِّسيْنِ لكثير مما أورداه من مباحث فلم يحتاجا إلى كثير نقلٍ من كتب غيرهم ، وحال يحيى العلويّ قريب من حالهما ، بينما لم يكن الأمر عند السيوطيّ كذلك ؛ إذ غالب ماأورده من مباحثَ إنما هو مما فُرِغ من تأسيسه وتقعيده .

٢ - كان النقل من المصادر والمراجع عند أصحاب الكتب الثلاثة نقلاً محدوداً لايتعدى سطوراً قليلة أو كلماتٍ بينما يبلغ النقل عند السيوطيّ صفحاتٍ مطولةً في كثير من الأحيان ، وقد بينت ذلك من قبل[1].

٣ - يقل عند المصنفين الثلاثة جداً عدمُ ذكر المصدر أو إغفالُ القائل بينما كثر ذلك عند السيوطيّ كما بينت من قبل[2] .

٤ - استعان الإمام السيوطيّ بمصادرَ ومراجع كثيرة في مباحثَ بعضُها لايَمُتُّ للإعجاز بصلة ، وبعضٌ منها يلحق بالإعجاز بشيء من التكلف ، بينما كانت أكثر استعانة المصنفين الثلاثة بالمصادر والمراجع في مباحثَ لها صلة قوية بالإعجاز أو هي منه .

تلك المباحث الأربعة السابقة الذكر بينت الفرق بين منهج الإمام السيوطيّ - رحمه الله تعالى - ومنهج غيره ممن سبقه من العلماء ، رحمهم الله جميعاً .

١- انظر ص ٢٩٥ .

٢- انظر ص ٢٩٤ ، ٢٩٦ .

الفصل الثاني

المقارنة بين منهج السيوطيّ وبين مناهج المؤلفين بعده

المبحث الأول : المؤلفات التي سارت على نمط الكتب السابقة .

المبحث الثاني : المؤلفات التي جاءت بأمور جديدة تناسب العصر

تمهيـــد

ظل المسلمون قروناً طويلة أساتذةَ الدنيا ومعلميها ، وكان لهم في حقل التصنيف جهودٌ لاتنسى على مرّ الزمان ، ولاتَبلى بكرّ الأيام ، ومن أهم مااعتنوا به كتابُ الله العزيز ، فأكثروا البحث في مختلف جوانبه والتنقيب عما فيه من جواهرَ ودرر ، حتى ليخيل للناظر في تلك الجهود المباركة أن المصنفين لم يَدَعوا شيئاً يخص القرآن إلا وبحثوا فيه .

ثم إنه لما أصاب العالَمَ الإسلاميّ جميعَه الركودُ والغفلة - وكان ذلك بعد القرن العاشر - ركن المسلمون إلى ماعندهم من مصنفات سلفهم وجمدوا عليها إلا ماكان من جهود مكرَّرة هنا وهنالك ، لاتساوي ولاتُسامي تلك الجهودَ القوية التي بُذلت في القرون الماضية ، ولم يكن في ساحة المسلمين مايحفزهم ويستفزّ هممهم للكتابة في بحوث قرآنية جديدة .

حتى إذا احتل الكافرون بلادهم ، أنزلوا في ساحتهم مايسوؤهم من مستشرقين ماكرين ، ومنصّرين طامعين ، وأعداء حاقدين صاروا يتطاولون على القرآن العظيم ، ويطعنون في مصدره الإلهي ويشككون فيه ، وتبعهم في ذلك أذنابٌ مستغربون ، حتى إذا حدث هذا كله وُجد الحافز ، واستُفز علماء المسلمين ، فقاموا للذب عن دينهم ، وحماية قرآنهم ، وبيان إعجازه وعظمته ، وأنه من لدن الله الحكيم العظيم ، فأخذت المصنفات تترى تباعاً لتتصل سلسلة التآليف المباركة مرة أخرى .

وسيظهر هذا بوضوح في المبحث الثاني المخصص للكتب التي صُنفت في القرن الفائت ، أما المبحث الأول فإنه يبين حال التصنيف في الإعجاز في حقبة من الزمان تلت عصر السيوطي وامتدت لتشمل القرن الثالث عشر .

المبحث الأول

المؤلفات التي سارت على نمط الكتب السابقة

والمقصود بهذا الكتبُ التي أُلّفت في الإعجاز في القرون الأربعة التالية لعصر السيوطيّ والمؤلفة على غرار منهج السيوطي ومن سبقه .

وقد بحثت كثيراً عن مصنّف مستقل بالإعجاز مطبوع أو مخطوط ، فلم أجد ذلك فيما بحثت فيه من مظانّ ، وسبب ذلك قد قدّمته في التمهيد ، وإنما وجدت كلاماً عن الإعجاز مبثوثاً في بعض كتب التفسير ، وقد اخترت منها كتابين لأتكلم بإيجاز عمّا فيهما من الكلام على الإعجاز ، وهذان الكتابان هما :

١ - ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)) للشيخ أبي السعود العماديّ رحمه الله تعالى .

٢ - ((روح المعاني)) للآلوسيّ ، رحمه الله تعالى :

أما الكتاب الأول - تفسير أبي السعود - فهو ((غاية في بابه ، ونهايةٌ في حسن الصَّوْغ وجمال التعبير ، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية بما لم يسبقه أحدٌ إليه ، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسيرِ بين أهل العلم))[1] .

١- ((التفسير والمفسرون)) : ١ / ٣٤٧ .

((والكتاب دقيق غايةٌ في الدقة ، بعيد عن خلط التفسير بما لم يتصل به))[1] .

و لم يتكلم المصنف على مباحث الإعجاز التفصيلية ، إنما اكتفى بعرض الإعجاز البلاغي في القرآن ، وبيانِ مافيه من سمو في النظم والأسلوب ((فهو يهتم بأن يكشف عن نواحي القرآن البلاغية ، وسرِّ إعجازه في نظمه وأسلوبه))[2] .

وقد ذكر المصنف وجوه الإعجاز في القرآن مرة واحدة - فيما اطلعت عليه من الكتاب - فقال :

((القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ، ومن جهة الإخبار بالغيب))[3] .

هذا وقد تكلم الإمام أبوالسعود على بعض معاني الإعجاز في مواضعَ من كتابه ، منها :

أولاً : عند تفسير قوله تعالى :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾[4] ، فقال :

((والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع أنهم جازمون بكونه من كلام البشر ... إما للإيذان بأن أقصى مايمكن صدوره عنهم وإن كانوا في غاية مايكون من المكابرة والعناد هو الارتياب في شأنه ... وإما للتنبيه على أن جزمهم ذلك بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح دلائل الإعجاز ونهاية قوتها))[5] .

وقوله :

((والأمر في قوله تعالى :

١- المصدر السابق : ١ / ٣٤٩ .

٢- المصدر السابق : ١ / ٣٥٢ .

٣- ((إرشاد العقل السليم)) : ٤ / ١٤٦.

وانظر حديثه عن الإعجاز في : ١ / ٦٣ - ٦٦ ، ٤ / ١٤٦ ، ١٩١ - ١٩٢ ، ٥ / ١٩٣ - ١٩٤ ، ٨ / ١٥٠- ١٥١ .

٤- سورة البقرة : آية ٢٣ .

٥- ((إرشاد العقل السليم)) : ١ / ٦٣ .

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ من باب التعجيز وإلقام الحجَر ... كأن قيل : إن كان الأمر كما زعمتم من كونه كلامَ البشر فأتوا بمثله لأنكم تقدرون على مايقدر عليه سائر بني نوعكم))[1] .

وقوله :

((و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ مِن مِّثْلِهِۦ ﴾ بيانية متعلقة بمحذوف وقع صفة لسورة ... أي بسورة كائنة من مثله في علو الرتبة ، وسموّ الطبقة ، والنظمِ الرائق ، والبيان البديع ، وحيازة سائر نعوت الإعجاز ...))[2] .

وقد أخذ المصنف في بيان معاني الإعجاز في هذه الآيةِ على هذا المنوال .

ثانياً : عند تفسير قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] فقال :

((إن كان الأمر كما تقولون فأتوا بسورة مثله أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعنى – على وجه الافتراء – فإنكم مثلي في العربية والفصاحة ، وأشدُّ تمرناً مني في النظم والعبارة ...))[4] .

وهكذا ساق المصنف الكلام على الإعجاز – هنا وفي سائر المواضع في كتابه – على هذا النسق من الإجمال والإشارة دون التفصيل والتبيين .

٢ – أما ((روح المعاني)) للآلوسي ، فهو كتاب مشهور معروف ، تكلم فيه مصنفه على الإعجاز في أماكنَ متعددةٍ من تفسيره ، منها :

أ – في المقدمة ، حيث خصص مبحثاً منها بعنوان : ((بيان وجه إعجاز القرآن)) ، ذكر فيه بعض وجوه الإعجاز[5] ، وألخصها بالآتي :

١ – النظم البليغ والوزن العجيب والأسلوب الفائق أساليبَ العرب .

١- المصدر السابق : ١ / ٦٤ .

٢- المصدر السابق .

٣- سورة يونس : آية ٣٨ .

٤- ((إرشاد العقل السليم)) : ٤ / ١٤٦ .

٥- انظر ((روح المعاني)) : ١ / ٢٧ - ٣٣ .

٢ – البلاغة .

٣ – اشتماله على الأخبار الغيبية .

٤ – كونه – مع طوله – غيرَ متناقض ولامختلف .

٥ – موافقته لقضية العقل ودقيق المعنى .

٦ – إعجازه من جهة قِدَمه[١] .

٧ – الصَّرفة .

٨ – الإعجاز بجملة وجوه .

وقد ناقش الآلوسيّ تلك الأوجه مناقشة مستفيضة ، وأورد بعضاً من اعتراضات العلماء على بعضها ، وردّ كثيراً منها ردّاً حسناً ، ثم إنه اختار منها أربعة أوجه رأى أن القرآن إنما صار معجزاً بها ، وهي مجموعة في قوله :

((والذي يخطر بقلب هذا الفقير أن القرآن بجملته وأبعاضه حتى أقصر سورة منه معجزٌ بالنظر إلى نظمه ، وبلاغته ، وإخباره عن الغيب ، وموافقته لقضية العقل ودقيق المعنى ، وقد يظهر كلها في آية[٢] ، وقد يستتر البعض كالإخبار عن الغيب ، ولا ضَيْرَ ولاعيب ، فما يبقى كافٍ ، وفي الغرض واف))[٣] .

ثم قال :

((وهذه الأوجه الأربعة هي الظاهرة في وجه إعجاز القرآن ...))[٤] .

١- تكلمت على هذه المسألة قبل هذا فلتنظر في صفحة ١٢٨ ومابعدها .

٢- أي قد تظهر كل الأوجه التي ذكرها في آية واحدة .

٣- ((روح المعاني)) : ١ / ٣١ .

٤- المصدر السابق : ١ / ٣٢ .

ب - وقد تحدث عن الإعجاز أيضاً عند تفسيره لآيات التحدي[1] كقوله عند الكلام على آية : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [2] حيث قال :

((... إن كان الأمر كما زعمتم فأتوا من عند أنفسكم أو ممن تقدمكم من فصحاء العرب وبلغائها ... بسورة مماثلة له في صفاته الجليلة ، فحيث عجزتم عن ذلك مع شدة تمرنكم و لم يوجد في كلام أولئك - وهم الذين نصبت لهم المنابر في عكاظ الفصاحة والبلاغة[3] ، وبهم دارت رحا النظم والنثر ... - دل على أنه ليس من كلام البشر بل هو من كلام خالق القوى والقُدر))[4] .

وقال أيضاً في هذه الآية :

((وفي هذه الآية دلالةٌ على إعجاز القرآن لأنه - عليه الصلاة والسلام - تحدى مصاقع[5] العرب بسورة منه فلم يأتوا بذلك وإلا لنقل إلينا لتوفر الدواعي إلى نقله))[6] .

وقد تكلم على ترتيب آيات التحدي كلاماً حسناً [7] عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[8] .

١- انظر : ١ / ١٩٢ - ١٩٧ ، ١١ / ١١٨ - ١١٩ ، ١٢ / ٢٠ - ٢١ ، ١٥ / ١٦٦ - ١٦٧ ، ٢٧ / ٣٧ .

٢- سورة يونس : آية ٣٨ .

٣- في السياق قلقٌ ظاهر أو سقطٌ أدى إليه ، والمعنى مفهوم .

٤- ((روح المعاني)) : ١١ / ١١٨ .

٥- المِصْقَع : البليغ ، انظر ((لسان العرب)) : ص ق ع .

٦- ((روح المعاني)) : ١١/ ١١٩ .

٧- انظر ص ٥٤ وما بعدها من هذه الرسالة .

٨- سورة هود : آية ١٣ .

ثم إنه نقل قول من قال :

((استُدل بهذه الآيةِ على أن إعجاز القرآن بفصاحته لاباشتماله على المغيَّبات وكثرة العلوم ؛ إذ لو كان كذلك لم يكن لقوله سبحانه : ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ معنى ، أما إذا كان وجه الإعجاز الفصاحة صح ذلك ، لأن فصاحة الكلام تظهر إن صدقاً وإن كذباً ... نعم ماذكر إنما يدل على صحة كون وجه الإعجاز ذلك ، ولايمنع احتمال كونه الأسلوبَ الغريب وعدم اشتماله على التناقض كما قيل به))[1] .

كانت تلك نبذة عن مباحث الإعجاز في كتاب ((روح المعاني)) .

وإذا أريدمقارنة مافي هذين الكتابين : ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)) ، وكتاب ((روح المعاني)) مع كتاب ((معترك الأقران)) فإنه يجب أن يُلحظ أن كتاب ((معترك الأقران)) مستقل بالإعجاز بينما الكتابان الآخران ليسا كذلك ، فالحديث عن الإعجاز في كتابي التفسير جاء محدداً ومختصراً ، بينما توسع السيوطي في ((معترك الأقران)) توسعاً كبيراً ، فلهذا كله لايصح مقارنة ذينك الكتابين بكتاب الإمام السيوطيّ في الاستدلال بالآيات والأحاديث ، أو إيراد كلام العلماء من المصادر والمراجع ، أو من حيث المنهج في التأليف .

المقارنة بين الكتب الثلاثة :

أولاً : لم يأت أبو السعود – رحمه الله تعالى – بكلام متعلق بمباحث الإعجاز إلا في مواضعَ يسيرة، بينما توسع السيوطي والآلوسي في ذكر تلك المباحث .

ثانياً : سلك أبو السعود مسلك السيوطيّ في بيان بلاغة القرآن العظيم وقوةِ نظمه وأسلوبه ، إلا أن السيوطيّ أفرد مباحث البلاغة أوجهاً للإعجاز ، محدداً بذلك مرادهَ تحديداً واضحاً بيناً ، بينما الباحث عن الإعجاز في كتاب أبي السعود كغائص البحر باحثاً عن درره .

١- ((روح المعاني)) : ١٢ / ٢٠ – ٢١ .

ثالثاً : على أن كتاب ((روح المعاني)) ليس مستقلاً بالإعجاز إلا أن مباحث الإعجاز فيه قوية واضحة ، فيها نقد قويّ لما يحتاج إلى النقد من كلام العلماء ، وفيه ذِكرٌ لوجوه الإعجاز وبيانِ المختارِ منها ، بينما لم يكن الأمر كذلك في كتاب السيوطي ولافي كتاب أبي السعود ، رحمهم الله جميعاً .

رابعاً : كان أسلوب أبي السعود قويّاً رصيناً ، دقيقاً في بعض أنحائه دقةً قاربت حدّ الغموض ، يليه في هذا العلاّمة الآلوسيّ ، بينما أسلوب السيوطي يغلب عليه السهولة في مباشرة المعاني وطَرْق المراد ، وقد بينت هذا سابقاً[1] .

١- انظر ص ٤٢٢ وما بعدها .

المبحث الثاني :

المؤلفات التي جاءت بأمور جديدة تناسب العصر

كان لقدامى المصنفين - رحمهم الله تعالى - الفضلُ والسبق في إظهار جوانبَ مهمةٍ من الإعجاز القرآني ، وكان الإعجاز اللغويُّ البيانيّ أهمَّ ماطرقه المصنفون القدامى وأظهروه وبينوه ، لكن الله - تعالى - ادّخر من الفضل والتوفيق لعلماء القرن الرابع عشر الشيءَ الكثير ، حتى أنّ أحد الباحثين وصف هذا القرن بأنه العصر الذهبيّ الثاني للتأليف في الإعجاز ، حيث إن العصر الذهبي الأول عنده هو القرن الخامس ((نظراً لما أضافه الباقلاني والجرجاني من أفكار))[1] .

والناظر في مصنفات أهل القرن الفائت في موضوع إعجاز القرآن يعلم أن هذه مقولةٌ صحيحة لامبالغة فيها ؛ إذ أن كثيراً منَ المصنفين في الإعجاز - خاصة بعد القرن الخامس - لم تسلم مصنفاتهم تلك من الترداد والتكرار لِما سبق أن قَعّده وتكلم فيه كبار المصنفين من أمثال الخطّابيّ والباقِلّاني والجُرجانيّ - رحمهم الله جميعاً - حتى جاء السيوطي ، رحمه الله تعالى ، فتوجهت همته إلى جمع ماقاله مَن سبقه مع شيء من التحرير والإضافة ، كما سبق بيان ذلك[2] .

ثم إن مَن أتى بعده طيلة أربعة قرون أو تزيد لم يأت بشيء ذي بال ، بل إننا لانكاد نعلم عن شيء من مصنفات تلك القرون الفوائت ، لأنها كانت قرونَ ضعف وركود في كل مناحي الحياة تقريباً ، وأصاب التفكيرَ العلميَّ فيها ماأصاب غيره من جمود وهمود ، حتى لكأن الأمة الإسلامية لم تشارك الأمم في حياتها تلك السنواتِ الطوال .

١- الدكتور صلاح الخالدي في كتابه : ((البيان في إعجاز القرآن)) : ١٢١ .

٢- انظر ص : ٤١٤ وما بعدها .

ثمّ استيقظت هذه الأمة العظيمة بعد سبات طويل لتجد نفسَها قد فاتها مايفوت النائمَ بقدر نومه ، وهاهي هذه الأمة التي نامت طويلاً - إلا ماكان من وخز حركات الإصلاح المحدودة لها لتستيقظ - قد أفاقت ففزعت لما فاتها فأخذت تحاول اللحاق بالركب لتتبوأ المكانة اللائقة بها ، فأخذ علماؤها ومفكروها يبرزون عظمتها وحضارتها وعظمة دينها وكتابها حتى يطردوا من أذهان الناس وهمَ النقص الناشئَ من غلبة الاستعمار عليها[1] : الغلبة العَسكرية والغلبة الفكريّة .

وقد أسهمت هذه الجهود المباركة في دحر الاستعمار ويقظة الأمة ، ثم صارت هذه اليقظة صحوة قوية مباركة نشهدها هذه الأيام ، وستصير هذه الصحوة - بإذن الله - لما قدره الله تعالى لها أن تصير فتعود العزة لهذه الأمة المباركة وتصبح لها الصدارة والسيادة من جديد .

وقد قلت إن علماء الأمة ومفكريها أبرزوا - فيما كتبوه - عظمة هذا الكتابِ العظيم ، فكان من أبرز مادل على عظمته وتفرده هو بقاؤه وسناؤه وخلوده وعدم تأثره بكرور الليالي والأيام ، الأمر الذي تفرد به بين معجزات سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام .

والمؤلفات التي أُلفِّت في القرن الفائت - وقتَ يقظة الأمة وتأثرها بنداءات وأعمال المصلحين - عليها سمات بارزة تُعرف بها وهي من لوازم ذلك العهد المبارك ، فمنها :

١ - التأكيد على عظمة هذا الكتاب ، وأن الأمة وإن كانت بمجموعها قد ضعف عندها الحسُّ ببلاغة هذا القرآن إلا أنه مازالت ألفاظه وقوة جرسه تعمل عملها في القلوب[2] .

١- قد جاريت في هذا المصطلح السائدَ من التعبير وتنزلت معه ، وإلا فهو خراب ودمار في أكثر جوانبه .

٢- انظر ((النبأ العظيم)) : ١٠١ - ١٠٤ .

٢ – تعميق الحس بأن هذا الكتابَ من عند الله – تبارك وتعالى – لامدخل للبشر فيه ولايستطيعه أحد منهم ، ويتبين هذا الأمرُ في كثرة ردود من صنف في ذلك الزمان على الشبهات الواردة بأن هذا الكتابُ من صنع البشر وليس من عند الله ، تعالى الله عما يقولون وتقدّس ، وما كان هذا ليكون لولا طول مكوث الكافرين – مستشرقين ومستغربين – في أماكن التأثير على العقول والقلوب[1] .

٣ – إظهار موقف منصفي الكافرين من هذا القرآن العظيم وإعجازه ، وأن المنصف الحق لايملك إلا أن يقف مثل هذا الموقف[2] .

٤ – بيان رجوع الأمم إلى الحق الذي جاء به هذا القرآن العظيم في جوانبَ كثيرة ، ولو أنهم لم يصرحوا – إلا في أحيان قليلة – بأن رجوعهم هذا كان إيثاراً لما في هذا الكتابِ العظيم من قوة في الإصلاح والتشريع[3] .

٥ – المباحث الجديدة التي قررت وجوهاً للإعجاز ما كانت معروفةً من قبل وقد تفرد بذكرها وكشفها القرآن العظيم منذ قرون طويلة ، وذلك نحو الإعجاز العلمي والإعجاز التشريعي :

((فمن المقرر أن القرآن ماجاء أصلاً إلا للهداية وتقرير منهاج الله لعباده ، وشريعته للناس ، وما جاءت وجوه الإعجاز اللغوي أو العلمي والتاريخي إلا لخدمة هذا الأصلِ واستمالةِ وجوه الناس إليه ...))[4] .

و ((الإعجاز التشريعي هو المعجزة الدائمة التي تتحدى البشر في كل زمان ومكان ، خاصة في عصور الغرور العلمي والفكريّ والمذهبيّ الذي يسود العالم

١- انظر – مثالاً – ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٣١٦ – ٣٣٣ ، ((والنبأ العظيم)) : ٢٠ – ٦٩ .

٢- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٣٠٧ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٢٤٨ – ٢٤٩ .

٤- ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) : ٤٨ .

الآن ، أما الإعجاز اللغوي فهو كذلك صالح إلى يوم الدين ، ولكن لايوجد أحد على وجه الأرض يصلح أن يكون أهلاً لتحدي القرآن الآن كما كان العرب في أوج فطرتهم البلاغية وسليقتهم البيانية حين نزل القرآن ، والإعجاز أظهر مايكون حين يتحدى الناس في أقدارهم التي برعوا فيها وظنوا أنهم وحدهم القادرون عليها))[1] .

والإعجاز العلمي مهم - أيضاً - في مخاطبة الناس وإظهار مافي القرآن من تفوق علميّ حتى على المكتشفات الحديثة التي ظن مكتشفوها أنهم أتوا بما لا قِبَل للناس به ولا يعرفونه ، فإذا بهم يفاجأون بأن ماجاؤوا به قديم معروف منذ مئات السنين ثابتٌ في هذا الكتاب العظيم ، وكم من العلماء الكبار قد عقدت الدهشة ألسنتهم فأسلموا لله رب العالمين ، وعرفوا أن هذا الكتابُ معجز لايصح أن يكون منسوباً لبشر أبداً .

والحق إن هذه الجوانبَ الخمسة السابقة لهي مما تفردت به الكتب المصنفة في القرن الفائت إلى حد كبير ، بل إن بعض هذه الجوانبِ قد تفردت به تلك الكتب مطلقاً مثل الجانبين الرابع والخامس .

وقد رأيت أن أتحدث عن ثلاثة مصنفات طرقت الإعجاز انفرد منها واحد بطرقه للإعجاز على انفراد ، وشاركت الاعجازَ علوم أخرى في المصنفين الآخرين .

أما ما كان خالصاً للإعجاز فهو كتاب ((النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن)) للشيخ الدكتور محمد عبد الله دِراز ، رحمه الله تعالى ، والكتابان الآخران هما : كتاب ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) للشيخ محمد عبد العظيم الزُّرقاني ، رحمه الله تعالى ، وكتاب ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، رحمه الله تعالى .

١- المصدر السابق : ٤٨ - ٤٩ ، وانظر ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٤٧ وما بعدها .

وهذه الكتب الثلاثة المختارة تُعدّ صورة صادقةً للمؤلفات في الإعجاز في القرن الفائت لِما تفرد به كلٌّ منها في جوانب مهمة من دراسة الإعجاز[1] .

ثم إني بعد فراغي من ذكر مناهج المصنفين الثلاثة سأعقد - إن شاء الله تعالى - مقارنة بين تلك المناهج ومنهج السيوطي .

١- لكتابيْ ((في ظلال القرآن)) و ((التصوير الفني في القرآن)) للأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - فضلٌ لاينكر في بيان الإعجاز ، لكن قد كفاني مؤونة تبيان ذلك عدد من المصنفات كان من أهمها دراسات د . صلاح الخالدي ، فلم أشأ أن أكرر ماسبق شرحُه وافياً .

أولاً : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية [1] :

للأستاذ مصطفى صادق الرافعيّ ، رحمه الله تعالى

كان للأستاذ الرافعيّ - رحمه الله تعالى - فضلُ السبق في الكلام على الإعجاز في القرن الرابع عشر على هذا النحوِ من البسط والتوسع في العرض بذكر مباحثَ متعلقةٍ بالإعجاز تعلقاً مباشراً ، فقد جاء مبحث الإعجاز قسماً من أقسام الكتاب حيث إنه يحتوي مباحث قرآنية عديدة نحو : تاريخ القرآن ، والقراءات ، وآداب القرآن إلخ ...

هذا وإن جاء الإعجاز القرآني مبحثاً في كتاب الرافعي إلا أنه أكبر مباحث الكتاب حجماً[2] .

وقد قسم المصنف - رحمه الله تعالى - هذا المبحث إلى أقسام :

١ - معنى الإعجاز[3] .

٢ - أقوال في الإعجاز ، ضمنها أقوالَ العلماء في إعجاز القرآن من أهل السنة والمعتزلة ، وأقوال من أنكر الإعجاز إلخ ...[4]

٣ - ذِكر بعض المصنفات في الإعجاز[5] .

٤ - حقيقة الإعجاز[6] .

يريد بهذا ماانقدح في ذهنه هو من حقيقة الإعجاز بعد طول بحث وإطالة فكر .

١- قد رتبت الكتب الثلاثة بحسب وفاة مصنفيها : الرافعي ثم الزُّرقانيّ ثم دِراز ، رحمهم الله جميعاً .

٢- قد استغرق البحث في الإعجاز من صفحة ١٣٩ - ٢٧٥ ، والكتاب يقع في أربعين وثلاثمائة صفحة تقريباً .

٣- ص ١٣٩ - ١٤٠ .

٤- ص ١٤١ - ١٥٠ .

٥- ص ١٥٠ - ١٥٥ .

٦- ص ١٥٦ - ١٦٥ .

وهذا يحتاج إلى وقفة ؛ إذ أني أعملت الذهن فيما خرج به الرافعيُّ من حقيقة الإعجاز فلم أظفر بمراده كاملاً ، ولم أخرج من كلامه الطويل بتعريف محدد للإعجاز ؛ ذلك أنه يقول :

((أما الذي عندنا في وجه إعجاز القرآن ، وما حققناه بعد البحث ، وانتهينا إليه بالتأمل وتصفح الآراء وإطالة الفكر ، وإنضاج الروِيّة ، وما استخرجناه من القرآن نفسه في نظمه ووجه تركيبه واطّراد أسلوبه ، ثم ماتعاطيناه لذلك من التنظير والمقابلة ، واكْتناه الروح التاريخية في أوضاع الإنسان وآثاره ، ومانتج لنا من تتبع كلام البلغاء في الأغراض التي يُقصد إليها ، والجهات التي يعمل عليها ، وفي رد وجوه البلاغة إلى أسرار الوضع اللغوي،التي مرجعها إلى الإبانة عن حياة المعنى بتركيب حي من الألفاظ يطابق سنن الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع،وجمال التصوير،وشدة الملاءمة حتى يكون أصغر شيء فيه كأكبر شيء فيه ، نقول إن الذي ظهر لنا بعد كل ذلك واستقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين ينفى **الإمكان** بالعجز عن غير الممكن ، فهو أمر لاتبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولاجهة ...))[1] .

وقد سقتُ هذا النصَّ الطويل لبيان أن الرافعيّ – رحمه الله تعالى – لم يبين لنا حقيقة الإعجاز على هيئة تعريف محدد إنما خرج بالذي سقته آنفاً وحاصله أن الإعجاز القرآني لايستطاع تحديده – كالروح والنوم مثلاً – إذ كلٌّ من الإعجاز والروح والنوم فيه إعجاز من جهة هيئة الوضع لكن القرآن انفرد عنهما وعمّا يماثلهما بأن له مادة من الألفاظ هي التي يظهر فيها وجه هذا الإعجاز .

ثم إن الرافعي يمضي ليوكد أن ((القرآن معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنسانيّ ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لاتخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية مابقيت ، وقد أشرنا إليها في بعض الفصول

١- ((إعجاز القرآن)) : ١٥٦ .

المتقدمة ، على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربيّ))[1] .

فالرافعيّ - إذاً - يعلم أن هذه الأوجهَ الثلاثة المذكورة هي من إعجاز القرآن ولكنه لايريد الحديث عنها ، إنما يريد إظهار حقيقة إعجاز القرآن في ألفاظه نفسها وأثرها على السامع ويبين ذلك بقوله :

((على أنها ليست من غرضنا في هذا الباب وإنما مذهبنا بيان إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي ؛ لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير)) .

ويأتي الرافعيّ فيؤكد بعد هذا أنه لولا أن القرآن فصيح في ألفاظه إلى حد الإعجاز لما استطاع التأثير في العرب الذين كانت الفصاحة رأس مالهم وتجارتهم[2] ، وأتى بعبارة رائعة حيث قال :

((قامت فيهم بذلك دولة الكلام ، ولكنها بقيت بلا ملك حتى جاءهم القرآن))[3] .

ثم ذكر أن الذي غيّر طباع العرب فانقادت للإسلام وذلّت له إنما كان بسبب ((القرآن وإعجازه بنظمه وأساليبه ، وافتنانه على هذه الوجوه المعجزة التي أقل ماتوصف به أنها السحر بل السحر بعضها ... وليت شِعْري ماهو أمر المعجزة في العقل إن لم يكن هذا من أمره))[4] .

فالإعجاز عند الرافعيّ - إذاً - لايستطاع تحديده ولايوصف بأحسنَ من أنه معجز بالمعنى الذي يفهم من لفظ الإعجاز ، ولكن يُستأنس لفهمه بما تركه من آثار

١- ((إعجاز القرآن)) : ١٥٦ - ١٥٧ .
٢- المصدر السابق : ١٥٩ - ١٦٠ .
٣- المصدر السابق : ١٥٧ .
٤- المصدر السابق : ١٦٥ .

عجيبة في المؤمنين به والمتبعين له ، وهذه الآثار ساعد على ترسيخها في النفوس وتعميقها في شغاف القلوب ماكان عليه القرآن من الفصاحة التي لاتُستطاع والبلاغة التي في الذروة من النظم والافتنان في الأساليب ، وسيأتي الرافعيّ على هذا كله في الفصول القادمة التي ستأتي بعد هذا الفصل .

هذا ما حاولته في فهم كلام الرافعي في الإعجاز ، والله أعلم[١] .

٥ – التحدي والمعارضة[٢] :

قد ذكر الرافعيّ في هذا المبحث تحدي الله – تعالى – الكافرين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعض سور منه أو سورة منه ، وذكر من حاول الإتيان بمثل هذا القرآن العظيم فباء بالخيبة ، وذكر طرفاً من كلامهم الذي قاؤوه زاعمين به المعارضة .

٦ – أسلوب القرآن[٣] :

وهذا مبحث موصول بما قبله ؛ إذ أورد فيه سبب عدم معارضة القرآن بقوله :

((وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربيّ في كلام العرب كله ، ليس من ذلك شيءٌ إلا وهو معجز ، وليس من هذا شيءٌ يمكن أن يكون معجزا[٤] ، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة ، واعتقلهم عن الكلام فيها ، وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون ...

١– حاول عدد من الباحثين الخروج برأي محدد في الإعجاز عند الرافعيّ ، انظر : ((الإعجاز في دراسات السابقين)) للأستاذ عبد الكريم الخطيب : ص ٢٣٠ وما بعدها ، و ((فكرة إعجاز القرآن)) للأستاذ نعيم الحمصي : ص ٣٢٩ وما بعدها ، وتناوله للإعجاز عند الرافعي تناولٌ هشٌّ سريع لم يأت فيه بما ذكره الرافعي عن حقيقة الإعجاز ، وإنما حاكم الرافعيَّ إلى شيء لم يُرِدْه ولم يقصده في كلامه ، والله أعلم .

ودراسة الدكتور صلاح الخالدي : ((البيان في إعجاز القرآن)) لم يتعرض فيها إلى حقيقة الإعجاز عند الرافعي وإنما اكتفى بذكر مظاهر الإعجاز عنده ، انظر ص ١٢٣ – ١٢٤ .

٢– ((إعجاز القرآن)) : ١٦٦ – ١٨٧ .

٣– المصدر السابق : ١٨٨ – ٢٠٨ .

٤– الإشارة في ((هذا)) إلى كلام العرب ، كما يفهم من السياق .

فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقةً[1] فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق ، ليس في ذلك إعناتٌ ولامعاياة ، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها ، وكلماته في جملها ، ونسَق هذه الجمل في جملته مأأذهلهم عن أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة ، وخوف تقشعرّ منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية ، وتخلف الملكة المستحكمة ، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ماهم فيه ...))[2] .

وقد أخذ الرافعيّ ابتداءً من هذا المبحث بذكر مظاهر الإعجاز في كتاب الله - تعالى - وإنما قلت (مظاهر) و لم أقل (وجوه) لأن من مذهب الرافعي - الذي ذكرته آنفاً - أن الإعجاز حقيقة لاتصور ولاتكيف وإنما هو معجز على إطلاقه ، ويُفهم هذا الإعجاز بما يذكر من مظاهرَ دالةٍ عليه .

٧ - نظم القرآن[3] :

وقسّمه إلى ثلاثة أقسام : نظم الحروف ، ونظم الكلمات ، ونظم الجمل وسيأتي قريباً الكلام على هذه الأقسام .

٨ - غرابة أوضاعه التركيبية[4] :

وهو متعلق بالمبحث الذي سبقه - وهو نظم القرآن - والذي يليه ، وهو بلاغة القرآن ، حيث اجتمع لألفاظ القرآن من قوة التركيب ومن قوة البلاغة ما لم يتفق للعرب بعضه ولاقليل من بعضه[5] .

١- التساوق هو المتابعة ، انظر ((لسان العرب)) : س و ق .

٢- المصدر السابق : ١٨٨ - ١٨٩ .

٣- ((إعجاز القرآن)) : ٢٠٩ - ٢٤٨ .

٤- المصدر السابق : ٢٤٩ - ٢٥٥ .

٥- انظر((إعجاز القرآن)) : ٢٥٢ .

٩ - البلاغة في القرآن[١] :

لم يتكلم الرافعي في هذا المبحث عن فنون البلاغة ، إنما ذكر أن البلاغة القرآنية بلغت المبلغ الذي ليس وراءه مبلغٌ ، واحتوت فنون كلام العرب جميعاً على الوجه المعجز ، وقال كلمة جميلة في هذا الباب ، وهي :

((إن القرآن كان عِلمَ البلاغة عند العرب ، ثم صار بعدهم بلاغةَ هذا العلم))[٢] .

١٠ - الطريقة النفسية في الطريقة اللسانية[٣] :

ومراده منها أن القرآن أورد ألفاظاً جميلة لمعاني جليلة ، وهذه الألفاظ تدل بنفسها على المعاني من غير زيادة ولانقصان ، وتعبر عما في النفس تعبيراً يعجز عن مثله كل البشر .

١١ - إحكام السياسة المنطقية على طريقة البلاغة[٤] :

ومراده - والله أعلم - أنّ فنون المنطق المعروفة قد جاءت في القرآن واضحة بارزة لكن ليس على طريقة المنطقيين من إلزام العقل وترك العاطفة والشعور وإنما بجمع الاثنين معاً ؛ بحيث إن السامع لآيات القرآن العظيم لايستطيع أن يَصْدِف عنه ولايجد له ((مذهباً ولاوجهاً غير القصد إليه فيكون من ذلك الإلزامُ البيانيّ الذي توحيه طبيعة المعنى البليغ ، وكان حتماً مقضياً))[٥] .

وقد استفاد من كلام ابن رشد[٦] - رحمه الله تعالى - في هذه المسألة ،

١- المصدر السابق : ٢٥٦ - ٢٦١ .

٢- المصدر السابق : ٢٥٧ .

٣- المصدر السابق : ٢٦٢ - ٢٦٤ .

٤- المصدر السابق : ٢٦٥ - ٢٧٣ .

٥- المصدر السابق : ٢٦٧ .

٦- هو ابن رشد الحفيد ، العلامة ، فيلسوف الوقت ، أبو الوَليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن محمد القرطبيّ . ولد سنة عشرين وخمسمائة ، وبرع في الفقه ، ودرس الطب ، ثم أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتى صار يُضرب به المثلُ في ذلك . كان متواضعاً ، صاحب همّة ماترك الاشتغال إلا ليلتين : ليلة موت أبيه وليلة عرسه . ولي قضاء قرطبة فحمدت سيرته ثم رُفعت عنه أقوال رَدِيّة إلى سلطان مراكش فحبسه بداره حتى مات سنة ٥٩٥ .
انظر ((سير أعلام النبلاء)) : ٢١ / ٣٠٧ - ٣١٠ .

كما أشار الرافعي في كتابه[1] .

هذا موجزٌ لكلام الرافعيّ - رحمه الله تعالى - في إعجاز القرآن ، وقد عانيت في فهم بعض كلامه ومراميه ومقاصده حيث إنه قد أغلق بعض العبارات ، فصعُب فهمُ بعض آرائه ومراده منها .

وكلام الرافعيّ في الإعجاز - وإن ثَقُل في بعض ألفاظه ومعانيه - إلا أنه عرضه في أسلوب رصين جزل زانه كثير من التجديد وحسن العرض .

أما الجديد في كتابه فهو كلامه في نظم القرآن في قسمي نظم الحروف ونظم الكلمات ؛ فقد أتى في قسم نظم الحروف بما يسمى بـ ((موسيقى الحروف)) ومراده منها جَرْس الحرف ووقعه على أذن السامع ، وأختار أن تغيّر هذه التسمية : ((موسيقى الحروف)) لسببين :

الأول : أن الكلمة : ((موسيقى)) غير عربية فلِمَ نستعملها ؟

الثاني : للوهم الذي ينشأ عند العوام إذ يخلطون بين المراد منها عند إطلاقها وبين مايعرفونه هم من معناها الناشئ عن الآلات .

نظم الحروف :

وإنما عَظُم القرآن وأعجز الناس - في رأي الرافعي - لأسباب منها نظم حروفه وتناسق تواليها على هيئة معجزة ، وخلاصة رأيه هذا مبني على ملاحظة الظواهر التالية في الأحرف المجتمعة :

١- هامش ص ٢٦٥ .

١ – مخارج الحروف .

٢ – صفات الحروف .

فالحرف مخرجاً وصفةً يسلس في اللسان نطقاً ويسلس في الكلمة موقعاً ، حتى كأن كل حرف يسلّم اللسان إلى الحرف المجاور على هيئة معجزة لاتتأتى لكلام آخر .

٣ – فواصل الحروف[1] :

يقول الرافعي :

((وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورٌ تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب ، وتراها أكثر ماتنتهي بالنون والميم – وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها – أو بالمد ، فإن لم تنته بواحدة من هذه كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها ، ومناسبةً للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه))[2] .

نظم الكلمات :

أما نظم الحروف نفسها لتصبح كلماتٍ فقد جاء فيه بوجوه جديدة طريفة حيث قسم الكلمة من حيث الحقيقة الوضعية إلى ثلاثة أقسام :

١ – صوت النفس :

((وهو الصوت الموسيقي الذي يكون من تأليف النغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ، ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه ، على طريقة متساوقة ،

---

١ – قد سبق الحديث عن الفواصل ، انظر ص ٥٧٤ ومابعدها .

٢ – ((إعجاز القرآن)) : ٢١٦ – ٢١٧ .

بحيث تكون الكلمة كأنها خطوة للمعنى في سبيله إلى النفس ، إن وقف عندها هـذا المعنى قُطع به))[1] .

٢ – صوت العقل وتارة يعبر عنه بصوت الفكر :

((وهو الصوت المعنويّ الذي يكون من لطائف التركيب في جملة الكلام ، ومن الوجوه البيانية التي يداوَر بها المعنى لايخطئ طريق النفس من أي الجهات انتحى إليها))[2] .

٣ – صوت الحس :

((وهو أبلغهن شأناً ، لايكون إلا من دقة التصور المعنوي والإبداع في تلوين الخطاب ، ومجاذبة النفس مرةً وموادعتها مرةً ، واستيلائه على محضها[3] بما يورد عليها من وجوه البيان ، أو يسوق إليها من طرائف المعاني ، يدعها من موافقته والإيثار له كأنها هي التي تريده وكأنها هي التي تحاول أن يتصل أثرها بالكلام ، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد بالهوى والاستجابة ، وعلى مقدار مايكون في الكلام البليغ من هذا الصوت[4] يكون فيه من روح البلاغة))[5] .

ثم قرر أن ((صوت النفس طبيعي في تركيب لغتهم ، وإن كان فيها إلى التفاوت كمالاً ونقصاً ، وصوت الفكر لايعجزهم أن يستبينوه في كثير من كلام بلغائهم ، أما صوت الحس فقد خلت لغتهم من صريحه وانفرد به القرآن ، وقد كانوا يجدونه في أنفسهم منذ افتنّوا في اللغة وأساليبها ، ولكنهم لايجدون البيان به في

١– المصدر السابق : ٢٢١ .

٢– المصدر السابق .

٣– أي استيلائه على النفس كلها .

٤– أي صوت الحس .

٥– المصدر السابق .

ألسنتهم ؛ لأنه من الكمال اللغوي الذي تعاطوه و لم يُعطوْه)) ، في كلام طويل له في تقرير هذه المسألة يُرجع إليه[١] .

ثم إنه جاء ببعض الكلمات القرآنية وضربها مثلاً لِما أراد إثباته من أن نظم الكلمات القرآنية لامثيل له ، وأن الكلمة القرآنية مهما طالت فإن لتناسق حروفها وحسنِ الفصل فيما بينها في الكلمة الواحدة أحسنَ الأثر في جمال موقعها على الأذن وعِظم تقبل السامع لها[٢] .

هذا وصفٌ موجز لما جاء في كتاب الرافعي من الإعجاز والمباحث المتعلقة به .

١- المصدر السابق : ٢٢٢ .

٢- المصدر السابق : ٢٢٧ وما بعده إلى ٢٣٥ .

ثانياً : ((مناهل العرفان في علوم القرآن))
تأليف الشيخ محمد عبد العظيم الزُرقانيّ
رحمه اللـه تعالى

هذا الكتاب - كما هو ظاهر من عنوانه - مصنف في علوم قرآنية شتى لكنّ إعجاز القرآن وخصائص أسلوبه قد استغرق الكثير من حجم الكتاب[1] ، وقد جاء هذا الكتاب جامعاً محاضراتٍ سبق أن ألقاها المصنف الكريم على طلبته .

وقد قسم المصنف بحثه في الإعجاز إلى قسمين رئيسين :

١ - وجوه إعجاز القرآن ، وبيّن في صدرها معنى ((إعجاز القرآن)) .

٢ - شبهات واردة على هذا الإعجاز .

أما وجوه الإعجاز التي أتى بها فهي أربعة عشر وجهاً [2] أُجمل ذكرها بالآتي :

الوجه الأول : لغته وأسلوبه[3] :

قد ضمن هذا الوجه عدة مباحث وهي : القَدْر المعجز من القرآن ، ومعارضة القرآن قديماً وحديثاً ، وكثرة معجزات القرآن ، وخلود هذه المعجزات ، وحكمة اختيار اللغة العربية لغةً لهذا القرآن العظيم ، وختم بالفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبويّ . وهذا الوجه متعلق بمبحث أسلوب القرآن الكريم وهو المبحث السابق على مبحث الإعجاز ، ولاأدري لِم لَم يضمه المصنف - رحمه اللـه تعالى - إلى ذلك الوجه ، ففي كثير من مباحثه تعلقٌ به .

١- ((مناهل العرفان)) : ٢/ ١٩٨ - ٣٣٣ .

٢- المصدر السابق من صفحة : ٢/ ٢٢٨ - ٣١٠ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٢٢٨ - ٢٣٦ .

٢ – **الوجه الثاني : طريقة تأليفه**[١] :

أي أن القرآن محكم التأليف والرصف مع أنه قد نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة ، والبشر يُعجزهم أن يصنفوا كلاماً مترابطاً ترابطَ القرآن العظيم قد قيل في مناسبات مختلفة على أزمان متباعدة ؛ ولو كان هذا الكلامُ كلامَ النبي ، صلى الله عليه وسلم .

٣ – **الوجه الثالث : علومه ومعارفه**[٢] :

ويقصد بهذا مافي القرآن من علوم هدت البشر إلى الحق في دينهم ودنياهم ، وجمعت بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، واجتزأ من تلك العلوم والمعارف موضوعَ العقيدة في الله حيث عرض لعقيدة المسلمين وكيف جاءت في كتاب الله – تعالى – واضحة سهلة ، وكيف رد القرآن على عقائد أهل الكتاب المحرفة .

ووجه الإعجاز هنا أن القرآن ((اشتمل على علوم ومعارف في هداية الخلق إلى الحق ، بلغت من نبالة القصد ، ونصاعة الحجة ، وحسن الأثر وعموم النفع ، مبلغاً يستحيل على محمد – وهو رجل نشأ بين الأميين – أن يأتي بها من عند نفسه ، بل يستحيل على أهل الأرض جميعاً من علماء وأدباء وفلاسفة ومشترعين وأخلاقيين أن يأتوا من تلقاء أنفسهم بمثلها))[٣] .

٤ – **الوجه الرابع : وفاؤه بحاجات البشر**[٤] :

وحاجات البشر التي وفى بها القرآن هي : اصلاح العقائد والعبادات والأخلاق والاجتماع والسياسة والمال إلخ ...

١- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٣٦ – ٢٣٨ .

٢- المصدر السابق : ٢ / ٢٣٨ – ٢٤٥ .

٣- المصدر السابق : ٢ / ٢٣٨ .

٤- المصدر السابق : ٢ / ٢٤٧ – ٢٤٩ .

٥ – الوجه الخامس : موقف القرآن من العلوم الكونية[١] :

وقد جاء في هذا الوجهِ بمباحثَ متنوعةٍ في طريقة القرآن في ذكر المعارف والعلوم .

٦ – الوجه السادس : سياسته في الإصلاح[٢] :

أي في إصلاح المؤمنين بهذا الكتابِ العظيم ، وحملِهم على اتباع الخير والهدى ، ومن سياسته التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية ، ومخاطبة العقول والأفكار ، وتلبية مطالب الروح والجسد إلخ ...

٧ – الوجه السابع : أنباء الغيب[٣] :

ويقصد بهذا الوجهِ أنباءَ الغيب الماضي والحاضر من جنة ونار وملائكة وغيرها ، وأنباء الغيب المستقبلي القريب منه والبعيد .

وقد أفرد مبحثاً في هذا الوجهِ يتعلق بما ذكره القرآن واكتشفت فائدته بعد ذكر القرآن له بمئات السنين أمثال فائدة الصوم ، وفائدة آية ﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾[٤] ومدخلها في علم الاجتماع إلخ ...

٨ – الوجه الثامن : آيات عتاب المصطفى ، صلى الله عليه وسلم[٥] :

ووجه الإعجاز فيها هو أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لو كان مؤلفاً لهذا القرآنِ العظيم لما سجل على نفسه مثل هذا العتاب .

١– المصدر السابق : ٢ / ٢٤٩ – ٢٥٧ .

٢– المصدر السابق : ٢ / ٢٥٧ – ٢٦٢ .

٣– المصدر السابق : ٢ / ٢٦٣ – ٢٨٥ .

٤– سورة الرعد : آية ١١ .

٥– ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٨٥ – ٢٩١ .

٩ – الوجه التاسع : مانزل بعد طول انتظار[١] :

((ومعنى هذا أن في القرآن آياتٍ كثيرة تناولت مهمات الأمور ومع ذلك لم تنزل إلا بعد تلبث وطول انتظار فدل هذا على أن القرآن كلام الله لاكلام محمد ؛ لأنه لو كان كلام محمد ماكان معنى لهذا الانتظار))[٢] ، وضرب أمثلة على هذا منها قصةُ الإفك .

١٠ – الوجه العاشر : مظهر النبي – صلى الله عليه وسلم – عند هبوط الوحي عليه[٣] :

وهو ماكان يعتريه – عليه الصلاة والسلام – من تغير وثِقَل حال نزول الوحي فدل على أن هذا القرآنَ ليس من عنده .

١١– الحادي عشر آية المباهلة[٤] :

ويعني بها ماجاء في سورة آل عمران من قوله تعالى :

﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكذبين ﴾[٥] .

وهذه الآية نزلت في وفد نصارى نجران عندما قدموا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة[٦] .

١– المصدر السابق : ٢ / ٢٩١ – ٢٩٥ .

٢– المصدر السابق : ٢ / ٢٩١ .

٣– المصدر السابق : ٢ / ٢٩٥ – ٢٩٦ .

٤– المصدر السابق : ٢ / ٢٩٦ – ٢٩٧ ، والمباهلة هي ((أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا)) ، والبَهْل : اللعن ، وانظر ((لسان العرب)) : ب هـ ل .

٥– سورة آل عمران : آية ٦١ .

٦– انظر ((تفسير القرآن العظيم)) : ٢ / ٤٠ – ٤٥ .

وهذه المباهلة تدل على ثقة النبي – صلى الله عليه وسلم – بربه ، وأن هذا القرآنَ كلام الله القادر على إنزال اللعنة والعذاب على الكاذب .

١٢ – الوجه الثاني عشر : عجز الرسول عن الإتيان ببدل له[1] :

أي القرآن ، ويريد المصنف ماجاء في سورة يونس من قوله تعالى :
﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ...))[2] .

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يأت ببدل لهذا القرآن لأنه ليس كلامُه وهو خارج عن طوقه وقدرته .

١٣ – الوجه الثالث عشر : الآيات التي تجرد الرسول من نسبته إليه[3] :

أي من نسبة القرآن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[4] فلو كان القرآن من إنشائه لما تنصل من نسبته إليه على هذا النحو بل كان سيفخر به ويعلو .

١٤ – الوجه الرابع عشر : تأثير القرآن ونجاحه[5] :

ويعني به تأثير القرآن في المسلمين وغيرهم على السواء ، وكيف أحب المسلمون هذا القرآن العظيم فبذلوا مهجهم في سبيل العمل به وتنفيذ تعاليمه .

ثم ختم الحديث عن أوجه الإعجاز بذكر بعض أوجه للإعجاز قد ذكرها مَن سبقه من المصنفين لكنه لم يرتض إلا قليلاً منها[6] .

١- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٩٧ – ٢٩٨ .

٢- سورة يونس : آية ١٥ .

٣- ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٩٩ – ٣٠١ .

٤- سورة القصص : آية ٨٦ .

٥- ((مناهل العرفان)) :٢ / ٣٠١ – ٣٠٨ .

٦- المصدر السابق : ٣٠٨/٢ ومابعدها .

أما الأوجه الأربعة عشر التي ساقها أوجهاً للإعجاز فإن بعضها لايصح أن يكون كذلك ؛ إذ آيات عتاب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – لامدخل لها في الإعجاز ، وكذلك مانزل بعد طول انتظار ، ومظهر النبي – صلى الله عليه وسلم – حال نزول الوحي عليه كل ذلك من البراهين الدالة على أن القرآن من عند الله – سبحانه وتعالى – لكن ليس لها تعلق مباشر بموضوع الإعجاز ، أمّا المباهلة فلا أرى لها تعلقاً بموضوع الإعجاز ألبتة ، وأما عجز الرسول عن الإتيان بمثله فلم يثبت لنا أن النبي – صلى الله عليه وسلم – حاول هذا أو فكر فيه إنما أراد الله سبحانه وتعالى تلقين رسوله الحجة فيما إذا طلب منه الكافرون ذلك ، وكذلك الوجه الثالث عشر وهو الآيات التي تنفي نسبة القرآن إلى هذا النبيِ العظيم – صلى الله عليه وسلم – لاأدري مانسبته إلى الإعجاز وتعلقه به ؛ إذ هو خبر من الأخبار المنبثة في هذا القرآنِ العظيم ، وقد تعلق المصنف في هذا الوجهِ بأن القرآن – على هذا – ليس من كلام النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وهذا صحيح لكن لامدخل له في الإعجاز ، والله أعلم .

ثم إن المصنف أنهى مبحث الإعجاز بذكر بعض الشبهات الواردة على إعجاز القرآن وتفنيدها[1] .

أمّا الجديد في كتاب ((مناهل العرفان)) فهو الآتي :

١ – الوجه الرابع وهو ((وفاؤه بحاجات البشر)) ؛ إذ أثبت المصنف بدلائلَ ماديةٍ حدثت في زمانه صلاحية القرآن العظيم لهذا الزمانِ ولكل زمان ؛ ذلك لأن القرآن العظيم وضع أسساً لإصلاح العبادات والأخلاق والنواحي الاجتماعية والمالية والسياسية وغيرها منذ مئات السنين ، وأنّ ((غير المسلمين كانوا ولايزالون حائرين يبحثون عن النور ، وينقبون عما يفي بحاجتهم في كثير من نواحي حياتهم ، حتى

١– المصدر السابق : ٢/٣١٠ ومابعدها .

اضطروا تحت ضغط هذه الحاجةِ وبعد طول المطاف وقسوة التجارب أن يرجعوا إلى هداية القرآن من حيث يشعرون أو لايشعرون))[1] .

ثم أتى على ذلك بشواهدَ منها تحريم أمريكا الخمرَ ، وإباحتها الطلاق ، ومطالبة بعض المصلحين الغربيين اعتمادَ مبدأ تعدد الزوجات ، وغير ذلك .

وهذا الوجه الذي ذكره يندرج تحت الإعجاز التشريعي في القرآن .

٢ - في الوجه الخامس - ((موقف القرآن من العلوم الكونية)) - أتى المصنف ، رحمه الله تعالى ، بمباحثَ لطيفةٍ جديدة في طريقة القرآن في ذكره لهذه العلوم ؛ إذ أن القرآن العظيم :

أ - أجمل ذكر هذه العلوم فلم يذكر تفصيلاتها وإنما أشار إليها وذلك كي يفهم كل جيل منها مايناسبه .

ب - دعا إلى النظر والبحث فيها من جملة مادعا إليه من البحث والنظر في الكون .

ج - تحدث عن هذه العلوم تحدثَ إحاطة بها ، فالله سبحانه عالم بأسرار السموات والأرض .

د - أشار إلى أن الكون كله مربوب له - سبحانه وتعالى - ومن جملته مافيه من علوم وأسرار ؛ فلا يليق بعد هذا إذاً أن نُخدع بعلم الكافرين الذين سجنوه في دائرة المادة الضيقة ، ولايليق أيضاً أن نحاكم المعارف العليا التي في القرآن إلى المعارف الدنيا التي عندهم .

١- ((مناهل العرفان)) : ٢ /٢٤٨ .

ثم إن المصنف – رحمه الله تعالى – نقل كلام أحد العلماء المعاصرين له حيث عقد مقارنة بين نُفرة النصارى – بسبب تعاليم الكنيسة المحرفة – من العلم الكَنَسيّ وأهله وبين استقبال المسلمين الحسن لِما في القرآن من معارفَ وعلوم[1] .

وهذا الوجه الذي ساقه يندرج تحت الإعجاز العلمي في القرآن ، وليس ماساقه حديثاً عن العلوم بقدر ماهو إشارات إلى طريقة القرآن في ذكرها وبيانها .

٣ – إيراده منافعَ اكتشفها العلم الحديث في بعض ماشرعه الله – سبحانه وتعالى – لعباده ، وإيراده بعضَ المسائل التاريخية والاجتماعية التي أثبت سبق القرآن في إيرادها وذكرها ، وقد سمّى كل ذلك : ((معجزات يكشف عنها العلم الحديث))[2] ، وهذا الذي ساقه مندرج – أيضاً – تحت وجه الإعجاز العلمي في القرآن .

هذا ماجاء من مباحثَ جديدة في كتاب المصِّنف – رحمه الله تعالى – أما ماجاء فيه من مباحث قديمة عُرضت عرضاً جديداً شيقاً فشيءٌ كثير ، والكاتب يمتاز بسلاسة العرض وقوة الأسلوب ، ونصاعة الحجة والبرهان في كثير مما يورده ، رحمه الله تعالى .

١- ((مناهل العرفان)) :٢/٢٤٩ – ٢٥٧ .

٢- المصدر السابق : ٢ /٢٨٠ – ٢٨٥ .

نظرات جديدة في الإعجاز

تأليف ((الدكتور)) محمد عبدالله دراز رحمه الله تعالى

هذا الكتاب – في الأصل – مجموعة من المحاضرات كان الشيخ قد ألقاها على طلبته ثم نقّحها وجمعها في هذا الكتاب الجليل[1] .

وقد قسم كتابه إلى بحثين :

١ – تحديد القرآن :

ويقصد بالتحديد تعريف القرآن والفرق بينه وبين الأحاديث النبوية والقدسية[2] .

٢ – بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه :

وهذا المبحث هو الذي استغرق جُلَّ الكتاب حيث قسّمه المصنف إلى مراحل :

المرحلة الأولى من البحث : بيان أن القرآن لايمكن أن يكون إيحاءً ذاتياً من نفس رسولنا محمد ، صلى الله عليه وسلم[3] .

وقد تفنن المصنف – رحمه الله تعالى – في هذا المبحثِ في إثبات أن القرآن العظيم لايمكن أن يكون من كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مخترَعاً مِن قِبَله ، واستدل على ذلك بـ :

١ – صِدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمانته ، وأنه لم يكن لِيذرَ الكذب على الناس ويكذب على الله .

١- ((النبأ العظيم)) : ٧ – ٩ .

٢- المصدر السابق : ١٢ – ١٧ .

٣- المصدر السابق : ٢٠ – ٥٥ .

٢ - ((كانت تنزل به - صلى الله عليه وسلم - نوازلُ من شأنها أن تُحفزه إلى القول ، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالاً ومجالاً ، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولايجد في شأنها قرآناً يُتلى على الناس))[١] ، وضرب مثلاً على ذلك بحادثة الإفك[٢] .

٣ - آيات العتاب التي كان يُعاتَبُ بها النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - بسبب خطأ يسير في اجتهاده في بعض الأمور ، فلو كان القرآن من لدنه - وحاشاه ، صلى الله عليه وسلم ، من هذا - ((ألم يكن له في السكوت عنها سترٌ على نفسه واستبقاءٌ لحرمة آرائه ؟ بلى إن هذا القرآن لوكان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئاً من ذلك الوجدان ، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات ...))[٣] .

ثم استمر - رحمه الله - في التدليل على أن هذا القرآن لابد أن يكون من عند الله - تبارك وتعالى - حتى آخر المبحث ، ثم دلف إلى المرحلة الثانية من المبحث وهي :

وجوب أن يكون الرسول قد عُلِّم هذا القرآنَ من لدن حكيم خبير[٤] .

وهذا المبحث - على الحقيقة - جزء لايتجزأ من المبحث الذي قبله ؛ فإذا لم يكنِ القرآن من كلامه - صلى الله عليه وسلم - فهو من كلام الله ، وهو المُعلِّم المقصود هنا سبحانه وتعالى .

١- المصدر السابق : ٢٣ - ٢٤ .

٢- انظر تفصيلها في ((تفسير القرآن العظيم)) : ٦ / ١٧ - ٣٥ .

٣- ((النبأ العظيم)) : ٢٥ - ٢٦ .

٤- المصدر السابق : ٥٦ - ٦٩ .

وردّ المصنّف في هذا المبحث على شبهات قديمة وجديدة في هذا الصدد ؛ مثل القول بأن غلاماً رومياً في مكة كان يعلمه القرآن[1] ، إلى القول بـ ((الوحي النفسيّ))[2] من المستشرقين وأذنابهم ، أي أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - اخترع القرآن من لدن نفسه وليس هو بوحي[3] .

ثم أخذ في بيان **المرحلة الثالثة** من بحثه وهي ((الوحي))[4] ، وذكر حاله الشريف - صلى الله عليه وسلم - حين كان الوحي يتنزّل عليه ، وذكر الفرق بين هذه الأحوال وبين مايمكن أن يقال - وقد قيل - من أن الذي كان يحصل له ، صلى الله عليه وسلم ، نوع من المرض والاضطراب النفسيّ[5] .

١- انظر القصة في تفسير ابن كثير : ٤ / ٥٢٣ - ٥٢٤ عند قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ :سورة النحل :آية ١٠٣ .

٢- الوحي النفسيّ هو ((الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبته بعض علماء الفرنج لنبينا - صلى الله عليه وسلم - كغيره فقالوا : إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامي ، وصوّره من لايؤمنون بعالم الغيب منهم ... بأن معلوماتِه وأفكارَه وآماله ولّدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية على مُخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى المَلَك ماثلاً له ، وعلى سمعِه فوعى ماحدث به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحى الشرعيّ من خارج نفس النبي ، نازلاً عليها من السماء كما نعتقد ، لامن داخلها فائضاً منها كما يظنون ...)) :

((الوحي المحمدي)) للسيد محمد رشيد رضا : ٨٣ .

وإنما حدث لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ذلك الوحي النفسي بزعمهم لأن ((منازع نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وتركِ ماسواها من عبادة وثنيّة ، وتقاليد وراثية رديئة يكون لها في جملتها من التأثير مايتجلّى في ذهنه ، ويُحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور مايعتقد وجوبَه إرشاداً إلهيّاً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة ، أويتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه مَلَك من عالم الغيب ، وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع مايعتقده في اليقظة ...)) المصدر السابق : ١١٩ .

٣- انظر ((النبأ العظيم)): ٦٧ ، و ((مناهل العرفان)) : ١ /٧٤ - ٧٥ ، ٧٧- ٨٤ .

٤- ص ٦٩ - ٧٦ .

٥- انظر - مثالاً - ((مناهل العرفان)) : ١ / ٧٤ - ٧٥ ، و ((النبأ العظيم)) : ص٧٠ وما بعدها .

واستأنس لظاهرة الوحي بما يسمىّ ((التنويم المغناطيسيّ))[١] ، وعقد مقارنة بين التأثير الذي يفعله المنوِّم بالمنوَّم وبين التأثير المنطبع بالوحي القرآني ، لكن الفرق أن الناس ((قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً مايترك وحيهم في نفس متلقيه أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها ، فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ورسول من الناس))[٢] .

أمّا المرحلة الرابعة فهي المقصودة هنا ، وهي التي استغرقت باقي صفحات الكتاب[٣] ، **ألا وهي إعجاز القرآن** ، وهو لم يطرق إعجاز القرآن كما طرقه كثير ممن سبقوه حيث بينوا وجوه الإعجاز وقارنوا بينها ورجحوا بعضها على بعض ، لكنه ذكر وجهاً واحداً للإعجاز وهو الإعجاز اللغوي . وكان يريد ذكر الإعجاز العلمي والإعجاز الإصلاحيّ التهذيبي[٤] ، لكنه لم يفعل ، ولعل ذلك مرده إلى أن الكتاب المطبوع هو الجزء الأول من ((النبأ العظيم)) فقط ، والباقي لم يكمله الشيخ رحمه الله تعالى[٥] .

وابتدأ الشيخ – رحمه الله تعالى – بالإعجاز اللغويّ لأنه هو الذي وقع من جهته التحدي في كل سورة من سور القرآن[٦] .

وكان للشيخ – رحمه الله تعالى – طريقةٌ فريدة في عرض الإعجاز اللغويّ ، فقد ابتدأ بذكر الشبهات[٧] التي يمكن أن تثار في وجوه الذين يقولون بالإعجاز

١- التنويم المغناطيسيّ هو ((حالة تأثيرية يظهر فيها النوم على الوسيط تأثراً بإيحاء المنوِّم وتوجيهه إياه إلى الفكرة المقصودة ، ويكون الوسيط في أثنائها خاليَ الذهن من هذه الفكرة)) : ((المعجم الوسيط)) :٢/ ١٠٠٣ .

٢- ((النبأ العظيم)) : ٧٥ – ٧٦ .

٣- المصدر السابق : ٧٦ – ٢١١.

٤- انظر ((النبأ العظيم)) : ٧٩ ، ١٠٦ .

٥- انظر ((النبأ العظيم)) : ٧ .

٦- المصدر السابق : ٧٩ .

٧- المصدر السابق : ٨٠ – ١٠٠ .

اللغوي وهي محصورة في خمس شبهات ، ثم فندها جميعاً وأظهر عُوارها ، وهذه الشبهات هي :

الشبهة الأولى : القدرة على محاكاة القرآن ، وهي لاتثار إلا من قِبل الأغرار الناشئين أو الكاذبين كمسيلِمة الكذاب .

الشبهة الثانية : قد يتيقن واحد من الناس عجزه عن الإتيان بمثل القرآن ، لكنه يظن أن غيره ممن أوتي فصاحة وبلاغة قادر على معارضة القرآن .

الشبهة الثالثة : (الصَّرفة)[1] ؛ وذلك أن مثير هذه الشبهات علم من نفسه وغيره العجز عن مثل القرآن لكنه يظن أن هذا العجز مرده إلى أن اللـه صرف البشر عن معارضته فلم يحاوله أحدٌ قط ولوحاوله أحدٌ لأتى بمثله .

الشبهة الرابعة : بناء القرآن لايخرج عن معهود العرب فكلماته كلماتهم وحروفه حروفهم فبم تميز عنهم ؟ و لم كان خارجاً عن قُدَرهم ؟ وهذه الشبهة لاتصدر إلا ممن لم يتذوّق أساليب العرب في نثرهم ونظمهم ومِن ثّم يقارنْها بأسلوب القرآن العظيم .

الشبهة الأخيرة : لِمَ لايكون اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب غيره من الكلام كاختلاف أساليب الناس بعضهم عن بعض فلكلٍّ أسلوبه في الكلام وطريقته ؟ .

ولايخفى أن الشيخ – رحمه الله تعالى – رتّب الشبهات على طريقة متدرجة فمن حُلّت له الشبهة الأولى أثار الثانية ومن حُلّت له الثانية أثار الثالثة وهكذا ...

١- تقدم بيانها والرد عليها ، انظر ص ٩٢ من هذا البحث .

ثم بعد فراغه من الإجابة على الشبهات ابتدأ بالمقصود الأعظم من كتابه وهو إثبات إعجاز القرآن البلاغيّ ، وأن هذا الإعجازَ له دوحتان :

الدوحة الأولى : الإعجاز بتناسق الألفاظ وتأثيرها في السامع وهو ماعُرف قديماً بـ ((الإعجاز النظميّ)) ، وبيان أن التأثر به يختلف تماماً عن التأثر بأي كلام آخر[1] .

الدوحة الأخرى : إعجاز معاني القرآن ، وأنها قد بلغت الذروة التي بلغتها فصاحة الألفاظ وتناسقها وجَرْسها[2] .

ولكي يثبت هذا فإنه قسّم القرآن العظيم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : مايؤدي معنىً تامّاً ، وقد يكون سورةً أو بضعَ آياتٍ من سورة ، وعبر عن هذا بـ ((القرآن في قطعةٍ قطعةٍ منه)) ، وصدّر هذا القسم ببيان وجوه الكمال في أي كلام وهي :

١ - القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى .

٢ - خطاب العامة وخطاب الخاصة ، ويعني بهذا أن الخطاب يتلذذ به العامة ويفهمونه ، ويتلذذ به الخاصة ويفهمونه أيضاً .

٣ - إقناع العقل وإمتاع العاطفة معاً .

١- ((النبأ العظيم)) : ١٠١ - ١٠٦ .

٢- المصدر السابق : ١٠٦ إلى آخر الكتاب .

٤ - البيان والإجمال : أي أن الألفاظ مجملة لكنها تحوي بياناً كثيراً لمن يفهم ذلك منها .

وقد بيّن - رحمه الله تعالى - أن هذه الأربعة قد اجتمعت في القرآن العظيم على وجه معجز لاتستطيعه عقول البشر ولاكلامهم .

ثم إنه اختار ثلاث آيات لبيان مايريده في هذا القسم الأول وهو بيان إعجاز القرآن في قطعة قطعة منه ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ﴾ الآيات[1] ، هذا وقد اختار هذه الآية وآيتين بعدها و لم يختر آيات اعتاد على الكلام عليها والتمثيل بها مَن قبله ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ .. ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[3] وذلك لأنه أراد التمثيل بمثال لاينتبه له الناس عادة ليكون أقوى في الحجة[4] .

ثم بعد أن أتى بآيات أُخرى تؤيد ماذهب إليه تحدث عن :

القسم الثاني : وهو بيان إعجاز القرآن في سورة سورة منه : فقارن ، رحمه الله تعالى ، بين اتساق مواضيع السورة الواحدة في القرآن - ولو كانت منزلة في سنين متطاولة - وبين الأحاديث النبوية ونثر ونظم العرب ، فقال عنها :

((خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحديث بها في أوقات مختلفة ، وتناولت أغراضاً متباينة ، أوخذ من كلام مَن شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك وحاول أن تجيء بها سرداً لتجعل منها حديثاً واحداً من غير أن تزيد بينها شيئاً أو تنقصَ شيئاً ، ثم انظر كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع

١- سورة البقرة : الآيات : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

٢- سورة هود : آية ٤٤ .

٣- سورة البقرة : آية ١٧٩ .

٤- ((النبأ العظيم)) : ١١٩ .

والأفهام ، وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة مالا يبدو على القول الواحد المسترسل))[1] .

ثم ذكر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – مهما أوتي من قوة البيان ورجاحة العقل والتفكير لايمكن له أن يُنزّل كل آية من كل سورة موضعها فتبدو كل سورة بهذا التناسق البديع فلابد أن يكون هذا التنسيقُ من الله العلي القدير .

وضرب مثلاً على هذا التنسيق البديع والترابط بين مواضيع السورة المختلفة بسورة البقرة المدنية ؛ وذلك لأنها أطول سورة في القرآن ونزلت في مدد طويلة متفاوتة وهذان العاملان أدعى إلى حدوث عدم الترابط ووقوع التنافر ، لكنه أظهر – رحمه الله تعالى – في دراسته للسورة عِظم التناسق والترابط بين أجزائها .

أما القسمان الثالث والرابع وهما :

القرآن فيما بين بعض السور وبعض ، والقرآن في جملته فلم يطرقها في هذا الجزءِ المطبوع من الكتاب ، ولاأدري أفاجأه الموت قبل إكماله ، أم أنه كتبه لكنه لم يطبع بعد ؟

والكتاب في جملته فريد في بابه ، مشوّق في طرحه لأبوابه وأبحاثه ، جديد في بعض جوانبه ، مُجدِّدٌ في جوانبَ أخرى .

أما التجديد في عرض ماسبق به المصنفون في الإعجاز فواضح في جميع جوانبَ الكتاب ، حيث جاء جديداً في مبانيه ، قديماً في بعض معانيه .

١- ((النبأ العظيم)) : ١٤٥ – ١٤٦ .

أما الجديد المطلق في كتابه فهو الآتي :

أولاً : استشهاده لبلاغة القرآن بآيات غير الآيات التي دأب على الاستشهاد بها الأولون ، وذلك في قوله :

((ولاتحسبن أننا سنضرب لك الأمثال بتلك الآيات الكريمة التى وقع اختيار الناس عليها وتواصفوا[1] الإعجاب بها ؛ كقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ... ﴾[2] الآية ، وقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾[3] وأشباههما ، بل نريد أن نجيئك بمثال من عُرْض القرآن ، في معنى لايأبه له الناس ، ولايقع اختيارهم على مثله عادة ، ليكون دليلاً على ماوراءه .

يقول الله تعالى في ذكر حِجاج اليهود :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ... ﴾[4] .

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل ، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلماتُ القليلة تتلخص فيما يلي :

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود ؛ إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ - إجابتهم لهذا الناصحِ بمقالة تنطوي على مقصدين .

٣ - الرد على هذا الجوابِ بركنيه من عدة وجوه .

١- أي وصف بعضهم لبعض مدى إعجابهم بها .

٢- سورة هود : آية ٤٤ .

٣- سورة البقرة : آية ١٧٩ .

٤- سورة البقرة : الآيات ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ .

وأقسم لو أن محامياً بليغاً وُكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هـذه القضية ثم هُدي إلى استنباط هذه المعاني التي تختلج في نفس الداعي والمدعو لمَا وسعه في أدائها أضعافُ هـذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لايفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق ...)) .

ثم أخذ في بيان مافي تلك الآيات من بلاغة وسمو نظم[1] .

ثانياً : مبحث الحروف التي ادُّعي أنها زائدة :

جاء في القرآن العظيم عدة حروف حكم كثير من المفسرين عليها بأنها أحرف زائدة ، وتلطّف بعضهم فذكر أسباباً وحِكَماً لزيادتها ، أما الأستاذ فينفي هذه القضية من أصلها ويبين أنه ليس في القرآن حرفٌ زائد ، فذكر في مبحث الإيجاز أن القرآن ((ليس فيه كلمةٌ إلا هي مِفتاحٌ لفائدة جليلة ، وليس فيه حرفٌ إلا جاء لمعنى .

دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها مقحمة ، وفي بعض حروفه إنها زائدة زيادة معنوية ، ودع عنك قول الذي يستخف كلمة التأكيد فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة ؛ لايبالي أن تكون تلك الزيادةُ فيها معنى المزيدِ عليه فتصلحَ لتأكيده أولا تكون ، ولايبالي أن يكون بالموضع حاجةٌ إلى هذا التأكيدِ أوْلا حاجة له به .

أجل دع عنك هذا وذاك فإن الحُكم في القرآن بهذا الضربِ من الزيادة أو شبهها إنما هو ضربٌ من الجهل - مستوراً أو مكشوفاً - بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن ...))[2] .

١- ((النبأ العظيم)):١١٩ - ١٢٧ .

٢- المصدر السابق : ١٣٠ - ١٣١ .

ثم حثّ القارئ على تدبر القرآن ليخرج بحِكَم في هذا المبحث تعين على فهم أسرار أسباب ورود هذه الأحرف ، ثم ضرب عليها مثلاً بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[1] فقال :

((أكثر أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف ، بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة فراراً من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلى من التشبيه ؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافيةً الشبيهَ عن مِثل الله ، فتكون تسليماً بثبوت المثل له سبحانه ، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه ...

وقليل منهم من ذهب إلى أنه لابأس ببقائها على أصلها ؛ إذ رأى أنها لاتؤدي إلى ذلك المحال لانصاً ولااحتمالاً ؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضاً ... وقصارى هذا التوجيهِ - لو تأملته - أنه مصحح لامرجح ؛ أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف ولكنه لايثبت فائدته ولايبين مسيس الحاجة إليه ..))[2]
ثم أخذ في توجيه هذا الحرفِ - حرفِ الكاف - توجيهاً جميلاً جديداً[3] .

تلك كانت نبذة عن منهج د. دراز في تناول الإعجاز .

١- سورة الشورى : آية ١١ .

٢- ((النبأ العظيم)): ١٣٢ .

٣- المصدر السابق : ١٣٢ - ١٣٦ .

المقارنة بين منهج الإمام السيوطيّ ومناهج المصنفين الثلاثة :
الرافعي والزرقانيّ ودراز

لعقد المقارنة بين منهج الإمام السيوطيٍّ ومنهج هؤلاء الأساتذة الثلاثة فإني سأعقد مقارنة بين الجوانب المشتركة في مصنفاتهم وبين كتاب ((معترك الأقران)) ، ثم أذكر ماتفرد به كل واحد من الثلاثة من جوانب ، وأعقد مقارنة بينها وبين ماجاء في ((المعترك)) .

المقارنة بين منهج الإمام السيوطي والجوانب المشتركة في مناهج الرافعي ودراز والزرقانيّ .

أولاً : منهج السيوطيّ منهج عرض واستدلال لذلك كثر عنده إيراد الآيات والأحاديث والآثار كثرة ملحوظة ، بينما لم تكثر الآيات والأحاديث والآثار في المصنفات الثلاثة وذلك لأن منهجهم قائم على استخراج الحقائق وتأصيلها ، وقد بدا ذلك واضحاً في المباحث الآتية :

أ – في كتاب ((إعجاز القرآن)) :

مبحث نظم القرآن في قسمي : نظم الكلمات ونظم الحروف[1] .

ب – في كتاب ((مناهل العرفان)) :

١ – الوجه الرابع من وجوه الإعجاز التي ساقها المصنف ، وهو ((وفاؤه بحاجات البشر))[2] .

١- انظر ص ٦٧٨ من هذا البحث .

٢- انظر ص ٦٨٧ من هذا البحث .

٢ – مبحث ((موقف القرآن من العلوم الكونية))[١] .

٣ – مبحث ((معجزات يكشف عنها العلم الحديث))[٢] .

جـ – في كتاب ((النبأ العظيم)) :

١ – مبحث الحروف التي ادُّعي أنها زائدة[٣] .

٢ – استشهاد المصنف بآيات لم يستشهد بها مَن سبقه في إثبات إعجاز القرآن البيانيّ[٤] .

ثانياً : السيوطيّ يستخدم أسلوب زمانه في الكلام على الإعجاز وطَرْقه طرقاً مباشراً دون التمهيد له بمباحثَ تثبت صحة القرآن وإلـهيته ؛ إذ لم تكن به حاجةٌ إلى منهج الإقناع بصحة القرآن وإثبات إعجازه والجدل في ذلك لأن القوم مسلمون ذوو طوية حسنة وفطرة نقية ، بينما كان المصنفون الثلاثة في القرن الفائت يكتبون للناس في عصرهم : مسلمِهم وكافرهم ، ويخاطبونهم خطابَ مَن يريد إثبات أن القرآن من لدن حكيم خبير وليس من قول البشر ، وهم – أيضاً – يخاطبون قوماً بَعُدت أفهامهم عن اللغة الفصحى بعداً عظيماً ، فاحتاجوا – لذلك – للإفاضة في مباحثَ كان السيوطيّ في غنى عن أكثرها .

ثالثاً : السيوطي يورد أقوالاً على سبيل الحكاية وقد تكون هي شبهاتٍ بذاتها[٥] ؛ وذلك لأن من منهجه الجمعَ واستيعاب الأقوال ، ولاحرج كبيراً في هذا على

١– انظر ص ٦٨٨ من هذا البحث .

٢– انظر ص ٦٨٩ من هذا البحث .

٣– انظر ص ٦٩٩ من هذا البحث .

٤– انظر ص ٦٩٨ من هذا البحث .

٥– انظر ص ٣١٩ وما بعدها من هذا البحث .

السيوطيّ لأنه كان يخاطب طلبة علم أو مسلمين ذوي عقيدة متينة - غالباً - لاتهتز بالشبهات ، بينما كان المصنفون الثلاثة يوصلون الردّ على الشبهات تأصيلاً حسناً ويكتبون للناس كلهم وفيهم المستشرقون والمستغربون والمنصرون وأعداء الإسلام ممن يلتقطون الشبهات التقاطاً من كتب المسلمين وغيرهم[1] .

رابعاً : أما التقسيم وعرض المادة العلمية فقد جاء حسناً واضحاً في كل الكتب الأربعة ، لكن كتاب ((مناهل العرفان)) كان أحسنها في هذا .

خامساً : استعمل السيوطيّ في كتابه عدداً وافراً من العلوم : علوم الشرع وعلوم الآلة - كاللغة وأصول الفقه - للدلالة على مايريد ، بينما انحصر استعمال العلوم في دائرة أضيقَ عند المصنفين الثلاثة ، ولعل لاستطراد السيوطي وإتيانه بمباحثَ ليست من الإعجاز سبباً في هذا .

سادساً : استعمل المصنفون الثلاثة : الرافعيّ والزرقاني ودراز المنهجَ العلمي الحديث في التصنيف على ماهو معروف من قواعده ، أما السيوطي فقد مزج كتابه بالقصص والوعظ والدعاء مما يؤثر في قارئ الكتاب ويتفاعل معه على مابينته في موضع سابق[2] .

سابعاً : اشترك المصنفون الأربعة في الإتيان بجديد في كتبهم ، إما الجديد مطلقاً أو التجديد في عرض مباحثَ قديمة .

المقارنة بين منهج السيوطيّ ومناهج المصنفين الثلاثة كلٌّ على حِدة :

١- انظر ص ٦٦٩، ٦٨٢، ٦٩٢ من هذا البحث .

٢- انظر ص ٥٢٣ ومابعدها من هذا البحث .

المقارنة بين منهج السيوطي ومنهج الرافعيّ :

أولاً : عرّف الرافعي الإعجاز بينما ترك السيوطيّ ذلك .

ثانياً : قد بين الرافعيّ وجه الإعجاز الذي قَبِله وارتآه ، بينما اكتفى السيوطيّ بسرد أوجه الإعجاز دون بيان مايختاره منها[1] .

ثالثاً : السيوطيّ أوسع دائرة في الإتيان بأوجه الإعجاز وأكثرُ إحاطةً من الرافعيّ .

رابعاً : أسلوب السيوطيّ أسلس وألصق بالأذهان والقلوب من أسلوب الرافعيّ ؛ إذ قد تغمض عبارات الرافعيّ في كثير من الأحيان حتى تَدِقّ عن أفهام القارئ متوسط الثقافة .

المقارنة بين منهج السيوطي ومنهج الزرقانيّ :

لم يتمحّض كتاب ((مناهل العرفان)) لمباحث الإعجاز حيث إن الكتاب مسوق لبيان أنواع عديدة من علوم القرآن ، لكن مباحث الإعجاز فيه جاءت وافية بالمراد كيفاً وكمًّا ، ومما يُقارن به بين الكتابين :

أولاً : عرف الزرقانيّ الإعجاز تعريفاً حسناً وافياً[2] ، بينما لم يعرّفه السيوطيّ .

ثانياً : اشترك المصنفان في إيراد وجوه جديدة في الإعجاز ، وقد سبق بيان ذلك[3] .

١- انظر ص ٣٣٩ ، ٤١٤ من هذه الرسالة .

٢- انظر ((مناهل العرفان)) : ٢ / ٢٢٧ .

٣- انظر صفحة ٤١٤ ومابعدها وصفحة ٦٨٧ ومابعدها .

ثالثاً : اشترك المصنفان في الإتيان بوجوه لاتعلق لها بالإعجاز لكن السيوطيّ توسع في هذا توسعاً كبيراً[1] .

رابعاً : ناقش الزرقاني عدداً من أوجه الإعجاز لم يرتضها[2] ، بينما اكتفى السيوطيّ بإيراد أوجه الإعجاز بدون نقد[3] .

خامساً : أسلوب الزرقانيّ أسلوب علميّ محكم رصين سلس ، ومباحثه جيدة العرض حسنة الترابط ، أما مباحث السيوطيّ فقد اعتراها بعضُ التفكك والضعف وذلك لطول الكتاب ، ولورود مباحثَ فيه طويلةٍ ولاعلاقة لها بالإعجاز قد تخللت مباحث الإعجاز الأصيلة .

المقارنة بين منهج السيوطيّ ومنهج د .دراز

إضافةً لما يشترك المصنفون الثلاثة فيه فإن ماتفرد فيه كتاب ((النبأ العظيم)) وتميز عن ((معترك الأقران)) هو :

أولاً : انصرف جهد الأستاذ دراز في إظهار الإعجاز البيانيّ في كتابه ، بينما أتى السيوطيّ بجميع ماوصل إليه من أوجه الإعجاز .

ثانياً : كان طَرْق الأستاذ دِراز الإعجازَ البياني في القرآن يختلف تماماً عن طَرْق السيوطيّ له ، فإن السيوطيّ ذكر الإعجاز البياني في عدة أوجه طويلة متفرقة في كتابه ؛ فلم يتضح الإعجاز عنده ذلك الوضوح الرائع الذي كان في كتاب د . دراز ، حيث تفنن في عرض الإعجاز البلاغيّ بطريقة لم أرها عند غيره[4] .

١- انظر صفحة ٤١٤ ومابعدها وصفحة ٦٨٧ من هذه الرسالة .

٢- انظر ص ٦٨٦ من هذه الرسالة .

٣- انظر ص ٤١٤ من هذه الرسالة .

٤- انظر ص ٦٩٣ وما بعدها من هذه الرسالة .

هذا ما أردته من عقد المقارنة بين منهج الإمام السيوطيٍّ وبين مناهج بعض المؤلفين المحْدثين ، وبهذه المقارنة ، والمقارنة السابقة بين كتاب ((معترك الأقران)) وبعض الكتب المصنفة قبله وبعده تتضح منزلة كتاب ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) بين كتب الإعجاز القرآني ، ويُعد هذا الباب - البابُ الرابع - تكملة مهمة لِما سبق بيانه في الباب الثاني في مبحث منزلة كتاب الإمام السيوطي : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) بين كتب الإعجاز[1] .

وفي ختام هذا البابِ فإن هناك دراستين أود أن أذكرهما وأُنوّهَ بفضلهما في باب الدراسات الحديثة للإعجاز ، وهما :

١ - ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها ، للأستاذ عبد الكريم الخطيب .

٢ - ((فكرة إعجاز القرآن)) : للأستاذ نعيم حمصي .

أما الكتاب الأول فقد اختار مصنفه عدداً ممن ألف في الإعجاز منذ القرن الثالث إلى القرن الرابع عشر ، فذكر آراءهم في الإعجاز ، ونقد مايحتاج إلى النقد منها ، وقدّم لذلك كله بمقدمة ذكر فيها مباحث مهمة في الإعجاز ، وختم بمباحثَ قرآنيةٍ صرفة دارت حولها الشبهات ، مثل التكرار في القرآن ، ومبحث خلق القرآن ، والنسخ في القرآن إلخ ...

وقد ساق مباحث كتابه بلغة رصينة ، وأسلوب جزل قويّ .

١- انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

أما الكتاب الآخر - ((فكرة إعجاز القرآن)) - فقد كـان كتابـاً متميزاً في بابه ؛ إذ عمد المصنف إلى استقصاء كل من كتب عن الإعجاز ، سواء استقلالاً أوضمن مباحث أُخر ، وسواء أكان الكتاب مطبوعاً أم مخطوطاً ، ورتب المصنفين على قرونهم ، لكنه لم يترجم لهم بل اكتفى بالتعريف بكتبهم ، فأتى بعمل مشكور .

لكن استقصاءه لم يكن تاماً ، إذ فاته بعض الكتب المهمة ، منها كتاب السيوطيّ : ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) ، ولكن لعلّ لتأخر طباعة الكتاب وقلة شهرته سبباً في هذا ، وقد وضحت هذا سابقاً [1] ، ومما فاته - أيضاً - تناول بعض كتب العقائد التي تحدثت عن الإعجاز والمعجزة وشروطها .

والكتابان إضافة مهمة لمكتبة الإعجاز ، ودراسة إحصائية : (بيبلوغرافية) رائدة .

١- انظر ص ٣٢٤ من هذه الرسالة .

الخاتمة

النتائج والاقتراحات

بعد طواف طويل ، وتنقيب في بطون الكتب والرسائل ، أحمد الله - تعالى - على أن جعل هذا الجهدَ خدمة لكتابه ، وأداءً لبعض عظيم حقّه ، وإبرازاً لبعض وجوه إعجازه .

ويتلخص عملي في النقاط التالية :

١- ذكرت في الباب الأول معنى مصطلح (الإعجاز) ، (المعجزة) ، و (الإعجاز القرآني) خاصة ، ثم بينت أسباب نشأة علم الإعجاز ، وبدايات تدوين المصنفات فيه ، وجهود العلماء في هذا الصَّدد ، ثم بينت خطأ مذهب (الصّرفة) ، وضعف رأيٍ من قال بها .

ودرست كذلك بعض الكتب التي ضُمّنت أبحاثاً عن الإعجاز ، وكتباً أخرى استقلت بهذا العلم وخلُصت له .

٢- أما الباب الثاني فقد خصصته لدراسة حياة الإمام السيوطيّ بإيجاز ، ودراسةِ كتابه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) دراسةً أتت على توثيق نسبة الكتاب إلى مصنفه ، وحل إشكالٍ في عنوانه ، ومضمونِ الكتاب ومنزلته العلمية .

٣- أما الباب الثالث فقد درست فيه منهج المصنف دراسة تفصيلية ، وناقشت أوجه الإعجاز التي ساقها ، ومنهجَه في عرضها وبيانها ، ثم عرضت لثلاث قضايا علمية أفردتها بالمناقشة .

٤- ثم في الباب الرابع عقدت مقارنة بين كتاب الإمام السيوطيّ وكتبٍ لبعضِ من تقدمه في التصنيف ، وكتبٍ لبعض من جاء بعده .

وقد نظرت في ((معترك الأقران)) وعايشته مدة طويلة ، وخلصتُ من دراسته إلى بعض النتائج ، كان بعضها متعلقاً بدراسة علم الإعجاز القرآني والدراسات المصنفة فيه ، وبعضها الآخر متعلقاً بكتاب الإمام السيوطي ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) .

أ – النتائج المتعلقة بدراسة علم الإعجاز القرآني ، والكتب التي صُنِّفت فيه :

١- إن القرآن العظيم له تأثير كبير على نفوس من يسمعه أو يقرؤه سواء كان كافراً أو مؤمناً ، وقد ثبت أن الكافر إذا أنصف فإنه ينتهي إلى الإسلام والإيمانِ بهذا الكتاب ، وأنه من عند الله حقاً وصدقاً ، حدث ذلك في عصر الرسالة ، وفي عصور مختلفة حتى عصرنا الحاضر .

وهذا التأثر بالسماع والقراءة هو الذي يُفضي إلى التسليم بإعجاز القرآن البيانيّ ، وأثره القاهر في النفوس ، وإن أنكره من كَلّ بصرُه ، وغُطي على قلبه .

٢- كما أن للقرآن العظيم تأثيراً في قارئيه وسامعيه ، فإن له تأثيراً في دارسيه ، فقد دفعت المعجزة القرآنية العلماء لدراستها دراسة فاحصة فتكونت دراسات مهمة في علوم القرآن عموماً وفي الإعجاز خصوصاً ، وقد تطورت هذه الدراسات عبر القرون لكن مسألة إعجاز القرآن مازالت بحاجة إلى دراسات متعمقة أكثر لزيادة فهمها ، سواء أكانت تلك الدراسات متعلقة بظاهرة الإعجاز نفسها ، أم بأثرها على تطور دراسات البلاغة العربية ، أم بأثرها على الدراسات الإسلامية والحياة الفكرية عامة .

٣- وقد كانت الدراسات المصنفة في الإعجاز تقلّ أو تكثر عبر القرون بحسَب تناول فطاحل العلماء لها وإبرازهم إياها ، حتى إذا كان عصر النهضة العلمية والأدبية في القرن الرابع عشر الهجريّ تصدّى عدد من العلماء لمسألة الإعجاز ، ودراسةِ ماصُنف فيه ، وقد كان لدراساتهم تلك أثرٌ قويّ في بيان وتقويم جهود قدامى المصنفين في الإعجاز ، لكن تلك الدراساتِ الحديثة غير كافية ؛ إذ تُعدُّ افتتاحاً لدراسات مركزة مطلوبة تكون أكثر تعمقاً وأوسعَ تناولاً لظاهرة الإعجاز ونقدِ الدراسات المصنفة فيها .

٤- قد قيل في وجوه الإعجاز أقوال كثيرة غالبها مقبول ، وبعضها إلى الخصائص والفضائل والدلالةِ على مصدر القرآن ألصقُ منها بالإعجاز .

٥- لقد كان لقدامى المصنفين الفضلُ الأكبر في كشف النقاب عن أوجه الإعجاز المختلفة والكلام عليها ، ولم يكن لمن بعدهم - غالباً - إلا الجمع وحسن العرض والبيان ، إلا ماكان من أمر المصنفين المحدثين فقد ساعدت المكتشفات العلمية على تكوين دراسات جديدة ومؤثرة في توضيح الإعجاز التشريعي والعلمي في القرآن العظيم .

٦- قد اجتمع في هذا البحثِ كثير من وجوه الإعجاز التي تفرقت في بطون الكتب ، بل عمدتُ إلى إنشاء فهرس يضم كلَّ ماتناهى إلى علمي من أوجه الإعجاز منذ بداية التصنيف فيها إلى عصرنا الحاضر سواء وردت في الرسالة أو لم ترد .

٧- للإعجاز البياني أهمية لاتنكر في ميدان دراسة إعجاز القرآن العظيم ، لكن أهل عصرنا بحاجة أكثر إلى بيان الإعجاز التشريعيّ والعلمي لهم .

ب : النتائج المتعلقة بكتاب الإمام السيوطيّ ((معترك الأقران)) :

١- قد كان لكتاب الإمام السيوطيّ جملةٌ من المميزات التي تتمثل في :

أ - الإحاطة بأكثر وجوه الإعجاز ، وتفصيل الكلام على غالب الأوجه التي ساقها .

ب - تقرير أوجه جديدة في الإعجاز .

جـ - إبراز بعض أوجه الإعجاز - التي ذكرها مَن قبله - في حُلّة جديدة .

٢- وهناك بعض المآخذ التي تتمثل في :

أ- الاستطراد :

قد ذكر الإمام السيوطي عدداً من الأوجه لاتعلق لها بالإعجاز ، وتوسع في تناول بعض أوجه الإعجاز المعروفة توسعاً كبيراً .

ب : عدم الترجيح :

قد ساق الإمام السيوطيّ كل الأوجه في كتابه على أنها أوجه إعجاز ، فلم يرجح بعضها على بعض ، ولم يخرج برأي محدد واضح في الإعجاز .

٣- عدم النقد :

غابت الناحية النقدية في الكتاب إلا في مواضعَ قليلةٍ متفرقة ، ولم يكن ذلك النقد موجهاً لمباحثَ كلية في الإعجاز .

قد تبدت لي بعد دراستي للكتاب مجموعةٌ من الاقتراحات أرجو أن تكون نافعة في بابها إن شاء الله تعالى :

أولاً : تأليف كتاب جامع في الإعجاز :

ليس هناك كتاب مصنف جامع لوجوه الإعجاز المتنوعة ، لذا أقترح على الدارسين والباحثين في الكليات المتخصصة التعاون لإخراج مثل هذا المصنف النافع ، الجامعِ لما تفرق في بطون الكتب القديمة والحديثة .

ثانياً : التوسع في بيان الإعجاز البيانيّ :

ليس صحيحاً مايُشاع أنه ليس للإعجاز البياني أهمية في هذا الزمان ، بل له مدخلان :

١- بيان أنه قد أعجز أسلافَنا فنحن عنه أعجز .

٢- عرض تأثير القرآن البياني في نفوس الذين عاصروا زمن الرسالة ومن جاء بعدهم ، ففي ذلك العرض فائدة في بيان أهمية الإعجاز البيانيّ ، وهو مؤثر أيضاً في عدد كبير من الناس في هذا الزمان ؛ وذلك لأن الله تعالى أنزله بلسان عربي مبين ، وسهّل على الناس فهمه وتدبره .

لذا أقترح أن تتولّى الهيئات العلمية وخاصة الجامعات المتخصصة تحديد الإعجاز البياني والكشفَ عن أسراره ؛ إذ قد تاه أكثر جوانبه في أودية البلاغة ومصطلحاتها ومعانيها ، ولهذا لم يعد واضحاً لعامّة الناس أثرُ الإعجاز البياني وأهميته .

ثالثاً : التوسع في بيان الإعجاز التشريعي :

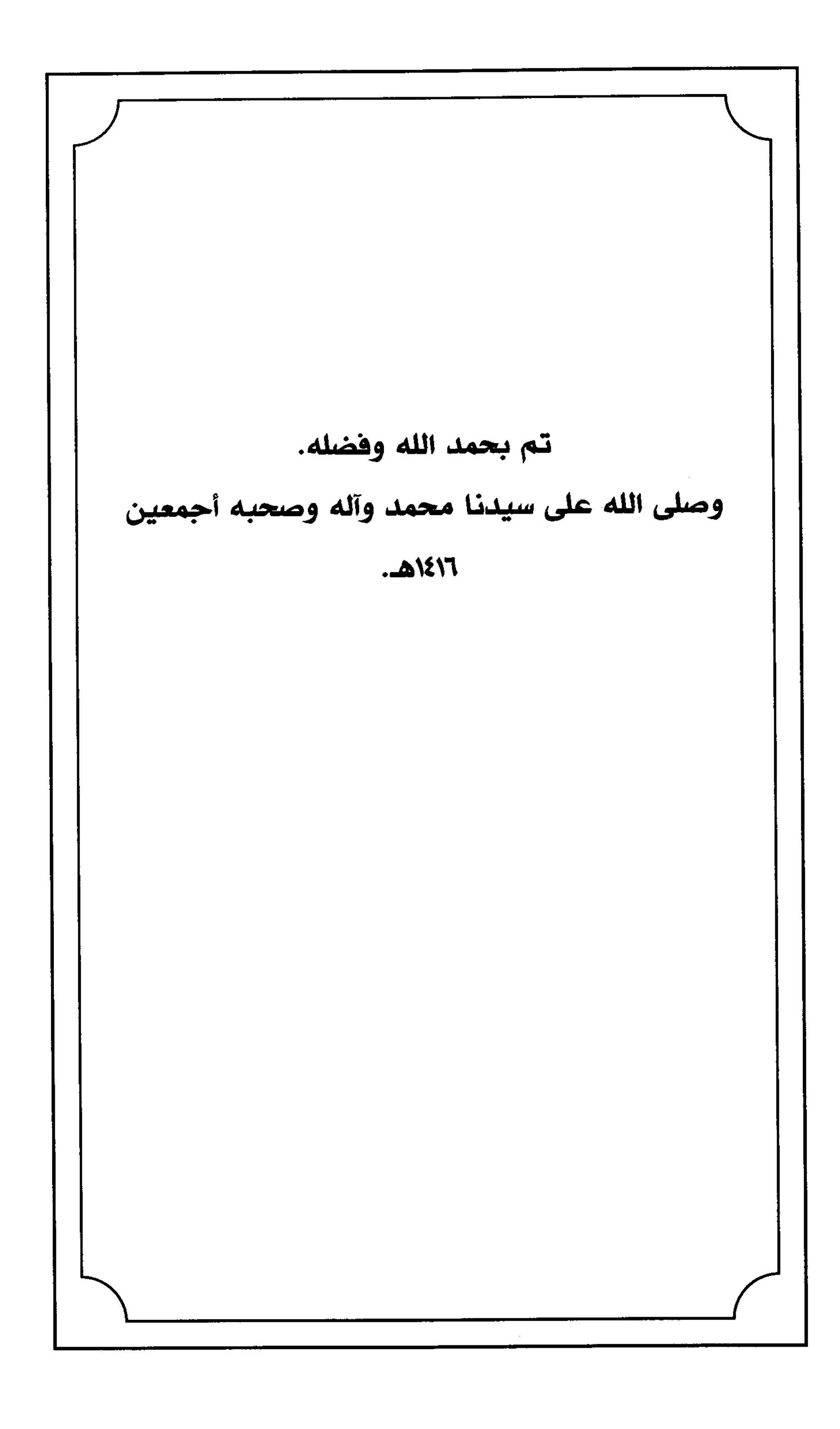
الإعجاز التشريعيّ وجهٌ جامع من وجوه الإعجاز القرآنيّ ، بل إن الشريعة بمعناها الجامع الذي يضم العقيدة ، والأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات هي اللب المقصود من دعوة القرآن .

لكنّ هذا الإعجازَ التشريعي القرآني لم يأخذ حظه الكامل من الدراسة العلمية ، بل لم يُفرد فيه كتاب واحد - فيما علمت ، بالمعنى الذي ذكرته - إنما كتب فيه مقالات متناثرة ، وأبحاث يسيرة متفرقة في بطون الكتب مثل ((مناهل العرفان)) للزرقاني .

لذلك أقترح على الباحثين والجامعات المتخصصة إبراز هذا الوجهِ والتركيز عليه وتوجيه طلاب الدراسات العليا لدراسته لشدة أهميته في العصر الحديث ، وعظيم تعلقه بالدراسات التي تخدم القرآن والدعوة الإسلامية ، وذلك أسوة بالإعجاز العلمي الذي تولت هيئة خاصة إبرازه والإشراف على الأبحاث المتعلقة به[١] .

هذا واللهُ - تعالى - أعلم وأحكم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

١- وتسمى هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، وهي تابعة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .



تم بحمد الله وفضله.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

١٤١٦هـ.

فهرس الفهارس

الصفحة

١ – فهرس الآيات الكريمة[1]

الآية	رقم الآية	الصفحة
(سورة الفاتحة)		
﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾	١	٤٢٧، ٥٧٩، ٥٩٤
﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾	٦	٣٩٩
(سورة البقرة)		
﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾	٢	٥٣٠
﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾	٣	٥٨١
﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾	٥	٣٩٩
﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾	٤	٥٨١
﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾	١٧	٣٩٢
﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾	٢٢	٥٣٨
﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا ﴾	٢٣	٥٦ ، ١٢٠ ، ١٣٠، ٦٢٧، ٦٦١
﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا ﴾	٢٤	٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧، ٦٧ ، ٤٩٥
﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾	٣٨	٤٠٠
﴿ السَّلْوَىٰ ﴾	٥٧	٤٩٩
﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾	٥٨	٣٥٥
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾	٥٨	٣٦٣ ، ٤٩٩
﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾	٥٨	٤٩٩

١– رتبت هذا الفهرس على ترتيب السور في المصحف الشريف ، ورتبت الآيات الكريمة حسب أرقامها في سورها .

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾	١٨٩	٦٤٧
﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾	١٩٦	٣٧٢
﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾	٢٠٠	٤١٢
﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم اللـه في ظلل من الغمام ﴾	٢١٠	٤٩٠
﴿ الطلاق مرتان ﴾	٢٢٩	٤٦٨، ٤٦٩
﴿ فلا تقربوها ﴾	٢٢٩	٣٥٥
﴿ تعضلوهن ﴾	٢٣٢	٤٠٤
﴿ أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح ﴾	٢٣٧	٣٧١
﴿ التابوت ﴾	٢٤٨	٥٥٢
﴿ لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة ﴾	٢٥٤	٥٧٩ ، ٥٩٣
﴿ ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم .... واللـه لايهدي القوم الظالمين ﴾	٢٥٨	٤٠١،٣٦٧ ، ٤٥٣
﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة ﴾	٢٦٦	٤٤٣ ، ٤٤٤
﴿ ءامن ﴾	٢٨٥	٤٠٥
﴿ لها ماكسبت وعليها ماكتسبت ﴾	٢٨٦	٤٢٦

(سورة آل عمران)

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب .... ﴾	٧	٤٩٤
﴿ كذلك اللـه يفعل مايشاء ﴾	٤٠	٤٨٥،٤٨٦
﴿ من تراب ﴾	٥٩	٤٦٠

(سورة النساء)

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾	٨٧	٤٠٩
﴿غَضِبَ اللَّهُ﴾	٩٣	٤٩٣
﴿مَّوْقُوتًا﴾	١٠٣	٥٠٤
﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾	١٢٧	٣٧١
﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾	١٥٨	٣٥٧
﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾	١٦٢	٥٤٩
﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾	١٧١	٣٦٧
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾	١٧٤	٤٨

(سورة المائدة)

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾	١	٤١٣
﴿ قَالَ رَجُلَانِ ﴾	٢٣	٥٥٨
﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ ﴾	٣١	٢٦ ، ٤٣
﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾	٥٤	٤٩٣
﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾	٥٩	٤٢٩
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ﴾	٦٩	٥٤٩
﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾	١٠١	٤٦٧
﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾	١٠٢	٤٦٧
﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾	١١٧	٤٥٧
﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾	١١٩	٤٩٣

(سورة الأنفال)

(سورة التوبة)

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾	٣٣	٦٤٢
﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا ﴾	٣٥	٤١٠
﴿ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا ﴾	٣٧	٤١٠
﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾	٣٩	٣٠٦
﴿ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾	٤٢	٤١٠
﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾	٦١	٤٣٠، ٤٦٦
﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾	٦٧	١٧٩
﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾	٧٤	٤٢٩
﴿ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾	١٠٢	٥١٠
﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾	١٠٦	٣٠٦
﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ﴾	١٢٤	٧
﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾	١٢٧	١٧٩
(سورة يونس)		
﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾	١٥	٦٨٦
﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾	٣٨	٥٦، ١٢٧، ١٣٢، ٦٦٢، ٦٦٤
﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾	٣٩	٣٩٣

الآية	رقم الآية	الصفحة
﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾	٤، ٥	٦٤١
(سورة الكوثر)		
﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾	١	٢٥٣، ٣٣٨

٢ – فهرس القراءات الشاذة[١]

١ – قد رتبت هذ الفهرس على حسب ترتيب السور .

٣ – فهرس الأحاديث الشريفة[١]

حرف الهمزة — الصفحة

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف السين

١- رتبت هذا الفهرس على حسب الحروف الهجائية ، واكتفيت – إن كان الحديث طويلاً – بإيراد طرف منه .

وقد وضعت علامة (*) على الضعيف ، وعلامة (**) على الموضوع ، وعلامة (***) على مالم أجده .

حرف الفاء	الصفحة
((فطلبوها فأعجزتهم))	٤٦
((فقال يامحمد : فقرار الأرض من أي شيء)) **..	٢٩٩

٤ – فهرس الآثار[1]

١- إعني بالآثار المرويّ عن الصحابة رضي الله عنهم والمرويَّ عن التابعين رحمهم الله .

وقد رتبت هذا الفهرس على الحروف الهجائية ، واكتفيت بإيراد طرف الأثر إن كان طويلاً .

وقد وضعت علامة (*) على الضعيف وعلامة (**) على الموضوع ، وعلامة (***) على مالم أجده .

الصفحة

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف اللام ألف

حرف الياء

٥ – فهرس وجوه الإعجاز

ذكرت أثناء البحث عدة وجوه للإعجاز ، منها ما ذكره السيوطي ومنها ما ذكره غيره من العلماء ، وسأذكرها في هذا الفهرس مضافاً إليها جميع ماوقفتُ عليه من وجوه الإعجاز في كتب أهل العلم .

وسأقتصر على الوجوه الأصلية المتفردة التي لاتندرج تحت وجه آخر أعم منها :

أولاً : الوجوه المذكورة في هذا البحث :

١ – الإعجاز بالبلاغة والفصاحة والنظم .

٢ – الإعجاز بأخبار الغيب .

٣ – الإعجاز بالأسلوب .

٤ – الإعجاز بالعلوم والمعارف .

٥ – اشتمال القرآن على الحقائق والأسرار والدقائق .

٦ – الإعجاز أمر لايستطاع التعبير عنه .

٧ – خلو القرآن من الاختلاف والتناقض .

٨ – التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كُلفت في ذلك ملايطاق ، وفيه وقع عجزها .

٩ – الجمع في القرآن بين الدليل والمدلول .

١٠ – الإعجاز بالآيات المشتبهات (على اعتبار جزئي معين فيها) .

١١ – اشتماله على جميع أنواع البراهين والأدلة .

١٢ – الإعجاز بـ (الصَّرْفة) .

١٣ – الإعجاز بمجموع أوجه منها (الصَّرفة)[١] .

ثانياً : الوجوه المذكورة في غير هذا البحث :

١ – الإعجاز التشريعي[٢] .

٢ – الإعجاز العلمي[٣] .

٣ – الإعجاز النفسي[٤] .

١– انظر في الوجوه السابقة ص ٢١١ ، ٢١٢ ، ٤١٨.

٢– قد ذُكر الإعجاز التشريعي في هذه الرسالة عَرَضاً ، انظر ص ٦٦٩ ، لكن انظر في تفصيله كتاب ((مباحث في إعجاز القرآن)) للدكتور مصطفى مسلم : ٢٢١ – ٢٤٦ .

٣– انظر فيه المصدر السابق : ١٤٧ – ٢١٩ ، وكتابَ ((المعجزة الخالدة)) : ٣٣٤ – ٣٣٧ ، وكتاب ((مناهل العرفان)) . ٢ / ٢٧٨ – ٣١٦ .

٤– المقصود به حديث القرآن عن النفس الإنسانية وبيانه لصفاتها ، وتحليله لها ، والمقصود به أيضاً تأثير القرآن في النفس الإنسانية ، وانظر ((البيان في إعجاز القرآن)) : ٣٣١ – ٣٥١ ، و((المعجزة الخالدة)) : ٣٤١ – ٣٤٤ .

٦ – فهرس المصطلحات الأصولية[1]

١- سأذكر موضع تعريف المصطلح فقط .

وقد رتبت هذا الفهرسَ على حسب الحروف الهجائية بعد حذف أداة التعريف (أل) .

٧ – فهرس المصطلحات العلمية[١]

١– سأذكر موضع تعريف المصطلح فقط إلا (الصَّرفة) فأذكر جميع صفحاتها لتعلقها بمباحث الإعجاز .
وقد رتبت هذا الفهرس على حسب حروف الهجائية مع حذف أداة التعريف (أل) .

٨- فهرس المصطلحات البلاغية[١]

١- سأذكر موضع تعريف المصطلح فقط .

٩ – فهرس الشواهد الشعرية[1]

١ – رُتب هذا الفهرس على حروف الهجاء باعتبار آخر البيت .

١٠ - فهرس القبائل[1]

الصفحة

١- قد رتبت هذا الفهرس على حسب حروف الهجاء بعد حذف (بنو)

١١ – فهرس الطوائف والأمم[1]

١– قد رتبت هذا الفهرس على حسب حروف الهجاء بعد حذف أداة التعريف (أل) وحذف (بنو) .

١٢ - فهرس الفرق والجماعات[1]

١- قد رتبت الفهرس على حسب حروف الهجاء بعد حذف أداة التعريف (أل) .

١٣ - فهرس الأماكن والبلدان

الصفحة

١٤ - فهرس الأعلام[1]

١- الصفحة التي تُرجم فيها العَلَم أضعها بين قوسين هكذا : (...) وما لم توجد هذه العلامة في الترجمة فإن هذا يعني أني لم أترجم للعلم ، أو لم أجد ترجمته .

وقد رتبت هذا الفهرسَ على حسب الحروف الهجائية بعد حذف أداة التعريف (أل) ، و (أبو) و (ابن) و (أم) و (بنت) .

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

١٥- فهرس مصادر ومراجع الإمام السيوطيّ
في كتابه ((معترك الأقران في إعجاز القرآن))

من تمام الفائدة العلمية لدراسة هذا الكتاب ذكرُ المصادر والمراجع التي رجع إليها الإمام السيوطيّ في كتابه هذا ، والكلام عليها من حيث كونها مطبوعة ، أو مخطوطة ، أو مفقودة .

وهناك عدة ملاحظات أسوقها بين يدي هذا الفهرس هي :

أولاً : قد حكمت على الكتاب بأنه مفقود بعد بحثي عنه في مظانه من فهارس الكتب المحققة ، ومقدماتِ التحقيق لكتب مماثلة في العلم نفسه ، ومراجعة الكتب التي تتحدث عن مصادر ومراجع العلوم إلخ ...

ثانياً : إذا كان الكتاب مطبوعاً متداولاً معروفاً بين طلبة العلم اكتفيت بالإشارة إلى أنه مطبوع ، وإلا ذكرت المحقق - إن وُجد - ودار النشر ، وبلد النشر .

ثالثاً : قد يسمي السيوطي الكتاب بغير اسمه المشهور ، فأضعه في مكانه من ترتيب الفهرس باسمه المعروف ، وأشير في المتن أو الهامش إلى ماسماه به الإمام السيوطيّ .

رابعاً : قد يخفى عليّ حال الكتاب من كونه مفقوداً أو مخطوطاً ، أو قد يخفى عليّ مادته أو مصنفه ، أو هما معاً ، فأبين هذا الخفاء .

خامساً : رتبت هذه المراجع على حروف الهجاء ، بعد حذف أداة التعريف (ألْ) .

حرف الهمزة

١ - ((الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة)) : ابن شمس الخلافة = جعفر بن محمد (ت ٦٢٢هـ) .
والكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ٢ / ١٢٨ - ١٢٩ .
وسماه السيوطيّ : ((الآداب)) اختصاراً .

٢ - ((الإبهاج في شرح المنهاج))[١] : أي شرح ((منهاج الوصول إلى علم الأصول)) للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) .
و ((الإبهاج)) من تأليف الإمام تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكيّ (ت٧٥٦هـ) .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت .

٣ - ((إحكام الراي في أحكام الآي)) : شمس الدين ابن الصائغ = محمد بن عبد الرحمن بن علي (ت ٧٧٦هـ) .
الكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

٤ - ((إحياء علوم الدين)) : الإمام أبوحامد محمد بن محمد الغزاليّ : (ت٥٠٥هـ) .
مطبوع مراراً .

٥ - ((الأدب المفرد)) : الإمام محمد بن إسماعيل البخاريّ (ت ٢٥٦هـ) .
مطبوع مراراً .

٦ - ((الأذكار)) : محي الدين يحيى بن شرف النوويّ (ت ٦٧٦هـ) .
مطبوع مراراً .

٧ - ((ارتشاف الضَّرَب[٢] من لسان العرب)) : الإمام أبو حيّان الأندلسي = محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ) .
مطبوع بتحقيق الدكتور مصطفى النماس . مصر .

١- سماه السيوطي : ((شرح المنهاج)) .

٢- الضَّرَب : نوع من العسل : انظر ((لسان العرب)) : ض ر ب .

وهذا الكتاب مختصر لكتاب ((التذييل والتكميل في شرح التسهيل)) ، وقد طبع جزء من هذا الكتاب بمطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٨ هـ ، وانظر مقدمة تحقيق كتاب ((تقريب المقرّب)) : ١٧ - ١٨ ، وكتابُ ((شرح التسهيل)) للإمام محمد ابن عبد الله بن مالك (ت ٦٧٢هـ) ، وهو في النحو ، ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية ، كما في مقدمة تحقيق كتاب ((شرح عمدة الحافظ)) : ٥٤ - ٥٥ .

٨ - ((الإرشاد في القراءات العشر)) : أبوبكر محمد بن الحسين الواسطيّ القلانسيّ (ت ٥٢١هـ) .

مطبوع بتحقيق الأستاذ عمر الكُبيسيّ . نشر المكتبة الفيصلية . مكة المكرمة .

٩ - ((أسرار التنزيل)) : شرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم البارزيّ (ت ٧٣٨هـ) .

الكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٠ - ((الأسماء والصفات)) :الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .

نشرته دار الكتب العلمية . بيروت . وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٣٥٨ هـ ، طبع مكتبة السعادة .

١١ - ((الإعجاز)) : ابن سراقة .

الكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٢ - ((الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض)) : تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكيّ (ت ٧٥٦هـ) .

الكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٣ - ((الافراد)) : الإمام أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) .

الكتاب مصنف في التفسير والمعاني كما رجح محقق كتاب ((مجمل اللغة)) لابن فارس ، وقد ذكر أنه مفقود ، انظر ((مجمل اللغة)) : ١ / ٤٣ .

و لم أطَلع على من ضبط اسم الكتاب .

١٤ - ((الاقتصاص بين الحصر والاختصاص)) : تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكيّ (ت ٧٥٦هـ) .

قد سماه السيوطي في ((الإتقان)) : ١ / ٨ : ((الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص)) .

والكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٥ - ((أقصى القُرَب في صناعة الأدب)) : زين الدين محمد بن محمد بن محمد التنوخيّ (ت ٧٤٨هـ) .

الكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ٧ / ٣٥ .

وسماه السيوطي : ((الأقصى القريب)) ، وجاء اسم الكتاب في ((كشف الظنون)) : ١ / ١٣٧ : ((أقصى القُرَب في صناعة الأدب)) ، وكذا سمّاه صاحب ((الأعلام)) .

١٦ - ((أمالي الرافعيّ على الفاتحة)) : الإمام عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافعيّ (ت ٦٢٣هـ) .

الكتاب مخطوط كما في ((الأعلام)) : ٤ / ٥٥ .

١٧ - ((الإمام في شرح الإلمام)) : و ((الإلمام)) في أحاديث الأحكام .

وكلا الكتابين لابن دقيق العيد = تقي الدين محمد بن علي بن وهب القُشيريّ (ت ٧٠٢هـ) .

والشرح لم يتم ، ومنه نسخة مخطوطة في المكتبة الأزهرية كما في ((الأعلام)) : ٦ / ٢٨٣ ، أما ((الإلمام)) فهو مطبوع .

١٩ - ((الانتصار لنقل القرآن)) : الإمام محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) .

طبع مختصره باسم ((نكت الانتصار)) بتحقيق د . محمد سلام ، ونشرته منشأة المعارف بالإسكندرية ، مخطوط موجودٌ بعضه ومفقود بعضه الآخر ، كما في مقدمة تحقيق كتاب ((نكت الانتصار)) .

٢٠ - ((الإيضاح شرح المفصّل))[1] : أبو عمرو ابن الحاجب = عثمان بن عمر ابن أبي بكر (ت ٦٤٦هـ) .

وكتاب ((المفصل)) للإمام محمود بن عمر الزمخشريّ (ت ٥٣٨هـ) .

١- سماه السيوطي : ((شرح المفصّل)) .

واقتصر السيوطي على تسميته : شرح المفصل ، وقد ذكر الأستاذ عبد السلام هارون أن اسمه ((الإيضاح)) ، انظر ((خزانة الأدب)) : ١٣ / ١٠٦ ، و ((الأعلام)) : ٤ /٢١١ ، وقد ذكر الأستاذ الزركلي أن منه نسخة مخطوطة .

٢١ - ((إيضاح المعاني)) : الخطيب القزويني = محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) .

وهو شرح ((التلخيص)) : له أيضاً .

والكتاب مطبوع في مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ، بتحقيق لجنة من الأساتذة .

٢٢ - ((إيضاح الوقف والابتداء))[1] : أبوبكر الأنباري = عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله (ت ٥٧٧هـ) .

طبع بتحقيق د . محيي الدين رمضان ، ونشره مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٩١ .

حرف الباء

٢٣ - ((بديع القرآن)) : ابن أبي الإصبع المصري عبد العظيم بن عبد الواحد = (ت ٦٥٤هـ) .

طُبع في مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ هـ ، وحققه د . حفني شرف .

٢٤ - ((البرهان في أصول الفقه)) : إمام الحرمين = عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت ٤٧٨هـ) .

نشرته دار الأنصار بالقاهرة ، بتحقيق د . عبد العظيم الديب .

٢٥ - ((البرهان في إعجاز القرآن))[2] : ابن أبي الإصبع = عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤هـ) .

منه نسخة مخطوطة في مكتبة ((تشستربتي)) في المملكة المتحدة ، كما في ((الأعلام)) : ٤ / ٣٠ .

٢٦ - ((البرهان في مشكلات القرآن)) : عزيزي بن عبد الملك (شَيْذَلة) .

(ت ٤٩٤هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

٢٧ - ((بستان العارفين)) : أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ) .

مطبوع أكثر من مرة .

٢٨ - ((البسيط)) .

٢٩ - ((الوجيز)) : كلا الكتابين لأبي الفتح أحمد بن علي بن بَرْهان الشافعي (ت ٥١٨هـ) .

والكتابان في الفقه وأصوله كما في ((الأعلام)) : ١ / ١٧٣ ، ويبدو أنهما مفقودان ، والله أعلم .

حرف التاء

٣٠ - ((تاريخ دمشق)) : الإمام أبوالقاسم ابن عساكر = علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) .

مطبوع أكثره باعتناء مجمع اللغة بدمشق ، وطبع مختصره بدار الفكر باختصار ابن منظور ، وطبع مختصر ابن بدران له ، أيضاً .

وهناك طبعة حديدة كاملة في ثلاثين مجلداً ، نشر دار الباز ، سنة ١٤١٦ هـ .

٣١ - ((تاريخ الإمام أحمد)) : لعله : ((العلل ومعرفة الرجال)) كما ذكر محقق كتاب ((العلل)) ، نقلاً عن ابن النديم في فهرسته . والكتاب مطبوع في الدار السلفية ببومباي بتحقيق د . وصي الله عباس : انظر ص : ١٥ - ١٦ من الكتاب .

٣٢ - ((التاريخ الكبير)) : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) .

مطبوع مراراً .

٣٣ - ((التاريخ المظفري)) : ابراهيم بن عبد الله بن أبي الدم الحمويّ (ت ٦٤٢هـ) .

للكتاب عدة نسخ مخطوطة تنظر في ((الأعلام)) : ١ / ٤٩ .

١- سماه الإمام السيوطيّ : ((الوقف والابتداء)) .

٢- سماه الإمام السيوطيّ : ((الإعجاز)) .

وذكر الزركلي أنه قد تُرجم منه إلى الإيطالية الجزء الخاص بـ (صقلية) وطبع .

٣٤ – ((التبيان في آداب حملة القرآن))[1] : الإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

طبع مراراً .

٣٥ – ((التبيان في أقسام القرآن)) : الإمام ابن قيم الجوزية = محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) .

مطبوع .

٣٦ – ((التبيان في المعاني والبيان)) : الحسين بن محمد الطيبيّ (ت ٧٤٣هـ) .

وللكتاب نسخة مخطوطة في مكتبة ((عارف حكمت)) في المدينة المنورة ، وفي مكتبة ((تشستربتي)) في المملكة المتحدة ، كما في ((الأعلام)) : ٢ / ٢٥٦ .

٣٧ – ((تحرير التحبير)) : ابن أبي الإصبع المصري = عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤هـ) .

طُبع في القاهرة بتحقيق د . حفني شرف سنة ١٣٨٣هـ .

٣٨ – ((تحفة الأقران فيما قُرئ بالثلاثة من حروف القرآن)) : أحمد بن يوسف ابن مالك الرُّعَيْنِيّ (ت ٧٧٩هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

٣٩ – ((تذكرة النحاة)) : الإمام أبو حيان الأندلسيّ = محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ) .

طبع . بتحقيق د . عفيف عبد الرحمن ، ونشرته دار الرسالة ببيروت .

٤٠ – تفسير ابن أبي حاتم = تفسير القرآن العظيم .

وابن أبي حاتم هو عبد الرحمن بن محمد بن إدريس (ت ٣٢٧هـ) .

حقق الموجود من الكتاب في جامعة أم القرى ، ويصدر تباعاً عن مكتبة الدار ، ومكتبة طيبة ، وكلاهما بالمدينة ، ومكتبة ابن القيم بالدمام .

٤١ – تفسير ابن حبيب النيسابوري = الحسن بن محمد بن حبيب الينسابوريّ (ت ٤٠٦هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

٤٢ – تفسير ابن رشيق . لم أجد ترجمة المصنف.

والكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

٤٠ – تفسير أبي محمد الجوينيّ = عبد الله بن يوسف بن محمد (ت ٤٣٨هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

٤١ – تفسير أبي الليث = لعله أبو الليث نصر بن محمد السمرقنديّ (ت ٣٧٣هـ) .

وقد طُبع الكتاب أخيراً ، ونشرته دار الكتب العلمية ببيروت في ثلاثة مجلدات .

٤٢ – تفسير الأصبهاني .

هناك عدة تفاسير لعدد من العلماء من أصبهان ، ولم أتبين مراد السيوطي هنا ، ويُنظر ((أعلام الدرسات القرآنية)) : ٧٣ – ٧٤ ، ٩٧ ، ١٣٥ – ١٣٦ ، ٢٥٦ – ٢٥٧، و ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ٢ / ١٣٠ – ١٣١ ، ٣ / ٤٩ .

وقد جزم د . عمر الساريسي أن الأصبهاني هذا إنما هو الراغب = الحسين بن محمد ابن المفضل (ت ٥٠٢هـ) وقد استعان بكتابه هذا السيوطيّ في ((الإتقان)) ، وانظر ((الراغب الأصبهاني وجهوده في اللغة والأدب)) : ٧٢-٧٣ .

٤٣ – تفسير سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني (ت ٢٢٧هـ) .

وهو جزء من سننه كما في ((الإتقان)) : ١ / ٧ ، والسنن مطبوعة .

٤٤ – تفسير عبد بن حُميد بن نصر الكِسِّيّ (ت ٢٤٩هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١– سماه السيوطي : آداب القرآن .

٤٥ - تفسير عبد الرزاق بن هَمّام الصنعانيّ (ت ٢١١هـ) .

نشرته مكتبة الرشد بالرياض بتحقيق د . مصطفى مسلم ، وعنوان الكتاب ((تفسير القرآن)) .

٤٦ - تفسير علي بن إبراهيم العوفيّ = كذا ورد لقبه ، ولعله : علي بن إبراهيم الحَوْفيّ . (ت ٤٣٠هـ) ، وكتابه مخطوط كما في ((الأعلام)) : ٤ / ٢٥٠ .

٤٧ - تفسير علي بن سهل النيسابوريّ .

لم أعرف المصنف ، والكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

٤٨ - تفسير الكواشي = أحمد بن يوسف الشيباني الكواشيّ (ت ٦٨٠هـ) .

منه عدة نسخ مخطوطة تنظر في ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ٢ / ٢٠٨ .

٤٩ - تفسير الكواشي الأوسط . ولعله ((التلخيص)) للكواشي .

انظر نسخه المخطوطة في ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : ٣ / ٤٤ .

٥٠ - ((تلخيص المفتاح)) : التلخيص للقزويني = محمد بن عبد الرحمن (ت ٧٣٩هـ) ، والمفتاح للسكاكي = يوسف بن محمد (ت ٦٢٦هـ) ، وكلا الكتابين مطبوع مراراً .

وسماه السيوطي اختصاراً : ((التلخيص)) .

٥١ - ((التمهيد لمافي الموطأ من المعاني والأسانيد)) : الإمام يوسف بن عبد البر القرطبي (ت ٤٦٣هـ) .

مطبوع في المغرب بعناية وزارة الأوقاف .

٥٢ - ((التنقيح))[1] : الإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

و ((الوسيط)) للإمام محمد بن محمد الغزاليّ (ت ٥٠٥هـ) .

فهو و ((الوسيط)) مطبوع أما ((التنقيح)) مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

٥٣ - ((تهذيب الأسماء واللغات)) : الإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

مطبوع مراراً .

سماه السيوطي اختصاراً : تهذيب النووي .

٥٤ - ((التوبة)) : الإمام عبد الله بن أحمد بن عُبيد ابن أبي الدينا (ت ٢٨١هـ) .

مطبوع مراراً .

حرف الجيم

٥٥ - ((جامع البيان عن تأويل آي القرآن)) : الإمام محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت ٣١٠هـ) .

مطبوع مراراً .

٥٦ - ((الجامع الصحيح)) : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) . مطبوع مراراً .

٥٧ - ((الجامع الصحيح)) : الإمام محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت ٢٧٩هـ) .

مطبوع مراراً .

٥٨ - ((الجامع الصحيح)) : الإمام مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ) .

مطبوع مراراً .

٥٩ - ((الجامع الكبير في تفسير القرآن)): أو ((الجامع في علوم القرآن))[2]: علي ابن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ) .

يوجد منه تفسير حزء عم مخطوطاً في ((التيمورية)) بدار الكتب المصرية ، كما في مقدمة تحقيق ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : ١٠ - ١١ .

٦٠ - ((جمال القراء وكمال الإقراء)) : الإمام علي بن محمد السخاويّ (ت ٦٤٣هـ) .

١- سماه السيوطيّ : ((شرح الوسيط)) .

٢- سماه السيوطي : ((تفسير الرمانيّ)) .

مطبوع بتحقيق د . علي البواب ، ونشرته مكتبة التراث بمكة المكرمة .

حرف الحاء

٦١ - ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) : الإمام أبونعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانيّ (ت ٤٣٠هـ) . مطبوع .

٦٢ - ((حواشي الكشاف)) : محمد بن محمد الرازي = القطب الرازي (ت ٧٦٦هـ) .

وحاشيته هذه مخطوطة ، منها نسخة في مكتبة ((تشستربتي)) في المملكة المتحدة ، كما في ((الأعلام)) : ٧ / ٣٨ .

وقد جمع السيوطي فقال : ((حواشي)) ، ولاأدري مراده .

حرف الخاء

٦٣ - ((الخاطريات)) : عثمان بن جني . (ت : ٣٩٢هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

٦٤ - ((الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح))[1] : ابن أبي الإصبع = عبد العظيم بن عبد الواحد (ت ٦٥٤هـ) .

حققه الأستاذ حفني شرف ، وطبع في القاهرة سنة ١٩٦٠هـ .

حرف الدال

٦٥ - ((درة التنزيل وغُرَّة التأويل)) : محمد بن عبد الله الرازي = الخطيب الإسكافي (ت ٤٢٠هـ) .

طبع مراراً ومنها طبعة نشرته دار الآفاق الجديدة . بيروت .

٦٦ - ((دلائل النبوة)) : الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) .

نشرته دار الوعي بحلب ، ونشره مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدَّكَن .

حرف الذال

٦٧ - ((ذا القِد)) : عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) .

ضبط اسم الكتاب الأستاذُ عبد السلام هارون رحمه الله ، انظر ((خزانة الأدب)) : ١٣ / ٥٨ .

والكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم ، ولا أعرف موضوعه .

حرف الراء

٦٨ - ((رؤوس المسائل وتحفة طلاب الفضائل)) : الإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

قال الإمام السخاوي :

((ذكر فيه من التفسير والحديث والفقه واللغة ، وضوابط ومسائل من العربية وغير ذلك ، جليل في معناه)) : ((المنهل العذب الرويّ في ترجمة قطب الأولياء النوويّ)) : ٦٣ .

والكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

٦٩ - ((الرد على من خالف مصحف عثمان)) : الإمام أبوبكر عبد الرحمن بن محمد بن عُبيد الله الأنباري (ت ٥٧٧هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

٧٠ - ((الرسالة)) : الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ (ت ٢٠٤هـ) .

مطبوع بتحقيق الأستاذ أحمد شاكر .

٧١ - ((الرسالة النظاميّة)) : إمام الحرمين الجوينيّ = عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت ٤٧٨هـ) .

وتسمى ((العقيدة النظامية)) أيضاً ، وقد طبعت بتحقيق محمد الكوثري سنة ١٣٦٧ ، كما ذكر محقق ((سير أعلام النبلاء)) : ١٨ / ٤٧٣ .

وطبعت - أيضاً - بتحقيق د . أحمد حجازي السقا .

١- سماه الإمام السيوطي ((أسرار الفواتح)) .

٧٢ - ((روض الأفهام في أقسام الاستفهام)) : محمد بن عبد الرحمن بن الصائغ (ت ٧٧٦هـ) .
الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .
٧٣ - ((الروض الأُنف)) : أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهيلي (ت ٥٨١هـ) ، وهو شروح لسيرة ابن هشام .
مطبوع مراراً .
٧٤ - ((رياض النفوس)): أبوبكر عبد الله بن محمد المالكيّ (ت ٤٧٤هـ) .
نشرته دار الغرب سنة ١٤٠٣ هـ ، بتحقيق بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي .

حرف الزاي

٧٥ - ((الزينة)) : أبوحاتم أحمد بن حمدان اللغويّ (ت ٣٢٢هـ) .
قال الزركلي عن هذا الكتاب :
((في فقه اللغة والمصطلحات ، يقع في خمسة أجزاء ، طبع منه جزآن)) :
((الأعلام)) : ١ / ١١٩ .
وذكر الزركلي أن المصنف من الإسماعيلية ، وأظهر القول بالإلحاد .
٧٦ - ((الزهد)) :الإمام عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ) .
مطبوع مراراً .

حرف السين

٧٧ - ((سر الفصاحة))[1] : ابن سنان الخفاجي = عبد الله بن محمد بن سعيد (ت ٤٦٦هـ) .
نشر الكتابَ دار الكتب العلمية ، بيروت . سنة ١٤٠٢ هـ .
٧٨ - ((السنة)) : الإمام هبة الله بن الحسن اللالكائيّ (ت ٤١٨هـ) .
مطبوع بتحقيق د . أحمد حمدان ، وقد نشرته دار طيبة بالمدينة .
وقد رجّح المحقق أن اسم الكتاب : ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) انظر : ١ / ١٠٨ - ١٠٩ من الكتاب المحقق .
٧٩- ((السنن الكبرى)) : الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
مطبوع أكثر من طبعة .
٨٠ - سنن سعيد بن منصور الخراسانيّ (ت ٢٢٧هـ) .
نشرته الدار السلفية بالهند سنة ١٤٠٣ هـ ، بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي .
٨١ - سنن الإمام أحمد بن شعيب بن علي النسائي (ت ٣٠٣هـ) .
السنن الكبرى يطبع في الهند ويخرج تباعاً ، والمجتبى قد طبع مراراً .

حرف الشين

٨٢ - ((الشافي)) : إسماعيل بن إبراهيم القرّاب (ت ٤١٤هـ) .
والكتاب في علم القراءات كما في ((معجم المولفين)) : ٢ / ٢٥٦.
والكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .
٨٣ - ((الشامل)) : لعله ((الشامل في علم الحرف)) للسكّاكيّ = يوسف بن محمد (ت ٦٢٦هـ) ، كما يفهم من سياق النص عند السيوطي في ((معترك الأقران)) : ٢ / ٥٥٦ .
والكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .
٨٤ - ((شرح آيات الصفاتَ)) : محمد بن عبد المومن = ابن اللبان الإسعردي (ت ٧٤٩هـ) .

١- سماه الإمام السيوطيّ : ((الفصاحة)) .

وقد ذكر السيوطي اسم الكتاب في ((الإتقان)) : ١ / ٨ ، وترك ذكر الاسم في ((المعترك)) .

ولعل هذا الكتاب هو ((رد معاني الآيات المتشابهات إلى معاني الآيات المحكمات)) وهو مطبوع ، أو ((إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات)) وهو مخطوط ، كما في ((الأعلام)) : ٥ / ٣٢٧ .

٨٥ - ((شرح الأسماء الحسنى)) : الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .

لم أطلع على حال الكتاب ، والله أعلم .

٨٦ - ((شرح البخاري)) : ابن بطال = علي بن خلف بن عبد الملك (ت ٤٤٩هـ) .

للكتاب عدة نسخ مخطوطة أفاض في ذكرها الزركلي في ((الأعلام)) : ٤ / ٢٨٥ .

٨٧ - ((شرح بديعية ابن جابر)) = محمد بن أحمد بن علي (ت ٧٨٠هـ) .

وقد شرح هذه البديعيةَ اثنان :

مصنفها وسمّاها :((الحُلّة السِّيَرا في مدح خير الورى)) -صلى الله عليه وسلم- وهي مطبوعة كما في ((الأعلام)) : ٥ / ٣٢٨ .

وشرحها أبو جعفر الرُّعينيّ الغرناطيّ كما في ((خزانة الأدب)) : ١٣ / ٢٧.

٨٨ - ((شرح البزوديّ)) : لعله يريد شرح عبد العزيز البخاري لأصول فخر الإسلام البزوديّ المسمّى ((كشف الأسرار)) ، وهو مطبوع مشهور .

٨٩ - ((شرح التبيان)) للطِّيبي ، وانظر ((التبيان في المعاني والبيان)) في هذا الفهرس .

أما هذا الكتاب فلا أعرف أهو للطيبي أم لغيره ، ولاأعرف أهو مخطوط أم مفقود ، والله أعلم .

٩٠ - ((شرح السنّة)) : الإمام الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) .

مطبوع بتحقيق الأستاذ زهير الشاويش والأستاذ شعيب الأرناؤوط ، نشر المكتب الإسلامي .

٩١ - ((شرح الكافية)) : و((الكافية)) وشرحها للإمام محمد بن عبد الله بن مالك (ت ٦٢٧هـ) ، والشرح مطبوع كما ذكر د . عبد المنعم هريدي في مقدمة تحقيق كتاب ((شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ)) لابن مالك ص : ٦٠ .

٩٢ - ((الشرح الكبير)) : علي بن مؤمن بن محمد ابن عصفور (ت ٦٦٩) . وهو شرح لأبيات ((الإيضاح)) - كما ذكر السيوطيّ - ولم أتبين موضوع كتاب ((الإيضاح)) . وانظر مقدمة تحقيق كتاب ((الممتع في التصريف)) لابن عصفور : ١ / ٥ - ٦ ، بتحقيق د . فخر الدين قباوة ونشر دار الآفاق الجديدة . بيروت .

٩٣ - ((شرح صحيح مسلم)) :الإمام يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦) .

مطبوع مراراً .

٩٤ - ((شعب الإيمان)) : الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .

مطبوع أكثر من طبعة .

حرف الصاد

٩٥- ((الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها))[1] : الإمام أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ) .

طبع مرتين ، كما في مقدمة تحقيق ((مجمل اللغة)) لابن فارس : ١ / ٥١ .

٩٦ - صحيح أبي عوانة = يعقوب بن إسحاق الإسفراييني (ت ٣١٦هـ) .

نشرته دار المعارف العثمانية بالهند سنة ١٣٢٦ ، كما في فهرسة مراجع تحقيق كتاب ((الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات)) : لعبدِ القيوم عبد رب النبي : ص ٥٤٧ .

حرف العين

١- سماه السيوطي ((فقه اللغة)) .

٩٧ - ((عجائب المخلوقات)) : زكريا بن محمد القزوينيّ (ت ٦٨٢هـ) .

مطبوع ومترجم إلى عدة لغات ، كما في ((الأعلام)) : ٣ / ٤٦ .

٩٨ - ((عروس الأفراح)) : الإمام بهاء الدين أحمد بن علي السبكيّ (ت ٧٦٣هـ) .

الكتاب شرحٌ لتلخيص ((المفتاح)) ، وهومطبوع كما في ((الأعلام)) : ١ / ١٧٦ .

٩٩ - ((عمدة الحكام فيما لاينفذ من الأحكام))[1] : الشيخ إبراهيم بن علي الطرسوسيّ (ت ٧٥٨هـ) .

والكتاب مفقود ، والله أعلم .

١٠٠ - ((العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم))[2] : الإمام أبو بكر ابن العربيّ = محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ) .

مطبوع بتحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ، ونشرته دار الكتب السلفية .

حرف الغين

١٠١ - ((الغرائب والعجائب)) =((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) : تاج القراء محمود بن حمزة الكرمانيّ . (توفي في حدود الخمسمائة هـ)

حققه د . شمران العجلي ، ونشرته دار القبلة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت سنة ١٤٠٨هـ .

حرف الفاء

١٠٢ - ((فتاوى قاضيخان)) : الإمام فخر الدين حسن بن منصور الأوزجنديّ (ت ٢٩٥هـ) .

مطبوع بهامش الفتاوى الهندية .

١٠٣ - ((فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ)) :ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .

مطبوع أكثر من طبعة .

١٠٤ - ((الفروق)) : أحمد بن إدريس القرافيّ (ت ٦٨٤هـ) .

مطبوع أكثر من طبعة .

١٠٥ - ((الفريد)) أحمد بن محمد بن يعقوب ، أبو علي ابن مِسْكويه (ت ٤٢١هـ) .

لاأعرف موضوع الكتاب ، وهو مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٠٦ - ((فضائل القرآن)) : ابن أبي شيبة ، وهل هو محمد بن عثمان (ت ٢٩٧هـ) أو أبوبكر (ت ٢٣٥هـ) ؟ وانظر مقدمة تحقيق ((فضائل القرآن)) للنسائيّ ، تحقيق الأستاذ فاروق حمادة : ١٦ - ١٧ .

١٠٧ - ((فضائل القرآن)) : محمد بن أيوب بن الضُرَيس العجليّ (ت ٢٩٤هـ) .

حققه غزوة بدير ، ونشرته دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٨هـ .

١٠٨ - ((فضائل القرآن)) : أبو ذر عبد بن أحمد الهرويّ (ت ٤٣٤هـ) .

الكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم .

١٠٩ - ((فضائل القرآن)) : أبوعبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ) .

نشرته دار الكتب العلمية بتحقيق وهبي غاوجي الألباني .

١١٠ - ((فقه اللغة)) : عبد الملك بن محمد الثعاليّ (ت ٤٢٩هـ) .

الكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ٤ / ١٦٣ .

١١١ - ((الفلك الدائر على المثل السائر)) : عبد الحميد بن هبة الله = ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) .

الكتاب مطبوع بذيل كتاب ((المثل السائر)) .

وكتاب ((المثل السائر)) من تأليف ابن الأثير .

١- سماه الإمام السيوطي ((العمدة)) .

٢- سماه الإمام السيوطيّ : ((القواصم)) .

١١٢ - ((فنون الأفنان في عيون علوم القرآن)) : الإمام أبو الفرج ابن الجوزيّ = عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) .

حققه د . حسن ضياء الدين عتر ، ونشرته دار البشائر الإسلامية ببيروت سنة ١٤٠٨ .

١١٣ - ((الفنون)) : لعله لابن عقيل فإن السيوطيّ لم يبينه ، وكتاب ((الفنون)) مطبوع بعضه ومفقود أكثره ، وقد طبعت منه جزئين مكتبة لينة للنشر والتوزيع . دمنهور .

١١٤ - ((فوائد الحربي)) : لم أقع على المصنَّف ولا المصنِّف .

حرف القاف

١١٥ - ((قانون التأويل)) = رحلة ابن العربي : أبوبكر محمد بن عبد الله = ابن العربيّ (ت ٥٤٣هـ) .

وقد سماه السيوطي بالاسمين معاً في موضعين مما يوهم أنهما كتابان ، والكتاب اشتهر بهذين الاسمين ، وانظر مقدمة تحقيق ((قانون التأويل)) : ٣٨٧ - ٣٨٨ .

وقد نشر الكتاب دار القبلة بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت سنة ١٤٠٦هـ ، بتحقيق محمد السليماني .

حرف الكاف

١١٦ - ((الكامل)) : أبوالعباس محمد بن يزيد المُبَرِّد (ت ٢٨٥هـ) .

طبع مراراً .

١١٧ - ((المعرّب)) : أبوعبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

١١٨ - ((الكشاف)) : محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) .

طبع مراراً بحواش متنوعة .

١١٩ - ((الكشاف القديم)) : محمود بن عمر الزمخشري .

كذا سماه السيوطي ، ولم يتبين لي مراده ؛ وذلك لأن الزمخشري صنف تفسيراً كبيراً فسّر فيه سورة الفاتحة والبقرة ، ثم بدا له أن يختصر التفسير فصنف الكشاف ، لكنّ السيوطي ذكر الكشاف القديم في كتابه في مواضع متأخرة عن سورة البقرة ، فالله أعلم .

١٢٠ - ((كنز البراعة)) : عماد الدين إسماعيل بن أحمد بن سعيد = ابن الأثير (ت ٦٩٩هـ) .

والكتاب مفقود - فيما أعلم - والله أعلم ، لكن هناك نسخة مخطوطة من مختصره: ((جوهر الكنز)) الذي اختصره ابنه أحمد ، كما في ((الأعلام)) : ١ / ٩٧ .

١٢١ - ((الكتاب المصنف في الحديث والآثار)) : أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) .

طبع سنة ١٤٠٩هـ بتقديم وضبط كمال الحوت ، ونشرته مكتبة العلوم والحكم . المدينة المنورة .

حرف اللام

١٢٢ - ((اللغات التي نزل بها القرآن)) : أبوعبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ) .

وقد ذكر السيوطي الاسم هكذا في ((الإتقان)) : ١ / ٧ و ١/ ١٩ من الطبعة التي حققها محمد أبو الفضل إبراهيم ، بينما ذكره في ((المعترك)) باسم : ((لغات القرآن)) .

وقدطبع كتاب مشابه له ، ويُظنّ أنه هو ، طُبع في مصر في مطبعة محمد بن أبي زيد سنة ١٣١٠هـ ، ضمن كتاب للديرينيّ ، وانظر ((أعلام الدراسات القرآنية)) : للدكتور مصطفي الجويني ص : ٤٤ .

١٢٣ - ((ليس في كلام العرب)):الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ) .

حققه أحمد عبد الغفور عطار ، وطبع في مكة سنة ١٣٩٩هـ .

حرف الميم

١٢٤ - ((المبتدأ والبعث والمغازي)) : محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١هـ) .

طبع بعضه في المغرب بتحقيق محمد حميد الله ، وبعضه الآخر مفقود ، والله أعلم .

١٢٥ - ((المجموع شرح المهذب))[1] : محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) .

مطبوع متداول مشهور . وقد طبع مؤخراً في طبعة أنيقة ، ونشرته دار الإرشاد بجدة .

١٢٦ - ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)) : أبوالفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) .

مطبوع بتحقيق مجموعة من الأساتذة ، ونشرته دار سزكين للطباعة والنشر بتركيا سنة ١٤٠٦هـ .

١٢٧ - ((محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين)) : فخر الدين الرازي = محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) . ويسميه السيوطي ((المحصل)) اختصاراً .

والكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ٦ / ٣١٣ .

١٢٨ - ((المحصول)) فخر الدين الرازي = محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) .

نشرته جامعة الإمام سنة ١٣٩٩هـ بتحقيق د . طه العلواني .

١٢٩ - ((المختار من الطيوريات)) : الإمام أحمد بن محمد بن سِلَفة الأصبهاني السِّلَفيّ (ت ٥٧٦هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

١٣٠ - ((المرشد الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز)) : الإمام أبو شامة المقدسيّ = عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) .

تحقيق طيار آلتي قولاج ، وطبع في دار صادر ، ببيروت .

١٣١ - ((مسائل نافع بن الأزرق)) .

مطبوع ضمن عدة كتب ، وقد حققتها الدكتورة بنت الشاطىء .

١٣٢ - ((المستدرك على الصحيحين)) : أبو عبد الله محمد بن الله الحاكم (ت ٤٠٥هـ) .

مطبوع أكثر من طبعة .

١٣٣ - ((مسند أبي يعلى الموصلي)) : الحافظ أحمد بن علي بن المثنى الموصليّ (ت ٣٠٧هـ) .

محقق ومطبوع أكثر من طبعة .

١٣٤ - ((مسند أحمد)) :

مطبوع .

١٣٥ - ((مسند إسحاق بن راهويه)) : إسحاق بن إبراهيم بن مخلد = ابن راهويه (ت ٢٣٨هـ) .

منه نسخة مخطوطة في مكتبة الحرم المكي ، وأخرى في ((الجامعة الإسلامية)) كما في فهرس مراجع تحقيق ((النكت على ابن الصلاح)) بتحقيق د . ربيع المدخلي : ٢ / ٨٩٨ .

١٣٦- ((مسند البزار)) : أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزّار البصري (ت ٢٩٢هـ) .

يسمىّ ((البحر الزاخر)) ، وحققه د . محفوظ الرحمن زين الله ، ويخرج تباعاً عن مكتبة العلوم والحكم بالمدينة ، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت .

١٣٧ - ((مسند الحارث بن محمد بن أبي أسامة)) : (ت ٢٨٠هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمته - والله أعلم .

١٣٨ - ((مسند الدرامي)) = عثمان بن سعيد (ت ٢٨٢هـ) .

ويسمى بـ ((سنن الدارميّ)) أيضاً ، انظر ((تدريب الراوي)) : ١ / ١٣٩ - ١٤٠ .

١٣٩ - ((المصاحف)) : عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت ٣١٦هـ) .

مطبوع بتحقيق آثر حفري ، ونشرته مكتبة المثنى ببغداد مصوراً عن طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٥ هـ .

١٤٠ - ((المصاحف)) : محمد بن عبد الله بن أُشْتَه (ت ٣٦٠هـ) .

١- سماه السيوطي : ((شرح المهذب)) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١٤١ – ((المصباح في المعاني والبيان)) : محمد بن محمد بن عبد الله بن مالك = ابن ناظم الألفية (ت ٦٨٦هـ) .

والكتاب مطبوع كما في ((الأعلام)) : ٧ / ٣١ .

١٤٢ – ((المعجم الأوسط)) : الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانيّ (ت ٣٦٠هـ) .

يحققه د . محمود الطحان ، ويصدر تباعاً عن مكتبة المعارف بالرياض .

١٤٣ – ((المعجم الكبير)) : الإمام سليمان بن أحمد بن أيوب الطبرانيّ

(ت ٣٦٠هـ) .

حققه الأستاذ حمدي السلفي ، وطبع في العراق وصُوِّر في مصر .

١٤٤ – ((معيار النظّار في علوم الأشعار)) : عبد الوهاب بن إبراهيم الزنجاني (ت ٦٥٥هـ) .

الكتاب مخطوط كما في ((الأعلام)) : ٤ / ١٧٩ .

١٤٥ – ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) : عبد الله بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) .

الكتاب مطبوع مراراً .

١٤٦ – ((المغيث)) : لم أتبين مصنفه ولامادة الكتاب .

١٤٧ – ((مفاتيح الغيب)) : فخر الدين الرازي = محمود بن عمر (ت ٦٠٦هـ) .

مطبوع أكثر من طبعة .

١٤٨ – ((مفتاح العلوم)) : السكّاكيّ = يوسف بن أبي بكر محمد بن علي (ت ٦٢٦هـ) .

نشر الكتابَ دار الكتب العلمية بتحقيق الأستاذ نعيم زرزور .

مطبوع مراراً .

١٤٩ – ((مفردات ألفاظ القرآن)) : الراغب الأصبهاني = الحسين بن محمد بن المفضّل (ت ٥٠٢هـ) طبع مراراً .

١٥٠ – ((المقتنص في فوائد تكرير القصص)) : بدر الدين ابن جماعة = محمد بن إبراهيم بن سعد الله .

لا أعرف حال الكتاب أمخطوط هو أم مفقود .

١٥١ – ((المقدمة في سر الألفاظ المقدّمة)) : شمس الدين ابن الصائغ = محمد بن عبد الرحمن بن علي (ت ٧٧٦هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١٥٢ – ((مناقب الشافعي)) : إسماعيل بن أحمد الهرويّ (ت ٤١٤هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١٥٣ – ((منع الموانع)) : تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكيّ (ت ٧٧١هـ) .

هذا الكتاب مجموعة من الأسئلة على كتاب ((جمع الجوامع)) لتاج الدين أيضاً ، ولا أعلم هل ((منع الموانع)) مخطوط أو مفقود ، والله أعلم .

١٥٤ – ((منهاج البلغاء وسراج الأدباء)) : حازم القُرطاجَنّيّ (ت ٦٨٤هـ) .

بعضه مفقود ، وطبع بعضه الآخر بتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، ونشرته دار الغرب سنة ١٩٦٦م.

حرف النون

١٥٥ – ((الناسخ والمنسوخ)) : أحمد بن جعفر بن محمد البغدادي (ابن المناديهـ) : (ت ٣٣٦هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١٥٦ – ((الناسخ والمنسوخ)) : الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السِجستانيّ (ت ٢٧٥هـ) .

الكتاب مفقود – فيما علمت – والله أعلم .

١٥٧ – ((النشر في القراءات العشر)) : شمس الدين محمد بن محمد الجزريّ (ت ٨٣٣هـ) .

مطبوع .

١٥٨ - ((نظم القرآن)) : الجرجانيّ . لم أقف على ترجمة المصنّف .

والكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

١٥٩ - ((النفيس)) : الإمام أبو الفرج ابن الجوزيّ = عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ) .

لاأدري أمفقود هو أم مخطوط ، والله أعلم .

١٦٠ - ((النكت في إعجاز القرآن))[1] : علي بن عيسى الرمانيّ .

مطبوع ضمن ((ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)) : طبع دار المعارف بمصر .

١٦١ - ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) : فخر الدين الرازي = محمد بن عمر.

مطبوع بتحقيق د . أحمد حجازي السقّا ، ونشره المكتب الثقافي للنشر والتوزيع . القاهرة : سنة ١٤٠٩هـ .

١٦٢ - ((نهاية التأميل في كشف أسرار التنزيل))[2] : عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانيّ (ت ٦٥١هـ) .

الكتاب مفقود - فيما علمت - والله أعلم .

١٦٣ - ((النوادر)) أبو زيد ، ولعله سعيد بن أوس الأنصاري ، كما في ((كشف الظنون)) : ٢ / ١٩٨٠ .

والكتاب مطبوع بتحقيق سعيد الخوريّ ونشر في بيروت سنة ١٣٨٧ هـ ، كما ذكر الأستاذ عبد السلام هارون في ((خزانة الأدب)) : ١٣ / ٦٥٤ .

حرف الواو

١٦٤ - ((الواحد والجمع)) : علي بن سليمان الأخفش (ت ٣١٥هـ) .

قال د . حسين نصار :

((وألّف ... أبوالحسن علي بن سليمان الأخفش الأصغر كتاب التثنية والجمع ، ولعله كتاب ((الواحد والجمع في القرآن)) الذي نسبه السيوطيّ إلى أحد الأخافش)) : ((المعجم العربي)) : ١ / ١٤٠ .

ولا أعلم عن حال الكتاب شيئاً .

١٦٥ - ((الوجوه والنظائر في القرآن)) : مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) .

منه نسخة مخطوطة في مكتبة ((بايزيد)) في تركيا ، كما في كتاب :

((أعلام الدراسات القرآنية)) : ٢٤ .

حرف الياء

١٦٦ - ((ينبوع الحياة)) : محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر الصقلي المكيّ (ت ٥٦٥هـ) .

وسماه السيوطي : ((الينبوع)) .

والكتاب تفسير للقرآن يقع في اثني عشر مجلداً ، وهو مخطوط كما في ((الأعلام)) : ٦ / ٢٣٠ .

١٦٧ - ((اليواقيت)) : أبو عمر الزاهد = محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم (ت ٣٤٥هـ) .

ولعله كتاب ((الياقوتة)) ، وهي رسالة مخطوطة في غريب القرآن ، كما في ((الأعلام)) : ٦ / ٢٥٤ .

١- سماه الإمام السيوطي ((إعجاز القرآن)) .

٢- سماه الإمام السيوطيّ ((أسرار التنزيل)) .

١٦ - فهرس المصادر والمراجع[1]

* القرآن الكريم[2]

حرف الهمزة

١ - ((إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربع عشر)) : الشيخ أحمد بن محمد البنا (ت ١١١٧هـ) .
حققه الدكتور شعبان محمد إسماعيل . نشر عالم الكتب ببيروت ومكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧ هـ (مجلدان) .

٢ - ((الإتقان في علوم القرآن)) : الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) .
نشر دار الندوة الجديدة . بيروت (جزءان في مجلد) .

٣ - ((الإحكام في أصول الأحكام)) : الإمام علي بن محمد الآمديّ (ت ٦٣١هـ) .
تحقيق د . سيد الجميلي . نشر دار الكتاب العربي . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٦ هـ (أربعة أجزاء في مجلدين) .

٤ - ((أحكام القرآن)) : الإمام ابن العربيّ = محمد بن عبد الله (ت ٥٤٣هـ) .
تحقيق محمد عبد القادر عطا . نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى (أربعة مجلدات) .

٥- ((الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الإعتقاد)) : إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (ت ٤٧٨هـ) .
تحقيق أسعد تميم . نشر مؤسسة الكتب الثقافية . بيروت . سنة ١٤٠٥ هـ (مجلد) .

٦ - ((إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)) القاضي أبو السعود العمادي (ت ٩٨٢هـ) .
نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت (تسعة أجزاء في أربعة مجلدات) .

٧ - ((أسرار ترتيب القرآن)) : الإمام جلال الدين السيوطي .
دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا . نشر دار الاعتصام . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٨هـ (جزء) .

٨- ((الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز)) : الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الشافعي (ت ٦٦٠هـ) .
حققه وقدم له الدكتور محمد مصطفى بن الحاج . نشر كلية الدعوة الإسلامية ، ولجنة المحافظة على التراث الإسلامي . طرابلس . ليبيا . الطبعة الأولى سنة ١٤٠١ هـ (جزء) .

٩ - ((الإصابة في تمييز الصحابة)) : الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
نشر دار الكتاب العربي . بيروت (أربعة مجلدات) .

١٠ - ((الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد)) : الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
قدم له وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد عصام الكاتب .
نشر دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠١ هـ (جزء) .

١١ - ((الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم)) . د . محمد محمد أبوموسى .
نشر مكتبة وهبه . مصر .الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥ هـ .

١٢ - ((الإعجاز في دراسات السابقين)) : الأستاذ عبد الكريم الخطيب .
نشر دار المعرفة . بيروت . سنة ١٣٩٥ هـ (جزء) .

١٣ - ((إعجاز القرآن)) : الإمام أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) .
تحقيق السيد أحمد صقر . نشر دار المعارف مصر . الطبعة الثالثة (جزء) .

١- قد رتبت هذا الفهرس على حسب الحروف الهجائية بعد حذف أداة التعريف (أل) .

٢- قد اتبعت في عدِّ الآي عدَّ الكوفيين على حَسَب رواية حفص عن عاصم الكوفيّ .

١٤ - ((إعجاز القرآن)) : القاضي عبد الجبار الأسد آباذي (ت ٤١٥هـ) .
وهو الجزء السادس عشر من كتاب ((المغني في أبواب التوحيد والعدل)) .
حققه أمين الخولى . نشر الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة سنة ١٣٨٠هـ (جزء) .
١٥ - ((إعجاز القرآن)) الأستاذ عبد الكريم الخطيب .
نشر دار الفكر العربي القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤م (مجلدان) .
١٦ - ((إعجاز القرآن وأثره في تطور النقد الأدبي)): الأستاذ علي مهدي زيتون .
نشر دار المشرق ببيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٩٩٢م (جزء) .
١٧ - ((إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة)) : د . منير سلطان .
نشر منشأة المعارف بالإسكندرية (جزء) .
١٨ - ((الإعجاز القرآني : وجوهه و أسراره)) : الدكتور عبد الغني محمد سعد بركة .
نشر مكتبة وهبة . القاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٩ هـ (جزء) .
١٩ - ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) : الأستاذ مصطفى صادق الرافعي (ت ١٣٥٦هـ) .
نشر دار الكتاب العربي . بيروت . سنة ١٤١٠ هـ (جزء) .
٢٠ - ((الأعلام)) : الأستاذ خير الدين الزركلي .
نشر دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الخامسة . سنة ١٩٨٠م (ثمانية مجلدات) .
٢١ - ((أعلام الدراسات القرآنية في خمسة عشر قرناً)) : الدكتور مصطفى الصاوي الجويني .
نشر منشأة المعارف . الإسكندرية . سنة ١٩٨٢م (جزء) .
٢٢ - ((أعلام النبوة)) : الإمام أبو الحسن علي بن محمد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) .
قدم له وشرحه وعلق عليه محمد شريف سكر . نشر دار إحياء العلوم .
بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨ هـ (جزء) .
٢٣ - ((الإكليل في استنباط التنزيل)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
تحقيق سيف الدين عبد القادر الكاتب . نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠١ هـ (جزء) .
٢٤ - ((الألفاظ الفارسية المعرّبة)) : تأليف ادّى شير .
نشر دار العرب . القاهرة . الطبعة الثانية ١٩٧٧م (جزء) .
٢٥ - ((الانتصار والرد على ابن الراونديّ الملحد ما قصد به الكذب على المسلمين والطعن عليهم)) : عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلي (توفي نحو ٣٠٠هـ) .
طبع المطبعة الكاثوليكية . بيروت . سنة ١٩٥٧م (جزء) .

حرف الباء

٢٦ - ((الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن)) : الدكتور عبد الرؤوف مخلوف .
نشر دار مكتبة الحياة . بيروت . سنة ١٩٧٨م (جزء) .
٢٧ - ((البحر المحيط)) : الإمام أبوحيّان الأندلسي = محمد بن يوسف (ت٧٤٥هـ) .
نشر دار الفكر . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٣هـ (ثمانية مجلدات) .
٢٨ - ((بدائع الزهور في وقائع الدهور)) : الشيخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ) .
نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠٤هـ (ستة أجزاء في خمسة مجلدات) .
٢٩ - ((البداية والنهاية)) : الحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) .
نشر دار الفكر . بيروت (ثمانية مجلدات) .

٣٠ - ((البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع)) : القاضي محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) (مجلدان) .
نشر دار المعرفة . بيروت .
٣١ - ((البدور السافرة في أمور الآخرة)) : الحافظ عبد الرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ) .
تحقيق مصطفى عاشور . نشر مكتبة القرآن . القاهرة (مجلد) .
٣٢ - ((البرهان في ترتيب سور القرآن)) : الشيخ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت ٧٠٨هـ) .
دراسة وتحقيق الأستاذ محمد شعباني .
نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب . سنة ١٤١٠ هـ (جزء) .
٣٣ - ((البرهان في علوم القرآن)) : الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . نشر دار المعرفة . بيروت (أربعة مجلدات) .
٣٤ - ((البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)) : الشيخ كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى (ت ٦٥١هـ) .
حققه الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي .
نشر مطبعة العاني . بغداد . الطبعة الأولى . سنة ١٣٩٤ هـ (جزء) .
٣٥ - ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) : الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) .
تحقيق مجموعة من الأساتذة . نشر المكتبة العلمية . بيروت (ستة مجلدات) .
٣٦ - ((البصائر والذخائر)) : أبوحيان التوحيدي = علي بن محمد بن العباس (ت ٣٨٠هـ) .
تحقيق د . وداد القاضي . نشر دار صادر . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨هـ (تسعة أجزاء في ستة مجلدات) .
٣٧- ((بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ)) : د . فتحي أحمد عامر .
نشر منشأة المعارف . الإسكندرية (جزء) .
٣٨ - ((بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار وأثره في الدراسات البلاغية)) : الدكتور عبد الفتاح لاشين .
نشر دار الفكر العربي . القاهرة (جزء) .
٣٩ - ((البيان في إعجاز القرآن)) : الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي .
نشر دار عمار . الأردن . الطبعة الثالثة . سنة ١٤١٣ هـ (جزء) .

حرف التاء

٤٠ - ((تأويل مشكل القرآن)) : الإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت ٢٧٦هـ) .
شرح ونشر الأستاذ السيد أحمد صقر .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠١ هـ (جزء) .
٤١ - ((تاج العروس من جواهر القاموس)) : الشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) .
تحقيق مجموعة من الأساتذة . مطبعة حكومة الكويت (خمسة وعشرون مجلداً) .
٤٢ - ((تاريخ بغداد)) : الخطيب البغداديّ = أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ) .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت (ثلاثة وعشرون مجلداً) .
٤٣ - ((تاريخ حكماء الإسلام)) = ((نزهة الأرواح وروضة الأفراح)) : شمس الدين الشهرزوريّ . (ت ؟)
تحقيق د . عبد الكريم أبوشويرب .
نشر جمعية الدعوة الإسلامية العالمية . ليبيا . الطبعة الأولى . سنة ١٩٨٨م (جزء) .
٤٤ - ((التبيان في أقسام القرآن)) : العلامة شمس الدين ابن قيّم الجوزية = محمد ابن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) .

صححه وعلق هوامشه محمد حامد الفقي .
نشر دار المعرفة . بيروت (جزء) .
٤٥ - ((التبيين في أنساب القرشيين)) : الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسيّ (ت ٦٢٠هـ) .
حققه وعلق عليه الأستاذ محمد نايف الدليميّ .
نشر المجمع العلمي العراقي . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٢ هـ (جزء) .
٤٦ - ((التحبير في علم التفسير)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
حققه الدكتور فتحي عبد القادر فريد .
نشر دار العلوم . الرياض الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٢ هـ (مجلد) .
٤٧ - ((التحدث بنعمة الله)) : الحافظ عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
تحقيق اليزابيث ماري سارتين . طبع المطبعة العربية الحديثة . القاهرة (جزء) .
٤٨ - ((التحرير والتنوير)) : العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) .
نشر الدار التونسية للنشر . تونس . سنة ١٩٨٤م (ثلاثون جزءاً في أربعة عشر مجلداً) .
٤٩ - ((تحصيل نظائر القرآن)) : الحكيم الترمذيّ = محمد بن علي بن الحسن (توفي بعد سنة ٣١٨هـ) .
تحقيق الأستاذ حسني زيدان . مطبعة السعادة . الطبعة الأولى . سنة ١٣٩٠هـ (جزء) .
٥٠ - ((تحفة المريد على جوهرة التوحيد)) : الشيخ إبراهيم البيجوري (ت ١٢٧٦هـ) .
طبع المطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ (مجلد) .
٥١ - ((تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي)) : الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
تحقيق د . أحمد عمر هاشم .
نشر دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥هـ (مجلدان) .
٥٢ - ((التذكرة في أحوال الموتى والدار الآخرة)) : الإمام محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ) .
تحقيق د . السيد الجميلي .
نشر دار ابن زيدون . بيروت ، ومكتبة مدبولي بالقاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٦هـ (مجلد) .
٥٣ - ((التصاريف)) : الإمام يحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠هـ) .
تحقيق الأستاذة هند شلبي .
نشر الشركة التونسية للتوزيع . سنة ١٤٠٠هـ (جزء) .
٥٤ - ((تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية)) : د . عمر الملاّ حويش .
مطبعة الأمة . العراق . سنة ١٣٩٢هـ (جزء) .
٥٥ - ((التعريفات)) : الشيخ علي بن محمد بن علي الجُرجاني (ت ٧٧٤هـ)
تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري .
نشر دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥هـ (مجلد) .
٥٦ - ((تفسير غريب القرآن)) : الإمام عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) .
تحقيق السيد أحمد صقر . نشر دار الكتب العلمية . بيروت سنة ١٣٩٨هـ (جزء) .
٥٧ - ((تفسير القرآن)) : الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ) .
تحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد .
نشر مكتبة الرشد . الرياض . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٠ هـ (أربعة مجلدات) .
٥٨ - ((تفسير القرآن العظيم)) : للحافظ ابن كثير = إسماعيل بن عمر (٧٧٤) .
تحقيق الأساتذة عبد العزيز غنيم ومحمد أحمد عاشور ومحمد إبراهيم البنا .

نشر دار الشعب . القاهرة (ثمانية مجلدات) .
٥٩ - ((التفسير والمفسرون)) الدكتور محمد حسين الذهب .
الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٦هـ (مجلدان) .
٦٠ - ((تقريب التهذيب)) : الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
تحقيق الأستاذ محمد عوامة . نشر دار الرشيد حلب . سنة ١٤٠٦ هـ (مجلد) .
٦١ - ((تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث)) : ابن الديبع الشيباني = عبدالرحمن بن علي (ت ٩٤٤هـ) .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٤٠١هـ (جزء) .
٦٢ - ((تناسق الدرر في تناسب السور)) : جلال الدين عبدالرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ) .
دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٤٠٦هـ (جزء) .
٦٣ - ((تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة)) : الشيخ علي بن محمد بن عَرّاق الكناني (ت ٩٦٣هـ) .
حققه الأستاذان عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠١هـ (مجلدان) .
٦٤ - ((تهذيب التهذيب)) الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
نشر دار الفكر الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤هـ (أربعة عشر مجلداً) .
٦٥ - ((التوقيف على مهمات التعاريف)) : الشيخ عبد الرؤوف المناويّ (ت ١٠٣١هـ) .
تحقيق الدكتور عبد الحميد صالح حمدان .
نشر عالم الكتب . القاهرة . سنة ١٤١٠ هـ (مجلد) .

حرف الثاء

٦٦ - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن :
((النكت في إعجاز القرآن)) : علي بن عيسى الرماني (ت ٣٨٤هـ)
((بيان إعجاز القرآن)) : حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابيّ (ت ٣٨٨هـ)
((الرسالة الشافية)) : عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني (ت ٤٧١هـ)
تحقيق محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام . نشر دار المعارف . القاهرة . الطبعة الرابعة .

حرف الجيم

٦٧ - ((جامع البيان في تأويل آي القرآن)) الإمام محمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) . حققه وعلق حواشيه الأستاذان أحمد ومحمود محمد شاكر .
نشر دار المعارف . مصر (طُبع منه من أول القرآن إلى أثناء سورة إبراهيم في ستة عشر مجلداً) .
- ((جامع البيان في تأويل القرآن)) : الإمام محمد بن جرير الطبري .
طبع مصطفى البابي الحلبي . القاهرة . (طُبع كاملا)
٦٨ - ((الجامع الصحيح)) : الإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ) .
نشر دار الجيل . بيروت (ثلاثة مجلدات) .
٦٩ - ((الجامع الصحيح)) = سنن الترمذي : الإمام محمد بن عيسى الترمذيّ (ت ٢٧٩هـ) .
تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وغيره . نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت (خمسة مجلدات) .
٧٠ - ((الجامع لأحكام القرآن)) : الإمام محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ) .

نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب . سنة ١٩٨٧م (عشرون جزءاً في عشرة مجلدات) .

٧١ - ((الجرح والتعديل)) الإمام الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ) .
نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت (تسعة مجلدات) .

٧٢ - ((جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية)) : الدكتور عبد العال سالم مكرم .
نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . سنة ١٤٠٩هـ (مجلد) .

٧٣ - ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) : شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام (ت ٧٢٨هـ) .
تحقيق وتعليق د . علي بن حسن بن ناصر ، و د . عبد العزيز بن إبراهيم العسكر ، و د . حمدان بن محمد الحمدان .
نشر دار العاصمة . الرياض . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٤هـ (ستة مجلدات) .

٧٤ - ((جواهر الإكليل شرح مختصر العلامة خليل)) : الشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري .
نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده . مصر . الطبعة الثانية . سنة ١٣٦٦هـ (جزءان) .

٧٥ - ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) : الأستاذ أحمد الهاشمي .
نشر دار الفكر . بيروت . سنة ١٣٩٨هـ (مجلد) .

حرف الحاء

٧٦ - ((حاشية رد المحتار على الدر المختار : شرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان)) : الشيخ محمد أمين الشهير بابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) .
نشر شركة ومطبعة مصطفى البابي وأولاده . مصر . سنة ١٣٨٦هـ (ثمانية مجلدات) .

٧٧ - ((الحاوي للفتاوي)) : الحافظ عبدالرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ)
نشر السلام العالمية للطبع والنشر . القاهرة (جزء) .

٧٨ - ((الحجة في القراءات السبع)) : الإمام الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ) .
تحقيق د. عبدالعال مكرم .
نشر دار الشروق . بيروت والقاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٧هـ (جزء) .

٧٩ - ((حجة القراءات)) : الإمام أبوزرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (توفي في حدود الأربعمائة) .
حققه الأستاذ سعيد الأفغاني .
نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠٢هـ (مجلد) .

٨٠ - ((الحجة للقراء السبعة أئمة الأمصار بالحجاز والعراق والشام الذين ذكرهم أبوبكر بن مجاهد)) : أبوعلي الحسن بن عبد الغفار الفارسي (ت ٣٧٧هـ) .
حققه بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي .
نشر دار المأمون للتراث . دمشق . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤هـ (ستة مجلدات) .

٨١ - ((حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين)) : الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني (ت ١٣٥٠هـ) .
دار الفكر . بيروت (مجلد) .

٨٢ - ((حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .
نشر دار إحياء الكتب العربية . القاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٣٨٧هـ (مجلدان) .

٨٣ - ((حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر)) : الشيخ عبد الرزاق البيطار (ت ١٣٣٥هـ) .
حققه وعلق عليه حفيده محمد بهجة البيطار .
نشر المجمع العلمي العربي . دمشق . سنة ١٣٨٣هـ (ثلاثة مجلدات) .

٨٤ - ((الحيوان)) : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) .
تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون .
نشر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . مصر . الطبعة الثانية . سنة١٣٨٦هـ (ثمانية مجلدات) .
٨٥ - ((خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب)) : العلامة عبدالقادر بن عمر البغداديّ (ت ١٠٩٣هـ) .
الأستاذ عبد السلام هارون .
تحقيق نشر مكتبة الخانجي . القاهرة . الطبعة الأولى (ثلاثة عشر مجلداً) .
٨٦ - ((الخصائص الكبرى)) : الحافظ عبدالرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ) .
تحقيق د. محمد خليل هراس .
نشر دار الكتب الحديثة . القاهرة (ثلاثة مجلدات) .
٨٧ - ((خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر)) : الشيخ محمد الأمين بن فضل الله المحبّي (ت ١١١١هـ) .
نشر دار صادر . بيروت (أربعة مجلدات) .

حرف الدال

٨٨ - ((درء تعارض العقل والنقل)) : شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ) .
تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم . طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠١ هـ (أحدعشر جزءاً) .
٨٩ - ((دراسات في الإعجاز العددي بين الماضي والحاضر في ضوء الكتاب والسنة)) : الأستاذ مصطفى عمر الكَنَديّ
رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى سنة ١٤٠٩هـ (مجلد) .
٩٠ - ((الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة)) : الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
حققه محمد سيد جاد الحق . نشر دار الكتب الحديثة . القاهرة . سنة ١٣٨٥هـ (خمسة مجلدات) .
٩١ - ((الدر المصون من علوم الكتاب المكنون)) : السمين الحلبيّ = أحمد بن يوسف (ت ٧٥٦هـ) .
تحقيق د . أحمد الخراط . نشر دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى (أحد عشر مجلداً) .
٩٢ - ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
نشر دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٣ هـ (ثمانية مجلدات) .
٩٣ - ((دلائل الإعجاز)) : الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ (ت ٤٧١هـ) .
تحقيق الأستاذ محمود شاكر . نشر مكتبة الخانجي . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٤١٠هـ (مجلد) .
٩٤ - ((دلائل النبوة)) : الإمام أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
خرج حديثه وعلق عليه الدكتور عبد المعطي قَلعجي .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت ، ودار الريان للتراث . القاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨ هـ (سبعة مجلدات) .
٩٥ - ((دليل مخطوطات السيوطي)) : إعداد أحمد الخازندار ومحمد الشيباني .
نشر مكتبة ابن تيمية . الكويت . سنة ١٤٠٣ هـ (جزء) .
٩٦ - ((الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب)) : الشيخ إبراهيم بن علي = ابن فرحون المالكيّ (ت ٧٩٩هـ) .
تحقيق وتعليق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور .
نشر دار التراث . القاهرة (جزءان) .
٩٧ - ((الدين والدولة)) : علي بن رَبّن الطبريّ (توفي في حدود ٢٤٠هـ) .
نشر المكتبة العتيقة بتونس (جزء) .

الراء

٩٨ - ((الراغب الأصبهاني وجهوده في اللغة والأدب)) : د . عمر الساريسيّ .

نشر مكتبة الأقصى . عمان . الأردن . سنة ١٤٠٧هـ (جزء) .

٩٩ - ((الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض)) : الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .

قدم له وحققه الشيخ خليل الميس .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٣ هـ (مجلد) .

١٠٠ - ((الرسالة)) : الإمام محمد بن إدريس الشافعيّ (ت ٢٠٤هـ) .

تحقيق الشيخ أحمد شاكر . نشر مكتبة دار التراث . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٩هـ (جزء) .

١٠١ - ((الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرّفة)) : العلامة محمد بن جعفر الكتانيّ (ت ١٣٤٥هـ) .

اعتنى بها الأستاذ محمد المنتصر الكتاني . نشر دار البشائر الإسلامية . بيروت الطبعة الرابعة . سنة ١٤٠٦هـ .

١٠٢ - ((رسم المصحف : دراسة لغوية تاريخية)) : الأستاذ غانم قدوري الحمد.

نشر اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري . العراق . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٢ هـ (مجلد) .

١٠٣ - ((روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)) : العلامة أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت . سنة ١٤٠٣ هـ (ثلاثون جزءاً في عشرة مجلدات) .

١٠٤ - ((الروض الأُنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام)) : العلامة أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله السُّهيليّ (ت ٥٨١هـ) .

علق عليه وضبطه الأستاذ طه عبد الرؤوف سعد . نشر مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة (أربعة أجزاء) .

حرف السين

١٠٥ - ((سر الفصاحة)) : الشيخ محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ) .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٤٠٢ هـ (مجلد) .

١٠٦ - ((سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر)) : الشيخ أبوالفضل محمد بن علي المرادي (ت ١٢٠٦هـ) .

نشر دار البشائر الإسلامية ، ودار ابن حزم . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠٨هـ (أربعة أجزاء في مجلدين) .

١٠٧ - ((سنن الدار قطني)) : الحافظ علي بن عمر الدار قطني (ت ٣٨٥هـ) .

وبذيله ((التعليق المغني على الدار قطني)) : للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي .

نشر دار الكتب . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٣هـ (أربعة أجزاء في مجلدين) .

١٠٨ - ((السنن الكبرى)) : الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .

نشر دار المعرفة . بيروت (أحد عشر مجلداً) .

١٠٩ - ((سير أعلام النبلاء)) : الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) .

تحقيق مجموعة من الأساتذة . نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى (خمسة وعشرون مجلداً) .

١١٠ - ((السيوطي وجهوده في الدراسات اللغوية)) : الأستاذ محمد بن يعقوب تركستاني .

والكتاب رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى ((جامعة الملك عبد العزيز بمكة سابقاً)) سنة ١٣٩٧هـ (مجلد) .

حرف الشين

١١١ - ((شذرات الذهب في أخبار من ذهب)) : الشيخ عبد الحي ابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت (ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات) .

١١٢ - ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) : الإمام أبو القاسم هبة الله بن الحسين اللالكائي (ت ٤١٨هـ) .
تحقيق د. أحمد حمدان . نشر دار طيبة للنشر والتوزيع . الرياض (ثمانية أجزاء في أربعة مجلدات) .
١١٣ - ((شرح التلخيص)) : الشيخ أكمل الدين البابَرتي .
تحقيق د . محمد مصطفى صوفيه . نشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان . طرابلس . ليبيا . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٢هـ (جزء) .
١١٤ - ((شرح كتاب أهدى سبيل إلى علمي الخليل : العَروض والقافية)) : الأستاذ محمود مصطفى . والشرح للأستاذ نعيم زَرْزور .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٣هـ (جزء) .
١١٥ - ((شرح الزرقاني على المواهب اللدنية)) ، وكتاب ((المواهب اللدنية بالمنح المحمدية)) للإمام أحمد بن محمد القسطلانيّ (ت ٩٢٣هـ) .
وشرحه للإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢هـ) .
نشر دار المعرفة . بيروت .
١١٦ - ((شرح شافية ابن الحاجب)) : الشيخ محمد بن الحسن الاستراباذي النحوي (ت ٦٨٦هـ) .
حققه الأساتذة محمد نور الحسن ومحمد الزفزاق ومحمد محي الدين عبد الحميد .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٣٩٥ هـ (أربعة مجلدات) .
١١٧ - ((شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب)) : الإمام عبد الله بن هشام (ت ٧٦١هـ) .
نشر دار الأنصار . القاهرة . الطبعة الخامسة عشرة . سنة ١٣٩٨ هـ (جزء) .
١١٨ - ((شرح الشفا)) : الملا علي القاري (ت ١٠١٤هـ) .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت (مجلدان) .
١١٩ - ((شرح قطر الندى وبلّ الصدى)) : الإمام عبد الله بن هشام (ت ٧٦١هـ) .
نشر دار الفكر . بيروت . سنة ١٤١٤ هـ (مجلد) .
١٢٠ - ((شرح مقامات جلال الدين السيوطي)) : الأستاذ سمير محمود الدروبيّ .
نشر مؤسسة الرسالة . بيروت .الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٩ هـ (مجلدان) .
١٢١ - ((شرح المقدمة الجزرية)) : شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت ٩٢٦هـ) .
تعليق الأستاذ محمد غياث الصباغ . نشر مكتبة الغزالي : دمشق ، ومؤسسة مناهل العرفان : بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤١١هـ (جزء) .
١٢٢ - ((شرح المواقف)) مع حاشية عليه لعبد الحكيم السيالكوتيّ وحسن حلبي .
وكتاب ((المواقف)) لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي (ت ٧٥٦هـ) والشرح للسيد علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ) .
طبع دار الطباعة العامرية . القاهرة .
١٢٣ - ((شعب الإيمان)) : الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .
حققه وراجع نصوصه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد .
نشر الدار السلفية . الهند . سنة ١٤٠٨ هـ (أربعة عشر مجلداً) .
١٢٤ - ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم)) : للقاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) .
تحقيق الأستاذ علي محمد البجاويّ .

طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة (مجلدان) .

حرف الصاد

١٢٥ - ((صحيح مسلم بشرح النووي)) .
المطبعة المصرية ومكتبتها (عشرون جزءاً في ستة مجلدات) .

حرف الضاد

١٢٦ - ((الضوء اللامع لأهل القرن التاسع)) : الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) .
نشر دار مكتبة الحياة . بيروت (ستة مجلدات) .

١٢٧ - ((ضياء السالك إلى أوضح المسالك)) : أوضح المسالك للإمام عبد الله بن هشام (ت ٧٦١هـ) ، وضياء السالك تعليقة للأستاذ محمد النجار (أربعة أجزاء في مجلدين) .

حرف الطاء

١٢٨ - ((طبقات الشافعية الكبرى)) : تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ) .
تحقيق الأستاذين عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي .
نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة (ثمانية مجلدات) .

١٢٩ - ((الطبقات الصغرى)) : أبوالمواهب عبد الوهّاب الشعراني (ت ٩٧٣هـ) .
تحقيق الأستاذ عبد القادر عطا . نشر مكتبة القاهرة . مصر . الطبعة الأولى . سنة ١٣٩٠هـ (جزء) .

١٣٠ - ((الطبقات الكبرى)) : الإمام محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) .
نشر دار صادر . بيروت (عشرة مجلدات) .

١٣١ - ((طبقات المفسرين)) : الشيخ محمد بن علي الداودي .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت (مجلدان) .

١٣٢ - ((الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)) : الإمام يحيى بن حمزة العلوي اليمني (ت ٧٤٥هـ) .
أشرفت على مراجعته جماعة من العلماء .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . سنة ١٤٠٢ هـ (ثلاثة مجلدات) .

حرف الظاء

١٣٣ - ((الظاهرة القرآنية)) : الأستاذ مالك بن نبي (ت ١٣٩٣هـ) .
ترجمة عبد الصبور شاهين .
نشر دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق . الطبعة الرابعة . سنة ١٤٠٧هـ (جزء) .

حرف الغين

١٣٤ - ((غاية النهاية في طبقات القراء)) : الإمام ابن الجزريّ = شمس الدين محمد بن محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ).
تحقيق ج . برجستراسر .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٠هـ (مجلدان) .

١٣٥ - ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) : تاج القراء محمود بن حمزة الكرماني (توفي بعد الخمسمائة هـ) .
تحقيق الدكتور شمران العجلي . نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨هـ (مجلدان) .

حرف الفاء

١٣٦ - ((الفاصلة في القرآن)) : الأستاذ محمد الحسناوي .
نشر دار الأصيل . دمشق (جزء) .

١٣٧ - ((فتاوى قاضيخان)) : الإمام فخر الدين حسن بن منصور الأوزجنديّ (ت ٢٩٥هـ) .
مطبوع بهامش الفتاوى الهندية .
نشر دار إحياء التراث العربي . بيروت . الطبعة الرابعة . سنة ١٤٠٦هـ .
١٣٨ - ((فتح الباري بشرح صحيح البخاري)) : الحافظ ابن حجرالعسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .
راجعه وضبط أحاديثه الأساتذة طه عبد الرؤوف سعد ، والسيد محمد عبد المعطي ، ومصطفى محمد الهواري .
نشر مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة . سنة ١٣٩٨هـ (ثمانية وعشرون جزءاً في خمسة عشر مجلداً) .
١٣٩ - ((الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني)) : وبهامشه شرحه ((بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني)) الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (ت ١٣٧٨هـ) .
نشر دار الشهاب . القاهرة (أربعة وعشرون جزءاً في أربعة عشر مجلداً) .
١٤٠ - ((الفردوس بمأثور الخطاب)) : أبوشجاع شيرويه الديلمي الهمداني (ت ٥٥٨هـ) .
تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٦ هـ (ستة مجلدات) .
١٤١ - ((الفرق بين الفِرق وبيان الفرقة الناجية منهم)) : الإمام عبد القاهر بن طاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـ) .
نشر دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الخامسة . سنة ١٤٠٢هـ (جزء) .
١٤٢ - ((الفِصَل في الملل والأهواء والنحل)) : الإمام ابن حزم الظاهري = علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) .
تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر ، والدكتور عبد الرحمن عميرة .
نشر دار الجيل .
بيروت . سنة ١٤٠٥ هـ (خمسة أجزاء) .
١٤٣ - ((فضائل القرآن)) : الإمام أبوعبيد القاسم بن سلاّم (ت ٢٢٤هـ) .
تحقيق وتعليق الأستاذ وهبي سليمان غاوجي .
نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١١ هـ (مجلد) .
١٤٤ - ((فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة)) : أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي (ت ٣٨٩هـ) والقاضي عبد الجبار الهمذاني (ت ٤١٥هـ) ، والحاكم الجشمي = المحسن بن محمد (ت ٤٩٤هـ) .
تحقيق فؤاد سيد .
نشر الدار التونسية للنشر بتونس والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٦ هـ (جزء) .
١٤٥ - ((فكرة إعجاز القرآن)) : الأستاذ نعيم الحمصي .
نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٠هـ (جزء) .
١٤٦ - ((الفهرست)) : ابن النديم محمد بن إسحاق النديم (ت ٣٨٥هـ) .
تحقيق الدكتورة ناهد عباس عثمان .
نشر دار قطري بن الفجاءة . قطر . الطبعة الأولى . سنة ١٩٨٥م (مجلد) .
١٤٧ - ((فوات الوفيات)) : الشيخ محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) .
تحقيق د . وداد القاضي ، ونعيم كساب ، وصالح آغا ، وطريف بزي .
نشر دار الثقافة . بيروت (خمسة مجلدات) .
١٤٨ - ((في ظلال القرآن)) : الأستاذ سيد قطب (ت ١٣٨٧هـ) .
نشر دار الشروق . الطبعة الحادية عشرة . سنة ١٤٠٢ هـ (ستة مجلدات) .

حرف القاف

١٤٩ - ((قطف الأزهار في كشف الأسرار)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ) .

تحقيق د . أحمد الحمّادي . نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . قطر . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٤هـ (مجلدان) .

حرف الكاف

١٥٠ - ((الكامل في التاريخ)) : الإمام محمد بن محمد الشيباني = ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) .

عُني بمراجعة أصوله والتعليق عليه مجموعة من العلماء .

نشر دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة السادسة (عشرة مجلدات) .

١٥١ - ((الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار)) : الحافظ أبوبكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت ٢٣٥هـ) .

نشر دار التاج . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٩هـ (سبعة مجلدات) .

١٥٢ -((الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل)) :

أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت (أربعة مجلدات) .

١٥٣ - ((كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)) : مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ) .

نشر دار العلوم الحديثة . بيروت (مجلدان) .

١٥٤ - ((كفاية الألمعي في شرح قوله تعالى ﴿ وقيل يـٰأرض ابلعي ﴾ في إعجاز القرآن)) : شمس الدين ابن الجزريّ = محمد بن محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) .

تحقيق عدنان أبو شامة (جزء) .

١٥٥ - ((الكليات)) : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكَفَويّ (ت ١٠٩٤هـ) .

تحقيق د . عدنان درويش ومحمد المصري . نشر مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٢هـ (مجلد) .

١٥٦ - ((كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال)) : العلامة علي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥هـ) .

ضبط الأستاذ بكري حياني . نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الخامسة . سنة ١٤٠٥هـ (ثمانية عشر مجلداً) .

١٥٧ - ((الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة)) : نجم الدين الغزي = محمد بن محمد بن محمد (ت ١٠٦٧هـ) .

تحقيق الدكتور جبرائيل جبّور . نشر دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الثانية . ١٩٧٩م (ثلاثة أجزاء) .

حرف اللام

١٥٨ - ((لب اللباب في تحرير الأنساب)) : جلال الدين عبدالرحمن السيوطيّ (ت ٩١١هـ) .

تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، وأشرف أحمد عبد العزيز .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١١ هـ (مجلدان) .

١٥٩ - ((لسان العرب)) : العلامة ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) .

نشر دار صادر . بيروت (خمسة عشر مجلداً) .

١٦٠ - ((لسان الميزان)) : الحافظ ابن حجر العسقلانيّ = أحمد بن علي بن ثابت (ت ٨٥٢هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت . سنة ١٤٠٧ هـ (ثمانية مجلدات) .

١٦١ - ((لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضيّة في عقيدة الفرقة المرضية)) : العلامة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني (ت ١١٨٨هـ) .

نشر دار المكتب الإسلامي ببيروت ، ودار الخاني بالرياض . الطبعة الثالثة . سنة ١٤١١ هـ (جزءان في مجلد) .

١٦٢ - ((ليس في كلام العرب)) : ابن خالويه = الحسين بن أحمد (ت ٣٧٠هـ) .

تحقيق الأستاذ أحمد عبد الغفور عطّار . نشر في مكة المكرمة سنة ١٣٩٩هـ (مجلد) .

١٦٣ - ((المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني : نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري)) : الدكتور أحمد جمال العمري .

نشر مكتبة الخانجي . القاهرة . سنة ١٤١٠ هـ (جزء) .

١٦٤ - ((مباحث في إعجاز القرآن)) : د . مصطفى مسلم .

نشر دار المنارة جدة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨هـ (جزء) .

١٦٥ - ((مجمع الزوائد ومنبع الفوائد)) : الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثميّ (ت ٨٠٧هـ) .

نشر مؤسسة المعارف . بيروت . سنة ١٤٠٦ هـ (عشرة أجزاء في خمسة مجلدات) .

١٦٦ - ((مجموع رسائل الجاحظ)) : تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

نشر دار الجيل . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١١ هـ (أربعة أجزاء في مجلدين) .

١٦٧ - ((المجموع شرح المهذب)) : الإمام أبو زكريا محي الدين يحيى النووي (ت ٦٧٦هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت (عشرون مجلداً) .

١٦٨ - ((مجموع الفتاوى)) : شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ) إعداد محمد بن عبد الرحمن بن قاسم .

نشر مكتبة المعارف . المغرب (سبعة وثلاثون مجلداً) .

١٦٩ - ((محاسن التأويل)) (تفسير القاسميّ) : العلامة محمد جمال الدين القاسمي (ت ١٣٣٢هـ) .

نشر دار إحياء الكتب العربية . القاهرة (سبعة عشر جزءاً في عشرة مجلدات) .

١٧٠ - ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)) : أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ) .

تحقيق علي النجدي ناصف والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي .

نشر دار سزكين للطباعة والنشر . استانبول . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٦هـ (مجلدان) .

١٧١ - ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) : القاضي عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسيّ (ت ٥٤٦هـ).

تحقيق المجلس العلمي بفاس .

نشر مطابع فضالة . المغرب . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٣ هـ (ستة عشر مجلداً) .

١٧٢ - ((مختصر تاريخ دمشق)) : التاريخ للإمام ابن عساكر = علي بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) ، والمختصر للإمام ابن منظور الإفريقيّ = محمد بن مكرم (٧١١هـ) .

تحقيق مجموعة من الأساتذة .

نشر دار الفكر . دمشق . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥هـ (تسعة وعشرون مجلداً) .

١٧٣ - ((مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع)) : ابن خالويه = الحسين بن محمد (ت ٣٧٠هـ) .

عنى بنشره ج . برجشستراسر .

نشر دار الهجرة (جزء) .

١٧٤ - ((المدخل إلى التفسير الموضوعي)) : الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد .

نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٤١١هـ (جزء) .

١٧٥ - ((المزهر في علوم اللغة وآدابها)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .

شرح وضبط الأساتذة محمد أحمد جاد المولى بك ، ومحمد أبوالفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوى .

نشر دار التراث . القاهرة . الطبعة الثالثة (جزءان) .

١٧٦ - ((المستدرك على الصحيحين)) : الإمام الحافظ محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ) .

دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١١ هـ (خمسة مجلدات) .

١٧٧ - ((المسلك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر)) : الشيخ محمود شكري الآلوسي (ت ١٣٤٢هـ) .

تحقيق د . عبد الله الجبوري .

نشر دار العلوم . الرياض . سنة ١٤٠٢ هـ (مجلد) .

١٧٨ - ((مسند الإمام أحمد)) : تحقيق الشيخ أحمد شاكر (ت ١٣٧٧هـ) .

نشر دار المعارف . مصر (اثنان وعشرون جزءاً في أحد عشر مجلداً) .

١٧٩ - ((المصاحف)) : الإمام أبوبكر عبد الله بن أبي داود الأشعث (ت ٣١٦هـ) .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥هـ (مجلد) .

١٨٠ - ((مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك)) : د . سعيد عبد الفتاح عاشور .

نشر دار النهضة العربية . بيروت (جزء) .

١٨١ - ((المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية)) : الحافظ ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) .

تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي . نشر دار المعرفة . بيروت (خمسة مجلدات) .

١٨٢ - ((معالم التنزيل)) : محي السنة الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦هـ) .

حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر ، وعثمان جمعة ضميرية ، سليمان مسلم الحرش .

نشر دار طيبة . الرياض . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٩ هـ (ثمانية مجلدات) .

١٨٣ - ((معاني القرآن)) : يحيى بن زياد الفراء(ت ٢٠٧هـ) .

نشر عالم الكتب . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠٣هـ (ثلاثة مجلدات) .

١٨٤ - ((معاني القرآن وإعرابه)) : الإمام أبو إسحاق إبراهيم الزجّاج (ت ٣١١هـ) .

تحقيق د . عبد الجليل شلبي . نشر عالم الكتب . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨هـ (خمسة مجلدات) .

١٨٥ - ((المعجزة الخالدة)) : د . حسن ضياء الدين عتر .

الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٩ هـ (مجلد) .

١٨٦ - ((المعجزة الكبرى : القرآن)) : الشيخ محمد أبو زهرة .

نشر دار الفكر العربي . القاهرة (جزء) .

١٨٧ - ((معجم الأدباء)) : ياقوت الحموي .

نشر دار الفكر . بيروت . الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠هـ (عشرون جزءاً في عشرة مجلدات) .

١٨٨ - ((معجم أعلام الشرق والغرب)) : فرديناند اليسوعي .

مطبوع في ذيل ((المنجد في الآداب والعلوم)) : لمؤلفه لويس معلوف . الطبعة التاسعة عشر . سنة ١٩٥٦م (مجلد) .

١٨٩ - ((معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي)) : الشيخ محمد أحمد دهمان .

نشر دار الفكر المعاصر . ببيروت ، ودار الفكر بدمشق . سنة ١٤١٠هـ (جزء) .

١٩٠ - ((معجم ألفاظ القرآن الكريم)) : تأليف مجموعة من الأساتذة .

نشر مجمع اللغة العربية . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩١ هـ (مجلدان) .

١٩١ - ((معجم البلدان)) : ياقوت الحموي .

نشردار الفكر ودار صادر ، بيروت (ستة مجلدات)

١٩٢ - ((معجم قبائل العرب القديمة والحديثة)) : الأستاذ عمر رضا كحّالة .

نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الخامسة . سنة ١٤٠٥هـ (خمسة مجلدات) .

١٩٣ - ((معجم المولفين)) : الأستاذ عمر رضا كحّالة .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٣هـ (خمسة عشر جزءاً في ثمانية مجلدات) .

١٩٤ - ((معجم متن اللغة)) : العلامة أحمد رضا .

نشر دار مكتبة الحياة . بيروت . سنة ١٣٨٠هـ (خمسة مجلدات) .

١٩٥ - ((معجم مصنفات القرآن الكريم)) : الدكتور علي إسحاق شواخ .

نشر دار الرفاعي . الرياض . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤ هـ (أربعة مجلدات) .

١٩٦ - ((المعجم المفصل في الأدب)) : محمد التونجي .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٣هـ (مجلدان) .

١٩٧ - ((المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي)) : رتبه ونشره مجموعة من المستشرقين .

نشر مطبعة بريل . ليدن . سنة ١٩٦٢م (سبعة مجلدات) .

١٩٨ - ((المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)) : الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (ت ١٣٨٨هـ) .

نشر مؤسسة جمال للنشر . بيروت (مجلد) .

١٩٩ - ((معجم مقاييس اللغة)) : الشيخ أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ) .

تحقيق وضبط الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

نشر شركة مكتبة ومطبعة البابى الحلبي وأولاده . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٢ هـ (ستة مجلدات) .

٢٠٠ - ((معجم النحو)) : الشيخ عبد الغني الدقر .

طبع بإشراف الأستاذ أحمد عبيد .

نشر الشركة المتحدة للتوزيع . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٢ هـ (مجلد) .

٢٠١ - ((المعجم الوسيط)) : تأليف مجموعة من الأساتذة .

نشر مجمع اللغة العربية . القاهرة . الطبعة الثالثة (مجلدان) .

٢٠٢- ((معرفة السنن والآثار)) : الإمام أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) .

خرج أحاديثه وعلق عليه د . عبد المعطي أمين قلعجي .

نشر جامعة الدراسات الإسلامية بكراتشي ، ودار قتيبة بدمشق وبيروت ، ودار الواعي بسورية ، ودار الوفاء بالقاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤١١ هـ (خمسة عشر مجلداً) .

٢٠٣ - ((معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار)) : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) .

حققه الأساتذة بشار عواد معروف ، وشعيب الأرناؤوط ، وصالح مهدي عباس .

نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤ هـ (مجلدان) .

٢٠٤ - ((المغني)) : الإمام عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ) .

تحقيق د . عبد الله التركي ، د . عبد الفتاح الحلو . نشر هجر للطباعة والنشر . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٤١٢هـ (خمسة عشر مجلداً) .

٢٠٥ - ((المغني في تصريف الأفعال)) : د . محمد عبد الخالق عضيمة .

نشر دار الحديث . القاهرة (مجلد) .

٢٠٦ - ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) : الإمام عبد الله بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) .

حققه الدكتور مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله .

نشر دار الفكر . بيروت الطبعة السادسة . سنة ١٩٨٥م (مجلد) .

٢٠٧ - ((مفاتيح الغيب)) : الإمام فخر الدين الرازي = محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) .

نشر دار الفكر . بيروت . سنة ١٤٠٥ هـ (ستة عشر مجلداً) .

٢٠٨ - ((مفتاح السعادة ومصباح السيادة)) : طاشكبري زاده = أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨هـ) .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ (ثلاثة مجلدات) .
٢٠٩ - ((مفتاح العلوم)) : يوسف بن محمد بن علي السكّاكيّ (ت ٦٢٦هـ) .
ضبط الأستاذ نعيم زرزور . نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٣هـ (مجلد) .
٢١٠ - ((مفحمات الأقران في مبهمات القرآن)) : الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
ضبطه وعلق عليه الدكتور مصطفى ديب البغا.
نشر مؤسسة علوم القرآن . دمشق - بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٣ هـ (مجلد) .
٢١١ - ((مفردات ألفاظ القرآن)) : العلامة الراغب الأصفهاني = الحسين بن محمد بن المفضّل (ت ٥٠٢هـ) .
تحقيق نديم مرعشلي . نشر دار الكاتب العربي ، ودار الفكر . بيروت (مجلد) .
٢١٢ - ((مقالات الإسلاميين)) : للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٢٤هـ) .
عنى بتصحيحه هلموت ريتر .
نشر فرانز شتاينر . فيسبادن . الطبعة الثالثة . سنة ١٤٠٠ هـ (جزء) .
٢١٣ - ((مقدمة ابن خلدون)) : العلامة ابن خلدون = عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) .
نشر المكتبة التجارية الكبرى . القاهرة (مجلد) .
٢١٤ - ((مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح)) : الإمام ابن الصلاح = عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري (ت ٦٤٣هـ) .
تحقيق د . عائشة عبد الرحمن ((بنت الشاطئ)) .
نشر مطبعة دار الكتب . القاهرة . سنة ١٩٧٤م (مجلد) .
٢١٥ - ((مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة)) : الراغب الأصبهاني = الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢هـ) .
تحقيق د . أحمد حسن فرحات . نشر دار الدعوة . الكويت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٥هـ (جزء) .
٢١٦ - ((مقدمة في أصول التفسير)) : شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ).
تحقيق د . عدنان زَرْزُور .
نشر دار القرآن الكريم . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٣٩٩هـ (جزء) .
٢١٧ - ((المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط)) : الإمام أبوعمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) .
تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان . نشر دار الفكر . دمشق .سنة ١٤٠٣هـ (جزء) .
٢١٨ - ((مكتبة الجلال السيوطي)) : أحمد الشرقاوي إقبال .
نشر دار المغرب . المغرب . سنة ١٣٩٧ هـ (جزء) .
٢١٩ - ((المكتفى في الوقف والابتدا في كتاب الله عز وجل)) : الإمام أبوعمرو الداني = عثمان بن سعيد (ت ٤٤٤هـ) .
تحقيق د. يوسف المرعشلي . نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤هـ (مجلد) .
٢٢٠ - ((مكي بن أبي طالب وتفسير القرآن)) : د . أحمد حسن فرحات .
نشر دار الفرقان . عمان . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٤هـ (مجلد) .
٢٢١ - ((الملل والنحل)) : الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) .
تحقيق محمد سيد كيلاني .
نشر دار المعرفة . بيروت . سنة ١٤٠٠هـ (مجلدان) .

٢٢٢ - ((المنار المنيف في الصحيح والضعيف)) : الإمام شمس الدين ابن قيّم الجوزية = محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١هـ) .
حققه وخرج نصوصه وعلق عليه الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة .
نشر مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب . الطبعة الثانية . سنة ١٤٠٢هـ (جزء) .
٢٢٣ - ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) : الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الكريم الأشمونيّ .
نشر شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٣٩٣هـ (مجلد) .
٢٢٤ - ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) : الشيخ محمد بن عبد العظيم الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) .
نشر دار إحياء الكتب العلمية العربية . الطبعة الثالثة . القاهرة (مجلدان) .
٢٢٥ - ((المنتخب من مسند عَبْد بن حُميد)) : الإمام عَبْد بن حُميد الكِسِّيّ (ت ٢٤٩ هـ) حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه السيد صبحي البدري السامرائي ، ومحمود محمد خليل الصعيدي .
نشر عالم الكتب . بيروت ، مكتبة النهضة العربية ، ومكتبة السنة بالقاهرة . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٨ هـ (جزء) .
٢٢٦ - ((المنجم في المعجم)) : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) .
تحقيق إبراهيم باجس عبد المجيد .
نشر دار ابن حزم . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٥ هـ (مجلد) .
٢٢٧ - ((منهاج البلغاء وسراج الأدباء)) : حازم القرطاجَنّي (ت ٦٨٤هـ) . تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة . نشر دار الغرب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثالثة . سنة ١٩٨٦م (مجلد) .
٢٢٨ - ((منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية)) ، شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ) .
تحقيق د . محمد رشاد سالم . نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . الرياض . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٦هـ (تسعة أجزاء) .
٢٢٩ - ((المنهاج في شعب الإيمان)) : الإمام الحافظ الحسين بن الحسن الحليمي (ت ٤٠٣هـ) .
تحقيق حلمي محمد فوده . نشر دار الفكر . الطبعة الأولى . سنة ١٣٩٩هـ (ثلاثة مجلدات) .
٢٣٠ - ((المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي)) : يوسف بن تَغْري بَرْدِي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ) .
حققه ووضع حواشيه د . نبيل محمد عبد العزيز .
نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب (ستة أجزاء) .
٢٣١ - ((المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)) المعروف بـ ((الخطط المقريزية)) : تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) .
نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة . الطبعة الثانية . سنة ١٩٨٧م (مجلدان) .
٢٣٢ - ((المواهب اللدنيّة بالمنح المحمدية)) : للعلامة أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣هـ) .
تحقيق صالح أحمد الشامي .
نشر المكتب الإسلامي . بيروت - دمشق - عمان . الطبعة الأولى . سنة ١٤١٢هـ (أربعة مجلدات) .
٢٣٣ - ((ميزان الاعتدال في نقد الرجال)) : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) .
تحقيق الأستاذ علي محمد البجاوي . نشر دار الفكر . بيروت (أربعة مجلدات) .

حرف النون

٢٣٤ - ((النبأ العظيم)) : الدكتور محمد عبد الله دراز (ت ١٣٧٧هـ) .
نشر دار القلم . الكويت . الطبعة الرابعة . سنة ١٣٩٧ هـ .
٢٣٥ - ((النبوات)) : شيخ الإسلام ابن تيمية = أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ت ٧٢٨هـ) .

نشر دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الثانية . سنة ١٤١٤هـ (مجلد) .

((نزهة الأرواح وروضة الأفراح)) = ((تاريخ حكماء الإسلام))[١] .

٢٣٦ - ((نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر)) : الإمام أبو الفرج ابن الجوزي = (ت ٥٩٧هـ) .

دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي .

نشر مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة السابعة . سنة ١٤٠٧هـ (مجلد) .

٢٣٧ - ((نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)) : العلامة عبد الحي الحسنيّ

(ت ١٣٤١هـ) .

نشر دار عرفات رائي بريلي . الهند . سنة ١٤١٢هـ (ستة أجزاء) .

٢٣٨ - ((نسيم الرياض شرح شفا القاضي عياض)) : الشيخ أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت ١٠٦٩هـ) .

نشر المكتبة السلفية . المدينة المنورة (أربعة مجلدات) .

٢٣٩ - ((النشر في القراءات العشر)) : الحافظ أبو الخير ابن الجزريّ = محمد بن محمد (ت ٨٣٣هـ) .

طبع بإشراف الأستاذ علي محمد الضباع (مجلدان) .

٢٤٠ - ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) : برهان الدين إبراهيم بن عمر البِقاعيّ (ت ٨٨٥هـ) .

نشر دار الكتاب الإسلامي . القاهرة . الطبعة الثانية ١٤١٣هـ (إثنان وعشرون مجلداً) .

٢٤١ - ((نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذِكر وزيرها الخطيب الدين ابن الخطيب)) : الشيخ أحمد بن محمد المقَّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) .

حققه ووضع فهارسه الأستاذ يوسف الشيخ محمد البقاعي .

نشر دار الفكر . بيروت . الطبعة الأولى . سنة ١٤٠٦ هـ (أحد عشر مجلداً) .

٢٤٢ - ((نكت الانتصار لنقل القرآن)) : الإمام أبوبكر الباقلاني = محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ) .

تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام .

نشر منشأة المعارف . الإسكندرية (جزء) .

٢٤٣ - ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) : الإمام فخر الدين الرازي = محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) .

تحقيق د . أحمد حجازي السقا .

نشر المكتب الثقافي للنشر والتوزيع . القاهرة . سنة ١٩٨٩ هـ (جزء) .

٢٤٤ - ((نهاية السُّول في شرح منهاج الأصول)) : ((منهاج الأصول)) تأليف الشيخ ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) و ((نهاية السُّول)) تأليف الشيخ جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي (ت ٧٧٢هـ) .

نشر عالم الكتب (أربعة مجلدات) .

٢٤٥ - ((النور السافر عن أخبار القرن العاشر)) : محي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروسيّ : (ت ١٠٣٨هـ) .

ليس في الكتاب ذكر لمكان النشر ولالزمانه ولا لاسم الناشر (مجلد) .

حرف الهاء

٢٤٦ - ((هدية العارفين : أسماء المؤلفين وآثار المصنفين)) : إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادى (ت ١٣٣٩هـ) .

نشر دار العلوم الحديثة . بيروت (مجلدان) .

حرف الواو

٢٤٧ - ((الوافي بالوفيات)) : الإمام صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصفدي (ت ٧٦٤هـ) .

اعتناء س . رينغ . نشر فرانزشتاينر ، فيسبادن . الطبعة الثانية (اثنان وعشرون مجلداً) .

١- لم أضع له رقماً لأنه مضى في حرف التاء وكُرر هنا لأن له اسمين .

٢٤٨ - ((الوحي المحمدي)) : السيد محمد رشيد رضا .
نشر مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر . بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ (مجلد) .
٢٤٩ - ((وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)) : شمس الدين ابن خَلّكان أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ) .
تحقيق الدكتور إحسان عباس . نشر دار الثقافة . بيروت (ثمانية مجلدات) .

حرف الياء

٢٥٠ - ((اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر)) : الشيخ عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٧٣هـ) . طبع عباس ابن عبد السلام بن شقرون . سنة ١٣٥١هـ (مجلد) .

١٧ - فهرس موضوعات الرسالة

الباب الثالث :

منهج المؤلف في كتابه (دراسة تفصيلية)